

كل التاريخ

ISSN: 2090 - 0449

Universal Impact Factor (UIF), 2015.

Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

أول

دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول سبتمبر 2008م

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الاهداء

العدد 34 السنة التاسعة | ديسمبر 2016 - ربيع أول 1438



kanhistorique

www.kanhistorique.org



ISSN 0209-004X

9 770209 004499

- فضيحة الإنسانية في تاريخ فرنسا الأسود
- مرسوم طرد المورسكيين من مملكة بلنسية
- صورة إيطاليا في المصادر التونسية خلال القرن التاسع عشر
- إمارات بني سليمان في المغرب الأوسط بين الوجود والنسيان
- ابعاد السياسي في خطاب مطلة الشؤون الأهلية في المغرب

بهاء الدين ماجه

مدير إدارة الخرائط "السابق"

دار الكتب والوثائق القومية المصرية

دورية كان التاريخية

تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.

ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.

الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين ، أو تنتهك حقوق الملكية ، أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

الإلتزام القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

أعداد الدورية متوفرة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني — الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣

www.nashiri.net

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)

www.archive.org



أ.م. عبده العزيز غورمو

أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية

أكاديمية الجهة الشرقية — المملكة المغربية

أ.م. عائشة عبده العال

أستاذ الحضارة والآثار القديمة

رئيس قسم التاريخ بكلية البنات

جامعة عين شمس — جمهورية مصر العربية

أ.م. فليط مصطفى فرايبة

أستاذ الجغرافيا التاريخية السياسية

نائب عميد كلية عجلون الجامعية

جامعة البلقاء التطبيقية — المملكة الأردنية الهاشمية

أ.م. نهلة انيس مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الدراسات الإنسانية

جامعة الأزهر — جمهورية مصر العربية

أ.م. خالو بلعربي

أستاذ التاريخ الوسيط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الجبالي ليبيا — الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

أ.م. فتحي عبده العزيز محمو

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الباحة — المملكة العربية السعودية (سابقاً)

أ.م. بشار محمو فليط

كاتب وباحث في تاريخ العالم العربي

خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم

الجمهورية العربية السورية

أ.م. عبده الرحمن محمو الحسن

أستاذ الجغرافيا وعميد الشؤون العلمية

جامعة بخت الرضا — جمهورية السودان

أ.د. محمد عبد الرحمن يونس

كاتب وباحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي
عضو هيئة التدريس في عدة جامعات عربية ودولية
الجمهورية العربية السورية

أ.د. ناظم رشم معتوق الإمارة

أستاذ مساعد التاريخ المعاصر
قسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة البصرة — جمهورية العراق

أ.د. محمود أحمد مرويش

أستاذ الآثار الإسلامية
رئيس مجلس إدارة مركز البحوث والدراسات الأثرية
جامعة المنيا — جمهورية مصر العربية

أ.د. علي حسين الشطشاط

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة بنغازي — دولة ليبيا

أ.د. عبد الناصر محمد حسن يس

أستاذ الآثار الإسلامية
كلية الآداب
جامعة سوهاج — جمهورية مصر العربية

أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
نائب عميد كلية الآداب
جامعة إب — الجمهورية اليمنية

د. أنور محمود زناتي

أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية التربية
جامعة عين شمس — جمهورية مصر العربية

د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية — جامعة ابن رشد — هولندا

إسراء المنسي

إيمان محي الدين

محمد عبد ربه

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ،
وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي

سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة
كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير
المعلومة العلمية حول الموضوعات
التاريخية التي تهتم الباحثين ، بأسلوب
أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات
البحث العلمي . وتستهدف السلسلة
الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق
البحث العلمي ، والإعلامي والمُعلم
والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر
الوعي التاريخي.



علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية
ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص
المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها
الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن
العربي.

النشر الورقي

- ① يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية
أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير .
- ② يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات
غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر
باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على
الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. **نحن بانتظاركم**



www.kanhistorique.org

www.historickan.co.nr

جميع الحقوق محفوظة © دورية كان التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٦

دورية كان التاريخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دورية كان التاريخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المتكررة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجودة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دورية كان التاريخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتتفق وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سرّيًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات

- البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالمياً بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

■ عنوان البحث:

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

■ نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسية لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

■ صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

■ ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

■ الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

■ مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

■ المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

■ موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيداً عن الحشو (تكرار السرد).

■ الجداول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

■ الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

■ خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

■ الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية (American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

■ المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ... الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو محتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أٌجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني: info@kanhistorique.org
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: mr.ashraf.salih@gmail.com

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل بموضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت ورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

الوجهة الإنسانية للحضارة الإسلامية

ظهر الإسلام في الجزيرة العربية فكان ثورة إصلاحية عظمى، وخرج العرب المسلمون من شبه الجزيرة ولا حضارة لهم، ثم أنشأوا حضارة جديدة هي أبهى حضارات العالم في العصور الوسطى، لها طابعها الخاص، هو طابع الإسلام واللغة العربية، وهذه الحضارة الإسلامية التي بلغت أوج كمالها في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) هي التي جعلت العصور الوسطى عصوراً مضيئة.

والآن؛ تتنوع أجناس ولغات وشعوب العالم الإسلامي وتختلف المستويات الاجتماعية والنظم السياسية، إلا أنه عالم يقدم نفسه في شكل وحدة روحية وحضارية واحدة، فإذا بحثنا في مظاهر عالمية الحضارة الإسلامية في بعض معطياتها المادية وبخاصة الآثار والفنون الإسلامية على اختلاف أنواعها، نجد أنها تعكس وحدة فنية وحضارية عالمية في التعبير، ولكنها خاصة في التفكير، ونجد ذلك واضحاً في المساجد والنقوش الإسلامية والزخرفة وغيرها. إن الفن ليس إلا وجهاً من أوجه أية حضارة إنسانية، فنرى الفن الإسلامي يختلف اختلافاً بيناً عن الفنون العالمية القديمة كالفن الهلنستي أو البيزنطي، حيث مزج الفن الإسلامي كل فنون البلاد التي خضعت للفتح الإسلامي وأذاب مكونات عناصرها في سائل الفكر الديني الإسلامي.

لقد استطاعت فنون العمارة والزخرفة الإسلامية على مر العصور التعبير عن فكرة عالمية الحضارة الإسلامية، فالعناصر الإسلامية جذبت انتباه الذين لا ينتمون إلى عالم الإسلام بجمالها وروعة بنائها، لقد كانت هذه العناصر بمثابة تعبير حضاري يستطيع الناظر إليها أن يتعرف من خلالها على الحياة السياسية، والثقافية، والتعليمية لأهل الإسلام، لأنها ليست مجرد مجموعة من القباب والمآذن التي تُزينها زخارف الأرابيسك حفرًا أو رسمًا، ولكنها تعكس ثقافة فنية امتدت ووحدت أقطاراً من أطراف الصين (شرقاً) وحتى إسبانيا (غرباً).

لقد حدد القرآن الكريم خصائص عالمية الأفق والرسالة لهذه الحضارة؛ فقد أعلن عن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه، ومواطنه، في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ)، إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق، والخير، والكرامة، جعل حضارته عقدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفتخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة إلا الحضارة الإسلامية، فإنها تفتخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب؛ فأبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وسيبويه، والكندي، والغزالي، والفارابي، والبيروني، وابن رشد... وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

ولم تحفل الحضارة الإسلامية بالحدود الجغرافية، الأمر الذي طبعها بطابع السيولة، فقد ضمت مناطق جغرافية متباعدة في آسيا وأفريقيا وأوروبا لم تحل دون نبع الحضارة ليغمر كافة بقاع العالم الإسلامي. فإذا نظرنا للحضارات السابقة على الإسلام فنجدها وقد عرفت كل الحواجز التي أقامتها بين الفئات المختلفة من رعاياها، فالحضارة الرومانية فرّقت في الحقوق بين سكان روما وسكان سائر إيطاليا، ثم بين الرومان وسائر رعايا البلاد المفتوحة، وبين الذين خضعوا للإمبراطورية ومن كانوا خارجها الذين دعتهم "برابرة"، أما حضارة الإسلام فقد أزال الحواجز النفسية والمكانية بين أبنائها في مختلف أنحاء العالم فكانت بحق إنسانية عالمية، وبشهادة أعلام دارسي الحضارة في أوروبا من أمثال جورج سارتون، ول ديورانت، أرنولد توينبي، وألدوميلي.

أما الوجهة الإنسانية للحضارة الإسلامية، فكانت ساطعة في ظاهرها المعطاء الخدوم، حيث شمل محيطها الواسع كافة الجوانب المادية والمعنوية بكل ما تعنيه هاتان الكلمتان من معان رحبة. فلم تظهر على وجه البسيطة حضارة قدمت نتاجها العلمي، واختراعاتها، واكتشافاتها لخدمة البشرية وبمصادقية تامة كالحضارة الإسلامية، التي كرّست نفسها وعلماءها لترويج وتيسير الحضارة والتقدم والازدهار، مع الأخذ بنظر الاعتبار حاجة العلم المعنوية والمادية بتنسيق بارع وبغاية الدقة.

رئيس التحرير

انعكاسات السياسة الاستعمارية على العلاقات بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس ١٨٣٠-١٩٥٤

د. رضوان شافو

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الوادي - الجمهورية الجزائرية



مُلخَص

تتناول هذه الدراسة انعكاسات السياسة الاستعمارية على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس (١٨٣٠-١٩٥٤م)، مبرزين من خلالها طبيعة العلاقات بين الجزائر وتونس خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وأهم مظاهر التواصل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعسكري بين المنطقتين، حيث وصل هذا التواصل إلى حد الانصهار التام من خلال الهجرة المتبادلة والحركة التجارية بين الشعبين، والتعاون العسكري بين مختلف القبائل الحدودية الجزائرية - التونسية ضد القوات الفرنسية، وهذا ما عبرت عنه السلطة الفرنسية في تقاريرها الإدارية والعسكرية الشهرية، كما تضمنت الدراسة أيضًا أهم انعكاسات السياسة الاستعمارية الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية على العلاقات بين المنطقتين، حيث طبقت السلطة الفرنسية أساليب ووسائل قمعية لتقييد حركية التنقل والهجرة، وكذا الحركة التجارية والعلمية، وتضييق الخناق على منابع المقاومة على الحدود الجزائرية - التونسية.

كلمات مفتاحية:

تاريخ الجزائر الحديث، تاريخ تونس الحديث، الاستعمار الفرنسي، الطرق الصوفية، حركة الهجرة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ ديسمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٣٠ مايو ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رضوان شافو. "انعكاسات السياسة الاستعمارية على العلاقات بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس (١٨٣٠-١٩٥٤)". - دورية كان التاريخية. - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ٩ - ١٩.

مُقَدِّمَةٌ

على خلاف المواقف الرسمية للبايات التونسيين التي كانت مغايرة للمواقف الشعبية التونسية، إذ تعاون بعض البايات التونسيين مع ضباط الحملة الفرنسية على الجزائر بعد أن أغروهم بتعيين أميرين تونسيين من العائلة الحسينية على كل من بايلك قسنطينة وبايلك وهران، واثأروا فيهم رغبة التوسع دون أن يكون في استطاعتهم ذلك، ودون أن يعرفوا بالضبط الأغراض والأهداف الاستعمارية لأولئك الضباط الفرنسيين. وانطلاقاً من هذا السياق التاريخي انشغلنا العلمي الذي سنعالجه في هذه الدراسة بعد التطرق إلى طبيعة العلاقات بين الجزائر وتونس خلال فترة الاحتلال الفرنسي ومظاهر التواصل

لقد جمعت بين المنطقتين الجزائر وتونس أواصر الصداقة وعمق الصلات الحضارية عبر العصور التاريخية القديمة والحديثة والمعاصرة، وذلك بحكم الروابط الدينية والاجتماعية والاقتصادية، والتقارب الجغرافي حيث شهدت العلاقات بينهما تعايشاً وانفتاحاً وتضامناً كبيراً بين الشعبين، ويتجلى ذلك بوضوح خلال الفترة الاستعمارية، وذلك منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م، حيث أبدى الشعب التونسي تضامنه وتعاطفه مع الشعب الجزائري وفتح بيوته وأراضيه لاستقبال المهاجرين الجزائريين الفارين من بطش الاستعمار الفرنسي،

بين منطقتي الجنوب الشرقي الجزائري وتونس هو: ما هي أهم انعكاسات السياسة الاستعمارية على العلاقات بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس (١٨٣٠-١٩٥٤) ؟

أولاً: مظاهر التواصل بين المنطقتين

على الرغم من المواقف الرسمية التونسية، إلا أن مظاهر التواصل بين الشعبين في الفترة الاستعمارية وصلت إلى قدر كبير من الانفتاح ، حيث ألغى هذا التواصل كل الحدود الجغرافية التي تفصل بين المنطقتين، وخصوصاً مناطق الجنوب الشرقي الجزائري والجريد التونسي، والتي عبرت عنها التقارير الفرنسية بالانصهار التام بين مختلف القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية، وهذا ما أكدته الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه "أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر" قائلاً: "بأن مناطق الجنوب الشرقي الجزائري كانت تتحرك بدون حدود إلى حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فمنطقة الزيبان والجريد ووادي ريغ وسوف كانت تشكل وحدة متكاملة اقتصاديًا واجتماعيًا وروحياً وثقافياً، وكان لانتشار الطرق الصوفية فيها دوراً في صنع هذه العلاقات"،^(١) الأمر الذي دفع بالسلطة الاستعمارية إلى الإدراك بأهمية الطرق الصوفية والزوايا ودورها الاجتماعي والثقافي والسياسي في التواصل بين المنطقتين، لذلك أصدر الحاكم العام منشور سنة 1847م لمراقبة الزوايا وأتباعها، حيث يذكر دونوفو (De neuveu) بأن: "...الزوايا أرسلت قواعد لعلاقات بين الأفراد، فصارت أداة اتصال فائقة السرية".^(٢) فقد نجحت الزاوية الرحمانية العزوية بقيادة مصطفى بن محمد بن عزوز، والقادرية بقيادة محمد بن إبراهيم بن أحمد بالجريد التونسي بتفعيل التواصل الروحي مع منطقة الجنوب الشرقي الجزائري من خلال تعليم وتخرج عدد كبير من المثقفين والمعلمين، وأتباع الطريقة في المنطقة، كما اتخذ العديد من مشايخ الطريقة بالجنوب الشرقي الجزائري من الجريد منطلقاً في نضالهم ضد الإستعمار الفرنسي ومنهم ابن الناصر بن شهرة أحد أتباع القادرية، والذي التجأ إلى نفطة وتوزر بالجريد بعد دخول الفرنسيين الأغواط سنة ١٨٥٣م، واتخذها منطلقاً لشن هجومات على الفرنسيين في الجزائر، بالإضافة إلى إقامة الأمير عبد القادر فيها بعد ثورة ١٨٧١م، كما عملت القادرية على تحريض سكان الجريد وقبائل النمامشة على الالتحاق بصوف المقاومين.^(٣)

زيادة على ذلك كانت الأراضي التونسية ملاذاً آمناً للمقاومين الجزائريين في الصحراء الجزائرية على أمل تجديد المقاومة ضد الفرنسيين، حيث تذكر التقارير الفرنسية أن شيخ الحناشة محمد الحسناوي بن بلقاسم التجأ إلى تونس بعد فشل مقاومة كلا من الأمير عبد القادر وأحمد باي،^(٤) كما انسحب آخر سلاطين بني جلاب سلمان بن علي الجلابي بعد سقوط إمارته واحتلال تقرت سنة ١٨٥٤م إلى منطقة نفزاوة ، ثم

إلى توزر بمنطقة الجريد التونسي، وهذا ما حدث أيضاً مع المقرانيين عندما فشلت مقاومة المقراني والحداد سنة ١٨٧١م، حيث انسحبوا إلى الجنوب الشرقي الجزائري ثم التجؤا إلى تونس، كما ظهر محي الدين بن الأمير عبد القادر بالجهة الشرقية من تونس في شهر أكتوبر ١٨٧٠م، ليُستقبل استقبالاً حافلاً مع تكريمه يوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٠م من قبل الباي التونسي، فاعتنق محي الدين هذه الفرصة ووجه مائتي رسالة إلى زعماء المقاومة الشعبية في الجزائر يدعوهم فيها إلى تنظيم الصفوف والاستعداد لمحاربة العدو عند قدومه إليهم من تونس.^(٥) ويذكر يحي بوعزيز أن أكبر دعم شعبي تونسي للمقاومين الجزائريين بتونس، صباحية زمالات الحدود الشرقية والكلوتي والمقرانيين وبن ناصر بن شهرة عام ١٨٧١م، الذين وزعوا في عدة جهات من تونس خاصةً بعروش دريد، وقدمت لهم إسعافات مساعدات مادية كالأغذية والخيام.^(٦)

وبخصوص التواصل الاجتماعي، فقد شكلت الهجرة الجزائرية إلى تونس عمق أواصر الأخوة والصداقة وحسن الجوار، فقد دفعت هذه الهجرة إلى مد جسور العلاقات الاجتماعية بين الشعبين، وذلك مقارنة مع الجاليات العربية الأخرى المقيمة، حيث قدر الوزير الأول خير الدين باشا عدد الجالية الجزائرية عام ١٨٧٦م بحوالي ١٥٠٠٠ جزائري، بينما تقديرات القنصل الفرنسي روستون (Rouston) حوالي ١٦٦٠٠ مهاجر، حسب الرسالة التي أرسلها إلى المقيم العام في الجزائر بتاريخ ١٤ أوت ١٨٧٦م.^(٧) وبخصوص هجرة سكان الجنب الشرقي الجزائري نجد أن سكان ورقلة ووادي سوف وتقرت كانوا يهاجرون في مجموعات يتراوح عددها بين ١٠ و١٢ فرداً، بينما سكان ميزاب كانوا يهاجرون في مجموعات قد تصل إلى خمسين فرداً أحياناً.^(٨)

ومن المهن التي اشتغلوها، عمال في بيوت الأغنياء، وعمال في الحمامات، والمناجم، والمطاعم، حراس، ونوادل في المقاهي، وأعمال الشحن والتفريغ للسلع خاصة في الموانئ، وكان استقرارهم وتمركزهم بتونس العاصمة وبالتحديد في سوق العطارين، وسوق الكبابجية، رأس الدرب، رحبة الغنم، شارع الزاوية الكبرى والعلوية،^(٩) كما تجدر الإشارة إلى أن الوزارة الكبرى كانت تعين الشيوخ على كل جالية في تونس وفقاً لمراسيم تنظيمية، ففي ٢٦ جويلية ١٩١٩م صدر مرسوم بتولية ستة مشايخ جزائريين على رعاياهم منهم: جلول بن الحاج محمد بن رمضان، شيخ الورقليين، أحمد بن محمد بن صالح، شيخ التواتيين، الحاج علي بن عمر بن باكير، شيخ الميزابيين، علي بن سلطان بن بلقاسم، شيخ السوافة.^(١٠)

أما التواصل الاقتصادي، فقد شكلت منطقة الجنوب الشرقي الجزائري بموقعها الجغرافي المتميز، وتبادلها التجارية؛ حلقة متينة في ربط وتعزيز حركية التواصل الاقتصادي مع تونس، ولم تكن تعرف الحدود السياسية الفاصلة بينهما رغم آليات العزل

(جزائرية - تونسية) للمطالبة باستقلال البلدين، وفي إطار التحضير للثورة المسلحة حرصت حركة الانتصار للحريات الديمقراطية على تنسيق العمل العسكري ميدانيا بين البلدين، وأرسلت الأمين دباغين إلى تونس للتباحث مع المناضلين التونسيين في أمر تشكيل منظمة سرية في تونس تنسق عملها مع المنظمة السرية الجزائرية، بعد اندلاع الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤م، حيث تلاحمت دماء أبناء الشعبين جنبًا إلى جنب خلال مرحلة الكفاح التحرري، حيث أبدى التونسيين تضامناً عريضاً مع ثورة الجزائر وقدموا لها أشكالاً مختلفة من الدعم والمؤازرة.

ثانياً: انعكاسات السياسة الاستعمارية على المنطقتين

١-٢/ اقتصاديًا:

- **ترسيم الحدود وتقييد حركة التواصل:** نتيجة لعفوية حركية تنقل الأشخاص بين المنطقتين، والذي بات يشكل هاجسًا أمنيًا واقتصاديًا على تواجد الفرنسيين بهذه المناطق، سارعت السلطة الاستعمارية منذ ١٨٤٣م إلى وضع خارطة جغرافية للصحراء الجزائرية للفصل بينها وبين الدول المجاورة، إذ نشر الرائد دوماس (Daumas) أول خارطة للصحراء الجزائرية بإشراف الجنرال بيجو، حيث عينت فيها الحصون والأبراج العسكرية المشرفة على التل والصحراء، وحددت حدودها الجنوبية في خط منكسر يمر عبر نفطة، وادي سوف، ورقلة، عين صالح،^(١٣) وفي عهد المارشال راندون (Randon) الذي وصف عفوية التنقل بين الاعراس والقبائل الحدودية بحالة الانصهار التام، معتبرًا أن الخط الحدودي بين الجزائر وتونس والذي ساهم في انجازه بين ١٨٤٣ و ١٨٤٥م لم يكن في الواقع سوى حدود وهمية لاحقيقية، لكون أن كل الجهات مفتوحة، والأشخاص المرتحلون يستقرون في أي منطقة دون مراعاة للحدود.^(١٤) وبعد احتلال تونس سنة ١٨٨١م، ونتيجة للهجرة والتجارة غير القانونية وخاصة تجارة البارود، وتشارك الجزائريين والتونسيين في مقاومة الفرنسيين، أصدرت السلطة الاستعمارية بصفة نهائية مرسوم في ٢٤ جويلية ١٨٩٠م ينص على ترسيم التخوم الجزائرية- التونسية كما يلي: الجهة الشمالية الشرقية شملت القالة، الطارف، سوق أهراس، أما الجهة الجنوبية الشرقية شملت تقرت ووادي سوف. ولتقييد حركية التنقل والتواصل بين المنطقتين ألزمت السلطة الاستعمارية الأهالي على طلب تراخيص التنقل من أجل السفر أو العمل أو التجارة، وهي سياسة طبقتها فرنسا في كافة مستعمراتها، وكان الهدف منها، هو الحد من ظاهرة الهجرة الغير قانونية، وتضييق الخناق على المقاومين المعارضين للفرنسيين، ولتشديد الرقابة على المسافرين وضبط توجهاتهم، وكل من لا يملك رخصة التنقل فهو مخالف للقانون، وبالتالي وجبت معاقبته من طرف العدالة الفرنسية بالسجن أو بدفع غرامة مالية، ولأنه بدون هذه الرخصة لا يسمح لهم بممارسة تجارتهم و أعمالهم مثلًا في المناطق الخاضعة لفرنسا. وتجدر الإشارة إلى أن

والمقاطعة والممناعة التي فرضها الإستعمار الفرنسي على سكان الحدود الجزائرية-التونسية، إذ أن التنقل بين المنطقتين كان يتم بصورة عفوية. وقد ساهم التبادل التجاري بين المنطقتين في قيام علاقات تجارية واقتصادية مميزة، أغنت كثيرًا محدودية المصادر الاقتصادية للمنطقة الجنوب الشرقي وخصوصًا منطقة وادي سوف، حيث كانت تونس باستمرار متنفسًا حقيقيًا لاقتصاد سوف، كما أنها استفادت مقارنة بليبيا بالنسبة لوادي سوف بامتياز القرب الجغرافي وتشابه النظام السياسي في كلا البلدين بحكم سيطرة فرنسا على كلا البلدين سواء كان ذلك على شكل حماية أو استعمار، كما أنها عوّضت على المنطقة انهيار علاقتها التجارية مع غدامس والأقاليم الطرابلسية خاصة في فترة الاحتلال الإيطالي بعد أن كانت في السابق تمثل الجزء الأكبر من تجارة سوف مع مناطق الجنوب، وكانت منطقة تبادل وتجارة هامة.^(١١) بالإضافة إلى ذلك؛ فقد ساهم الجالية الجزائرية في تونس بدفع الضرائب التونسية ومنها ضريبة المجرى، التي كان يدفعها الجزائريون كغيرهم من المواطنين التونسيين والتي قدرت بـ ٦٠ فرنكًا في النصف الثاني من القرن العشرين وتعرف بضريبة المساهمة وهي إجبارية على الأشخاص البالغ أعمارهم ما بين الثمانية عشر والستين غير أن الاحتلال الفرنسي للجزائر والتوسع والتغلغل الاستعماري نحو عمق الصحراء الجزائرية حاول تمزيق هذه العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لأنها باتت تشكل تهديدًا وخطرًا أمام التوسع الاستعماري في شمال ووسط إفريقيا، لكون أنه من بين أهداف السلطة الاستعمارية آنذاك هو ربط المستعمرات الفرنسية في إفريقيا ببعضها البعض، وتسهيل عملية تنقل الجيش الفرنسي، والسيطرة على الطرق التجارية الصحراوية، هذا بالإضافة إلى السبب الرئيس في قطع هذه العلاقات هو إضعاف روح المقاومة الجزائرية واحتواء زعمائها، وذلك بحصار تونس عسكريًا واقتصاديًا من ناحية الجنوب الشرقي الجزائري بحكم التبادلات التجارية والعلاقات الاجتماعية بين منطقتي الجريد التونسي ووادي سوف تمهيدًا لفرض الحماية عليها.

وعلى الرغم من احتلال تونس وفرض الحماية عليها سنة ١٨٨١م، إلا أن أواصر الأخوة والتضامن بين الشعبين بقيت مستمرة من خلال التنسيق بين حركات المقاومة الوطنية منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ويتجلى هذا بوضوح من خلال دعم شيخ الطريقة الرحمانية بنقطة الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز لثورة بن غداهم سنة ١٨٦٤م، ومع بداية القرن العشرين الميلادي تضامنت وتعاونت الحركات السياسية بمختلف تشكيلاتها بين البلدين وحاولت أن تنسق مقاومتها السياسية ضد الاستعمار الفرنسي، وذلك مثلما حدث سنة ١٩١٩م أثناء عقد مؤتمر الصلح، حيث تشكلت لجنة مشتركة

الفرنسي لابلاس (Laplace) إلى المشير أحمد باي مفادها أن مجموعة من الجزائريين كانت تتعقبهم السلطات الفرنسية دخلوا إلى تونس من منطقة كاف الطبول ومن بينهم "صالح بن دالي" طالباً منه تعقب هذه المجموعة وإلقاء القبض عليهم، مع تذكير قايد الفراشيش بعدم استقبال وإيواء الفارين الجزائريين وطردهم من منطقته إن حلوا بها.^(١٩)

ومن بين الشخصيات الجزائرية التي أُلقيت السلطة الاستعمارية نجد الحسن بن عزوز خليفة الأمير عبد القادر بالزيان والصحراء الشرقية، فقد جاء في رسالة أرسلها إلى الباي حمودة باشا ناصحاً له فيها قائلاً: "...كن فطناً ليبيّاً عاقلاً، وانظر عاقبة الأمور من جانب الكفرة، ولا تظنّ ودّهم من جانب الحب، بل من جانب المكر والخديعة لا غير وما شغلهم عنكم إلا نحن ولولا نحن لرجعوا إليكم، وها نحن مشغولون لا بهم وأنت منا والينا والحب بيننا ولا حق ينفك أبداً والسلام معاذ عليكم".^(٢٠)

هذا بالإضافة إلى شخصية الشريف محمد بن عبد الله بتونس، الذي مثّن علاقاته بكثير من اللاجئين الجزائريين، وأخذ رفقة ناصر بن شهرة يشنون الغارات على الأعوان الفرنسيين داخل الحدود الجزائرية، وكثيراً ما كان يشاركه في هذا العمل مقاومون لاجئون آخرون خاصة محمد بوعلاق البعقوبي، فتضايقت السلطات الفرنسية والتونسية من هذه الهجمات، وأمرت بطردهم واستخدام القوة ضدهم، وهذا ما تؤكده مجموعة من الرسائل أهمها: رسالة من المشير أحمد باشا باي تونس إلى قنصل فرنسا بتونس، والمؤرخة في ١٠ رمضان ١٢٧٠هـ الموافق لـ جوان / يونيو ١٨٥٤م، والتي جاء فيها:

(الحمد لله وحده من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الأمور إليه المشير أحمد باشا صاحب المملكة التونسية إلى معاهدنا ذي الافتخار الأكبر الكولير بكلار المكلف بأمور الدولة الفرنسية والقنصل جنرال باحضرنا تونس أما بعد: فإن رجلاً من تلمسان اسمه الشريف محمد بن عبد الله قدم إلى أطراف بلادنا من ناحية الجريد، وأمرنا بطرده وإبعاده، وعدم قبوله ثم نخرّب بمن معه، وأغار على الفطارية من رعينتنا ما بين نفطة وتوزر، وأخذ لهم قدر ثلاثين بغيراً ووقعت بينهم القتلى والجرحى وهو من القائمين على الحكم بالجزائر، فأردنا أن نغصبه على البعد من عمالتنا تحفظاً من فتنته ونخلص منه ما أخذ، وإن لم يبعد إذن بحربه، فأعلمناكم ليكون ذلك على ذكركم، فإننا لا نأوي الظالمين في عمالتنا، ولو يصدر منهم ضرر في عمالتنا أخرى مع الضرر. ودمتم في أمن الله تعالى وكتب في رمضان المعظم من سنة ١٢٧٠هـ).^(٢١)

وجاء في رسالة أخرى من المشير أحمد باشا باي تونس إلى القنصل العام الفرنسي بتونس، والمؤرخة في ٢١ جمادى الثانية ١٢٧٠هـ الموافق لـ مارس ١٨٥٤م، ما يلي: (الحمد لله وحده. من

السلطة الاستعمارية كانت قد خولت بعض القياد صلاحية إعطاء (رخصة) التنقل والسفر من أجل فرض سلطتهم على الأهالي.^(٢٢)

- تقنين الحركة التجارية: إن الاهتمامات التجارية للسلطة الاستعمارية في الصحراء الجزائرية كانت حاضرة منذ بداية توسعاتهم نحو الجنوب الجزائري إذ جاء: (إن الاهتمام الأساسي لـ راندون (Randon) أن البحث عن سوق للعلاقات التجارية مع السودان حسب رأيه، والوصول إلى تبادل تجاري مع القوافل الرحل، التي تتبادل معها المنتجات الصناعية وتعطيها الآلات)^(٢٣)، لذلك فإن التغيرات التي أحدثتها السلطة الاستعمارية بخصوص تشديد المراقبة والتفتيش وإنشاء أبراج عسكرية والتعقيدات الجمركية، ومنع السفر إلا برخصة، ومراقبة الأنشطة التجارية، خلف أثر سلبيّاً على حركية التواصل الاقتصادي بين المنطقتين، إذ ارتفعت الأسعار نتيجة نقص المواد الغذائية، وفرضت ضرائب على السلع المتبادلة بين المنطقتين، الأمر الذي نتج عنه انتعاش تجارة التهريب كحل لانتقاد الأسواق المحلية من لهيب الأسعار.

ويبدو أن سر السيطرة الاستعمارية على حركية التبادل التجاري، هو لسد المنافذ أمام تطور المقاومة الشعبية بالتخوم الجزائرية -التونسية، وفرض حصار على أسواق السلاح (البنادق، والبارود، والسروج، وألجمة الأحصنة والبالغ والجمال) ضد بوشوشة وأنصاره التي كان مصدرها مالطة، تونس بواسطة تجار اليهود المالطيين والإيطاليين في موانئ صفاقص وسوسة، ونابل وغيرها، والتي كانت تجد طريقها إلى الجزائر عبر نفطة ثم وادي سوف، تقرت ثم إلى بقية مناطق الجنوب الشرقي الجزائري.^(٢٤) زيادة على تقييد حركية التبادل التجاري عملت السلطة الاستعمارية على مصادرة الأراضي الفلاحية بالنسبة لبعض القبائل الحدودية والتي شاركت في مقاومة للاحتلال الفرنسي لتونس، في إطار العقوبات الجماعية التي تضمنها قانون الأهالي سنة ١٨٧١م، كما تم إجبار الأشخاص الممارسين للنشاط الفلاحي الحصول على رخصة القيام بنشاط فلاحى من السلطات الاستعمارية وهذا بعدما يتم دفع ضريبتى الحكر الخاصة بالحرث، والعزيب الخاصة بالرعي.^(٢٥)

٢/٢ - عسكرياً:

- ملاحقة المقاومين الجزائريين على الأراضي التونسية:

تذكر بعض الوثائق التاريخية بأن تونس قبل وأثناء احتلالها كانت من أهم الملاجئ الآمنة للمقاومين الجزائريين، وأهم قاعدة خلفية للتموين والدعم اللوجيستيين، حيث استغل اللجئون والمنفيون الجزائريون تواجدهم بتونس، وأعادوا تنظيم الصفوف وجمع الأتباع والأنصار للقيام بهجمات على الفرنسيين داخل تونس وعلى بعض المواقع الحدودية الجزائرية القريبة من تونس، الأمر الذي أقلق السلطات الفرنسية ودفع بهم إلى مراسلة البايات التونسيين، فقد جاء في شكوى من القنصل

وتضمن الأمن للمعمرين الفرنسيين والأوروبيين، وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة سكان الصحراء من جهة ثانية، ومنه بسط نفوذه على الشريط الواقع ما وراء الأطلس الصحراوي، ومن أبرز الأبراج العسكرية على الحدود الجنوبية الجزائرية التونسية، وخصوصاً ما بين وادي سوف والجريد التونسي نجد: برج الديلة، برج الحاج قدور، برج العدل، برج سوشة اليهودي، أما بخصوص ما بين تقرت ووادي سوف نجد: برج مقلته، برج فرجان، برج مويت القايد، ونجد ما بين بسكرة ووادي سوف برج الشقة، برج مقيقرة، برج الحمراية، برج المنادي، برج بوشحمة، برج المجير^(٢٦) ومن ناحية نمط بنائها فهي بنايات صغيرة، وتغطيها قبائها ميزة خاصة، وتحتوي على مسكن للحارس المكلف بحراسة الآبار القريبة، ويفتح هذا البرج للمسافرين وخصوصاً الضباط العسكريين والموظفين ويخضع كل ذلك لنظام محدد.^(٢٧)

أما من جهة الجريد التونسي، فتذكر الوثائق التاريخية أن الحكومة التونسية كانت قد أنشأت مجموعة من الأبراج العسكرية على الشريط الحدودي بين الجزائر وتونس، وهذا بسبب الضغوطات والتهديدات الفرنسية على الحكومة التونسية بملاحقة الجزائريين الفارين، خاصة لما ظهر دعاة جزائريون وتونسيون في واحات وادي سوف ووادي ريغ يحثون الناس على حمل السلاح لمقاومة جيش الاحتلال الفرنسي، وعلى تقديم العون للمقاومين التونسيين بتونس، فاضطرت السلطات الفرنسية إلى فرض مراقبة وحراسة شديدة على منطقة الحدود من القالة وعنابة شمالاً إلى ما وراء تبسة جنوباً وبث عملاتها في الواحات الجنوبية ليتصدوا لهؤلاء الدعاة النشطين^(٢٨)، كما دفعت عملاتها وجواسيسها لإثارة المشاكل مع التونسيين لتجد الفرصة للتدخل، وضغطت على الحكومة التونسية حتى أرغمتها على تنظيم لقاء معها في ذراع خرون للفصل في تلك المشاكل التي أثارها عملؤها^(٢٩)، وتلبية لضغوطات السلطة الفرنسية قامت الحكومة التونسية سنة ١٨٤٧م في عهد المشير أحمد بوضع أربعة قطع مدفعية بمدينة الكاف لتشديد الرقابة العسكرية، وفي عهد الباي محمد الصادق (١٨٥٩ - ١٨٨٢م) تم إصلاح بناء بعض الأبراج والثكنات العسكرية.^(٣٠)

غير أن فشل الحكومة التونسية في إيجاد حل أممي على المناطق الحدودية وخصوصاً في ترويض القبائل الحدودية المعارضة للبايات التونسيين، والذين شاركوا إلى جانب الجزائريين في مقاومة الاحتلال الفرنسي دفع بالسلطة الاستعمارية إلى احتلال تونس سنة ١٨٨١م، وإخضاع هذه الأبراج العسكرية لسلطة الفرنسيين بمقتضى معاهدة الحماية، وأنشأت فرقاً خاصة على طول المناطق الحدودية لتشديد المراقبة على امتداد ١٢٠ كلم، وأهم هذه الأبراج العسكرية بمنطقة الجريد التونسي نجد: برج قرباطة، برج القويقله، برج

عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الأمور إليه المشير أحمد باشا صاحب المملكة التونسية إلى معاهدنا ذي الافتخار الأكبر الكولير بكادر المكلف بأمور الدولة الفرنسية والقنصل جنرال باحضرتنا تونس أما بعد: فإنه بلغنا كتابكم في شأن الرجل الشريف الذي قدم من الغرب، والجواب إننا سمعنا به قبل أن نخبرنا وفي الحين كاتبنا أمير اللواء ابننا أحمد زروق بطرده وعدم قبوله في عمالتنا، هو ومن معه وأذناه ببعث له ليرحل من غرب عمالتنا، كما هو شأن المحبة والمواقفة بين الدولتين، وأما محمد بن القاضي الذي بنفزاوة فإننا نخاطب عامل الجريد بأن يخاطبه بالرحيل إلى دواخل العمالة، والبعد عن شبه الفساد، وإلا يخرج من عمالتنا ودمت في أمن الله، وكتبت في ٢١ جمادى الثانية ١٢٧٠هـ.^(٣١)

زيادة على شخصية ناصر بن شهرة الذي كان يتنقل بين واحات ورقلة ووادي ريغ ووادي سوف والجريد التونسي، وقد متن هو الآخر صلاته باللاجئين الجزائريين وبعض التونسيين الذين نسق معهم المقاومة ضد الفرنسيين أبرزهم محمد بن بو علاق اليعقوبي زعيم أولاد يعقوب، الأمر الذي اقلق السلطة الاستعمارية والتي راسلت الباي التونسي في رسالتين، الأولى كانت من قنصل فرنسا بتونس إلى المشير الصادقي باي تونس، والمؤرخة في ٣١ أكتوبر ١٨٦٠م، يعطي الإذن فيها بإلقاء القبض على ناصر بن شهرة الذي قام بغارات على دواوير أولاد رشيش^(٣٢). والثانية كانت من الحاكم العام بالجزائر إلى قنصل فرنسا بتونس، والمؤرخة في ٢٨ أكتوبر ١٨٦٠م، جاء فيها: (نعرف جنابكم بأنه بلغ لي مكتوب بالتلغراف من الجنرال حاكم عمالة قسنطينة هذا نصه: بلغني أن جماعة ناصر بن شهرة بعد أن غزا السوايد واتجهوا لجهة الشرق ونزلوا على دواوير أولاد رشيش النازلين في وازرن وغزوهم. وبلغني هذا الخبر إجمالاً ولم يبلغني تفصيل عن ذلك).^(٣٣) وإزاء اشتداد مشاركة الجزائريين في المقاومة المسلحة بتونس وكثرة اقتنائهم للأسلحة داخل الجزائر تخوف الفرنسيون كثيراً وتوقعوا نشوب معارك واضطرابات وانتفاضات فحشدوا ثلاثة عشر ألف جندي في مدينة تبسة قرب الحدود خلال شهر جويلية ووضعوا مشروعا لاكتساح كافة مناطق عمالة قسنطينة إلى منطقة القيروان بتونس للتتبع الثوار والمقاومين والقضاء على نشاطهم.^(٣٤)

- إنشاء الأبراج والثكنات العسكرية للتفتيش والمراقبة:

من جهة الجنوب الشرقي الجزائري وبعبدا تم احتلال كلا من منطقة الزيبان وورقلة ووادي ريغ ووادي سوف، ونظراً لعدم استقرار الأمن بهذه المناطق نتيجة للمقاومات الشعبية، وخصوصاً بعد مقتل الرحالة فلاترس (Flatters) في ١٦ فيفري ١٨٨١م من طرف مقاومي التوارق، سارعت السلطة الاستعمارية إلى إنشاء أبراج عسكرية في بعض المناطق الاستراتيجية الرئيسة، والتي تتحكم في مرور القوافل التجارية من جهة،

العسة، برج ناظور السبع، برج الحميمة، برج حيدرة، برج النفیضة.^(٣١)

٣/٢ - اجتماعيًا:

- **تقييد حركة الهجرة:** لقد تعددت الأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة الهجرة الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية، حتى وان تشابهت في معظمها مثل الهروب من البطش والقمع والتنكيل، وأيضًا الهروب من القوانين الجائرة كقانون الأهالي (الانديحينا)، وقانون الخدمة العسكرية الإجبارية، هذا بالإضافة إلى الشعور بالمهانة والدّلة التي أصبح يعيشها السكان الجزائريين المسلمين جراء الفقر والحاجة، التي أضحت هاجسًا يؤرق كل جزائري، زيادة على ذلك واقع الممارسة الاضطهادية ضد الأهالي انطلاقًا من سلب الأراضي ومنحها إلى المعمرين نتيجة الضرائب التي أثقلت كاهلهم، أو سياسة الإعانة بالقروض المستعملة بطريقة ربوية مما يجعل الأهالي يفقدون ممتلكاتهم، بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية،^(٣٢) إلا أن لكل منطقة خصوصيتها، فدوافع الهجرة السكانية في مناطق الجنوب الشرقي الجزائري يمكن حصرها فيما يلي:

- القرب الجغرافي للجنوب الشرقي لجزائري ومحاذاته للحدود التونسية من خلال منطقة الجريد والحدود الليبية عن طريق غدامس، وسهولة التنقل، وضعف المراقبة الحدودية نتيجة الطابع الصحراوي الصعب وعدم اكتراث السلطات التونسية لهذه الهجرات.
- السياسة الاقتصادية التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على أهالي المنطقة أثرت عليهم اجتماعيًا، مما دفع بالكثير من السوافة والورقليين والتقريبيين والميزابيين والبساكرة على التفكير في الهجرة نحو تونس، وخصوصًا منذ منتصف القرن التاسع عشر، فمثلًا أغلبية المهاجرين من سكان السوافة هم من المالكين للحيوانات دون النخيل، وضعف هذه الحيوانات على توفير بعض متطلبات الحياة خاصة الماعز الذي هو أقل قدرة على إنتاج الحليب^(٣٣)، وفيما يخص الهجرة التي شهدها سكان ورقلة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فقد كانت بسبب عدة أمراض مزمنة منها: وباء حمى المستنقعات، ووباء الجدري، ووباء التيفس^(٣٤)، وفيما يخص سكان وادي ميزاب فإن الظروف المناخية الصعبة في الجنوب والتي تتميز بالجفاف وانتشار عدوى الأمراض زادت من بؤس السكان، وكان لابد من البحث عن مجالًا آخر من أجل تأمين لقمة العيش، فهاجروا إلى تونس، التي لم تكن بدافع الفرار من دار الكفر إلى دار الإسلام وإنما للبحث عن شغل في بيئة جديدة، خاصة وأن الشروط الجبائية في تونس كانت مقبولة بالنسبة للوافدين الجدد من المهاجرين الميزابيين.^(٣٥)

- تسلط الحكام المحليين ونوابهم من القياد الذين يخضعون لسلطتهم مباشرة، الذين اضطهدوا الأهالي وطبقوا عليهم الإجراءات التعسفية من خلال فرض الغرامات المباشرة لأسباب تافهة خاصة فيما يتعلق بالحصول على رخص التنقل، ولقد سُجلت حالتين بورقلة سنة ١٩١٤م، وقد زادت هذه الغرامات القياد والحكام المحليين ثراءً.^(٣٦)
- السياسة الاستعمارية المعادية للتعليم العربي الإسلامي وغياب المراكز الثقافية والعلمية، مع وجود حرية نسبية في طلب العلم بتونس دفعت بالكثير من الطلبة ومثقفى المنطقة إلى الهجرة رغبة في تحصيل العلم، فيذكر الأستاذ محمد علي دبو في كتابه "نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة": "أن سفر الطلاب الجزائريين إلى تونس لطلب العلم في الجامعة الزيتونية وفي مدارسها ابتدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث هاجر إليها أفراد قليلون منهم الشيخ الحاج سعيد بن يوسف البزقني الذي رجع من تونس حوالي ١٨٧٠م فتولى التدريس في ميزاب، ثم ابتدأت الهجرة إلى تونس لطلب العلم تكثرت في العقد الأول من القرن العشرين لتتدفق الهجرات والبعثات السنوية بعد الحرب العالمية الأولى، منها التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنها ما هو تابع لحزب الشعب الجزائري (حركة انتصار الحريات الديمقراطية)، ومنها ما هو تابع لشيوخ الزوايا والطرق الصوفية، ومنها ما هو تابع لبعض الجمعيات الثقافية والمتخرجين والمنتسبين لجامع الزيتونة، حيث صارت تونس هي مقصد كل من يريد الثقافة العربية الواسعة.^(٣٧)

وبخصوص طلبة منطقة وادي ريغ فحسب الروايات الشفوية، فإن أول بعثة طلابية منظمة إلى جامع الزيتونية كانت في بداية الأربعينات حيث أشرفت عليها جمعية الفلاح التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد تضمنت هذه البعثة الطلابية الأسماء الآتية: أحمد جاري، علي كافي، محمد كافي، محمد بورقعة، المولدي بن أحميدة، عبد الحميد عقال.^(٣٨) أما الطلبة السوافة، فإن سياسة التجهيل التي اعتمدتها السلطات الاستعمارية ساهمت بشكل كبير في انتقال مجموعة لا بأس بها من السوافة نحو الأراضي التونسية من خلال هجرات علمية، وهي هجرات جديدة اقتصرت مدة إقامتها على سنوات طلب العلم والتحصيل والانتفاع من المعاهد التونسية.^(٣٩) وبخصوص الطلبة الميزابيين فأول دفعة طلابية منظمة سافرت إلى تونس كانت سنة ١٩١٢ من أجل التعليم في المدارس القرآنية في الزيتونة والخلدونية^(٤٠)، وفي هذا الصدد يقول عبد الله ركيبي:^(٤١) «إنّ دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيالاً قبلنا تهدف إلى أن تتشقق ثقافة عربية إسلامية أصلية، خاصة وأن التعليم

العربية في الوادي وتوزر، وشارك في حملات عسكرية منها احتلال تونس، وربط علاقات صداقة مع الشيخ محمد الكبير بن إبراهيم شيخ زاوية نفطة القادرية، وحصل منه على دبلوم مقدم كان يستخدمه عند الحاجة، حتى كان يعتبره الناس مسلماً قادرياً.^(٤٥) وبخصوص تقييد الهجرة الطلابية إلى المؤسسات التعليمية التونسية، فيذكر الدكتور خير الدين شترة: «أن الطلبة الجزائريين الذين يرغبون في إتمام دراستهم بتونس يكونون عرضة لإجراءات معينة من قبل سلطات الأشرف عن طريق المصالح الإدارية والمهنية، ولم تكثف السلطات الفرنسية بهذه الإجراءات، بل طلبت من القياد وأعاونهم القيام بتحقيق سري يتضمن معلومات حول كل طالب يرغب في الحصول على ترخيص السفر للثبوت من سيرته واتتمائه السياسي وولائه لفرنسا ومد إدارة الأمن بتقرير في الموضوع».^(٤٦) ولعل الغرض من تقييد الهجرة الطلابية إلى تونس هو أن البعثات الطلابية الجزائرية إلى تونس باتت تشكل خطراً وتهديداً على أمن واستقرار الفرنسيين، فبناءً على مجموعة من التقارير الفرنسية يتضح أن الطلاب الجزائريين الذي تخرجوا من المؤسسات التعليمية التونسية لعبوا دوراً كبيراً إلى جانب إخوانهم التونسيين في المقاومة السياسية والفكرية ضد الإدارة الاستعمارية، فقد تخرج من أقاليم الجنوب الشرقي الجزائري عن طريق البعثات التعليمية المنظمة والموجهة إلى تونس خلال الفترة ١٩٠٠-١٩٥٦ حوالي ٦٤٢ إطاراً تلقوا تعليمًا في المستوى الجامعي (المدارس الصادقية والخلدونية أو في الجامع الأعظم) وهو عدد يفوق ضعف الجزائريين المتخرجين من الجامعة التي أنشأتها فرنسا في الجزائر.^(٤٧)

فمثلاً بعض الورقليين المقيمين بتونس لعبوا دوراً فعالاً في الحركة السياسية والتعبئة الثورية في المنطقة، فحسب شهادة المجاهد حجاج عبد القادر الذي كان مقيماً وعاملاً بتونس، إنه كان عضواً نشطاً في التنظيم النقابي برئاسة فرحات حشاد^(٤٨)، غير أن السلطة الاستعمارية ألقت عليه القبض رفقة بعض المناضلين التونسيين، واعتقلته لمدة يومين على ذمة التحقيق، ليصدر في حقه الطرد والنفي إلى بلده الجزائر عائداً إلى ورقلة سنة ١٩٥٤م، وأنداك بدأ ينشط ضمن الخلايا المدنية الثورية التي بدأت تتشكل في المنطقة،^(٤٩) هذا بالإضافة إلى أن الدكتور خير الدين شترة، وبناء على تقرير حاكم الجزائر العام إلى المقيم العام تونس في نهاية ١٩٣٠م ذكر: «أن بعض الجزائريين كانوا ملتفين حول جمعية دينية تعمل على الدعاية لاستقلال القطرين التونسي والجزائري معاً، وهم كلهم ثقة بأن كل المستعمرات الفرنسية ستنال استقلالها عن طريق هذه الجمعية».^(٥٠)

هذا بالإضافة إلى أن جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين الصحراويين^(٥١) بتونس لعبت دوراً كبيراً في تكوين أبناء الصحراء

المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت (الزيتونة) ملجأ لمن حُرِم من ثقافته وتراثه القومي، ولم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة إلى تونس فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن».

جدول بين عدد طلبة الجنوب الشرقي الجزائري في جامع الزيتونة (١٩٠١-١٩٥٣)^(٤٢)

المنطقة	وادي سوف	تقرت	تماسين	ورقلة	بسكرة	غرداية	المجموع
العدد	١٥٧	٦٨	٥	٢٢	٧٨	٣	٣٣٣

- العامل الديني الصوفي، حيث إتخذ العديد من مشايخ الطرق الصوفية بالجنوب الشرقي الجزائري من الجريد التونسي منطلقاً في نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي، مثل الطريقة القادرية، والطريقة الرحمانية العزوزية.

إذن هذه هي أهم الأسباب التي كانت وراء هجرة سكان الجنوب الشرقي الجزائري إلى تونس، وعلى الرغم من الانعكاسات السلبية للهجرة الجزائرية على أرض الوطن إلا أنها في المقابل كانت ايجابية في عدة جوانب أثرت على الإدارة الاستعمارية في كلا المنطقتين، لذلك تنبعت السلطات الاستعمارية لحركة الهجرة، فأصدرت جملة من القوانين والقرارات لتقييدها، منها القرار الصادر بتاريخ ٧ فيفري ١٨٨٩م، والذي نص على ما يلي: "كلما ألقى القبض على جزائريين في وضع غير قانوني يجب إيقافهم وتوجيههم إلى الحدود وعلى الأعوان المرافقين لهم أن يقدموا للسلطات الجزائرية كل المعلومات حول الموقوفين فيما يخص وضعهم المدني وسبب الترحيل ومكانة إقامتهم بالجزائر".^(٤٣)

وفي إطار وضع حد لنشاط الطرق الصوفية وتأثيراتها على الضفتين، سعت السلطة الاستعمارية إلى إضعاف الطرق الصوفية المنتشرة عبر منطقة الجريد التونسي وعلى الخصوص الطريقة الرحمانية العزوزية والطريقة القادرية، وذلك من خلال تدخلها في تسمية مشايخ الطرق بفرض إجراءات إدارية يجب توفرها في المترشح لتسيير مشيخة الطريقة، حتى تكون لها الحرية في اختيار مرشحين موالين لها،^(٤٤) كما وضعت حداً لتنقلات المشايخ من خلال سنّ قوانين تحدد وسائل التنقل مثل المنشور المؤرخ في ٩ جانفي ١٩١٣م بتونس الذي وضح لمشايخ الزوايا ونوابهم الأعمال القانونية التي يلزمهم إتمامها قبل الانتقال من الدوائر المقيمين بها، وسعت إلى التنفذ داخل الطريقة من خلال استخباراتها كما هو الشأن بالنسبة للضابط "ديبورت" والذي عمل لسنوات في صحراء الجزائر وتونس، وبخاصة في بسكرة ووادي سوف وغرداية وتوزر، وتعلم اللغة

محمد صالح بن يحيى، بينما في الواقع كان عكس ذلك، فالمبالغ المالية المجموعة تم وضعها في خزانة الحزب الحر الدستوري، وقد كشفت الجهات الأمنية الفرنسية عن مبلغ ٣٣٠٠٠ فرنك فرنسي تم إيداعه في خزانة الحزب الحر الدستوري.^(١٠)

في خضم هذا الحماس الثوري الفياض والنظام الجبهوي المحكم بدأ هؤلاء الطلبة ببعث تنظيم كسفي في إطار جبهة التحرير الوطني وأشهر الأفواج الكشفية الجزائرية بتونس العاصمة انتشاًراً وحركية هو فوج الجبل الأحمر الذي تشكّل أساساً من طرف الطلبة "السوافة" بتونس والجالية الجزائرية المؤلفة من المهاجرين واللاجئين حيث كانت مدرسة الجيل من الجواله التحقوا فيما بعد بصفوف جيش التحرير الوطني للدفاع عن الوطن،^(١١) وهذه المساهمات المالية والنشاطات السياسية كان لها الأثر الطيب في زيادة لحمه التواصل بين ساكنة الجنوب الشرقي الجزائري ومختلف الحواضر التونسية.

٤/٢ - إعلامياً:

- كبت وخنق أصوات الصحف والصحافيين: لقد حظي النشاط الصحفي في تونس باهتمام كبير من طرف الكتاب الجزائريين من أجل فضح السياسة الاستعمارية، وتعبئة الرأي العام الجزائري والتونسي لمحاربة الاستعمار الفرنسي، مادام الاستعمار الذي يجثم على تونس والجزائر هو استعمار واحد، وإن اختلف شكله بين الحماية والاستعمار المباشر، فإن مكومونه واحد، وقد استطاع الجزائريون أن ينشؤا ما بين ١٨٨٨ و ١٩٢١ عدة جرائد في تونس أهمها: الحاضرة. سبيل الرشاد. إظهار الحق. السعادة العظمى. تحقيق الأمل. القسطاس. المنصف. التسامح. الإسلام. الاتحاد الإسلامي. المشير. صدى الساحل. الوزير. لسان الشعب. البرهان... وغيرها^(١٢)، ومن أهم الأعلام الصحفية الجزائرية أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري في تونس نجد: من وادي سوف حمزة بوكوشة، وعبد القادر الياجوري، وعبد الرحمان اليعلاوي، وهالي الحفناوي، وأبو القاسم سعد الله، ومن وادي ريغ: عبد الرزاق قسوم، وبن السابح محمد اللقاني، والأزهري ثابت، وعبد القادر الأخضر السائحي، ومحمد الأخضر السائحي، ومن بسكرة: محمد السعيد الزاهري، ومحمد الهادي السنوسي، والزاهري محمد خير الدين، ومحمد العيد آل خليفة، والبشير بن حسونة الخنقي، ومن وادي ميزاب الشيخ إبراهيم أبو اليقظان، والشيخ اطفيش امحمد يوسف، ومفدي زكرياء.

لقد استطاعت هذه الأعلام الجنوبية وكغيرها من الأعلام الجزائرية المقيمة في تونس أن تجاهر الاستعمار الفرنسي وبهجة حادة بفضح سياسته الاستعمارية وأسايبه القمعية ضد الشعبين التونسي والجزائري، متجاهلين ما يحيط بهم من مخاطر، آمليين من وراء هذا التحدي تحرر واستقلال تونس والجزائر من الاستعمار الفرنسي، فمثلاً جريدة "صدى الصحراء" العسكرية في عدها الخامس نقلت أخبار احتجاجات وتظاهرات

تكويناً سياسياً وفكرياً، ومنهم: محمد الحفناوي بن الأخضر السوفي، عبد الله الزبيبي البسكري، ثابت الأزهري، أحمد بن ثابت، وحديد بن حمودة الورقلي،^(١٣) محمد الأخضر السائحي المعروف ثورياً باسم "الكبتان سي المختار".^(١٤) وقد شكل طلبة وادي سوف في جامع الزيتونة تنظيمات طلابية مثل جمعية "الشباب السوفي الزيتوني" التي أنشئت في ١٢ ماي ١٩٣٧، وكانت تضم (١٢) عضواً يرأسهم عبد الرحمان أحمد بن لخضر^(١٥). علماً أن طلبة قمار أنشأوا جمعية خاصة بهم في الزيتونة تدعى "جمعية الرابطة الثقافية القمارية"، هذا بالإضافة إلى مساهمتهم في تأسيس الرابطة العلمية سنة ١٩٣٤م، وهذا سعيًا منهم «لإيجاد وسيلة فعالة للتضامن الفكري والقلمي بينهم، وخدمة الحركة العلمية ببلادهم ونفع شعبهم والسعي في رفع مستواه العلمي والسياسي والاجتماعي».^(١٥)

وفي إطار نشاط الحركة الوطنية التونسية فقد ساهم سكان الجنوب الشرقي الجزائري المقيمين بتونس في التغطية المالية للحزب الحر الدستوري، وذلك بجمع التبرعات، حيث تشير التقارير الفرنسية عن تلقي الحزب مساهمة مالية جزائرية تم تقديمها للثعلبي لا تقل عن ١٧٤٠٠٠ فرنك فرنسي، التي جلبها صالح بن يحيى من الجزائر من طرف القواعد النضالية الخلفية المتمثلة في المناضلين الأتي أسماءهم: داوود فارس ميزابي من قالمة، محمد بن زكري من تبسة، عمر بن إبراهيم غير متعلم من برج بوعريج، جحوط يوسف بن عدون شارع لير بالجزائر.^(١٦)

وفي السياق ذاته؛ يذكر الشيخ محمد علي دبور نقلاً عن الشيخ إبراهيم الطفيش عن المساهمة الميزابية قائلاً: «كان الشيخ صالح بن يحيى بن عيسى يمد الحزب الدستوري كلما احتاج إلى المال في آخر كل شهر، وكان التونسيون يثقون به ثقة كاملة، وهو الذي كان يجمع التبرعات منهم للحزب وأنفق أموالاً طائلة على الحزب، واشتغل عن تجارته لاستغراقه في جهاده السياسي»^(١٧)، وهو الرأي نفسه عند توفيق المدني الذي قال عنه: «.. هو الذي اظهر الحزب الدستوري في تونس بدعايته وحماسه ومساندته للثعلبي المادية والمعنوية...»^(١٨)، زيادة على ذلك فقد أشارت التقارير الأمنية الفرنسية إلى وجود متعاونين آخرين مع الحزب الدستوري، منهم: الحاج يوسف وعمر كمراسلين في تونس والطالب الزيتوني إبراهيم الطفيش وحتى قائد وقاضي بني يزقن اللذان قدما مبلغ مالي هام إلى رئيس اللجنة الوطنية عن طريق إبراهيم الطفيش.^(١٩)

هذا بالإضافة إلى وجود طريقة أخرى سرية استخدمها الميزابيون لتقديم مساعدات مالية للحزب الدستوري وهي استخدام إنجاز المشاريع الخيرية كغطاء لدفع الأموال، وهو كما أكده المقيم العام في الجزائر، في أحد الوثائق التي يكشف فيها تحركات بعض الجزائريين وجمعهم للمال بحجة بناء مسجد الميزابيين، من بينهم: باعلي صالح بن باعلي، إبراهيم الطفيش،

خاتمة

بعد سعيينا إلى الإجابة عن الإشكالية التي طرحناها في بداية البحث يمكن أن نستخلص بأن السياسة الاستعمارية التي طبقتها فرنسا على المنطقتين فهي بقدر ما كانت سلبية في العديد من الجوانب، إلا أنه في المقابل أوجدت تحدي وطني من كلا الشعبين للتصدي لهذه السياسة الاستعمارية وتحرير واستقلال البلدين من الاستعمار الفرنسي، ومن الأمثلة على ذلك نجد ما يلي:

التضييق على نشاط الزوايا والطرق الصوفية دفع البعض من شيوخها إلى التعامل مع الإدارة الاستعمارية والحكومة التونسية في كثير من الأحيان خدمة للمقاومة الشعبية من جهة، ولكسب ثقة السلطة الاستعمارية تجنباً للمراقبة والمتابعة، وهروباً من دفع الضرائب من جهة أخرى، وذلك مثلما فعل محمد الطيب بن إبراهيم شيخ الزاوية القادرية بورقلة، حيث طلب من السلطات الفرنسية إعفاء زاوية نفطة من الضرائب المفروضة على إنتاج النخيل باعتبارها كانت معفية قبل ١٨٨١م، هذا بالإضافة إلى دور الزاوية الرحمانية بنفطة، حيث كلف الوزير الأكبر مصطفى خزندار الشيخ مصطفى بن عزوز للقيام بمهمة الوساطة لوجهته، بين علي بن غداهم والحكومة التونسية. زيادة على ذلك ومهما يكن، فقد ساهمت الطرق الصوفية في استمرار التواصل وتعزيز الروابط ووحدة الانتماء، وخلق صلات روحية بين سكان الجنوب الشرقي الجزائري، وتونس ومنطقة الجريد التونسي بشكل خاص.

على الرغم من الإجراءات القمعية الاستعمارية لتتقيد حركة الهجرة وما نتج عنها من انعكاسات سلبية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، إلا أن التواصل البشري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس بقي مستمراً، ومتجاوزاً كل العراقيل الإدارية والعسكرية، مكوناً بذلك أكبر جالية خلال الثلاثينيات من القرن العشرين مقارنة بكل الجاليات المغاربية أو حتى مقارنة ببقية الولايات الجزائرية الأخرى المقيمة في العاصمة التونسية، بل وصل الأمر إلى تبوء الكثير من الشخصيات أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري مناصب قيادية في مختلف التشكيلات السياسية والإصلاحية والثقافية بتونس.

أخيراً؛ أملنا أن نكون قد وفقنا في الجواب عن بعض التساؤلات بتوضيح ما غمض، وتحليل ما استعصى منها ومن ثمّ يمكن اعتبار هذه الدراسة المتواضعة قابلة للنقد والإثراء والتجاوز بحكم ما يتولد عنها من جدل ونقاش من قبل الباحثين والمهتمين.

التونسيين للمطالبة بإزالة تمثال الكاردينال لافيجري ونقل أحكام فرنسا القاسية التي أنزلتها بالمتظاهرين التونسيين. كما نشرت جريدة النهضة التونسية مقالات لمحمد السعيد الزاهري، حيث حاول فيها تصوير ما يجري في الجزائر على مستوى القوانين والتشريعات والصراعات السياسية، كما اهتم أبي يقضان خلال العشرينيات والثلاثينيات اهتماماً شديداً من خلال رسائله في جريدة المنير تحت عنوان "الرسائل الجزائرية" بمعالجة الواقع المحلي للجزائر وتوجيه النصائح إلى عموم الجزائريين. ويكفي أن نستدل بموقف صحفي في جريدة وادي ميزاب بعنوان "كيف يفهمون الدين" مدافعاً فيه عن المسلمين في تونس، وهو عبارة عن رد قوي على كاتبة فرنسية تدعى (مدام سيلاري) سخرت من الإسلام والمسلمين.^(٦٣)

غير أن السلطة الاستعمارية كعادتها التجأت إلى الوسائل القمعية لكبت وخنق أصوات الصحف والصحافيين، وذلك بمصادرة الصحف، ووضع العراقيل أمام عمليات التوزيع والرواج، ولعل أهم ما كان يقلق السلطة الاستعمارية في اتجاه هذه الصحافة هو تركيزها على نقد سلوك الإدارة نحو العنصر الأهلي ارتباطها بالجمهور، حيث أصبحت جزاء من تقاليده اليومية ومشاغله الدائمة،^(٦٤) ويذكر الدكتور محمد القورصو بأن الصحف التونسية كانت هي الأكثر مصادرة من طرف السلطات الفرنسية بحكم كثرتها ورواجها وسهولة دخولها إلى الجزائر خاصة الزهرة والأسبوع والإرادة، والهلال. الإصلاح.. وغيرها، ومن الأمثلة على ذلك فبمجرد صدور العدد الأول من "جريدة الإصلاح" للشيخ الطيب العقبي منعت الإدارة الفرنسية بواسطة محافظها في تونس جميع المطابع التونسية من طبع الجرائد الجزائرية إلا بإذن خاص، وقد تدخل وكيل الجريدة الشرعي في تونس لدى المحافظ شارحاً له الوضع بأن قرار منع طباعة جريدة "الإصلاح" في تونس مخالف للأعراف والقوانين.^(٦٥) كما تحدثت التقارير الفرنسية عن كثرة عمليات الحجز ضد الجرائد التونسية في قسنطينة ولدى الأشخاص مثل محمد السعيد الزاهري (سنة ١٩٣٠ مثلاً).^(٦٦)

- (26) Delerive (R), **Forts Sahariens des Territoires du Sud**, Centre D'études sur L'histoire du Sahara, paris, 1990, pp. 41-44.
- (27) Commandant Couvet, **Notes sur le Souf et Les Souafa**, B.S.G.A, 1934, p.76
- (٢٨) يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص٣٢٨.
- (٢٩) يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، نقلًا عن جريدة المبشر المؤرخة في ١٦ فيفري ١٨٨١.
- (٣٠) نورالدين صحراوي، المراقبة الفرنسية للحدود الشرقية وتأثيرها على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس ١٨٨١-١٩٥٤ من خلال الوثائق الأرشيفية، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي ١٠-١١ نوفمبر ٢٠١٣، ص٨.
- (31) A.N.T, B 215, D303, N°76.
- (٣٢) عبد الحميد زوزو، الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحريين (١٩١٩-١٩٣٩)، الجزائر، م.وك، ط٢، ١٩٨٥، ص: ٣٥-٤٦.
- (33) A.N.T, Rapport sur le Souf, p1.
- (٣٤) رضوان شافو، المرجع السابق، ص٣٦.
- (٣٥) عبد الكريم الماجري، هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجوانة إلى تونس ١٨٣١-١٩٣٧، تونس ٢٠١٠، ص٥٢٦.
- (٣٦) رضوان شافو، المرجع السابق، ص٣٧.
- (٣٧) محمد علي دبو، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج٢، الجزائر: المطبعة العربية، ١٩٧١م، ص٢٠.
- (٣٨) رضوان شافو، بحوث ودراسات في تاريخ وادي ريغ، باتنة، دار قانة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص٥٤.
- (٣٩) عبد الكامل عطية، نماذج من الرحلات العلمية للطلبة "السوافة" نحو القطر التونسي قبل اندلاع الثورة التحريرية ١٩٥٤، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، يومي ١٠-١١ نوفمبر ٢٠١٣، جامعة الوادي.
- (٤٠) أحمد الخطيب، ج.ع.م.ج وأثرها الإصلاحي في الجزائر، م.وك، ١٩٨٥م، ص٢١٧.
- (٤١) سعيدوني (نصر الدين)، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله، بيروت: دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٠م، ص٤٨٠.
- (٤٢) الأرشيف الوطني التونسي (A.N.T): دفتر تأسيس تلامذة جامع الزيتونة (١٨٩٤-١٩٥٣).
- (٤٣) يوسف، جفالي، الجالية الجزائرية بجهة الكاف (١٨٨١-١٩٣٩)، رسالة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، إشراف الكراي القسنطيني، السنة الجامعية (١٩٩٢-١٩٩٣)، ص٥٠.
- (٤٤) العجيلي، المرجع السابق، ص٨٥-٨٦.
- (٤٥) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج٤، ص: ٥١٠٥٠.
- (٤٦) خيرالدين شترة، المرجع السابق، ص: ٩٧٤-٩٧٥.
- (٤٧) خيرالدين شترة، المرجع نفسه.
- (٤٨) فرحات حشاد: من مواليد ٢ فيفري ١٩١٤م بالعباسية، وهو زعيم سياسي ونقابي تونسي. لمع نجمه بعد تأسيسه للاتحاد العام التونسي للشغل سنة ١٩٤٦م، واكتسب شعبية عارمة بين الطبقة العاملة وكل مكونات الشعب التونسي، اغتيل على يد عصاة من الفرنسيين المقيمين بتونس (اليد الحمراء) برادس الضاحية الجنوبية

- (١) أبو القاسم سعد الله، بين الأوراس والجريد وورقلة"، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج٥، ٢٠٠٥، ص٢٥٥.
- (2) De neuveu ed, **les khourans, ordres religieux chez les musulmans de l'algerie**, 3eme edit, alger, 1931, pp:15-38.
- (٣) التليلي العجيلي، "الوضع الطرقي بالجريد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد ٧٥/٧٦، تونس، ماي ١٩٩٤، ص٣٠٧.
- (٤) يحي بوعزيز، "جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية"، الأصالة، ع٤٨، أوت ١٩٧٧، ص: ٢-٤٢.
- (٥) عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (الجزائر - تونس - المغرب - ليبيا) ١٨١٦ - ١٨٧١، ط ٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٥، ص٣٧.
- (٦) يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، الجزائر، دار البصائر، ص٣٢٢.
- (٧) أحمد بن جابو، «أوضاع الجالية الجزائرية بتونس ما بين ١٨٣٠. ١٨٨١»، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع٦٠، ديسمبر ٢٠١٢، المدرسة العليا للأساتذة، ص ٢٣٤.
- (8) Germain Marty, **les Algériens à Tunis**. tome 1, Tunis: IBLA, 1948, pp:304 -330.
- (9) A.N.T. B 278.Document73, N° 5
- (10) ANT, Etat Des cheiks Des Algériens, Le Contrôleur Civil Fons vice Consul de France .05-06-1919. S: A : B 1 Document 14/2- N: 26.
- (11) André Roger, Voisin, **le Souf monographie**, édition El Walid, El oud, Algérie, 2004 p243.
- (12) Germain, Op.Cit. , p.330
- (13) Augustin Bernard et N.Lacroix, **La Pénétration saharienne (1830-1906)**, Impr. Algérien, 1906. p6.
- نشؤ الدولة الترابية في تونس الأرض والهوية (14) فاطمة بن سليمان، ص٣٠٨ ١٥٧٤-١٨٨١)، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، (١٥) نماذج من رخص السفر بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، للاطلاع يُنظر: A.N.T, B 1, D20, N°1-20.
- (16) J.J.Perennes, **Structures Agraires et Décolonisation Les Oasis de l'Oued Righ (Algérie)**, Alger, O.P.U, 1979, p. 55.
- (١٧) رضوان شافو، مقاومة منطقة تقرت وما جاورها للاستعمار الفرنسي ١٨٤٤-١٨٧٥، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٢٩.
- (١٨) فاطمة بن سليمان، المرجع السابق، ص٣١٠.
- (19) A.N.T, B 212, D241, N°86.
- (20) A.N.T, B 78, D929, N°33.
- (21) A.N.T, B 212, D239, N°5.
- (22) A.N.T, B 219, D237, N°4.
- (23) A.N.T, B 219, D237, N°11.
- (24) A.N.T, B 212, D239, N°11.
- (٢٥) جريدة المبشر، ٣٠ جويلية ١٨٨١.

للعاصمة تونس يوم ٥ ديسمبر ١٩٥٢م، كما يعتبر أحد أهم رجالات الحركة الاستقلالية في تونس إلى جانب الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف.

(٤٩) شهادة المجاهد حجاج عبد القادر مصورة ومسجلة، جويلية ٢٠٠٥، كما يذكر المجاهد نفسه أن أول خلية نشط معها بورقلة شملت كلاً من السادة: زويدي عبد القادر، شنين قدور، صفراني عبد القادر، حروز محمد، محمد الصيد برجال.

(٥٠) خيرالدين شترة، المرجع السابق، ص ٣٦١.

(51) A.N.T, série E,B35, dossier 28.

(52) A.N.T, série historical, B63, dossier 758.

(٥٣) حوار مع ابن عم الشهيد الشاعر عبد القادر محمد الأخضر السائحي بمتحف المجاهد بتقوت، ديسمبر ٢٠٠٧. يُنظر أيضاً:

A.N.T, série E,B35, dossier 28.

(54) A.N.T: Série E, B 509, D252 (Echabab Essoufi Ezzeitouni).

(٥٥) عثمان زقب: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف ١٩٤٧-١٩١٨ وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، رسالة ماجستير، (مخ)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، ص ٢٠٢.

(56) ANT, op.cit- D13.

(٥٧) محمد علي دبور، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٥٨) خيرالدين شترة، الطلبة الجزائريون...، المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٨.

(59) ANT, Note -Police Spécial des chemins de fer et des ports. Tunis 12/04/1922. SM T - B:21- D1.N° 13.

(60) ANT, Délégué Général de la République Française à Monsieur le gouverneur Général de l'Algérie 25/09/1922. SMNT- B19. D2. N°6

(٦١) مسعود كواقي، "الكشافة الإسلامية الجزائرية في الجبل الأحمر بتونس، الجزائر، دار هومة ١٩٩٩م، ص: ٧٨ - ٨٧.

(٦٢) عمر بن قفصية، أضواء على الصحافة التونسية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، ١٩٧٢.

(٦٣) خيرالدين شترة، الطلبة الجزائريون...، المرجع السابق، ص ١٣٣٧، ١٣٣٤.

(٦٤) خيرالدين شترة، المرجع نفسه، ص ١٥٠٩.

(٦٥) الطيب العقبي، عراقيل الإصلاح جرائد الجزائر لا تطبع بتونس، الشهاب، ع ١٤، ١٢ فيفري ١٩٢٧.

(٦٦) محمد القورصو، حول إشكالية انتشار الصحافة المشرقية والمغربية في المستعمرة الجزائرية ما بين ١٩٢٠ - ١٩٥٤، ضمن الصحيفة وآثارها في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، إعداد مخبر التاريخ والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، جامعة وهران، دفتر ٣، نوفمبر ١٩٩٢، ص ٥٢-٧٣.

فضيحة الإنسانية في تاريخ فرنسا الأسود مأساة اللاجئين الجزائريين على الحدود التونسية خلال الثورة التحريرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢)

د. الطاهر جبلي

أستاذ التاريخ المعاصر

قسم التاريخ

جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية



مُلخَص

تعتبر مسألة اللاجئين الجزائريين فضيحة إنسانية في تاريخ فرنسا الأسود حيث شكلت طوال فترة الثورة التحريرية إحدى الفصول الأكثر مأساوية، حيث أفرزت ظروف وتداعيات السياسة الاستعمارية الفرنسية الشرسة في الجزائر، أوضاعًا وتقلبات اجتماعية داخلية في غاية الخطورة والتعقيد، فمنذ الساعات الأولى من اندلاع الثورة وتصاعد وتيرة العمل المسلح، لجأت سلطات الإدارة الاستعمارية إلى تبني سياسية المسؤولية الجماعية ضد الجزائريين، في محاولات يائسة لعزل الثورة عن الشعب الجزائري وفي هذا السياق تفتنت المصالح الفرنسية المضادة لحرب العصابات في ابتكار أحدث الطرق والوسائل الناجعة لاستعادة الأمن والحيلولة دون انتشار عدوى "التمرد" - الثورة- عبر كامل التراب الوطني. وقد انعكس هذا الوضع المتردي بصورة مباشرة على المناطق الحدودية الشرقية بشكل خاص حيث عرفت سيولا من اللاجئين الجزائريين الفارين من سياسة التقتيل والإبادة، والأسر في مراكز التجميع، والمحتشدات، الأمر الذي أدى إلى بروز ما عرف في الأدبيات التاريخية بمأساة اللاجئين الجزائريين في تاريخ الثورة التحريرية حيث شكلت عبئا أثقل كاهل قيادة الثورة طيلة مرحلة الثورة الجزائرية.

كلمات مفتاحية:

الثورة التحريرية، الاستعمار الفرنسي، اللاجئين الجزائريين، تاريخ الجزائر الحديث

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ سبتمبر ٢٠١٣
تاريخ قبول النشر: ٠٧ يناير ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

الطاهر جبلي، "فضيحة الإنسانية في تاريخ فرنسا الأسود: مأساة اللاجئين الجزائريين على الحدود التونسية خلال الثورة التحريرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢)" - دورية كان التاريخية - العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٢٠ - ٢٧.

مُقَدِّمَةٌ

العصابات في ابتكار أحدث الطرق والوسائل الناجعة لاستعادة الأمن والحيلولة دون انتشار عدوى "التمرد" عبر كامل التراب الوطني. وقد انعكس هذا الوضع المتردي بصورة مباشرة على المناطق الحدودية الشرقية التي عرفت سيولا من اللاجئين الفارين من الإبادة، والأسر في مراكز التجميع والمحتشدات، الأمر الذي أدى إلى بروز مأساة اللاجئين الجزائريين في تاريخ الثورة التحريرية حيث شكلت عبئا أثقل كاهل قيادة الثورة وفي هذا الإطار سنحاول في هذه الدراسة الإجابة على جملة من

شكلت مسألة اللاجئين طوال فترة الثورة التحريرية أحد الفصول الأكثر مأساوية، حيث أفرزت ظروف الحرب الشرسة في الجزائر، أوضاعًا وتقلبات اجتماعية داخلية في غاية الخطورة والتعقيد، فمنذ الساعات الأولى من اندلاع الثورة وتصاعد وتيرة العمل المسلح، لجأت سلطات الإدارة الاستعمارية إلى تبني سياسية المسؤولية الجماعية ضد الجزائريين، في محاولات يائسة لعزل الثورة عن الشعب، وتفتنت مصالحها المضادة لحرب

التساؤلات على شاكلة كيف برزت مأساة اللاجئين في تاريخ الثورة التحريرية؟ وكيف كانت وضعيتهم الاجتماعية والصحية؟ وما هو موقف قيادة الثورة من هذه الوضعية المأساوية؟

أولاً: السياسة الإبادة الاستعمارية في مواجهة الثورة التحريرية

مع تطور الأوضاع التي آلت إليها حرب الجزائر، قررت السلطات الفرنسية الشروع في تطبيق إحدى أشكال سياساتها الاستعمارية الجهنمية، فيما يعرف في الأدبيات العسكرية "بالمناطق المحرمة" (ZONES INTERDITE)^(١)، حيث لجأت (إلى) تفريغ مناطق بكاملها من سكانها نهائياً ومنعهم من الإقامة فيها والإلقاء بهم في السجون والمحتشدات ومراكز التجميع بعد مصادرة وحرق ممتلكاتهم وتعريض ما بقي منها للقصف المدفعي والجوي لئلا يستخدمه المجاهدون كبنية تحتية تخدم الثورة مادياً ومعنوياً^(٢). وتطورت هذه السياسة بشكل عملي وجدي في شهر ماي سنة ١٩٥٧، حيث شملت معظم مناطق الأوراس في الولاية الأولى، وكذلك الشمال القسنطيني، وجبال الونشريس في الولاية الرابعة إضافة إلى المناطق الحدودية الشرقية والغربية، ومع قدوم قوات الجنرال شال^(٣)، تضاعفت المناطق المحرمة واتسعت مساحاتها بعشرات المرات عن السنوات السابقة للثورة التحريرية^(٤).

وعن هذه السياسة يوضح الجنرال موريس شال "لقد صدمت خلال زياراتي للنواحي في الجزائر بما يسمى، المناطق المحرمة، هي محرمة على من؟ ليس على جيش التحرير الوطني، على أية حال لقد استوحيت مخططي، من هذه المناطق بالذات لأنها منطلق الثوار إلى السهول، بهدف نصب كمائنهم، ولذا يجب بقاءنا واستقرارنا فيها، وهو بقاء يتطلب وجود جيش كبير"^(٥) ودون الاستطراد في هذا الموضوع فإنه يجب الإشارة إلى أن؛ المناطق الشرقية لم تستثن من المخطط الجهنمي العام الذي لجأت إليه الإدارة الاستعمارية، نظرا للدور الفعال الذي أصبحت تقوم به في مزاجتها بين عمليتي الدعم اللوجستيكي والنشاط العسكري على امتداد الحدود الشرقية، بحكم موقعها الاستراتيجي خصوصاً مع مطلع سنة ١٩٥٧، حيث ازدادت حدة النشاط العسكري، عبر الخطوط المكهربة أثناء معارك العبور وعمليات الاختراق والهجمات المكثفة على مراكز العدو، المتواجدة عبر تراب القاعدة الشرقية.

لقد ركزت الإدارة الاستعمارية كل جهودها مع مطلع سنة ١٩٥٨، لخنق الثورة، بقطع خطوط الإمداد العسكري، حيث لجأت قوات الجيش الفرنسي المرباطة في مراكزها العسكرية إلى التحرش ضد الحدود التونسية بدعوى ممارسة "حق التبع" لعناصر جيش التحرير الوطني في الأراضي التونسية^(٦). ومع

المستجدات الجديدة التي فرضتها تداعيات الموقف الوجودي من القضية الراهنة خصوصاً، بعد استقلال كل من تونس والمغرب اللتان لم تخفيا تعاطفهما مع الشعب الجزائري في شرعية مطالبه السياسية العادلة، لجأ ضباط أركان الجيش الفرنسي في الجزائر إلى التنديد والتوعد والتهديد، "هذا لا يحتمل كيف نستطيع ضرب المتمردين، إذا كانوا ينسحبون بعد كل عملية إلى الأراضي التونسية أو المغربية؟ يجب علينا أن نتبعهم، علينا احتلال تونس والمغرب، عندها تتوقف الحرب بالتأكيد في الجزائر"، وراح الجنرال ماسو، يهدد بالانتقال إلى تونس لينام منتعلاً حذاءه في سرير بورقيبة^(٧) وتجسدت أولى تلك الخطوات في هذا الاتجاه في العملية التي قام بها سلاح الجو الفرنسي يوم ٨ فيفري ١٩٥٨، بقصف قرية ساقية سيدي يوسف التونسية على الحدود الجزائرية^(٨).

بعد محاولات فاشلة قامت بها سلطات العدو لوضع قوات دولية على المنطقة الحدودية بين تونس والجزائر، وظهور بوادر فشل الخط المكهرب (خط موريس) منذ الوهلة الأولى لوضع لمساته الأخيرة للحد من نشاط الثوار، لجأت إلى خطة لا تقل خطورتها عن سابقتها في إطار استراتيجية شاملة للقضاء على الثورة بشتى الطرق، والوسائل التي من شأنها أن تحقق حلم دعاة الجزائر الفرنسية.

وعلى غرار ما درجت عليه السياسة الاستعمارية منذ ١٨٣٠ في الجزائر عمدت الإدارة الفرنسية في محاولة منافية لكل القيم الإنسانية إلى ارتكاب جريمة أكثر بشاعة، شهدتها مدن وقرى القاعدة الشرقية سنة ١٩٥٨، إذ لجأت إلى عملية ترحيل وإخلاء سكان المناطق الواقعة بين خط موريس، والحدود التونسية شرقاً ومن البحر إلى مشارف الصحراء جنوباً تمهيداً لجعلها منطقة محرمة^(٩).

وبناءً على اقتراح من طرف وزير الدفاع الفرنسي شابان دالماس - (CHARBAN DALMAS) في شهر جانفي (يناير) سنة ١٩٥٨ وافق المجلس الوزاري الفرنسي يوم ١٩ فيفري (فبراير) ١٩٥٨ على إيجاد منطقة محرمة جديدة^(١٠) ولم تخفي السلطات الفرنسية هذه المرة عزمها على إبادة كل شيء، وقد بلغ طول هذه المنطقة "حوالي أربع مائة كلم ويتراوح عرضها من ثلاثين إلى خمسين كلم وتبلغ مساحتها حوالي عشرة آلاف كلم^٢، وهو ما يعادل مساحة ثلاث مقاطعات فرنسية متوسطة، ويمكن تحديد هذه المنطقة التي تتألف من مضيق طويل يمتد من باب البحر إلى مشارف الصحراء جنوباً ويحده غرباً سكة الحديد التي تربط عنابة بتبسة، أما من الشرق الحدود التونسية^(١١).

وقد شملت المنطقة المحرمة الجديدة التي استحدثتها سلطات العدو، عموم الفضاء الجغرافي، لتراب القاعدة الشرقية التي ضمت مدناً ذات نسبة هامة من الأوروبيين، مما دفع

الذين يسقطون أثناء العمليات العسكرية، أمام الثوار، يجب أن يدفع ثمنه مئات السكان المدنيين من الجزائريين.^(١٩) ومما زاد الوضع خطورة، اشتداد سياسة القمع مع مطلع سنة ١٩٥٩ على إثر الشروع في تطبيق مخطط شال الجهنمي، حيث أصبحت المنطقة الواقعة بين فكي شال وموريس^(٢٠) مهددة أكثر من أي وقت مضى بالإبادة بعد تصاعد عمليات القصف العشوائي للقرى وترحيل السكان، وتجميعهم في المحتشدات التي ارتفع عددها بارتفاع المرحلين من السكان الجزائريين^(٢١) في القاعدة الشرقية، الأمر الذي كان في نظر سلطات العدو إجراء ضروري من أجل التهدة. ولم تكن هذه المحتشدات^(٢٢) التي كانت تفتقر إلى أبسط شروط الصحة سوى وسيلة من وسائل الإبادة البطيئة، لما يلاقيه السكان يوميًا من معاناة، الجوع، الفقر، والجهل، والمرض، والتعذيب.

ثالثاً: وضعية اللاجئين الجزائريين الاجتماعية والصحية على الأراضي التونسية

وأمام إقدام السلطات الفرنسية على عملها للإنساني، بقصف القرى وتدمير المنازل، وحرق المحاصيل الزراعية، للفلاحين، اضطّر سكان القاعدة الشرقية، خاصة منهم الشيوخ، والنساء، والأطفال، إلى النزوح نحو الحدود الجزائرية التونسية بموافقة جيش التحرير الوطني للتخفيف من آثار سياسة التجويع التي لجأت إليها سلطات العدو^(٢٣) وحول هذه الأوضاع يذكر المجاهد عليّات متهني^(٢٤) أنه نتيجة القمع الاستعماري فر السكان من المنطقة المحرمة إلى الشريط الحدودي على الأراضي التونسية أين تم استقرارهم هناك^(٢٥) الأمر الذي طرح مشكلاً من أكبر المشاكل الاجتماعية، عندما تعلق الأمر بمأساة اللاجئين إلى كل من تونس، والمغرب، ولم تكن قضية اللاجئين الجزائريين الذين تدفقت جموعهم صوب الدولتين الشقيقتين، سوى حلقة جديد من مسلسل المعاناة التي أثقلت كاهل الثورة التحريرية، بعد أن بلغ الأمر غاية من الخطورة بتزايد أعدادهم^(٢٦) نتيجة لانعكاسات سياسة القمع والتجويع وعمليات الإبادة على الوضع الاجتماعي الذي عرف تقلبات خطيرة، خصوصاً بعد الشروع في تطبيق مخطط شال الجهنمي مع مطلع سنة ١٩٥٩.^(٢٧)

إن ذلك الوضع المتردي، انعكس بصورة مباشرة على المناطق الحدودية الشرقية التي عرفت سيولاً من اللاجئين الفارين من الإبادة، والأسر في مراكز التجميع والمحتشدات، حيث لم يكن وليدًا لسنة ١٩٥٩، بل كان في واقع الأمر قد عرف إرهابات مأساة اللاجئين الأولى منذ سنة ١٩٥٦، حيث تشير الإحصائيات المتوفرة بأن عملية الهروب نحو الحدود التونسية عرفت تزايداً مطرداً ارتبط بتصاعد العمليات العسكرية منذ سنة

بالإدارة الفرنسية إلى تسييج تلك المدن بالأسلاك الشائكة لئلا تكون هدفاً لقنابل الطائرات، وذلك بعد عملية تجميع كل السكان الأوروبيين المتفرقين في مختلف الضيعات، والقرى والبعض القليل من الجزائريين في تلك المراكز، تمهيداً لمرحلة الإبادة الجماعية لأغلبية السكان الجزائريين، وممتلكاتهم على هذه المساحة التي تعادل مساحة أربعة عمالات فرنسية.^(١٢) وبهذه الإجراءات التمهيدية شهدت السياسة الاستعمارية طوراً جديداً من أطوار حرب الإبادة الشاملة، حيث أصبحت معظم نواحي القاعدة الشرقية مهددة بالإبادة في "المنطقة المحرمة"، إذ تشير الأعداد التي جاءت في الإحصائيات الفرنسية الرسمية لسنة ١٩٥٤ إلى أن مجموع سكان تلك النواحي المهددة يقدر بـ ٣٤٤٩٨١ نسمة من الجزائريين^(١٣) يتوزعون على عدة نواحي وأقسام على امتداد المنطقة المحرمة من الشمال نحو الجنوب على التراب الوطني بمحاذاة الحدود التونسية.^(١٤)

لقد شرعت سلطات الاحتلال في تنفيذ الخطة التي اقترحتها شابان دالماس - CHARBAN DALMAS على المجلس الوزاري الفرنسي مع أواخر الشهر نفسه، وأعلنت عن جلاء سكان المنطقة المحرمة الجديدة الذي بلغ عددهم حسب إحصائياتها حوالي (٧٠) ألف نسمة، غير أن العدد الحقيقي لمجموع سكان هذه المنطقة يفوق (٣٠٠) ألف استناداً إلى إحصائياتها الرسمية لسنة ١٩٥٤^(١٥) وصرح شابان دالماس في نفس الإطار بأنه يجب ترحيل السكان في ظرف لا يتعدى ثمان أيام، الأمر الذي يخفي في طياته عزم السلطات الفرنسية على إبادة أكثر من (٢٠٠) ألف جزائري من سكان هذه المنطقة.^(١٦)

ثانياً: بداية مأساة اللاجئين الجزائريين خلال الثورة التحريرية

وفي مشهد تراجيدي تم إجلاء سكان المنطقة المحرمة وسط الإرهاب والتعذيب والتنكيل، في خط يمتد من عنابة إلى نقرين تجاه القرية التونسية "تمغزت"، عندما تلقت القوات الفرنسية المرابطة في هذه المنطقة من التراب الوطني أوامر بسحق كل مظاهر الحياة البشرية،^(١٧) الأمر الذي يثبت بعمق على أن الإرهاب الفرنسي ضد السكان هو جزء لا يتجزأ من السياسة الفرنسية في إطارها العام ويمارس بوعي وبتخطيط مسبق وأن التدمير المنظم للقرى التي اشتبه على أنها ساعدت الثوار، وإفناء سكانها هما العمود الفقري للإرهاب الفرنسي الذي يكلف عدداً أكبر من الضحايا.^(١٨) إن سياسة المسؤولية الجماعية التي تبنتها الإدارة الفرنسية، وحتى البرمجة نفسها في التوجه العام للمشروع الاستعماري، وظفت في عمليات ثأرية، وبكل "رسمية" تعتبر السلطات الاستعمارية أن كل قتيل أو قتلى، من جيش العدو

رابعاً: موقف قيادة الثورة التحريرية من قضية اللاجئين

وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى الدور الكبير الذي قامت به القاعدة الشرقية في الميدان الاجتماعي، إضافة إلى أدوار أخرى، تخص مهمتي النشاط العسكري، والدعم اللوجستيكي، وقد برز ذلك الدور بشكل خاص في التكفل بمجموعات اللاجئين على التراب التونسي، حيث همت قيادة القاعدة الشرقية فور استفحال الوضع المتردي بتزايد أعداد اللاجئين بتشكيل "لجنة الشؤون الاجتماعية" سنة ١٩٥٧^(٣٥) التي قامت بإحصاء أعداد اللاجئين الوافدين من الداخل^(٣٦) والشروع في تحديد، وتعيين المناطق التي يتم فيها استقرارهم على التراب التونسي^(٣٧) لتسهيل عملية توزيع الخيام والمواد الغذائية والملابس، حيث يذكر المجاهد نوار زراد في هذا السياق، بأن تموين اللاجئين، كان يتم وفق نظام دقيق بواسطة فدائيين من جيش التحرير الوطني مختصين لهذه العملية، وأن تقسيم المؤن على اللاجئين يتم أيضاً بواسطة بطاقات تموينية، بحيث تأخذ كل عائلة نصيبها بما يتناسب مع عدد أفرادها.^(٣٨) كما قامت هذه اللجنة بتنظيم الحالة المدنية^(٣٩) والتكفل بالرعاية الصحية لمجموع اللاجئين الجزائريين، وبالأخص الأطفال منهم الذين شكلوا نسبة 50%، وهم معرضين في كل الأحوال، ورغم كل الجهود، إلى الجوع، والبرد، والأوبئة، وخصوصاً إذا أدركنا تلك الوضعية السيئة للدولة المضيفة.^(٤٠)

وعلى الرغم من ذلك طلبت الحكومة التونسية من اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي في شهر جوان ١٩٥٧، معالجة مشكلة اللاجئين على أراضيها، الأمر الذي وسع من مهام اللجنة الاجتماعية، حيث أصبحت تعمل بالتعاون مع الصليب الأحمر الدولي، الذي قام بتسليم المواد الغذائية والأغطية، والملابس والأدوية إلى الحكومة التونسية، وأشرفت هذه الأخيرة على توزيعها على جموع اللاجئين بالتنسيق مع لجنة الشؤون الاجتماعية.^(٤١) ويجب الإشارة إلى أن؛ دور "لجنة الشؤون الاجتماعية" لم يكن بمعزل عن الجهود الجبارة التي قدمها الهلال الأحمر الجزائري^(٤٢) في سبيل إغاثة هؤلاء اللاجئين في كل من تونس والمغرب، إذ قام بتأسيس المراكز الصحية، والإشراف عليها، وتزويدها بما تحتاجه، كما أنشأ مراكز بآريانة يتسع إلى (٤٠٠) لاجئ على الأراضي التونسية.^(٤٣) كما كان له الفضل بالتنسيق مع قيادة القاعدة الشرقية، عندما قامت لجنة الشؤون الاجتماعية بفتح مركز للتكوين في الميدان الشبه طبي تحت إشراف بعض الأطباء الجزائريين من الهلال الأحمر الجزائري، وقد تخرج من هذا المركز العديد من الممرضين، والممرضات، تم توزيعهم لمباشرة مهامهم ضمن الفيلق التابعة لجيش التحرير

١٩٥٦، وقد بلغ عددهم ستون ألف في شهر أكتوبر ١٩٥٧، ثم قفز عددهم في شهر أكتوبر ١٩٥٨ إلى سبعين ألف لاجئ، وعرف خريف ١٩٥٩، طفرة كبيرة، فيما يتعلق بعدد اللاجئين، الذي سيرتفع بشكل مذهل، قدر بـ (١٥٠) ألف^(٣٨) الأمر الذي سيدق ناقوس الخطر بالنسبة لقيادة الثورة من جهة والمنظمات الإنسانية الدولية من جهة أخرى.^(٣٩)

وقد توافد العديد من هؤلاء اللاجئين على وجه الخصوص من قرى ودواوير مختلفة بالقاعدة الشرقية، وذلك باختلاف درجة تصاعد عمليات القمع والإبادة من منطقة لأخرى، وعن ظروف عملية النزوح التي لم تكن تخلو من الأخطار والمعاناة، يذكر المجاهد محمد حو في شهادته أن عملية النزوح كانت تتم بمساعدة كتائب جيش التحرير الوطني، وهي العملية نفسها التي تتم بها عملية حماية قوافل السلاح، وذلك من أجل حماية اللاجئين من الوقوع في قبضة العدو الذي كان يتحرك بصورة مستمرة على الخطوط المكهربة.^(٤٠) وينتهي وصول هؤلاء اللاجئين في صورة بائسة ومعاناة رحلة طويلة إلى الحدود التونسية الجزائرية، وعلى مسافة (٥٠٠) كلم انتشرت مجموعاتهم^(٤١) في أقرب المدن والقرى في الأراضي التونسية، ومن أهم المخيمات التي أقاموا فيها نذكر مخيمات عين الدالية، وسببلة، والقصرين، وتالة، وفريانة، وجملة بين القروان.^(٤٢)

ولم تكن إقامة هؤلاء اللاجئين على الأراضي التونسية تخلو من المعاناة بسبب الظروف الاجتماعية والصحية التي كانوا يعيشونها يومياً، وعندما يزورهم المرء في مخيماتهم يجد معظم مساكنهم عبارة عن أكواخ تفقر لأبسط شروط الصحة، الأمر الذي جعل حالة اللاجئين تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وخاصةً منهم الأطفال، الذين كان يتلقفهم الموت بسهولة، نتيجة سوء التغذية والافتقار لأبسط شروط الحياة.^(٤٣) وقد ارتبط تدهور حالة اللاجئين بتزايد أعدادهم نحو الحدود التونسية من سنة إلى أخرى حتى أصبحت وضعيتهم في مجملها مزرية للغاية، كما أشار إلى ذلك السيد لانت (LINDT) رئيس المفوضية العليا للأمم المتحدة حول وضعية اللاجئين في أوت ١٩٦٠، إلى أن هناك وضع سوء تغذية خاصة بالنسبة للأطفال الذين شكلوا نسبة ٥٠% من مجموع اللاجئين تليهم النساء بنسبة 35 % ثم الرجال بنسبة 15% الذين أغلبهم من المسنين والشيوخ.^(٤٤) لقد شكلت مأساة اللاجئين عبئاً من أكبر الأعباء الثقيلة، والمعقدة التي أثقلت كاهل الثورة التحريرية، الأمر الذي كان يفرض على قيادة جبهة التحرير الوطني مهمة التكفل بهم، بحكم ذلك الارتباط العضوي مع الثورة، رغم الإمكانيات المحدودة في ظل ظروف الحرب الاستعمارية الشرسة التي عرفت الجزائر حتى الاستقلال.

الوطني بالقاعدة الشرقية، وكذلك على قرى اللاجئين الجزائريين.^(٤٤)

أما بخصوص أبناء اللاجئين، عملت قيادة الثورة في القاعدة الشرقية على تجنيد مجموعة من المجاهدين المعطوبين لتدريس الأطفال الذين بلغوا سن التمدرس، وأعطت هذه العملية نتائج إيجابية خصوصًا عندما عرفت انتشارًا عبر جميع القرى والمخيمات التي حددتها اللجنة سابق.^(٤٥) وفي الإطار نفسه، قامت القيادة العامة للقاعدة الشرقية بمبادرة من قيادة الثورة في تونس سنة ١٩٥٨، بإرسال عدد كبير من الشباب الجزائري من أبناء اللاجئين الحاملين لشهادة التعليم الثانوي أو ما يعادلها إلى الكليات العسكرية والجامعات المدنية التابعة للبلدان العربية الشقيقة، وشمل تعليمهم جميع الاختصاصات سواء منها العسكرية أو المدنية.^(٤٦) وفي الميدان التكويني السياسي والعسكري، فإنه تم فتح مركز تكويني في الأجهزة اللاسلكية سنة ١٩٥٩، خصص لأبناء اللاجئين تحت إشراف مختصين في هذا الميدان، وقد تخرج منه عدد كبير من الإطارات في ميدان الاتصالات اللاسلكية، الأمر الذي دعم فيالق، وكتائب القاعدة الشرقية للاتصال مع بعضها البعض، لتسهيل عملية التنسيق أثناء العمليات العسكرية.^(٤٧)

خامساً: دور اللاجئين في الثورة التحريرية الجزائرية

لقد برز دور اللاجئين جلياً بمساهماتهم الكبيرة في الثورة التحريرية رغم معاناتهم اليومية خارج بلدهم، منذ توافد المجموعات الأولى على الحدود التونسية، إذ يذكر المجاهد محمد حو في هذا السياق بأن قيادة القاعدة قامت بوضع نواحي في كل مركز، وهذه النواحي تتشكل في هيكلتها على غرار النواحي المعمول بها في التراب الوطني، إضافة إلى الخلايا، وذلك من طبرقة إلى فج حسين، وقد تجند كل من بلغ سنة التجنيد.^(٤٨) وبالموازاة مع مهمة القاعدة الشرقية، في عملية تجنيد هؤلاء اللاجئين المتواجدين عبر التراب التونسي في أقرب النقاط من الحدود الشرقية للقاعدة قام أيضاً نظام جبهة التحرير الوطني في تونس بالعملية نفسها، حيث يذكر المجاهد الطيب الثعالبي بأن نظام جبهة التحرير الوطني في تونس، كان يقوم باختيار العناصر القادرة على حمل السلاح ثم يحولون إلى المراكز العسكرية من أجل التدريب، لدمجهم في صفوف الجيش، ويمكن القول أن المنظمة هي التي غذت جيش الحدود بنسبة كبيرة من قواته، وكان هذا العمل يتم بالتنسيق مع قيادة الحدود في الشرق.^(٤٩)

ومع بداية ١٩٦٠ قامت لجنة الشؤون الاجتماعية في القاعدة الشرقية بالتجنيد الإجباري لأبناء اللاجئين المتواجدين على الأراضي التونسية بالقرب من الحدود بناء على القرار الذي أصدرته القيادة العامة للثورة، الذي نص على تجنيد جميع أبناء

اللاجئين الجزائريين الذين بلغوا سن الرشد، وتدريبهم بطريقة عسكرية بهدف إدماجهم في صفوف جيش التحرير الوطني.^(٥٠) وفي السياق نفسه، يذكر المجاهد عمر مشري، أنه بعد تكوين هيئة الأركان العامة، قررت هذه الأخيرة إلحاق أبناء اللاجئين بجيش التحرير الوطني،^(٥١) ولعل ما يفسر هذه الإجراءات الجديدة التي قامت بها قيادة الثورة بعد إنشاء هيئة الأركان العامة، هي تلك المستجدات الجديدة التي أفرزتها السياسة الفرنسية بعد غلق الحدود الشرقية بإنشاء خط شال، مما أدى إلى انخفاض عدد عناصر جيش التحرير الوطني القادمين من الداخل، وهو ما جعل القيادة العليا للثورة تتجه نحو أبناء اللاجئين.^(٥٢)

خاتمة

رغم كل المجهودات إلا أنها لم تتمكن من حجب حجم مأساة اللاجئين الجزائريين الذين كانوا يعيشون داخل خيام وسط ظروف جد مؤلمة، ومع ازدياد حدة المعارك في الداخل وبالأخص على الخطوط المكهربة، أصبح عدد اللاجئين في تزايد وبصورة كبيرة، مما تعذر على قيادة الثورة وهيئاتها المحلية، وكذلك حكومتي تونس والمغرب، أن تلبي احتياجات هذه الأعداد الهائلة. ورغم مساهمات المنظمات الإنسانية الدولية، وفي مقدمتها الصليب والهلال الأحمر الدوليين في مد يد العون إلى جموع اللاجئين، غير أن ذلك لم يسد حاجاتهم، الأمر الذي أصبح يشكل مسألة إنسانية في تاريخ الثورة التحريرية، بعد أن دق ناقوس الخطر أصبح من الضروري أن تطرح مشكلة الجزائريين على المندوبية السامية للاجئين التابعة لهيئة الأمم المتحدة،^(٥٣) التي أعلن رئيسها سنة ١٩٥٩ بأن مشكلة اللاجئين، من أهم القضايا التي تستدعي جهداً متواصلاً وعملاً منسقاً للتخفيف من حالة البؤس والخصاصة التي يتخبط فيها كل من غادر أرضها قهراً.^(٥٤)

وخلاصة لما سبق، يمكن القول أنه بحكم الارتباط العضوي بين اللاجئين والثورة التحريرية بالنظر إلى الدور الذي لعبوه في مساندة ودعم جبهة التحرير الوطني، منذ اندلاع الثورة، فإن قضية هؤلاء لم تكن قضية لاجئين بالمعنى المتعارف عليه عالمياً، بل أصبحوا يمثلون قاعدة خلفية للثورة، التي استطاعت قيادتها في الخارج، وفي القاعدة الشرقية أن تكون منهم قاعدة بشرية قوية وهامة لدعم ومساندة العمل الثوري.^(٥٥)

الهوامش:

بوشقوف، سدارتة، وللمزيد من التفاصيل حول النواحي الأخرى التابعة للولاية الأولى، انظر: "النواحي المهتدة بالإبادة في المنطقة المحرمة الجديدة"، جريدة المجاهد، عدد ١٩، ١ مارس ١٩٥٨، ص ١٢.

(١٥) في حالة ما إذا ما أضفنا هذا العدد، المعدل السنوي لزيادة السكان وهو (2 %) يصبح سكان هذه المنطقة لا يقلون عن (٣٦٥) ألف نسمة، انظر: **طور جديد في حرب الإبادة**، مصدر سابق، ص ١٢.

(١٦) بعد الاطلاع عن الرقم الحقيقي لعدد سكان هذه المنطقة فإنه يستحيل إجلائهم في مدة ثمان أيام، ولنفسه أيضاً أن مجموع اللاجئين إلى تونس والذين قتلوا في عمليات القمع والإرهاب يقدر بـ ١٠٠ ألف، فيبقى هناك (٣٦٥) ألفاً من الجزائريين معرضين للإبادة المطلقة في المنطقة المحرمة.

(١٧) **ثلاث قصص عن أعمال الإبادة في الجزائر**، جريدة المجاهد، عدد ٢٠، ١٥ مارس ١٩٥٨، ص ٦.

(١٨) في تقرير ألقاه النائب (بير كلوسترمان) الذي شغل منصباً أعلى في سلاح الطيران الفرنسي في الجزائر، صرح أمام البرلمان الفرنسي حول تدمير القرى « إنني مضطر لأقوال بعض المناطق بوجه "الفلاكا"، لذلك يجب عليّ تدمير كل القرى التي لا أستطيع البقاء فيها، فواجبي الأول هو الحفاظ على أرواح الجنود الذين أتحمّل مسؤوليتهم»، انظر: إيفه بريستير، مرجع سابق، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(١٩) إيفه بريستير، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٢٠) أصبحت المنطقة المحصورة بين خطي (موريس وشال) محرمة ويتراوح عرضها بين ٥٠ و ١٠٠ كلم، يعيش سكانها في قرى أو في محتشدات وتجمعات أقامها العدو بعد ترحيل السكان من أماكن مختلفة، أما المنطقة التي تقع شرق خط شال، والتي تمتد من شرق أم الطبول إلى قرون عائشة (بوجار) على مسافة تقدر بين ١٠٠ كلم طولاً و ٤٠ كلم عرضاً بمحاذاة الحدود التونسية، أصبحت محرمة، بعد أن أقام فيها جيش التحرير الوطني، مراكز عسكرية في كل من عين الدراهم، والزيتونة، انظر: عمار قليل، **ملحمة الجزائر الجديدة**، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢١) بلقاسم النعيمي، **الثورة الجزائرية، أدوارها الرئيسية**، مجلة الشباب الجزائري، عدد ١١، أبريل ١٩٦٢، ص ١٠. وقد صرح دولوفري لجريدة لوموند في ١٤ أبريل ١٩٥٩ بأنه اتخذ قراراً بمراقبة شخصية لعمليات تجميع السكان في المحتشدات، لكن في مارس ١٩٦٠ بلغ عدد المعتقلين مليونين أي ربع السكان في الجزائر، بينما اعترف دولوفري بأنهم لا يتجاوزون مليون وربع في ندوة صحفية في مارس ١٩٦١، انظر:

ALGERIAN REPUBLIC, MINISTRY INFORMATION GENOCID IN ALGERIA, THE RESET LEMENT CAMPS, OCTOBRE 1960, P 14.

(٢٢) من أهم المحتشدات التي أقامها العدو بالقاعدة الشرقية، في إطار سياسة الإبادة الجماعية (المنطقة المحرمة)، نذكر: بولنجة، عين العسل، رمل السوق، الزيتونة، أم الطبول، بوجار، انظر: **محافظة الطارف، الملتقى الجهوي للقاعدة الشرقية (1959 - 1962)**، الطارف، - 17 16 أبريل 1987، ص ٢٢.

(٢٣) فتحي الديب، **عبد الناصر والثور الجزائرية**، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1984، ص ٢٢.

(٢٤) من مواليد سنة ١٩٣٥ ببلدية العيون، انخرط في صفوف جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٥٧، والتحق بصوف جيش التحرير الوطني سنة ١٩٥٩ برتبة رقيب، انظر: علي العياشي، **"مواجهة العدو في الحدود الشرقية"**، العددان ٨ / ٨٩، نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٨، ص ٤٣.

(١) شكل من أشكال السياسة الاستعمارية الفرنسية، طبقت في حربها بالهند الصينية، وكان أول قرار يقضي بوجود منطقة محرمة في الجزائر بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٥٤، انظر: **"المناطق المحرمة بدأت منذ بداية الثورة"**، جريدة المجاهد، عدد ٢٠، ١٥ مارس ١٩٥٨، ص ٥. وتجدر الإشارة إلى أن الأوراس، أنشأت فيها أول منطقة محرمة، في التاريخ المذكور أعلاه، وقدر عدد سكان الأوراس آنذاك بـ ٢٠٠ ألف نسمة، فرضت عليهم السلطات الفرنسية عن طريق مناشير، مغادرة المنطقة والتوجه إلى مناطق معينة في ظرف لا يتعدى ثلاث أيام، ولم يستجيب لهذا الأمر سوى عدد ضئيل من السكان، أغلبهم عجز وأطفال، انظر: عمار قليل، **ملحمة الجزائر الجديدة**، الجزء الثالث، دار البعث، قسنطينة ١٩٩١، ص ١٠.

(٢) نفسه، ص ٠٩.

(٣) نفسه، ص ١٠، وفي هذا السياق صرح الجنرال موريس شال لأحد مقربيه "لم أت إلى الجزائر ومعني مخطط مجهز... ولا يمكن البتة أن نقول بأن هناك مخطط يدعى مخطط شال لأن الحرب تعتبر تطور مستمرا"، انظر: بلقاسم آيت حمو، **"حقائق عن مخطط شال.. نحو عملية جومال"**، مجلة أول نوفمبر، عدد 19، نوفمبر 1984، ص ٥٣.

(٤) عمار قليل، المصدر السابق، ص ١٢.

(٥) بلقاسم آيت حمو، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٦) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرون**، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر ١٩٩٦، ص ٢٢٤.

(٧) إيفه بريستير، **في الجزائر يتكلم السلاح**، ترجمة عبد الله كحيل، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1989، ص ١٦٥.

(٨) حول تدمير القرى وتعذيب السكان، « يوضح الجنرال ماسو، بأن الظروف الموضوعية تحتم على جيشنا في الجزائر اعتماد هذه الأساليب الضرورية التي يجدها ضميرنا مقبولة معنوياً »، انظر: إيفه بريستير، مرجع سابق، ص 296، فإذا كانت تلك هي الحقيقة، لماذا يدعي الجنرال صالان في مذكراته فيما يتعلق بساقية سيدي يوسف، بأن الجيش الفرنسي دمر 90 % من الأسلحة المضادة للطيران التي كانت بحوزة الثوار، ولم يحدث أي تدمير للمساكن في المدينة ؟ انظر: RAOUL SALAN, memoires. presses de la cité. paris 1972. p 258.

(٩) يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(١٠) إن المناطق المحرمة ليست استراتيجية جديدة في حرب الجزائر، لكن الجديد في هذه المنطقة هو أن سلطات العدو عزمّت على إبادة المنطقة بأتم معنى الكلمة، وبذلك أقامت فرنسا دليلاً قاطعاً على عدم مراعاتها لقوانين الحرب التي تضمنتها اتفاقيات جنيف في ١٢ أوت ١٩٤٩، وبهذه الإجراءات التي تتنافى مع القيم الإنسانية فإن فرنسا تدوس على قوانين الحرب صراحة، انظر: **"طور جديد في حرب الإبادة"**، جريدة المجاهد، عدد ١٩، ١ مارس ١٩٥٨، ص ١٢.

(١١) يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(١٢) **طور جديد في حرب الإبادة**، مصدر سابق، ص ١٢.

(١٣) إن الإحصائيات الفرنسية المذكورة أعلاه لسنة ١٩٥٤ يجب أن تضاف إليها نسبة (6 %) أي المعدل العادي لزيادة السكان.

(١٤) ومن النواحي التابعة للقاعدة الشرقية التي أصبحت مهتدة بالإبادة في المنطقة الجديدة نذكر: القالة، قسم من ناحية عنابة، سوق أهراس،

(٣٥) تألفت هذه اللجنة من جبهة وجيش التحرير الوطني، وقد شكلت خصبًا للتكفل الاجتماعي لمجموع اللاجئين الفارين من التراب الوطني إلى الشريط الحدودي، انظر: إبراهيم العسكري، **لمحات من مسيرة الثورة الجزائرية، ودور القاعدة الشرقية**، دار البعث، قسنطينة، 1992، ص ٣٢٩.

(٣٦) تمت عملية إحصاء اللاجئين على التراب التونسي بالتنسيق مع الهلال الأحمر الجزائري، واستفاد هؤلاء اللاجئين من بطاقات خاصة تعرف ببطاقة اللاجئين.

(٣٧) من أهم المناطق التي حددتها لجنة الشؤون الاجتماعية على الأراضي التونسية، هناك: عين السلطان، ووادي بغلة، والفروحة، وكهف السنور، التي تحولت لاحقًا إلى قرى بسيطة بنيت بسواعد هؤلاء اللاجئين بمساعدة أفراد جيش التحرير الوطني، التابع للقاعدة الشرقية، انظر: إبراهيم العسكري، المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٣٨) **شهادة المجاهد نوار زراد** لمجلة أول نوفمبر، نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٨، ص ٤٣.

(٣٩) عملت هذه اللجنة على تنظيم الحياة الاجتماعية لهؤلاء اللاجئين، من خلال تسجيل المواليد والوفيات، كما سنت نظامًا يضبط الحياة الزوجية، والعقود، والطلاق، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النظام، ما هو إلا امتداد للنظام المعمول به في التراب الوطني، بناءً على نصوص قرارات مؤتمر الصومام ١٩٥٦.

(٤٠) إن ما يفسر أيضا استمرار تلك الوضعية المزرية لمجموع اللاجئين الذين قدر عددهم بـ ١٥٠ ألف، هو استقرارهم في بلد صغير، وفقير مثل تونس، التي بلغ عدد العاطلين عن العمل فيها ٤٠٠ ألف من أصل 3,5 مليون نسمة، انظر: **مأساة اللاجئين، فضيحة الإنسانية**، مصدر سابق، ص ٨.

(41) EDWIGE FASSIER, OP.CIT, P 1

وأيضًا: إبراهيم العسكري، المصدر السابق، ص ٢٢٩ - ٢٣٠، وتجدر الإشارة إلى أن التونسيين المقيمين على الحدود، كانوا يتمتعون بالدعم نفسه الذي MOHAMED GUENTARI, , ORGANISATION POLITICO - ADMINISTRATIVE ET MILITAIRE DE LA REVOLUTION, . T.II, OPU, ALGER, 1994.P713.

(٤٢) أنشأ الهلال الأحمر الجزائري في ٨ جانفي ١٩٥٧ في طنجة، ثم حول مقره إلى تونس، ويمكن القول أنه كان نتيجة حتمية للأوضاع التي كان يعيشها الشعب الجزائري بسبب الإبادة الجماعية للسكان، انظر: FROUK BENATIA, OP.CIT. P 81، وأيضا: عمار قليل، الجزء

الأول، المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(٤٣) نفسه، ص ٣٦٠.

(٤٤) إبراهيم العسكري، المصدر السابق. ص ٣٣٣، وزيادة عن الأعمال التي قام بها الهلال الأحمر الجزائري لإغاثة اللاجئين في العلاج والإسعاف، وتوفير الأدوية، كان له أيضًا اتصال بالهلال والصليب الأحمر الدوليين، لفائدة هؤلاء اللاجئين من أبناء الثورة، واستطاع أيضًا الحصول على لائحة لصالح اللاجئين في نوفمبر ١٩٥٧، على إثر انعقاد المؤتمر التاسع عشر الدولي لهيئة الصليب الأحمر بدلهي الجديدة، انظر: عمار قليل، المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(٤٥) إبراهيم العسكري، المصدر السابق، ص ٣٣٠.

(٤٦) إبراهيم العسكري، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٤٧) نفسه، ص ٣٣٠، وفي الوقت نفسه قامت القاعدة سنة ١٩٥٧، بإنشاء ورشة خياطة الألبسة العسكرية لعناصر جيش التحرير الوطني.

(٢٥) نفسه، ص ٤٢.

(٢٦) عرفت قضية اللاجئين تجاوبا كبيرا في العالم إذ اعتبرت الفترة الممتدة من ٢٨ جوان ١٩٥٩ إلى نهاية جوان ١٩٦٠، كسنة عالمية للاجئين، وتزامن ذلك مع اشتداد وقع الحرب الطاحنة على السكان المدنيين في الجزائر، انظر:

FRANK BRIDAL, LES 150,000 REFUGES ALGERIENS DE TUNISIE, LA TRIBUNE GENEVE, 10 - 11 OCTOBRE 1959. P 1.

(٢٧) استنادًا إلى برنامج ضمان المعونة الغذائية التي قامت به رابطة جمعيات الصليب الأحمر في مساعيها لدى هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٩ فإن عدد اللاجئين الإجمالي قُدر بحوالي ٢٩٠ ألف لاجئ في كل من تونس والمغرب. انظر:

EDWIGE FASSIER, PLUS DE 50,000 PETITS ALGERIEN ATTENDENT VOTRE SOCOURS, LATRIBUNE SUISSE, 10.OCTOBRE 1959, P 1.

وفي مذكرة رفعتها جبهة التحرير الوطني إلى الأمين العام للأمم المتحدة عن طريق ممثلها في نيويورك السيد شندري أن خمس سنوات من الصراع بين الشعب الجزائري وفرنسا قُتل أكثر من ٥٠٠ ألف ضحية من المدنيين، وسجن ١٠٠ ألف شخص في المحتشدات، وفر ٣٠٠ ألف لاجئ إلى الدول المجاورة (تونس والمغرب)، انظر:

ALGERIEN REPUBLIC, IN THE WORK CITED, P28.

(٢٨) **مأساة اللاجئين، فضيحة الإنسانية**، جريدة المجاهد، عدد ٥٥، ١٦ نوفمبر ١٩٥٩، ص ٨، وأيضا:

FRANK BDIDAL, OP.CIT. P1

(٢٩) إن مشكل اللاجئين دفع بحكومتى تونس والمغرب إلى تحمل ممارسة كل أشكال الضغط والتمشيط مع ما تملّيه السلطات الفرنسية لإنهاء الحرب، إضافة إلى أن تضخم مشكلة اللاجئين الجزائريين، سيشكل عبئا كبيرا على عاتق قيادة الثورة، مما يحد من قدراتها المالية والمادية للتفرغ كلية الواجب القتالي، انظر: فتحي الديب، مصدر سابق، ص ٣٦٥.

(٣٠) **شهادة المجاهد محمد حو**، لمجلة أول نوفمبر، عدد ٩٨-٩٩، نوفمبر، ديسمبر ١٩٨٨، ص ٤٣. ويضيف المجاهد عمار شمام (شكاي) في السياق نفسه، أنه لولم تكن الكتائب التابعة للقاعدة الشرقية، لما استطاع الأفراد والعائلات (اللاجئين) العبور نحو الحدود التونسية، انظر: المنظمة الوطنية للمجاهدين، الملتقى الوطني لثاني لتاريخ الثورة، الجزء الثاني، المجلد الثالث، **نادي الصنوبر**، ٨-١٠ ماي ١٩٨٤، ص ٢٧.

(31) EDWIGE FASSIER, LES ENFANTS REFUGES ALGERIENS, LA TRIBUNE SUISSE, N° 49, 03 DECEMBRE 1960, P 1.

أما في المغرب تم تجميعهم في منطقة وجدة من بينهم ١٠ آلاف، اختاروا الجنوب في منطقة تافيلالت الشبه الصحراوية.

(٣٢) **"ثلاثة قصص عن أعمال الإبادة في الجزائر"**، جريدة المجاهد، عدد ٢٠، السبت ١٥ مارس ١٩٥٨، ص ٦ - ٧، وأيضا: عمار قليل المصدر السابق، ص ١٩.

(٣٣) **"اللاجئون هل يفكر فيهم أحد"**، جريدة المجاهد، عدد ٣٦، ٦ فيفري ١٩٥٩، ص ٢، وأيضا: محمد الأخضر السائحي، **نوفمبر، الصوت والصدى** (الموسوعة التاريخية للشباب)، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر ١٩٨٥، ص ٨٥.

(34) EDWIGE FAESSIER, OP.CIT, P.1.

وأيضا: **مأساة اللاجئين، فضيحة الإنسانية**، مصدر سابق، ص ٨.

(٤٨) شهادة المجاهد محمد حو لمجلة أول نوفمبر، نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٨، ص ٤٣.

(٤٩) علي العياشي، نظام جبهة التحرير الوطني في تونس (حوار مع المجاهد الطيب الثعالبي)، مجلة أول نوفمبر، عدد ٩٣ - ٩٤، ماي - جوان ١٩٨٨، ص ٤٧.

(٥٠) إبراهيم العسكري، المصدر السابق، ص ٣٣٠.
(٥١) خليفة الجنيدي، حوار حول الثورة، ج ٣. المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام. الجزائر. ١٩٨٦، ص ٣٩.
(٥٢) من أبرز المراكز العسكرية التي خصصت لتدريب أبناء اللاجئين نذكر: حمام السيلة، قرب باجة، مركز قرب الحلفاية قرب الكاف، الزيتونة قرب غار الدماء، مزرعة بني PENY المعروفة بمزرعة موسى نسبة إلى موسى لحوا سنية الخ. انظر:

MOHAMED GUENTARI, OP.CIT. P 717

(٥٣) "ما وصل إلى اللاجئين من إعانات"، جريدة المجاهد، العدد ٤٢، ١٨ ماي ١٩٥٩، ص ٢. لقد أقرت هيئة الأمم المتحدة، يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٨، مشروع قرار تقدم به المنجي سليم نائب تونس والفيلاي نائب المغرب لدى هيئة الأمم يتضمن حث المندوب السامي للشؤون الاجتماعية على الإسراع بمساعدة اللاجئين بكيفية ناجعة، وقد حاز القرار على أغلبية ٥٢ صوتاً مقابل صوتين هما: فرنسا وجنوب إفريقيا، وامتناع ١٥ دولة عن التصويت، انظر: عمار قليل، الجزء الثالث، المصدر السابق، ص ١٦.

(٥٤) ما وصل إلى اللاجئين من إعانات، مصدر سابق، ص ٢.
(٥٥) محمود الواعي، مهام جيش التحرير وجبهة التحرير الوطني أثناء المرحلة الانتقالية من ١٩ مارس إلى ٢٦ سبتمبر في جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة في لأوراس، المرحلة الانتقالية للثورة من ١٩ مارس ١٩٦٢ إلى سبتمبر ١٩٦٢، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ١٩٩٥، ص ٢٠٣. ويذكر المجاهد خليفة الجنيدي في هذا السياق أن غالبية جيش الحدود هم من اللاجئين، انظر: خليفة الجنيدي، المصدر السابق، ص ٤٢.

آلية الإصلاحات ضمن المخطط الاستعماري الفرنسي تجاه المغرب خلال المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

د. محمد العواد

أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر - المملكة المغربية



ملخص

تولد الإصلاح عند المغاربة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عن شعور بالخطر وطريقة للدفاع من أجل مواجهة هذا الخطر، ففكرة الإصلاح وليدة ظروف داخلية وأخرى خارجية. وفي هذا الإطار اقتنع سلاطين المغرب بضرورة الإصلاح والتحديث خصوصاً وأن فرنسا كانت تدفع في هذا الاتجاه بالاعتماد على قدراتها العسكرية والمالية والإدارية والثقافية. ارتبط الإصلاح في المغرب بالضغط الإمبريالية التي كانت تمارسها فرنسا، وكانت سياسة الإصلاح التي تبنتها تهدف النفوذ إلى المغرب للسيطرة عليه. فقد عملت فرنسا إما على فرض إصلاحات على المغرب، أو إفشال تلك المحاولات الإصلاحية الجادة التي حاول المخزن المغربي إدخالها للحد من خطورة التدخل الأجنبي، وفي هذا الصدد شملت سياسة الإصلاحات تجاه المغرب المجال العسكري والاقتصادي والسياسي والثقافي. لقد أدى اعتماد المغرب على الاستشارة الفرنسية في مجال الإصلاحات إلى فتح دواليب ومؤسسات الدولة للعناصر الأجنبية، مما نجم عنه الاعتماد الكلي على الإمكانيات العسكرية والمالية الفرنسية وهو ما أدى إلى إسقاط الدولة في الاستدانة الأمر الذي كان له انعكاسات خطيرة على مستقبل الدولة.

كلمات مفتاحية:

الجيش المغربي، الاستعمار الفرنسي، سياسة القروض، تاريخ المغرب الحديث

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ سبتمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٩ يناير ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد العواد، "آلية الإصلاحات ضمن المخطط الاستعماري الفرنسي تجاه المغرب خلال المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٢٨ - ٣٦.

مقدمة

هذه المرحلة كانوا مقتنعين بضرورة الإصلاح والتحديث، خصوصاً وأن الدول الأوروبية وخاصة فرنسا كانت تدفع في هذا الاتجاه بالاعتماد على قدراتها وإمكانياتها العسكرية والإدارية والتعليمية، وإذا كانت عمليات التحديث قد ووجهت بالرفض من طرف العلماء "المحافظين" فلأنهم كانوا يعتبرون ذلك تغييراً بل وتعزيزاً للوجود الأوربي بالمغرب واستنزافاً للأموال المغربية، خصوصاً وأن عملية الإصلاح كانت تتطلب إمكانيات مالية ضخمة وهو ما لم يكن يتوفر للمغرب مما دفع به إلى الاستدانة من الدول الأوروبية، فكانت النتيجة تحكم الدول الأوروبية بمالية وميزانية المخزن المغربي الشيء الذي دفعه إلى إعلان إفلاس الدولة.^(٢)

إن الوضعية الداخلية إلى جانب التهديد والتغلغل الأوربي في المغرب، هي التي دفعت المغاربة للتفكير والتخطيط، فعلى المستوى الرسمي عمل المخزن على تنظيم الجيش وإصلاحه وتجديده، وتنظيم الإدارة والحكومة وإدخال بعض الصناعات وخصوصاً الحديثة منها، ومحاولة تنشيط الحركة العلمية وتطويرها وإرسال البعثات إلى الخارج، أما على المستوى "الشعبي" فقد تحرك العلماء كنخبة واعية في الأمة لمواجهة التغلغل والتهديد الأوربي، وذلك بفعل نفوذهم الأدبي والروحي على الرعية والسلطة معاً.^(١) لاشك أن سلاطين المغرب خلال

موفقًا معارضةً للإصلاحات فثاروا ضد السلطان، ولعل أهم الثورات هي التي تزعمها الشريف الدرقاوي محمد بن العربي المدراري حيث اتهم السلطان بأنه "باع نفسه للأفكار الغربية"^(١٠).

إن الذي جرى في المغرب خصوصًا خلال القرن التاسع عشر الميلادي من محاكاة بعض التقنيات الأوربية، لم يشكل إصلاحًا بأي شكل من الأشكال، وأن تلك المحاولات كانت من أعمال التناور الاستعماري والامبريالي على المجتمع المغربي لزعة أوضاعه الداخلية، إذ كانت فرنسا بعمية الدول الأوربية تسعى جادة إلى زعزعة الأوضاع الموروثة لتمسك بزمام الحكومات القائمة، وما جرى للمغرب في سنة ١٩١٢ يكاد يشبه الإخراج السينمائي أو التخطيط الهندسي - على حد تعبير الأستاذ إبراهيم بوطالب - بخطوات رتيبة منظمة ومتسلسلة ومنطقية يتعجب لها المؤرخ.^(١١)

نلاحظ بعد هذه النظرة العامة حول مسألة الإصلاحات في المغرب، بأن الإصلاح كان عبارة عن سلسلة من المناورات الامبريالية، فالفرنسيون اتبعوا نفس المخطط في سياستهم سواء في الشرق الإسلامي أو غرب، وظفوا خلالها آلية الإصلاح بنفس السيرة، فهم المسؤولون عن تردي الأوضاع في المغرب، وهم من أخذ على عاتقه إصلاح الأوضاع، هذا الإصلاح الذي لم يكن إلا وجهًا من وجوه السياسة الإمبريالية الفرنسية تجاه العالم الإسلامي.

سياسة فرنسا الإصلاحية في المجالين العسكري والاقتصادي

أولاً: الميدان العسكري

١-١- سياق الإصلاح العسكري:

بعد التجارب التي شهدتها المغرب في ميدان إصلاح الجيش، كان أهمها إحداث جيش عبيد البخاري من طرف المولى إسماعيل، لم يجن المغرب بعدها إلا الهزائم بفعل الضعف الذي دب في الجند، كانت بدايته مع جيش عبيد البخاري نفسه، الذي قال عنه الناصري "...صاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون إلى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم"^(١٢). ومن المعضلات التي جثمت على النظام العسكري المغربي، اعتماده على محور قبلي ساهم إلى حد كبير في إضعاف قتاليته. ومن مظاهر ضعف الجند أيضاً تنظيمه لمظاهرات سلمية يطوف من خلالها على السفارات والقنصليات طالبا التوسط لدى المخزن إما من أجل تجديد كسوته أو إرسال مؤونة أو صرف راتب^(١٣). كما أنه وفي كثير من الأحيان كان يغيب الانضباط داخل الجيش المغربي، فيتحول إلى عامل معيق في استتباب الأمن، وقد وصف الناصري هذا الأمر قائلاً: "...فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم، فهم في ذلك مساوون في الاستبداد لأمير الجيش لا يملك من أمرهم شيء، وإنما يقاتلون هداية من الله لهم، وحياء من الأمير"^(١٤).

لقد أكد ممثل بريطانيا في المغرب "جان دراموند هاي" على ضرورة خوض غمار الإصلاح واعتبر أن ذلك هو الكفيل بالنهوض بأوضاع المغرب، رغم أن سياسة الإصلاح التي حاولت بريطانيا بعمية فرنسا فرضها على المغرب كانت إحدى الوسائل لتسهيل استغلاله. إن التفوق الأوربي الذي تحدث عنه "دراموند هاي" قد أدركه المغاربة أيضاً، فقد عبر الناصري عن ذلك بقوله "... فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع الإفرنج وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيراناً ولا يهتدي إليه سبيلاً، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء"^(١٥). لقد ارتبط الإصلاح في المغرب بالضغوط الإمبريالية التي كانت تمارسها القوى الأوربية ومنها فرنسا على المغرب. وكان هذا الإصلاح يستهدف النفوذ إلى المغرب للسيطرة عليه، ولهذا رفض المغاربة هذا النوع من الإصلاح^(١٦). غير أن هناك إصلاحاً تمثل في عدد من الاقتراحات الصادرة عن ذوي النيات الحسنة، والتي قدم الأستاذ المنوني (رحمه الله) نماذج منها في كتابه، لكنها كانت جزئية وسطحية.^(١٧)

لقد شرع المخزن خاصة منذ ١٨٦٠ في سلسلة من الإصلاحات من أجل استعادة سلطته وتحسين موارده للوقوف أمام جشع القوى الأوربية، غير أنه سرعان ما ظهرت ملامح الضغط الأوربي على المخزن لإرغامه على القيام بإصلاحات تحت إشراف هذه القوى وقد أجاب السلطان محمد بن عبد الرحمن ممثل فرنسا Tissot وذلك فيما يخص اقتباس الإصلاحات من الآخر^(١٨). وأوفد المخزن عدة بعثات وسفارات للوقوف على ما وصل إليه الآخر من تطور، وهناك ثلاث سفارات رسمية الأولى سنة ١٨٦٠ للعمراوي والثانية سنة ١٨٧٥ للجعايدي وسفارة ثالثة قادها الكرودوي سنة ١٨٨٥.

تحدث العمراوي كثيراً عن واقع فرنسا السياسي، كما أعجب بالنظام البرلماني المتبع بهذا البلد، أما الجعايدي فقد كان أكثر توضيحاً لأوضاع أوروبا السياسية لأنه زار عدة بلدان منها فرنسا وبلجيكا وإنجلترا وإيطاليا، في حين رصد الكرودوي أوضاع إسبانيا السياسية^(١٩). تلتقي هذه الرحلات في اهتمام أصحابها بتسجيل ارتساماتهم عن مخترعات المدنية الجديدة، مع رصد أكثر الأنظمة العسكرية الحديثة ووصف البواخر والقطارات وأجهزة التلغراف. لاشك أن وصف السفراء لمعطيات النهضة الحديثة كان يهدف بالدرجة الأولى إلى تعريف دولتهم بمزايا هذه الحضارة قصداً للاقتباس منها، وقد نوه العديد منهم بما وصلت إليه أوروبا ودعوا إلى الاقتباس منه^(٢٠). ورغم كل هذا التنويه بالتطورات التي عرفتها الدول الغربية والدعوة إلى الاقتباس منها، فإن المخزن لم يعد قادراً على الاستمرار في سياسة الإصلاحات المدعومة من طرف الأجانب لأن ذلك كان يعني في نظر الرعية تورط السلطان مع الأوربيين ضدها^(٢١). بل لقد وقف الصوفية

وحدات من جيش وهران إلى وجدة للسلام على مولاي الحسن، وقام بمناورات أعجب بها السلطان خصوصاً وأن جيوشه كانت قد انهزمت في "حركة" ضد بعض القبائل الشرقية^(١٩). وبعد أخذ ورد تم الاتفاق في الأخير على قبول المخزن لبعثة عسكرية دون طابع رسمي لمساعدة السلطان على تنظيم وتدريب وحدات جيشه، وكانت هذه البعثة الأولى مكونة من عناصر عسكرية من الجيش الفرنسي في الجزائر، وكان الحاكم العام الفرنسي في الجزائر هو الذي اقترح أفرادها وقد أرسلت هذه البعثة سنة ١٨٧٧.^(٢٠)

نقلت البعثة الفرنسية من وجدة إلى الرباط في دجنبر ١٨٧٩ على إثر إلحاح البعثة، وكذلك على إثر اضطرابات في وجدة ومحاولة اغتيال تعرض لها "اليوتان" (Journé)، وللإشارة فإن عمل البعثة في وجدة لم يكن ذا قيمة تذكر^(٢١). وتوالى على رأس البعثات الفرنسية عدة رؤساء بعد "إيركمان" إذ خلفه (Levallois)، ثم (De Breuille)، ثم كوشميز (Cauchmez)، ثم مانجان (Mangin)، ولاراس (Larras).

لائحة البعثة العسكرية الفرنسية الأولى^(٢٢)

القبطان بايرن	رئيس بعثة	من الرماة
اليوتان جورني	مدرب مشاة	زواف (من زواوة)
اليوتان إيركمان	مدرب المدفعية	المدفعية
الماجور ليناريس	طبيب	-
مرشال ريشكير	مدرب المدفعية	المدفعية
اليوتان ماجور فييل	مدرب مشاة	زواف
اليوتان محمد ابن أحمد	مدرب مشاة	رماة
منصور ابن إبراهيم	مدرب مشاة	-

لم تكن نتائج البعثة الفرنسية في التكوين العسكري للجيش وتحسين مستواه التقني بالمهمة، ولم تكن هذه النتائج في مستوى المصاريف التي أنفقها المخزن وهذا بشهادة البعثات نفسها، ففي التقرير الذي بعثه رئيس البعثة عن نتائج المدربين الفرنسيين في وجدة في ٩ دجنبر ١٨٧٩ نجده يقول "... إن نتائج هذه البعثة سلبية، ولا تتناسب أبداً مع المصاريف التي أنفقها المخزن، ولم تدرب هذه البعثة إلا ٢٨٠ رجلاً، وقد وجدت صعوبة كبيرة في تعليم العساكر الوقوف في الصف بدون حركة والسكوت والنظام".^(٢٣) لقد أثر وجود المدربين والضباط الفرنسيين في الجيش المغربي على ميزانية المخزن وزاد من مديونيته، إضافة إلى الأجور التي كانت تساوي ضعف ما كانت تمنحه لهم حكوماتهم، كان المخزن يتكفل لهم بالسكن والخيول وتعويضات عن رجوعهم لبلادهم وتعويضات إذا أصابهم ضرر^(٢٤). وأدت محاولات المخزن الإصلاحية إلى توطيد المصالح الفرنسية عوض عرقلة نموها والوقوف في وجه التبعية لها، وسهلت التغلغل

وبالإضافة إلى هذه العوامل الداخلية التي دفعت بالمخزن إلى التفكير في إصلاح الجيش والاعتماد على الأطر الفرنسية على الخصوص، هناك عوامل أخرى خارجية جعلت أمر إصلاح الجيش المغربي أكثر إلحاحاً، أهمها الهزائم العسكرية المتوالية. وتعد معركة إيسلي أهم منعطف عرفه المغرب سنة ١٨٤٤ والتي توجت سلسلة من الإخفاقات العسكرية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، منها مثلاً الفشل في استرجاع سبتة ومليلية، فقد كشفت هذه المعركة عن ضعف المغرب عسكرياً، وفتحت شهية القوى الأجنبية للتدخل في شؤونه. ولم تكن أيضاً حرب تطوان سنة (١٨٥٩-١٨٦٠) بالأهون على المغرب؛ فقد أكدت الضعف الذي كان ينخر أوصال هذا البلد، إضافة إلى عار الهزيمة العسكرية تبقى نتائجها أفطع، فقد كتب الناصري يقول: "... ووقعة تطاوين هذه أزال حجاب الهيبة على بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكساراً لم يعهد لهم مثله، وكثرت حمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير".^(٢٥)

٢/١- ملامح التدخل الفرنسي في الميدان العسكري:

إن إصلاح الجيش المغربي كان أول إصلاح تناول جهاز الدولة، فبعد موقعة إيسلي ١٨٤٤، بدأت المحاولات الأولى لتجديد الجيش أيام السلطان المولى عبد الرحمن، حيث نظمت في عهده بعض فرق الجيش على نسق نظام الجيش التركي. وبفعل الهزائم المتوالية للمغرب أميط اللثام عن الوضعية الجديدة في بر النصارى، فتجلى آنذاك لا التفوق العسكري الفرنسي فقط، بل نية الفرنسيين الواضحة لاستعمال هذا التفوق لغزو التراب المغربي، فكيف، والحالة هذه، لا تفرض فكرة الإصلاح نفسها على الحكام كضرورة ملحة مستعجلة.^(٢٦)

ويظهر تعليق البارون "شخويننخ" حول الجيش المغربي في الفترة نفسها أن هذا الجيش الذي يعتمد في القتال على أسلوب الكر والفر لن يستطيع مقاومة الآلة العسكرية الأوربية فلن يجرؤ ألف جندي مغربي من المشاة على مواجهة خمسين رجلاً من الجنود الأوربيين الذين حسن تدريبهم^(٢٧). ومهما كان الأمر فقد ترسخت لدى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام وابنه سيدي محمد ضرورة التفكير في شروط وشكل إصلاحات مماثلة لما تم في المشرق، لقد طمحا إلى تكوين نواة جيش قادر على تعويض قبائل الكيش وجيش البخاري الذين ظلوا إلى ذلك الوقت أساس الجيش المغربي.^(٢٨)

استغلت فرنسا إذن رغبة المخزن هذه في إصلاح الجيش فكثفت من تحركاتها لكي يكون لها قصب السبق في إصلاح الجيش أو بالأحرى أن تجد موقعا مريحا بالمغرب تراقب منه هذا البلد الذي تبقى لها لاستكمال بناء إمبراطورية فرنسا بشمال إفريقيا. وفي هذا الصدد تعد البعثة الفرنسية أولى البعثات العسكرية الأوربية التي قدمت إلى المغرب من أجل تدريب الجند. لقد قَدَّم الجنرال (Osmont) سنة ١٨٧٦ على رأس

الأجنبي داخل المؤسسات المغربية إلى أن تطور الأمر إلى سقوط هذه المؤسسات تحت السيطرة الأجنبية.

كانت فرنسا في حاجة ماسة إلى من يعيش داخل المخزن ويوجه اختياره موهما إياه أنه هو الذي يختار، ثم إن الحكومة العامة في الجزائر كان يهمها تتبع التغيرات العسكرية في المغرب وكانت غايتها هي دفع السلطان الذي يريد تنظيم جيشه إلى اختيار مدربيه من فرنسا عوض أن يلتجئ إلى قوة أخرى. ويعلق الجنرال "كورو" قائلاً: "... فيما يخص طواوير الشرطة والفرق العسكرية والتي تنولى تدريبها فإن في ذلك سلاحاً ذا حدين: إذا بقينا أقوياء وإذا اشتد نفوذنا بالمغرب وفرض على السلطان أكثر فأكثر، فإن هذه القوة ستضل في خدمتنا، وسيكون عليها منطقياً أن تقوم يوماً ما بتكوين نواة لفيالق مغربية يتم إنشاؤها كما هو الشأن بالنسبة للجزائريين لدينا".^(٢٥)

لقد كان للبعثة الفرنسية تأثير ملموس على تطور البلاد السياسي، فأصبح المخزن لا يواجه ضغوط ومناورات الممثلين الأجانب المقيمين بطنجة فحسب، بل صار أيضاً يواجه تحركات ومناورات المدربين العسكريين المقيمين داخل البلاط السلطاني وذلك ما نص عليه تقرير سري جاء فيه "... حينما انتهزت فرنسا الفرصة سنة ١٨٧٧ لما أظهره مولاي الحسن من اهتمام بالشؤون العسكرية واغتنمت الفرصة لإقامة بعثة عسكرية في المغرب، فإن سياستها كانت لا تستهدف إعانة المخزن الشريف على تدريب جيشه تدريباً عسكرياً أوروبياً، بل إحاطة السلطان بهيئة قادرة على تميم العمل السياسي الذي تقوم به قنصلياتنا".^(٢٦) ونجد هذا التوجه فيما لاحظه "سان روني طابندي" حيث قال: "... إن وجود عسكريين فرنسيين داخل الجيش المغربي معناه استقرار الجيش الفرنسي داخل المخزن، وهو يعزينا على بقاء جيشنا على الرغم من قوته عاجزاً عن تعدي الحدود بسبب اللعبة الدبلوماسية"، وقد أكد هذا الأمر أيضاً سفير فرنسا (Ordega) في أحد تقاريره بأن " دور البعثة العسكرية دور سياسي محض"^(٢٧). ونورد في موقع آخر نفس الهم الذي كان يشغل الساسة الفرنسيين وما كانوا يتوسمون في البعثات العسكرية يقول (Feraud) الذي خلف (Ordega) "...إن دورهم (أي أعضاء البعثة العسكرية) ظاهرياً هو التدريب، ولكن الحقيقة هي أن هؤلاء الضباط موجودون هنا ليذكروا بالنفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا، وبعزمنا الأكيد على عدم التنازل عن حقوقنا وامتيازاتنا في هذه المنطقة".^(٢٨)

ففي إطار المهام المنوطة بالبعثات العسكرية وهي المهام التي تبعد كثيراً عن تدريب الجيش المغربي، كانت هذه البعثات ترسل تقارير سياسية لوزارة الخارجية وتقارير لوزارة الدفاع، وكانت تهتم هذه التقارير بالحالة السياسية والعسكرية للبلاد وبنقط الضعف التي يمكن لفرنسا استغلالها وعن حركات السلطان وسكنااته ودراسة لعقلية المخزن وأفراده وكيف يمكن

استعمالهم لصالح فرنسا وعن البعثات الأوربية الأخرى ونواياها وسياسة حكوماتها والأسلحة التي تتبعها للمغرب، وبهذا يكون أعضاء البعثات العسكرية جواسيس على ما يروج في البلاد.^(٢٩) إنه بحكم دورهم السياسي والأهداف المتوخاة منهم ومساهماتهم أحياناً في العمليات العسكرية ضد القبائل المتمردة فإن اختيار رؤساء هذه البعثات كان يخضع لبعض المقاييس الدقيقة لا علاقة لها بالخبرة أو المهارة الفنية، بل كانت تشترط فيهم خصال أخرى منها الذكاء السياسي وقدرة إمعان النظر في حقيقة الأمور واستنتاج ما يمكن الانتفاع به لخدمة "المصلحة العليا لفرنسا" وكسب صداقة ومودة الشخصيات المخزنية البارزة.^(٣٠)

وفي هذا الإطار يمكن اعتبار Jean Jacques Jules Erckman نموذجاً للضباط الذين استجابوا لإستراتيجية حكوماتهم وتفانوا في خدمتها، فقد شرع في القيام بالمهمة التي جاء من أجلها وهي "إيجاد أحد داخل القصر المغربي ليؤثر على فكر السلطان"، وقد نال ثقة السلطان الذي أسند له سلاحه الرئيسي "المدفعية"، وصار يستشيريه في أمور كثيرة خصوصاً منها إبداء الرأي في جودة الأجهزة العسكرية التي كانت تعرض على المخزن، ويفتخر "إيركمان" في هذا الشأن بالأدوار التي قام بها لمزامحة الأجانب الآخرين.^(٣١) وبالإضافة إلى الضباط المشرفين على تدريب الجيش، اعتمد التسرب الاستعماري أيضاً على الأطباء الملحقين بالبعثات العسكرية، ويمكن اعتبار نجاح الدكتور الفرنسي "ليناريس" (Linares) بمثابة نموذج في هذا المضمار.^(٣٢) لقد أحرز "ليناريس" على ثقة السلطان والشخصيات المخزنية وأعيان العواصم التقليدية، ولكي يقضي على كل الشكوك والحساسيات التي كانت تثيرها صفته العسكرية أُقيل من وزارة الدفاع الفرنسية ووضعه في "مهمة" لدى الوزير المفوض الفرنسي، وحتى بعد مغادرته للمغرب سنة ١٩٠١ بقيت الحكومة تستشيريه في الشؤون المغربية.^(٣٣)

نلاحظ إذن كيف وظفت فرنسا باسم الإصلاح شخصيات دخلت المغرب في إطار الإصلاح العسكري، واستطاعت التوغل داخل كل الأجهزة المخزنية وتمكنت من تزويد الحكومة الفرنسية بمعلومات ثمينة حول المغرب. وهكذا وبالتدريج فتحت العواصم السلطانية لباقي البعثات العسكرية الأخرى وللتجار الأجانب والقناصل والبعثات الدينية والتبشيرية.^(٣٤) لقد كان بالمغرب مناصرون للإصلاح العسكري تحت إشراف فرنسا، ومن أمثال هؤلاء عبد الكريم بنسليمان وزير الخارجية، والجباص الذي كان صهره وصار نائباً لوزير الحرب ثم فيما بعد وزيراً للحرب.^(٣٥) إن فرنسا لم تتراجع عن تحقيق هدفها المتمثل في جعل الجيش في المغرب قوة منظمة تساند وتضمن غاياتها، وفي هذا الصدد تقدمت فرنسا سنة ١٩٠٥ بمشروع قانون جديد لإصلاح الجيش على يد السفير "طابندي"^(٣٦) وقد أوردنا هذا المشروع نظراً

يمكنهم من فرض شروطهم في مختلف الميادين من موقف قوي.

ثانياً: الميدان الاقتصادي

١/٢ - سياسة الاستثمارات:

لم تكن الاستثمارات الفرنسية في المغرب بالمهمة، فقد غطى التغلغل العسكري الفرنسي بهذا البلد عن التأثيرات الفرنسية الأخرى، لكن هذا لا يمنعنا من رصد بعض الاستثمارات الفرنسية والتي تم توظيفها بدعوى إصلاحات فرنسا للاقتصاد المغربي. لقد جاءت مسألة الاستثمارات الفرنسية والتدخل الاقتصادي الفرنسي في المغرب في سياق الأزمات الاقتصادية المتوالية التي عاشها المخزن خصوصاً أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فقد عُرفت مثلاً الأزمة الكبرى لسنة (١٨١٦-١٨١٧) بالسنوات العجاف مما جعل التجار الفرنسيين يتوقعون ارتفاع سعر القمح^(٤٥). وقد نتج عن الأوضاع المزرية التي عاشها المغرب على المستوى الاقتصادي ازدياد الضغوط الاقتصادية والتي تجلت في التهافت التجاري على المنتجات الفلاحية المغربية وتسرب البضائع الأوروبية إلى السوق المغربية وارتفاع أسعار المنتجات المحلية وأخيراً ظهور اتفاقيات تجارية غير متكافئة^(٤٦). ففي إطار الاستثمارات الاحتكارية الأجنبية في المغرب والفرنسية على الخصوص تحكم الأجانب في العملية التجارية بهذا البلد، فقد سيطر الأجانب على تجارة القمح في المغرب، لقد كتب الضعيف يقول بهذا الصدد "... ووصل الزرع بالرباط ستة أواقي للمد ونصف، والناس يأتون بالزرع من زرهون ومن الغرب وأزغار للنصارى بالرباط، وبالرباط نحو التسعين سفينة للنصارى وكذلك العرائش والدارالبيضاء، وذلك عن إذن السلطان مولاي إسماعيل"^(٤٧)

إن المصالح الفرنسية في المغرب تطورت عبر الاستثمارات المالية على شكل قروض، والصناعية عبر تجهيزات أولية وكلها قادت إلى تبعية المغرب لفرنسا، فالمغرب كان أقرب للحالة العثمانية في بداية اتساع وشراسة نشاط التكتلات الصناعية المالية. نفس الأمر الذي كان يخالج "ديلكاسيه" بخصوص الدولة العثمانية هو ما كان يؤمن به تجاه المغرب، فقد أدرك "ديلكاسيه" أن السيطرة الفرنسية في المغرب تمر عبر إيجاد مصالح اقتصادية ومالية حيث أصبح تطور المصالح المادية الفرنسية لهم المسيطر على ممثلي فرنسا في المغرب^(٤٨). لقد دخلت شركة "كروزو" إلى المغرب تحت إسم "الشركة المغربية" بإشراف مديرها العام "ربينو" وهو مدير أعمال كبير معروف في أوساط الصناعة الفرنسية، وقد دخلت هذه الشركة مباشرة على خط القروض ومنحت قرضاً بمبلغ ٧.٥ مليون فرنك لإدارة المخزن^(٤٩).

وقد تم تأسيس عدد من الشركات الفرنسية في المغرب، فضمن اتحاد المناجم المغربية شكلت المجموعة الفرنسية^(٥٠)

لأهميته وماخلفه من ردود فعل من طرف مجلس الأعيان^(٣٨) الذي نصبه السلطان لمناقشة الإصلاحات الفرنسية.

ركز "طايندي" على مسألة الأمن في السواحل المغربية وفي الحدود المغربية الشرقية مقترحاً المبادرة بإصلاح أمورها لأن الأجانب يطلبون الأمن لأنفسهم والحماية لتجارتهم، فلا بد للمغرب من إصلاح عسكري يكون الهدف منه خلق جيش منظم قادر على حماية الأمن^(٣٩). لقد كان الإصلاح العسكري هو العمود الفقري في المشروع الفرنسي ولذلك كان محل مفاوضات مطولة بين المولى عبد العزيز والسفير الفرنسي^(٤٠) ونتيجة تخوف المخزن من إدخال مدربين أجانب بأعداد كثيرة يمكن أن تؤدي إلى اضطرابات كان اقتراحه هو تعهد فرنسا بسحب مدربيها بعد استكفاء المخزن. لكن الفرنسيين ونتيجة لهذا الموقف لجأوا إلى لغة التهديد فاتهموا المغرب بالتنكر لحق الجوار والإساءة للحقوق الفرنسية، بل تحركت القوات الفرنسية عبر الحدود الشرقية وتم حجز المؤن والذخيرة المرسلّة من طنجة للمحلة المحاربة "لبوحمارة" بل أخذوا يتعاملون معه وأوقفوا كل تعاون مع المخزن المغربي^(٤١). إن تخوفات المخزن كانت في محلها، فقد رفع هذا المشروع عدد أفراد البعثة الفرنسية إلى سبعين ضابطاً وواحد وثمانين ضابطاً للصف، وقد كانت فرنسا تعرف مسبقاً أنه "بتطبيق هذا النظام الجديد يبدأ حكمها في المغرب".

لأبد في الأخير أن نتطرق إلى موقف العلماء من المشروع الإصلاحية الذي تقدمت به فرنسا، فقد قدم العلماء فتوى بخصوص الإصلاحات التي تقدم بها "طايندي" ومما جاء فيها "في أي شيء نفعنا هؤلاء الأجانب وما هي العلوم التي علموها لنا، وما هي الفائدة التي استفدناها منهم، لقد صرفنا عليهم ثرواتنا وقد خدعونا ونشروا بيننا الفساد"^(٤٢). بل إن هناك من طالب برفض المقترحات الفرنسية جملة وتفصيلاً مثل ما أكد عليه الكتاني في جلسة ٢٦ فبراير التي عقدها المخزن مع مجموع أعضاء مجلس الأعيان تمهيداً لبدء المحادثات مع السفير الفرنسي^(٤٣). لقد فشل المشروع الفرنسي لأن هدفه كان واضحاً للمغاربة وهو فرض سيطرة الفرنسيين على المغرب والتحكم في مصيره بدل أصحابه الشرعيين، فقد صرح (Jaures) في البرلمان في ١٩ يناير ١٩٠٥ بقوله "عندما تطالب حكومة مثل فرنسا وحدها أمام السلطان بهذه الاحتكارات المالية والبنكية والنقدية والتجارية والقيادة العسكرية، فهي في الحقيقة تطلب من سلطان المغرب أن يقوم ببساطة بالدور الذي يقوم به الباي في تونس"^(٤٤). لقد كانت المشروعات الفرنسية تهدف إلى استعمار البلاد باسم الإصلاح، فبواسطة الإصلاح العسكري كان الفرنسيون يهدفون إلى ضمان تدخلهم من دون ردود فعل المغاربة، وذلك بخلق نواة لجيش يتحكم فيه الفرنسيون

٢/٢- سياسة القروض:

إلى حدود سنة ١٩٠٠ لم يكن المغرب مديوناً لأحد، غير أن سياسة الإصلاح وما نتج عنها من ثورات وامتناع عن دفع الضرائب أدى إلى عجز الخزينة وفراغها، فانفردت فرنسا بتقديم ما يحتاجه السلطان من أموال. وقد كانت فرنسا تشتترط على السلطان أن تنفرد بكل العمليات المالية خوفاً من أن يندفع السلطان لطلب القروض من دول أجنبية أخرى، وذلك رغبة في أن تخدم المؤسسات البنكية السياسة الفرنسية بالمغرب، وقد عبر "طايندي" عن ذلك بقوله "... إن مصلحة بنوكنا تميل إلى الاندماج مع مصالح سياستنا".^(٥٦) فبسبب عدم توفر رساميل لدى برلين، ونظراً لتورط لندن في حرب البوير ونتائجها تركت الساحة شاغرة للنفوذ الفرنسي، فتنافست مجموعتان فرنسيتان للامتياز بتقديم الدين للسلطان المغربي ومارستا الضغط على الخارجية الفرنسية، ضمت المجموعة الأولى شركة "شنيدر" والثانية بنك باريس والبلدان المنخفضة.^(٥٧)

ففي سنة ١٩٠٢ أقرضت فرنسا المخزن المغربي حوالي ٧ ملايين فرنك، واشتدت حاجة المخزن سنة ١٩٠٤ وقد واكب هذا أن حدث تغيير وزاري في المغرب لصالح فرنسا، فقد أبعد المنهبي المعارض للسياسة الفرنسية وحل محله في وزارة الحرب محمد الجباص الموالي لفرنسا.^(٥٨) وقد تشكل في باريس تجمع من عدة بنوك فرنسية على رأسها بنك باريس، وكان يرغب هذا التجمع من البنوك ضمانة الجمارك المغربية للقرض، وإقامة بنك دولة والحصول على حق الأفضلية بالنسبة لكل المشاريع المالية والأشغال العامة.^(٥٩)

لقد ركزت فرنسا على دبلوماسية المال لتنفرد بالمغرب وتفرض عليه في النهاية قروضا بشروط كلها لفائدة التدخل الفرنسي، وهكذا مهدت الخارجية الفرنسية لطرح مشروعها على المخزن بالسعي لتسهيل عقد اتفاقية قرض كبير مع المخزن بمبلغ ٦٢.٥ مليون فرنك بفائدة (٥ %) تستخلص في مدة ٣٦ سنة بواسطة أخذ (٦٠ %) من عائدات الجمارك يومياً لمصلحة المقرضين الذين لم يدفعوا في الحقيقة إلا (٤٨.٥ %) مليون فرنك.^(٦٠) ولم تكتف فرنسا بإثقال كاهل المخزن بالقروض لكي تجعله في تبعية مالية وسياسية لها، بل إنها اقترحت بعض الإصلاحات في الجانب المالي لتسهيل هذا النهب الممنهج.

إن أول ما أشار إليه السفير الفرنسي "طايندي" هو الأزمة التي تعرفها السكة المغربية وأسباب انخفاضها المستمر بالنسبة للنقد الأجنبي وأرجع ذلك لسببين؛ مضاربة التجار الذين يقبلون على النقود المغربية إبان فترة البيع والشراء ويقل طلبهم عليها في فصل الشتاء، فتتخفص قيمتها، وهناك سبب آخر وهو كثرة ضرب النقود مما أدى إلى نقص في قيمتها، فخسر المخزن في الصرف ما ربحه في الضرب^(٦١). ولتفادي هذه الأزمات اقترح السفير الفرنسي أن يتم إيقاف ضرب النقود ويتم إحداث

٥٧ %، كما بلغ رأسمال الشركة المغربية للأشغال العامة سنة ١٩١٠ مليون فرنك فرنسي بإدارة "لوبون" وحرصت على المشاركة بالمناقصات في مجال الاتصالات اللاسلكية والموانئ وسكك الحديد، كما كان للمجموعة الفرنسية (٤٧ %) من حصص شركة التبغ ولها حق اختيار الرئيس. لم يلبث الأجانب أيضاً أن تحكموا في الميدان الاقتصادي- التجاري على الخصوص وذلك من خلال فرضهم لبرامج إصلاحية على المخزن تفتح أبواب المغرب للتجارة العالمية وتزج بمكوناته الاقتصادية العتيقة في تيار التبادل الرأسمالي الأوربي.

عملت فرنسا بمعية الدول الأجنبية الأخرى على إقناع المخزن بالاهتمام بالمزروعات الصناعية خاصة القطن، وبالفعل فقد قام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، بتوزيع بعض الأراضي وكميات من البذور على بعض الفلاحين تشجيعاً لهم على زراعته، كما أمر باستيراد بعض الآليات الخاصة بتنظيفه.^(٥١) وقد ضغط المقاولون الأجانب ومنهم الفرنسيون على الخصوص على حكوماتهم لإرغام المخزن لقبول اقتراح إنشاء خطوط للسكك الحديدية، يقول الناصري في هذا الصدد "...وفد على السلطان أيده الله عدة باشادورات للأجناس مثل باشدور الفرنسي والاصبنيول والبرتغال وغيرهم، وتكلم الفرنسيون في شأن بابور البر والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هو بسائر بلاد المعمور"^(٥٢).

وفي جانب آخر وبفعل ضغط فرنسا وباقي القوى الأجنبية، انكب المخزن على إصلاح أرصفة بعض المراسي وكان إدخال آلات موحدة للوزن في جميع المراسي المغربية واتخاذ أكياس من حجم موحد تقاديا للتلاعبات^(٥٣). وفي هذا السياق طالب "طايندي" بتوفير قوارب الوضع والسوق لتسهيل الأعمال التجارية بالموانئ وبناء الأرصفة بكل ميناء وجلب آلات الرفع والوضع، وبناء مخازن لحفظ السلع، كما طالب بوضع خط تلغرافي يربط بين الموانئ لخدمة التجارة واقترح بأن بلاده مستعدة لتقديم المساعدة في هذا المجال.^(٥٤)

نريد أن نختم هذه النقطة بما سمي بـ "مشروع قناة المغرب" فقد كان يدور في خلد فرنسا سنة ١٨٨٥ خاصة على عهد (Féraud) ربط المحيط الأطلسي بالمتوسط بواسطة قناة أطلق عليها إسم "قناة بوسفور المغرب" Canal- Bosphore Du Maroc لكن المشروع لم ير النور^(٥٥). وخلاصة القول؛ فقد ربح الفرنسيون نسبا ضئيلة من وراء المشاريع الاستثمارية، لكنهم احتلوا تباعا مواقع هامة في الإدارة المغربية، فإضافة إلى دوائر المال وإدارات التلغراف والأشغال العامة ولجنة التحقق من سداد الديون التي كانت كلها تحت إشراف فرنسي، فإن شرطة الموانئ وإدارة الحدود ومشاريع البعثة العسكرية لتحديث الجيش كانت تزيد من ثقل الوجود الفرنسي، وبهذا تكون فرنسا قد احتكرت جل مشاريع الأعمال الكبرى في المغرب.

الهوامش:

- (١) لقد تحرك العلماء على عدة أصعدة، فقد عملوا على توحيد السلطة وتحديد علاقاتها مع الدول الأوروبية، ثم التوجه إلى الرعية بالخطاب الشرعي ليمنعوها من الاحتماء بالنصارى والاستسلام لهم أو مساعدتهم، وهم ممن قرر عدم الاستسلام مهما كانت وضعية البلاد وظروفها ومهما كانت قوة الخصم. يُنظر: أحمد العماري، «نظرية التحديث والمواجهة عند علي السوسي السملالي من خلال كتابه: (عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة)»، في الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٨٣، ص ٩١-١١١.
- (٢) مصطفى الغاشي، «فكرة الجامعة الإسلامية من خلال (النور اللامع في بيان الأصل الجامع) لإبراهيم السنوسي، القرن ١٩م»، في: العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٧٣-٩٩.
- (٣) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، ج ٩، ١٩٩٧، ص ١٩٠.
- (٤) قال سان روني طابندي Saint René Taillandier سفير فرنسا بطنجة في إحدى رسائله إلى وزير الخارجية "ديلكاسي" في يوليو ١٩٠١ " ... إن هذا بلد لم يرغب لحد الساعة في اتخاذ السكة الحديدية، أو خط التلغراف أو استغلال المناجم أو شق طرق صالحة للعربات". عبد الرحمن المودن، «بعض المواقف المغربية من المستحدثات التقنية الغربية في القرن ١٩م»، في: الإصلاح، ص ٣٦٧-٣٧٢.
- (٥) يُنظر: محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط ١، البيضاء، ج ١، ١٩٨٥.
- (٦) عمر أفا، «الاستشارات السلطانية في مجال الإصلاحات بالمغرب في القرن ١٩م»، مجلة كلية الآداب، ع ١٦، الرباط، ١٩٩٩، ص ٤٣-٦٩.
- (٧) عبد المجيد القدوري، سفراء مغاربة في أوروبا (١٦١٠-١٩٢٢)، في الوعي بالتفاوت، منشورات كلية الآداب، ط ١، الرباط، ١٩٩٥، ص ٦٢-٦٤.
- (٨) فقد أعلن العمراوي في رحلته عن الرغبة في تزويد البلاد بجهاز المطبعة، وقد نوه العربي المشرفي بالمتكرات في المواصلات البحرية والبرية وبالمطبعة والأدوات المنزلية، كما كان الشيخ إبراهيم التادلي لا يرى حرجاً في تعلمه مبادئ بعض اللغات الأجنبية. يُنظر: محمد المنوني، «نماذج من تفتح مغرب القرن التاسع عشر الميلادي على معطيات نهضة أوروبا والشرق الإسلامي» في: الإصلاح، ص ١٩٣-٢٠٣.
- (٩) محمد العربي معريش، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول (١٨٧٣-١٨٩٤)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٣٧-١٣٨.
- (١٠) المرجع نفسه، ص ١٠٦.
- (١١) إبراهيم بوطالب، «استخلاصات عامة عن مفهوم الإصلاح في القرن ١٩م»، في: الإصلاح، ص ٤١٥-٤٢٣.
- (١٢) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، ص ٥٩.
- (١٣) عبد الوهاب بن منصور، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد ١٨٨٠، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٧، ص ٣٩.
- (١٤) أحمد بن خالد الناصري، م.س، ص ٩٧.
- (١٥) المرجع نفسه، ص ١٠١.

بنك لضبط صرف السكة على أساس النقد الفرنسي والإنجليزي، واقترح منح امتياز إحداث البنك إلى بنك باريس والبلاد المنخفضة وقال إن مشروعه جاهز للدراسة.^(١٢)

أثقلت سياسة القروض كاهل المخزن المغربي، ولم تعط أية فرصة للمغرب للقيام بإصلاحات فعلية وعميقة، فقد كان الساسة الفرنسيون على علم بأن المغرب لن يستطيع تسديد تلك الديون وبأن تلك المبالغ لن يتم توظيفها في استثمارات أو إصلاحات وإنما أغلبها قد وجه إلى نفقات عسكرية وذلك في سياق حروب دخلها المغرب ضد دول أوروبية نفسها. كانت سياسة الإصلاحات من أبرز الآليات التي وظفها الاستعمار الفرنسي في المغرب، حيث عمل الساسة الفرنسيون على ضرب مؤسسات المخزن المغربي بدعوى الإصلاح، فحتى وإن كانت سياسة الإصلاحات مسألة ضرورية فرضتها عدة معطيات داخلية وأخرى خارجية، فإنها في الواقع كانت بابا دخلت منه فرنسا لتتال من ما تبقى من مؤسسات المخزن المغربي وذلك عبر فتح دوايب ومؤسسات المغرب للقوى الأجنبية.

خاتمة

كانت سياسة الإصلاحات من أبرز الآليات التي وظفها الاستعمار الفرنسي في المغرب، حيث عمل الساسة الفرنسيون على ضرب مؤسسات المخزن المغربي بدعوى الإصلاح، إن سياسة الإصلاح هذه كانت في الواقع بابا دخلت منه فرنسا لتتال من ما تبقى من مؤسسات المخزن المغربي، وذلك عبر فتح دوايب ومؤسسات المغرب للاستعمار الفرنسي. وتعدّ سياسة الإصلاحات التي سلكتها فرنسا تجاه المغرب عبئاً آخر عانى منه المخزن المغربي وكانت جولة أخرى لعبها الساسة الفرنسيون للنيل من المغرب وضرب مؤسساته. ولم تكن محاكاة التقنيات الأوروبية إصلاحاً حقيقياً، بل وجه من أوجه السياسة الاستعمارية الفرنسية، والتي هدفت إلى زعزعة أوضاع المخزن الداخلية وتفكيك مؤسساته لتسهيل احتلاله. إن آلية الإصلاحات التي تبنتها فرنسا في المغرب تدخل ضمن سلسلة من المناورات الإمبريالية، فقد اعتمد الساسة الفرنسيون آلية الإصلاح بهدف دفع الأوضاع إلى التردّي بالمغرب، وهذا معناه أن هذا الإصلاح لم يكن إلا وجه من أوجه السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه المغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين.

Jacques Caillé, *La Petite Histoire Du Maroc*, Librairie Farairre, Céré, T.3, 1956, p.92.

ثريا برادة، م.س، ص ٣٥٧.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٣٦٠.

(٣٥) لما شعر المولى الحسن بعدم جدوى البعثات من الناحية التقنية وبخطرهما من الناحية السياسية وضع الكثير من العقاقيل أمامها، حول هذه العقاقيل يُنظر: ثريا برادة، «الجيش المغربي والتخطيط الاستعماري في القرن ١٩م»، في: **ندوة المغرب من العهد العزيمي إلى ١٩١٢**، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٩، ص ٣٢٩.

(٣٦) فقبل أن يتسلم محمد الجياص التعليمات حول مهامه الجديدة كوزير للحرب من السلطان بقي في طنجة ثلاثة أيام تذاكر خلالها مع الوزير المفوض الفرنسي في المغرب. ثريا برادة، م.س، ص ٣٧٢-٣٧٣.

(٣٧) لقد كان موضوع السفارة إلى فاس بزعماء "سان روني طابندي" هو تكليف الفرنسيين بإصلاح المراسي وديواناتها أي مراقبة الصادرات والواردات، ووضع مستشار مع المخزن أي مراقب مالي يكون بمثابة وزير المالية، وتنظيم الجيش من طرف عسكريين فرنسيين، وعرض سلف آخر على المخزن. يُنظر: علال الخديمي، «مجلس الأعيان ومشروع الإصلاحات الفرنسية في المغرب سنة ١٩٠٥ "في الإصلاح...» ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٣٨) كان مجلس الأعيان يضم حوالي (٤٠) عضوًا، ينوب عن كل مدينة و قبيلة عضوان، لكن الأغلبية كانت من مدينة فاس، حيث اختير منها حوالي (٢٤) عضوًا من بين العلماء والقضاة والأعيان، وقد اختير (١٥) عضوًا من مجموع المجلس هم الذين كانوا يحضرون جلسات المخزن مع السفير الفرنسي، أما مناقشة المقترحات فكانت ترجع للمجلس بمجموع أعضائه. يُنظر: علال الخديمي، «مجلس الأعيان»، ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٣٩) وقد فصل السفير كيفية هذا الإصلاح العسكري، بحيث تكون الوحدة هي الطابور الذي يضم (٥٠٠) جندي للمشاة، و(٣٠٠) للمدفعية وهذا التنظيم -حسب طابندي- لابد له من الرجال الذين يقومون به وأولى العارفين بذلك دولة فرنسا. علال الخديمي، م.س، ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٤٠) لقد أصر المولى عبد العزيز على وجوب ضمانات دولية لتعهد فرنسا بسحب مدبريها عندما يستطيع المخزن أن يضمن النظام بدونهم. يُنظر: علال الخديمي، «مجلس الأعيان...»، ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٤١) المرجع نفسه، ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٤٢) علال الخديمي، م.س، ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٤٣) لقد ورد في جريدة السعادة (٢٧ محرم ١٣٣٣ / ١٣ أبريل ١٩٠٥) "وقد وصلت صورة الحال ببعضهم من علماء المغرب الأقصى المنتهين للتصوف المتظاهرين بالذكاء والرجاحة بين أقوامهم، أن أشار على الملك عبد العزيز أيده الله، بمعاكسة حكومة فرنسا، ومعارضتها فيما تطلبه من إقامة الإصلاح الواجب جعله في الظروف الحاضرة حسبما هو شائع معلوم". يُنظر: علال الخديمي، م.س، ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٤٤) المرجع نفسه، ص ٢٥٩-٢٩٢.

(٤٥) لقد قفز سعر القمح من ٢٢ فرنك للقنطار في يناير ١٨١٦ إلى ٣٤ فرنك للقنطار في دجنبر من السنة نفسها ثم ٥٠ فرنك في مايو ١٨١٧. انظر:

J.L.Miège, *Le Maroc...*, T.2, P.30.

(46) J.L.Miège, *Op.Cit.*, P.30.

(١٦) جرمان عياش، «إمكانيات الإصلاح وأسباب الفشل في المغرب» في: **الإصلاح... ص ٣٥٥-٣٦٣**.

(١٧) عبد المجيد القدوري، **سفر... ص ٥٤**.

(18) Bahija Simou, *Les Réformes Militaires au Maroc de 1844 à 1912*, Rabat, 1995, p.127.

(١٩) بعدما رآه السلطان من انضباط ضباط الوفد العسكري، عرض على الجنرال Osmont استقدام مدربين من الجيش الفرنسي لتدريب الجند المغربي، لكن سرعان ما حاول السلطان أن يراجع موقفه، لكن فرنسا بقيت متشبثة بالفكرة. انظر: إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، ط ٢، البيضاء، ج.٣، ١٩٩٤، ص ٣٦١.

(٢٠) لقد أرسلت هذه البعثة في البداية إلى وجدة لتدريب طواوير المغرب الشرقي، وأرسل اثنان من أعضائها وهما (Erckman)، و(Payerne) إلى مراكش لتدريب الطبجية. انظر: ثريا برادة، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٧، ص ٢٦٠.

(٢١) بعد سنتين من العمل المتقطع لم يدرب خلالها إلا خمس أو ست من الطواوير وكل ما تعلموه هو الوقوف بدون حركة والسكوت والمشي بانتظام والامتثال للأوامر. ثريا برادة، نفسه، ص ٢٦٠.

(٢٢) ثريا برادة، م.س، ص ٢٦١.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ٢٩٥.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٢٩٥.

(٢٥) إبراهيم حركات، م.س، ص ٣٨٨.

(٢٦) ثريا برادة، م.س، ص ٣٤٧.

(27) J.L.Miège, *Le Maroc et L'Europe*, La Porte, Rabat, T.IV, 1989, p.109.

(٢٨) ثريا برادة، م.س، ص ٣٤٧.

(٢٩) كانت ترسل التقارير السياسية لوزارة الخارجية مفتوحة عن طريق قنصلية طنجة، أما تقارير وزارة الدفاع فكانت ترسل كذلك عن طريق القنصلية نفسها ولكن مختومة. يُنظر: ثريا برادة، م.س، ص ٣٤٨.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٣٤٩.

(٣١) ولد في استراسبورغ في ١٤ نونبر ١٨٥٠ وانخرط في الجيش سنة ١٨٧٠، صار ملازمًا في الفيلق العشرون سنة ١٨٧٦ في الجزائر، عين في البعثة العسكرية الفرنسية في المغرب من ١٨٧٧ إلى ١٨٨٣، أُحيل على التقاعد في ١٨٩٩ لمرضه توفي في ٢٤ شتنبر ١٩٠١، ترك معلومات مهمة حول المغرب في كتابه *Le Maroc Moderne* الذي نشر سنة ١٨٨٥.

حول إيركمان يُنظر:

J.Caillé, «Quelques Renseignements sur Le Capitaine Erckman», **H.T**, T.XI.

(٣٢) فقد عمل "إيركمان" على إفشال محاولة الألمان لبيع المدافع وفضح نواياهم وإثارة الشك حول تصرفاتهم وحث السلطان على أن يرفض حتى هداياهم. ثريا برادة، م.س، ص ٣٥١.

(٣٣) عين "ليناريس" في مستشفيات وهران في ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٧٧ عين في البعثة العسكرية الفرنسية. وفي سنة ١٨٨٨ وعلى إثر قرار من وزارة الخارجية والحرب ولل قضاء على شكوك المخزن صار مرتبطا مع المخزن بعقدة ومستشارًا للسلطان، وفي الوقت نفسه جاسوسًا للحكومة الفرنسية. يُنظر:

B.Simou, *Les Réformes...*, pp.352-354.

- (٤٧) محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق وتعليق وتقديم، أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، ط١، ١٩٨٦، ص٣٦٨.
- (٤٨) جاك توبي، **الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية (١٨٤٠-١٩١٤)**، ترجمة فارس عصب، مراجعة مسعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠، ص٩٧.
- (٤٩) المرجع نفسه، ص٩٧.
- (٥٠) المقصود بالمجموعة الفرنسية مجموعة من المصرفيين والصناعيين أمثال "شنيدر" وشركائه والشركة المغربية، والشركة الفرنسية للدراسات والمقاولات، بالإضافة إلى البنك الفرنسي للتجارة والصناعة. جاك توبي، **الامبريالية...**، ص١٠١.
- (٥١) خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦-١٨٨٦)**، منشورات كلية الآداب، ط٢، الرباط، ١٩٩٧، ص٣٨٣-٣٨٩.
- (٥٢) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا...**، ص١٦٢.
- (٥٣) خالد بن الصغير، م.س، ص٤٢٠.
- (٥٤) علال الخديمي، «مجلس الأعيان...»، ص٢٥٩-٢٩٢.
- (55) J.Caillé, **La Petite Histoire...**, T.3, p.120.
- (56) Le Ministre de France à Tanger, Saint René Taillandier, peut dire: " L'intérêt de nos banques tend à se Confondre aujourd'hui avec celui de notre Politique". Bernard Lugan, **Histoire Du Maroc, Des Origines à nos Jours**, Critérium, Paris, 1992, p.219.
- (٥٧) جاك توبي، **الامبريالية...**، ص٩٦.
- (٥٨) محمد خير فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، مطبعة المحبة، دمشق، ٢٠٠٣، ص٤٦٥.
- (٥٩) المرجع نفسه، ص٤٦٧.
- (٦٠) اقترض المغرب سنة ١٩٠٤ (٦٢.٥) مليون فرنك، أخذت منها الأبنك الفائدة مسبقاً والعمولة وقدرها حوالي (١٤) مليون فرنك، والباقي دفع منه قيمة قروض (١٩٠٢) بفوائدها ولم يأخذ المخزن من أصل (٦٢.٥) مليون إلا حوالي (٢٠) مليون. علال الخديمي، «مجلس الأعيان...»، ص٢٥٩-٢٩٢.
- (٦١) المرجع نفسه، ص٢٥٩-٢٩٢.
- (٦٢) المرجع نفسه، ص٢٥٩-٢٩٢. يُنظر أيضاً: عمر أفلا، **الاستشارات السلطانية**.

نماذج من الإصلاح القروي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية

د. جلال زين العابدين

أستاذ التعليم الثانوي

باحث في التاريخ المعاصر

تاوانات - المملكة المغربية



ملخص

اتخذت إدارة الحماية الفرنسية في المغرب (١٩١٢ - ١٩٥٦) مجموعة من الإجراءات والتدابير الإصلاحية في المجال القروي المغربي، ادعت من ورائها أنها تهدف إلى تطوير الإنتاج الفلاحي الأهلي وتجديد تقنيات الفلاح المغربي وتغيير أساليب عمله، وعقليته وعاداته الحياتية اليومية وجعله ينخرط في البوتقة الجديدة التي تريد إرساءها. لكنها في الواقع كانت تهدف من وراء كل التدابير التي أقدمت عليها إلى هدم التوازن الاجتماعي التقليدي، وتعويضه بتوازن جديد يتيح الاستيلاء على أراضي المغاربة، ثم توزيعها على المعمرين، وبالتالي ترسيخ الوجود الفرنسي في المغرب.

كلمات مفتاحية:

البيزان، البادية المغربية، الشركات الاحتياطية، الحماية الفرنسية،
الفلحة الكولونيالية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ مارس ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٠٩ يوليو ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

جلال زين العابدين، "نماذج من الإصلاح القروي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية"، دورية كان التاريخية، - العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٣٧ - ٤١.

مقدمة

يسعى هذا المقال إلى تتبع ورصد بعض المبادرات الإصلاحية التي أقدمت إدارة الحماية الفرنسية في المغرب (١٩١٢ - ١٩٥٦)؛ مبادرات ادعت أن آثارها ستتمس المجتمع المغربي وستحدث تغييرات إيجابية في حياة الفلاح المغربي، بينما باطنياً تحكمت فيها الإصلاح إيديولوجية وسياسية تتمثل في تكوين طبقة متوسطة من الفلاحين يزكون سياسة إدارة الحماية، والحد في نفس الوقت من الهجرة القروية للحفاظ على حشود العمال الفلاحين الذين يمكن استثمارهم في استغلاليات المعمرين. إذن فما أهم الإصلاحات التي قامت بها إدارة الحماية في البادية المغربية؟ وما رهاناتها؟ وكيف تم التعامل معها من طرف الفلاحين المغاربة؟ وما درجة استفادتهم منها؟

أولاً: الشركات الاحتياطية الأهلية أو (SIP)

أنشئت الجمعيات أو "الشركات الاحتياطية الأهلية" (Sociétés Indigènes de Prévoyance) أو (SIP) ونظمت بمقتضى ظهير ٢٦ مايو ١٩١٧^(١) المغير بظهير ١٩ يوليو ١٩١٧، وظهر ١٢ أبريل ١٩١٢، وظهر ٢٨ نوفمبر ١٩٢١، ثم ظهر ٢٨ يناير ١٩٢٢؛ وهي عبارة عن مؤسسات مدنية تحدث بقرار وزاري يحدد دائرتها الترابية، تشمل إلزاماً كل الفلاحين الأهليين غير المحميين المسجلين في قائمة الترتيب. وتهدف إلى إعانة الفلاحين بالقروض، مادية كانت أو عينية، ليتمكنوا من مواصلة أعمال فلاحتهم ومن توسيع نطاقها، واعتماد التقنيات الحديثة الضرورية في ميدان الفلحة وتربية الماشية والمساهمة في تطبيقها، وتهدف أيضاً إلى حماية الفلاحين الأهالي من المضاربات العقارية (الربا- الاحتكار)، كما يمكنها أن تقوم مقامهم عند الحاجة بإلغاء كل رهن أو التزام يبدو لها مبالغاً أو العمل على

الموسم (١٩٣٥-١٩٣٦)،^(٤) ويعطينا الجدول أسفله نظرة عن القروض التي وزعتها هذه الشركات في المغرب (١٩١٧) و(١٩٣١).

تطور القروض المقدمة من طرف الشركات الاحتياطية الأهلية الفلاحية في المغرب من ١٩١٧ إلى ١٩٣١^(٥)

الحد منه، والمساهمة كذلك في عقد تأميمات ضد الكوارث الفلاحية (حريق، موت المواشي، جراد...)^(٦).

أما فيما يتعلق بتنظيم القروض والسلفات، فقد كانت الشركات الاحتياطية لا تمنحها إلا للمشتريين الذين أدوا ما بذمتهم من سلفات سابقة، ودفعوا ما عليهم من ضرائب ويتوفرون على ضمانات أو مستعدين لرهن أملاكهم توثيقاً للسلف. وكانت السلفات النقدية لأجل غرس الأشجار وتحسين حالة الأشجار المثمرة وتجديد مغارس الزيتون والنخيل لا تمنح إلا لأصحاب الأملاك الذين يقدمون حججاً مثبتة لحقوقهم وفقاً لقوانين الشرع أو القوانين العرفية.

وكان على كل مشترك يريد سلفاً أن يقدم طلبه إلى مجلس الشركة القريبة منه، حيث يجري بحث حول حالته ومقدرته على الوفاء، وعند الاقتضاء عن صحة حقوق ملكيته، ثم يقدم المجلس المذكور الطلب مع رأيه في الأمر للمجلس الإداري الذي يتخذ القرارات في شأن السلفات التي لا يتجاوز قدرها ٢٠٠٠ فرنك سواء كانت نقدًا أو حبوبًا وغير ذلك، أما إذا زاد مقدار السلف عن المبلغ المذكور فيجب أن يرفع أمره لمجلس المراقبة والحراسة الذي يحكم بشأنه.^(٦)

وقد عرفت القروض السنوية المقدمة من طرف الشركات الاحتياطية الأهلية في المغرب ارتفاعاً كبيراً منذ تاريخ إنشائها سنة ١٩١٧، حيث ارتفعت من (1.133.191,86 ف) خلال الموسم الفلاحي (١٩١٦-١٩١٧) إلى (10.863.165,91 ف) خلال

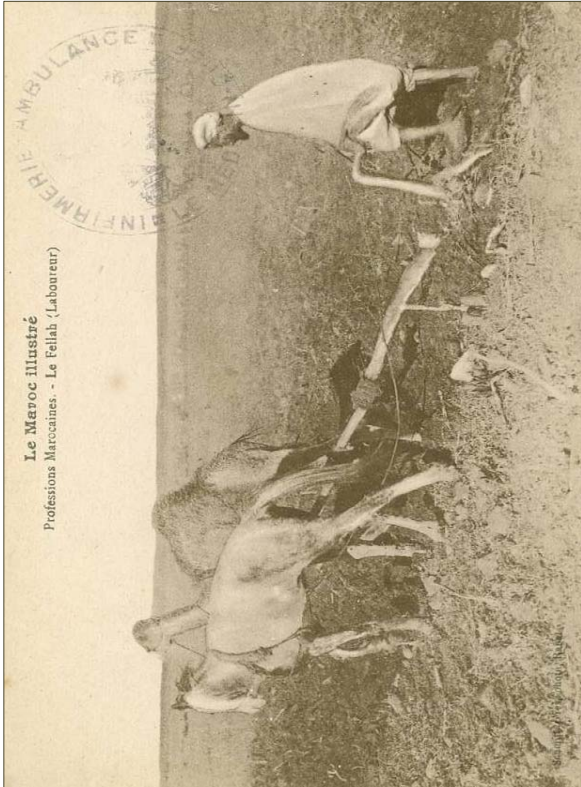
النسبة المئوية للقروض العينية	المجموع	القروض العينية	القروض النقدية	السنوات
١٠٠	٤٦٣٩٦.١٠	٤٦٣٩٦.١٠		١٩١٧
٧٢.٦٧	١٠٨٦٨٩٥.٧٦	٧٨٩٨٥٥.٧٦	٢٩٧٠٠٤٠.٠٠	١٩١٨ - ١٩١٧
٣٩.٦٠	٤٨٠٤٤٤.٧٦	١٩٠٢٧٢.٣٤	٢٩٠١٧٢.٣٠	١٩١٩ - ١٩١٨
٧٠.٨٦	٢٣٩٣٥٩٨.٩٩	١٦٩٦١٣٣.٩٩	٦٩٧٤٦٥.٠٠	١٩٢٠ - ١٩١٩
٥٢.١٨	٣٥٣٠٩٠.٦.٨٢	١٨٤٢٤٦٨.٨٢	١٦٨٨٤٨.٠٠	١٩٢٠ - ١٩٢١
٢٤.١٥	٣٤٥٤٠٧٤.٨٢	٨٣٤٢٤١.٣٢	٢٦١٩٨٣٣.٥٠	١٩٢١ - ١٩٢٢
٢٦.٧٤	٥٤٧٦٩٦٤.٤٩	١٤٦٤٦٧١.٩٩	٤٠١٢٢٩٢.٥٠	١٩٢٢ - ١٩٢٣
٢٧.٢٧	٧٤٦٥٥٤٧.٨٣	٢٠٣٥٦١٧.٨٣	٥٤٢٩٩٣.٠٠	١٩٢٣ - ١٩٢٤
٣٨.٩٨	٨٢٨٥٧٨٦.٧٧	٣٢٢٩٧٦٥.٤٣	٥٠٥٦٠٢١.٣٤	١٩٢٤ - ١٩٢٥
٤٣.١٤	١٠٨٦٤١٦٥.٩١	٤٦٨٦٧٠٣.١٦	٦١٧٧٤٦٢.٧٥	١٩٢٥ - ١٩٢٦
٦٢.٠١	١٥١٢٢٨١٢.٨٤	٩٣٧٨٣٣٢.٣٥	٥٧٤٤٥٨٠.٤٩	١٩٢٦ - ١٩٢٧
٧٦.٠٧	٢٨٠٦٣٩٤٢.٥٥	٢١٣٤٨٩١٢.٥٥	٦٧١٥٠٣٠.٠٠	١٩٢٧ - ١٩٢٨
٤٠.٦٥	١٩٢٩١٤٦٧.٨١	٧٨٤٢٦٦٥.٨١	١١٤٤٨٨٠.٢٠	١٩٢٨ - ١٩٢٩
٥٣.٤٠	١٦٧٢٣٨٠.٢.٩٧	٨٩٣٠٢١٠.٩٧	٧٧٩٣٥٩٢.٠٠	١٩٢٩ - ١٩٣٠
٥٦.٢٧	٣٤٠٣٨٠.١٨.٤٧	١٩١٥٣٨٧٥.٢٣	١٤٨٨٤١٤٣.٢٤	١٩٣٠ - ١٩٣١
٥٢.٥٩	١٢٢٢٨٦٧٠.٨.٣٠	٦٤٣١٦٠٠.٦.٤٢	٥٧٩٧٠٧٠.١.٨٨	المجموع

المعمرين^(١١). فالقبائل ارتفعت معاناتها من هذه القروض التي كانت تمنحها هذه التعاونيات المحلية^(١٢) بفوائد عالية،^(١٣) كما أن هذه القروض لم يكن يستفيد منها إلا الفلاحون الميسورون، أما صغار الفلاحين فقد كانوا في حالة عدم تأدية ديونهم في الأجل المحدد عرضة لفقدان أراضيهم، أضف إلى هذا أن عدم إشراك الفلاحين، وهم المعنيون الأساسيون بكل ما تقرره الشركات الاحتياطية الأهلية (SIP) والتعاونيات الفلاحية الأهلية (CIA) في اتخاذ القرار، أفرغ الجانب التعاوني التي تدعو إليه هذه المؤسسات من كل مضمون حقيقي، وجعل منها مجرد مجال لتكوين الأطر التقنية والمراقبين أكثر منها مجالا لتكوين الفلاحين وتحسين أوضاعهم.^(١٤)

ثانياً: البيزانا (Le Paysanat)

مصلحة من مصالح الإقامة العامة الفرنسية في المغرب كانت تشمل مجموعة من المؤسسات العمومية، تهدف إلى تطوير العالم القروي بالمغرب بواسطة فعالية كلية، وذلك بنقله من اقتصاد تقليدي يعتمد المحراث إلى اقتصاد عصري يعتمد الجرار، كما تهدف إلى تطوير الوضع الاجتماعي للفلاح، وتحسين وضعه القانوني.^(١٥) إنها مجموعة من المؤسسات العمومية المستقلة التابعة لإدارة مركزية، ومن تم فهي شبيهة بشركة فلاحية كبرى تديرها الدولة، حيث تتكلف الإدارة المركزية في الرباط بمراقبة سير مختلف المنشآت التابعة لها.^(١٦)

فلاح مغربي يعتمد طريقة تقليدية في عملية الحرث^(١٧)



وارتفع مع مرور سنوات الحماية عدد المنخرطين بالشركات الاحتياطية، حيث وصل عددهم إلى حدود ٣٠ يونيو ١٩٣٣ إلى 51.569 عضواً. وبلغت السلفات العينية الممنوحة ابتداءً من تاريخ تأسيس الشركة إلى ٣٠ يونيو من السنة نفسها إلى (5.876.996,65 ف)، والسلفات الممنوحة نقدًا بـ (2.725.796,85 ف)، فيما قدرت السلفات والإعانات القابلة للاسترجاع بـ (9.109.093,20 ف)،^(١٨) إضافة إلى ذلك بلغت الأموال الصافية التي هي في حوزة جميع الشركات الاحتياطية في المغرب خلال التاريخ نفسه إلى (2.038.181,25 ف).^(١٩)

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الحجم العددي للفلاحين المغاربة مقارنة مع المستوطنين المزارعين الأوربيين، وحجم المساحات المزروعة من طرف الفلاحين المغاربة، والدور الاجتماعي للإنتاج الفلاحي المغربي الذي يشكل قاعدة الاستهلاك الداخلي، مقارنة مع إنتاج الأوربيين الموجه دائماً إلى التصدير، يتضح أن القروض الممنوحة للفلاحين المغاربة، لا تمثل سوى قطرة في بحر القروض الممنوحة للمستوطنين المزارعين الأوربيين، ففي موسم (١٩٣٦-١٩٣٧) مثلاً لم تكن مجموع ديون الشركات الاحتياطية الأهلية غير المسددة تتجاوز (٤.٩٥٠.٠٠٠ فرنك، في حين كانت ديون المستوطنين المزارعين الأوربيين سنة ١٩٣٣ تقدر بنحو (٥٥٠ مليون فرنك).^(٢٠)

وإضافة إلى تقديم السلفات والإعانات، كان بإمكان الشركات الاحتياطية الأهلية، إحداث جمعيات تعاونية يعهد إليها هي الأخرى بصيانة المنتج وتحويله وتسويقه وفق الشروط المتبعة في المؤسسات الصناعية (مضاربة، احتكار، تحقيق القيمة المضافة...)، وذلك- كما ينص عليه ظهير ٢٤ أبريل ١٩٣٧- بعد الحصول على ترخيص من إدارة الداخلية استناداً إلى موافقة إدارة الفلاحة والتجارة والغابات، وكذا المسؤول عن الصناعة التي قد يهملها الأمر.^(٢١) وفي هذا الصدد شهدت سنة ١٩٣٧ في المغرب تأسيس ١١ "تعاونية أهلية فلاحية" Coopérative Indigène Agricole (أو CIA) بمقتضى ظهير ٢٤ أبريل ١٩٣٧ في مجموعة من المدن، الرباط، البيضاء، القنيطرة، مكناس، فاس، تازة، وجدة، واد زم، مازاكان، آسفي، ومراكش.^(٢٢) وحتى لا نعطي لإجراءات سلطات الحماية أبعاداً أكثر من حجمها، نتساءل ماهي حقيقة وفعالية هذه المحاولات التحديثية؟

لم تؤد هذه المجهودات في الواقع إلى النتائج المرجوة من طرف الأهالي لأسباب عديدة، ذلك لأن إدارة الحماية كانت تسعى من وراء كل المبادرات التي اتخذتها في هذا المجال إلى الاستحواذ على أقصى ما يمكن من الأراضي لتوزيعها على المستوطنين، وإلى تكوين "طبقة" متوسطة من الفلاحين الذين يزكون سياستها، والحد في الوقت نفسه من الهجرة القروية للحفاظ على حشود العمال الفلاحين الذي يمكن استثمارهم في ضيعات

قصد تحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وإشراكهم في مداورات مجالس S.M.P. قصد تهيئتهم لتحمل مسؤولياتهم مستقبلاً. وتنقسم أنشطة S.M.P. إلى:

- زراعة مباشرة إما فوق أراضٍ جماعية مقابل ريع، وإما فوق أراضٍ مكترة أو باشتراك مع أحد الخواص.
- تقديم خدمات لمن يطالب بذلك مقابل أجر.
- إرشاد يكمن أساساً في تأطير الفلاحين قصد العمل من أجل تحسين الإنتاج وتقديم خدمات لهم بعد بيع المعدات التقنية.^(٢٢)

وعموماً كانت ترمي "البيزانا" من خلال تدخلاتها هاته تحقيق تغيير جذري وإصلاح شامل في حياة الفلاح المغربي، فالتعليم الإجباري، والمراقبة الطبية ضد الأمراض، والمساعدة الاجتماعية واستخدام الآلات... ستسهم في توعية الفلاح وتجعله يتحرر من الاعتقادات الروتينية والقيود التي كانت تقف عائقاً أمام تقدمه. وبلا شك فالإصلاح سيكون صدمة نفسية صادرة عن المكننة، وهو ما سيؤدي إلى زعزعة أنماط الإنتاج التقليدية والرفع من القدرة الإنتاجية للفلاح ثم تغيير نمط عيشه.^(٢٣) هذا التغيير سيجعل الخماس والفلاح بصفة عامة، يتحول إلى عامل، إلى منتج ومستهلك في الوقت نفسه.^(٢٤) إن فكرة الاستهلاك هذه التي يلح عليها جاك بيرك ستجعل روح الفردانية تهيم أكثر فأكثر على سلوك الفلاح، مما سيؤدي إلى تحطيم التوازن القروي التقليدي، ذلك أن الغاية من التحديث هي إعادة "صنع" البادية المغربية، أي خلف فلاحه عصرية، وكذا خلق طبقة من الفلاحين على الشاكلة الأوروبية (Un paysanat à l'europpéenne)، ولعل هذا هو الأهم.^(٢٥)

خاتمة

انطلاقاً مما سبق يمكن القول؛ إن إدارة الحماية أقدمت على اتخاذ مجموعة من الإجراءات والتدابير ادعت من ورائها أنها تهدف إلى تطوير الإنتاج الفلاحي الأهلي وتجديد تقنيات الفلاح المغربي وتغيير أساليب عمله، وتغيير عقليته وعاداته الحياتية اليومية وجعله ينخرط في البوتقة الجديدة التي تريد إرساءها. لكن كيف يمكن الحديث عن إدخال تقنيات وأساليب حديثة في عملية الإنتاج أو الزراعة على الطريقة الأوروبية لفلاحين جردوا من أراضيهم الخصبة؟

وهكذا وعوض الاستمرار في عملية تعميم التقنيات الفلاحية، ارتأت البيزانا أنه من الأفيء خلق مقاولات عصرية؛ ولن يتأتى ذلك فقط تنقية الأراضي وزرعها، وإنما أيضاً بإقامة شبكات الري والعمل على إدخال مزروعات صناعية جديدة والقيام بتحويلها وتسويقها طبقاً للمنطق الذي يسود أية مقاولات صناعية.^(١٨)

كانت تسير من طرف مجلس أعلى للبيزانا، أحدث بظهير ٥ دجنبر/ ديسمبر ١٩٤٤، يقوم بدراسة واقتراح الوسائل التي بإمكانها إتاحة تنمية حشود الفلاحين اقتصادياً واجتماعياً، وتحسين أوضاعهم القانونية والتنسيق بين مختلف المصالح في هذا الشأن. يضم المجلس الأعلى، الذي يرأسه المقيم العام والصدر الأعظم والوزير المفوض لدى الإقامة العامة والكاظم العام للحماية، بالإضافة إلى ممثلين عن مختلف الإدارات (اقتصاد، أشغال عمومية، تعليم، صحة...) وخواص يعينون من بين عشرة مغاربة.

يجتمع المجلس الأعلى مرتين في السنة، ولا تصبح قراراته سارية المفعول إلا بظهير أو قرار من المقيم العام. وتسهر على تطبيق قرارات المجلس الأعلى الكتابة العامة التي كانت مرتبطة بالإقامة والتي كانت تشمل ممثلين اثنين عن المجلس الأعلى هما: جاك بيرك (Jacques BERQUE) وروجي تريتيناك (Roger Tertignac) وكاتباً دائماً مغربياً هو عبد الله الصبيحي. لكن جل صلاحيات الكتابة العامة نقلت بقرار من الإقامة العامة إلى مركزية التجهيز الفلاحي للبيزانا.^(١٩)

ثالثاً: مركزية التجهيز الفلاحي للبيزانا (C.E.A.P) وقطاع التحديث الفلاحي (S.M.P)

أنشأت الإقامة العامة مركزية التجهيز الفلاحي للبيزانا (Central d'Equipeement Agricole du Paysanat أو C.E.A.P) بظهير ٢٦ يناير ١٩٤٥؛ وهي مؤسسة عمومية تتمتع بالشخصية المدنية والاستقلال المالي،^(٢٠) تهدف إلى تنمية الفلاحة وتربية الماشية، بتقديم قروض للفلاحين وتأطيرهم تقنيا وبيع المعدات الفلاحية أو كرائها لهم.^(٢١)

ولإنجاز مهامها، اعتمدت مركزية ال (C.E.A.P) على مكاتب محلية تقوم بتقديم معلومات حول التكوين الكيميائي للتربة ونوعية الأسمدة التي ينبغي استخدامها وطريقة محاربة التعرية والأمراض النباتية لقطاع التحديث الفلاحي (Secteur de Modernisation du Paysanat) أو S.M.P المنشأ بظهير ٥ يونيو ١٩٤٥، وهو عبارة عن مؤسسة عمومية تسييرها السلطة المحلية، ترمي إلى تحقيق أهداف مادية واجتماعية وأخلاقية، تتمثل في تحسين الإنتاج وتوجيه الفلاحين نحو زراعات جديدة والعمل على تطبيق مخطط للتنمية وتحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وذلك ببناء المدارس والمستوصفات ودور السكن

- (٩) حليم (عبد الجليل)، "الإصلاح القروي في عهد الحماية، البيزان والتحديث"، مجلة المناهل، العدد ٦٩/٧٠، السنة السادسة، منشورات وزارة الثقافة، يناير ٢٠٠٤، ص ٥٣.
- (10) ANONYME, Rapport **général sur le mouvement coopératif en milieu autochtone (1934-1950)**, in C.H.E.A.M., Rabat, 1950, p.3.
- (11) Rosier (René), **Les sociétés indigènes...**, op.cit., p.126.
- (12) Bibliothèque Nationale de Rabat, **Rapport mensuel du Protectorat, décembre, 1920**, p.21.
- (13) Rosier (René), **Les sociétés indigènes...**, op.cit., p.126.
- (١٤) حليم (عبد الجليل)، "الإصلاح القروي..."، مرجع سابق، ص ٥٤.
- (15) HALIM(Abdeljalil), **Structures Agraires et Changement Social au Maroc de l'iqtae au capitalisme**, Imprimerie Info-Printe, Fès, 2000, p.113.
- (١٦) حليم (عبد الجليل)، "الإصلاح القروي..."، مرجع سابق، ص ٥٥.
- (17) Archives Nationale de Rabat.
- (18) HALIM(Abdeljalil), **Structures Agraires...**, op.cit., p.113.
- (١٩) حليم (عبد الجليل)، "البيزان"، معلمة المغرب، ج ٦، ص ١٩٤٤-١٩٤٥.
- (٢٠) "ظهير شريف في إحداث مؤسسة مركزية للتجهيز الفلاحي خاص بالفلاحين"، الجريدة الرسمية، العدد (١٦٨٨)، ٢ مارس ١٩٤٥ / الموافق ١٧ ربيع الأول ١٣٤٦، ص ١٧٠.
- (21) HALIM(Abdeljalil), **Structures Agraires...**, op.cit., p.103.
- (٢٢) حليم (عبد الجليل)، "البيزان"، معلمة المغرب، ج ٦، ص ١٩٤٤-١٩٤٥.
- (23) BERQUE(J) et COULEAU(J), «**Vers la modernisation du fellah marocain**», in B.E.S.M, vol.7, n°26, juillet 1945, p.20.
- (24) BERQUE(J) et COULEAU(J), «**Vers la modernisation rurale**», in Bulletin de l'information du Maroc, n° special, Octobre 1945, p.9.
- (٢٥) عبد الجليل حليم، "التحديث القروي ورأسملة الزراعة المغربية"، أعمال ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم (١٠)، ١٩٩٨، ص ٦١.
- (26) BERQUE (Jacques), **La question agraire au Maroc; Nouvelle politiques de la France au Maroc**, in C.H.E.A.M, n°749, 8 octobre 1945, p.26.
- (٢٧) حليم (عبد الجليل)، "الإصلاح القروي..."، مرجع سابق، ص ٥٦-٥٧.

إن إدارة الحماية كانت تهدف من وراء كل هذه التدابير إلى هدم التوازن الاجتماعي التقليدي، وتعويضه بتوازن جديد يتيح الاستيلاء على الأراضي الجماعية، وأراضي الجيش التي ضمت قسماً منها إلى الأراضي المخزنية ثم وزعتها على المعمرين، وترسيخ الوجود الفرنسي في المغرب، كما عبر عن ذلك منظر البيزان جاك بيرك الذي يرى من الضروري التوفيق بين ازدهار الفلاح وانتشار الوجود الفرنسي، الشيء الذي يمثل هدفاً من أهداف العمل الفرنسي في إفريقيا الشمالية،^(٣٦) ناهيك عن خلق فلاحية على النمط الأوربي أي فلاحية رأسمالية، حيث حتى إذا ما اتفق أن استقل المغرب، فإنه سيبقى مرتبطاً بالمتربول وتابعا له.^(٣٧)

الهوامش:

- (١) "ظهير شريف في إحداث شركات احتياطية مختصة بالأهلين"، الجريدة الرسمية، العدد (٢١٥)، ١١ يونيو ١٩١٧، الموافق ٢٠ شعبان ١٣٣٥، ص ٤٦٠-٤٦١ - انظر كذلك:
- ROSIER(René), **Les sociétés indigènes agricoles de prévoyance au Maroc**, Librairie Emile La rose, 1925, p.126.
- (٢) "ظهير شريف في إلغاء الظهائر الشريفة المؤرخة برابع شعبان عام ١٣٣٥ الموافق لسادس وعشرين مايو سنة ١٩١٧ وبعشرين شوال عام ١٩٣٧ الموافق لتاسع عشر يوليو سنة ١٩١٩، وبثاني وعشرين رجب عام ١٣٣٨ الموافق لثاني عشر أبريل سنة ١٩٢٠ المتعلق بشركات الاحتياطية الأهلية وتعويضها بهذا الظهير الشريف"، الجريدة الرسمية، العدد (٤٦١)، ٢٨ فبراير ١٩٢٢، الموافق ٤ جمادى الثانية ١٣٤٠، ص ٢٤٢-٢٤٨.
- (٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٥.
- (4) NATAF (Félix), **Le Crédit et la Banque au Maroc**, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1929, p.147.
- (5) A.N.R, Carton F 51, **Les prêts consentis aux paysans marocains par les Sociétés Indigènes de Prévoyances**, bulletin de l'information et de documentation.
- (٦) "عدد أعضاء الشركات ومقدار السلفات الممنوحة"، الجريدة الرسمية، العدد (١١٥١)، ١٦ نوفمبر ١٩٣٤ / الموافق ٧ شعبان ١٣٥٣، ص ١٦٤٠.
- (٧) "بيان جملة الاموال التي للشركات الأهلية الاحتياطية بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٣٣"، المرجع نفسه، ص ١٦٣٨.
- (٨) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة الكولونiale في المغرب (١٩١٢-١٩٥٦)**، مطابع إمبريال، الطبعة الأولى، ارباط، ١٩٩٨، ص ٨٩-٩٠.

البعد السياسي في خطاب مصلحة الشؤون الأهلية في المغرب

د. منعم بوعملات

أستاذ التعلم العالي مساعد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الحسن الثاني - المملكة المغربية



ملخص

لقد أولت القيادة الفرنسية أهمية خاصة لتجربة إدارة الشأن الأهلي في المغرب خلال فترة الحماية ١٩١٢-١٩٥٦، وقد تزايد هذا الاهتمام مع تطور الاستعمار الفرنسي في البلد، واستطرادا مفاهيم الاستيعاب والإخضاع والتغيير والاندماج، المرتبطة بعناصر تشكل جوهر استمرار المشروع الاستعماري، من قبيل الأمن الفرنسي، وتأمين المستوطنين، واستشراف آفاق الحضور الاستعماري. لقد شكلت مصلحة الشؤون الأهلية الرافعة الأمنية والاستخباراتية لهذه الرؤية من خلال مساهمتها الكبيرة والمحورية في تمكين فرنسا من القيام بما يشبه دور الوصي على الأهالي، مستندة في ذلك على ثلاثة عناصر حاسمة: إدارة استعمارية، خطاب استعماري، وفكر استعماري مجسد في ما سمي بـ "السياسة الأهلية"، فإن تضافر هذه الثلاثية مكن من ممارسة التدبير الفرنسي على أرض الواقع. هكذا انطلقنا في هذه الدراسة مع أصول مصلحة الشؤون الأهلية، حيث حاولنا العودة إلى مسارات تشكيل هذه المؤسسة منذ تجربة الجزائر. وعليه، استعرضنا بعض الدراسات الفرنسية التي ترصد هذه التجربة بالجزائر مع "البيرواات العربية"، قبل أن نصل إلى نشأة هذه المؤسسة في المغرب، لي طرح سؤال فحوى الخطاب المعتمد لدى ضباط مصلحة الشؤون الأهلية؟ فوقفنا عند تعدد الخطابات التي تميز بين الواقعي والمقدس، بين الديماغوجي والدعائي، بين الموضوعي والرمزي، وكلها خطابات تصب في خانة تأمين استمرارية الحضور الفرنسي في المنطقة. ولأن الخطاب يحتاج إلى فكر، فقد شكلت السياسة الأهلية عنصر ارتكاز استراتيجي التدبير الفرنسية، على اعتبار المفاهيم والمضامين التي تضمنتها ومنها الاستيعاب والإدماج والاحتضان وأساسا نظرية الاحتلال السلمي.

كلمات مفتاحية:

مصلحة الشؤون الأهلية، السياسة الأهلية، الخطاب، الاستيعاب، الإدماج، الاحتلال السلمي، المشروع الاستعماري

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٨ أبريل ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

منعم بوعملات، "البعد السياسي في خطاب مصلحة الشؤون الأهلية في المغرب"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٤٢ - ٥٦.

مقدمة

المصلحة على تصنيفها في أوساط الأهالي. لقد استطاعت مصلحة الشؤون الأهلية بشكل كبير أن تكشف كافة الجوانب المتعلقة بتسيير شؤون الأهالي، بدءا من الإنتظارات مرورا بالإكراهات وانتهاء باقتراح المخارج الممكنة التي تسمح بأجراة السياسة الاستعمارية في المغرب. إن مصلحة الشؤون الأهلية تمثل في نظرنا فكرا سياسيا بلغة عسكرية، حاولت طيلة فترة الاستعمار الفرنسي في البلاد أن تغير وضعها وتتجاوز واقعا

يقضي الحديث عن استراتيجية فرنسا في تدبير الحياة اليومية للسكان في المغرب خلال فترة الحماية (١٩١٢-١٩٥٦)، وجوب استحضار مصلحة الشؤون الأهلية، لكونها تعبر عن جملة أساليب وطرق استعمارية سطرت الحماية الفرنسية عناصرها، وانعكست في أشكال تفكير وممارسة وتحليل، عكفت هذه

وتشكل تصورًا وتقييم بناءً استعماريًا فرنسيًا سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وعسكريًا. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن أصول مصلحة الشؤون الأهلية وخطابها، وعن السياسة الأهلية ومقارباتها؟ كل ذلك من أجل الإحاطة بجهاز اعتبر ركيزة الاستعمار الفرنسي في المغرب.

أولاً: أصول مصلحة الشؤون الأهلية (الخطاب والممارسة)

لقد جسدت مصلحة الشؤون الأهلية بأبعادها السياسية والعسكرية النموذج الأكثر تعبيرًا عن الفكر الاستعماري الفرنسي، ذلك أنها شكلت تجربة المشاركة الفرنسية الفعلية في تدبير قضايا الأهالي، لتضفي على نفسها عنصر التميز عن باقي أجهزة مؤسسة الحماية. فكيف انبثقت هذه المؤسسة في المغرب؟

١/١- مصلحة الشؤون الأهلية في المغرب:

ثمة سؤال نعتقد أن الإجابة عنه تشكل مدخلا لفهم أصول مصلحة الشؤون الأهلية، ومدى تطابق أو على الأقل تشابه تجربة الجزائر في تدبير الشأن الأهلي مع تجربة المغرب، هل كان يسيرًا على فرنسا أن تنقل تراكم استراتيجيتها في تدبير الشؤون الأهلية بالجزائر على مدى ٧٥ سنة (من سنة ١٨٣٧ تاريخ إنشاء مكاتب العرب في الجزائر^(١)، إلى سنة ١٩١٢) إلى المغرب؟ على الرغم من أهمية هذا التساؤل والطابع المقارن لجوانبه، إلا أننا نقر بأنه ليس بوسع هذه الدراسة البسيطة أن تحيط بكل جوانبه. وعمومًا، فإن المنطلق التحليلي لهذه المقارنة ستعتمد على تقديم نموذجين لكتابات فرنسية تظهر بشكل جلي، في نظرنا، هذا التوافق في التجربتين الجزائرية والمغربية. الكتاب الأول معنون بـ "دور فرنسا في المغرب" لصاحبه "رومانبي" والنموذج الثاني محاضرة ألقاها الرائد "تاريت" الضابط الفرنسي من المديرية العامة للشؤون الأهلية في مدينة الرباط يوم ٢٤ يناير ١٩٢٨، أمام مجموعة من الضباط.

نطلق من النموذج الأول وكتاب "دور فرنسا في المغرب" الذي يقدم مؤلفه في صفحاته الأولى إشارات تدل على تشابه بين إدارة الشؤون الأهلية في الجزائر أو مكاتب العرب، ونظيرتها في المغرب مصلحة الشؤون الأهلية. يحاول الكاتب في البداية التأصيل لهذه المكاتب بالحديث أولاً "عن مدى التنافس الحاد بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية في الجزائر، فالأولى لا تريد السماح ليد خارجية عن العسكر أن تلمس هذا الغزو/الاحتلال، والذي تعتبره هدية تقدمها لفرنسا، والثانية تريد أن تخلق بأسرع وقت ممكن الأجهزة الإدارية المدربة المتميزة بتعقيدها، مثل تلك الموجودة في المجتمع الفرنسي المتحضر"^(٢). لينتهي هذا التنافس حسب الكاتب، إلى التشديد على أن "الوسيلة الوحيدة المؤكدة لتفادي خطر التمرد، هو التواصل الودي مع الأهالي ومحاولة فهم حالتهم السياسية، وبالتالي البحث عن نظام إداري يسمح لنا بقيادتهم، ووضع جميع

دواليب الحكومة الموجودة عندهم، وإن كانت ناقصة، في مصلحتنا مع تفادي إخضاعهم بعنف لعاداتنا الإدارية"^(٣). ليصل في معرض حديثه إلى "انبثاق فكرة خلق "مكاتب العرب" التي تم تنظيمها أولاً وتوجيهها فيما بعد، بعدة مذكرات دورية للمارشال "بيجو"، وهي تحفة في العمل الجاد والفكر المنظم"^(٤). ولعل أهم ما يثير انتباهنا ضمن هذا الكتاب، تلك الإشارات الدالة في تقديرنا على تشابه مؤسسات التدبير الفرنسي في الجزائر والمغرب، ومن ضمن ذلك حديث الكاتب عن "أن مكاتب العرب هي نموذج كل المؤسسات التي تهدف إلى إدارة الأهالي، ليس في الجزائر فحسب بل في جميع المستعمرات الفرنسية وكانت الوسيلة القوية للاستيلاء النهائي بعد الغزو"^(٥).

إنه المنطق والخيار الذي تبنته فرنسا في كل مستعمراتها، بتسخير مكاتب العرب أو مصلحة الشؤون الأهلية كعامل لتقديم الدعم والاستمرارية لوجودها الاستعماري في هذه البلدان، وما يزيد من تأكيد هذا الطرح، ما أورده كاتبنا حول اعتماد فرنسا صراحة نفس معايير تدبير الشأن الأهلي الجزائري بالمغرب بالقول: "واعتمادًا على مبادئ مماثلة للإدارة الأهلية كما نظمها "بيجو" سنة ١٨٤٤ تم إنشاء مختلف عناصر العمل في المغرب"^(٦). إنه إقرار آخر يضاف إلى ما أورده الأستاذ "إبراهيم بوطالب" متحدثًا عن "مصلحة الشؤون الأهلية كهيئة مقتبسة من مثيلتها المجربة في الجزائر"^(٧)، سيساهم في إضاءة وضع مكاتب العرب في الجزائر ونظيرتها في المغرب "مصلحة الشؤون الأهلية"، فتبرز تقاطعات المؤسسات ووظائفهما في القطرين. وهو الأمر الذي سنحاول أن نستشفه من خلال النموذج الثاني من دراستنا والذي يمثل الرائد "تاريت" في محاضرة ألقاها على مسامع ضباط الأقسام التحضيرية للشؤون الأهلية في الرباط.

لقد حاول هذا الضابط الفرنسي إعطاء صورة دقيقة عن عمل مصلحة الشؤون الأهلية على مستوى تاريخها وبنياتها وتفاعلاتها وطريقة اشتغالها وطبيعة تفاعلها، لتكتسي هذه المحاضرة في اعتقادنا، أهمية من الناحية المعرفية، وستنتقل هذه الأهمية المعرفية إلى مؤسسة الحماية لتتحكم في منطق اشتغالها وتديرها لبلاد المغرب عمومًا. تتحدد هذه القناعة لدينا بمجموعة من الخلاصات التي وصل إليها الرائد "تاريت" والتي يمكن عرض تجلياتها في العناصر التالية:

- كانت مصلحة الشؤون الأهلية في المغرب وإلى غاية ١٩٢٨ تحمل اسم "مصلحة الاستعلامات". ومنذ بداية استعمار الشاوية، قام الجنرال قائد الجيش بتنظيم مصلحة الاستخبارات بمساعدة ضباط جندهم من مصلحة الشؤون الأهلية الجزائرية، وقام هؤلاء فيما بعد بتكوين ضباط شباب تم اختيارهم من فرقة الإنزال.^(٨)

المديرية العامة للشؤون الأهلية تشارك في دراسة جميع القضايا الاقتصادية والاجتماعية التي تهم الأهالي كما توجه السياسة الأهلية وتعمل على تجميع الشؤون الإدارية للمناطق العسكرية.^(١٣)

- يساعد المدير العام للشؤون الأهلية ضابط سامي هو المدير المساعد للمصلحة. وتضم المديرية العامة للشؤون الأهلية أجهزة أفقية متنوعة، توحى مظهرًا بالتباعد بينها، غير أنها متداخلة ومتكاملة في عملها، وأعمدها كما يلي.^(١٤)

• **قسم الموظفين، الميزانية والمحاسبة والقوات الاحتياطية:** يعالج جميع القضايا التي تهم الموظفين العسكريين في مصلحة الشؤون الأهلية، والموظفين المدنيين الملحقيين بهذه المصلحة والأعوان المساعدين. كما يُعَدُّ هذا القسم ميزانية مصلحة الشؤون الأهلية المتعلقة مثلاً بالمديرية العامة للأشغال العمومية، والمديرية العامة للفلاحة والتجارة والاستعمار...، ويدرس أيضًا القضايا التنظيمية العامة للمناطق العسكرية بالاتفاق مع القسم السياسي، ويحضر القرارات التي ستعرض على المقيم العام لتوقيعها، دون أن يغفل دوره في وضع ميزانية الحرب التي تهم: الموظفين العسكريين للقيادات الترابية، ومصلحة الشؤون الأهلية، والتشكيلات المساعدة في المغرب. كما يدرس توزيع القوات الاحتياطية على الجهات العسكرية والقضايا التي تهم تنظيم هذه القوات.^(١٥)

• **قسم إداري:** يهتم بصفة عامة بقضايا الحياة الإدارية للمناطق، ويشكل قسماً للدراسة، والمراقبة، والارتباط بين المناطق العسكرية والمديريات ومصالح الحماية. كما تشمل اختصاصاته معالجة بعض القضايا من قبيل: المسائل البربرية (تطبيق تشريعات خاصة والعدالة البربرية، والمدارس البربرية، والجماعات القضائية على القبائل ذات العادات البربرية)، مراقبة المعاملات العقارية، يتامى الأمة، المستحقات، الترتيب، الأسواق، الماء، نظام الجمارك، الحالة المدنية...^(١٦)

• **قسم سياسي:** ويهتم بالشؤون السياسية الأهلية وتتمثل في:

١- القيادات الأهلية وتنظيمها وتسييرها كتحيين وإقالة القواد والقضاة، ووضع بطاقات الرؤساء الأهليين والمكافآت والأوسمة ورسائل توبيخ المخزن المركزي، ولوائح قيادات القبائل، والعقوبات الصادرة في المناطق العسكرية في حق الأهالي، ولجن العفو، واقتراحات تخفيض العقوبة لصالح الأهالي بمناسبة الأعياد الإسلامية.

٢- حجز ممتلكات المعارضين وغير الخاضعين، ومراقبة الأشخاص المشتبه فيهم القيام بحملات ضد فرنسا، والشكايات، والاحتجاجات، وطلبات التشغيل الخاصة

- لم تشكل مصلحة الاستعلامات إلا في نهاية ١٩٠٩ حيث أخذت شكلها الإداري وأصبحت، إذا صح القول، مستقلة مثلها في ذلك مثل سابقتها الجزائرية والتونسية^(٩).

- عين الرائد "سيمون"، رئيس هذه المصلحة وقائد "الكوم المزدوج" (Goums Mixtes) المغربي ومقر إقامته الدار البيضاء. في سنة ١٩١٣ أخذ هذا الضابط الكبير، صفة مدير مصلحة الاستعلامات بالمغرب. وعندما أصبح الرائد "سيمون" جنرالاً سنة ١٩٢٦، عين قائداً لمنطقة تازة.

- لم تكن لمديرية مصلحة المخابرات آنذاك إلا اختصاصات مصلحة الاستعلامات الأممية، كانت المشاكل السياسية الأهلية تعالج من طرف الكتابة العامة للحكومة الشريفة، التي تولت بها عندما تم حذف هذه المصلحة بمرسوم من رئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ ١٩١٧/٠٥/١٩.

- أحدثت مديرية الشؤون الأهلية بموجب ظهير ١٩١٧/٠٦/٠٢ وتم إلحاقها بمديرية مصلحة الاستعلامات. وبدمج المصلحتين، تم تشكيل مديرية الشؤون الأهلية ومصلحة الاستعلامات.^(١٠) والتي تضطلع بمهمة مزدوجة تطابق أهداف الغزو والتهدة لإقامة الحماية في المغرب:

• مهمة أولى سياسية تتمثل في اختراق السكان الأهليين غير الخاضعين لنا، وإعداد وتسهيل عملنا العسكري عند الضرورة وهي مهمة موكلة لمصلحة الاستعلامات لإنجازها في جميع المستويات.

• مهمة ثانية سياسية وإدارية وتهدف إلى التهدة والمراقبة وإدارة السكان حديثي العهد بالخضوع، وهي مهمة تدخل في إطار مصلحة الشؤون الأهلية. إنها مهام تتطلب من الضباط المكلفين بها التحلي الإيمان، والنشاط الدائم، والتعصب لفرنسا، ومعرفة علم النفس، واليقظة، والصرامة وكثيراً من التمييز.^(١١)

لقد نفذ الضابط "تاريت" في محاضراته السابقة الذكر إلى مرامي مصلحة الشؤون الأهلية التي تبرز هيكلتها وتمفصلاتها الإدارية العامة على هذا الشكل:

- إن مصلحة الشؤون الأهلية هي جهاز للعمل السياسي والإداري في الأقاليم العسكرية، وهي تحت الإمرة والإدارة المباشرة للمندوب المقيم العام، وعلى رأس هذه المصلحة توجد المديرية العامة للشؤون الأهلية.^(١٢)

- تتمركز جميع المسائل التي تهم السياسة الأهلية والمراقبة الإدارية في المناطق العسكرية، في يد المديرية العامة للشؤون الأهلية، فهي تدرسها وتضبطها وتقدمها إلى المندوب المقيم العام. كما توزع، تنفيذاً لأوامر المقيم العام، على مكاتب الشؤون الأهلية، الموظفين المتخصصين والموجهين إلى العمل السياسي وإلى المراقبة الإدارية. وباختصار، فإن

العرب في الجزائر ومصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب)، فإننا نسجل تطابقاً في التدبير والتنظيم والمضمون والرؤى. وتزداد درجات الاتصال بين التجربتين لتصل إلى استفادة مغرب الحماية من "خبرة" و"كفاءة" الضباط الفرنسيين والجزائريين، الذين اشتغلوا في الجزائر لتوفير شروط انبثاق ما سمي بمصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب بظهير ١٩١٧. وفي هذا الإطار نلاحظ أن البناء المؤسسي لهذه المصلحة في مختلف فروعها قد تغذى من النموذج الجزائري^(٢٣)، لنهتدي إلى اقتناع مفاده بأن التنظيم الفرنسي لمكاتب العرب قد ساهم في إنتاج مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب، بل وساعد في إمام ضباط هذه المصلحة بالخصائص والميكانيزمات التي تشكل قلب ممارسة عملهم.

عود على بدء، لتتساءل عن مبتغى نقل فرنسا لتجربتها في التدبير الأهلي بالجزائر إلى المغرب، وهل كان يسيرا عليها أن تقوم بذلك؟ يتعين في هذا السياق أخذ هذا السؤال/الفرض بنوع من الجدية، إذ تبين لنا على امتداد هذا المسار بأن مقارنة بسيطة بين التجربتين الجزائرية والمغربية تظهر صعوبة الحديث عن يسر أو عسر في نقل التجربة بقدر ما كان هم فرنسا هو البحث دائماً عن الملائم الأجود لخدمة مشاريعها الاستعمارية. لذا تدرجت فرنسا في إنشاء هذه المصلحة تبعاً لتقلبات الوضع على الأرض من جهة، وتطور مسار الاستعمار من جهة أخرى، فكانت تجربة الجزائر في التدبير الأهلي المنطلق مع مكاتب العرب، ثم مصلحة الاستعلامات، فمصلحة الشؤون الأهلية والاستعلامات، وأخيراً مصلحة الشؤون الأهلية في المغرب.

نود أن نشير في هذا الصدد، إلى أننا أمام "عقل" مؤسسة الحماية ومصدر قوتها بعد مؤسسة الجيش، وأن مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب قد برهنت بما لا يدع مجالاً للشك، عن ثقلها كمحدد حاسم في الاستراتيجية الفرنسية في استعمار المغرب^(٢٤)، إنها "مصلحة" تكتنز خيرة ضباط فرنسا وأكثرهم انضباطاً، مما حدا بالرائد "تاريت" إلى تبجيلهم واعتبارهم حجر الزاوية في بناء الحماية بقوله: "إن ضابط الشؤون الأهلية الحقيقي، ليس كما نتصوره إداري جالس في مكتب مريح يسير السكان الأهليين، بل هو مرسل، مربي، مقتنع، رائع أخلاقياً بالمهمة والمسؤولية التي يقوم بها والتي تفرض عليه أخطاراً. عليه أن يعرف فرنسا لهذا الشعب، ويعيد له الثقة في العدل ويوجهه إلى الأعمال النافعة بفضل السلم والتعاون الصادق مع الحماية، التي تتجلى قوتها في السلام كما في إشاعة الطيبوبة. لا يمكن القيام بهذه المهمة النبيلة دون صدام أو حوادث مأساوية... إن هذا الضابط المتعصب لمهمته، يمد غصن الزيتون لعدو عنيد، ويحاوِر ويبيّن له كرم فرنسا إذا خضع لها"^(٢٥) بهذا المعنى، تتساءل مجدداً عن فحوى خطاب مصلحة الشؤون الأهلية؟

بالأهالي، وتسليم الأراضي لقدامى المحاربين المغاربة، وتأشير وإرسال رسائل القضاة ونظار الأحباس، وملفات الشكايات المقدمة أمام المجالس الجنائية أو محاكم الاستئناف الشرعية، إلى الشؤون الشريفة.

٣- دراسة الحالة السياسية والعسكرية في المنطقة الإسبانية وفي مختلف الجبهات في المنطقة الفرنسية (الجبهة الشمالية، الأطلس المتوسط، الجبهة الجنوبية، وضعية المعارضين، تقدم التهدة، نزع سلاح القبائل، شروط الاستسلام)، والتنظيم الترابي للمناطق العسكرية، وتحرير محاضر عن الحالة السياسية والعسكرية أسبوعية وشهرية للحماية، ومسائل جوازات السفر الخاصة بالأهالي المغاربة، ورخص المرور، التجنيس، المحميين الأجانب^(١٧).

• **مصلحة الجماعات الأهلية:** وتهتم بالعناصر التالية: التحديد الإداري (ظهير ١٨ فبراير ١٩٢٤)، نزع الأراضي بمختلف أنواعها لتأسيس مساحات الاستعمار، ونزع الأراضي من أجل المنفعة العامة، مع احترام حق انتفاع الجماعات في الغابة، ثم كراء الأراضي الجماعية، إلى جانب البحث ومعالجة القضايا الخلافية حول التسجيل وإيجاد الحل بالتحكيم أو القرار القضائي^(١٨).

• **مكتب الترجمة:** يهتم بالمراسلات العربية وهو مكلف بتوجيه الأهالي إلى المصالح التي يطلبونها من أجل قضية أو شيء آخر في مديرية الشؤون الأهلية. ويشكل مكتب الترجمة بالنسبة إليهم "مكتب العرب الكبير" للمقيم العام^(١٩).

• **مصلحة الصحافة الإسلامية:** تأسس هذا القسم بقرار من الإقامة العامة في ٢٤ أبريل ١٩١٤ ومهمته مراقبة كل المنشورات التي تهتم المغرب والتي تصدر في مختلف الأجهزة الإسلامية. فهذا القسم ينشر دورية ويبلغ مصالح الحماية المهمة بتحليل عام لجميع المقالات الصادرة في الصحافة العربية المغربية والأجنبية، وعند الضرورة يتم ترجمتها^(٢٠).

• **قسم التاريخ:** تتمثل مهمة هذا القسم في البحث في الأرشيف والمكتبات في فرنسا وفي الخارج عن كل الوثائق التي تهتم تاريخ المغرب وتدوينها ونشرها، وقد كان يدير هذا القسم الكولونيل "دي كستري"^(٢١).

• **القسم السوسولوجي:** ويدير هذا القسم "ميشو بليز" مستشار الشؤون الأهلية، وليست له أية علاقة إدارية إلا مع المديرية العامة للشؤون الأهلية. وتتجلى مهمته في نشر "الأرشيف المغربي" و"مدن وقبائل المغرب" وهما معا مخصصين لمسائل "السياسة الأهلية"^(٢٢).

إن تتبع محاضرة الرائد "تاريت" مكننا من استخلاص وجود تشابه بين التجربة الجزائرية والتجربة المغربية في تدبير الشأن الأهلي، فإذا كان ثمة اختلاف على مستوى الأسماء (مكتب

٢/١- مقارنة خطاب مصلحة الشؤون الأهلية في المغرب:

إن البحث عن خطاب مصلحة الشؤون الأهلية هو بحث عن أداة إجرائية لمؤسسة الحماية، والتي تعتبر في نظرنا من أكثر الفضاءات العسكرية الفرنسية إنتاجاً للخطاب والمفاهيم الحاضرة بقوة في التدبير والتسيير، وتجد لها ممارسة في الحكم، انطلاقاً من فكرة رئيسية قوامها "أن وجودنا بالمغرب ليس تناقضاً ينبغي إلغاؤه... إذ ليس هناك ما هو أخطر من التصورات المجردة والتي نحاول باسمها حصر المستقبل في صيغ" (٢٦). والواقع أن اقتحام جدار هذا الفضاء العسكري يطرح تحديات على مستوى صعوبة التمييز بين آليات اشتغال مصلحة الشؤون الأهلية كمؤسسة، وأنماط التدبير والعمل في الميدان كأفراد في احتكاكهم اليومي مع الأهالي، وهو ما يهمننا في هذه الدراسة. وعليه، سيقوم تحديد هذا الخطاب على عنصر أساسي هو الاستعانة بكتابات فرنسية نعتقد أنها ستعزز ما رأيناه عند "رومانبي" و"تاريت"، ونعتقد أيضاً أنها ستسهم في فتح الباب أمام معرفة عقل مصلحة الشؤون الأهلية.

الكتاب الأول "مصلحة الشؤون الأهلية المغربية" لمؤلفه "مارك ميرود" ويقدم فيه تجربة ضباط أهليين عملوا في بعض مناطق المغرب. إن اهتمامنا بهذه التجارب يعزز سعينا إلى تفكيك ذلك التوجه الذي يشكل وعي ضابط مصلحة الشؤون الأهلية والذي يحمل في طياته تصورات خطاب تلك المصلحة، ويحكم ممارستها. في بداية عملنا هذا، سنقارب تجربة الكولونيل "جون بولي ديسبارو" الذي يتحدث بداية عن معانياته الشخصية لمحيط عمله بالقول: "يعيش المخازنية (وهم جنود مكلفون بحماية الأمن داخل المدن والقرى) في "القشلة" (الثكنة) مع عائلاتهم، وكانوا جميعهم عسكريون قدامى وأغلبهم "كوم"، وكانت عند أغلبهم أوسمة وقد حصل عليها بعضهم من أعمال مأثورة أثناء التهذئة... يتكلمون جميعهم العربية واللهجة البربرية... ويوزع عليهم "الشاوش" الخدمات بأمر من النقيب... يعتبر "الشاوش" عوناً مخبراً عن حياة المركز والمخزن" (٢٧).

نعتبر بأن معانية "ديسبارو" لمحيط عمله بسيطة، إلا أنها دقيقة من حيث تسليط الضوء على حياة هؤلاء الجنود الذين هم في أغلبهم من قدامى المحاربين إلى جانب فرنسا سواء في الهند الصينية أو ضد ألمانيا، والذين تمت إعادة تجنيدهم للاستفادة من خدماتهم.

ينتقل الضابط الفرنسي، بعد ذلك، للحديث عن علاقته مع قائد منطقته قائلاً: "كانت علاقتي مع القائد "عمار بن احميدو" مهمة في عملي كرئيس مكتب ومن الضروري أن يبدأ المرء بالتعرف عليه" (٢٨). ويرسم الضابط الأهلي نوع العلاقة التي تربطه بقائد المنطقة متحدثاً: "لقد طلبت منه أن يحضر "شكاية" وهي جلسة قضائية وتعقد في مكتب القبطان... كان قرابة خمسة

عشر شيخاً (أعوان سلطة) حاضرين مرفوقين بفقهاءهم (حفظة القرآن)، الذين ينادون على المتقاضين... بعد ربع ساعة قام "عمار" بستم أحد الشيوخ، وصفعه... تم إخلاء القاعة وتنبيه "عمار" بأنه أهان الشيخ "علي"، وعليه أن يعتذر علانية غذا على قبر سيدي علي بن داود" (٢٩).

إن المتأمل في حديث "ديسبارو" سيتبين ملاحظته المتميزة عن سير جلسة قضائية يفترض أن يسود فيها الهدوء والعدل، وهما من المفاهيم المركزية التي يستجديها الفرنسيون لبناء الحماية في المغرب. وفي حال افتقادهما كما ورد في المشهد السابق فإن الضابط الفرنسي لم يتردد في توجيه اللوم إلى القائد، بل وإلى التخلي عنه كما يبرزه حديثه الموجه إلى القائد "عمار": "كنت سعيداً بالعمل مع أحد أكبر قواد المغرب، واكتشفت أنك لست قائداً بل طفلاً، لا يمكن لك أن تحكم كما يحلو لك، لقد سمحت لنفسك بصفع رجل كبير السن، بسبب خلاف لم تستطع أن تحله بالعدل، كما يمكن لأي قائد مسؤول أن يفعل ذلك. كيف يمكن لك والحال هذه، أن تسير في مثل هذه الظروف أربع قبائل، ارجع إلى قبيلتك، وعندما تتحكم في نفسك وفي أقوالك وتستطيع أن تعدل، سأكون سعيداً بالعمل معك" (٣٠).

إننا هنا أمام سلوكيات ذات حمولة رمزية تقتبس مضامينها من المرجعية الأصل التي هي الاستيعاب. هكذا ترسخت ملامح علاقة ممثل مصلحة الشؤون الأهلية بالقائد المغربي، من خلال هذا المقطع الذي يظهر الضابط الفرنسي كمنتج لنظام العمل والتدبير والتوجيه، بينما ينحصر دور القائد المغربي في الإصغاء والتنفيذ فقط. وهو الأمر الذي عبر عنه "ديسبارو" صراحة بالقول: "ينبغي أن أجعل من هذا الجسور قائداً للسلم. إن دورنا كضباط الشؤون الأهلية، ليس القيادة، بل تعليم القيادة للرؤساء الأهليين، وهو شيء صعب، فنحن لا نتصرف إلا بواسطتهم بتربيتهم وتعليمهم شيئاً فشيئاً القيادة وحدهم. وسنكون مستشارين ونراقبهم ونفرض عليهم عند الضرورة عدم الابتعاد عن العدل وعن مصلحة القبائل" (٣١).

يعمل الضابط "ديسبارو" على احتضان القائد وهو دور تربوي يجمع آليات علوم أخرى كعلم النفس والاجتماع والانتروبولوجيا ليحقق المنشود. عندما التقط القائد رسالة التوبيخ الفرنسية عجز عن فهم كنهها ورأى فيها حطاً لقيمتها، فبعث بجواب للضابط الفرنسي مفعوم بالتهديد بالقتل أو بالحبس، كما يظهر في العبارات المستعملة على لسان "ديسبارو": "توصلت برسالة من القائد "عمار" يقول فيها: إنني مسؤول عن حياتك في القبيلة، إذا واصلت الخروج مصحوباً باثنين من "المخازنية"، ستقتل أو تحبس، وأطلب منك أن تكون دائماً في حراسة أكثر من خمسة عشر مخازنية" (٣٢).

كما يتضح من الفقرة التالية من الكتاب المذكور: "قاربت جولاتي على الانتهاء، عندما حضر صباحا أحد "المخازنية" وأخبرني بوجود القائد "عمار" الذي دخل مبتسما، تعانقنا... لقد بدأ عملي فعلا. إنه أب للقبائل الأربعة، وعدله يجب أن يشمل الجميع، وعليه أن يكون محبوبا ليس في عشيرته فقط بل وفي غيرها. وعليه أن يعمل على ازدهار مرؤوسيه. سيفقد بعض الامتيازات عندما يكون منصفاً للشكايات، لكن مورده الأساسي هو نصيبه من الضرائب... لقد تحدثنا عن جميع المشاكل التي درستها وطلبت منه رأيه حول طريقة حلها. ثم دعوته للغذاء وهو التزام بالصدقة. ابتداءً من ذلك اليوم لم أعد أراه غاضباً، عندما أشعر بأنه سينساق، أنظر إليه بهدوء، فيتوقف ثم يحدق في ويهدأ. هو كبير السن ولا يستطيع ركوب الخيل ولكنني أطلب منه مرافقتي كلما كنا بحاجة لحل مشكلة مهمة، كما وضعت خطأ هاتفيا بين مكتبي وقريته وعندما أعود من جولاتي، أخبره بكل ما بهمهم".^(٣٦)

من خلال تجربة "ديسبارو"، يمكن رصد مميزات خطاب مصلحة الشؤون الأهلية في أربعة ملاحظات أساسية:

- ١- ينبع خطاب ضابط مصلحة الشؤون الأهلية من المعاينة الموضوعية لموقعه ومحيطه الذي سيشكل الحاضنة له. فلا وجود لاستقلالية خطاب مصلحة الشؤون الأهلية عن الممارسة الميدانية والمجال الذي تشتغل فيه، بكل ما يتضمنه من حمولة لغوية ودينية واجتماعية وثقافية.. تفرض على الضابط الفرنسي أن يكون ملماً بها^(٣٧).
- ٢- يتأسس خطاب مصلحة الشؤون الأهلية تبعاً لنموذج العلاقة القائمة بين الضابط الأهلي والرؤساء الأهليين، فالخطاب الذي يتم تداوله بين الطرفين يتباعد ويتقارب ارتباطاً بوضوح أو غموض التصورات والرؤى بين الفاعلين، فخطاب القوة والحزم والوعيد، يقابله خطاب المهادنة والترغيب والثناء، إنه خطاب يتأرجح بناء على مقتضيات وقواعد الوضع الميداني ومستجداته.
- ٣- يحاول خطاب مصلحة الشؤون الأهلية أن يخرط في صلب النسيج الاجتماعي للقبائل المغربية، ومن خلاله الانتماء إلى السكان ومحاولة التموضع إلى جانبهم (قول الضابط الفرنسي مثلاً: لقد سبق للقبائل أن فهموا أنني لا أريد إلا الخير لهم ولا أحد يفكر في قتلي)، للوصول في النهاية إلى تشريح الحقل القبلي وتبيان مشاكله وأعطابه، ومحاولة حل بعضها (في مجال الصحة مثلاً)، والاستفادة من بعضها الآخر (الخلافت القبيلة)، عبر إنتاج خطاب ديمagogي حمال أوجه: داعم، توافقي، منحاز، وانتهازي.
- ٤- خطاب مصلحة الشؤون الأهلية هو خطاب اللغة الرمزية في كثير من جوانبه، هو خطاب ذهنيات وتذجينها، خطاب عقليات وتطويقها، ذلك بالضبط ما يمكن أن نسميه الخطاب المعتمد على السلوكيات وترويضها (عندما أشعر بأنه

في مقابل شدة اللهجة غير المحسوبة، يأتي رد الضابط الفرنسي الذي يقول فيه: "كان جوابي "لعمار"(بدون واسطة باستثناء كاتبه، فهو لا يعرف القراءة، كما أنني أكتب رسائلي باللغة العربية)، لقد سبق للقبائل أن فهموا أنني لا أريد إلا الخير لهم ولا أحد يفكر في قتلي أو حبسي. وإذا تم ذلك، فلن يكون إلا بأمر منك، سيدوم البحث عنك سنة إن اقتضى الأمر ذلك، لكن رأسك سينتهي بالسقوط. وأذكرك برغبتني في العمل بالتعاون معك، وإنني أنتظر منك أن تمنحني هذه المتعة، بارك الله فيك وحفظك"^(٣٨). لتبرز في هذا الكلام معاني القوة والسيطرة والتحكم، لإخضاع المستعمر وإجباره على التعاون. لا يسعنا إلا أن نقارن، ولنسمح لأنفسنا بهذا التمرين، بين رد فعل انفعالي للقائد، خال من كل مقومات العقلانية ناهيك عن القوة، وفعل مسؤول المستعمر الذي يتحرك وفق مخطط شامل للحماية، يرفع العصا والجزرة، أو بعبارة المارشال ليوطي "إظهار القوة دون استعمالها". وبناء على مفهوم الاخضاع، أجاب الضابط الفرنسي القائد "عمار" بأسلوب يجمع بين الشدة واللين ولا يترك له أية حرية للاختيار سوى الانصياع.

يواصل الضابط الفرنسي "ديسبارو" سرد تفاصيل عمله في مصلحة الشؤون الأهلية متسائلاً: "ماذا أفعل خلال هذه الجولات التي تستمر ليومين أو ثلاثة؟" فيجيب، "أدرس، مصالح القرى، من هو مع "عمار" ومن ضده، لمعرفة بكل دقة المشيخات المرتبطة بهم، حالة الماشية والزراعة، جميع الخلافات، حيث أطلب من الشيوخ والمقدمين أن يبعثوا لي مع رقاص (مبعوث) فور حدوث خلاف، أدرس الناس قبل أي تأثير معين، أزورهم واحدًا واحدًا"^(٣٩). ليكتب الضابط الفرنسي في سياق حديثه، عن حصيلة هذه الجولات الميدانية ما يلي: "وهكذا اكتشفت كثيرا من الأمراض عند الأطفال، وحمى "السالمة" التي تضعف وتبيد السكان، أرسلت تقريراً في الموضوع للجنرال قائد الجهة... وطلبت إرسال طبيب لدراسة هذا الوباء وأمراض الأطفال"^(٤٠).

نلمس من جولة الضابط الفرنسي "ديسبارو" وجهاً آخر لأسلوب مصلحة الشؤون الأهلية، إنه المجال الاستخباراتي القائم على النزول إلى الأرض لأخذ المعلومة مباشرة من مصادرها الحقيقية، وهو أسلوب كثيراً ما يتم تغليفه بأعمال ذات بعد إنساني "اكتشفت كثيراً من الأمراض"، "أرسلت تقريراً في الموضوع"، فكثيراً ما يستفيد ضباط مصلحة الشؤون الأهلية من العلوم الانسانية في عملهم اليومي، بل إن المخزون المفاهيمي لهم يتزود بشكل دائم بما وصلت إليه هذه العلوم من تطور.

لنتتبع الضابط "ديسبارو" في علاقته مع القائد "عمار" كما يرويها لنا الكاتب وما آل إليه شد الحبل بينهما في مواجهة غير متكافئة ومحسومة مسبقاً لصالح المستعمر، إذ ما فتئت مهمة الضابط تنتهي حتى استسلم القائد ولم يعد يغرد خارج السرب،

سينساق أنظر إليه بهدوء، فيتوقف، ثم يحذق في ويهدأ). إنها رزنامة مفاهيم مستوحاة من المعرفة الإنسانية المتنوعة، فشكلت خطاباً منسجماً له مقاصده، وظيفته مصلحة الشؤون الأهلية للسيطرة على الأهالي.

النموذج الثاني الذي يقدمه الكاتب الفرنسي "مارك ميرود" يمثله الضابط الأهلي "جاك مونجان" الذي يتحدث في إحدى الفقرات عن ما أسماه "في شأن الضيافة" حيث يقول: "كيف تطبق القبيلة التعليمات التي تفرض البساطة في الضيافة التي يقيمها المغاربة؟ لقد طلبت أن يتم استقبالي بكل بساطة وبطبق واحد إضافة إلى الكسكس التقليدي، لقد شرحت جيداً تعليماتي للرؤساء القبليين المغاربة الذين سيستقبلونني. في أول جولة لي، قدموا لي وجبة كبيرة وأفهموني على أنه طبق الوحيد بمناسبة زيارتي الأولى للقبيلة، وجددت تعليماتي للمستقبل. في جولتي اللاحقة، أخبرني أمغار، رئيس القبيلة أن ليس هناك إلا وجبة واحدة. تشرفت وجلست إلى المائدة... يأخذون صحناً ثم يأتون بآخر مثله، ويقولون لي أن ليس هناك إلا وجبة واحدة ولكنها في خمس نسخ، فكل القرى الخمس أعدت "الوجبة" وعلي أن أشرف بنفس الطريقة القرى الخمس لكي لا أخرج أحداً... لقد بذلت كل ما في وسعي ورغم حسن نيتي فقد استسلمت... سيتم احترام تعليماتي في المستقبل، وعندما أزور القرى الواحدة تلو الأخرى فإن السكان لا يتحركون وليس هناك خدمة تقدم على شرفي".^(٣٨)

إذا استثنينا جانب المتعة والدعابة التي تميز مضمون تلك الفقرة، فسنعرف فيها ومن جديد على عملية شد الحبل بين المستعمر والمستعمر، وإن على مستوى حسن الضيافة. إن استسلام الضابط للكرم المبالغ فيه، لا يعدو أن يكون وسيلة لإرضاء المضيف/المستعمر ما دام الأمر يشكل في نهاية المطاف خضوعاً للمحتل.

إن خطاب مصلحة الشؤون الأهلية كما يتجلى في ما ذكرناه، يغوص في التفكير الجمعي القبلي، فيحاول أن يتماها معه بمختلف تجلياته ومظاهره (الضيافة في القبائل المغربية من مظاهره)، فالإرادة القبلية - في مستوياتها المقبولة طبعاً بالنسبة للمستعمر - حاضرة في كل مجالات اشتغال الضابط الأهلي الذي يحرص على قبولها وترويضها عبر خطاب الترحيب أولاً، التشريف ثانياً، والعتاب ثالثاً، وفرض الشروط والتعليمات أخيراً. كل ذلك لترك انطباع أو خطاب لدى السكان، مفاده أن ضابط مصلحة الشؤون الأهلية متفهم، متآخي، حريص على مصلحة القبائل. ما يجعلنا نقول أن خطاب مصلحة الشؤون الأهلية هو انعكاس لخطاب القبيلة في جانبه السلوكي الاجتماعي والثقافي (عادات، تقاليد، أعراف...).

نصل إلى النموذج الثالث والأخير، والذي اخترناه من كتاب "مصلحة الشؤون الأهلية المغربية" دائماً، والذي يجسده أحد الضباط الأهلين (لم يذكر الكاتب اسمه)، حيث كتب "مارك ميرود" على لسانه ما يلي: "وصف أحد الوجهاء المغاربة ضابطاً للشؤون الأهلية بالقول: يحتفظ المغاربة بمكان مميز في ذاكرتهم لضابط الشؤون الأهلية، رجل البلد، يخدم في الأراضي الخاضعة حديثاً والتي لم يصلها الاستعمار، مكلف بمهمة نبيلة، والتي يتعاطى لها هذا الضابط الشاب، نذر نفسه ويعطي بسخاء وقلب بسيط وصافي، مصحوباً بصديقه الطبيب العسكري الذي لا يفارقه، ينجز العجائب... وقد نسج شبكة من الصداقات... وترك ذكريات لا تمحى، كما أن اسمه يذكر رغم كل العقبات"^(٣٩).

هل يمكن الحديث من خلال هذا المقتطف عن خطاب متميز لمصلحة الشؤون الأهلية؟ يكون ردنا بالإيجاب عندما نستحضر مفهوم "الدعاية" كوسيلة لتلميع صورة المستعمر. يستبطن حديث الكاتب الفرنسي خطاباً نسمح لأنفسنا أن نسميه "الغيرية"، يهدف أساساً إلى تلميع صورة، وبناء تصور إيجابي مشرق، لطريقة اشتغال الضابط الأهلي "المكلف بمهمة نبيلة". إنه خطاب القلوب بعد أن تعرضنا لخطاب العقول، خطاب العواطف بعد خطاب المواقف والتصرفات، إنه خطاب الاستقطاب لدائرة الثقافة الفرنسية ومنجزاتها في المغرب. لكننا نضيف أيضاً، إنه خطاب "ديماغوجي" يرسم في عقول المغاربة صورة "الضابط الأهلي مصحوباً بصديقه الطبيب"، عوض أن يرسم صورة حقيقية للضابط الأهلي المصحوب بصديقه الجندي، أو العسكري، أو المحتل. فضايط مصلحة الشؤون الأهلية يحتاج في عمله، كما تقرر أدبيات الحماية، إلى مجموعة من المواصفات منها الاستماع والإقناع، الضبط والانضباط، وهو ما يوضحه العقيد "هيوت" قائلاً: "على ضابط المخابرات أن يبذل مجهودات بدون ملل لمعرفة هؤلاء الناس... وفي جميع الحالات بالتبصر والتمييز، وقيادة صارمة، هادئة، وعادلة، وأن يتمتع بعزة نفس كاملة"^(٤٠).

الكتاب الثاني في هذه الدراسة الموجزة، هو كتاب "ليوطي ومؤسسة الحماية الفرنسية بالمغرب ١٩١٢-١٩٢٥" لمؤلفه "دانيال ريفي" الذي يطرح في البدء إشكالية التماهي بين "ليوطي" كشخصية ذات قيمة مركزية في التاريخ الاستعماري الفرنسي بالمغرب، و"مؤسسة الحماية" كجهاز إداري، سياسي، وعسكري، شكل أداة فرنسا للاختراق والتغلغل والحكم الاستعماري، فأصبح ليوطي في ظل هذا الخطاب الرجل الذي بمقدوره امتلاك المغرب وصناعة تاريخ جديد له، ينبه "دانييل ريفي" إلى الحالة التي بدأت فيها الأنا المندمجة تتحول من أنا (ليوطي) تقود الاستعمار وتوجهه وتندمج فيه، إلى أنا تشعر أنها هي والمغرب شيء واحد"^(٤١).

أو ما سماه "ريفي" سوء الفهم الذي جعل صوت الرصاص يعلو. كيف ذلك؟

يجيبنا "دانييل ريفي" على لسان أحد الضباط الأهلين بالقول: "ينبغي أن نكون دائما على ظهر فرس وأن نعمل في الخارج... لمعرفة المرؤوسين، ينبغي العيش على إيقاعهم والدخول بلطف وليس فجأة في حياتهم"^(٤٧). ليضفي كاتبنا لمسة من الإنسانية والجمالية على "الواقعية الفرنسية" عندما تحدث قائلا: "أن الذين لهم شعور، والمثقفين من الضباط، هم الذين يعرفون أن ينظروا ويستمعوا إلى المغاربة، فالجمالية والإنسانية تشحذان وتربيان موضوعيتهم، فصدمة الإكتشاف عندهم تؤدي إلى التأثر والإعجاب والحماس. فالمغرب الشجاع والمؤمن قد غمرهم بالحماس... إن هؤلاء الناس ليسوا متوحشين، يصبح الملازم رينبي"^(٤٨).

نعتقد أن الخطاب الأهلي لا يستطيع التحرر من معاني صاغتها فرنسا كاحتضان، والاستيعاب، والإنسانية، وتحقيق التقدم والتحضر، بل ليس من سبيل لتجاوز هذه المعاني لكونها تحجب الوجه الآخر للاستعمار الفرنسي. فهذه الخطابات المتنوعة بتنوع الأوضاع المنتجة لها تمزج بين الواقعي والمقدس، بين الديماغوجي والدعائي، بين الموضوعي والرمزي، ولها قاسم مشترك هو الصبر والأمل في الاستقرار، وهو خطاب مستقبلي تعتمد مصلحة الشؤون الأهلية في المغرب لتزيد من حدة تغلغلها في الحياة المجتمعية للمغاربة إلى حد التفاعل العاطفي مع الأهالي وهذا ما يستحضره "ريفي" في مؤلفه بحديثه عن "الصدى الوجودي الذي تركته تجربة مكاتب العرب عند هؤلاء الضباط؟ فيجيب، أن القرب من سكان القبيلة، ومجموعة "الشواش" و"المخازنية" و"الكوم" التي تحوم حولهم بدون توقف، قد منحهم في الحقيقة طوقا مغربية للإحساس والتصرف. وأي إنسان عاش حياة مكاتب العرب يعرف أنه في بعض الأحيان تكون الرغبة قوية في التحول والتغيير التام"^(٤٩).

إذا تجاوزنا ظاهر هذا الخطاب المؤثر والانفعالي لعمل مصلحة الشؤون الأهلية، يتضح لنا بأن مستقبل هذه المصلحة في مغرب الحماية لا يتوقف على أحاسيس ومشاعر قوية في "التغيير والتحول"، بل على تخطيط بعيد المدى، وخطاب مقنع لغويا، مؤثر سلوكيا، ومستوعب زمنيا. أو بمعنى آخر، يستوعب زمن الحضور الفرنسي في المغرب آنيا، ويثبت ركائز الحضور الفرنسي في المستقبل أساسا، عبر الاندماج في الوسط الأهلي. وهذا ما يوضحه "ريفي" دائما بقوله: "في معظم الأحيان، يعتمد ضباطنا وجنودنا فيما بينهم الطرق الحياتية الخاصة بالأهالي، قلة الحركات، السلام بتقبيل الإبهام، التعود على الجلوس القرفصاء ولمدة طويلة، والتحرك بوقار وعزة نفس من له السلطة. كما أننا سمحنا بتقبيل اليد...تعتبر استعارة لباس، كلمات، عادات

بالطبع، لا نريد من وراء هذا القول أن نثير قضية طبيعة العلاقة التي حكمت بين "ليوطي" و"مؤسسة الحماية" والمغرب، فهذا ليس موضوعنا، بل نريد من خلال هذه الزاوية أن نعبء الطريق أما رؤية "دانييل ريفي" لمؤسسات الحماية ومن ضمنها مؤسسة الشؤون الأهلية، التي خصص لها عدة صفحات من كتابه عنوانها "بضباط الغزو"، ويعتبرهم أنهم: "كتيبة صغيرة عدديا (٢٥٠ فرد سنة ١٩٢٠) لكنها تكون حقا العمود الفقري لمغرب ليوطي، ونواته الصلبة والمبدعة. فأعضاؤها يشعرون بقوة بأنهم الموجهون للبداية الشجاعة أكثر من المعمرين"^(٤٢). ويصغ عليهم "ريفي" صفات "التقديس" بقوله: "والواقع إن ظهور الأسطورة التي ترفع ضابط الشؤون الأهلية إلى نصف إله وتعطيه حجم الإنسان الأسمى (Surhomme)، هو لاحق على ولاية ليوطي، وحدث بداية الثلاثينات"^(٤٣).

إنه خطاب المقدس وروافده من السلوكات كنكران الذات والزهد والعطاء^(٤٤)، والتي تتوج مجموعة المفاهيم المتداولة في مؤسسة الحماية ومصلحة الشؤون الأهلية خاصة، وهي اليد الطولى للاستعمار وأهم مقوم لوجوده. وستتحكم في علاقة ضابط الشؤون الأهلية على مستوى الفعل والانفعال مفاهيم مكملة، من قبيل "سمو" الإنسان الفرنسي و"تدني" الإنسان المغربي، لينعكس ذلك مباشرة على مستوى اللغة المستخدمة من طرف ضابط مصلحة الشؤون الأهلية، حيث نجد في كلام "ريفي" ما يعزز طرحنا: "ينبغي أن يفرض الضابط الأهلي نفسه كمثال يتبع ونموذج يحتذى به، يقدم نفسه لمرؤوسيه، كما يقول الكولونيل "بيرو" ليس كغاز وإنما كمستشار، رجل خير، فبعد أن يفرض قوته، يغري القلوب كأخ كبير جاد وحكيم، كوصي متيقظ وصارم، يهتم بحجب أخطاء وصايتة وإظهار محاسنها"^(٤٥).

إن خطاب "المقدس" المستعمل في وصف الضابط الأهلي، مع ما تحمله الكلمة من رؤى متعالية وتصورات استعلائية، يتماها مع ما نسميه خطاب "الواقعية الفرنسية" لدى مصلحة الشؤون الأهلية، والذي وضحه "ريفي" عندما اعتبر أن "رجال السبية ليسوا مشاغبيين ولا قطاع طرق من وجهة نظر ضباط الشؤون الأهلية، بل هم وطنيون يمكن الحديث معهم لتوضيح سوء الفهم الذي جعل الرصاص يتكلم. يقوم هؤلاء بغزو القلوب، بتفضيل التواصل"^(٤٦). كما أن هذا الخطاب يحمل مفارقة جلية للعيان ينصهر فيها الإقرار بوطنية المغاربة في الدفاع عن أرضهم، والنزوع الفرنسي نحو التهدة من أجل الاحتلال والاستغلال. إن هذا التناقض الهادف، هو وليد "الواقعية الفرنسية" التي أنتجت لنا ما نسميه "خطاب الواقعية" الذي يسمي الأشياء بمسمياتها الفعلية. فالوجود الفرنسي في المغرب هو "استعمار"، و"المشاغبين المغاربة" هم "وطنيون". لكن الأساسي في هذه الواقعية، هو الوعي الفرنسي الكامل بضرورة تجاوز هذا العائق

الأهلية ميزتها "كتلة" (Bloc) في المنظومة الاستعمارية، والتي تتضمن قواعد وآليات ومبادئ تشغل في إطارها مؤسسة الحماية، والتي يشكل خطاب مصلحة الشؤون الأهلية مظهرا من مظاهر هذه الكتلة أو لنقل امتدادا لها، ينحصر في تعامل الضابط الأهلي مع الأهالي. بينما السياسة الأهلية هي ذلك الإطار المرجعي العام لكل أجهزة مؤسسة الحماية الفرنسية في المغرب، إنها طريقة تفكير وأسلوب تدبير، إنها نظرية استعمارية تهدف إلى غزو القلوب، إلى الاحتلال السلمي، فأين تكمن أهميتها في الاستراتيجية الفرنسية؟

١/٢ - السياسة الأهلية كمطلب في الاستراتيجية الفرنسية:

إن كل تفكير في السياسة الأهلية يجب أن ينطلق في اعتقادنا من دراسة أولية لبعض الكتابات الفرنسية التي نظرت لهذه السياسة، في محاولة لفهم العلاقة التي توطر "السياسة" كمفهوم و"الأهلي" كإنسان، والتي يجسمها ما يسمى "الفكر الاستراتيجي الفرنسي في مغرب الحماية". إن هذا النوع من التحديد اللفظي أساسي بالنسبة لنا، لكونه يساعد في استيعاب حاجة مؤسسة الحماية إلى أسلوب عمل، إلى نمط في التدبير، إلى آلية للتسيير، إلى "سياسة" محددة في التعامل مع الواقع الأهلي. "إن السياسة هي فن تجريبي، فهي تعتمد على الواقع، والسياسة الأهلية على الخصوص عندما تبتعد عن تقدير الواقع فهي تضل طريقها"^(٥٧). فكان هذا التقابل بين السياسة من جهة، و"الأهلي" من جهة أخرى والذي أنتج لنا مفهوم السياسة الأهلية. لنسائل إذن بعض المراجع الفرنسية عن هذه السياسة؟

ننطلق من كتاب "كاي بيرت" (عشر سنوات من السياسة الاستعمارية) والذي يتحدث عن السياسة الاستعمارية الفرنسية في مختلف مستعمراتها، وما يستوقفنا في هذا الكتاب حديثه عن السياسة الأهلية كخيار استراتيجي فرنسي بقوله: "السياسة الأهلية تعني السياسة التي تعترف باختلاف الأجناس، والمهارات، والطموحات، والحاجات بين السكان الأصليين لمستعمرة وأسيادهم الأوروبيين. وليس في السياسة المعاصرة الفرنسية...مسألة أهم من السياسة الأهلية"^(٥٨). يبرز الكاتب أسباب هذا الخيار بتأكيده على أن "هذه المستعمرات -أو ما يسميها الكاتب الملكيات (Possessions)- مدعوة إلى الجمع في آن واحد بين الأهالي والمستعمرين...مما يفرض على المستعمرين وحكومتهم ضرورة تطبيق سياسة أهلية حسنة...فالأهالي هم شرط نجاحها. بدون أهالي، ليس هناك إنتاج وليس هناك ضرائب هذا بالنسبة للحكومة، بدون أهالي، ليس هناك فلاحه وليس هناك صناعة هذا بالنسبة للمستعمرين المزارعين، بدون أهالي، ليس هناك أعمال هذا بالنسبة للتجار، بدون أهالي ليس لنا إلا أن نفرغ المكان"^(٥٩). وعلى ضوء ذلك يبين الكتاب مرامي السياسة الأهلية الفرنسية بالقول: "إن الفرق الذي نقيمه بين الناس هو فرق ديني أكثر منه عرقي، وقد شكل

جسدية أو غذائية من المغاربة من قبل الضباط، نوع من اللعب التي يتم مراقبة قواعده وتعديلها حسب رغبتهم"^(٥٩).

إن البحث في خطاب مصلحة الشؤون الأهلية، يقتضي التساؤل عن ماهية خطاب هذه المؤسسة. إذا استحضرننا مختلف الخطابات السابقة سواء الخطاب الموضوعي، أو الخطاب الديماغوجي، أو الرمزي، أو الدعائي، أو المقدس، أو الواقعي، فهي بتنوعها تشكل شبكة مبنية على أساس واحد هو "خطاب ليوطي" في مصلحة الشؤون الأهلية؟ ألم يعترف ريفي بتعاطفه وتأثره بقوة شخصية ليوطي؟^(٥١) ومن ناحية أخرى ألم يترك ليوطي بصمته وآثاره في كل مؤسسات الحماية بالمغرب ما بعد الحقبة الليوطية؟^(٥٢).

إننا لا نعيد استهلاك ما قدمته بعض الكتابات حول شخصية "ليوطي"، ودورها في مغرب الحماية وننسج على منوالهم. كما أننا لا نتلاعب بالأفكار عندما نعتقد بأن خطاب مصلحة الشؤون الأهلية هو في نظرنا خطاب "ليوطي" بالفعل، القائم على أن "لا مكان للغة العنف والسلاح بل الحوار والتعايش"^(٥٣). إنه معطى واقعي في عمل مصلحة الشؤون الأهلية لا بد من الاعتراف به، مع تحفظنا عن أساليب الحوار وطرق التعايش المعتمدة من لدن مصلحة الشؤون الأهلية كمؤسسة من مؤسسات الحماية، فالحوار المبني على فرض الشروط، والتعايش المؤسس على استحضار القوة العسكرية، هو مجرد تكرار وإعادة إنتاج لصورة فرنسا المتحضرة لكن بشكل رديء. فضابط الشؤون الأهلية هو وسيلة مؤسسة الحماية عموما، والجيش الفرنسي خصوصا، لمخاطبة الأهالي. فكيف يتزاوج الحوار والسلاح، وكيف تتجاوز القوة والتعايش؟ نقتبس الإجابة من كلام الجنرال "كيوم" الذي يرى:

"بأن سياسة الاجتذاب الممارسة بحماس وبلا كلل من طرف ضباط الشؤون الأهلية، قد اصطدمت في الأطلس المتوسط بتصلب عدائي، ولم تنجح في تفادي الإعداد للعمل العسكري. لم تأت أية قبيلة إلينا بدون إخضاعها مسبقا بالسلاح، وكل مرحلة من التقدم كانت مدفوعة بالمعارك...فالحدود التي نبغها يتم الاحتفاظ بها بنسق من الأعمال والتي تفرض على وحدتنا ولسنوات طويلة مراقبة محفوفة بالمخاطر وبدون انتصار"^(٥٤). سينتقل بنا الحديث إلى ما نعتبره صلب عمل الشؤون الأهلية، التي أوجزها "ريفي" في عبارة جامعة مانعة هي: "ينبغي أن نجلب وبكل الطرق الأهالي إلينا، لا أن نبعدهم بإجراءات عنيفة، هكذا يجب أن تكون تصوراتنا للسياسة الأهلية"^(٥٥).

ثانياً: السياسة الأهلية وأطروحة "الاحتلال السلمي"

يميل التصور السائد عند الحديث عن السياسة الأهلية في الاستراتيجية الفرنسية، إلى دمج هذا المفهوم فيما استعرضناه في المحور السابق في أنواع الخطاب لدى مصلحة الشؤون الأهلية. أو إسقاطه على بعض مفاهيمها مما يفقد السياسة

علينا الاستمرار في حياتنا العادية على الأقل مظهرًا، علينا ألا نغير عاداتنا وعاداتهم، وعلينا الحفاظ على مصالحهم، ومن ثمة، تكون الحظوظ كبيرة في الحفاظ على النظام لدى القبائل الخاضعة لنا...وبتعبيره الخاص، علينا الحفاظ على الإبتسام^(١٤).

تلك هي أهم مفاتيح السياسة الأهلية برؤية "ليوطي" القائمة على ثلاثة عناصر: الحفاظ على العادات، الحفاظ على النظام، الحفاظ على الإبتسام، إنها استراتيجية ثلاثية إن صح التعبير، تؤسس لمرجعية "السياسة الأهلية" في الفكر الفرنسي الاستعماري. وتجدر الإشارة هنا، أن رؤية "ليوطي" للعمل السياسي هو اختيار نابع من قناعاته بالعمل العسكري المسيس، يوضحها الكاتب بقوله: "وقد صاح الجنرال "ليوطي" يوما في أحد ضباط الصف بقوله: هذا هو واجبك العسكري وسط مئات الأهالي، هؤلاء الذين يثقون فيك، والذين ستعمل من أجلهم"^(١٥). هل القيادة السياسية الفرنسية مقتنعة بالعمل السياسي، أم هي شعارات استعمارية براققة ليستهلكها الأهالي؟

إننا لا نجادل في النوايا، بل نبتغي من وراء هذا التساؤل تسليط الضوء على المضمون الفكري الذي يحمله هذا الحديث الفرنسي/الفرنسي، ذلك أنه حديث من قلب المؤسسة العسكرية وإليها، وليس حديثا موجها إلى عموم الرأي العام الفرنسي أو حتى المغربي أو الأهالي. عندما ننظر إلى الموضوع من هذه الزاوية فسند أن الأمر أصبح ضرورة لفرنسا لإدارة الوضع الأهلي. وهذا ما أكدته الكاتب بقوله: "لقد ربح "ليوطي" على الساحة السياسة معركة المغرب، لم يكن "ليوطي" لينتصر لو لم يطبق سياسة يقظة وحذرة، عادلة وذات بعد نظر"^(١٦). إن منطوق الحديث ينم عن انتصار "ليوطي" سياسيا في المغرب عبر استراتيجية عنوانها اليقظة ودواليها "العدالة" وتطلعاتها المستقبل. أما مضمون النص، فيكشف عنه العقيد "بيريو" مساعد "ليوطي" بالقول: "إن إقامة الحماية، واختيار أحسن الموظفين، والمراقبة الدقيقة لتدبيرهم، كل هذا مكن من تخليص المرؤوسين من النظام الاستبدادي والطغيان والعنف. لا يتوقف عملنا عند هذا الحد، بل علينا منح الأهالي وسائل التعبير عن طريق أجهزة رسمية، عن حاجاتهم ورغباتهم، وجعلهم يتعاونون معنا في أشغالنا ويشاركون في تحسن أوضاعهم المادية"^(١٧). إضافة إلى هذا الفهم، يستحضر الكاتب عاملا آخر في منظومة "السياسة الأهلية"، إنه العامل الاقتصادي، ولنا فيما جاء به كتاب "معركة المغرب" نص معبر: "إن العمل الاقتصادي يعوض النقص في عدد الجيوش، وقد صرح "ليوطي": "كل ورش جديد يساوي فرقة"، لقد استحوذت هذه الصيغة على الأفكار وأوقدت القلوب وأحيت الآمال...لم أكن أعتقد أن نسير الناس بكلمات، فليست للكلمات أية قيمة، بدون معانيها حسنة أو قبيحة، خاطئة أو صحيحة، وهذه هي تعبيراتها"^(١٨).

مظهرًا من مظاهر السياسة الاستعمارية التي تهدف إلى تنصير الأهالي ليصبحوا فرنسيين، وبالتالي تضم هذه المستعمرات نوعين من الفرنسيين: الفرنسيون الأصليون، والفرنسيون المحولون...وهكذا أصبح الحديث ليس عن "التحويل" بل عن "الاستيعاب"، والكلمتين قريبتين من بعضهما: بدل أن نخضع الأهالي لنفس الدين، نخضعهم لنفس الحضارة"^(١٩).

يستوقفنا هذا المقتطف من الكتاب، لنسجل نقطة هي من مرتكزات السياسة الاستعمارية الفرنسية عموما والسياسة الأهلية خصوصا، ألا وهي الاندماج ثم الاستيعاب، والمتمثل في إحداث تغيير في الذهنيات، إذ أصبح المطلب ليس هو تحويل الانسان المغربي عن دينه، بل جعله قابلا لتمثل الحضارة الفرنسية فكرا وممارسة. إن إعادة بناء ذهنية مغربية جديدة مندمجة ثقافيا، مستوعبة حضاريا، مستلبة فكريا، هدفها أولاً وأخيراً جعل المغربي يرضخ لممارسات السلطات الاستعمارية الفرنسية على الأرض.

وضمن هذا التصور، ينتقل بنا الكاتب إلى إبراز أهمية السياسة الأهلية كمطلب فرنسي في تدبير المستعمرات، ليس على مستوى القيادة السياسية فقط، بل وفي الجانب العسكري أيضا بقوله: "طبق الجنرال "كالنيي" صاحب "الإلحاق" في بعض المستعمرات الفرنسية سياسة الحماية، ويساعده في عمله العقيد "ليوطي" صاحب دراسة تحليلية جميلة: "الدور الاستعماري للجيش". أطروحة هي بحق جوهر الحماية، فإجراءات الاستعمار مرتبطة بالإجراءات الإدارية، وهما معا ينبغي أن يخدموا مصلحة الأهالي. هذا هو انتصار السياسة الأهلية"^(٢٠). انتصار يخضع حسب رؤية الكاتب إلى شروط محددة سطرها "المؤتمر الاستعماري المنعقد في باريس سنة ١٩٠٠ والخاص بالسوسيولوجيا الاستعمارية التي تعنى بظروف الأهالي والتي أكدت بقوة على ضرورة احترام والإبقاء على العادات والمؤسسات الأهلية، وحصر تدخل الأفكار الأوروبية في الأطراف التي يمكن أن تخدم التجارة والحضارة"^(٢١).

وبالتصور السابق نفسه، يحاول "لويس بارثو" في كتابه "معركة المغرب" أن يبرز أهمية السياسة الأهلية والعمل السياسي عموما في المشروع الاستعماري الفرنسي، فأحد فصول الكتاب المعنون بـ "الحماية التي تحمي العمل السياسي والاقتصادي"، يؤكد فيه مركزية الشق السياسي في العمل الميداني العسكري منذ البدايات الأولى للاستعمار الفرنسي للمغرب. وعليه، نجد الكاتب يتحدث عن "التجربة الكبيرة للجنرال ليوطي" وبعد نظره في تصور معركة المغرب، بأهميتها وصعوباتها، ليضع لها قاطرة هو العمل العسكري. وبناء عليه، ومنذ الوهلة الأولى أكد على أهمية دور القوة المعنوية والإجراءات السياسية التي لا تقل عن الدور العسكري"^(٢٢). ونقرأ في إحدى صفحات الكتاب أيضا، أنه "وأثناء الحرب ارتأى ليوطي أنه يجب

تنازلات لخدمة المصلحة العامة مع الأخذ بعين الاعتبار المصالح الخاصة^(٧٣).

تلك هي أهم الخطوط العريضة التي حددها الكاتب لمفهوم السياسة الأهلية، فهي "نهج" بما تحمله الكلمة من معاني الخطة والخطوات والتدبير والدواليب، وتهدف إلى التوفيق بين مصالح متضاربة، وهنا الحديث عن مصالح المستعمر من جهة، ومصالح "صاحب الأرض" من جهة أخرى. وتفرض تقديم تنازلات تحت عناوين خدمة المصلحة العامة وبمضامين المحافظة على المصالح الخاصة. يحيلنا هذا التقييم إلى صيغتين للسياسة الأهلية بتعبير "ميشو بلير": "فقد نكون مدفوعين لتصور نوعين من السياسة الأهلية والتي لكل واحدة مناصروها، الأولى سياسة المخزن والثانية سياسة القبائل"^(٧٤). وبضيف، "نستطيع القول إذن، أن السياسة الأهلية تخلق شيئا فشيئا حسب الحاجات الضرورية، فقد أصبحت وسيلة مرنة تنطبق تماما على البلاد التي تستعمل فيها، ويكون فيها التواصل دائما مباشرة مع السكان حيث تتم تلبية حاجاتهم، وتغيير أو تعديل الميول، والتكهن بالتصرفات"^(٧٥).

إن محاولتنا تفكيك ما أورده "ميشو بلير" حول السياسة الأهلية مكنتنا من إرساء قواعد عمل هذه السياسة والتي نحددها فيما يلي:

- أن السياسة الأهلية سياسة متجددة وليست جامدة، تتماشى ومستجدات الوضع الميداني، فهي مرنة وذات قوة اقتراحية في التدبير والتسيير تبعا للوسط التي تستعمل فيه.
- أن السياسة الأهلية تتبنى صيغة ثلاثية الأبعاد: التواصل مع السكان، تغيير أو تعديل ميولهم، التنبؤ واستباق تصرفاتهم^(٧٥).
- أن السياسة الأهلية تتوجه بخطابها إلى "المخزن" و"القبائل" كل على حدة، فسياسة المخزن هي سياسة الرؤساء الأهليين خصوصا، وسياسة القبائل هي التدبير اليومي لحياة الأهالي، وهي رهان فرنسا في تركيز الحماية بالمغرب.

إن هذا المنحى في التحليل يقودنا بالضرورة إلى القول، أن لا أحد يستطيع أن يتجاهل أن السياسة الأهلية شكلت رقما صعبا في معادلة الاستعمار الفرنسي، فإذا كانت المؤسسة العسكرية تحيل على القوة والإخضاع والاحتلال، فإن السياسة الأهلية تحيل على الاستيعاب والاحتضان والتدجين، وهذا ما عبر عنه "ميشو بلير" بالقول: "إن تدخلنا في شؤون الأهالي يتسبب لديهم في الشك وهو شيء طبيعي، إذن ينبغي تدجينهم، وشيئا فشيئا الإيحاء لهم بالثقة، مما يتطلب التواصل المباشر والدائم، والصبر ثم الحزم. إنه غزو معنوي يجب إنجازه"^(٧٦).

قبل أن نطوي صفحة "معركة المغرب"، لا بد من قراءة سريعة لهذا النص في علاقته مع السياسة الأهلية كمطلب في الاستراتيجية الفرنسية، لقد أرست الحماية "سياسة الأوراش" وهي عبارة عن مشاريع خدماتية تستقطب الأهالي الذين ينشغلون فيها لمصلحتهم العامة، مقابل أجور زهيدة تعفي فرنسا من استخدام فرق عسكرية بكاملها. استطاعت فرنسا إذا وبذكاء الاستحواذ على القلوب والعقول لتأمين غزوها بأقل الخسائر الممكنة، فتضمن الهدوء المنشود والسيطرة المقصودة. إن السياسة الأهلية قائمة على أسلوب عملي تنصهر فيه الممارسة المحكمة الهادفة لدى الضباط الأهليين، ورافعتها القوة الكلمة بشحنتها العاطفية الماثرة.

على ضوء ما سبق، تأتي محاضرة "ميشو بلير" رئيس قسم السوسيولوجيا بمصلحة الشؤون الأهلية أمام ضباط الأقسام التحضيرية الخاصة بنفس المصلحة، والتي تعبر في نظرنا أولا، عن حاجة فرنسا الملحة للسياسة الأهلية، وثانيا، عن وعي لدى الباحث الفرنسي بعمق السياسة الأهلية وفعاليتها في النفاذ إلى المجتمع القبلي المغربي. يستهل كاتبنا محاضرته بالإشارة إلى أن السياسة الأهلية كموضوع شكلت ومنذ سنوات، الهدف النهائي لجميع أبحاثه المغربية^(٧٦)، ويوضح لنا "ميشو بلير" قيمة السياسة الأهلية في المنظور الفرنسي بقوله: "عند دراستنا للسياسة الأهلية، لا نكون بصدد عرض نظريات مثالية عن الدور الحضاري لفرنسا، بل نحاول إيجاد الوسيلة العملية لتحقيق الهدف مع الأخذ بعين الاعتبار كل الاحتمالات"^(٧٧). وهذا يعني أن المطلوب حسب الكاتب هو إعادة صياغة أسلوب التفكير في السياسة الأهلية، ليس باعتبارها تظهر الوجه الحضاري لفرنسا فقط، بل انطلاقا من مقدمات تسخر كل الوسائل لنجاح هذه السياسة، وتضع الأهداف المتوخاة منها، وتستحضر الاحتمالات المؤثرة فيها.

لقد ساعدت منهجية التفكير هذه، رئيس قسم السوسيولوجيا بمصلحة الشؤون الأهلية في تكوين صورة واضحة المعالم عن تأثير السياسة الأهلية عندما تحدث عن أنها، "كانت تعني قبل مدة غير بعيدة إدارة الأهالي وليس شيئا آخر، إذ كانت مسألة محلية، حيث تنعكس سلبا وإيجابا في دائرة ضيقة. أما اليوم، بفعل انتشار الأفكار ووسائل الاتصال...أضحت وسيلة سياسية حقيقية لا تنعكس أخطاؤها أو حسناتها محليا ولكن على المدى البعيد"^(٧٨). بهذا الشكل يرى "ميشو بلير" تأثير السياسة الأهلية في السكان، وهذا الفهم سمح له بتقديم مفهوم نعتبره دقيقا إلى حد بعيد للسياسة الأهلية حيث يقول: "يمكن أن أعطي تعريفا صحيحا ومقتضيا للسياسة الأهلية اليوم. نظرا للتعقيدات الحالية، فإن السياسة الأهلية هي نهج يوفق بين المصالح المختلفة والمتناقضة، وينتزع أحيانا وحسب الظروف

مختلف؟ ينبغي أن نوفر لهؤلاء وأولئك الأمن والعدل ووسائل الغنى، وحصول الأوروبيين أو "الأهالي" على هذه الأشياء هو إدارة. فلماذا إذن تجميلها بهذا العنوان سياسة أهلية؟ ولماذا التأكيد على مشكلين متطابقين مظهرًا؟ أما في العمق فهناك قضيتين يجب حلها. وبدون شك يبدو أن لحكم وإدارة الأهالي نعت فعل الحكم والإدارة بالسياسة الأهلية. فبناء سكة حديدية هي سياسة أهلية، وكذلك حفر قناة، وبنفس المستوى التصويت على قانون أو إحداث محكمة. وفي جميع الأحوال، لا يهمننا التمييز بين الإدارة بمعناها الحصري والسياسة الأهلية.

تجتهد السياسة الأهلية لإقناع السكان بأنها تهتم بهم قبل كل شيء، والإدارة هي مجبرة على أخذ الأهالي في حسابها وكذلك المستوطنين. تهتم الإدارة بالمصالح المادية، أما السياسة فتهم بالمصالح المعنوية. وقد يحدث أن تمتزج مصالح الأهالي المادية مع مصالح المستوطنين وبالتالي يستفيد الجميع من نفس الإجراءات. أما المصالح المعنوية فلن تكون كذلك أبدًا. ولإرضائهم يجب اعتماد إجراءات مغايرة، وخاصة لكي يعتبر الأهالي أن الغزاة يهتمون بهم... احترام المصالح المعنوية فهي سياسة أهلية، بل أكثر من ذلك، هي جرحهم للإحساس بمزايا السيطرة الأجنبية وبالتالي قبولها عوض الخضوع لها... مما يتطلب الرغبة والقدرة على دراسة الأهالي وفهمهم، والولوج إلى مؤسساتهم وشعورهم ودوافعهم وآمالهم، ثم الإرادة والقوة على التجرد من الأفكار الأوروبية المسبقة... وفي جميع الأحوال لن نجعل من الاستثناء قاعدة، بل انتهاز الفرص السانحة لإعداد التحولات الضرورية والممكنة. إنه المبدأ الذي تنطلق منه السياسة الأهلية، فالسكان متمسكون بعاداتهم ومؤسساتهم قبيحة كانت أم جيدة، ويمقتون ما عندنا، في الوقت الذي نحاول فرضه عليهم أو احترامه أو على الأقل استعمله... وحمله إلينا ليس بفتح أعينه بالقوة وإنما بإقناعه على فتحها، والعمل على تطويره شيئًا فشيئًا... هذه هي السياسة الأهلية^(٨٠).

ندرج هذا النص محاولين قدر المستطاع أن نساهم في التفكير إلى جانب الكثير من الباحثين المغاربة الذين تحدثوا عن السياسة الأهلية، فنقول، أن السياسة الأهلية هي "فكرة" طرحت العديد من التساؤلات لدى العقل الاستعماري الفرنسي، خصوصًا على مستوى التمييز بين "السياسة الأهلية" و"الإدارة" مع أن المصطلحين ظاهريًا وحسب الكاتب نفسه يهدفان إلى نتيجة واحدة، هي "توفير الأمن والعدل ووسائل الغنى" للأهالي والمستوطنين على السواء، فالإدارة تهتم بالمصالح المادية، بينما "السياسة الأهلية" تهتم بالمصالح المعنوية. كيف ذلك؟ يبرز الكاتب أن المصالح المادية للأهالي بما هي مجموع البنيات التحتية والمستشفيات والمدارس... تمتزج مع مصالح المستوطنين المستقرين بالمغرب، وبالتالي يستفيد الجميع من نفس الإجراءات، وهذا ما يسميه صاحب النص "بالإدارة"

وبعد، واضح أن السياسة الأهلية أصبحت مطلبًا رسميًا لدى مؤسسة الحماية، وفي استراتيجيتها الاستعمارية في المغرب، ولعل ما أوردناه على لسان "ميشو بلير" رئيس قسم السوسيولوجيا بمصلحة الشؤون الأهلية خير معزز لهذه الحقيقة، حقيقة يتناغم العقيد "هيوت" في تأكيدها بحديثه عن السياسة الأهلية قائلاً: "إن السياسة الأهلية هي فن يقوم على حكم (Jugement) ومهارة تهدف إلى التمييز أولاً، ثم الاستعمال ثانياً، لجميع الوسائل المسهلة لتحقيق الأهداف التي وضعتها الحكومة في الأوساط الأهلية"^(٧٧). إذا كان المضمون الذي يحتويه هذا التصريح يتطابق مع ما أوردته "ميشو بلير" حول السياسة الأهلية إلا أن العقيد "هيوت" يزيد عن خطاب "ميشو بلير" باستخدامه كلمة "فن"، لأن مثل هذا الاستخدام يحمل معنى الإبداع والمهارة والاحترافية، لكون السياسة الأهلية بتصور "العقيد" هي ذلك الوعاء الذي يملؤه إبداع الفرنسي ومهارته في ترجمتها في أوساط الأهالي، وهذا ما عبر عنه الكاتب بالقول: "يوحي لنا هذا التصور بأننا سنواجه ليس عرقاً دونياً بل مختلفاً له، بتنظيم وعادات وطبائع توافق حضارتهم التي يرتبطون بها بعمق. حقيقة نعتزف بها اليوم، وهي أننا لن نستطيع الاستقرار مادياً ومعنوياً في بلد جديد دون أن نتوافق مع الأهالي، مما يبعد نظرية الغزو العنيف"^(٧٨).

لاشك أن هذا النوع من الخلاصات المتعددة، وإن تقاربت فيما بينها على مستوى الطرح، إلا أنها تفتح الباب أمام إعادة بناء مفهوم السياسة الأهلية. هل السياسة الأهلية استيعاب، أم أطروحة عسكرية (نظرية ليوطي)، أم وسيلة للاستغلال حسب "كاي بيرت"، هل هي الحفاظ على "الابتسامة"، أم هي سياسة "كلمات"، أو سياسة "مال" حسب "لويس بارثو"، هل هي نهج يقوم على التوفيق بين المصالح المتناقضة، أم هي سياسة تدجين، أم هي غزو معنوي حسب "ميشو بلير"، هل هي "فن" ومهارة حسب العقيد "هيوت"؟

٢/٢- السياسة الأهلية والاحتلال السلمي:

القول أن السياسة الأهلية هي سياسة واحدة قول خاطئ في اعتقادنا، إنما هي وعاء مليء بالمفاهيم، وهذا ما أشرنا إليه في معرض حديثنا في بداية هذه الدراسة عندما قلنا أن السياسة الأهلية "كتلة" في المنظومة الاستعمارية الفرنسية. ومن أجل فهم معقول لهذه "الكتلة" نورد في هذا الإطار مقتطفًا من مقال "السياسة الأهلية" للضابط الفرنسي "هيوت" يعرض فيه رؤية "كاي" المتخصص في القضايا الاستعمارية في صفحة ممتازة عن ماهية السياسة الأهلية^(٧٩). ربما يساعدنا ذلك في إمطة اللثام عن هذا المفهوم وبالتالي تبيان أهميته وضرورته في الاستراتيجية الفرنسية: "إن الإلحاح الذي نسترجع به هذين الكلمتين "سياسة أهلية" قد يدهش ويزعج. ماذا نفهم من هذا؟ وما هو الملفت للنظر وما هو الجديد؟ حكم الأهالي أو الأوروبيين، وهل هذا

وبعناية كل تدهور أو عمل في غير محله، قد يجبر القيادة على عمليات مضادة لنواياها ومخططاتها...لتغيير وسط فوضوي وجعله منظم ومتحضر...يجب على ضابط المخابرات أن يتوفر على خصال مهمة للغاية. إن الخصائص الجوهرية للسياسة الأهلية كما يقول "ليوطي" هما: السخاء والتعاطف. فعلى ضابط المخابرات قبل كل شيء أن يكسب ثقة وقلب الأهالي وأن يحبهم دون أن يسقط في عيوب الحب المفرط لهم"^(٨٢).

خاتمة

من الحقائق التي لا يمكن تغييرها عند الحديث عن الاستراتيجية الفرنسية في التدبير، هي دور مصلحة الشؤون الأهلية وضباطها في إدارة حياة الأهالي. دور استمدته القيادة الفرنسية من تجاربها السابقة في تسيير مستعمراتها، وهذا ما طرح بالنسبة لنا سؤال البدايات، فكانت الإجابة تحديدات أولية قادتنا إلى تجربة الجزائر مع "البيروتات العربية" قبل الحديث عن تجربة المغرب مع مصلحة الاستعلامات، ثم مصلحة الشؤون الأهلية أخيراً، التي فيها بحثنا عن خطاب ضباطها أو ما سميناه الخطاب الأهلي فوقفنا عند مفردات الموضوعية والديمقراطية والرمزية، والواقعية، والدعائية، بل والمقدس أحياناً. ولأن التدبير يحتاج إلى فكر ومصدر إلهام، فقد شكلت السياسة الأهلية عنصر ارتكاز استراتيجية التدبير الفرنسية، وفي هذا الصدد ثمة إجماع بين الكتاب الفرنسيين على اعتبار هذه السياسة الإطار المرجعي المتميز لعمل مؤسسة الحماية في المغرب، كطريقة تفكير أولاً، وأسلوب تدبير ثانياً، ونظرية احتلال سلمي ثالثاً، وكلها تحت عناوين الاحتضان والاستيعاب رابعاً.

ونسماه نحن "بالتدبير"، أو بصيغة أخرى مصالح مادية تتطلب قوانين وتشريعات وضوابط و"إدارة". أما المصالح المعنوية بما هي شعور ومواقف وميولات فهي "السياسة الأهلية"، التي يقول بصدها الكاتب "أن المصالح المعنوية للأهالي لا تتلاقى مع المصالح المعنوية للمستعمر"، وأن تحقيق هذا "التوافق النسبي" لا يمكن أن يتم إلا باعتماد "إجراءات مغايرة وخاصة لكي يعتبر الأهالي أن الغزاة يهتمون بهم، إن السياسة الأهلية هي جرهم للإحساس بمزايا السيطرة الأجنبية". وإذا أضفنا إلى ذلك أن الوصول إلى تحسيس الأهالي "بمزايا" الحضور الفرنسي يتطلب "التسرب" إلى شعوره وآماله ودوافعه، إلى الجانب العاطفي فيه، أمكن القول أن السياسة الأهلية هي سياسة "ترويج الوهم"، وذلك بخلقها لدى المتلقي/الأهالي فراغاً أولاً، وإحساساً بالإشباع ثانياً من "الإنجازات" التي يقدمها المستعمر على أنها لخدمته وتطويره، لكنها في حقيقة الأمر تعبر عن فكر استعماري يمزج بين "الإدارة والسياسة الأهلية"، بين المادي والمعنوي، بين حمل الأهالي "ليس على فتح أعينه بالقوة بل إقناعه على فتحها"، والفرق شاسع بين الوضعين.

إن ما ذكرناه لحد الآن، قد لا يكون كافياً ليجيب عن سؤال السياسة الأهلية كمطلب في الاستراتيجية الفرنسية بالمغرب، لكنه في المقابل حدد لنا العلاقة بين هذه السياسة وهذه الاستراتيجية، وهي أن السياسة الأهلية رؤية استدعتها مصالح الاستعمار الفرنسي للنفوذ إلى الوسط المغربي، بمفاهيم الاستيعاب، والاحتضان، والتدجين، والتحويل. وأن الاستراتيجية الفرنسية المبنية على الغزو والهيمنة والضبط ثم الاستغلال، تبنت السياسة الأهلية لتحقيق هذه الأهداف بأقل الخسائر الممكنة.

إذن فالسياسة الأهلية كنظرية استعمارية في مجملها هي محاولة تقعيد "أمر واقع"، فلا وجود في اعتقادنا البسيط، لفرق بين السياسة الأهلية من ناحية، والمنظور الاستراتيجي الفرنسي في المغرب من ناحية أخرى، فكلاهما وجهان لعملة واحدة هي "الاستعمار". إنها تصريف لأفكار منظري مؤسسة الحماية في الميدان، وهذا ما يشير إليه العقيد "هيوت" بقوله: "والواقع أن السياسة الأهلية، ينبغي عليها أن تأخذ بعين الاعتبار عوارض وحوادث الوسط وأن تسوي نفسها عليها...وكما يقول المثل: "اعمل سياسة قدراتك" هو مثال صحيح عندما تتصور أنه في استطاعة سياستنا القيام بأداء أفضل على الجبهة، وتوفر على وسائل دعم وعودنا وعند الضرورة استعجال الحل"^(٨١).

واضح أن الأخذ بهذه الوضعية، وضعية انخراط السياسة الأهلية في الاستراتيجية الفرنسية في التدبير لن تستقيم إلا بانضباط واتزان الضابط المنوط به تصريف الفعل الفرنسي في "الجبهة"، في أوساط الأهالي، وهذا ما يوضحه مجدداً العقيد "هيوت" بقوله: "إننا نطلب وفي جميع الحالات، من ضابط المخابرات، أن يتفادى

(22) Ibid, P. 21.

(٢٣) يقول "روبير مونطاني": "في هذه الغزوة التي تدار بذكاء، وهي سياسة أكثر منها عسكرية، تتميز هيئة ضباط الشؤون الأهلية في المغرب، التي تأسست في البداية من ضباط ذوي تجربة في تخوم الصحراء الجزائرية...".

Montagne Robert, « **Révolution au Maroc** », Edition France Empire, P. 56-57.

(٢٤) يتحدث "روبير مونطاني" عن مصلحة الشؤون الأهلية قائلا: "بفضل عمل مصلحة الشؤون الأهلية لم يعد المحتل المسيحي عدوا نكرهه، فوجوده يسود النظام وتحل الرفاهية، فهي الحكم في جميع النزاعات الداخلية وهي رئيس ذو قيمة في جميع الحروب ضد الجيران، فضباطها...المؤسسين الحقيقيين للمغرب المعاصر".

Montagne Robert, « **Révolution au Maroc...** », op.cit., P. 56-57.

(25) Tarrit Commandant, « **Conférence faite aux officiers du cours préparatoire...** », op.cit., P. 24-25.

(26) Célérier (J), « **Histoire du Maroc, Sommaire des Leçon Professées au cours des Affaires Indigènes** », Résidence Générale de France au Maroc, Direction des Affaires Indigènes et du Service des Renseignements, 1921, P.35.

(27) Meraud Marc, « **Service des Affaires Indigènes du Maroc** », La Koumia, Public-Réalisations, P. 101.

(28) Ibid, P. 191.

(29) Ibid, P. 192.

(30) Ibid.

(31) Meraud Marc, « **Service des Affaires Indigènes du Maroc** », op.cit., P. 193.

(32) Ibid.

(33) Ibid.

(34) Ibid.

(35) Meraud Marc, « **Service des Affaires Indigènes du Maroc** », op.cit., P. 193

(36) Ibid, P. 194.

(٣٧) كان الضباط المترجمون يريدون، قبل كل شيء وضع رهن إشارة ضباط الشؤون الأهلية كتباً موجزة للنحو ومعاجم بلغتين تمكن تحصيلاً سريعاً لمبادئ لغة الجماعة المراد "تهديتها" أو "السيطرة عليها".

Boukous Ahmed, « **La Dialectologie berbère durant la période coloniale au Maroc, Langue et Société au Maghreb** », Bilan et Perspectives, Publications de Faculté des Lettre et des Science 1980, P. Humaines-Rabat, Série : Colloques et Séminaires N° 13, 120.

(38) Meraud Marc, « **Service des Affaires Indigènes du Maroc** », op.cit., P. 194.

(39) Meraud Marc, « **Service des Affaires Indigènes du Maroc** », op.cit., P. 382.

(40) Huot Lieutenant-colonel, « **La Politique Indigène** », La Renaissance du Maroc, Dix Ans de Protectorat 1912-

(١) يقدم Victor Foucher نبذة عن تاريخ هذه المؤسسة قائلا: "في سنة ١٨٣٧ صدر قرار ٢٢ أبريل الذي أنشأ بموجبه مديرية المكاتب العربية، ومبررات هذا القرار هي تسهيل ودراسة علاقاتنا بالقبائل، وجلبهم إلى سيطرتنا باحترام عاداتهم وحماية مصالحهم وإقامة العدل بينهم والحفاظ على النظام والسلام".

Victor Foucher, « **Les Bureaux Arabes en Algérie** », Librairie Internationale, Paris, 1858, P.7

(2) Romagny (J), « **Le rôle de la France au Maroc** », Oran, 1908, P. 12.

(3) Ibid, P. 18.

(4) Ibid.

(5) Ibid.

(6) Ibid, P. 19.

(٧) بوطالب إبراهيم، "أدوار ضباط الاستعلامات أثناء الحماية في المغرب"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، العدد ١٨، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص.١٤٢

(8) Tarrit (Commandant), « **Conférence faite aux officiers du cours préparatoire aux Affaires indigènes** », Direction Générale des Affaires Indigènes, Le 24 Janvier 1928, P. 4.

(9) Ibid, P. 4.

(10) Ibid, P. 5.

"قرار المقيم العام بتاريخ ١٩٣٦/٦/٢٠ رقم ١٢٣٥ بإحداث مديرية الشؤون السياسية التي تجمع مصلحة الشؤون الأهلية والاستخبارات ومصلحة المراقبة المدنية، ومصلحة الإدارة القروية، ومصلحة الأمن"

Goulven (J), « **Sur la Voie du Redressement Marocain** », Bulletin du Comité de l'Afrique Française, N° 3, 1936, P. 452.

بتاريخ ١٩٣٨/١٢/٣١ أصدر الجنرال "نوكيس" قراراً جاء في فصله الثالث: "تنتهي مصلحة الشؤون الأهلية من أن تكون قسماً من الإدارة المركزية ومديرية الشؤون السياسية وتصبح جهازاً مستقلاً"

Goulven (J), « **Colonie Française. Pays de Protectorat et pays de Mondât** », Bulletin du Comité de l'Afrique Française, N° 3, 1939, P. 51.

(11) Tarrit Commandant, « **Conférence faite aux officiers du cours préparatoire...** », op.cit., P. 7.

(12) Ibid, P. 8.

(13) Ibid.

(14) Ibid, P. 9.

(15) Tarrit Commandant, « **Conférence faite aux officiers du cours préparatoire...** », op.cit., P. 10.

(16) Ibid, P. 11-12.

(17) Ibid, P. 14-15-16.

(18) Ibid, P. 17-18.

(19) Tarrit Commandant, « **Conférence faite aux officiers du cours préparatoire...** », op.cit., P. 18-19.

(20) Ibid, P. 19.

(21) Ibid, p. 20.

- (69) Bellaire Michaux, « **Conférences Faites au Cours Préparatoire Du Service Des A.I.** », Archives Marocaines, Volume XXVII, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris, 1927, P. 16.
- (70) Ibid, P.16.
- (71) Ibid, P. 242-243.
- (72) Ibid, P. 251.
- (73) Ibid, P. 252.
- (74) Ibid.
- (75) العمل على تحقيق هذه الأبعاد الثلاث يتطلب حسب "ميشو بلير" معرفة دقيقة بالسكان حيث يقول: "ولهذا فعلى السياسة الأهلية أن تتوفر على المعلومات حول تنظيم القبائل، سياسيا واقتصاديا وأن تعرف حقوق وواجبات المنتمين للقبيلة" نفسه، ص. ٢٦٢.
- (76) Bellaire Michaux, « **Conférences Faites au Cours Préparatoire...** », op.cit., P. 262.
- (77) Huot Lieutenant-colonel, « **La Politique Indigène** », La Renaissance du Maroc, op.cit., P. 175.
- (78) Ibid.
- (79) Huot Lieutenant-colonel, « **La Politique Indigène** », La Renaissance du Maroc, op.cit., P. 175.
- (80) Huot Lieutenant-colonel, « **La Politique Indigène** », La Renaissance du Maroc, op.cit., P. 176-177.
- (81) Huot Lieutenant-colonel, « **La Politique Indigène** », La Renaissance du Maroc, op.cit., P. 178.
- (82) Ibid, P. 182.
- 1922, Résidence Générale de la République Française au Maroc, Imprimerie Marc Texier, Paris, P. 182.
- (٤١) بوزويطة سمير، "مقاربة كتاب ليوطي ومؤسسات الحماية الفرنسية بالمغرب (١٩١٢-١٩٢٥)"، مجلة المناهل، السنة ٣٠، العدد ٨٧، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، يناير ٢٠١٠، ص. ١٢.
- (42) Rivet Daniel, « **Lyautey et L'institution du Protectorat français au Maroc 1912-1925** », Tome II, L'Harmattan, 1988, P. 35.
- (43) Ibid, P. 46.
- (44) Ibid.
- (45) Ibid, P. 48.
- (46) Ibid, P. 50.
- (47) Rivet Daniel, « **Lyautey et L'institution du Protectorat...** », op.cit., P. 51.
- (48) Ibid, P. 52-53.
- (49) Ibid, P. 53.
- (50) Ibid, P. 53-54.
- (٥١) بوزويطة سمير، "مقاربة كتاب ليوطي ومؤسسات الحماية الفرنسية بالمغرب ١٩١٢-١٩٢٥"، مرجع سابق، ص. ٤٥.
- (٥٢) نفسه.
- (٥٣) نفسه.
- (54) Guillaume Générale, « **les berbères Marocains et la pacification de L'Atlas Centrale (1912-1933)** », René Julliard, Paris, 1946, P. 9.
- (55) Rivet Daniel, « **Lyautey et L'institution du Protectorat...** », op.cit., P. 74.
- (٥٦) بوزويطة سمير، "الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب دراسة في الإستراتيجية العسكرية ١٩١٢-١٩٣٤"، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير مطبعة كنابرانت، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص. ٢٥.
- (57) « **Prolégomènes à Toute Politique Indigène Raisonnée** », Bulletin du Comité de L'Afrique Française, N° 11, 1937, P. 504.
- (58) Chailley-bert (J), « **Dix Années de Politique Coloniale** », Librairie Armand Colin, Paris, P. 45.
- (59) Ibid, P. 46-47.
- (60) Ibid, P. 48-49.
- (61) Chailley-bert (J), « **Dix Années de Politique Coloniale** », op.cit., P. 55-56.
- (62) Ibid, P. 56.
- (63) Barthou Louis, « **La Bataille du Maroc** », Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris, 1919, P. 65.
- (64) Ibid, P. 68.
- (65) Barthou Louis, « **La Bataille du Maroc** », op.cit., P. 69.
- (66) Ibid.
- (67) Ibid, P. 87.
- (68) Ibid, P. 106.

التعليم الاستعماري في تونس خلال الحماية الفرنسية (١٨٨١ - ١٩٥٦)

أحمد سوام

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
سلا - المملكة المغربية



ملخص

عانت دول المغرب عمومًا من الاستعمار منذ نهاية القرن التاسع عشر، والذي خلف انعكاسات سياسية واقتصادية واجتماعية على شعوبها. وقد عانت تونس كذلك من هذه السياسة الاستعمارية، فقد فرضت عليها الحماية الفرنسية منذ سنة ١٨٨١ بمقتضى معاهدي باردو والمرسى واستمرت إلى استقلالها سنة ١٩٥٦. وخلال هاته الفترة الزمنية عانى الإنسان التونسي من الاستغلال الاستعماري، هذا الاستغلال الذي تناولت مظاهره الدراسات التاريخية التونسية وكذلك العربية والأجنبية. إلا أن ما يلاحظ، هو تركيزها على مظاهر الاستغلال في المجال الاقتصادي والسياسي مع قصور في تناول المجال الاجتماعي، خصوصًا ما يتعلق بالتعليم والذي يبرز بوضوح الوجه القبيح للسياسة الاستعمارية الفرنسية، وينفي عنها المبررات التي رفعها منظروها بكون هدفهم نقل الحضارة الغربية إلى شعوب المستعمرات المتخلفين. نحاول في هذه الدراسة، تناول فترة الحماية الفرنسية لتونس انطلاقًا من التعليم كمدخل، باتباع المنهج التاريخي والاستعانة بمجموعة من الإحصاءات والأرقام التي وفرتها لنا المَظان والمراجع التونسية المتعددة، وكذا الدراسات العربية التي تناولت بشكل كلي أو جزئي الموضوع. وخلصت الدراسة إلى أن التعليم في تونس خلال الحماية الفرنسية شكل أداة من أدوات الهيمنة والسيطرة ومكملًا للأشكال الأخرى من التدخل سواء في الاقتصاد أو الإدارة أو السياسة، كما أن السياسة التعليمية خلال هذه الفترة لم يكن هدفها تكوين جيل تونسي متعلم بقدر ما كان هدفها تكوين نخبة تونسية وسيطة تخدم مصالحها الآتية والمستقبلية، لذلك اتسمت سياستها بمحدودية العرض التعليمي سواء في المجال أو في عدد المتدربين، وكذلك بتنوعه ما بين تعليم مقدم للفرنسيين والأوربيين وآخر مقدم لعموم الأهالي، لتوسم هذه السياسة بكونها سياسة تعليمية استعمارية تجهيلية.

كلمات مفتاحية:

الاستعمار الفرنسي، التعليم الابتدائي، المدارس الفرنسية، السياسة التعليمية، تاريخ التعليم التونسي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ ديسمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ مارس ٢٠١٦

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد سوام، "التعليم الاستعماري في تونس خلال الحماية الفرنسية (١٨٨١ - ١٩٥٦)"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٥٧ - ٦٣.

مقدمة

تونس خلال فترة الحماية الفرنسية، أهميته في كشف الستار عن جانب هام من السياسة الاستعمارية، التي كانت تدعي ظاهريًا، أنها أتت لنشر رسالتها الحضارية في البلدان المستعمرة، من خلال تعميم التعليم الفرنسي بها، وتمكين الأهالي من استيعاب مبادئ الحضارة المدنية الغربية للوصول إلى دمج الأهالي كلية في المجتمع الغربي بواسطة المدرسة الفرنسية. لكن من الناحية

اعتاد الباحثون على تناول الحقبة الاستعمارية الفرنسية في المغرب، من خلال المظاهر العسكرية والسياسية والاقتصادية التي خلفها الاستعمار، متناسيين أو مهملين جانبًا مهمًا من الموضوعات الاجتماعية والثقافية، التي بدونها يصعب فهم هذا الاستعمار على حقيقته. ومن ثمَّ يكتسي موضوع التعليم في

سلطات الحماية الفرنسية، بتونس بمحدودية تعميمه على الأهالي. وحتى نستطيع ملامسة ذلك، سنحاول التعرف على أعداد الملتحقين من الأهالي في المدارس من خلال الوقوف على التحولات التي عرفها عدد الوافدين عليها، من خلال اعتماد فترتين هما: الأولى، ما بين (١٨٨١ - ١٩٢٠)، والثانية، ما بين (١٩٢٠ - ١٩٥٦).

المرحلة الأولى: (١٨٨١ - ١٩٢٠)

عاشت سلطات الوصاية الفرنسية في تونس خلال السنوات الأولى لسيطرتها على البلاد في حالة هدوء دون مقاومة من طرف الأهالي، إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، ودامت هذه الوضعية مدة ربع قرن. ما انعكس على أعداد المتدربين التونسيين في المدارس الفرنسية، والتي اتسمت بالمحدودية، إذ حاولت التركيز على التعليم بمرحلتيه الابتدائية والثانوية، باعتباره أداة مكملة للتدخل العسكري، وأداة فعالة للتغلغل الثقافي، ووسيلة مهمة لدعم نفوذها داخل البلاد ومراقبتها، مستفيدة من تجربتها في الجزائر، وقد كان الإقبال من طرف التونسيين على التعليم الجديد، يتسم بالتطور من سنة لأخرى وذلك ما يوضحه الجدول التالي:

أعداد التلاميذ في التعليم الابتدائي
حسب أصولهم وانتماءاتهم^(١)

السنة	الأصل	مسلمين	يهود	أوروبيون	المجموع العام
١٨٨٥	٧٣٨	١٨٧٩	٢٠٣٧	٤٦٥٤	
١٨٨٧	١٠٤٤	٢٦٠٨	٣٥٧٥	٧٢٣٧	
١٨٨٩	١٧٦٥	٣٠٧٤	٣٩٢٣	٨٧٠٢	
١٨٩١	٢٤٧١	٤٧٢٣	٤٧٨٧	١٠٩٩١	

يمكن الوقوف على مجموعة من الملاحظات أهمها:

- ارتفاع ملحوظ لأعداد الأطفال التونسيين الوافدين على المدارس الفرنسية من سنة لأخرى. إذ انتقل عددهم من (٧٣٨) طفل سنة ١٨٨٥ إلى (٢٤٧١) طفل سنة ١٨٩١، كما انتقلت نسبتهم من مجموع التلاميذ الوافدين من 15.85% إلى 22.48% بزيادة تقدر بـ 6.3%. لكن إذا قارنا أعداد التونسيين الوافدين على هاته المدارس مقارنة بعدد السكان، فإنه يبقى محدودًا، ويعكس سياسة الحماية الفرنسية القائمة على التطور البطيء بالنسبة للأهالي.

التطبيقية، فالنظام الاستعماري عمل جاهدًا على تحطيم المدارس العربية التقليدية، ظنا منه أنها تحول دون نشر مدرسته وثقافته، كما عمل على تنويع المؤسسات التعليمية حسب الرّبائن المحتملين، كما أرسى تعليمًا سمته محدودية استيعابه للأهالي، كل ما سبق يدفعنا للتساؤل، عن التعليم الذي قدمته الحماية الفرنسية في تونس ومدى استيعابه للتونسيين؟

في البداية، لا بد من الإشارة، أن الخطاب حول التعليم بتونس غزير، لكن يطغى عليه الطابع السياسي التربوي. فإذا استثنينا تقارير ومشاريع الجهة الوصية على التعليم، لا نجد بحوثًا كثيرة ذات طابع أكاديمي، تتطرق بصفة مباشرة أو غير مباشرة إلى تاريخ التعليم خصوصًا خلال الحقبة الاستعمارية، كما أن ما كتبه المؤرخون والباحثون في تونس حول هذا الموضوع، يُعدّ أقل بكثير مقارنة بما هو متوفر من الأرشيفات والوثائق حوله في المكتبات العامة والخاصة، تحتاج فقط، أن ينفذ عنها الغبار، وأن تصلها أيادي الباحثين بالدراسة والتحليل، من أجل فهم أعمق لهاته الحقبة التاريخية، بعيدًا عن التناول التقليدي لها.

في هذه الدراسة، سنحاول الوقوف على محدودية التعليم، الذي قدمته فرنسا خلال حمايتها لتونس، فما هي أهم مميزات التعليم الاستعماري الفرنسي في تونس فيما يخص أعداد المتدربين؟ وماهي المراحل التي مرت بها السياسة التعليمية الفرنسية بتونس في هذا المجال؟ اتسم التعليم الذي قدمته

اعتمادًا على الجدول أعلاه، فإن نسبة التمدريس بالنسبة لكل فئة أو طائفة هي كالتالي:

نسبة التمدريس انطلاقًا

من أعداد المتدربين في التعليم الابتدائي

السنة	الطائفة	مسلمون	يهود	أوروبيون
١٨٨٥	25.85%	40.37%	43.76%	
١٨٨٧	14.44%	36.08%	49.46%	
١٨٨٩	20.28%	35.32%	45.08%	
١٨٩١	22.48%	42.97%	43.55%	

- يلاحظ حضور العنصر الأوروبي والعنصر اليهودي بهذه المدارس أكثر من العنصر التونسي المسلم، رغم محدودية أعدادهم بتونس مقارنة مع الأهالي.

إلا أن التشجيع الذي قابلت به سلطات الحماية تعليم التونسيين في بداية احتلالها، وإقبال هؤلاء عليه، رغبة في الاستفادة من الوضع الجديد من أجل الارتقاء الثقافي والاجتماعي، سرعان ما تغير تحت ضغط المعمرين الفرنسيين والأوروبيين في تونس، لما يمثلونه من قوة سياسية، من خلال انتقادهم للإدارة الفرنسية فيما يخص تعليم الأهالي، ما جعلها تعمل على مراجعة موقفها فيما يخص ولوج التونسيين للمدارس الفرنسية، حيث أصبحت تفرض شروطاً من خلال مجلس رقابة، وعراقيل حدث من إقبالهم على هذه المدارس. وذلك ما عبر عنه، محمد الجعايي في جريدة "الصواب" عدد (٤٦٦)، سنة ١٩٣٥. حيث يقول: "فلم ير المحتلون بدءاً من مسايمة الحالة والتظاهر بنصرة العلم ونشر ألويته بين أبناء المملكة التونسية، لكن لم نكد نجتاز عام ١٩٠٠ حتى أعقب تلك التشكيلات السطحية رد فعل، وقامت ضجة من جانب الاستعماريين ضد العلم والتعليم، وأشتت لها مراكز كبار الموظفين، وباتوا تحت كابوس الخطر الموهوم وسلطة حزب الاستعمار. فوقفت الإنشاءات والمؤسسات العلمية، بعد أن أقفلت عدة مدارس من بينها: مدرسة قفصة، وأقفلت الثانوية الوحيدة- ليسى كارنو- أبوابها في وجه التونسيين، بدعاوي أوهى من بيت العنكبوت".^(٢) وقد نتج عن ذلك انخفاض عدد التلاميذ، يوضحه الجدول التالي:

أعداد التلاميذ التونسيين في المدارس الفرنسية

(١٨٩٧-١٩٠٣)^(٣)

السنة	عدد التونسيين بالمدارس الفرنسية
١٨٩٧	٤٦٥٦
١٨٩٨	٤١٠٠
١٨٩٩	٣٧٨٦
١٩٠٠	٣٢٢٣
١٩٠١	٣٢٢٣
١٩٠٢	٣٠٣٠
١٩٠٣	٢٩٣٧

يمكن الوقوف من خلال الجدول عند الملاحظات الآتية:

انخفاض أعداد المتمدرسين التونسيين بالمدارس الفرنسية من سنة لأخرى، فابتداءً من سنة ١٨٩٧، بدأ هذا الانخفاض كنتيجة

للسياسة الاستعمارية، الهادفة للتضييق على ولوج الأهالي للمدارس الفرنسية، حيث كان عددهم سنة (١٨٩٧) يصل لـ (٤٦٥٦) تلميذ بنسبة (28.9%) من رواد المدارس العمومية، لينخفض العدد سنة (١٩٠٣) لـ (٢٩٣٧) تلميذ بنسبة (17%) من مجموع رواد المدارس العمومية.

ومرد هذا الانخفاض، للعراقيل التي وضعتها سلطات الحماية الفرنسية: كبلوغ السن القانوني، ورغبة ولي الأمر، ووجود مكان شاغر، وموافقة مجلس الرقابة. وهذه مشاكل عانها التونسيون، في مقابل ذلك، يجد أبناء الفرنسيين والأوروبيين واليهود، أماكنهم في مقاعد الدراسة، وذلك ناتج عن سياسة التجهيل التي نهجتها الدولة الحامية إزاء الأهالي من خلال (.. ترك تسعة أعشار أطفالنا، يجوبون الطرقات، لم يجدوا متسعاً في مدارس الحكومة. حتى إذا صحت الأمة، واستيقظ الوعي القومي، وتوالت الصيحات بوجوب فتح المدارس أمام الأطفال، عمدت الحكومة إلى تأسيس بعض المدارس الابتدائية الضيقة النطاق).^(٤) فلتجاوز انتقادات المعمرين لسياسة فرنسا فيما يخص تعليم الأهالي، عمدت إلى إحداث مدارس فرنسية-عربية خاصة بالتونسيين، فإحداثها (.. جاء استجابة لضغوط سلطتها غلاة المعمرين على الإدارة الاستعمارية، كي لا تجعل التعليم سبيلاً ييسر على الأهالي الوصول إلى مراكز بارزة في المجتمع، ويهدد التفوق الفرنسي الأوروبي بالبلاد، أو حتى وضعه موضع شك أو نقاش).^(٥)

خلاصة القول؛ يبقى التعليم الذي قدمته فرنسا للتونسيين خلال هاته المرحلة، محدوداً وموسوماً بالميز، فمثلاً سنة ١٩١١، هناك (٨٥٠٨) متمدرس تونسي من أصل ساكنة تقدر بـ ١٤٤.٧٣٠ نسمة، و(٧٩١٩) متمدرس فرنسي من أصل ساكنة تقدر بـ ٤٩.٩٧٠ نسمة، مما يظهر الفرق بين تعليم التونسيين، وتعليم الفرنسيين مقارنة مع الساكنة العامة لكل منهما، مما يجعلنا نتساءل هل تغيرت هاته السياسة خلال الفترة ما بين (١٩٢٠-١٩٥٦) ؟

المرحلة الثانية: (١٩٢٠-١٩٥٦)

انعكست مجموعة من الظروف الدولية والداخلية، إيجاباً على أعداد الملتحقين بالتعليم الذي قدمته فرنسا خلال المرحلة ما بين (١٩٢٠-١٩٥٦)، منها تأسيس الحزب الدستوري في مارس ١٩٢٠ بزعامة عبد العزيز الثعالبي، الذي نشر في السنة نفسها "تونس الشهيذة" التي ضمنها المطالب التونسية. كما تأسست أول تجربة نقابية تونسية (١٩٢٠-١٩٣٥). وفي الثلاثينيات تطور وتدعم النشاط الاستعماري، كنتيجة لانعكاسات الأزمة العالمية لسنة ١٩٢٩. كما عرفت هاته الفترة، صعود الحركة الشعبية للحكم بفرنسا لكن واجهتها العديد من الصعوبات. حيث أحبط

نسبة التمدرس في الجنوب التونسي مهمة، رغم كون معظم الساكنة فقيرة، ومرد ذلك لكون التعليم يعتبر أحسن طريقة للارتقاء الاجتماعي، لذلك يعمل الأهالي على إرسال أبنائهم للمدارس.

ويرجع اختلاف نسب التمدرس من منطقة لأخرى، إلى سببين

- الأول، يتعلق بوجود المعمرين الفرنسيين والأوروبيين، فالمراكز التي يتواجدون بها، توجد بها مدارس، تم إحداثها لضمان تمدرس الأطفال الأوروبيين، واستفاد من هذه الوضعية كذلك عدد من أطفال التونسيين.
- الثاني، راجع إلى رغبة السكان، حيث قامت الساكنة خصوصاً في الواحات في الجنوب التونسي ببناء المدارس، لكون التعليم وسيلة للارتقاء الاجتماعي من أجل الخروج من الفقر والفاقة التي تعانيها مناطقهم.^(٧)

أما نسبة الاستيعاب المدرسي للتونسيين، فكانت في سنة ١٩٤٩ حوالي (12%)، والتي تبقى محدودة، إذا ما تمت مقارنتها بأعداد التلاميذ الفرنسيين في سن التمدرس (٥-١٤)، البالغ عددهم ٢٧٥٠٠ طفل، وعدد المتدربين منهم ٢٦.٠٠٠ طفل، أي بنسبة استيعاب مدرسي تصل لـ (94%) وبالنسبة للأوروبيين، فعدد التلاميذ في سن التمدرس (٥-١٤) ٤٥٠٠٠ طفل، وعدد التلاميذ المتدربين ٣٥٠٠٠ طفل، أي بنسبة استيعاب تقدر بـ (77%) في السنة نفسها. فرغم ملاحظة الارتفاع الملحوظ، لأعداد المتدربين التونسيين بعد إصلاح ١٩٤٩، فإن نسبة التمدرس سنة ١٩٥٣ مقارنة بالساكنة المتدربة، لم تكن تتعدى (19%) في الابتدائي، و(45.8%) في المدارس الثانوية والتقنية، لكنها تبقى نسبة محدودة مقارنة مع الساكنة العامة. فمثلاً سنة ١٩٥٣، عدد المتدربين الفرنسيين هو ٤٥٠٤٣ ممتدرس ما يمثل 18% من الساكنة العامة الفرنسية بتونس والمقدرة بـ ١٨٠.٠٠٠. أما الساكنة التونسية المسلمة، فكان عددها ٥١٠.٠٠٠ نسمة، منها فقط ١٧٥.٢٧٥ طفل ممتدرس، لتكون نسبة 0.4% من الساكنة التونسية المسلمة هي التي تلج المدارس^(٨). وفي سنة ١٩٥٤، وصل عدد التونسيين بالمدارس الفرنسية ٤٥٢٥ طفل، وبالمدارس الفرنسية العربية ١٢٥.٠٣٠ طفل، وبالمدارس القرآنية العصرية ٩٨.٩٣٤ طفل، والمجموع الكلي هو ١٧٤.٥٤٤ ممتدرس. وخلال السنوات الأولى للاستقلال، خصوصاً في موسم ١٩٥٥-١٩٥٦، وصل عدد المتدربين بالابتدائي إلى ٢٠٩.٤٣٨ طفل أي بارتفاع 59.23% مقارنة بأعداد المتدربين سنة ١٩٥٣ وبـ 45.35% مقارنة بنسبة ١٩٤٩.

أما فيما يخص المرحلة الثانوية، فإن أعداد التونسيين بها، بقيت محدودة. وذلك ما يوضحه الجدول:

حزب المعمرين كل محاولة فرنسية، لتحقيق أي مطلب من مطالب الوطنيين. إلا أن الحركة الوطنية التونسية عرفت تطوراً مهماً خلال (١٩٣١-١٩٣٢)، تحت تأثير قضية التجنيس لتزداد حيوية، مع ظهور الحزب الدستوري الجديد، حيث شكلت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فترة نضج الحركة باعتبارها حركة متعددة الأشكال، ونزوحها نحو المطامح الاستقلالية. مما دفع سلطات الحماية إلى العمل على الرفع من أعداد المتدربين التونسيين بالمدارس الفرنسية، وساهمت في ذلك الظرفية الدولية الملائمة، حيث انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وبداية عهد جديد، سمته تطور سياسي أكثر سرعة، في اتجاه تقهقر العالم الأوروبي القديم، وإمبرياليته الاستعمارية. فكيف ساهمت هاته الظروف وانعكست على تزايد أعداد المتدربين في تونس؟

في سنة ١٩٢٠، كان عدد التونسيين في سن التمدرس ٣٥٠.٠٠٠ طفل، ولج منها المدارس ١٢.٠٠٠. في حين نجد عدد الأطفال التونسيين المتدربين سنة ١٩٤٠، يصل لـ ٤٣.٠٠٠ طفل، من أصل ٢٢٥.٠٠٠ طفل تونسي في سن التمدرس. وفي سنة ١٩٤٥، كان عدد المتدربين التونسيين في التعليم الابتدائي ٣٨٠.٠٠٠ ممتدرس، من أصل ٥٩٠.٠٠٠ في سن التمدرس.^(٩)

تعكس هذه الأرقام، محدودية التعليم المقدم للتونسيين من طرف سلطات الحماية، والذي سيعرف قفزة نوعية بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب نزوح مطالب الحركة الوطنية التونسية نحو الاستقلال، برغم ذلك ظل تعليم الأهالي مقارنة بتعليم الفرنسيين محدوداً، فمثلاً في سنة ١٩٤٨، نجد في منطقة تونس، (١٢) مدرسة عربية فرنسية للتونسيين، تقابلها (٢٣) مدرسة فرنسية للفرنسيين. وفي ضاحية "مقرين" الصغيرة، مثلاً نجد ثلاث مدارس فرنسية، مما يعكس عدم التكافؤ بين التونسيين والفرنسيين في حق التعليم. وفي السنة نفسها، كان عدد التونسيين ثلاث ملايين، قامت الحكومة لهم بفتح (٨٧٨) قسم ابتدائي للذكور، و١٨ قسم تكميلي أي ١٠٨١ للتعليم العربي الإسلامي. في مقابل ذلك، يوجد بتونس ١٠٠ ألف فرنسي، فتحت لهم ١١٤٠ قسم ابتدائي، و١٩ قسم تكميلي أي ما مجموعه ١١٥٩ رغم كونهم يمثلون أقلية. ففي الفترة الممتدة، ما بين ١٩٤٦-١٩٤٩، لم يرتفع عدد التلاميذ التونسيين المتدربين، إلا بـ ١٥.٧٠٠ ممتدرس، رغم كون سنة ١٩٤٩، شكلت سنة إصلاح، نص على تعميم التعليم في مدى ٢٠ سنة، والذي بدأ تطبيقه في موسم (١٩٤٩-١٩٥٠) بصورة تدريجية، ليلج مستوى تطبيقه الشامل سنة ١٩٥٣. فلرصد محدودية التعليم المقدم للتونسيين، واختلافه من منطقة لأخرى، لوحظ أن المدن التي تحتوي على نسب مهمة من التلاميذ المتدربين، هي المدن الكبرى والكاف، وسوق، وتونس العاصمة، وكسوسة، وصفاقس. كما أن

أعداد التلاميذ في المرحلة الثانوية لسنة ١٩٥٣ حسب أصولهم وانتماءاتهم^(٩)

النوع	التعليم التقني	التعليم الثانوي العام	التعليم الزيتوني وفروعه	المجموع
أصل التلاميذ				
تونسيون	٦٧٤٣	٦٦٨٢	١٢.٠٠٠	٢٥.٤٢٥
فرنسيون	٣٩٨٢	٥٦٦١	-----	٩٦٤٣
يهود	١٢١٧	١٧٣١	-----	٢٩٤٨
جاليات أخرى	١٠٠٠	٤٢٣	-----	١٤٢٣
	١٢٩٤٢	١٤٤٩٧	١٢.٠٠٠	٣٩٤٣٩

يوليو ١٩٤٨ (.. أما المدارس العليا والجامعة، فإنها شيء محرم على التونسيين في بلادهم، التي تعد ثلاثة ملايين من السكان، مع وضع عراقيل متنوعة، أمام كل مقدم على إتمام تعليمه، بجامعات فرنسا التي لا يخلو منها بلد متوسط تقريبًا. والسياسة التي حرمت التونسيين من التعليم العالي في بلادهم، إنما تهدف لغاية معينة ومعروفة، وهي الخوف من مزاحمة التونسيين للفرنسيين في الوظائف العمومية، التي تخلق كل يوم عشرات الوظائف لتشغيل الفرنسيين)^(١٠). لهذا نجد المعهد العالي الوحيد في تونس، هو معهد الدراسات العليا التونسية، والذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يلبي حاجيات التونسيين من هذا النوع من التعليم، وطموحاتهم في كسب مواقع جديدة، وكسر الحصار الذي سعت سلطات الاستعمار، و بشتى الوسائل إلى ضربه حولهم مما جعل نصيب التونسيين من هذا النوع محدودًا، ففي سنة (١٩٥٠-١٩٥١)، كان عدد الطلبة (١٠١٥) طالبًا، وفي موسم (١٩٥١-١٩٥٢)، كان عدد الطلبة التونسيين العرب لا يتجاوز (٧٦٤) طالبًا، منهم (٧٤٧) ذكورًا، و(١٧) إناثًا، ومن بقية الطوائف (٨٣١) طالبًا منهم (٥٣٥) ذكورًا، و(٢٩٩) إناثًا، والمجموع الكلي هو (١٥٩٥) طالبًا.^(١١)

خاتمة

خلاصة القول؛ يبقى التعليم الذي قدمته فرنسا في تونس خلال فترة الحماية، محدودًا على مستوى استيعابه للتونسيين، وذلك تماشيًا مع أهداف الاستعمار منه، ورغم كون الأرقام التي أوردناها سواء بالنسبة للتعليم الابتدائي أو التعليم الثانوي أو التعليم العالي، قد تبدو من جهة نظر المستعمر إيجابية، معبرة عن اهتمام سلطات الحماية الفرنسية بتعليم الأهالي، فإنها من وجهة نظر التونسيين تظل محدودة، وتعكس سياسة التجهيل التي نهجتها في حقهم.

يمكن الوقوف من خلال الجدول عند الملاحظات الآتية:

- أعداد الملتحقين بالتعليم الثانوي من التونسيين، يبقى محدودًا مقارنة بالسكان العامة، ومقارنة بالملتحقين من الجاليات الأوروبية ومن اليهود.
- بالنسبة للتعليم المقدم من طرف سلطات الحماية في هاته المرحلة، نلاحظ توجه التونسيين نحو الشعب التقنية أكثر من التعليم الثانوي العام.
- ارتفاع أعداد الملتحقين بالثانوي في هاته السنة، جاء نتيجة ما أسفر عنه إصلاح ١٩٤٩ من مواصلة التونسيين لدراساتهم. ففي سنة ١٩٥٤ وصل عدد التونسيين بالتعليم الثانوي دون احتساب تلاميذ التعليم الزيتوني ١٥.٠٣٤ تلميذ، مقابل ١٣.٤٢٥ في سنة ١٩٥٣، بزيادة ١٦.٠٩ تلميذ. ورغم ذلك يبقى الالتحاق بالثانوي محدودا بالنسبة للتونسيين، كما أن الالتحاق به يختلف من منطقة لأخرى إذ يتمركز في الساحل الشمالي الغربي التونسي، مع محدوديته، أو غيابه في المدن الداخلية والمدن الجنوبية الشرقية، حيث يقتصر وجود الثانويات والإعداديات، على مدن (تونس، سوسة، صفاقس، الكاف)، وهي مدن كبرى، في حين المدن الأخرى، تحتوي على أقسام تكميلية. أما من حيث الملتحقين بهذه المرحلة حسب المدن، فنجد في الطليعة مدينة تونس بـ (٢٦٧٩) تلميذ منهم ٢٢١٦ ذكور، و(٤٦٣) إناث، ثم صفاقس بـ (١٣٥٥٩) تلميذ، وسوسة (١٢٤٤) تلميذ منهم (١٢٢٦) ذكور و(١٨) إناث.

أما بالنسبة للتعليم العالي، فقد كان إقبال الطلبة التونسيين عليه محدودًا، بفعل تضيق سلطات الحماية، على الراغبين في مواصلة دراستهم العليا سواء داخل تونس أو بجامعات الشرق العربي أو فرنسا. وفي ذلك يقول أحد التونسيين، في مقال له تحت عنوان "سياسة التعليم ببلادنا" منشور بجريدة "الحرية" في ١٨

والمدرسين، انتهى بتصفية الفريق الأول من خلال توحيد التعليم، وبالتالي غياب نخبته عن مراكز القرار في تونس المستقلة.

- ظل مشكل التعليم مستمراً، بعد استقلال تونس، لكون السنوات الأولى للاستقلال حسب محمد عابد الجابري (لم تأت بقرارات جديدة حول التعليم، بل إن حكومة الاستقلال -بتونس-، استمرت بخطط الإصلاح الذي ابتدأ عام ١٩٤٩)^(١٣). وما زال البلد إلى اليوم، يبحث عن الحلول للارتقاء بقطاع التعليم، هذا القطاع الذي وظفه الكل كما أراد. استعمله الفرنسيون الاستعماريون، لاستمالة العقول وفرستها وبث المقولات الاستعمارية في عقول الناشئة. واستعمله الوطنيون، لغرس روح الصمود والمقاومة، واستعمله المحافظون، لتكريس ألفاظ سلوكية ورؤى تتشبهت بالماضي، ووظفه المجددون للتغيير.

إن بلوغ خاتمة هذه الدراسة، لا تعني نهايتها وتامها، ولكن الضرورة تقتضي أن يكون لكل موضوع خاتمة، تضم النتائج التي وصل إليها، ويمكن أن نجمل ما توصلنا إليه في ما يلي:

- أن التعليم شكل سلاحاً مكملاً للسيطرة العسكرية في تونس، فكما يقول عابد "أن المدفع يدفع الثوار، والمدرسة تجلب السكان"، فالتعليم في تونس خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية، لم يكن خاضعاً لمتطلبات التنمية، بل كان محكوماً بالمخططات والاختيارات الاستعمارية، الهادفة لاستغلال خيراتها وسكانها.
- لم يكن للتونسيين الحق في اتخاذ أي موقف من قضية التعليم خلال الحقبة الاستعمارية، ما جعل هذه القضية إحدى القضايا الرئيسية، التي تمحور حولها النضال الوطني خلال هذه الفترة، وبالتالي، فقد ورثتها دولة الاستقلال بوصفها قضية وطنية أولاً وأخيراً.
- تنوع المؤسسات خلال الفترة الاستعمارية، تعبير عن تنوع المجتمع، وتعدد قوميته المتعايشة. وتعدد الأنماط التعليمية، تعبير عن طبيعة العلاقات والصراع بين هذه القوميات، إلا أن الأصناف التعليمية، لم تكن متعادلة القيمة، ومتكافئة في ضمان المستقبل الفردي، وتحقيق الارتقاء الاجتماعي، ما جعل الأوروبيين واليهود والأعيان من أبناء تونس، يقبلون على التعليم الفرنسي، كسبيل للنجاح الاجتماعي. كما استغلته فرنسا منذ البداية، كوسيلة لانتقاء الحلفاء الفعليين، وإزاحة الأعداء الاستراتيجيين. إلا أن ما يلاحظ أن التنوع والتعدد في التعليم بتونس، أنه بدأ قبل الاحتلال، والاحتلال الفرنسي نشطه، في حين بدأت حركية التوحيد والتجانس، قبل انتهائه، ونشطت وتدعمت بعده.
- استطاع الاتحاد التونسي سنة ١٩٤٦، أن يتقدم ببرنامج عام لإصلاح التعليم. وقد (.. نجح الاتحاد بإقناع السلطات الفرنسية ببعض عناصره، إلا أنه فشل في قضية التعريب الكلي للتعليم)^(١٤)، إلا أن ذلك دفع السلطات الفرنسية، إلى وضع مخطط لإصلاح التعليم للفترة (١٩٤٩ - ١٩٦٩)، قائم على تعميم التعليم خلال ٢٠ سنة. إلا أن ما يميز تونس، أن مبادرة الإصلاح جاءت من المثقفين المفرنسين، عكس المغرب مثلاً، الذي جاءت مبادرته الإصلاحية خلال الاستعمار من الدوائر السلفية التقليدية، التي ركزت على الهوية أكثر من التعليم.
- دامت الحماية الفرنسية في تونس ٧٥ سنة (١٨٨١ - ١٩٥٦)، وبالتالي تركت آثارها. فقد قامت حركة التحديث الوطنية التونسية خارج الزيتونة، وعلى هامشها (المدرسة الصادقية، والجمعية الخلدونية)، ما جعل الصراع يقوم بين الزيتونيين

الهوامش:

- (1) Macken Richard, Louis Machuel and educational ; Roform in Tunisie during the early years of the French protectorat, **Revue l'histoire Maghrébine**, N°3, 1975, pp : 45- 55.
- (٢) الدقي نورالدين، عدة ليلى، جلاب الهادي، **المجتمع التونسي والاستغلال الاستعماري**، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1997. ص ١٣١.
- (٣) جوليان شارل أندري، **المعمرون والشباب التونسي**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨٥، ص ٩٧.
- (٤) الدقي نورالدين، عدة ليلى، جلاب الهادي، مرجع سابق، ص ١٣٥.
- (٥) بن سالم بلقاسم، **التعليم العصري ونظام التوجيه المدرسي في تونس: دراسة تاريخية. مؤسسية اجتماعية**، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة علوم التربية، تونس، 1988، ص ٢٥.
- (6) Obdejin H.L.M, **L'enseignement de l'histoire dans la tunisie moderne (1881- 1970)**, Tilburg, 1975 p. 117.
- (7) Ibid. , p. 117.
- (8) Sraieb. N, l'idéologie de l'école en Tunisie coloniale (1881- 1945), **Revue du monde musulman et de la méditerranée**, N(0) 68- 69, 1993, p. 249.
- (٩) بتصرف عن: بلقاسم بن سالم، التعليم العصري ونظام التوجيه المدرسي في تونس: دراسة تاريخية، تونس: الجامعة التونسية، ١٩٨٨.
- (١٠) الدقي نورالدين، عدة ليلى، جلاب الهادي، مرجع سابق، ص ١٣٥.
- (١١) كرو أبو القاسم، **التعليم التونسي بين الحاضر والمستقبل**، منشورات كتاب البعث ١، مطبعة الشرق، تونس، ١٩٥٥، ص ٤٦.
- (١٢) نائر سارة، **التربية العربية [منذ ١٩٥٠] انجازاتها، مشكلاتها، تحدياتها**، منتدى الفكر العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان الأردن، أبريل ١٩٩٠، ص ٧٠.
- (١٣) المرجع نفسه، ص ٧٩.

المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر الجزائري التعليم نموذجاً

أحمد بن داود

أستاذ مساعد التاريخ والحديث والمعاصر
رئيس شعبة التاريخ - قسم التاريخ والأثار
جامعة أبي بكر بلقايد - الجمهورية الجزائرية



ملخص

يدور موضوع هذا المقال حول مقاومة الأمير عبد القادر الثقافية من خلال التعليم، ذلك أن الأمير خاص مقاومة متعددة الجوانب: عسكرية، سياسية ثم ثقافية، ومن خلال التعليم كان يحاول تكوين نخبة واعية قادرة على استيعاب طبيعة مشروعه الحضاري الهادف إلى النهوض في الجزائر وتأسيس دولة عصرية قادرة على مواجهة الغزو الاستعماري. لتحقيق هذا الهدف أبدى الأمير اهتماماً متزايداً بالتعليم، إذ عين في حكومته ناظرًا للأوقاف وهو الحاج الطاهر أبو زيد وكلفه بإدارة الأوقاف والتعليم، وقسم المعلمين إلى درجات وخصص لهم مرتبات شهرية، إضافة على تخصيص مساعدات لطلاب العلم وشيوخ الزوايا وجعل التعليم مجانياً مع التكفل التام بالطلبة. إن النشاط التعليمي للأمير وطابعه والنضالي لم ينته بتمكين الاستعمار الفرنسي من القضاء على مقاومته بل واصل مجهوده التعليمي وذلك حيث ما ذهب، غداً كان يقدم دروساً لأصحابه وأفراد عائلته حتى وهو في الأسر وهو قصر أمبووازي في فرنسا. وبعد إطلاق سراحه واصل تقديم هذه الدروس في بروسة بتركيا ثم في دمشق بعد أن استقر بها، إذ كان يدرس في المسجد الأموي والمدرسة الشرفية المعروفة بدار الحديث النووية. لقد وفر الأمير كل الشروط لإنجاح تجربته التعليمية ونقل المعركة ضد الاستعمار الفرنسي بذلك إلى الساحة الثقافية والفكرية، لهذا اهتم بتأسيس مكتبة عامرة للطلبة والمعلمين، إذ كان مولعاً لاقتناء الكتب والمخطوطات والحث على العناية بها، لهذا عندما هاجم الجيش الفرنسي عاصمته المتنقلة "الزمالة" في ١٥ مايو ١٨٤٣م والاستيلاء عليها أصيب الأمير بنوبة من الحزن والأسى وذلك لأن هذه المكتبة كانت بمثابة الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري وبالأرشيف الوطني بالمفهوم الحديث والأمير عبد القادر كان يعي ذلك جيداً.

كلمات مفتاحية:

تاريخ الجزائر الحديث، الاستعمار الفرنسي، المدارس والكتاتيب،
التعليم الجزائري، الأمير عبد القادر

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ مارس ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٢ يونيو ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد بن داود. "المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر الجزائري: التعليم نموذجاً". - دورية كان التاريخية. - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ٦٤ - ٧٠.

مقدمة

مساحات كبيرة من تاريخ الأمير الذي بقدر ما كان عسكرياً وسياسياً مخنكاً كان رجل فكر وعلم، عميق المعرفة في علوم الدين والدنيا، وله آراء في مختلف قضايا عصره الفكرية والمعرفية، لهذا فليس من الغريب أن يفتح جبهات متعددة في مقاومته للاستعمار الفرنسي، إذ إلى جانب مقاومته العسكرية والسياسية مارس مقاومة ثقافية وفكرية عكسها اهتمامه

اهتم كثير من الباحثين والدارسين بتاريخ الأمير عبد القادر ومقاومته للاستعمار الفرنسي، لكن في دراساتهم العديدة ركزوا بالخصوص على الجانبين العسكري والسياسي لهذه المقاومة، حيث أن الأمير "المحارب" أخفى الأمير "العارف"، و"العالم"، و"المدرس". إن هذا التوجه في الدراسات التاريخية حجب عنا

أحد قواعده الهامة، وذلك بأبعادها العلمية والتقنية والعسكرية.^(٥) فالأمير عبد القادر الذي بفعل إدراكه لأهداف السياسة الاستعمارية في ميدان التعليم والقائمة على مراقبة التعليم الديني الحر وعرقلة نشاطه بغرض إفراغ المجتمع من نخبه الدينية والفكرية وتدمير منطق إنتاجها^(٦)، كان يريد أن يعطي لمقاومته كل الأدوات والوسائل الكفيلة بتحقيق النصر، بما في ذلك نخبة من الطلبة قادرة على استيعاب مشروعه الحضاري التجديدي الهادف إلى فك الخناق عن التجديد الفكري^(٧) باعتباره "كمنطلق النهضة الحضارية والخروج الواعي ما نسميه بالغفلة المعرفية".^(٨)

ثانياً: تنظيم التعليم في دولة الأمير

كان نشر التربية والتعليم في الجزائر على النمط الحديث من الانشغالات الهامة للأمير، لهذا فقد عمل على تنظيم مختلف مستوياته وأطواره وفق ما يلي:

- **الطور الابتدائي:** يستغرق أربع سنوات تقريباً، ويتعلم الطفل خلالها مبادئ القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب، ويحفظ القرآن،^(٩) وقد تم بناء المدارس في المدن والكتاتيب في القرى إذ في كل قبيلة من القبائل كانت هناك خيمة تدعى الشريعة يشرف عليها مؤدب يختاره سكانها.^(١٠) استعان الأمير في هذا الطور بالزوايا خاصة وعمل على تطويرها وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من أسباب المعرفة ووسائلها، سواء تعلق الأمر بالمعلمين أو الفقهاء أو الكتب والمراجع، وذلك لأنها كانت الشبكة التربوية الوحيدة المتاحة آنذاك لمواجهة متطلبات المرحلة.^(١١)

- **الطور الثانوي:** ويطلق عليه بعض الدارسين الطور الإكمالي^(١٢)، إذ عندما يتفوق التلاميذ وتظهر عليهم بوادر النبوغ، ينتقلون إلى هذا الطور، حيث يواصلون تعليمهم مجاناً في الجامع أو الزاوية أو مدرسة ملحقة بالأوقاف. وكانت الدروس تشمل النحو والتفسير^(١٣) والتاريخ والإلهيات.

- **التعليم العالي:** حسب أديب حرب، لا يوجد هناك فصل واضح بين التعليم الثانوي والعالي، فالأستاذ الذي يدرس في هذه المرحلة يسمى عالماً ويتقاضى أجره من الأوقاف، وكانت الدروس تشمل النحو والفقه والحديث والحساب والفلك والتاريخ...، ويتلقاها الطلبة إما في الزوايا أو في الجوامع.^(١٤)

ثالثاً: مظاهر اهتمام الأمير بالتعليم

تظهر الأهمية الكبرى التي أعطاها الأمير عبد القادر للتعليم من خلال موقفه من العلماء والطلبة وطريقة تنظيمه لهذا القطاع في دولته ويتمثل ذلك فيما يلي:

بالشأن الثقافي أثناء تنظيمه لدولته، وكل ما يرتبط بذلك من تعليم ومكتسبات...، وذلك بغرض تحقيق معالم مشروعه الحضاري التجديدي على أساس أن الأمير كان أحد رموز الحداثة العربية الإسلامية وأحد رجالات النهضة في العالم العربي الإسلامي، لهذا فكثير من التساؤلات تتبادر إلى ذهن الباحث؛ لماذا أعطى الأمير هذه الأهمية للتعليم في إطار هيكلته دولته؟ وما هي مظاهر هذا الاهتمام؟ وكيف سير منظومته التعليمية؟ وما هي طبيعة مجهوداته في مجال حفظ الكتاب وبناء المكتبات؟

أولاً: أسباب وعوامل اهتمام الأمير عبد القادر بالتعليم

في إطار هيكلته دولته وبنائها، سواء في الميدان الاقتصادي أو العسكري أو الإداري أو القضائي أو الثقافي، نال التعليم حظاً وافراً من اهتمام الأمير وذلك للاعتبارات الآتية:

- التكوين الجاد الذي تلقاه الأمير سواء في زاوية أبيه بالقيطنة، أو في أرزيو على يد أستاذه أحمد بن طاهر، قاضي المدينة، وولعه الشديد بالدراسة منذ فتوته الأولى. في مذكراته لا يخفي الأمير إعجابه بجو الدراسة داخل الزاوية إذ يقول في هذا الخصوص: "... وأما طلبة القرآن الذين قرأوا القرآن والعلم بقرئته المذكورة فلا يحصون كثرة ولا يعددهم عاد... لا يخلو موضع قراءتهم من خمسمائة إلى ستمائة بحيث لا يسمع المار إلا دوي القرآن في كل وقت مع تدوين العلم بأكثر أنواعه بمسجدها ... وكانت فيه نحو السبع مجالس للتدريس...".^(١)

- تقاليد عائلة الأمير العريقة والتي تقوم على تقدير العلم والعلماء، فأبوه محي الدين كان شيخ زاوية ويلقي بها دروساً في الدين والتشريع، وألف كتاباً بعنوان "إرشاد المريدين"^(٢) باعتباره كان مقدم الطريقة القادرية التي ورثها عن أبيه الحاج مصطفى بن المختار الراشدي، والذي أخذها بدوره عن الشيخ الزبيدي في مصر.^(٣) إن هذه المعطيات تقدم لنا صورة جلية عن الجو الثقافي والديني الذي كان يطبع بيت الشيخ محي الدين والذي كان يعرف توافد العلماء والفقهاء والسيوخ لحضور الندوات الدينية التي كان يحضرها كذلك الطلبة من مختلف جهات البلاد.

- إدراك الأمير عبد القادر أن نجاح مقاومته للاستعمار الفرنسي رهينة بمدى انتشار الوعي القومي بين مختلف فئات المجتمع الجزائري^(٤) وتكوين نخبة واعية بمخاطر السياسة الاستعمارية، وخاصة في الميدان الثقافي، وقادرة على استيعاب كنه وعمق مقاومته التي لم تكن مجرد مواجهة عسكرية وسياسية مع الاستعمار الفرنسي، بل مواجهة حضارية مع الغرب الرأسمالي، الذي تشكل فرنسا

- تعيينه في حكومته لناظر للأوقاف، وهو الحاج الطاهر أبوزيد، الذي كان يتولى العناية بكل ما يتصل بالأوقاف والمساجد وربط التعليم بإدارته.^(١٥)

- ترتيب المعلمين وتقديم مرتبات لهم حسب درجاتهم العلمية^(١٦) وكفاءة كل واحد منهم، وكان الأمير يحيطهم باحترام وتقدير متزايدين، وقد حدث أنه عفا عن أشخاص ارتكبوا جرائم كبيرة بسبب أنهم معلمون مبررًا موقفه هذا بأنه لن يقدم على إعدام شخص تطلب تكوينه سنوات طويلة^(١٧)، وبذلك يعبر الأمير عن موقفه الإنساني السامي وعن سماحته إذ يعطى فرصة لمجرم للتكفير عن ذنوبه وإعادة تربيته وإدماجه من جديد في المجتمع.

- تخصيص مساعدات لطلاب العلم وشيوخ الزوايا ورعاية المؤسسات الدينية والثقافية.^(١٨)

- جعل التعليم مجانياً وفي متناول الجميع، والتكفل التام بالطلبة، وحسب إدريس الجزائري فإن الأمير أول من أدخل نظام الوجبة الغذائية المدرسية^(١٩) وهذا نظام جديد ومبتكر في ذلك الوقت. إضافة إلى ذلك فقد تم إعفاء الطلبة من الضرائب والمطالب الأميرية على مختلف أنواعها.^(٢٠)

- إقامة مكتبة عامرة ووضعها في خدمة الطلبة والعلماء، وجمع الكتب والمخطوطات لهذا الغرض من داخل وخارج البلاد، وتزويد الزوايا والمساجد بها، وقد بلغ عدد كتب ومخطوطات مكتبة الأمير المتنقلة عند مهاجمة عاصمته الزمالة من قبل الدوق دومال حوالي ٥٠٠٠ كتاب ومخطوط.

- تشجيع المتفوقين من الطلبة وتقديم منح خاصة لهم.^(٢١)

إن هذا التنظيم المحكم للمنظومة التعليمية للأمير عبد القادر والتقدير والعناية التي كان يخص بهما العلماء والطلبة لتعطينا صورة صادقة لتجربة الحداثة العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي في الجزائر والتي لم يعادلها في العالم العربي الإسلامي إلا تجربة محمد علي في مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٨).^(٢٢) ولو أتيت تجربة هذا الأخير أن تنضج في مصر وتجربة الأمير عبد القادر أن تتواصل في الجزائر لتغير مجرى الأحداث في الوطن العربي^(٢٣)، لكن القوى الاستعمارية آنذاك لم تكن لتسمح بذلك نظراً للخطر الذي كانت تشكله تجربتان على مصالحها في المنطقة العربية.

رابعاً: النشاط التعليمي للأمير عبد القادر

مقاومة الأمير عبد القادر لم تنته باستسلامه المشروط في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ بضواحي مدينة الغزوات بولاية تلمسان بحضور الحاكم العام للجزائر الدوق "دومال" ابن الملك لويس فيليب، والجنرال لاموريسيار، بل تواصلت وذلك حيثما حل،

سواء عندما كان في الأسر بقصر "أمبواز" أوفي بروسه^(٢٤) بتركيا أوفي دمشق بسوريا، حيث فتح الأمير "العارف" و"المعلم" جبهة جديدة للكفاح ضد الاستعمار الفرنسي وذلك بنقله المقاومة من المجال العسكري إلى المجال الثقافي والتعليمي وحقق انتصارات على مستوى الفكر والمعرفة أنست العالم هزيمته العسكرية، وأصبح نموذجاً للعالم والمثقف المسلم القادر على استيعاب حقائق عصره، والتعايش مع مختلف الديانات والثقافات في إطار التسامح الديني، والذي يستعمل أدوات كفاح جديد وفي هذا الصدد ورد في مذكرات الأمير ما يلي: "يجد (المقصود هنا الأمير) في الوزن والسجع والجناس ما يبحث عنه في السيف والرمح والبندقية من وسائل لردع المظالم واسترجاع الحقيقة المغتصبة في الميدان وبث روح العدل وإقرار السلم في العالم".^(٢٥)

١-٤ نشاط الأمير التعليمي في فرنسا:

داوم الأمير عبد القادر على تدريس العلم ومواصلة مجهوده التعليمي وإفادة الطلبة من عائلته وأصحابه حتى وهو في الأسر بقصر أمبواز، إذ قرأ عليهم، حسب ابنه محمد في كتاب تحفة الزائر، "الصغرى" للسنوسي في علم الكلام ورسالة محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه، على مذهب الإمام مالك وغيرها من المصنفات المفيدة. وقد تأثر بذلك أخواه محمد سعيد ومصطفى وشرعا بدورهما في تقديم بعض الدروس، أفادا بها كثيراً طلابهم، إذ قاما في حلقاتهم الدراسية بقراءة "صحيح البخاري" وكتاب "الشفاء" للإمام عياض.^(٢٦)

إن هذا النشاط التعليمي الواسع للأمير وهو في الأسر، كان يعكس معنوياته العالية وقوة إرادته رغم الظروف الصعبة التي كان يجتازها وهو محروم من حريته، كما أن ذلك يؤكد تصور وإيمان الأمير بأن المقاومة ليست بالضرورة بالسلاح والبارود بل هناك أشكال أخرى للصمود والمقاومة، ومجالات وساحات أخرى لمواجهة الاستعمار من بينها المجال الثقافي والتعليمي، ولهذا أثر عنه أنه بعد الانتهاء من تعليم أحد أبنائه، قال: "هذه آخر بندقية بقيت لي".^(٢٧) لكن رغم اشتغال الأمير بتقديم الدروس وتنشيط حلقات لهذا الغرض، فإنه كان يشعر بالضجر والعزلة قام باختيار الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني لمؤانسته ومجالسته، فانتقل هذا الأخير إلى أمبواز حيث استأنس الأمير بالشيخ وبعلمه.^(٢٨)

وبعد إطلاق سراحه من قبل نابليون الثالث^(٢٩) سنة ١٨٥٢، واصل الأمير نشاطه الثقافي والفكري حيث أنه أثناء زيارته لمدينة باريس اجتمع بالعلماء الفرنسيين وناظرهم وتناقش معهم في مختلف المسائل العلمية والفكرية وعبر عن روح تسامح عالية وإيمان قوي بإمكانية تعايش الديانات والعقائد المختلفة، ثم زار دار الطباعة الأميرية الفرنسية واطلع على مختلف مراحل

الدار التابعة للمدرسة وجزءاً من مسجدها، بغرض تحويلهما إلى خمارة. لكن بعد تدخل الأمير عبد القادر، بطلب من الشيخ يوسف بدر الدين، وبفعل الغيرة على الدين والحمية الإسلامية واستدعى الرعية الأوروبية إلى منزله واشترى منه الدار وأوقفها على الشيخ يوسف وورثته من بعده سنة ١٨٧٢ هـ، ثم تكفل بترميم المسجد والمدرسة على نفقته.^(٣٩)

بعد الانتهاء من أعمال الترميم والإصلاح، التحق الأمير بالمدرسة وشرع في تقديم دروسه بها سنة ١٢٧٤ هـ "بصحيح البخاري" وذلك بحضور الشيخ يوسف بدر الدين، وتم تحديد موعدها ما بين صلاتي الظهر والعصر، لقد نالت هذه الدروس شهرة كبيرة في سوريا مما جعل كثيرًا من العلماء والطلبة يحضرونها.^(٤٠) لم يبق نشاط الأمير التعليمي منحصراً في المدرسة الأشرفية بل وسع مجاله ليشمل "المدرسة الجقمقية" والتي درس بها كتاب "الإتقان في علوم القرآن" للإمام السيوطي، وكتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز" للسيد أحمد المبارك، ثم كتاب "الشفاء" للقاضي عياض^(٤١)، و"صحيح مسلم". لقد كان الإقبال على دروس الأمير المسجدية كبيراً لدرجة أنه بعد رجوعه من رحلة إلى الحجاز قام بفتح منزله لطلبة العلم وخصص لهم وقتاً محدداً يقدم فيه الدروس.^(٤٢)

خامساً: مكتبة الأمير ودورها التربوي

لقد كان الأمير عبد القادر مولعاً بالمطالعة وجمع الكتب واقتنائها مهما كان ثمنها أو مكان وجودها، ولهذا كانت مطالعتها من أهم الأنشطة التي يتفرغ لها بعد أداء الصلاة والذكر، وكان يطالع بالدرجة الأولى الكتب ذات الطابع الديني وعلى رأسها القرآن^(٤٣)، وكانت خيمته لا تخلو من الكتب أو المخطوطات النفيسة، ويشير إلى ذلك أدريان بيربروجير عند زيارته للأمير في برج حمزة، حيث أن أدريان عندما دخل خيمة الأمير المسماة "بالوطاق" وجده حسب قوله "متكئاً على بعض الوسائد وعلى يساره حوالي ثلاثين مجلداً من الكتب، وأما على يمينه فقد وضعت أسلحة فاخرة ومرصعة... وكان كبير الكُتّاب أو "الخوجات" عن يمين الأمير وأحد الشواش عن يساره".^(٤٤)

وقد كانت فرحة الأمير كبيرة عندما أهدها بيربروجير أحد الكتب النفيسة حيث يضيف تلك الفرحة "فيما يخصني قدمت إليه (أي الأمير) هدية منذ أول لقاء معه، وهي نسخة عربية خطية وجميلة جداً من كتاب "دلائل الخيرات" كانت موجودة في قسنطينة، وهي تتضمن صلوات وأدعية وغيرها من مواضيع العبادة، وقد ظهر أن الأمير عبد القادر قبلها بغبطة شديدة نظراً للموضوعات التي عالجتها ونظراً أيضاً إلى كونها آتية من مكتبة بن عيسى، مساعد الباي أحمد.^(٤٥) ولتوفير الكتاب وتسهيل عمل المعلمين والطلبة حرص الأمير على جمع الكتب واقتنائها حيثما

عملها.^(٣٠) وعبر عم إعجابه الكبير لهذا الإنجاز الحضاري لهذا سأل بعض الأعيان عما رآه في باريس، رد عليهم بقوله: "بالأمس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع، وفي هذا اليوم، رأيت الحروف التي تغلب بها أسر الملوك وتخرب دولهم..". ولما اقترب موعد رحيل الأمير إلى بروسه قام بزيارة وداع واستئذان للإمبراطور نابليون الثالث استقبله بحفاوة وأخبره بتفاصيل المرتب الشهري الذي خصصته فرنسا له من خزينة الدولة ثم أهده سيفاً ثميناً وقال له: "أنا على يقين بأنك لن تجرده على فرنسا..". فأجابه الأمير إجابة بليغة تعبر عن استجابته لمتطلبات المرحلة وضرورة تغيير وسائل الكفاح: "إنني الآن ممن يستعمل العلم لا ممن يستعمل السيف".^(٣١)

٢-٤ نشاط الأمير التعليمي في بروسه:

بعد إطلاق سراحه على يد نابليون الثالث سنة ١٨٥٢م، وانتقال الأمير عبد القادر إلى الأستانة التي دخلها سنة ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م^(٣٢) والتقى فيها بالسلطان عبد المجيد و"الصدر الأعظم" مصطفى رشيد باشا، شيخ الإسلام عارف حكمة بك، ثم أدى زيارة مجاملة للسفير الفرنسي الماركيز "دولا فاييت"،^(٣٣) حيثما ذهب الأمير كان الناس يزدحمون لمشاهدته، وتقديم التحية له سواء في الطرقات أو في رحاب منازل الوزراء والأعيان، كما تنقل كثير من المهاجرين الجزائريين من تونس ومصر والحجاز والشام... إلى بروسه لرؤيته ومن بينهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي المقيم في دمشق.

عند استقراره ببروسه واصل الأمير نشاطه التعليمي والتربوي، إذ كان يقضي أيامه هناك، حسب تشرشل في تربية وتعليم أبنائه وفي الدروس التي كان يقدمها في المسجد، وفي دراسته ومطالعاته الشخصية والعبادة،^(٣٤) وهذا ما يؤكد ابنه محمد حيث يقول "وكان رضي الله عنه يصلي الصلوات الخمس، في الجامع القريب من الدار المعروف بجامع العرب، ويقرأ فيه الدروس، فقرأنا عليه ألفية ابن مالك بشرح المكودي و"السنوسية" شرح المصنف والإسياغوجي "للقاوي".^(٣٥) إضافة إلى ذلك كان الأمير يواصل التربوي مع أبنائه حتى في المنزل العائلي وذلك بانتقاء مجموعة من الكتب التي يقرأها عليهم وذلك مثل كتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز الدباغ".^(٣٦)

٣-٤ نشاط الأمير التعليمي في دمشق:

بعد استئذانه السلطان العثماني، غادر الأمير عبد القادر بروسه سنة ١٨٥٥ متوجهاً إلى سوريا حيث استقر في مدينة دمشق، حيث شرع في تقديم الدروس بالمسجد الأموي^(٣٧) وبالمدرسة الأشرفية^(٣٨) المعروفة بدار الحديث النووية، وذلك بعد تسوية النزاع الذي كان بين الشيخ يوسف بدر الدين المغربي، مسير المدرسة، وبين أحد الرعايا الأوروبيين والذي استولى على

خاتمة

خلاصة القول؛ أن تجربة الأمير وانجازاته في ميدان الثقافة والتعليم لا تقل أهمية عن انجازاته في الميدانين العسكري والسياسي، إذ أن فتح جبهة مقاومة جديدة على الاستعمار لم تتوقف إلا بمماته، وأسس لتجربة رائدة في ميدان التعليم لمواجهة السياسة الاستعمارية في هذا المجال، وقد أبدع الأمير وأجاد في تسييره لهذا القطاع الحساس واندرج تنظيمه هذا في إطار حداثي وتصور إصلاحى شامل وذلك من خلال:

- العناية التي أحاط بها المعلمين والطلبة والتكفل باحتياجات الطلبة ومتطلبات تدرّسهم بغرض تشجيعهم على التحصيل العلمي.
- تطويره للإرث العثماني في ميدان التعليم وذلك بتدخل الدولة في تنظيمه وتسييره بعد أن كان يترك للمبادرة الشخصية للسكان.
- امتلاك الأمير لمفهوم حديث للمكتبة كمؤسسة لها وظيفتها في المجتمع والدولة باعتبارها مؤسسة حيوية حافظة للذاكرة الجماعية للشعب الجزائري ولتراثه الأدبي والفكري ...، كما أنه عن طريق اقتناء وشراء الكتب والبحث على المحافظة عليها ووضعها في الزوايا والمساجد تحت تصرف العلماء والطلبة كان يشجع على المطالعة باعتبارها سلوكًا حضاريًا، وكان يعطي المثل في هذا المجال باعتباره كان يكثر من المطالعة.

إضافةً إلى ذلك؛ فإن تجربة الأمير في ميدان التعليم رغم قصر مدتها وانشغاله بالحروب والمعارك ضد الاستعمار الفرنسي، فقد أعطت نتائج إيجابية تمثلت في إقبال السكان على إرسال أبنائهم إلى المدارس، هذا فضلاً عن أنها عبرت عن وعي حقيقي بمخاطر السياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي وضرورة مقاومتها على مختلف الجبهات بما في ذلك الجبهة الثقافية والفكرية. وأخيرًا يمكننا القول؛ بأن الجانب الثقافي والفكري من تاريخ الأمير عبد القادر ما زال في حاجة إلى دراسة وبحث، "فالورشة الأميرية" لا تزال في هذا المجال قادرة على إلهام الباحثين والدارسين بمواضيعها العديدة والمتنوعة وذلك لعشرات السنين.

وجدت، والبحث على المحافظة عليها ومكافئة كل من يأتيه بكتاب أو مخطوط، كما أنه كان يدعو جنوده أثناء المعارك إلى تسليمه ما يقع بين أيديهم منها،^(٤٦) ويعاقب كل من يمسكه متلبسًا بإتلافها أو تمزيقها^(٤٧) أولم يحترم تعليمات الأمير في طرق التعامل مع الكتب والمخطوطات يعثر عليها أثناء الحروب. ومن شدة تعلق الأمير بالكتب واهتمامه بها أرسل بعض تلامذته حتى الأناضول وقونية^(٤٨) لنسخ مخطوطات ابن عربي أستاذته الروحي الذي تأثر به.^(٤٩)

كان الأمير يضع الكتب والمخطوطات التي يجمعها في المساجد والزوايا تحت تصرف العلماء والطلبة في انتظار إنهاء بناء مكتبته بتاكدمت، عاصمته الجديدة^(٥٠)، والتي شرع في بنائها سنة ١٨٣٦ بمكان له رمزيته التاريخية. إذ كان الأمير يهدف من وراء اختيار الموقع إحياء العاصمة السياسية والفكرية والدينية القديمة للجزائر^(٥١)، لكن تجدد القتال مع الفرنسيين، بعد إقدامهم على خرق معاهدة تافنة سنة ١٨٣٩، جعل أشغال البناء تتوقف ويتوقف معها مشروع المكتبة. اضطر الأمير عبد القادر أمام تحرشات الفرنسيين وعدم شعوره بالأمن والطمأنينة في إقاماته الرسمية إلى بناء عاصمة متنقلة وهي الزمالة، يمكن تفكيكها ونقلها إلى أي مكان وإعادة تركيبها^(٥٢)، وبذلك أصبحت المكتبة متنقلة مع الزمالة إلى غاية ١٥ مايو ١٨٤٣، عندما هاجمها الجيش الفرنسي بقيادة الدوق دومال^(٥٣)، واستولى على ما بها، بما في ذلك المكتبة التي تم نهب وبعثرت كتبها ومخطوطاتها وإتلاف قسم منها، وقد قدر عددها آنذاك بحوالي خمسة آلاف كتاب ومخطوط.^(٥٤)

لقد تألم الأمير عبد القادر كثيرًا لذلك وهو يقتفي أثر الجيش الفرنسي، ويجمع البقايا المتناثرة للكتب الممزقة^(٥٥). إن قراءة متمنعة في اهتمامه بعالم الكتاب والمكتبات ليدرك مدى وعيه العميق بأهمية تأسيس مكتبة عمومية بالنسبة لدولة من الدول، باعتبارها تشكل الأداة الكفيلة بالمحافظة على الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري وتراثه، لهذا اعتبر عبد الحميد بن أشنهو بأن الجزائر لم تفقد استقلالها يوم ٠٥ جويلية ١٨٣٠ عند احتلال مدينة الجزائر، ولا يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ عند استسلام الأمير المشروط، ولكن في يوم ١٥ مايو ١٨٤٣ عند سقوط آخر عاصمة للبلاد، واستيلاء الفرنسيين للمرة الثانية على الخزينة العامة والأرشييف الوطني^(٥٦). وأمام خسارة بهذا الحجم لم يتردد يحي بوعزيز في تشبيه ما فعله جنود الدوق دومال بمكتبة الأمير بما فعله المغول بمكتبة بغداد سنة ١٢٥٨، وما فعله الإسبان بالمكتبات الإسلامية في الأندلس بعد سقوط آخر إمارة إسلامية بها وهي غرناطة، وما فعلته منظمة الجيش السري (O.A.S) بمكتبة جامعة الجزائر في جوان ١٩٦٢ بعدما أقدمت على إضرام النيران فيها.^(٥٧)

الهوامش:

(٢٦) محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج٢، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٦.

(٢٧) جورج الراعي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢٨) محمد بن عبد القادر الجزائري، مصدر سابق، ص ٢٨.

(٢٩) نابوليون الثالث (١٨٠٨-١٨٧٨): شغل منصب إمبراطور فرنسا في ديسمبر ١٨٥٢ تحت اسم نابوليون الثالث، تميزت سياسته في الجزائر لمحاولة التقرب من السكان وتبني القانون المشيخي (سيناتوسكونسيلت)، كما تبني سياسة توسعية في أوروبا، فخاض عدة حروب ضد النمسا وألمانيا، ولكنه انهزم في معركة سودان في سبتمبر ١٨٧٠، وسقط أسيرًا بين أيدي الألمان، فانهارت إمبراطوريته، وبعد إطلاق سراحه، استقر في إنجلترا حيث بقي فيها إلى غاية وفاته سنة ١٨٧٣. يُنظر

Petit Larousse, librairie Larousse, Paris, 1980, P1432 .

(٣٠) محمد بن عبد القادر الجزائري، مصدر سابق، ص ٦٦.

(٣١) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٧٨.

(34) Charles Henry Churchill, Op. Cit., P. 314.

(٣٥) محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣٦) محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣٧) المسجد الذي أمر بتشيعه الوليد بن عبد الملك في دمشق انطلاقًا من سنة ٧٠٥م، ويُعدّ رابع أشهر المساجد الإسلامية بعد حرمي مكة والمدينة والمسجد الأقصى، كما يُعدّ واحدًا من أهم المساجد الإسلامية، حيث حشد له الوليد ضنًا من الفرس والهنود، ومائة فنان يوناني بعثهم إمبراطور بيزنطة للمشاركة في تزيينه. دخله الصليبيون سنة ١٢٦٠م بعد احتلالهم لدمشق بتحالف مع المغول، ولكن تمكن المماليك بقيادة قطز وبيبرس من استرجاع المدينة وإعادة ترميم المسجد مما سمح باستعادته لمكاته العلمية والدينية، حيث كان ابن تيمية يقوم فيه بتدريس تفسير القرآن، وعند سيطرة العثمانيين على مدينة دمشق بعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق ١٥١٦م أدى به السلطان سليم الأول صلاة الجمعة، يُنظر: القاضي حمد بن أحمد كنعان، تاريخ الدولة الأموية: خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٧.

(38) Bruno Etienne, Abdelkader isthme des isthmes, Editon SEDIA, Alger 2010, 8.

(٣٩) محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤٠) محمد بن عبد القادر الجزائري، مصدر سابق، ص ١١٩.

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(٤٢) المرجع نفسه، ص ١٢٤.

(٤٣) صلاح أحمد، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٤٤) أدريان بيربروجير، مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (١٨٣٧-١٨٣٨)، ترجمة أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٦٩-٧٠.

(٤٥) أدريان بيربروجير، مصدر سابق، ص ١١٣.

(46) Bruno Etienne, Op. Cit., P. 118.

(٤٧) عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير، دار دحلب، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ١٠٤.

(٤٨) من مدن تركيا الهامة، تقع في وسط جنوب الأناضول، بلغت ذروة مجدها عندما كانت عاصمة لسلاجقة وذلك قبل الغزو المغولي لها، شكلت مركزًا سياسيًا واقتصاديًا هامًا في الدولة البيزنطية، ثم أصبحت عاصمة السلاجقة

(١) مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي،

ومحمد الصالح الجبون، ط٧، شركة دار الأمة، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٤٩.

(٢) صلاح أحمد، الأمير عبد القادر، المتصوف والمصلح، منشورات دار الأديب، وهران، ٢٠٠٧، ص ٢٥.

(٣) نفسه، ص ٢٦.

(٤) بوعزيز يحي، الأمير عبد القادر الجزائري رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٣، ص ١٤٠.

(٥) جورج الراعي، الدين والدولة في الجزائر، من الأمير عبد القادر ... إلى عبد القادر، دار القصة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٧٥.

(٦) محمد الطيبي، الجزائر عشية الغزو الإحتلالي، دراسة في الذهنيات والبنيات والمآلات، ط١، ابن التديم للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٢٣٤.

(٧) طيبي محمد، الرواية المعرفية والتدبير السياسي، قراءة في الإرهافات الجيوسياسية للفكر الأميري، ضمن كتاب تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، تأليف جماعي، ط١، دار القدس العربي، الجزائر، ٢٠٠٠، ص ٦١.

(٨) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٩) أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨-١٨٤٧)، ج٢، ط٣، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٧٠.

(١٠) أديب حرب، المرجع السابق، ص ٧٠.

(١١) جورج الراعي، المرجع السابق، ص ٧٥.

(١٢) صلاح أحمد، المرجع السابق، ص ٨٨.

(١٣) أديب حرب، المرجع السابق، ص ٧١.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٧١.

(١٥) رابح بونار، "نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر"، مجلة الأصالة، العدد ٢٣، جانفي، فيفري، ١٩٧٥، ص ٤٥.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(17) Charles Henry Churchill, la vie d'Abd El-Kader, Editions ANEP, Alger, 2009, P. 117.

(١٨) جورج الراعي، المرجع السابق، ص ٤٣.

(١٩) "استجواب مع إدريس الجزائري"، جريدة الحياة، عدد ٨-١٢-١٩٩١، ذكره جورج الراعي، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢٠) محمد العربي الزبيري، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع والمؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١٢٨.

(٢١) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٤١.

(٢٢) أحمد عبد الحليم عطية، الأمير عبد القادر الجزائري في مصر، ضمن كتاب تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص ٢١٥.

(٢٣) جورج الراعي، المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢٤) تعتبر بروسه رابع أكبر مدن تركيا تقع شمال غرب البلاد بين مدينتين استنبول وأنقرة، فتحها السلطان اوران غازي في ١٣٢٦م وأصبحت أول عاصمة للإمبراطورية العثمانية، تعرضت لتدمير بعد غزو المغول لها بقيادة

تيمور لنك عام ١٤٠٢م، وبعد استرجاعها من قبل العثمانيين نقلوا عاصمتهم منها إلى "أدرنة" ثم إلى "استنبول" سنة ١٤٥٣م، وبذلك

تراجعت أهميتها نسبيًا. المدينة غنية بالعديد من المعالم الحضارية والمعمارية والمباني الأثرية مثل: الجامع الكبير، جامع مراد الأول، والجامع الأخضر إلى جانب بعض الأضرحة ومدافن سلاطين آل عثمان وأسرههم.

(٢٥) مذكرات الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص ٢٩.

الأتراك في أواخر الدولة العباسية وفي العهد المملوكي، تشتهر بموقعها الإستراتيجي وآثارها التاريخية ومساجدها العريقة مثل: مسجد علاء الدين الذي شيد سنة (٦٣٥هـ / ١٢٣٧م)، وبها ضريح الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي المتوفى سنة ١٢٧٣م.

(49) Bruno Etienne, Op.cit., P 117.

(50) Ibid., P 118.

(51) Bruno Etienne, Op.cit., P ١٢٢.

(52) A.Benachenhou, l'état algérien en 1830, ses institutions sous Abdelkader, ENAG édition, Alger, 2009, P 79.

(٥٣) **الدوق دومال**، هو الإبن التاسع للملك لويس فيليب، من مواليد ١٦. ٠١. ١٨٢٢، لعب دورًا هامًا في الحياة السياسية والعسكرية في فرنسا، إذا كان يحتل رتبة جنرال في الجيش الفرنسي، وشغل منصب حاكم عام للجزائر في شهر سبتمبر ١٨٤٧، وحضر بهذه الصفة مراسيم استسلام الأمير المشروط في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧، لكن بعد ثورة ١٨٤٨ في فرنسا اضطر إلى العيش في المنفى بإنجلترا وذلك لمدة ٢٣ سنة، يُنظر.

Petit Larousse, Op.cit., P1044

(٥٤) أديب حرب، المرجع السابق، ص ٧١.

(55) Charles André Julien, histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), Presses universitaires de France, Paris, 1964, P 181.

(56) A. Benachenhou, Op. Cit., P 138.

(٥٧) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٤٢.

صورة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي في رحلة الوزير الإسحافي الحجازية

د. محمد البغياّل

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أستاذ متطوع التاريخ والحديث والمعاصر
جامعة عبد الملك السعدي - المملكة المغربية



ملخص

يشكل وصف المجتمع في جوانبه المتعددة؛ السلوكية والأخلاقية والثقافية والدينية، أحد أبرز المواضيع التي اعتنى الرحالة المغاربة بها وأولوها اهتمامًا كبيرًا في مشاهداتهم وأوصافهم، إلى حد أصبحت معه تلك النصوص الرحليّة أهم مصدر لدراسة المجتمعات الإنسانية، وإنتاج صور مختلفة عنها. ورحلة الوزير الإسحافي الحجازية التي اعتمدها في هذه الدراسة رصدت لنا صورًا متنوعة ومتباينة عن المجتمعات المغاربية والمشرقية التي زارها الرحالة وقضى مدة من الزمن بين طُهرانيها، وقد كان نصيب المجتمع المصري الأوفر حظًا على الإطلاق؛ نظرًا لطول المدة الزمنية التي قضاها الإسحافي بمصر مقارنة مع باقي المناطق الأخرى، ونظرًا للاختلافات والتباينات الكبيرة بين المجتمع المصري "الآخر" والمجتمع المغربي "الأنا". إن ما يميز الصورة التي أنتجها الإسحافي عن المجتمع المصري خلال القرن هو شموليتها لمختلف الجوانب الأخلاقية والسلوكية والدينية والصوفية والعلمية، كما أن طريقة تقديم تلك الصورة غلب عليها طابع الجراءة التي تفتقد إلى لباقة المجاملة وتصل في معظم الأحيان إلى التجريح والتفريح.

كلمات مفتاحية:

تشرّب القهوة، المحمل المصري، كسر النيل، أدب الرحلات

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ يوليو ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ١١ ديسمبر ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد البغياّل، "صورة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي في رحلة الوزير الإسحافي الحجازية"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٧١ - ٨٢.

مقدمة

العلماء والجلوس إلى حلقاتهم والأخذ عنهم وسؤالهم الإجازة، والتعريف بالمسالك والممالك، ووصف الطرق وظروفها، والمجتمعات وعاداتها بقصد الإفادة، وشرح المناسك بكيفية تطبيقية.

وقد تكون الرحلة تقريرًا مفصلاً لنشاط الراحل أو الوفد الذي ينتمي إليه كاتب الرحلة، كما هو الشأن بالنسبة لرحلة الإسحافي، الذي دَوَّنَهَا بعد الأَوْتَة من الحج بأمر من السلطان المولى عبد الله الذي أراد أن يخلد ذكرى حج والدته الأميرة خاتنة بنت بكار المغافري، فالرحلة كانت عبارة عن وفادة رسمية تضم أم السلطان ونجله الأمير سيدي محمد مع نخبة من العلماء والفقهاء يتصدرهم الوزير الإسحافي، وجاءت في ظرفية سياسية

تعتبر كتابة الرحلة تقليدًا عريقًا في التراث الأدبي المغربي، دأب عليه علماء المغرب وأدباؤه، من باب تخليد رحلاتهم وما ميزها من نشاط وحركية في المجال والثقافة والعلوم، ومن باب الإفادة وتقديم المعلومات المختلفة عن المناطق والبلدان والمجتمعات التي زاروها وحلوا بها، أو تلك التي شكلت خط سير رحلتهم نحو الوجهة المقصودة. ومن هذا المنطلق فقد تعددت دوافع وأهداف كتابة الرحلة الحجازية خلال القرن الثامن عشر، وفي مقدمتها الشوق إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وهو شوق "يؤججه عنصر البعد عن هذه البقاع الطاهرة، وانزواء المغرب في الجناح الغربي من العالم الإسلامي البعيد عنها"^(١) إلى جانب لقاء

المؤثرات السوسيو- ثقافية والسياسية التي كان لها كبير الأثر في تشكيل شخصية الرجل وبلورة مواقفه واتجاهاته الفكرية والسياسية. فالمصادر تختلف حتى في ضبط اسمه الكامل وتحديد، فالقادري في نشر المثاني يُعزِّفه بعيد القادر الجليلي السَّحَاق نسبة إلى آيت إسحاق، ويذكر أنه يُكَنَّى بأبي محمد^(٦)، والاسم نفسه والكنية أثبتتها صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى عند حديثه عن رحلة المُتَرْجَم مع السيدة خاتمة^(٧)، بينما يُسمِّي ابن زيدان في المنزع اللطيف بالشرقي الإسحَاقِي وَيُكَنِّيهِ بأبي الفضل، ويعرفه الجريري في شرح الشمقمقية بالشرقي الإسحَاقِي^(٨).

وإذا رجعنا إلى رحلته التي تُعَدُّ الأثر الفكري الفريد للإسحَاقِي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإننا نقف على اسمه حيث ذكر بأبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحَاقِي^(٩)، بينما تمت الإشارة إليه في وثيقة التحبيس المرفقة بنص الرحلة، بسيدي الشرقي الإسحَاقِي^(١٠) ويمكن الوقوف على اسمه أيضًا في الإجازات العلمية التي حصل عليها من قبل علماء المشرق، وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن أحمد عقيلة الذي أجازه بالحديث المسلسل وبالحدث المسلسل بالمصافحة، وفي كلتا الإجازتين يسميه بمحمد الشرقي الإسحَاقِي^(١١)، أما الشيخ محمد الطبري إمام المقام الخليي، فقد سماه في إجازته له بمحمد الشرقي بن محمد الإسحَاقِي المغربي المالكي^(١٢)، وسماه الشيخ أبو الفضل محمد تاج الدين بن عبد المحسن الحنفي في إجازته له بالحديث المسلسل بالأولية بمحمد الشرقي الإسحَاقِي المغربي المالكي^(١٣).

رغم الخلاف حول اسم هذا الرحالة المغربي وما اكتنفه من تأويل وتفسير، فإن هناك إجماع على تسميته بالشرقي الإسحَاقِي داخل المغرب وخارجه، كما أن الاسم الذي جاء مثبتا في الإجازات العلمية التي حصل عليها من المشرق، وهو محمد الشرقي الإسحَاقِي، أو محمد الشرقي بن محمد الإسحَاقِي، هو على الأرجح الاسم الكامل لرحالته، وما سوى ذلك فلا يعدو عن كونه ألقاب وكنى لُقِّبَ بها، ولعل ما يدعم هذا الافتراض هو أن الشخص الذي يطلب الإجازة من عالم أو شيخ، فمن البديهي أن يعرفه باسمه، ومما لا شك فيه أن الإسحَاقِي هو الذي عرف باسمه لدى مُجيزيه من علماء المشرق.

إذا كانت المعلومات المتوفرة عن المراحل التي قطعها الإسحَاقِي في مسار الدراسة والتكوين شحيحة جدًا، فماذا بشأن مساره المهني ومشوار خدمته في سلك المخزن؟

تشير المصادر التاريخية -باقتضاب شديد- إلى خدمة الإسحَاقِي في سلك المخزن، فقد تولى خطة الكتابة والوزارة في عهدي كل من السلطانين المولى إسماعيل وابنه المولى عبد الله، وهي من الخطط المخزنية التي اختص بها العلماء، إذ كان تكوين الكتاب يجمع بين العلوم الشرعية كالفقه والتفسير والحديث، والعلوم اللغوية كالنحو والبيان، والعلوم الإنسانية

حرة بالنسبة للمولى عبد الله الذي كان يسعى إلى ترسيخ قدمه في الحكم وإثبات شرعيته فيه، ولعل ذلك ما حمل أحد الباحثين على اعتبار أن رحلة الإسحَاقِي تتجاوز الأهداف الدينية المتمثلة في أداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، إلى تحقيق أهداف سياسية واستراتيجية تتعلق بالبحث عن الشرعية من قبل علماء وحكام بلدان المغرب والشرق العربي الإسلامي في مواجهة خصومه من إخوته المتنافسين معه على العرش^(١٤).

رغم أن الإسحَاقِي كان مكلفًا بتسجيل وتتبع نشاط الأميرة خاتمة والدة السلطان المولى عبد الله خلال رحلتها هاته، فإن ذلك لم يمنعه من تقديم صور متنوعة ومتباينة عن المجتمعات التي مرَّ بها الركب أو نزل، حيث نجده يمزج بين أسلوبي الذم والمدح عندما يتعلق الأمر بالجوانب الأخلاقية والسلوكية، ويعبر عن مواقفه بجرأة كبيرة من بعض العادات والتقاليد الاجتماعية ببعض المناطق التي زارها، كما رصد لنا الجوانب الدينية والثقافية والتعليمية بتلك البلدان. والملاحظ أن؛ الإسحَاقِي ركز كثيرًا على المجتمع المصري في وصفه لمظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار العربية، ولعل ذلك راجع إلى الاختلافات الجوهرية بين هذا المجتمع من جهة والمجتمع المغربي من جهة ثانية، إن على مستوى "درجة الحفاظية" والتمسك بمبادئ الدين وقيمه الأخلاقية، أو على مستوى العادات والتقاليد المختلفة، فوصفه لذلك المجتمع يعكس نظرة الفقيه والعالم المغربي المحافظ الذي لا يقبل التنازل عن القيم الأخلاقية قيد أنملة، ويستنكر البدع والاعتقادات الباطلة والفسادة وينتقدها بشدة.

ولكن قبل الشروع في تحليل عناصر الصورة التي أنتجها الإسحَاقِي عن المجتمع المصري، يجدر بنا - كخطوة منهجية أولى- التعريف بصاحب الرحلة والوقوف على أهم المؤثرات السوسيو- ثقافية والسياسية التي أسهمت في تكوين شخصيته وبالتالي انعكست على نظرته للأشياء وللآخر المغاير، باعتبار "الصورة - في إحدى أبعادها - إعادة إنتاج ذهنية عبر المخيلة لتجربة ذاتية"^(١٥)، فالوعي بالآخر، أو بالأحرى تصويره، لا يتم إلا في ظل أفكار وأنساق إيديولوجية، مصدرها التباين بين الأوطان والثقافة من جهة، وسطوة الشرط الموضوعي من جهة ثانية^(١٦).

أولاً: ترجمة الإسحَاقِي

ارتبطت ترجمة الإسحَاقِي -ارتباطًا عضويًا- بالرحلة التي دَوَّنَهَا بعد عودته من الحجاز، والتي كانت بمثابة تقرير رسمي قدمه للسلطان المولى عبد الله بن إسماعيل عن رحلة والدته الأميرة خاتمة بنت بكار المغافري وحفيده الأمير سيدي محمد بن عبد الله. فلولا تلك الرحلة -التي تُعَدُّ الأثر الفكري الفريد للإسحَاقِي- لظلت شخصية هذا الرجل مجهولة بالنسبة إلينا، فحتى المصادر والدراسات التاريخية التي ترجمت له، لم تقدم ما يكفي من المعلومات والمعطيات التي تسعف الباحثين في الوقوف على

الحنفي مفتي الحنفية بالحرم المكي والقائم بوظيفة الكتب الستة الحديثية، الإجازة بالحديث المسلسل بالأولية، وهو حديث "الراحمون يرحمهم الرحمان تبارك وتعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء"^(١٩)، فأجازه بذلك وبرواية ما يجوز عنه من الكتب الستة.

يستخلص من هذه الإجازات العلمية أيضًا، أن الإسحاق كان منفتحًا على أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى، ولم يكن متعصبًا لمذهبه المالكي، فطلب العلم والمعرفة هما ضالته أن وجدها أخذ بها، كما يستشف منها أن الإسحاق -من خلال سؤاله العلماء بالمشرق، وتطلعه للأخذ عنهم والتفقه بهم- مثالًا لطالب العلم المتواضع، وهذه صفات لا يتحلى بها إلا مَنْ كانت له قدم راسخة في العلم.

كما تألق الإسحاق في ميدان السيرة النبوية وسطع نجمه، ويتجلى ذلك في اعتماده على كتب السير "كسيرة ابن إسحاق"، و"الروض الأنف" للشَّهيلي، الذي كان على اطلاع واسع بمضمونه، حيث نجده يروي منه بشكل ارتجالي كما صرح بذلك عند إيراده لحديث إكرام الرسول (ﷺ) لصديقة زوجته خديجة (رضي الله عنها)، والتي أثارت غيرة زوجته عائشة (رضي الله عنها)، فختتم كلامه قائلًا: "انتهى منه بالمعنى وبعبه باللفظ، إذ لم يحضرنى الكتاب الآن"^(٢٠) وعند ذكره لقصة الحجر الأسود وبناء الكعبة، اعتمد على سيرة ابن إسحاق ومشارك الأنوار للقاضي عياض.^(٢١) إلى جانب الفقه والحديث كان الإسحاق مطلعًا على علم الكلام ومُلمًا به، حيث كان يحفظ كتاب "شرح ابن السعد على العقائد النسفية" لسعد الدين التفتازاني كما يتضح ذلك من كلامه "ورغبت الشيخ علي الحنفي المذكور أن أقرأ عليه شرح السعد على العقائد النسفية، لما سمعت أنه قرأها عام أول قبل وصولنا"^(٢٢).

ليس بغريب على كاتب محترف من طينة الإسحاق، المشاركة التامة في مختلف الفنون الأدبية من لغة ونحو وشعر ونثر، والتسلط عليها بفهم ثاقب وعقل راجح منفتح على كل المعارف، ومتجول في حدائقها الغناء تجول العالم الموسوعي المتبحر الآخذ بناصية الأدب، فقد كان حريصًا على لقاء الأدباء ومجالستهم وتطأرح شعره معهم، وممن لقيه الإسحاق في رحلته، الأديب التازي عبد القادر بن محمد المصيني الذي أنشده قصيدة من نظمه في رثاء ولد له^(٢٣)، وفي طرابلس التقى بعدد من الأدباء المغاربة من أمثال الفقيه السيد محمد التونسي والأديب السيد محمد بن مكيل الطرابلسي والفقيه السيد محمد بوقلال المغربي وأخيه السيد أحمد، والأديب السيد محمد الشريف الفرجاني الذي أنشده أبياتًا شعرية في مدحه.^(٢٤) وفي مصر اجتمع الإسحاق بعدد من الأدباء والشعراء وتطارح معهم الشعر "وتذاكرنا الكتابة التي إذا أخطأها الخط صارت كآبة"^(٢٥).

كالتاريخ والسير، بالإضافة إلى الأدب وخاصة الشعر. كما تتحدث المصادر عن مشاركة الإسحاق في الحملة التأديبية التي قادها السلطان مولاي إسماعيل لإخماد تمرد جبال فازار، وذلك سنة (١١٠٤ هـ / ١٦٩٣ م)،^(١٣) ويذكر التازي أن الإسحاق كان من ضمن الشهود على عقد الموالاة الذي تم بين الأميرين الأخوين أحمد وزيدان، والذي أمره به السلطان مولاي إسماعيل في منتصف رمضان من سنة (١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م).^(١٤) إذا كان المؤرخون وأصحاب التراجم لم يتجاوزوا في تعريفهم بالإسحاق بضعة أسطر، فكيف يمكن استثمار نص رحلته في تسليط الضوء على جوانب متنوعة من شخصية هذا الرجل؟

يكشف لنا نص الرحلة النقاب عن مؤهلات الإسحاق وقدراته في عدة مجالات علمية كالفقه والحديث والسيرة النبوية وعلوم اللغة والتاريخ والأنساب، فضلًا عن ميوله الأدبي الذي يبدو جليًا من خلال الأسلوب الذي صاغ به رحلته، ومن خلال اختياراته الشعرية التي تعبر عن ذوق رفيع وإحساس مرهف. كما يُسعدنا نص الرحلة في إبراز البعد الصوفي في شخصية الإسحاق، من خلال حرصه على زيارة قبور ومشاهد الأولياء والصالحين بنية التبرك، ومن خلال مواقفه من بعض الكرامات الصوفية الواردة في الرحلة. ففي مجال الفقه يزرع نص الرحلة بالمواقف والنقاشات والجدل الفقهي؛ حيث استعرض الإسحاق مجموعة من المسائل الفقهية الخلافية، وأبرز مختلف مواقف علماء المذهب المالكي بشأنها، ولعل من أهم تلك المسائل: مسألة التبغّي إذا تاب من بَغَائِها، ومسألة الصلاة في العذرة، ومسألة شراء وكراء دور مكة المكرمة، والتي أصدر فيها فتوى جامعة مانعة بطلب من الأميرة خاتنة.

إلى جانب براعته في علم الفقه، شكل علم الحديث وروايته جزءً كبيرًا من اهتمام الإسحاق وانشغاله العلمي؛ فهو يصرح في رحلته بأنه كان مُكَيَّبًا على قراءة صحيح البخاري -بمعية عدد من الطلبة والفقهاء المغاربة- على طول طريق الرحلة، حيث كان يتولى الإسحاق سرده عليهم،^(١٥) وقد دفعه اعتناؤه بهذا الكتاب -الذي يُعدّ أصح كتب الحديث- إلى استعارة جزء من شرح القسطلاني على البخاري المسمى "إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري" من السيد محمد بن منصور الذي لقيه بتوزر، ثم رده إليه عندما حل بطرابلس.^(١٦)

كما يظهر اهتمام الإسحاق بعلم الحديث من خلال نوعية الإجازات العلمية التي حصل عليها في المشرق، فهي كلها في رواية الحديث، باستثناء إجازة الشيخ محمد الطبري التي تُعدّ إجازة عامة، والملاحظ أن؛ الإسحاق هو مَنْ كان يسأل مُجيزه الإجازة؛ فقد سأل الشيخ محمد بن أحمد عقيلة الإجازة بالحديث المسلسل "بأنّي أحبك فقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"^(١٧)، ثم سألته الإجازة بالحديث المسلسل بالمصافحة^(١٨)، كما سأل الشيخ أبي الفضل محمد بن تاج الدين

وفي مكة المكرمة قصد الإسحاقى منزل الفقيه الأديب الشيخ محمد بن أحمد عقيلة المكي متمثلاً قول بعضهم: [الطويل]

يَبَايَكَ يَا مَوْلَى الْكِتَابَةِ كَاتِبٌ
أَتَاكَ بِقَلْبٍ مِنْ أَسَى الْبَيْنِ مَفْجُوعٌ
وَحَاجَتُهُ تَقْبِيلُ يُمْنَاكَ إِنَّهَا
تُوَمِّنُ مِنْ خَوْفٍ وَتُسَمِّنُ مِنْ جُوعٍ

فما كان من الفقيه المكي إلا أن ارتاح لهذا الشعر الذي يعبر عن تواضع الأديب العالم، وفرح به وهشَّ وبشَّ ورشَّ مُرَّنَ إكرامه وطشَّ، فأطلع الإسحاقى على جملة من مؤلفاته ومصنفاته الكثيرة.^(٣٦)

وفي الحرم الشريف التقى الإسحاقى بالأديب الوجيه السيد عبد الله بن يحيى أفندي بن جعفر الواعظ، الذي أنشده قصيدة مطولة في مدح السلطان المولى عبد الله و استودعه إياها، فأثبته الإسحاقى كاملة في رحلته خشية الضياع.^(٣٧) كما إلتقى هناك أديب العلماء وعالم الأدباء -على حد تعبيره- الشيخ زين العابدين بن سعيد المنوفي، فدعاه لحضور مأدبة طعام أقامها على شرفه وشرف أعيان الركب المغربي، وكانت المناسبة مواتية لإطلاق العنان لملكة تقريض الشعر.

وفي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، زار الإسحاقى الأديب الشيخ محمد بن سعيد بن عبد الكريم الأنصاري الخزرجي المدني بداره، وهي دار أبي أيوب الأنصاري، فأنشده قصيدة من نظمته في مدح سيدنا عثمان (رضي الله عنه).^(٣٨) كما التقى الإسحاقى بالفقيه الأديب السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة سابقاً والخطيب والمدرس بحرم خير الأنام، والذي أنشده قصيدة من نظمته في مدحه، هذه بعض أبياتها:^(٣٩) [الخفيف]

يَا إِمَامًا عَلَا سِيَمَاتٍ وَسِيَمَهُ
وَهَمَامًا عَلَا صِفَاتٍ وَشِيَمَهُ
وَأَخَا لِّلْعَلَى وَتَاجَ بَهَا
وَكَمَالِ حَوَى الطَّبَاعِ السَّليْمَهُ
هُوَ دُخْرِي السَّرِّ قِيَّ دَامَ سَنَاهُ
شَكَرَ اللَّهُ فَضْلَهُ وَعُلُومَهُ

وفي مجال التاريخ، اقتبس الإسحاقى معلوماته التاريخية عن البلدان والمناطق التي تحدث عنها من مصادر تنوعت بين كتب التاريخ وكتب الرحلات، فبالنسبة للنوع الأول نجده يعتمد عند حديثه عن تاريخ تونس كتاب "تاريخ إفريقية والمغرب" للريفي القيرواني، وعن تاريخ مصر على كتاب "فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم، و"فضائل مصر المحروسة" لابن الكندي، و"حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" للسيوطي، و"فضائل مصر وأخبارها وخوصاها" لابن زولاقي، و"نشق الأزهار

في عجائب الأقطار" لابن إياس الحنفي. وعند حديثه عن تاريخ مكة والبيت الحرام نجده يعتمد كتاب أبي الوليد الأزرقى المسمى "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار"، وبالنسبة لتاريخ المدينة اعتمد كتاب "خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى" للسهمودي، وكتاب "تاريخ المدينة المنورة" لابن شبة.

أما بالنسبة للنوع الثاني -أي كتب الرحلات- نجده يعتمد بشكل كبير عند تعرضه لتاريخ تونس وليبيا على "رحلة التجاني" لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، وقد لاحظ الدكتور عبد الهادي التازي أن الإسحاقى متتبع غير متحر فيما ينقل، فقد نقل عن التجاني قوله "وأهل طرابلس يتحدثون أن النصرى ملكوا بلدهم مرة أخرى وذلك ليس بصحيح، وإنما أخذها النصرى من حين الفتح الإسلامى هذه الأخذة فحسب"^(٤٠)، وهو يخالف ما اشتهر عند أهل طرابلس من أن بلادهم أخذت مرة ثانية، وإذا كان هذا التصحيح من لدن التجاني الذي زار ليبيا ما بين سنتي (٧٠٦ هـ)، و(٧٠٨ هـ) صحيحاً، فإنه بالنسبة للإسحاقى غير صحيح، لأن طرابلس أخذت من طرف صاحب جنوة سنة (٩١٦ هـ / ١٥١٠ م)، ومكثت تحت يد النصرى -حسب ابن غلبون- (٤٣ سنة) أو (٤٥ عاماً)،^(٤١) وجانب الإسحاقى الصواب مرة ثانية عند ذكره أن افتتاح طرابلس على يد عمرو بن العاص كان سنة ٢٢ هـ، والصواب أن حصار المدينة هو الذي كان في تلك السنة، أما الفتح فقد كان سنة (٢٣ هـ / ٦٤٣ م).^(٤٢) بالإضافة إلى رحلة التجاني اعتمد الإسحاقى على رحلات أخرى كرحلة العبدري، ورحلة ابن جبير، ورحلة البلوي المسماة "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، و"الرحلة العياشية" لأبي سالم العياشي.

يبدو أن الإسحاقى كان حريصاً على توثيق الأخبار والمعلومات التي ساقها عن الأقوام والبلدان التي حل بها، من باب الأمانة العلمية، حتى وإن خانت دقة التحري والتمحيص في بعض الأحيان، إلا أن ذلك لا يعطينا الحق في الحكم عليه بأنه غير ضليع في مجال التاريخ كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبد الهادي التازي.^(٤٣)

١/١ - شيوخه:

يعتبر الدكتور عبد الهادي التازي أن الإسحاقى من جملة المتخرجين من جامع القرويين^(٤٤)، إلا أنه لم يذكر أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم في مدينة فاس، وبالعودة إلى ثانيا الرحلة -التي تظل المصدر الرئيس في التعريف بالإسحاقى والترجمة له- نجده يصرح بأن العلامة أبو علي الحسن اليوسي شيوخه^(٤٥)، وفي سياق حديثه عن تراجع العلم بالبلاد المشرقية وفي مصر على وجه الخصوص يشير الإسحاقى إلى شيخه اليوسي ولكن هذه المرة بواسطة بعض أصحابه قائلًا: "وأخبرني بعض أصحابنا أنه سمع شيخنا أبا علي الحسن اليوسي، بعدما رجع من حجته، يقول: ما بقي في البلاد المشرقية من تشد إليه الرحال في طلب العلم، وما راء كمن سمع".^(٤٦)

المغرب ليلة الاثنين ١٢ شعبان سنة ١١٦٣ هـ^(٤١)، إلا أنني أستبعد هذا التاريخ لسبب بسيط هو أن تاريخ تحبیس السلطان المولى عبد الله لرحلة الإسحاقی كان سنة ١١٥٦ هـ أي بعد وفاة والدته الأميرة خناثة بسنة واحدة، وتشير تلك الوثيقة إلى أن المجلد الذي تم تحبیسه على جامع القرويين كان مكتوبًا على أول ورقة منه "رحلة العالم الأجل الكاتب المجل سیدی الشرقی الإسحاقی تغمده الله برحمته"^(٤٢) مما يعني أن الإسحاقی وقتئذ كان قد خلف الدنيا وراء ظهره وانتقل إلى الدار الآخرة.

ثانيًا: صورة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي

دخل الركب المغربي إلى مصر القاهرة يوم الخميس ١٩ شوال سنة ١١٤٣ هـ / ٢٦ أبريل ١٧٣١م، ودامت مدة إقامته بها أسبوعًا واحدًا فقط، لكن بعد الانتهاء من قضاء مناسك الحج وزيارة قبر الرسول (ﷺ)، نزل الركب المغربي - في طريق عودته - على مصر مرة أخرى، وقضى بها ما ينيف عن شهر من الزمن، رغبة في زيارة ما يتوجب زيارته من المشاهد العظيمة بها، وقد كانت هذه المدة كافية للإسحاقی حتى يقف على أحوال المجتمع المصري عن كثب، وينقل إلينا الصورة التي أنتجها حوله.

٢/١- انتقاد بعض المظاهر الأخلاقية والسلوكية:

كان نصيب المجتمع المصري من انتقادات الإسحاقی الأوفر على الإطلاق، فقد ركز على رصد صور ومشاهد مختلفة عن الأمراض الاجتماعية المنتشرة بهذا المجتمع معبرًا عن استنكاره وشجبه لها بطريقة صريحة مباشرة، أو بطريقة غير مباشرة في قالب سخري هزلي. واعتمد في وصفه لأخلاق أهل مصر على ما ذكره ابن إياس الحنفي في كتابه "نشق الأزهار في عجائب الأقطار"، حيث قال: "من أخلاق أهل مصر اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات، والاشتغال بالمتنزهات، والتصديق بالمُحالات، وعندهم الملق والبشاشات، وفيهم اللطافة وقلة الغيرة، وعندهم الجبن والخوف، والقنوط، وقلة الصبر على الشدائد، وعندهم المكر والحيل والخداع، والتحاسد، والكذب، وذم الناس، والسعي إلى السلطان، ومنهم من خصه الله بالفضل، ويقال: أن الأسود إذا دخلت مصر ذلت ولم تتناسل بها، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من سائر البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في بقية البلدان، ودخل أبو العتاهية مصر فلما رجع قيل له: كيف رأيت مصر؟ فقال: ثلثها كلاب، ومثلها دواب، ومثلها تراب، فقليل له: وأين الناس؟ فقال: في الثلث الأول"^(٤٣) وكان الإسحاقی لم يكتف بهذا الوصف الشنيع الذي كله تجريح وتقريع، فأضاف إليه قائلًا: "وهي لهذا العهد، أمراؤها مماليك وعلماؤها صعاليك، دخلناها فقاسينا بها تعب الغبار وركوب الحمار... والحرص على الدنيا والتعلق عليها ما فيه عيب عندهم ولا يحتشم منه صغير ولا كبير، وتجد الرجل ذا همة ولباس وهو يتملق بين يديك ويخدمك إذا رجا أن ينال منك

والغالب أن هذا التلقي كان في السنوات الأولى من دراسة الإسحاقی، فلقد نزع الحسن اليوسي عن الزاوية الدلالية سنة ١٠٧٩ هـ بعد قضاء المولى الرشيد عليها، وحينئذ توجه إلى فاس، ولكنه لقي عنتا من بعض طلبتها، الشيء الذي دفعه إلى مغادرتها والتوجه إلى البادية، حيث أصبحت مجالسه قبلة للطلاب من مختلف القبائل. وسواء كان تلقي الإسحاقی أيام إقامة اليوسي بفاس أو بعدها فإن ذلك لا يتصور إلا أيام الشباب، لأن اليوسي توفي سنة ١١٠٢ هـ والرحلة التي قام بها الإسحاقی كانت سنة ١١٤٣ هـ، فبين الرحلة ووفاة اليوسي إحدى وأربعون سنة، وأيام التلقي -يقول الأستاذ الدباغ- إنما كانت بين سنتي ١٠٧٩ هـ و ١١٠٢ هـ^(٤٤) وأشار الإسحاقی أيضًا إلى الفقيه الأديب السيد محمد بن زاكور الفاسي المتوفى سنة ١١٢٠ هـ عندما اقتبس منه بيتين شعريين أنشدهما في مصر عند لقائه لبعض أدبائها، مشيرًا إلى أن ابن زاكور صاحبه^(٤٥)، ومعلوم أن هذا الأخير تلقى عن اليوسي أيضًا.

إذا كانت المعلومات عن شيوخ الإسحاقی في المغرب قليلة وشحيحة، فعلى النقيض من ذلك نجده يذكر أسماء العلماء والفقهاء الذين أخذ عنهم وتدرّج بهم في المشرق (في مكة) وإجازاتهم له، وهم وفق الترتيب الذي ذكروا به في الرحلة كالآتي:

- الشيخ سيدي عمر البار الباعلوي الحسيني، لقبه الإسحاقی وأخذ عنه بن أخته الفقيه العربي بن محمد المكناسي بعض الأوراد على طريقة تلقين الذكر.
- الشيخ سيدي محمد بن أحمد عقيلة المكي المتوفى سنة ١١٥٠ هـ، تلقى منه الإسحاقی الذكر ولبس الخرقة على سنن الطريقة القادرية الجيلية أو الجيلانية، وأجازه بالحديث المسلسل والحديث المسلسل بالمصافحة.
- الشيخ محمد الطبري المتوفى سنة ١١٧٣ هـ، أجازه بإجازة عامة.
- الشيخ أبو الفضل تاج الدين الحنفي المتوفى سنة ١١٤٩ هـ، أجازه بالحديث المسلسل بالأولية.
- الفقيه عبد الله بن يحيى أفندي بن جعفر الواعظ.
- الشيخ زين العابدين بن سعيد المنوفي المتوفى سنة ١١٥١ هـ.
- الشيخ تاج الدين بن عارف المنوفي.
- الشيخ عبد الله السكندري الضير.

٢/١- وفاته:

اختلفت أقوال المؤرخين حول تحديد تاريخ وفاة الإسحاقی؛ فالقادي وابن سودة -في ترجمتهما للإسحاقی- لا يقدمان تاريخًا مضبوطًا لوفاته حيث يرجحان أن توفي في المغرب أي بعد عودته من الحج، بعد سنة ١١٥٠ هـ^(٤٦)، وهو التاريخ الذي تنبأه جل الباحثين الذين خصوا الإسحاقی ورحلته بالدراسة^(٤٧)، وبالمقابل نجد ابن زيدان يقدم لنا تاريخًا دقيقًا لوفاته ذاكرًا أنه توفي قرب

فلسًا واحدًا... والغش عندهم خُلُقٌ جُبِلوا عليه، يغشون كل شيء، ولهم عليه قدرة وضروب من الحيل، وبلغ من غشهم أنهم يغشون الحليب في ضروع أمهاتهم".^(٤٤)

يبدو من خلال هذا الوصف تحامل الإسحاقي على أهل مصر وسخطه الكبير عليهم، ولعل ذلك يجد تفسيره فيما وقع له معهم، حيث يذكر أنهم حين نزلوا في القاهرة، اكتروا دارا قرب جامع الأزهر من فقهاء يُدَرِّسون بالجامع المذكور يقال لهم أولاد شاهين، وحين عزموا على السفر إلى الحجاز أرادوا التخفيف من حوائجهم حتى يرجعوا، فأودعوها إياهم، وكتبوا عقدا يثبت نوع وعدد الأشياء المودعة بالتفصيل، ودفعوا لهم ثمن علف البهائم وأجرة من يقوم بها لمدة مئة يوم، فماذا حدث في وقت مغيبهم عن مصر؟ يجيب الإسحاقي بمرارة كبيرة: "فعمدوا إلى حوائجنا فلبسوها حاجة حاجة، حوائج النساء لبسها النساء وحوائج الرجال لبسها أولئك الملاعين حتى أحالوها عن هيئتها وأخلقوا جدتها وبهجتها، وعمدوا إلى البهائم فسافروا عليها إلى سيدي أحمد البدوي نفع الله به غيرهم، ولما رجعوا من ذلك السفر استعملوها في خدمة التراب من غير برادع حتى دبروها وسلخوا ظهورها"^(٤٥)، وعندما رجع الركب المغربي إلى مصر، توجه الإسحاقي وأصحابه إلى دار أولاد شاهين حيث الموضوع الذي اكتروه "وجدناه اتخذوه مراحا للغنم ومأوى لها، فأغضينا الجفون على القذا خوفاً منا إذا اكتربنا من عند غيرهم أن ينكرونا فيما أودعنا عندهم، ولا ينفع معهم لا عقد ولا زمام ... فوجدنا البهائم في سياق الموت، أما ثنتان فصاعتا، وأما البواقي فكنا نعالجها مدة إقامتنا بمصر نحو من شهر، فحصل بها بعض الانتفاع"^(٤٦)، فماذا كان رد فعل الإسحاقي وأصحابه؟ "وكنا أردنا الكلام معهم في ذلك عند حكام البلد، فقيل إن ذلك لا يفيد شيئاً، فسكتنا وفوضنا الأمر إلى الله، فهذا فعل الفقهاء المدرسين من أهل هذه القرية"^(٤٧).

إن هذه الواقعة لتعدّ سبباً كافياً ليسلط المرء جم غضبه وحنقه على أهل ذلك البلد الذين ما تركوا خسيصة ولا قبيحة من الصفات إلا واتصفوا بها كما يتبين ذلك من خلال وصف الإسحاقي، والغريب في الأمر أن المصريين يخصون بهذه المعاملة السيئة المغاربة خاصة، فهذا أحد المصريين قتل رجلاً من المغاربة، فألقي القبض عليه، وما لبث أن دفع الدية للأتراك حتى أطلقوا سراحه "وبرحوا على المغاربة لا يقعد أحد منهم في السوق، وسلطوا عليهم جلاوزتهم حتى شغلوهم في أنفسهم عن الكلام على المغربي، فطل دمه وذهب ضللاً، وهكذا وليقس ما لم يقل"^(٤٨).

ومن عجيب طمعهم وتملقهم استترزاقهم بالعلم، يذكر الإسحاقي توافدهم عليه بعدما سمعوا أنه من جملة كتاب السلطة في المغرب، منتحلين صفة العلم، حيث دخل عليهم ذات يوم شيخ منهم وسلم وهش وبش من تلقاء نفسه، ثم أخذ

في الدعاء لهم "ثم أخرج قصيدة امتدحنا بها هي إلى الهجو أقرب"^(٤٩)، ومن أعجب غرائب هذا الشيخ أن حمارة الذي جاء عليه يركبه مخترف للصوصية، ذلك أنه لما رأى بردة صغيرة وسط الحوش "قبض عليها بأسنانه وقصد باب الدار خارجاً بها، فخرج الشيخ وراءه يجري حافيا فأدركه قُرْب من الخروج إلى شارع الطريق، فردّه ورد البردعة، فأغربنا في الضحك، وما عرفنا من أيهما نعجب، من الشيخ أم من حمارة! والناس يقولون: قلب الجواد على قلب مولاه"^(٥٠)، ولعل هذا الفعل الذي ارتكبه الحمار إنما يدل على سوء معاملته من قبل صاحبه وعدم رفقه به، وهو سلوك سجله الإسحاقي على أهل مصر قائلاً: "ولا تجد أقل شفقة ورحمة للبهائم والجمال من أهل هذه البلدة، وقد رأينا من جَمَّالَتِهِمْ في طريق الحجاز في هذا المعنى ما قضينا منه العجب، ترى الرجل منهم يحمل على الجمل حتى ما يظهر منه إلا عنقه، ويحمل عليه وهو بارك على الأرض ثم يقيمه ويطلع على ذروته ويبنى على ظهره ما شاء من المتاع الذي يحمله، ولا تحقه فيه رافة ولا شفقة"^(٥١)، فالرفق بالحيوان والاعتناء به أمر لا محل له من الإعراب بأرض مصر، وقد سبقت الإشارة إلى كيفية تعامل أولاد شاهين مع بهائم الإسحاقي وأصحابه.

ومما لاحظته الإسحاقي في مصر واستنكره بشدة؛ انتشار دور الفساد البغاء بها وارتياها من طرف جميع فئات المجتمع "ومن القبايح المشهورة بمصر والعرر الفاضحة، ديار الفساد التي تمالأ على منكرها الكبير منهم والصغير والباشا والكيخية والوزير، سبة في الإسلام وأي سبة، ما يرضى بها ضب الكلا"^(٥٢)، ولعل ذلك ما جعل الإسحاقي يزيك ما قاله العبدري في وصف أهل مصر "وحسبها شراً أنها جرين لثالة العباد، ومستقر لمن يسعى في الأرض بالفساد، من أصناف أهل الشقاق والنفاق والعناد والإلحاد، استولى الحسد على قلوبهم واستتر الغش في جيوبهم، فنار الحسد مضمرة في الجوانح، وسم الغش ممزوج في عسل النصائح"^(٥٣)، حيث قال: "نقلته برمته تصديقاً لنهجته في وصف أهل المذكور، إذ رأينا بها أكثر من ما ذكره وأقبح مما سطره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل"^(٥٤).

هكذا تبدو إذن صورة المجتمع المصري كما وصفها الإسحاقي؛ مجتمع حريص على الدنيا ومتاعها، يقترب في سبيل طلبها كل مُحَرِّم من غش وكذب ونفاق وأكل أموال الناس بالباطل وتملق للحكام وغير ذلك، كما أنهم عُرِفُوا بِبُغْض المغاربة على وجه الخصوص والحقد عليهم واستحلال أموالهم "رأيناه من غش أهل هذه المدينة وبغضهم للمغاربة واستحلالهم أموالهم"^(٥٥)، ولكن يبقى السؤال مطروحاً: إلى أي حد تعكس هذه الصورة حقيقة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر؟ أم أن ما وقع للإسحاقي مع أولاد شاهين هو الذي جعل الوجه القائم من الصورة يبدو مهيمناً على الجوانب الإيجابية منها؟

حَصَّ الإسحاقى هذه الفئة الاجتماعية -التي تشكل سواد المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر- بالوصف والتعريف بأوضاعها، حيث لاحظ من سذاجتهم وجهلهم وضعف تدينهم ما يقضى منه العجب، فقد حكى أحد المغاربة المقيمين بالبلد للإسحاقى عن فلاحى مصر من الأخبار ما يثير الاستغراب، وتأكيداً لمقولته سأل أحدهم أمامه قائلاً: "أنت فلاح أو مسلم؟ فقال: فلاح، وذهب لحاله، ثم بعد ذلك جاء فلاح آخر وقدامه رجل من عرب البداوة يقدمه، فنادى المغربي الفلاح حتى التفت إليه فقال له: أنت فلاح أو مسلم؟ فقال: فلاح، ثم قال له: والرجل الذي قدامك؟ قال: مسلم، فقضيت العجب بما رأيته وسمعت!"^(٥٦)، وقد علق الإسحاقى على ما رأى وسمع قائلاً: "ولا شك أن فلاحه مصر بعد أمن الدين لا شعور لهم به".^(٥٧) وذكر أن عددًا كبيرًا منهم يمارسون حرفًا مرتبطة بركب الحاج كالجمال والعكام والضوي صاحب المشعل والسقاء وغيرها، حيث يؤجر الواحد منهم نفسه بالركب مقابل بعض الريالات ومأكله ومشربه ذهابةً وإيابًا من مصر إلى مكة ومن مكة إلى مصر، ومما أثار استغرابه طاقة تحملهم الكبيرة وصبرهم على حر الرمضاء والمشى حافىي الأقدام "وما رأيته أصبر منهم على الحفا، رأيته واحدًا من الذين معنا، من مكة إلى مصر ما عمل في رجليه نعلًا، ولا شكا قط ألم الحفا ولا حر الرمضاء".^(٥٨) ومن الأمور التي أنكرها عليهم الإسحاقى، بعدهم عن الدين وتركهم لفروضه الواجبة "وقد سألنا واحدًا منهم بالحجاز من الجمالة الذين معنا: يا فلان مالك لا تصلي؟ فقال: الصلاة التي تكون في غير بلدي ما تنفعني ما تنفع ولدي"،^(٥٩) إذن هذه هي وضعية فلاحى مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادى؛ سذاجة وجهل بأمور الدين، وصبر وجلد على تعب الدنيا وشقاؤها.

٣/٢ - عادات وتقاليده أهل مصر

١- (٣/٢) العادات المرتبطة بالمظاهر الاحتفالية:

- الاحتفال بيوم الزفاف:

من الأمور التي استرعت اهتمام الرحالة الإسحاقى وحَصَّها بالوصف الدقيق، جانب العادات الاجتماعية التي تميز الشعوب عن بعضها البعض وتشكل الخصوصية الثقافية وتكون الهوية الوطنية، ويعد الاحتفال بيوم الزفاف من أبرز ما يميز المجتمعات العربية والإسلامية عن بعضها البعض، بل تختلف تلك العادات والتقاليد داخل المجتمع الواحد حسب المناطق والجهات.

قدم لنا الإسحاقى من خلال رحلته صورتين متميزتين للعروس المصرية، الأولى وهي تزف إلى بيت زوجها، والثانية وهي ذاهبة إلى الحمام للاغتسال كما جرت العادة بذلك، فبالنسبة إلى **المشهد الأول** يقول الإسحاقى: "قعدت يومًا بسوق الغورية بـدكان رجل من أهل فاس المجاورين قريبًا من الظهر، وإذا بعروس قد أقبلت في شارع السوق تزف إلى زوجها، فاتفق إرسال

البصر لجهة ذلك الحس، فإذا أصوات طبول وغيطات ومزامير ودفوف، رجال ونساء، تقدم أهل الإلات ومن ورائهم على أثرهم مملوكات بيض وخدم سود قد أخذن من الزينة ما هو معروف عندهم، وبأثرهن جمع مؤنث سالم من رثاءة الذي غير الملائم وإذا العروس في أثرهن في أحسن زينة، لا يرى شيء منها سوى طرف خفها، وإذا على رأسها علمان منشوران يمسكانهما رجلان حرفتهما ذلك، وإلى جانبي العروس امرأتان تكتنفانها شديداً الاتصال بها، وإذا العروس تمشي مشية مصفد بين الخطوة والخطوة منها هيئة، فقلت لجليسي في الدكان: ومتى تصل هذه لبيت الزوج؟ فقال لي: ولو بعد العشاء، فقلت له: هلا ركبوها أو حملوها على الرؤوس؟ فقال: هذه عادة لا سبيل لأحد إلى تخليفها. وأخبرني جليسي هذا أن العروس إذا وصلت إلى الدار ودخلت على الباب، تناولها الزوج من هنالك وشالها إلى بيت زفافها حتى يطرحها على الفرش، يفعل ذلك بعدما ينثر على الحاضرين والحاضرات دراهم يشتغلون بلقطها"^(٦٠)، يمكن من خلال هذا النص استخلاص مجموعة من الملاحظات التي أثارها الإسحاقى وهي:

- الملاحظة الأولى، أن العروس تخرج من بيت أبيها وتزف إلى بيت زوجها بعد صلاة الظهر، وهو أمر مخالف لما جرت به العادة عندنا في المغرب أنها تزف ليلاً بعد صلاة العشاء، ولعل التبرير بخروج العروس له ما يفسره، وهو المشية البطيئة التي تسير بها والتي قد تستغرق وقتًا طويلاً للوصول إلى بيت الزوجية.
- الملاحظة الثانية، أن العروس لا يتم إركابها في هذه الرحلة من بيت أبيها إلى بيت زوجها، وإنما تسير على أقدامها حتى تصل، وهذا مخالف أيضًا لعادة المغاربة في إركاب العروس أو حملها.
- الملاحظة الثالثة والأخيرة، هي عندما تصل العروس إلى باب بيت الزوجية يتناولها الزوج ويحملها حتى يضعها على الفراش، وهذا عبء خففه الله عن الأزواج المغاربة، وحتى الإسحاقى استنكر هذه العادة عندما أورد حكاية أحد المغاربة الذي تزوج بامرأة مصرية سميكة، فلم يقدر على حملها لضعفه وهزاله بدنه "فحار في أمره ساعة حتى افتدى بشيء أعطاه للنكافات، فهذه كلفة ما أنزل الله بها من سلطان! ولا خير في العادات ما لم توافق حال السادات".^(٦١)
- الملاحظة الرابعة، أن الزوج قبل أن يحمل عروسه إلى مخدعها، ينثر بعض الدراهم على الحاضرين والحاضرات ليشتغلن بلقطها حتى ينتهي هو من البناء بزوجه، مما يعني أن هؤلاء لا يغادرون بيت الزوج بمجرد الوصول، بل يبقون حتى يتأكدون من عذرية العروس.

لها من مكانة القدسية في نفوس جميع فئات المجتمع حتى الخارجين منهم عن الشرع كاللصوص وقطاع الطرق.

- الاحتفال بكسر النيل:

ومن العادات التي يحرص المصريون على الاحتفال بها أيما احتفال، عادة كسر النيل، ومن حسن حظ الإسحاقى أنه تمكن من حضور تلك المشاهد الاحتفالية، فقدم لنا وصفًا تفصيليًا لما يجري بها؛ فمعلوم أن فيضان نهر النيل يكون في فصل الصيف ابتداءً من شهر يونيو، ونظرًا لأهمية ذلك الفيضان بالنسبة لحياة المصريين فإنهم عمدوا إلى قياس زيادته وفق مقاييس دقيقة ومضبوطة، فإذا انتهت الزيادة في المقياس إلى الحد الذي يضمن فيه خراج السلطان وهو ستة عشر ذراعًا، كسروا النيل أي أزالوا السد الذي يحبس الماء، فيندفع النهر اندفاعًا واحدة "ففي الساعة يرجع كل خليج نهرًا وكل نهر بحرًا"^(٦٤)، ويذكر الإسحاقى أن من عاداتهم حين يبدأ منسوب الماء في الارتفاع بالنيل، خروج المنادون إلى الشوارع والأسواق حاملين البشري إلى الأهالي، ومعلنين عن حجم الزيادة أولاً بأول "فإذا عزم والي البلد وأهل العسكر على كسره، ركب الباشا في جنده وركبت السناجق كلها، واحتفل الجيش بإظهار العدة وأنواع السلاح والملابس الفاخرة، وأخرجوا معهم الطبول والغيطات وسائر الرعادات، وخرجت المدافع، ولا يبقى أحد إلا خرج ودبّ ودرج، حتى النساء والصبيان"^(٦٥)، ويصطحبون معهم الحفارين الذين يزيلون السد وعاداتهم في الذين يحفرون السد عامًا بعام، عام يحفره أهل الذمة وعام يحفره المسلمون الفلاحون لأنهم المعدون للأعمال الشاقة عندهم"^(٦٦)، وعند الانتهاء من حفر ذلك السد تطلق المدافع طلائقها إيذانًا بانتهاء الاحتفال، فيرجع الناس كل إلى داره وحال سبيله. ويذكر الإسحاقى أن من عادة المصريين اتخاذ يوم كسر النيل يومًا للخروج في النزعات والترويح عن النفس بمشاهدة مظاهر الاحتفال والفرح.

- الاحتفال بالمحمل المصري:

وفي سياق الحديث عن العادات الاحتفالية بمصر، لا تفوتنا الإشارة إلى عادة الاحتفال بالمحمل المصري الذي تحمل عليه كسوة الكعبة المشرفة، وهي إمارة مهيجة للحج ومشوقة إليه، إلى جانب ما فيها من استعراض للقوة إرهابًا للأعراب قطاع الطرق، ولكن للأسف لم يتمكن الإسحاقى من مشاهدة تلك المظاهر الاحتفالية ونقل صورتها إلينا، حيث تزامن دخولهم لمصر -يوم الخميس ١٩ شوال ١١٤٣ هـ- مع الاحتفال بإدارة المحمل فلم يتمكن من مشاهدته، لأنه تأخر حتى دخل مع موكب الأميرة خاتمة، إلا أن ذلك لم يثن الإسحاقى عن وصف مظاهر الاحتفال بدخول المحمل إلى البنادر الكبار التي تجتمع بها الأعراب كبندر الميلح والينبع، حيث يتوقف الركب المصري قبل دخولها ويأمر أميره بتزين المحمل والجمال الذي يحمله استعدادًا لدخولها، فيحتفل الجند بذلك"، ولعبوا قدام المحمل

أما **المشهد الثاني**، فهو مشهد ذهاب العروس إلى الحمام حيث يقول الإسحاقى: "وفي يوم آخر جازت أخرى ولكنها دون الأولى في الاحتفال، إنما معها النساء والولائد والطبول، فسألت جليسي عنها، فقال لي: هذه ذاهبة للحمام تغسل، فإنها تنهيا للروح، ومع هذا فما أحد يبالي بها ولا يعتني بالنظر إليها ولا يتبعها ولا يمشي معها، إلا أهل حرفة الأعراس من الرجال والنساء، والناس كل واحد ساع في حاجاته"^(٦٧)، يبدو من خلال هذا الوصف أن الإسحاقى يشفق على هذه العروس التي لا أحد يشاركها فرحتها في الاحتفال استعدادًا ليوم زفافها، ولا أحد يكثرث بها ويرفع من معنوياتها، والسبب في ذلك كما قال الإسحاقى هو خفوت درجة الاحتفالية المميزة لموكبها، مما يستنتج منه أن المجتمع المصري، مجتمع يحب إبراز المظاهر الاحتفالية والمبالغة في إشاعتها وإعطائها حجمًا أكثر مما تستحق.

- الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف:

ومن العادات الاجتماعية في مصر التي أثارت انتباه الإسحاقى فخصها بالوصف، عادة الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، حيث لاحظ الاختلاف الكبير بين طريقة احتفال المصريين وطريقة احتفال المغاربة "فإنه يقع في هذا المشهد [المشهد الحسيني] المبارك من إيقاد المصابيح والشموع والثريات والمشاعيل المختلفة الأشكال والهيئات شيء لا يحده الوصف ويحار فيه الطرف، وتقرأ في تلك الليلة أحزاب وأذكار ودعوات بأصوات شجية، ونغمات ظاهرة وخفية، تخشع لها القلوب القاسية، ولا ينام أحد تلك الليلة، ولا يغلق بها باب درب ولا غيره، ولا يتحرك فيها عسس ولا أصحاب شرطة ولا دور، غير أنهم لا يقرءون هذه الأمداح التي تقرأ عندنا في المغرب ليلة الميلاد المبارك مثل الهمزية والبردة وغيرهما من القصائد المضمنة مدح المصطفى (ﷺ)، وإنما تعظيمهم لهذه الليلة بإيقاد المصابيح في كل شارع وفي كل سوق، يستعدون لذلك قبل ليلة الميلاد بيومين وثلاثة، مع إظهار الفرح والسرور واللعب والطرب، ويقع من هذا التزيين في الأزبكية أضعاف ما يقع في المدينة كلها"^(٦٨)، يبدو من خلال هذا الوصف أن المصريين يركزون في إحيائهم لتلك الليلة على المظاهر الاحتفالية من إيقاد المصابيح والشموع والثريات وتزيين المشاهد الدينية واللعب والطرب، أكثر من تركيزهم على الأجواء الروحانية الربانية كما هو الحال عندنا في المغرب، حيث تتخذ هذه الليلة بعدًا صوفيًا وروحانيًا محضًا؛ يشتغل الناس فيها بقراءة الأمداح والقصائد المتضمنة مدح الرسول (ﷺ) كقصيدي البردة والهمزية وغيرهما، كما يتضح من خلال الوصف أن ما يميز تلك الليلة هو انتشار الأمن والطمأنينة والسلام، حيث تظل أبواب المدينة مفتوحة ولا يتم إغلاقها طيلة تلك الليلة التي تعتبر بالنسبة لأصحاب الشرطة والعسس ليلة عطلة وفترة راحة من العمل، وهذا دليل على ما

بالبارود، ومرادهم بذلك الاحتفال في مثل هذا الموطن إظهار القوة للأعراب أهل البدو، وبما يشاهدونه من آلات الحرب، والحرب خدعة".^(٦٧)

- الترهات والمُلهيات:

من الترهات والمُلهيات التي اجتذبت نظر الإسحاق في القاهرة، الإنسان المسمى عندهم بـ "بولهوان راکبًا على حبال ربطها على أعواد وهو يمشي عليها بالقابض في الهواء"^(٦٨)، الأمر الذي أثار استغرابه واندعاشه من قدرة الرجل على فعل مثل ذلك، معتبرًا إياه من عجائب مصر الغربية. ومن عجائبهم أيضًا وملاهيهم، اللعب بالقرود "يُلَيِّسُ القَرَادَ القرد طربوشًا ويسروله ويلعب به كيف شاء من أنواع الملاهي، وحكاية أفعال الناس وحركاتهم من قيام وقعود واضطجاع ومشية"^(٦٩)، ولا يقتصر الأمر على القرود فحسب، بل يشمل باقي أسرة الحيوانات من كلاب وحمير وماعز وغيرها، فقد أصبح الأمر يتعلق بحرف ومهن مهيكلة يستترزق منها" وكل ذلك منهم حرصًا على الدرهم الذي هم في تحصيله في غم وهم".^(٧٠)

٢- (٣/٢) العادات الاستهلاكية:

- شرب القهوة أو البن:

ومن العادات الاستهلاكية في مصر وسائر البلاد الشرقية، شرب القهوة أو البن، حيث تنتشر وكالاتها في كل الأحياء "مبنية على هيئة مخصوصة لها مصاطب ودكاكين، وهي مفروشة كلها بالحصر الجيدة والزراي، والناس آخذون مجالسهم بسكينة ووقار"^(٧١)، منهم مَنْ يقتصر على القهوة، ومنهم مَنْ يشرب الخمر في وضح النهار لا يخشى لومة لائم، فالمقهى عندهم مكان له حرمة و قدسيته " فإذا هرب إليها صاحب جنابة آمِنَ، وتتأكد حرمتها بحرمة صاحبها المنسوبة إليه، والمسجد إذا هرب إليه أحد أخرج منه ولا بد!"^(٧٢) وتجدها غاصة بالناس عامرة حتى في أوقات الصلاة. وأصبحت القهوة عند المصريين جزء من تقاليد الضيافة والكرم، فنجانها أول ما يقدم للضيوف، وينفقون عليها من المال الشيء الكثير، ويسمون بها أيضًا بالشاذلية، حيث يزعمون أن الشاذلي هو الذي جاء بها من اليمن وأدخلها مصر وبلاد الحجاز، لذلك فهم يعتقدون في بركتها ومنفعتيها. ومن الأمور التي أثارها الإسحاق عند حديثه عن القهوة مسألة حكمها الشرعي حيث قال: "وقد اضطرب فيها كلام الفقهاء المتأخرين أيضًا بالإجازة والتحريم، أما شربها على هيئة شرب الخمر بالعود والرباب وحضور النساء والولدان، فلا يتوقف في تحريمها، بل اللبن إذا شرب على هذه الهيئة يحرم ولا بد".^(٧٣)

- شرب الدخان:

ولم تكن مجالس شرب القهوة لتأخذ بهجتها ويكتمل أنسها إلا بشرب الدخان الذي يسمى عندهم بتابغا "فلا بأس به عندهم، القاضي بدواته على نابه والعدل قدامه كذلك وربما طرحه على كتب إن كانت حذاء"^(٧٤)، ويورد الإسحاق حكاية أحد

المغاربة الحجاج، الذي جلس مع بعض الأتراك يشربون القهوة والدخان، فعرضوهما عليه، فاعتذر لهم بكون شربهما ليس من عادتنا نحن المغاربة، فردوا عليه مستهزئين به قائلين: "ما تشرب قهوة ولا دخان، ما أنت بإنسان!"^(٧٥) فشرب القهوة والدخان بهذه البلاد الشرقية أضحت من الأمور المتعارف عليها، وعدم شربهما أصبح من الأمور المنكرة التي يستغرب لها. وكما هو الشأن بالنسبة للقهوى، فقد حاول الإسحاق الوقوف على الحكم الشرعي في مسألة الدخان، إلا أنه لم يجد ما يستند عليه في ذلك لأن المسألة "مختلف فيها بين المالكية المتأخرين لأنها حادثة الاستعمال، فمن مجيز ومحرم"^(٧٦)، ورغم ذلك فقد عبر عن رأيه فيها معتبرًا إياها من خوارم المروءة التي تخذش الحياء كما يستشف من كلامه "والمشاركة مطبقون على استعمالها دون احتشام".^(٧٧)

٢-٤- الأوضاع الدينية والثقافية والعلمية في مصر:

١- (٤/٢) الأوضاع الدينية

ومن الغرائب التي رآها الإسحاق في مصر، تضييع المساجد والجوامع وإهمالها "وقلة التحفظ فيها حتى تصير مثل المزابل، وتَسَوَّدَ حُصْرُهَا وحيطانها من الأوساخ، وقد صليت الجمعة في بعض جوامعها، فرأيت فيه أكوامًا من أنواع الكناسات، وهم يعتقدون نجاسة مساجدهم وجوامعهم، وهي كذلك فلا يأتي من مصليهم شخص إلا بحصير أو ثوب يصلي عليه، وقد رأيتهم يفرشون في المحراب ما يصلي عليه الإمام، فما أكثر جفائهم وأقل من الله حياءهم!"^(٧٨)

وبعد تأمل وتدبر في أحوال الدين في البلاد الشرقية، خلص الإسحاق إلى حقيقة مفادها: "وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية، فأهواء متشعبة وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصمه الله من أهلها، أما أهل المغرب فعلى مذهب الإمام مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الاعتقادات، سالمين من الشبهات والنزاعات والتشيعات والنزوات، وعلم علمائه سالم من التخليط والتدليس، رواية صريحة ودراية صحيحة، كل عالم منهم فيهما رئيس، يشاركون في العلوم كلها فقهاً وحديثاً وأصولاً وتفسيراً وإعراباً وغير ذلك".^(٧٩) إن هذه الوحدة المذهبية والعقدية المتمثلة في اتباع مذهب الإمام مالك في الفروع ومذهب أبي الحسن الأشعري في الاعتقاد، التي تميز المغرب، هي التي وقته وجنبته الفتن والنزاعات الطائفية والمذهبية التي تعج بها البلاد الشرقية.

٢- (٤/٢) اهتمام المصريين بالتصوف:

حاول الإسحاق -من خلال رحلته- أن يرصد لنا بعض مظاهر الحياة الصوفية وما يميزها من طقوس روحانية ربانية في مصر القاهرة ونقل صورتها إلينا، فإلى جانب حرصه على التعريف

بالمزارات والمشاهد العظيمة بالقرافة مما يلي جبل المقطم، حيث يرقد العديد من الصحابة والتابعين وأئمة العلماء والفقهاء والصالحين، نجده لا يتخلف عن موعد حضور مجالس الذكر والحضرة. فإلى جانب حضوره -بمعية الأمير سيدي محمد- مقعد الشيخ أحمد البكري صاحب السجادة، حضر الإسحاق بالمشهد الحسيني مجلساً آخر للذكر والحضرة عقده فقراء الشيخ أبي صالح الشناوي بعد صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس من ربيع الأول، فقدم لنا وصفاً رائعاً للأجواء الروحانية التي ميزت هذا المجلس؛ حيث افتتح أحد الفقراء بتلاوة آية من الذكر الحكيم، ثم شرع في الصلاة والسلام على النبي المصطفى (ﷺ)، ليتدبروا بعد ذلك في الهيلة "لا إله إلا الله" مدة ساعة من الزمن، ثم أخذوا في ذكر الاسم مجرداً "الله، الله" لمدة ساعة أخرى، وأتبع ذلك بإنشاد أبيات من قصيدة البردة للإمام البصري، فتلاوة آية من القرآن الكريم، ثم العودة إلى ذكر اسم الجلالة بصيغة أخرى، وعند اقتراب موعد آذان المغرب، ختموا المجلس بقراءة سورة الفاتحة.^(٨٠)

(٤/٣) - ٣- الأوضاع الثقافية والعلمية:

يعتبر طلب العلم ولقاء العلماء والجلوس إلى حلقاتهم والاستفادة منهم دراية ورواية، من أبرز الدوافع المحركة للرحلة الحجازية، التي لم تكن لتنفصل عن الهدف العلمي الذي يسعى كل عالم لتحقيقه أينما حل وارتحل^(٨١)، فالإسحاق كان شديد الحرص على لقاء العلماء والفقهاء في مختلف القرى والمدن التي يمر منها الركب لعله يلقى ما يشفي الغليل ويبرئ العليل، إلا أنه في كل مرة كان يصطدم بحقيقة مفادها: "وبالجملة فالعلم بالبلاد المشرقية كغيرها، قد وقف على ثنية الوداع وهم مُرْتَنُّ بالإقلاع"^(٨٢)، مستحضراً قول شيخه أبي علي الحسن اليوسي: "ما بقي بالبلاد المشرقية من تشد إليه الرحال في طلب العلم".^(٨٣)

وفي مصر منبع العلم وقبلة العلماء، كان للإسحاق وقفة متأنية على أحوال العلم والثقافة بأرض الكنانة، فقد تمكن من حضور العديد من حلقات الدرس التي تلقى بالجامع الأزهر، والتواصل مع الكثير من العلماء والفقهاء، ومعرفة طبيعة الدروس التي يتعاطونها، فلاحظ حركة دائبة ونشاطاً كبيراً "والجامع المذكور لا يزال غاصاً بالناس ليلاً ونهاراً ما بين قارئ ومطالع لكتاب ومصل وذاكر كأنما هو سوق عامرة، والمجالس الدَّرَسِيَّةُ به متظافرة متزاحمة، ظَهَرُ هذه الحلقة لظهر هذه، وأكثر ما يتعاطونه في هذه الدروس الفقه على مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي، وأما مذهب الإمام أحمد فما له هنالك ذكر، والحنفية يعتمدون كتاب الإمام الديلمي، والنحو يدرسون ألفية بن مالك ويقرأون عليها شرح الشميني، ولهم بهذا الكتاب اعتناء كبير حتى كأن لم يؤلف في العربية غيره أوله شقوق على غيره".^(٨٤) كما لاحظ الإسحاق انكباب المصريين على دراسة علم المنطق

وانشغالهم به عن المعقول والمنقول، فأنكر عليهم ذلك تمام الإنكار^(٨٥)، وعاب عليهم اتخاذهم العلم وسيلة للتسول والاستزاق "ومن أعجب الملق والطمع الذي وصفهم به صاحب الرحلة المذكورة [العبدري]، ما شهدته من بعض من ينتحل العلم منهم، قصدونا - إذ سمعوا بخبرنا أننا من جملة كتاب السلطنة بالمغرب عمره الله بوجود مولانا نصره الله - مادين أيدي القانعين والمعتزين، فرضخنا لهم على قدر الميسور".^(٨٦)

ومن المسائل الفقهية التي أثارها الإسحاق عند حضوره بعض مجالس الدرس بالجامع الأزهر، مسألة البغي إذا تاب من بغائها، هل تتصدق بما قبضت من المهر قياساً على ثمن الخمر أو ترده لأربابه إن علموا قياساً على ثمن أم الولد؟ وهي مسألة أجراها الإسحاق مع أحد فقهاء الأزهر المتخصصين في تدريس الفقه، فأجابه الفقيه قائلاً: "وحمله على مسألة الخمر أولى"، فعقب عليه الإسحاق قائلاً له: "ما وجه الأولوية؟"، فعجز الفقيه عن الرد مؤثراً السكوت، فأجاب الإسحاق قائلاً: "لعل وجه الأولوية أن الخمر متفق على تحريمه والزنى متفق على تحريمه، وبيع أم الولد مالك بنفسه يقول بجواز بيعها في مسائل"، وبدا كأن الفقيه الأزهري أحس بالحرج، فرد قائلاً: "والله يا سيدي إنها كلمة"، والذي استغرب له الإسحاق هو أن هذه المسألة منصوص عليها في كتاب "شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك" وهو من الكتب التي تحظى باهتمام واعتناء فقهاء الأزهر الشريف ويعتمدونها في تدريس الفقه!^(٨٧)

ومن الأمور التي لاحظها الإسحاق في مساجد مصر في صلاة الجُمُع، اقتصار الأئمة -بما فيهم المالكية- في الصلاة على زيادة شيء من القرآن على الفاتحة، وهو السنة عندهم، وأما إكمال السورة يقول الإسحاق: "فهو مستحب فضيلة، أو سنة خفيفة"، وهوما يخالف العمل عندنا في المغرب الجاري بإكمال السورة وكراهة عدم إكمالها، مستنداً في ذلك على ما ذكره الخطاب الرعيني في كتابه "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل".^(٨٨)

وللمزيد من الكشف عن ضعف تكوين فقهاء الأزهر الشريف، أورد الإسحاق لطيفة ذكر فيها قصة ابن أخته العربي بن محمد المكناسي الذي حضر بمعية بعض أصحابه المغاربة مجلس أحد المدرسين المالكيين في الأزهر الشريف، فأراد المدرس أن يدايعهم أو يعذبهم بهم قائلاً: "لا تجوز الصلاة خلف الفاسي، وقصد التورية في المحدث، وتبسم قال: فقلت له: يا شيخ المالكية يقولون بجواز الصلاة في العذرة، فرفع إلي رأسه وقال: ما أحد من المالكية يقول هذا، قال: فقلت له: والله إنهم لا يقولون به، فسكت وعميت عليهم الأنباء، قال: وبعد ذلك قلت له: يا سيدنا أنت وريت ونحن ورينا فإن أبنت أبنا، قال: أو ذاك بذاك؟ قلت: نعم، قال: ابن لنا فقلت: العذرة في اللغة تطلق على الفضلة المعروفة، وتطلق على فناء الدار، ومنه الحديث: «الْيَهُودُ أَتُنُّ النَّاسَ عَذْرَةً»، فإن المراد أفنية دورهم، والعذرة إذا كانت

الهوامش:

- (١) عبد الله المرابط الترغي: حركة الأدب في المغرب على عهد المولى إسماعيل (١٠٨٢ - ١١٣٩ هـ) دراسة في المكونات والاتجاهات، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الدب العربي، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، نوقشت سنة ١٩٩٢م، غير منشورة، ج ٥، ص ١٥٢١.
- (٢) مصطفى الغاشي: الرحلة المغربية والشرق العثماني: محاولة في بناء الصورة، الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.
- (٣) عبد النبي ذاكر: المغرب وأوروبا: نظرات متقاطعة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، ط ٢، فاس، ٢٠٠٧، ص ١٣.
- (٤) عبد النبي ذاكر: المرجع نفسه، ص ١٤.
- (٥) محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب، الرباط، ١٩٨٦، ج ٤، ص ٢٠٨.
- (٦) عبد السلام بن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ويليهِ ذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ضبط واستدراك مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ص ٢٣٧.
- (٧) انظر: عبد الرحمان بن زيدان: المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ص ٣٣٣ - ٣٣٤. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط ٢، ١٩٩٠، ج ٥، ص ٣٣٠ - ٣٣١.
- (٨) رحلة الوزير الإصحافي الحجازية لأبي محمد سيدي الشرفي بن محمد الإصحافي (ت. بعد ١١٥٠ هـ)، دراسة وتحقيق محمد البيغال، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، نوقشت سنة ٢٠١٤، ص ١٧٧.
- (٩) الرحلة، ص ١٧٦.
- (١٠) راجع الرحلة، ص ٤٤١ - ٤٤٥.
- (١١) الرحلة، ص ٤٤٦.
- (١٢) الرحلة، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.
- (١٣) عن أحداث وقعة جبل فازار يُنظر: أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ج ٧، المجلد ٣، ص ٧٨ - ٨٧.
- (١٤) انظر: عبد الهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإصحافي، مطبعة فضالة، المحمدية، د. ت، ص ١٠٣.
- (١٥) الرحلة، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٨٧.
- (١٦) الرحلة، ص ٢٤٦.
- (١٧) الرحلة، ص ٤٤١.
- (١٨) الرحلة، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥.
- (١٩) الرحلة، ص ٤٤٧.
- (٢٠) الرحلة، ص ١٨٨.
- (٢١) الرحلة، ص ٤٠٧ - ٤٠٩.
- (٢٢) الرحلة، ص ٣٣٧.
- (٢٣) الرحلة، ص ٢١٤.
- (٢٤) الرحلة، ص ٢٧٤.
- (٢٥) الرحلة، ص ٣٥٨.

طاهرة تجوز الصلاة فيها باتفاق المالكية، وما أظن غيرهم يخالف فيه، فضحكوا وعاد الإيراد والمعارضة مضحكة، فهذا مدرس غاب عنه هذا الحرف من اللغة وهو في كتب اللغة!

وفي مجال النحو، حضر الإصحافي بمعية بن أخته الفقيه العربي بن محمد المكناسي، بجامع الأزهر، مجلس الفقيه السيد علي الحنفي "وهو رأس الطبقة عندهم في علم العربية والمعقول" وطرحوا عليه الإشكال النحوي الذي اختلفوا فيه والمتعلق بالفرق بين ما بُنيَ من الأسماء المتضمنة معنى الحرف وما لم يُبَيَّن منها، كما سألوهُ عن اسم لا التي لنفي الجنس على سبيل الاستغراق، فعجز الفقيه المصري عن الإجابة وصدهم صدودا بعدما كشفوا لطلبته ضعف تكوينه وقلة حيلته، علما أن هذه المسألة منصوص عليها في شرح الأشموني على ألفية بن مالك التي يزعم أنه أول من أقرأها للطلبة بجامع الأزهر، ويبدو من كلام الإصحافي عنه منذ أول وهلة رآه واستمع له فيها أنه لم يقتنع به كعالم نحوي متمكن من علمه حيث قال: "حضرنا مجلسه في العربية فرأينا رجلاً ضريراً ضيق العطن بين اللكن لكنة أهل مصر، يعاني في التقرير شدة، وكل من ألح عليه في البحث رده أوصده"^(٨٩).

بعدما صال وجال في مجالس العلم والدرس في مصر، خلص الإصحافي إلى نتيجة مفادها: "وحضرنا مجالس بالجامع المذكور، فما رأينا ما يشفي الغليل ولا ما يبرئ العليل، والأمر في ذلك قريب، داخل في قول حبيب: "لا أنت أنت ولا الديار ديار"^(٩٠) فالإصحافي لم يقتنع البتة بمستوى العلم في الديار المصرية، والدليل على ذلك أنه لم يسأل أياً من علمائها وفقهائها الإجازة في فرع من فروع العلوم التي يتقنها، كما فعل في مكة المكرمة، حيث حصل على عدة إجازات في رواية الحديث (كما سبق وأن أشرت إلى ذلك).

خلاصة

إن ما يميز الصورة التي قدمها الإصحافي عن المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي، هو شموليتها لمختلف الجوانب الأخلاقية والسلوكية والدينية والصوفية والعلمية، بالإضافة إلى جانب العادات والتقاليد الشعبية. كما أن طريقة تقديم تلك الصورة غلب عليها طابع الجرأة التي تفتقد إلى لباقة المجاملة وتصل في معظم الأحيان إلى التجريح والتفريع، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن مدى التزام الإصحافي بحدود المهمة السياسية والدبلوماسية التي كان مكلفاً بها من قبل السلطان المولى عبد الله والتي كانت تستهدف حشد الدعم والتأييد في معركة البحث عن الشرعية في الحكم؟ أم أن عواطفه ورغبته الجامحة في نقل الأمور على طبيعتها، والتعبير عن الرأي بكل صراحة وجرأة، جعله يخرج من صفته الرسمية كوزير وكاتب رسمي إلى صفته غير الرسمية كفقيه وعالم لا يخشى في قول الحق لومة لائم، فاستطاع التخلص من كل القيود البروتوكولية، وانطلق بكل حرية في رصد وانتقاد ما يشاهده.

- (٢٦) الرحلة، ص ٤٤٠ - ٤٤١.
- (٢٧) الرحلة، ص ٤٤٨ - ٤٥٠.
- (٢٨) الرحلة، ص ٥١٤ - ٥١٥.
- (٢٩) الرحلة، ص ٥١٧.
- (٣٠) الرحلة، ص ٢٦٩.
- (٣١) أبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي: تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، نشر وتصحيح وتعليق الطاهر أحمد الزواوي الطرابلسي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩ هـ، ص ٩٢ - ٩٤ / التازي: أمير مغربي ... ص ١٠٧.
- (٣٢) ابن غلبون: التذكار، ص ١٤.
- (٣٣) التازي: أمير مغربي ... ص ١٠٧.
- (٣٤) عبد الهادي التازي: جامع القرويين، المسجد والجامعة في مدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، دار نشر المعرفة، الرباط، ط ٢، ٢٠٠٠، المجلد ٣، ص ٧٣٠ - ٧٣١.
- (٣٥) الرحلة، ص ٣٢٤.
- (٣٦) الرحلة، ص ٣٣٧.
- (٣٧) محمد بن عبد العزيز الدباغ : الوزير محمد الشرقي الإسحاقى مدون الرحلة التي قامت بها السيدة خاتمة بنت بكار وحفيدها سيدي محمد بن عبد الله إلى البقاع المقدسة عام ١١٤٣ هـ، مجلة دعوة الحق، العدد (٢٥٥)، مارس ١٩٨٦، ص ٩٥.
- (٣٨) الرحلة، ص ٣٦٠.
- (٣٩) القادري: م. س، ج ٤، ص ٢٠٨ / ابن سودة: م. س، ص ٢٣٧.
- (٤٠) أذكر على سبيل المثال لا الحصر: الدكتور عبد الهادي التازي: أمير مغربي ... ص ١٠٧، والأستاذ محمد مكامن: الرحلات المغربية (ق ١١ - ١٢ هـ / ١٧ - ١٨ م) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٧٢، مطبعة الأمانة، الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص ٢٣٠ - ٢٣١ / معلمة المغرب، ج ٢، ص ٤٠٢، والدكتور مصطفى الغاشي: الرحلة المغربية والشرق العثماني، ص ٢٠٢.
- (٤١) ابن زيدان: المنزع اللطيف، ص ٢٣٣.
- (٤٢) انظر وثيقة التحسيس، ص ١٧٦.
- (٤٣) الرحلة، ص ٣٣٩.
- (٤٤) الرحلة، ص ٣٤٠.
- (٤٥) الرحلة، ص ٣٤١.
- (٤٦) الرحلة، ص ٣٤٢.
- (٤٧) الرحلة، ص ٣٤٢.
- (٤٨) الرحلة، ص ٣٤٢.
- (٤٩) الرحلة، ص ٣٥٥.
- (٥٠) الرحلة، ص ٣٥٥.
- (٥١) الرحلة، ص ٣٤١.
- (٥٢) الرحلة، ص ٣٤٧.
- (٥٣) الرحلة، ص ٣٤٨.
- (٥٤) الرحلة، ص ٣٥٤.
- (٥٥) الرحلة، ص ٣٤٠.
- (٥٦) الرحلة، ص ٣٤٧.
- (٥٧) نفسه.
- (٥٨) الرحلة، ص ٣٤٧.
- (٥٩) الرحلة، ص ٣٤٧.
- (٦٠) الرحلة، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.
- (٦١) الرحلة، ص ٣٤٦.
- (٦٢) الرحلة، ص ٣٤٦.
- (٦٣) الرحلة، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.
- (٦٤) الرحلة، ص ٣٣٤.
- (٦٥) الرحلة، ص ٣٣٣.
- (٦٦) الرحلة، ص ٣٣٤.
- (٦٧) الرحلة، ص ٣٨١.
- (٦٨) الرحلة، ص ٣٤٥.
- (٦٩) الرحلة، ص ٣٤٥.
- (٧٠) نفسه.
- (٧١) الرحلة، ص ٣٤٣.
- (٧٢) نفسه.
- (٧٣) الرحلة، ص ٣٤٤.
- (٧٤) الرحلة، ص ٣٤٢.
- (٧٥) الرحلة، ص ٣٤٤.
- (٧٦) الرحلة، ص ٣٤٣.
- (٧٧) نفسه.
- (٧٨) الرحلة، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.
- (٧٩) الرحلة، ص ٤١٤ - ٤١٥.
- (٨٠) الرحلة، ص ٣٣٠ - ٣٣١.
- (٨١) محمد الحجوي: الأهداف الدينية والعلمية لرحلة علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق، مجلة المناهل، السنة ٣٠، العدد (٨٥)، نونبر ٢٠٠٨، ص ٢١٣.
- (٨٢) الرحلة، ص ٣٣٧.
- (٨٣) نفسه.
- (٨٤) الرحلة، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.
- (٨٥) الرحلة، ص ٣٥١ - ٣٥٤.
- (٨٦) الرحلة، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.
- (٨٧) حول هذه المسألة انظر: الرحلة، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.
- (٨٨) الرحلة، ص ٣٥٧.
- (٨٩) الرحلة، ص ٣٣٥.
- (٩٠) الرحلة، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

الواقع الطائفي والمذهبي في بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي دراسة جغرافية وإحصائية

عبد الحفيظ دحدم

أستاذ مكون في التعليم الثانوي

باحث في التاريخ الحديث والمعاصر

ولاية برج بوعريريج - الجمهورية الجزائرية



مُلخَص

إن التنوع الطائفي والمذهبي ليس ظاهرة سيئة في حد ذاتها، ولا تكون دائماً عاملاً في تفكيك الدول واندثارها، إذا تحققت الشروط التي تجعل من هذا التنوع عامل نماء وارتقاء، وفي مقدمة تلك الشروط طبيعة نظام الحكم السياسي الذي يجتهد لصهر المكونات الطائفية والمذهبية في نسيج اجتماعي متماسك، من خلال العدالة الاجتماعية وتوفير مناخ الحرية لجميع العناصر، وهوما تحقّق في العصور الإسلامية الأولى، وأيضاً خلال العهود الأولى من تاريخ الدولة العثمانية. تطرح ظاهرة التنوع الطائفي والمذهبي نفسها بقوة في واقعنا العربي والإسلامي الراهن. وتمثل بلاد الشام النموذج السيئ له - بأحداثه وتداعياته - وهو نموذج له جذوره في الماضي، نحاول في موضوعنا هذا البحث في واقعه خلال القرن (١٣ هـ / ١٩م)، وهي فترة ازدهرت فيها التيارات السياسية والمذهبية وراجت بقوة، ووصل تأثيرها إلى هذه المنطقة ممّا أدى إلى زعزعة الوضع الاجتماعي للدولة العثمانية وساقطها إلى التمزق والتفكك والزوال.

كلمات مفتاحية:

الإسماعيليون، النصيريون، الأرثوذكس، الكاثوليك، اليهود

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ فبراير ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٥ مايو ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الحفيظ دحدم. "الواقع الطائفي والمذهبي في بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي: دراسة جغرافية وإحصائية". - دورية كان التاريخية. - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ٨٣ - ٩٠.

مُقدِّمة

تحليل أو تفسير وارد لما يجري من أحداث ووقائع - مهما كان مصدرهما - هو السمة التي لا تُفارق، فالمسألة الطائفية والمذهبية تحوّلت إلى بؤرة انشغال تُثيرُ الهواجس والمخاوف - لدى النخبة - حول حاضر الأمة ومستقبلها، وعلاقتها مع مُحيطها المتنوع والمُتفوق سياسياً وحضارياً. وبدافع الفضول العلمي - الذي يُلازم دوماً الباحث - وبناء المعرفة التي تستند إلى الحقيقة التاريخية، اخترت البحث والتنقيب في ماضي الطوائف والمذاهب المُشكلة للمجتمع الشامي خلال الفترة محل البحث. إذ يستعصي فهم حاضره - الذي أخذ منذ فترة ينحو منحى خطيراً ومأساوياً - ما لم يُبحث

لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية، صراع طائفي ومذهبي يَشْتَوِجُ الوقوف عنده - على الأقل من حيث مستوى خطورته وانتشاره وتأثيره - في أي فترة من فترات تاريخها، مثلما هو حاصل اليوم. فالمتغيرات الطارئة على مجتمعاتنا والموسومة بعناوين مختلفة، أدّت إلى هزّة قوية أصابت النسيج الاجتماعي لبلداننا في الصميم، وأفرزت اعتناقاً سياسياً غير مسبقٍ للهويات الطائفية والمذهبية، عمّقت الشروخ الموروثة من الماضي. الأمر الذي جعل جمهور الأمة يقف عاجزاً عن فهم ما يُرادُّ له، وما يُرادُّ منه، إلى الحد الذي أصبح فيه الانسياق وراء كل

والطائفية الدينية، وهذا بناءً على ما نصّ عليه نظام الملة^(٥). وهذا الترتيب الطائفي هو الذي أحال أتباع كل طائفة -سواء الطائفية الاقتصادية أو الدينية - إلى الرئيس والشيخ، يسهر على رعاية أمرها، والاهتمام بمشاكلها ونقل همومها إلى ممثلي السلطة العثمانية. ممّا أعطى حرية شبة كاملة للمؤسسات الدينية لكل طائفة في العمل وفق آلياتها الداخلية، حتى أنها تحولت مع مرور الزمن إلى دول داخل الدولة^(٦). وأضحى هذا التدبير مجرى سياسي غربي يقوّد إلى المصالح السياسية والاقتصادية. وقد كان للطائفية الدينية دور بارز في تاريخ الدولة العثمانية عامة وبلاد الشام خاصة، نظرًا للتنوع الطائفي الكبير المرتبط أساسًا بالديانات السماوية الثلاث من جانب والامتدادات والتحالفات الخارجية الخاصة بكل طائفة من جانب آخر.

ثانيًا: المكونات الطائفية^(٧) والمذهبية^(٨) لبلاد الشام^(٩)

تمثل بلاد الشام نموذجًا للتنوع الطائفي والمذهبي، إذ يكاد لا يوجد نظير في العالم لهذا التنوع، ويرجع ذلك إلى أن هذه المنطقة كانت على مرّ التاريخ خزّان الديانات، ومقر مقدراتها. زيادة على ذلك شهدت صراعات بين مختلف القوى السياسية، سواء المحلية أو الخارجية أدّت إلى توافد وتدقّق الكثير من الأعراق السلالات والمذاهب الدينية إليها. وقد بلغ إجمالي عدد السكان في هذه الفترة أزيد من مليوني ومائتين وخمس وأربعون ألف نسمة.^(١٠)

١-٢ المسلمون:

كانوا يمثلون ثلثي السكان^(١١) في بلاد الشام، أي أزيد من مليون نسمة^(١٢) ولكونهم على الديانة نفسها الرسمية للدولة، وضع العثمانيون ثقتهم فيهم. وقد انقسموا إلى مذاهب مختلفة، نوردها كالتالي:

١ (١/٢) - المسلمون السنة

شكلوا القطاع الأكبر من رعايا الدولة، وأغلبيتهم كانوا من العرب والأتراك والأكراد،^(١٣) وبينما اعتنق أغلب العرب المذهب الشافعي، اعتنق الأتراك والأكراد المذهب الحنفي - مذهب الدولة الرسمي^(١٤) - في حين توزع سُكان البوادي بين المذهبين المالكي والحنبلي، أما من حيث توزيعهم الجغرافي الأساسي؛ فقد انتشروا في الأطراف الشرقية لحدود فلسطين الشمالية، ولواء دمشق ومدن: بيروت، طرابلس، صيدا، بعلبك، عكا والبقاع. وبلغ تعدادهم في أواخر القرن (١٣هـ / ١٩م) حوالي مليون نسمة؛ منهم مائتي ألف في كامل سوريا، وبين ثمانين ومائة وعشرين ألفًا في دمشق.^(١٥)

٢ (١/٢) - المسلمون الشيعة:

في جذوره من حيث التوزيع الجغرافي والإحصاء، وهما عاملان أصبحا يُستحضران لبناء مواقف سياسية راهنة صوب ما يحدث في هذه المنطقة من صراعات. ولعلّ تحديد هذه المرحلة الزمنية ناتجٌ عن تطورها، بحكم أنها مرحلة أعقبت الحقبة التي شهدت ميلاد مختلف التيارات والمذاهب السياسية والفكرية، بعد الثورة الدستورية في إنجلترا (١٠٩٩هـ / ١٦٨٨م)، والثورة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية (١١٨٦هـ / ١٧٧٣م)، والثورة الفكرية في فرنسا (١٢٠٣هـ / ١٧٨٩م). ولم يكن المجتمع الشامي آنذاك بعيدًا عن هذه التأثيرات؛ خصوصًا القومية منها، في ظل دولة عثمانية كانت تسير بخطى سريعة نحو الانهيار.

أولاً: السياسة الدينية العثمانية

إن أحد أخطر المعضلات التي تُواجه أيّ دولة ناشئة، هي بناء الأساس الاجتماعي للدولة؛ بمعنى تحقيق الاندماج بين العناصر الإثنية والسلالية التي تقع في إقليمها. ولذا لم يسعَ العثمانيون في المراحل الأولى لدولتهم إلى تنمية الشعور بهويةٍ تُميزهم عن غيرهم وتستبعدهم عنهم، فكان أساس البناء الذي لجأ إليه العثمانيون هو الإسلام. فقد ارتكز نظام الحكم في الدولة العثمانية على الدين الإسلامي منذ مرحلة التأسيس، وكانت جميع أنظمتها وقوانينها مُستمدة من الشريعة الإسلامية^(١٦)، ومع مرور الزمن، قادت الفتوحات التي خاضها العثمانيون شرقًا وغربًا إلى زيادة الحجم الجغرافي للدولة، وضم شعوبٍ جديدة، وبأعداد ضخمة، لا سيما منذ عهد السلطان سليم الأول^(١٧). وهو الواقع الذي نتج عنه تنوع المجتمع العثماني في تراكيبه وأقليته الإثنية.

ساد التسامح الديني والتعايش السلمي بين مختلف الطوائف المذهبية والدينية في المجتمع العثماني، ولم يكن بينها أي تمايزات دينية ومذهبية، "فلقد كان التجار والحرفيون - مثلاً - من مسلمين وغير مسلمين ينتمون إلى طبقة واحدة ومستويات واحدة، يتمتعون بحقوق واحدة ومشاركة مع التباين الجُزئي في الواجبات الدينية فقط"^(١٨). ولم يكن هناك انفصالًا مناطقيًا بين السكان في المدينة العثمانية، وإن وُجد؛ فمردهُ التخطيط الأوّلي للمدينة الذي فرض توزيعًا معينًا لكل طائفة دينية، حيث يكثرُ أتباع الطائفة أمام مراكز عباداتهم، فالمسلمون مثلاً كانوا يتركزون حول المساجد، وهو الأمر عينه بالنسبة للطوائف الأخرى.^(١٩)

اعتمد بناء المجتمعات منذ العصور الوسطى على نظام الطائفية الدينية، وهو النهج الذي ظلّ ساريًا إلى غاية القرن (١٣هـ / ١٩م)، على إثر مُتغيرات ما بعد النهضة والثورات الصناعية والسياسية. وفي بلاد الشام، استند تنظيم المجتمع على الطائفية الحرفية والمهنية ذات البُعد الاقتصادي، حيث كانت تجمع أهل الحرفة الواحدة من كل الطوائف والمذاهب؛

(٢/١/٢) ١- المتأولة: (١٦) هم شيعة على المذهب الاثنى عشري (١٧)، ويأتون في المرتبة الثانية عددًا من حيث المذهب في بلاد الشام. (١٨) وانتشر هؤلاء بالخصوص في سلاسل لبنان الجبلية، الخليل وسمرية. زيادة على بعلبك وأقاليم بشارة، شومار، صيدون وعكا. (١٩) وقُدِّر عددهم بحوالي ستون ألف نسمة، (٢٠) منهم خمسة عشر ألفًا في سوريا، (٢١) وعشرون ألفًا في لبنان. (٢٢) وتُشير هنا إلى أن السلطة العثمانية - على الرغم من الحرية التي منحتها للطوائف - نظرت إلى فرق الشيعة، ولا سيما الاثنى عشرية نظرة حذر وريبة. (٢٣)

(٢/١/٢) ٢- الإسماعيليون: (٢٤) بدأ حضورهم في بلاد الشام منذ القرن (٦ هـ / ١٢م)، بعد ان انتقلوا إليها من معاقلمهم الرئيسية في أصفهان وقلعة الموت في إقليم طبرستان على سواحل بحر قزوين (٢٥)؛ وانتشرت غالبيتهم في شمال شرق مدينة حمص. بلغ عددهم في بلاد الشام أواخر القرن (١٣ هـ / ١٩م) حوالي مائة وخمسون ألف نسمة، منهم أربعة آلاف في سوريا. (٢٦)

(٢/١/٢) ٣- النصيريون (العلويون): (٢٧) يتركزون بشكل أساسي في جبل النصيرية بلبنان، والمناطق الجنوبية من دمشق، (٢٨) وكذا المناطق الجبلية المحاذية لمدن الساحل مثل طرابلس، طرطوس واللاذقية، أما خارج هذا النطاق، فهم مجموعات قليلة. وبسبب وضعهم الجغرافي والضيق الاقتصادي في هذه المرحلة، اتجهوا نحو الامتناع عن دفع الضرائب، مما تسبب في تسيير حملات تأديبية ضدهم (٢٩). وقد بلغ عددهم في بلاد الشام سنة (١٢٤٦ هـ / ١٨٣١م) حوالي مائة وثلاثون ألف نسمة، منهم خمسة وسبعون ألفًا في سوريا. (٣٠)

(٢/١/٢) ٤- الدرزي: (٣١) كان أول مَنْ نشر عقائد الدرزي في بلاد الشام هو محمد بن إسماعيل الدرزي، بعد خروجه هاربًا من مصر بسبب مواقفه الدينية، ومن جنوب لبنان توسعت الدعوة الدرزية (٣٢). يعيش هؤلاء في جبال لبنان، الشوف والمتن (٣٣)، وفي المناطق الساحلية في صيدا، صعودًا إلى البقاع وراشيا (٣٤). وفي سوريا يتمركزون في جبل حوران وقرى أنطاكية وبعض أقاليم فلسطين. بلغ عددهم حوالي ثمانون ألف نسمة، منهم خمسة وخمسون ألف في لبنان. (٣٥)

٢-٢ المسيحيون:

عندما ظهرت المسيحية، - وبلاد الشام هي مهدها - اعتنق عدد كبير من سكانها هذه الديانة، ولكن الاختلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام؛ مزقت الديانة المسيحية، وقسمتها إلى عدة مذاهب مختلفة. ومن ثَمَّ تحول معتنقوا هذه المذاهب إلى فرق متطاحنة ومتصارعة - في مراحل كثيرة من تاريخ الديانة المسيحية - كل واحد منها يريد أن يثبت أن إيمانه هو الإيمان الصحيح، ونتج عن هذا الصراع عداء مذهبي ترك آثارًا سلبية واضحة في تاريخ بلاد الشام، لا تزال بعض ملامحه ماثلة إلى يومنا

هذا. ولقد تمتعت هذه الطائفة الدينية بالحماية من طرف السلطة العثمانية، ومقابل ذلك كان أتباعها يحترمون ويُقدِّرون سيادة الإسلام. (٣٦) وقد بلغ عدد المسيحيين الاجمالي في بلاد الشام حوالي ثلاثة آلاف وخمسة وسبعون ألف نسمة. (٣٧) وأكبر تجمعاتهم كانت في دمشق، حيث بلغ عددهم سنة (١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠م) حوالي اثنان وعشرون ألف نسمة (٣٨)؛ وفي بيروت حوالي أربعون ألفًا (٣٩)؛ أما في حلب فقد كانوا يمثلون حوالي (١٠%) من السكان، (٤٠) وهم يتوزعون بين مختلف الفرق المسيحية (٤١).

(٢/٢) ١- الأرثوذكس: اعتنق غالبية سكان بلاد الشام هذا المذهب، (٤٢) وهم ينتمون إلى أعراق مختلفة، نبيُّها فيما يلي:

- الروم الأرثوذكس: كان لهم بطريركتان، الأولى في القدس، والأخرى في دمشق؛ التي كانوا يملكون فيها سبعة عشر كنيسة، أقدمها كنيسة المريمية (٤٣)، وكنيسة ماري يوحنا التي شيدتها روسيا سنة (١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠م). (٤٤) وكان قادة الكنيسة يُختارون من العرق اليوناني، ويستخدمون اللغة اليونانية في عباداتهم وصلواتهم. الأمر الذي أدَّى إلى صراعات عنيفة، واحتجاجات من طرف مسيحيي الشام الأرثوذكس، فتم تعريب هذه الكنيسة في (١٣ هـ / ١٩م). وقد بلغ عددهم حوالي مائتين وأربعون ألف نسمة، موزعين كأقليات على مدن: دمشق، حمص، حماة، حلب، اللاذقية طرابلس، عكا، الناصرة وبيت لحم (٤٥)، كما شكّلوا غالبية مسيحيي القدس خلال هذه الفترة. (٤٦)

- الأرمن الأرثوذكس: ينحدرون من أرمينيا العثمانية، وقد ظهروا بعد انقسام الأرمن بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية في القرن (١١ هـ / ١٧م). ويملكون كنيسة في دمشق تُعرف باسم "مار سرقس". وقد توزَّعوا في حلب، ودمشق، وبيروت، وطرابلس، وتراوح عددهم خلال الفترة (١٢٨٦ - ١٣٠٧ هـ / ١٨٧٠ - ١٨٩٠م) بين ثمانين وخمس وثمانين ألف نسمة. (٤٧)

- اليونانيون الأرثوذكس: يعتبر اليونانيون على اختلاف مذاهبهم من أقدم السكان في سوريا، وهم يُشكّلون أكبر تجمع سكاني مسيحي فيها. بلغ عددهم في لبنان حوالي ثلاث مائة وخمسون ألف نسمة - ويحتلون المرتبة الثانية من حيث العدد بعد الموارنة (٤٨) - يتمركزون بالخصوص في جبل لبنان (٤٩)، وأيضًا حلب التي عاش فيها حوالي عشرة آلاف نسمة (٥٠). وأقليات أخرى منهم في صيدا وبيروت (٥١).

- السريان الأرثوذكس: يتحدثون اللغة السريانية (٥٢)، ويتبعون البطريرك المقيم في دير الزعفران قرب ماردين (٥٣). بلغ عددهم حوالي ثمانون ألفًا نسمة (٥٤)، ويتمركزون في مدينة حلب (٥٥).

نسمة، ويتركزون أساسًا في حلب، وفي منطقة معرة النعمان وملولة بضواحي دمشق،^(٧٥) كما تواجدوا في حمص وحماة^(٧٦).

• **اللاتين الكاثوليك:** اللاتين هم بقايا الحروب الصليبية في بلاد الشام،^(٧٧) طائفة قليلة العدد، فلم يتجاوزوا أربعة آلاف نسمة، وقد ظهرت سنة (١٢٦٣هـ/١٨٤٧م) بقيادة البطريرك "يوسف فالرجا"^(٧٨).

(٢/٢) -٣ البروتستانت: بدأت هذه الطائفة في الانتشار في بلاد الشام انطلاقًا من بيروت منذ سنة (١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م)، هذا على الرغم من الرفض الذي أبدته السلطة العثمانية والمجتمعين المسلم والمسيحي لهذا المذهب؛ لكنها نمت وازدهرت بعد دخول محمد علي بلاد الشام سنة (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م)؛^(٧٩) فاجتهد أتباعها في تشييد الكنائس، فبنوا كنيسة في دمشق سنة (١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م)، وأخرى في (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م)، ولم يتجاوز عددهم السبعين شخصًا في سنة (١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م)، ثم تناقص عددهم ليصل سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) إلى سبعة وستين شخصًا فقط.

ثالثًا: اليهود

انتشر اليهود في كامل البلاد العربية منذ عهود قديمة، وكان لوجود الدولة العثمانية أثر إيجابي على وضع اليهود الذين احتما بها بعد عمليات الطرد الممنهج الذي انتهجه الإسبان ضدهم وضد المسلمين، وكان اليهود يعيشون في داخل أحياء مغلقة في المدينة العربية لكنها قريبة من مركز المدينة الاقتصادي. وقد انتشر اليهود في البلاد العثمانية على اعتبار أنهم من أهل الذمة، وكانت طائفتهم تضم مهاجرين ومستوطنين بينما ينتمي اليهود العرب إلى "يهود الاشكنازيم". وتمركز اليهود في مدينة دمشق، لا سيما في الحي الذي يحمل اسمهم "حي اليهود". وبلغ تعدادهم بها سنة (١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م) حوالي أربعة آلاف نسمة،^(٨٠) كما عاشوا في القدس، ويافا، وحيفا، وبيروت، وصيدا،^(٨١) وبلغ عدد اليهود في صفد خمسة عشر ألف نسمة،^(٨٢) وكان يهود بلاد الشام يتبعون حاخامات القدس الذين يمثلون أعلى سلطة دينية في الشرق.^(٨٣)

زيادة على هذه الطوائف المسيحية المتباينة مذهبياً وعرقياً؛ وُجدت أخرى تنتمي إلى المذهب الأرثوذكسي، على غرار الأقباط والأحباش الأرثوذكس في القدس.^(٥٦)

(٢/٢) -٢ الكاثوليك: هم أكثر المسيحيين انتشارًا وتعدادًا في بلاد الشام، ويرتبطون بالكنيسة اللاتينية في روما وإرسالياتها اليسوعية، خاصةً في مجال التعليم^(٥٧). وقد تزايدت أعدادهم على إثر انشقاقهم عن الكنيسة الأرثوذكسية بتحريض من رهبان الكنيسة الرومانية، وقناصل فرنسا^(٥٨). وبلغ تعدادهم في سنة (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م) حوالي سبعة عشرة ألف نسمة، وهم يتركزون في حلب ودمشق،^(٥٩) وانقسم الكاثوليك بدورهم إلى مذاهب شتى، تختلف في طقوس عبادتها:

• **الموارنة:** هم السكان الأصليون الذين حافظوا على عقيدتهم^(٦٠). ينتسب هؤلاء إلى السريان السوريين، وتسموا بالموارنة نسبة إلى الزّاهب "مار مارون"، الذي عاش في القرن الرابع الميلادي شمالي حلب^(٦١)؛ وقاد الموارنة خلال الفتح الإسلامي^(٦٢). وقد تعاونوا مع الحملات الصليبية، وتحولوا منذئذ إلى حلفاء لفرنسا التي تتولى حمايتهم^(٦٣). وكان الموارنة يعتنقون المذهب الأرثوذكسي ثم تحولوا إلى الكاثوليكية^(٦٤). وقد بلغ عددهم سنة (١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م) أزيد من خمس مائة ألف نسمة^(٦٥)؛ منهم حوالي مائتين وثمانية آلاف نسمة في لبنان^(٦٦) تواجدوا بقوة في جنوبه ورغم ذلك خضعوا لسلطة الدروز.^(٦٧) هذا إضافة إلى وجودهم الكبير في منطقة الغزير بدمشق؛ وأيضًا في بعلبك، معرة النعمان، حمص وحماة وكسروان.^(٦٨)

• **الأرمن الكاثوليك:** بلغ تعدادهم في دمشق سنة (١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م) حوالي ست مائة وأربعون ألف نسمة ثم تقلص هذا العدد إلى خمس مائة وتسعين ألفًا بسبب ارتحالهم إلى حلب سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م).^(٦٩)

• **الروم الكاثوليك:** انشقوا عن الكنيسة الأرثوذكسية سنة (١١٣٦هـ/ ١٧٢٤م)، وبرزت هذه الطائفة بعد اعتراف السلطة العثمانية بها في (٣ ذو القعدة ١٢٤٨هـ/ ٢٤ مارس ١٨٣٣م) إثر تدخل فرنسا والنمسا.^(٧٠)

• **اليونانيون الكاثوليك:** هم من أصول عربية صرفة،^(٧١) وبلغ عددهم في سوريا سنة (١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م) حوالي سبعون ألف نسمة.^(٧٢) ولكن انتشارهم كان بشكل كبير في لبنان، إذ وصل عددهم إلى مائة وستون ألف نسمة ويتركزون بالخصوص في زحلة وبيروت.^(٧٣)

• **السريان الكاثوليك:** ظهروا كفرقة دينية سنة (١٢١٤هـ/ ١٨٠٠م) إثر انفصالهم عن الكنيسة السريانية بدفع من المطران "ميخائيل جروه"^(٧٤)، قارب عددهم أربعين ألفًا

خاتمة

إن ما طمح إليه هذا المقال، هو متابعة الواقع الطائفي والمذهبي في بلاد الشام في مرحلة حساسة ودقيقة من تاريخ الدولة العثمانية، وقد قادنا إلى جملة من الاستنتاجات، يمكن حصرها في النقاط التالية:

- التسامح الديني العثماني الذي انعكس إيجاباً على كل الطوائف والمذاهب، رغم ما كان يبدر -أحياناً- من المسؤولين المحليين من تعسف وتصرفات منحرفة، إلا أنها لم تكن تعبر مطلقاً عن المواثيق التي وضعتها الدولة والتزمت بها تجاه رعاياها في مختلف أطوار تاريخها.
- إن التنوع المذهبي داخل الطائفة الواحدة كان يتسبب في أزمات ومشاكل وصلت في خالات كثيرة إلى صراع دامي أثر بشكل كبير على الأمن والاستقرار في المجتمع العثماني.
- إن حركة الإصلاحات العثمانية خلال القرن التاسع عشر الميلادي زادت في تقوية الروابط داخل الطائفة الواحدة، رغم أن هذه الإصلاحات كانت محاولة لبناء رابطة تُوحد عناصر المجتمع المتنوعة ضمن الانتماء العثماني. فقد أضحت الأقليات - نتيجة تلك الإصلاحات- حرة في تسيير شؤونها الداخلية وبناء مؤسساتها وتكوين هوية مستقلة سرعان ما تحركت صوب مطلب الاستقلال والانفصال.
- دعمت كل طائفة في بلاد الشام ارتباطها بالقوى الأجنبية - التي كانت تؤجج الصراع بين عناصر هذا التكوين الطائفي والمذهبي- لتحقيق رغبتها في الاستقلال الذي أضحت مصلحة خاصة وحيوية تفرضها المصالح السياسية للطائفة، ولا زالت هذه الارتباطات الخارجية لحد اليوم هي التي تُحدد واقع الطائفة وموقفها السياسي من القضايا التي تُعج بها بلاد الشام ومحيطها.

الملاحق:

جدول يُجمل أتباع كل طائفة ومذهب في بلاد الشام خلال القرن (١٣ هـ / ١٩ م) (٨٤)

الوحدة	نسمة
المسلمون السنة (عرب، أكراد)	١.١٠٠.٠٠٠
المسلمون السنة (أتراك)	٨٠.٠٠٠
الموارنة	١٨٠.٠٠٠
اليونان الكاثوليك	٦٥.٠٠٠
اليونان الأرثوذكس	٥٥.٠٠٠
الأرمن	٣٥.٠٠٠
الأرمن الكاثوليك	٤٥.٠٠٠
المتاولة	٣٥.٠٠٠
اليهود	٧٥.٠٠٠
بروتستانت	١.٥٠٠

(10) M. L'abbé Jobin, **La Syrie en 1860 et 1861 LETTRES ET DOCUMENTS**, L. LEFORT IMPRIMEUR - LIBRAIRE, 1862, p 7.

(11) Nadra Moutran, **La Syrie de demain**, Libraire plan, Paris, 1916, p 29.

(12) JOBIN, op.cit, p 7.

(١٣) احسان اوغلي، مرجع سابق، ص ١٦٢.

(١٤) يتسم المذهب الحنفي بخصائص أكسبته طابعا حركيا يُمكنه من التكيف مع الواقع. فهو يعتمد على التيسير لا التعسير. كما أن صيغته في التسامح مع الآخر، تركت أثرها في نفوس الأتراك السلاجقة - وهو كان مذهب المعاملات في الدولة العباسية - إلى جانب ذلك، فهو يُجيز تولي أمور المسلمين لغير العربي القُرشي؛ ولذا اختاروا هذا المذهب دون غيره، وورث العثمانيون هذا الأمر عنهم. انظر: كمال السعيد حبيب **الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية، من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية**، ط ١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٣٨-٢٤٠؛ مصطفى الشكعة، **إسلام بلا مذاهب**، ط ١١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٤٢٠.

(15) Louis De Baudicour, **La France au Liban**, E-Penta libraire, paris, 1879, p 13.

(١٦) **المتأولة**: لقب مُشتق من "تَوَلَّى" أي اتخذ ولياً، لأنهم تولوا آل البيت النبوي، بمعنى اتخذوهم أولياء. وهو لقب عُرف به شيعة الشام وجبل عامل وجبل لبنان وبعليك منذ القرن (١١هـ / ١٧م). والتشيع في هذه المناطق أقدم منه في العالم، ما عدا الحجاز. انظر: لوثروب ستودارد **حاضر العالم الإسلامي**، تعريب عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، مج ١، ج ١، ط ٤، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.م.ن. ١٩٧٣، ص ١٩٣-١٩٤. ويُرجع محمد فريد وجدي أصولهم إلى بلاد فارس. انظر: محمد وجدي، مج ٥، مرجع سابق، ص ٣١٢.

(١٧) المذهب الاثنى عشري: تعتقد هذه الفرقة الشيعية أن الإمامة تكون في ذرية فاطمة الزهراء بنت النبي (ص)، وهي محصورة في اثني عشر إماماً يتوارثون الإمامة بالوصاية، وهم منصوص عليهم من النبي (ص). وتبدأ الإمامة بعلي بن أبي طالب، وتنتهي بمحمد بن الحسن العسكري الذي دخل سرداباً في بيت أبيه بسر من رأى (سامراء في العراق)، ولم يُعد، وهو يُنتظر إلى اليوم. ومصدر فقههم هو جعفر الصادق، الإمام السادس. ولهذا تُسمى هذه الفرقة أيضاً بالجعفرية. انظر: الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، تصحيح أحمد فهمي محمد، ج ١، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٧١؛ أبو زهرة محمد، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، ك ١، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.ن، ص ٢٦٥؛ حسين محمد نصار وزملاؤه، **الموسوعة العربية**، ط ٣، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٩٩؛ مجمع اللغة العربية، **المُعجم الكبير**، ج ٤، ط ١، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٤٦.

إن من بين أحسن ما كُتب حول المذهب الاثنى عشري، من حيث تاريخه وأصوله وعقائده، وما يُقابلها لدى جمهور أهل السنة، هو كتاب علي أحمد السالوس، **مع الاثنى عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)**، ط ٧، مكتبة دار القرآن القاهرة، ٢٠٠٣.

(١) أكمل الدين احسان اوغلي، **الدولة العثمانية تاريخ و حضارة**، ترجمة صالح سعداوي، ج ٢، إرسیکا، استانبول، ١٩٩٩، ص ١٦١. وعبد الفتاح حسن أبو عليّة، **الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير**، دار المريح للنشر، الرياض، د.ت.ن، ص ٦٧.

(٢) **سليم الأول**: سلطان عثماني حكم في الفترة (٩١٧-٩٣٦ هـ / ١٥١٢-١٥٢٠م). أجبر والده السلطان بايزيد الثاني على التنازل عن العرش، هزم الشاه الصفوي إسماعيل في معركة تشالديران (٩١٩ هـ / ١٥١٤م)، قضى على دولة المماليك (٩٢١ هـ / ١٥١٦م). انظر: ابن عماد شهاب الدين الحنبلي الدمشقي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، مج ١٠، ط ١، دار ابن كثير دمشق- بيروت، ١٩٩١، ص ٥٨٠-٥٨١؛ منير البعلبكي، **معجم أعلام المورد**، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٤١.

(٣) محمد سيار الجميل، **بقايا وجذور التكوين العربي الحديث**، ط ١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧، ص ٨٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨٤.

(٥) بعد أن وجدّ العثمانيون أنفسهم - بعد اتساع فتوحاتهم - يُديرون مناطق شاسعة، تعيش فيها طوائف غير إسلامية، استقرّ الرأي عند السلطان محمد الثاني المُلقب بالفاتح، والذي حكم في الفترة (٨٤٨-٨٥٠ هـ / ١٤٤٤-١٤٤٦م) و(٨٨٦-٨٥٠ هـ / ١٤٥١-١٤٨١م) على إصدار هذا النظام؛ الذي قسّم رعايا الدولة إلى طوائف حسب دينها. وقد منّح بموجبه لرجال الدين المسيحيين سلطة تدبير شؤون أتباعهم في الأمور الدينية والتعليمية و الأحوال الشخصية، بعيداً عن تدخل السلطة العثمانية، ماعدا استحصال الضرائب وجمعها. وكان الغرض من هذا التدبير؛ هو بناء توازن بين الطوائف وترسيخ حقوقها. لكن هذا التدبير تحوّل منذ بداية مرحلة الانحطاط إلى نظام للأقليات القومية، بعد تدخل الدول الأوروبية وفرضها للامتيازات، التي أضحت حقاً - وليس امتيازاً - تُطالب بها هذه الدول. انظر: حسين العودات، **العرب النصارى (عرض تاريخي)**، ط ١، دار الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٢، ص ١٥٥-١٥٦.

(٦) وجيه كوثراني، **السلطة و المجتمع و العمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٨، ص ٦٩.

(٧) **الطائفة**: الجماعة أو الفرقة التي يجمع بين أفرادها رابط يُميّزها عن غيرها. انظر: مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ط ٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٥٧١.

(٨) **المذهب**: المُعتقد و الطريقة. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مج ١، دار المعارف، القاهرة، د.ت.ن، ص ٣٦٦٥؛ جُبران مسعود، **الرائد**، ط ٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٣٦. من خلال التعريفين يبدو لنا أنّ مفهوم الطائفة أوسع وأشمل من مفهوم المذهب من حيث الدلالة الدينية.

(٩) بلاد الشام (سوريا): يحدّ هذا الإقليم شمالاً آسيا الصغرى، و جنوباً بلاد العرب، و شرقاً نهر الفرات والصحراء، وغرباً البحر الأبيض المتوسط تبلغ مساحته مائة ألف كلم². انظر: محمد فريد وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، مج ٥، ط ٣، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت ١٩٧١ ص ٣٢١.

الفكر العربي، القاهرة، د.ت.ن، ص ٥٣؛ الحويري مرجع سابق، ص ٤٣؛ محمد وجدي، مج ١٠، مرجع سابق، ص ٢٤٩.

(٢٨) عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢٩) كوثراني، مرجع سابق، ص ١٠٥-١٠٧.

(30) E. Dentu (Paris), op.cit, p 21.

(٣١) **الدروز:** فرقة إسماعيلية، يُخفي أتباعها عقائدهم عن غيرهم من المسلمين، نشأوا خلال العصر الفاطمي. ومحور عقيدتهم هو الخليفة الفاطمي أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الملقب بالحاكم بأمر الله. وقد ارتبطوا تاريخياً بشخصين: الأول هو محمد بن إسماعيل الدّرزي بفتح الدال المُشددة وفتح الراء؛ وهو كان أحد الدّاعين لتأليه الحاكم بأمر الله؛ الخليفة الفاطمي. والشخص الثاني هو أبو منصور أنو شتكين والذي كان أحد قادة الحاكم بأمر الله، ولا يزال الدروز يُجلّونه لحد اليوم. يُؤمنون بخُلُول الإله في نفس الإمام، وعبادته واجبة. ويُكرّون جميع أحكام وعبادات الإسلام وأصوله. أما علومهم الدينية فهي غير مطبوعة، ولا يُطالعها إلا العُقّال منهم، وهم الذين يعرفون الأمور الدينية؛ أما الذين لا يعرفونها فيُطلق عليهم اسم الجهال. ويُفضل الدروز أن يُطلق عليهم اسم الموحدين. انظر: بطرس البستاني، **دائرة المعارف**، مج ٧، دن. بيروت، ١٨٧٦، ص ٦٧١-٦٧٧؛ محمد وجدي، مرجع سابق، مج ٤، ص ٢٦-٢٨؛ الشكعة، مرجع سابق، ص ٢٦٠؛ محمود إسماعيل، مرجع سابق، ص ٧٩؛ أبو زهرة، مرجع سابق، ص ٥٤. وللمزيد من التفصيل حول الدروز ومعتقداتهم، يُراجع: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، **الموسوعة المُبسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المُعاصرة**، ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٣٢) الحويري، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٣٣) الشكعة، مرجع سابق، ص ٢٦١.

(34) E. Dentu (Paris), op.cit, p 21.

(35) Le .P. Joseph Besson, **La Syrie et la Terre Saint Au XVI siècle**, victor palmé libraire, Paris p10; Jobin, op.cit, p 7.

(٣٦) أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ط ١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ٨١.

(37) Jobin, op.cit, p 6.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٨٢-٨٦.

(٣٩) لورنيت، **أرض الذكريات ٢٠٠ لوحة رائعة من القرن الماضي (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)**، ط ٢، شركة لمطبوعات للنشر والتوزيع

بيروت، ١٩٩٥، ص ٤٤.

(٤٠) أندريه ريمون، ص ٨٢.

(٤١) للمزيد من التفصيل حول المذاهب المسيحية: تاريخها، نشأتها، عقائدها واختلافاتها. يُراجع: محمد وجدي، مج ٣، مرجع سابق، ص ١٦٤-١٨٠.

(٤٢) عبد العزيز محمد عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤** م، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.ن، ص ٦.

(٤٣) عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٤٤) المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٤٥) عبد الرزاق عيسى، ص ٥٤.

(18) De Baudicour, op.cit, p 30.

(19) Le Vicomte De Basterot, " **Le Liban, La Galilée et Rome** ", journal d'un voyage en orient et en Italie, septembre 1867- mars 1868, Charles Douniol, Libraire-Editeur, Paris, p79-80.

(20) De Baudicour, p 30.

(21) E.Dentu (Paris), " **La syrie devant l'Europe** ", Bibliothèque nationale de France, paris 1861, p13.

(22) Jobin, op.cit, p 7.

(٢٣) كوثراني، مرجع سابق، ص ٦٧. لا يمكن تفسير هذا السلوك إلى العامل المذهبي، فقد عاش الشيعة الاثني عشرية في أرجاء الدولة العثمانية خصوصاً في الأناضول بسلام، قبل تأسيس الدولة الصفوية (٩٠٦ هـ/ ١٥٠١ م). ولذلك يبدو أن التحالف السياسي الذي كان يربط هذه المجموعة المذهبية بالدول التي نشأت في بلاد فارس (إيران)، وفي مقدمتها الدولة الصفوية، هو الذي كان سبباً في هذه الريبة والتوجس العثماني، ولا تزال صور هذا التحالف قائمة حتى يومنا هذا.

(٢٤) **الإسماعيليون:** فرقة شيعية تقف في تسلسل الأئمة عند إسماعيل بن جعفر الصادق، الذي توفي في حياة أبيه - ويؤمن بعضهم بأنه حي لم يمت وبعضهم الآخر يعتقد بأنه مات وعاش بعد موته. وهو اليوم حي مُستتر، وسوف يظهر ليملاً الأرض عدلاً كمت مُلئت جوراً - ولذا سُموا بالشيعة السبعية. ومن بين أهم عقائدهم، أنّ لكل نص ديني معنيان: معنى ظاهراً يفهمه عامة الناس، ومعنى باطنياً، لا يقدر على فهمه إلا الأئمة وقد تمكّن الإسماعيليون من تأسيس عدة دول في التاريخ الإسلامي. انظر: الحاج يوسف خليل محمد، **الأبناء الخفية عن الشيعة العلوية**، ط ١، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٧٩؛ الشهرستاني، مصدر سابق، ص ١٧٠.

(٢٥) محمود محمد الحويري، **الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد**، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٣٢-٣٤.

(٢٦) عبد الرزاق عيسى، **التنصير الأمريكي في بلاد الشام ١٨٣٤-١٩١٤**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٧-٢٩.

(٢٧) **التنصيريون:** من غلاة الشيعة، ينسبون أنفسهم إلى نصير غلام علي بن أب طالب رضي الله عنه، غير أن الأغلب هو انتسابهم إلى مؤسس الفرقة محمد بن نصير التميمي البصري، وهو من بلاد فارس، توفي في ٢٧٠ هـ. ويوجد رأي آخر يُرجع تسميتهم تلك إلى جبل النصيرية الذي احتموا به هرباً من الصراعات الطائفية الدامية التي كانت تقع بين الحين والآخر. وهم يفضلون تسمية العلويين الحديثة التي ارتبطت بالاستعمار الفرنسي على تسمية النصيريين. ومن أهم عقائدهم أنّ علي بن أبي طالب إله أو قريب من الإله؛ كما يحتفظ أتباعها بأسرار عقيدتهم، ومن يُفشيها يُقتل. انظر: عبد المنعم الحفني، **موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية**، ط ١، دار الرشد، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣٩٤؛ الشكعة، مرجع سابق، ص ٣٢٣؛ محمود إسماعيل، **فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني**، ط ١، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٤٣؛ أبو زهرة محمد **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، ك ١، دار

(82) Moutran, pp 147- 149.

(٨٣) عبد الرزاق عيسى، ص ٥٩.

(84) Edwards, Richard, **La Syrie 1840-1862, histoire, politique, administration, population religions et moeurs, événements de 1860 d'après des actes officiels et des documents authentique**, Amyot (Paris), 1862, p 12-13.

إن التناقض الواضح في أعداد أتباع كل طائفة ومذهب التي أوردتها المصادر والمراجع التي وُظفت في البحث، يعود بالأساس إلى غياب الإحصاء الدقيق لسكان بلاد الشام - على غرار بقية أقاليم الدولة العثمانية - ويمكن تبرير ذلك بعدم امتلاك السلطة آنذاك للآليات التي تسمح لها بإجراء مسح دقيق للسكان، من حيث توزيعهم الطائفي والمذهبي. زيادة على ذلك، لاحظنا أن هناك ميولاً لدى المصادر الفرنسية التي تناولت وضع بلاد الشام في هذه الفترة الزمنية باتجاه طائفة الموارنة - سواء في الأعداد أو في تبرير الصراعات التي كانت تندلع بين الحين والآخر بينها وبين بقية الطوائف لا سيما الدروز - وهو واقع فرضته الظروف التاريخية التي تحكممت في الوضع الطائفي والمذهبي في المنطقة، والتي لا تزال تضبط العلاقات الخارجية للطوائف والمذاهب بالقوى السياسية الإسلامية والمسيحية في العالم.

(٤٦) أحمد القضاة، "الطوائف المسيحية في القدس"، مجلة فلسطين، ١٨ع، تشرين الأول ٢٠١١، دار العروة الوثقى، بيروت، ص ٢٠.
(٤٧) نفسه، ص ٥٥-٥٦.

(48) De Baudicour, op.cit, p 7- 8.

(49) Moutran, op.cit, p 354.

(50) Le .P. Joseph, op.cit., p37.

(51) De Baudicour, p15.

(52) Moutran, p 390.

(٥٣) عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص ٥٧.

(54) Moutran, p 390.

(55) T.W.M.Marshall, **Les Missions Chrétiennes**, Ambroise Bray libraire-éditeur, paris, 1865. p 51.

(٥٦) ينتمي الأحباش إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، استعانوا في البقاء ببلاد الشام بملك الحبشة النجاشي يوحنا، الذي كان يمدّهم بالمال اللازم لعيشهم. وتركزوا بالخصوص في القدس. انظر: أحمد القضاة، مرجع سابق، ص ٢٠. عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٥٧) عبد الرزاق عيسى، ص ٤٥.

(٥٨) أندريه ريمون، مرجع سابق، ص ٨٤.

(59) M.Marshall, op.cit, p 51-52.

(60) Jobin, op.cit, p 4.

(٦١) الحويري، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٦٢) يَصِفُ JOBIN الفتح الإسلامي بـ "L'invation arab"، أي الغزو العربي. ونُشير هنا إلى أنه رجل دين مسيحي عاش في الفترة محل الدراسة، وآلف كتابه دفاعاً عن الموارنة الذين كانوا أشد الطوائف التي عانت من الاضطهاد من السلطة العثمانية وبقية الطوائف - وفق ما ذكره - وفي مقدمتها الدروز والسُنة. انظر: JOBIN, op.cit. p 4.

(63) Ibidem.

(٦٤) عبد العزيز عوض، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

(65) De Baudicour, op.cit., p 5.

(66) M.Marshall, op.cit., p 82; ٧٩ ص، مرجع سابق، الحويري

(67) De Baudicour, p 12.

(68) De Basterot, op.cit., p73; JOBIN, op.cit., p 4.

(٦٩) عبد العزيز عوض، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

(٧٠) عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص ٥٠: أحمد القضاة، مرجع سابق، ص ٢٠.

(71) Moutran, op.cit, p 369.

(72) De Baudicour, op.cit, p 7.

(73) Ibidem, p 15.

(٧٤) عبد الرزاق عيسى، ص ٥١.

(75) Moutran, p 390.

(٧٦) المرجع السابق، ص ٥١.

(٧٧) أحمد القضاة، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٧٨) عبد الرزاق عيسى، ص ٥١-٥٢.

(٧٩) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٨٠) أندريه ريمون، مرجع سابق، ص ٥١.

(٨١) نفسه، ص ٥٦.

الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال الكتابات الجغرافية العربية

خديجة بورملة

باحثة دكتوراه في التاريخ الوسيط
قسم التاريخ وعلم الآثار
جامعة وهران - الجمهورية الجزائرية



ملخص

تشكل كتب الجغرافيا مادة مصدرة هامة لدراسة تاريخ المغرب الإسلامي عمومًا، وتاريخ المغرب الأوسط على وجه الخصوص، فقد اهتم الجغرافيون بوصف مدنه وأقاليمه، وكذا وصف الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان، إلا أن الجانب الاقتصادي بالذات حظي بعناية كبيرة من طرف الجغرافيين، حيث تشتمل المصادر الجغرافية على أوصاف ثمينة وقيمة تلمس الاقتصاد مباشرة وبجميع مجالاته، وبالتالي يمثل هذا النوع من التأليف مصدرًا لا غنى عنه لدراسة الأحوال الاقتصادية لبلاد المغرب. إن ما تطرقت إليه كتب الجغرافيا من خلال الأوصاف التي قدمها الجغرافيون العرب لمدن وقرى المغرب الأوسط، تدل على أنها تحتوي على معلومات هامة عن الحياة الاقتصادية بهذه البلاد، فقد تضمنت كتاباتهم الحديث عن الزراعة والمحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية والسمكية، والصناعات والحرف المشهورة، وكذا التجارة والأسواق التجارية، وأهم طرق النقل التي تربط مدن المغرب الأوسط فيما بينها، والمغرب الأوسط وما جاوره من البلدان.

كلمات مفتاحية:

كتب الجغرافيا، المغرب الأوسط، المنتجات الفلاحية، المكايل
والموازين، المراكز التجارية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٦ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٤ مايو ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

خديجة بورملة، "الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال الكتابات الجغرافية العربية"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٩١ - ١١٠.

مقدمة

تشير العديد من الدراسات ^(١) إلى الأهمية الكبيرة التي تكتسبها كتب الجغرافيا العربية ^(٢) في التعرف على مظاهر الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، وعلى الرغم مما تحويه هذه المصادر من معلومات قيمة تلمس الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إلا أن مجمل الأبحاث الحديثة لا تزال تستخدمها كمصادر ثانوية تستفيد منها أثناء التعريف بمنطقة أو مدينة معينة، فمن المؤكد أن الجغرافيين ركزوا اهتمامهم على التعريف بالمناطق التي درسوها من ناحية الموقع والمظاهر التضاريسية والإنتاج النباتي والحيواني والمعدني، وكذا النشاطات المختلفة للسكان، إلا أنهم في غالب الأحيان يتوسعون في إيراد معلومات أخرى تكون في غاية الأهمية بالنسبة للمؤرخ، قادرة

على الإجابة عن كثير من الأسئلة وفي مختلف المجالات، وبالتالي تشكل كتب الجغرافيا مادة مصدرة يجب استغلالها في دراسة تاريخ المغرب الإسلامي عمومًا والمغرب الأوسط على وجه الخصوص.

وموضوع "الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال الكتابات الجغرافية العربية" يدخل ضمن هذا الإطار، أي دراسة للأوضاع الاقتصادية بالمغرب الأوسط من خلال نصوص مصدرة معينة تتمثل في كتب الجغرافيا، ومن هنا فإن الاعتماد على هذه النصوص لرسم صورة المغرب الأوسط الاقتصادية يعتبر موضوعًا في غاية الأهمية، فهذا النوع من المصادر - بخلاف المصادر الإخبارية التي تؤرخ مباشرة للدول والحكام وتهتم بالجانب السياسي أكثر من غيره من الجوانب - تحتوي على

خصوصًا خلال فترة حكم الدولة الزيانية، وذلك من خلال نصوص مصدرية معينة، لكن ما يلاحظ عليها هو غلبة الجانب السياسي على بقية الجوانب الأخرى. تشير كتب الجغرافيا في العديد من النصوص إلى غنى إقليم المغرب الأوسط من الناحية الاقتصادية، وهذا راجع إلى ما يزخر به هذا الأخير من الموارد الطبيعية والزراعية والمعدنية، حيث تُعدّ غنية من الناحية الفلاحية بما تنتجه من محاصيل زراعية متنوعة وثروة حيوانية كبيرة، ومن الناحية الصناعية بما لديها من مواد أولية معدنية وخشبية تمول الكثير من الصناعات والحرف، وهذا الإنتاج الكبير هو الذي جعل منها سوقًا ومركزًا تجاريًا كبيرًا.

أولاً: الزراعة ومصادر المياه

تشير النصوص الجغرافية إلى أن بلاد المغرب الأوسط احتوت على العديد من المناطق ذات الإنتاج الزراعي الكبير، وهذا بفضل سلسلة من الأنهار والأودية الموجودة في المنطقة.

١/١ - موارد المياه:

غالبًا ما نتحدث كتب الجغرافيا عن مصادر المياه ببلاد المغرب الأوسط من أنهار وأودية وأعين وينابيع ماء، ولم يخل أي وصف لمدينة أو قرية من الحديث عن مصدر الماء الموجود بها، وهو أمر لا يرتبط بالزراعة فقط بل يرتبط بالشرب أيضًا، فكلما ذكر جغرافي أو رحالة مدينة من مدن هذه البلاد إلا وذكر منبع الماء الذي تعتمد عليه في حياتها. يمكن تعداد الأنهار والأودية الكبيرة في المغرب الأوسط حسب المصادر الجغرافية على الشكل التالي:

وادي مُلاق: من الأودية المشهورة والذي يسقي العديد من أراضي مدن المغرب الأوسط، حيث أشار إليه العديد من الجغرافيين العرب⁽³⁾، من بينهم البكري الذي يقول عنه: «... وهو نهر عظيم يسقي نواحي فحص بُل»⁽⁴⁾.

وادي سهر: يسقي هذا النهر العديد من الأراضي الزراعية، من بينها أراضي مدينة المسيلة التي اتفق الجغرافيون المسلمون⁽⁵⁾ على أنها ذات إنتاج فلاحى كبير بفضل مياه هذا النهر، الذي ينبع من عيون داخل مدينة تسمى مدينة الغدير⁽⁶⁾. يقول ابن حوقل عن هذه المدينة: «ومن مقره إلى المسيلة مرحلة، وهي مدينة محدثة... ولها واد يقال له وادي سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض وليس بالعميق، ولهم عليه كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم...»⁽⁷⁾.

وادي بجاية: يُعدّ من بين الأودية العظيمة بالمغرب الأوسط، أشار إليه معظم الجغرافيين العرب⁽⁸⁾، حتى أن المراكشي⁽⁹⁾ ذكره ضمن الأنهار العظام التي بالمغرب وسماه الوادي الكبير⁽¹⁰⁾ وهو على بعد ميل من مدينة بجاية يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة⁽¹¹⁾.

مادة تاريخية تمس بصفة مباشرة الحياة العامة في المغرب الأوسط، وهي المواضيع التي تتجه نحوها الدراسات الحديثة باعتبار أن المواضيع السياسية والعسكرية أصبحت مستهلكة. ثم إن اختيار هذا الموضوع بالذات راجع لأنه يشكل من جهة مجالًا واسعًا للدراسة، ومن جهة أخرى لم يعط لهذا النوع من المصادر حقها من البحث والاستقصاء، مع احتوائها على معلومات تاريخية قادرة على سد الكثير من الثغرات الموجودة في المصادر الإخبارية خاصة فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما أن هذا الموضوع يطرح العديد من الإشكاليات لعل أهمها: ما هي الصورة التي وضعها الجغرافيون العرب لاقتصاد المغرب الأوسط من خلال كتاباتهم ونصوصهم؟ أو بصيغة أخرى: ما هو حظ الجانب الاقتصادي في التأليف الجغرافي؟ وهذه الإشكالية تتفرع عنها العديد من الأسئلة منها: ما هي الأوصاف التي أعطتها كتب الجغرافيا للحياة الاقتصادية بالمغرب الأوسط؟ وما هي الجوانب التي مستها هذه المصادر بالدراسة من هذا المجال؟ وهو ما يقودنا إلى طرح سؤال آخر هو: إلى أي حد يمكن لهذه المصادر أن تساعدنا في رسم صورة الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط؟

وعلى الرغم مما تزخر به هذه المصادر من معلومات قيمة حول تاريخ المغرب الأوسط إلا أن الدراسات حولها لا تزال قليلة ولم تحظ بدراسة موسعة من قبل الباحثين والمؤرخين المهتمين بتاريخ المغرب الإسلامي عامة؛ من بين الدراسات التي اهتمت بالموضوع الكتاب الجماعي الذي أصدره المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ والمعنون بـ: "تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر"، ففي الفصلين السابع والثامن: "المغرب الأوسط في كتابة الرحالة والجغرافيين العرب" و"أوصاف الجزائر في كتابة أبي عبيد البكري"، يعرفنا الدكتور خلف محمد نجيب بتاريخ المغرب الأوسط من خلال أعمال بعض الجغرافيين نذكر منهم: ابن حوقل وكتابه "صورة الأرض"، وابن خرداذبة وكتابه "المسالك والممالك"، والبكري وكتابه "المسالك والممالك"، وعلى الرغم من أهمية هذه الفصول إلا أنها لا تتعرض بالدراسة إلى مصادر جغرافية مهمة جدا مثل كتاب الإدريسي، كتاب الاستبصار والمعجم الجغرافية مثل كتاب الحموي والحميري، كما أنها تركت المادة التاريخية المستخرجة من نصوص هذه المصادر دون تصنيف.

وبالإضافة إلى هذه الدراسات توجد دراسة أخرى قام بإعدادها الطالب علوي مصطفى في إطار تحضير مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، والتي تحمل عنوان: "صورة المغرب الأوسط في كتابات الرحالة والجغرافيين المغاربة، ما بين القرنين (السابع والتاسع الهجريين) / الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين)، وهي محاولة جادة لكتابة تاريخ المغرب الأوسط

من النشاطات المرتبطة بالمياه، وبالتالي فإن هذه المصادر اكتفت بتعداد مصادر المياه التي تستفيد منها الزراعة، وانتقلت مباشرة إلى تعداد المحاصيل الزراعية التي تشتهر بها كل منطقة أو مدينة.

٢/١- المحاصيل الزراعية:

تدل المعلومات التي أوردتها كتب الجغرافيا على أن بلاد المغرب الأوسط هي بلاد ذات إنتاج زراعي وافر، تتنوع فيها المحاصيل الزراعية من منطقة إلى أخرى، حتى أن كل مدينة من مدنها بالإضافة إلى اشتهاها بإنتاج مادة معينة، تقوم بإنتاج مواد زراعية مختلفة، ومن هنا نحاول تصنيف المنتجات الفلاحية لبلاد المغرب الأوسط على الشكل التالي:

١-٢ (٢/١) - الحبوب:

تشكل الحبوب وخاصة القمح والشعير الإنتاج الهام والوفير بالمغرب الأوسط، فقد كانت سهول قسنطينة والمسيلى وطبنة وتنس وشرشال تمتد هذه البلاد بكميات كبيرة من إنتاج القمح⁽³⁵⁾، وكانت الأراضي التي تندرج من سهل شلف من أجود الأراضي الفلاحية، وكذلك أراضي سهل متيجة كانت هي الأخرى مستغلة، فازدهرت الزراعة وقوي إنتاجها وأصبحت مصدرا للثروة.⁽³⁶⁾ اتفق الجغرافيون على أن مدينة بونة كانت من بين المناطق التي لها إنتاج وفير من القمح والشعير، وفي هذا الصدد يقول ابن حوقل: «... والقمح بها والشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له...»⁽³⁷⁾ تعد باغاي كذلك من المدن المنتجة للحبوب، حيث أن «أكثر غلاتهم الحنطة والشعير»⁽³⁸⁾، ومدينة طبنة هي الأخرى من بين المدن المنتجة للحبوب بمختلف أنواعها فهي كبيرة المزارع تنتج القطن والحنطة والشعير والكتان والحبوب عموما عندهم كثيرة غزيرة⁽³⁹⁾.

أما مدينة بجاية، ففضلاً عن كونها احتلت لفترة طويلة مركزاً سياسياً كبيراً باعتبارها عاصمة للدولة الحمادية (٤٠٥-٥٤٧ هـ/ ١٠١٤-١١٥٣ م)، ثم حاضرة كبرى تأتي في المرتبة الثالثة بعد تونس وقسنطينة في عهد الحفصيين حبتها الطبيعة بأفق فسيح، كانت تستغل أراضيها وسهولها استغلالاً جيداً في الإنتاج الزراعي⁽⁴⁰⁾، فاتساع أراضيها الزراعية ساهم في وفرة الإنتاج الفلاحي خاصة الحبوب، حيث أن «لها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودة بكثرة»⁽⁴¹⁾ وعلى العموم «كان لبني حماد اهتمام ملحوظ بزراعة القمح والشعير التي انتشرت في المغرب الأوسط كله، وبشكل خاص في نواحي قسنطينة والقلعة وباغاية وطبنة وبونة وجيجل وسطيف والجزائر وشرشال وبرشك وبنطوس ومنتجة»⁽⁴²⁾.

تشير المصادر الجغرافية من جهة أخرى إلى مدن المغرب الأوسط ذات الإنتاج الفلاحي الواسع الذي يزيد عن الحاجة ويستخدم في التصدير، وذلك راجع لشساعة الأراضي الفلاحية ولجودة هذه الأراضي مما يجعل محصولها من الحبوب يجنى

وادي شلف: من الأودية التي تسقي أراضي العديد من مدن المغرب الأوسط، منها مدينة شلف⁽¹²⁾، مليانة⁽¹³⁾، الخضراء⁽¹⁴⁾، سوق إبراهيم⁽¹⁵⁾، مستغانم⁽¹⁶⁾ وغيرها.

وادي تناتين: وادي بالقرب من مدينة تنس⁽¹⁷⁾، «... يأتيها من جبل على مسيرة يوم فيأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق، ويريق في البحر...»⁽¹⁸⁾.

وادي مينا: هو الوادي الذي يسقي أراضي منطقة تيهرت⁽¹⁹⁾، ويأتيها من جهة القبلة⁽²⁰⁾.

نهر سيرات: يجري هذا النهر تحت قلعة هواره بالقرب من تيهرت⁽²¹⁾، «وهي قلعة منبوعة في جبل خصب ... وتحتها فحص طوله نحو أربعين ميلا يشقه نهر سيرات ويسقي أكثر أرضه، يسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر. ونهر سيرات نهر كبير مشهور يقع في البحر عند مدينة أزواوا...»⁽²²⁾.

نهر سطفسييف: هو النهر الذي يمر بمدينة تلمسان⁽²³⁾، يقول عنه البكري: «وفي الشمال من تلمسان منزل يسمى باب القصر فوقه جبل يسمى جبل البغل ينبعث من أسفله نهر سطفسييف، ويصب في بركة عظيمة من عمل الأول... ثم ينبثق منها بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المهماز، وإلى ولج الحناء إلى جنان الحاج حتى يصب في نهر أسر، ثم ينصب في نهر تافنا، وهو نهر يصل إلى مدينة أرشقول، وهناك ينصب في البحر...»⁽²⁴⁾.

واديالتافنا: هو الوادي الذي يمر بمدينة أرشقول⁽²⁵⁾، وهي «مدينة في ساحل تلمسان من أرض المغرب بينهما فحص طوله خمسة وعشرون ميلا، ومدينة أرشقول على نهر تافنا يقبل من قبليها ويسير بشرقيها، تدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة وبينهما ميلان...»⁽²⁶⁾.

وادي بسكرة: هو الوادي الذي يشق مدينة بسكرة ويسقي أكثر أراضيها⁽²⁷⁾، حيث يقول صاحب كتاب الاستبصار عن هذا الوادي: «... ويشق غابة بسكرة نهر كبير ينحدر من جبل أوراس يسقي بساينها ونخلها، وهو نحو ستة أميال في غابة متصلة بالمدينة يشق غابتها وقراها»⁽²⁸⁾.

وبالإضافة إلى هذه الأودية الكبيرة المشهورة في المغرب الأوسط، توجد أودية أخرى تطرقت إليها الكتابات الجغرافية لا يمكن حصرها جميعا، بحيث لا تكاد تخلو مدينة أو قرية من مصدر للمياه تعتمد عليه في سقي أراضيها الزراعية، لم يتسع المقام لذكرها جميعا مثل: بونة⁽²⁹⁾، وقسنطينة⁽³⁰⁾، ومنتجة⁽³¹⁾، ومدن بنطوس⁽³²⁾، وفكان⁽³³⁾، ووهران⁽³⁴⁾، وهذه المدن وغيرها اتفقت جميع المصادر على أنها ذات إنتاج فلاحى وفير بفضل وفرة المياه وتنوع مصادرها، لكن الملاحظ أن هذه الكتب بخلت علينا بتوضيح الكيفية التي من خلالها يتم استغلال المياه، والطريقة المستخدمة لسقي الأراضي الزراعية، هل كانت عن طريق قنوات مغلقة أو سواقي مكشوفة؟ بالإضافة إلى استغلال جريان الأودية والأنهار في طحن الحبوب وعسر الزيتون وغيرها

وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار، ... وحواليها بساتين كثيرة، وهي في غابة كبيرة مقدار ستة أميال، فيها أجناس التمور، منها جنس يعرفونه بالكسبا، وهو: الصيحاني، يضرب به المثل لفضله على غيره، وجنس يعرف بالباري: أبيض أملس، كان عبید الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحضير عليه، وبعث ما هنالك منه إليه، وأجناس كثيرة يطول ذكرها، لا يعدل بها غيرها»⁽⁵⁵⁾

وبالإضافة إلى مدينة بسكرة توجد العديد من مدن المغرب الأوسط التي تشتهر هي الأخرى بإنتاج التمور والزيتون، من بينها بنطوبوس، «وهي ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، ... وأكثر ثمارها النخل والزيتون»⁽⁵⁶⁾ مدينة طولقة، «وهي كثيرة البساتين بالزيتون والأعناب والنخيل والشجر وجميع الثمار...»⁽⁵⁷⁾ مدينة طبنة، «... وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع...، والتمر بها كثير...»⁽⁵⁸⁾ «ومدينة المسيلة كثيرة النخل والبساتين...»⁽⁵⁹⁾ مدينة تهودة، «وهي مدينة أهلة كثيرة الثمار والنخل والزروع»⁽⁶⁰⁾ مدينة ورقلة وهي «كثيرة النخل والخيرات»⁽⁶¹⁾ وهو ما جعل محصول التمور في المغرب الأوسط يزيد عن الحاجة ويوجه إلى التصدير خاصة إلى إفريقيا.

(٢/١) ٣- الفواكه:

كان إقليم المغرب الأوسط باعتباره إقليمًا زراعيًا بالدرجة الأولى، ينتج أنواعًا مختلفة من الفواكه من تين وسفرجل وجوز وعنب وتفاخ وغيرها، وهذا راجع إلى كثرة الأشجار المثمرة، حيث لم يخلو أي وصف من الأوصاف التي وضعها الجغرافيون العرب لمختلف مدن وقرى هذه البلاد من الإشارة إلى احتوائها على الأشجار المثمرة. تعتبر مدينة مرسى الدجاج من المناطق المشهورة بإنتاج التين، حيث «... يحمل منها شرائح طويًا ومنثورًا إلى سائر الأقطار، وأقاصي المدائن والأمصا، وهي بذلك مشهورة»⁽⁶²⁾ ومن الفواكه التي كان إنتاجها وافرًا في المغرب الأوسط، السفرجل بالعديد من المدن مثل برشك⁽⁶³⁾، وتنس⁽⁶⁴⁾، والمسيلة⁽⁶⁵⁾، وتيهرت⁽⁶⁶⁾ وشرشال⁽⁶⁷⁾، والجوز بمدن نقاوس⁽⁶⁸⁾، وتبسة⁽⁶⁹⁾، وسطيف⁽⁷⁰⁾، وتلمسان⁽⁷¹⁾، وكانت هذه الثمار معدة للتصدير لبقية الأقطار المجاورة لهذه البلاد.

(٢/١) ٤- القطن والكتان:

من بين المحاصيل الزراعية التي يتم إنتاجها في عدد من مدن المغرب الأوسط وبكميات كبيرة، حيث نجد في كتابات كل من ابن حوقل، والبكري والإدريسي ما يشير إلى ذلك. ومن أهم المدن المنتجة لهذه المحاصيل: مدينة بونة، التي «... يزرع بها الكتان»⁽⁷²⁾، ومدينة طبنة، فهي «... كبيرة البساتين والزروع والقطن...»⁽⁷³⁾ ويزرعون الكتان...⁽⁷⁴⁾، والمسيلة، «ومن غلاتهم القطن...»⁽⁷⁴⁾، وكذا متيجة، «وهي أكثر تلك النواحي كثانا ومنها يحمل»⁽⁷⁵⁾، ومستغانم، «... ذات عيون وبساتين وطواحين ماء،

مرتين في السنة. من بين هذه المدن مدينة مرسى الدجاج، فهي مدينة «... بها من رخص الأسعار أيضًا في الفواكه والمأكول والمطاعم والقمح والشعير والألبان والمواشي ما يُعْرِق غيرهم ممن يجاورهم...»⁽⁴³⁾، ومدينة شرشال التي بها «... من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة»⁽⁴⁴⁾، ومدينة بادس التي «... يزدعون بها الشعير مرتين في العام»⁽⁴⁵⁾، وهو ما يؤكد صاحب كتاب الاستبصار في قوله: «وهي مدينة كبيرة، لها حصنان وأرباض واسعة وبساتين كثيرة ومزارع جليلة يزدعون فيها الشعير مرتين في السنة على مياه سائحة...»⁽⁴⁶⁾

يشير العديد من الجغرافيين إلى أهمية مدينة تنس من الناحية الزراعية، وخاصة فيما يتعلق بإنتاج القمح، حيث يقول ابن سعيد المغربي عن المدينة: «... وهي مشهورة بكثرة القمح، ومنها يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس وغيرها...»⁽⁴⁷⁾، وهو ما يشير إليه الإدريسي في قوله: «... ولها أقاليم وأعمال ومزارع، وبها الحنطة ممكنة جدًا، وسائر الحبوب موجودة، وتخرج منها إلى كل الآفاق في المراكب...»⁽⁴⁸⁾، ويؤكد ذلك صاحب كتاب الاستبصار: «... وهي كثيرة الزرع، رخيصة الأسعار، منها يحمل الطعام إلى الأندلس وإلى بلاد إفريقية وإلى بلاد المغرب لكثرة الزرع عندهم...»⁽⁴⁹⁾

تطرقت المصادر الجغرافية إلى المناخ والدور الذي يلعبه في الناحية الزراعية حيث تؤكد العديد من هذه المصادر على أن البرودة التي تتسم بها بعض المناطق من بلاد المغرب الأوسط تساعد على الحفاظ على المنتجات الفلاحية وخاصة الحبوب، فتخزن لسنوات دون أن تفسد، وهو ما يورده الإدريسي عند وصفه لمدينة القلعة: «... والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية، دار الملك لبني حماد، وفيها كانت ذخائرهم مدخرة، وجميع أموالهم مختزنة، ودار أسلحتهم، والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير»⁽⁵⁰⁾ وهي الملاحظة نفسها التي يبيدها فيما يتعلق بإنتاج الحبوب في مدينة قسنطينة: «... ومدينة قسنطينة عامرة، وبها أسواق وتجارة، وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب، وتشارك في الحرث والادخار، والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد...»⁽⁵¹⁾، ويضيف في موضع آخر: «وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع منقورة في الحجر، ولذلك تبقى بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها...»⁽⁵²⁾

(٢/١) ٢- التمر والزيتون:

منذ أقدم العصور كانت غابات النخيل تغطي المناطق الممتدة من جنوب قسنطينة إلى بسكرة وطولقة، وكان تمر مدينة بسكرة يتمتع بشهرة خاصة ولا سيما النوع الذي كان يعرف بالكسبا أو الصيحاني، والنوع الذي يسمى بالباري، حيث كان عبید الله الشيعي⁽⁵³⁾ يمنع عماله من بيعه وإرسال ما تنتجه المنطقة منه إلى قصوره⁽⁵⁴⁾. يقول البكري عن بسكرة: «...

ويبذر في أرضها القطن فيجود»⁽⁷⁶⁾، ومدينة مقرة، «... وأهلها يزرعون الكتان، وهو عندهم كثير»⁽⁷⁷⁾.

وبالإضافة إلى هذه المحاصيل الزراعية الوفيرة والمشهورة، ينتج إقليم المغرب الأوسط محاصيل أخرى يوردها العمري عند وصفه لمملكتي إفريقية وبر العدو، حيث يقول عن مملكة إفريقية: «والموجود بها من الحبوب: القمح، والشعير، والحمص، والفول، والعدس، والذرة، والدُّخْن، والجلبان، والبسلة، وتسمى بإفريقية النسيم، وأما الأرز فمجلوب إليها، وبها من الفواكه العنب والتين كلاهما على أنواع، والرمال الحلو والمُرُّ والحامض، والسفرجل، والتفاح، والكُمثرى، والعُتَاب، والزعرور، والخوخ أنواع، والمشمش أنواع، والتوت الأبيض والأسود المسمى بالقرصاد، والعين، والقراسيا، والزيتون، والأنثُرُج، والليمون، والليم، والأنثُرُج، وأما الجوز فقليل، وكذلك النخل، وأما الفستق والبندق فلا يوجد وكذلك الموز، ... وأما قصب السكر فيوجد منه ما قل بها ولا يعتصر، وبها البطيخ الأصفر على أنواع، والبطيخ الأخضر، ولكنه قليل ويسمى بها خاصة وبالمغرب عامة الدلاع ...»⁽⁷⁸⁾ وعن مملكة بر العدو يقول: «وبر العدو به من أرزاق الحبوب القمح، والشعير، والفول، والحمص، والعدس، والدُّخْن، والسلت، وغير ذلك إلا الأرز فإنه قليل... وبها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المتعددة الأنواع والأجناس من النخل والعنب، والتين، والرمال، والزيتون، والسفرجل، والتفاح على أصناف، والكُمثرى كذلك، ويسمى ببر العدو الإنجاص كما يسمى بدمشق، والمشمش، والعين والبرقوق، والقراسيا، والخوخ غالب ذلك على عدة أنواع، وأما التوت فقليل، وبها الجوز، واللوز، ولا يوجد بها الفستق والبندق إلا إن جاء مجلوبا»⁽⁷⁹⁾.

٣/١- الثروة الحيوانية والسلمكية:

كانت تربية المواشي ببلاد المغرب الأوسط تقوم جنباً إلى جنب مع الزراعة، فالمحصول الزراعي مقرون بالإنتاج الحيواني، فهو من أنشطته واهتماماته، حيث تعد الثروة الحيوانية مصدراً هاماً للاقتصاد، وذلك بإنتاج اللحوم ومد الصناعة بالصوف، وعسكرياً باستخدام الخيول في الحرب⁽⁸⁰⁾.

١- المواشي والخيول:

اشتهرت العديد من مدن المغرب الأوسط بكثرة ماشيتها، من بينها مدينة بونة المعروفة بتربية الأبقار⁽⁸¹⁾، حيث يقول ابن حوقل: «... وأكثر سوائمهم البقر، ولهم إقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير، وقلّ من بها تفوته الخيل السائمة للنتاج»⁽⁸²⁾ مدينة تاهرت هي الأخرى من المدن التي تكثر بها الماشية والخيول، حيث يقول ابن حوقل أنها «... أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين»⁽⁸³⁾ الفراهية...⁽⁸⁴⁾، وهو ما يؤكد الإدريسي في قوله: «وبها من نتاج البراذين والخيول كل حسن، وأما البقر والغنم بها فكثيرة جداً»⁽⁸⁵⁾. من جهة أخرى يشير الحموي إلى تربية الخيول بمدينة تلمسان ويؤكد على

نوعيتها الجيدة، فيقول: «ويكون بتلمسان الخيل الراشدية، لها فضل على سائر الخيل»⁽⁸⁶⁾ كما تُعدّ كل من طينة⁽⁸⁷⁾، والمسيلة⁽⁸⁸⁾، والجزائر⁽⁸⁹⁾، وشرشال⁽⁹⁰⁾، ودلس⁽⁹¹⁾، ووهران⁽⁹²⁾، من مدن المغرب الأوسط التي لها نتاج وفير من الماشية، وهذا دليل على كثرة الأراضي الرعوية في المنطقة. وبالإضافة إلى تربية الماشية اشتهر إقليم المغرب الأوسط بتربية النحل، ولذلك فإن العسل به كثير، ومن المدن المشهورة بإنتاجه مدينة الجزائر، وهو ما يؤكد الإدريسي في قوله: «ومدينة الجزائر على ضفة البحر... ويتخذون النحل كثيراً، فلذلك العسل والسمن كثير في بلادهم، وربما يتجهز بها إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم»⁽⁹³⁾؛ ومن المدن التي تنتج العسل بكميات كبيرة نذكر: برشك⁽⁹⁴⁾، وبونة⁽⁹⁵⁾، وتاهرت⁽⁹⁶⁾، وشرشال⁽⁹⁷⁾، وقسنطينة⁽⁹⁸⁾، ووهران⁽⁹⁹⁾ ومازونة⁽¹⁰⁰⁾.

(٣/١) ٢- السلمك:

اشتهرت كل من مدن: مرسى الخرز، وبونة، وجيجل، والمسيلة بكثرة إنتاج الأسماك، حيث يقول ابن حوقل عن مدينة مرسى الخرز: «وفيها من صيود السلمك ما لم أر ببلد مثله سمنا...»⁽¹⁰¹⁾، ويشير صاحب كتاب الاستبصار إلى السلمك الذي يصطاد بمدينة بونة، فيقول: «وبغربي مدينة بونة بركة في دورها نحو عشرة أميال، وفيها سمك كثير جليل»⁽¹⁰²⁾ وعن مدينة جيجل يقول الإدريسي: «وبها الحوت الكثير العدد المتناهي في الطيب والقدر»⁽¹⁰³⁾، كما يقدم لنا هذا الأخير معلومات مهمة عن السلمك الذي يصطاد في نهر المسيلة، وهو نهر سهر فيقول: «وهي على نهر فيه ماء كثير مستنبت على وجه الأرض وليس بالعميق، وهو عذب، وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة، ولم يُر في بلاد الأرض المعمورة سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به، ويكون مقدار هذا السلمك من شبر إلى ما دونه، وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل إلى قلعة بني حماد...»⁽¹⁰⁴⁾.

الملاحظ على هذه النصوص؛ أن أغلبية مدن المغرب الأوسط كان لها بوادي تابعة لها، وأن البادية هي التي تمول المدينة بالمواد الزراعية التي تحتاج إليها، وغالباً ما تسد حاجتها ويبقى ما يوجه إلى التصدير، سواء إلى المناطق الداخلية أو الأقطار المجاورة. وفي الأخير نستخلص؛ أن الزراعة ببلاد المغرب الأوسط، وحسب النصوص الجغرافية، تُعدّ من القطاعات الأساسية التي يقوم عليها اقتصاد هذه البلاد، وذلك راجع إلى ما يتوفر عليه هذا الإقليم من إمكانيات فلاحية تتمثل أساساً في اتساع الأراضي الزراعية الخصبة ووفرة المياه التي تسقيها، وهو ما جعل الإنتاج الفلاحي وافرًا ومتنوعًا، ويرتبط به الإنتاج الحيواني الذي يعتبر هو الآخر كبيرًا نظرًا لكثرة الأراضي الرعوية. وهو ما يؤكد صاحب كتاب الاستبصار عند حديثه عن الزراعة في المغرب الأوسط حيث يقول: «هي كثيرة الخصب والزرع، كثيرة

وجود معدن النحاس بجمال كتامة، وهو من كثرته يحمل إلى أفريقية وغيرها من البلدان.⁽¹¹³⁾ الملاحظ هنا وحسب النصوص الجغرافية الواردة؛ أن بلاد المغرب الأوسط بلاد غنية بالمعادن من حديد ونحاس ورصاص... وهي تزيد عن الحاجة وتوجه إلى البلاد المجاورة.

(١/٢) ٢- المرجان:

تتفق جميع المصادر الجغرافية على أن أجود أنواع المرجان هو المرجان المستخرج من مدينة مرسى الخرز حتى أن المثل يضرب به في جميع البلاد، حيث يقول أبو حامد الغرناطي في فصل يخصه لذكر خصائص البلاد في الأحجار: «يقال فيروج نيسبور، وياقوت سرنديب، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجزع ظفار، وبجاذى بلخ، ومرجان إفريقية».⁽¹¹⁴⁾ ويقول ابن حوقل: «... ولا أعرف في شيء من البحار له نظيراً في الجودة، ولا يوجد المرجان في مكان غير هذه القرية -مرسى الخرز- ومدينة تنس وبمدينة سبتة... والذي بها من المرجان قليل الجوهر حقير المقدار في جنب ما يخرج من مرسى الخرز».⁽¹¹⁵⁾ أوردت العديد من كتب الجغرافيا الكيفية التي يتم بها استخراج المرجان من البحر، وبالضبط من مدينة مرسى الخرز، فيقول الإدريسي: «ومعدن هذا المرجان من هذه المدينة مخدوم في كل سنة، ويعمل به في كل الأوقات خمسون قارباً والزائد والناقص، وفي كل قارب العشرون رجلاً وما زاد ونقص، والمرجان ينبت كالشجر ثم يتحجر في نفس البحر بين جبلين عظيمين، ويصاد بآلات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب»⁽¹¹⁶⁾، تدار هذه الآلة في أعلى المراكب، فتلف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان، فيجذبه الرجال إلى أنفسهم ويستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بالأموال الطائلة، وعمدة أهلها على ذلك...».⁽¹¹⁷⁾

وبالإضافة إلى مدينة مرسى الخرز استخرج معدن المرجان من مدينة أخرى هي مدينة بونة، غير أنه لا يضاهاى جودة مرجان مدينة مرسى الخرز، وهو ما يؤكد أبو الفداء في قوله: «... وحدث بها عن قريب مغاص على المرجان ليس كمرجان مرسى الخرز».⁽¹¹⁸⁾ إن هذه النصوص التي تتفق على غنى مدينة مرسى الخرز بمعدن المرجان -من حيث الكم والنوع- تجعلنا نخرج بنتيجة هامة وهي وجود حركة تجارية كبيرة، بدليل تأكيد نفس المصادر على وجود سماسرة وتجار لبيع المرجان،⁽¹¹⁹⁾ وكذا وجود حركة حرفية واسعة في المنطقة، فمن البديهي استغلال هذه المادة وتحويلها إلى منتجات حرفية بواسطة مجموعة من الحرفيين والصناع.

(١/٢) ٣- الأخشاب:

اشتهرت مدينة بونة بكثرة الخشب الموجود بها وبنوعيته الجيدة⁽¹²⁰⁾، حيث «تسمى بونة بلد العناب»⁽¹²¹⁾ لكثرة العناب فيها ومنه خشب سقوفهم ووقودهم ومنه جميع ما يتصرفون فيه».⁽¹²²⁾ وبجانب غابات بونة ذكر البكري غابات بجمال الرحمن

الغنم والماشية، طيبة المراعي، ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها»⁽¹⁰⁵⁾ من جهة أخرى تجدر الإشارة هنا إلى؛ أن العديد من المحاصيل الزراعية كانت تستخدم كموايد أولية في الصناعة، وهو ما يجعل هذه القطاعات تكمل بعضها البعض.

ثانياً: الصناعة والحرف

عرفت مدن المغرب الأوسط بكثرة حرفييها الذين ساهموا مساهمة كبيرة في تحويل المواد الخام التي كان إنتاجها في الريف وفيلاً،⁽¹⁰⁶⁾ وبالتالي فإن الصناعة عندهم كانت بسيطة تتمثل في تحويل المواد الأولية إلى مواد مصنعة قد تكفي حاجة المدينة، وقد تزيد عن حاجتها فتوجه إلى التصدير. في البداية يجب التعرف على المواد الخام المستعملة في الصناعة، فغناها وتنوعها هو الذي يحدد أنواع الصناعات والحرف التي اشتهرت في بلاد المغرب الأوسط.

١/٢ - الثروة المعدنية والخشبية:

تشير النصوص الجغرافية المدروسة إلى غنى إقليم المغرب الأوسط من الناحية المعدنية، حيث أوضحت هذه النصوص من خلال الأوصاف التي قدمتها لمجموعة من المدن وجود المعادن بها، أو بالجمال المجاورة لها، ويمكن حصرها فيما يلي:

(١/٢) ١- المعادن:

يذكر الجغرافيون العرب عدداً من المناجم، تستخرج منها مختلف المعادن وخاصة الحديد حيث تعتبر مدينة مجانة من المدن المشهورة بتنوع المعادن بها ووفرته حتى أنها كانت تعرف بمجانة المعادن⁽¹⁰⁷⁾، يقول القزويني عنها: «بها معادن الفضة والحديد والمرتك والرصاص والكحل، وفي جنوبها جبل تقطع منه أحجار الطواحين وتحمل إلى سائر بلاد العرب».⁽¹⁰⁸⁾ وهي تعرف كذلك بمجانة المطاحن لتوفر أحجار المطاحن بها، ومصدرها من جبل قريب منها وهو ما يؤكد الإدريسي في قوله: «مدينة صغيرة عليها سور تراب... ولهم واد غزير الماء يأتي من جبل بمقربة منها يزرعون عليه غلاتهم، وهو جبل شاهق، ومنه تقطع أحجار المطاحن التي إليها الانتهاء في الجودة وحسن الطحين، حتى أن الحجر منها ربما مر عليه عمر الإنسان، فلا يحتاج إلى نقش ولا إلى صنعه، هذا لصلابته ودقة أجزائه».⁽¹⁰⁹⁾

تعد مدينة بونة هي الأخرى من المدن ذات الإنتاج الكبير من معدن الحديد، حيث يقول ابن حوقل: «وبها معادن حديد كثيرة ويحمل منه إلى الأقطار الغزيرة الكثير...».⁽¹¹⁰⁾ ويشير الإدريسي إلى مكان استخراج الحديد قرب بونة، وهو جبل يدوغ، فيقول: «وعلى مدينة بونة وبجانبها جبل يدوغ، وهو عالي الذروة، سامي القمة، وبه معادن الحديد...».⁽¹¹¹⁾ يطلعنا البكري كذلك على وجود معدن الحديد قرب مدينة أرزاو في قوله: «وبقرب مدينة أرزاو جبل كبير فيه قلاع ثلاث مَسُورَة، ورباط يقصد إليه، وفي هذا الجبل معدن للحديد والزئبق...».⁽¹¹²⁾ والكاتب نفسه يشير إلى

المريني أبو عنان فارس⁽¹³²⁾ خلال الرحلة التي قام بها لإخضاع مجموعة من مدن هذه البلاد التي كانت خارجة عن سيطرته، وذلك سنة (٧٥٨ هـ / ١٣٥٧م)، وهو ما يشير إليه ابن الحاج النميري⁽¹³³⁾ في رحلته قائلاً: «... فدخل ربض بجاية قاصدا دار صنعته، ناظرا من هنالك إلى ما بهر من منعته، فتفقد ما وجد بدار الصنعة هنالك من الأجفان، وأمر بدفعها لقهر أهل الغي والعدوان...»⁽¹³⁴⁾

٢-٢) الصناعة النسيجية:

سبقت الإشارة إلى وفرة إنتاج كل من القطن والكتان بمجموعة من مدن المغرب الأوسط، وإلى وفرة الصوف بسبب كثرة الماشية، ولابد أن مثل هذه المواد كانت تمول بشكل كبير صناعة النسيج والغزل في المنطقة، حيث كان لها شهرة واسعة وصلت إلى بقية البلدان. من بين هذه المدن، مدينة تبسة المعروفة بصناعة البسط، حيث يقول الحموي: «يعمل بها بسط جليلة محكمة النسيج، يقيم البساط منها مدة طويلة»⁽¹³⁵⁾

اشتهرت القلعة هي الأخرى بالصناعة النسيجية خاصة الأكسية منها، إذ يقول صاحب كتاب الاستبصار: «تصنع بمدينة قلعة حماد أكسية ليس لها مثل في الجودة والرقعة إلا الوجدية التي تصنع بوجدة، يساوي كساء عيد من عمل القلعة ثلاثين دينارا»⁽¹³⁶⁾، وهو ما يؤكد الحموي في قوله: «بها الأكسية القلعية الصفيقة»⁽¹³⁷⁾ النسيج الحسن المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبريسم»⁽¹³⁸⁾ يشير صاحب الاستبصار كذلك لصناعة العمام التي اشتهر بها ملوك صنهاجة، فيقول: «وكانت لملوك صنهاجة عمام شرب مذهبة يغلون في أثمانها، تساوي العمامة خمسمائة وستمائة دينار وأزيد، وكانوا يعممونها بأثمن صنعة فتأتي تيجانا، وكان ببلادهم صناع لذلك، يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد، وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم، يسمونها الرؤوس، يعممون عليها تلك العمام»⁽¹³⁹⁾

تعدّ مدينة تلمسان هي الأخرى من أشهر مدن المغرب الأوسط المعروفة بصناعة النسيج والغزل، وهو ما يورده الزهري فيقول: «وهي دار مملكة يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحرّرات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكلّلة وغير ذلك، ولقد يوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواق ونحوها، وهذا من بديع ما خص به أهلها من جميل صنعهم، ومنها يجلب لبق الصوف وسروج الخيل إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس»⁽¹⁴⁰⁾ ونظرا للتطور الذي عرفته الصناعة النسيجية في مدينة تلمسان، «كان القماش التلمساني يباع في الدول المجاورة ويلبسه سلاطينها وأغنيائها وسكان بلاد السودان وأوربا، ومن أسماء الأقمشة التلمسانية، أقمشة الزراي والحيك والحنابل، وهي زراي طويلة خالية من النقوش، كانت تصدر إلى المغرب الأقصى والبرتغال وإيطاليا، وقماش الأكسية الذي يصدر القليل

قرب مدينة القل، فيها أشجار خشبها قابل للخرط، ولا سيما بمكان يسمى مرسى الخراطين»⁽¹²³⁾ حيث يقول عند وصفه لهذا الجبل: «وهو جبل عظيم خارج في البحر يقابل جزيرة سردانية... وفيه مزارع كثيرة ومراع مربعة»⁽¹²⁴⁾، ومنه يحمل عود الخرط⁽¹²⁵⁾ إلى إفريقية وما والاها، وفيه أسواق كثيرة ومراس، ومنها مرسى الخراطين...»⁽¹²⁶⁾ يبدو أن وفرة الأشجار والغابات ببلاد المغرب الأوسط ساعد كثيرا على تمويل مختلف الصناعات والحرفيين بالمادة الأولية التي يحتاجون إليها لتصنيع العديد من المواد، وذلك عن طريق تحويل نوعيات معينة من الأشجار إلى أخشاب قابلة للاستخدام في تصنيع منتجات مختلفة. هذه هي أهم الثروات المعدنية والخشبية التي يزخر بها إقليم المغرب الأوسط، والتي تمثل مادة أولية تستعمل في الصناعة؛ فما هي أهم الصناعات والحرف التي عرفتها هذه البلاد؟

٢-٢) أهم الصناعات والحرف:

إن ما يلاحظ على بلاد المغرب الأوسط هو غناها من الناحية الزراعية والحيوانية من جهة، ومن الناحية المعدنية والخشبية من جهة أخرى، حيث توسعت كتب الجغرافيا في تقديم أوصاف للثروات الطبيعية التي تمتلكها هذه البلاد من محاصيل زراعية وإنتاج حيواني، ومعادن وأخشاب؛ والكثير من هذه الموارد تستعمل كمادة أولية في العديد من الصناعات، ثم إن تنوع المواد الأولية سيؤدي بالضرورة إلى تنوع الصناعات والحرف.

٢-٢) ١- صناعة السفن:

تأسست ببجاية منذ عصر الحماديين دارا من أهم دور صناعة وتعمير السفن التجارية والحربية، وذلك راجع إلى وفرة المواد الأولية لبناء السفن، منها الأخشاب والزفت الجيد والحديد⁽¹²⁷⁾، وتفرد صاحب الاستبصار برواية أن بجاية أوت في العصر الموحي مركزين لبناء وتعمير السفن⁽¹²⁸⁾، مما يشير إلى اهتمام السلطة والسكان بسياسة تمكين خطوط الدفاع والهجوم ثم إلى الرغبة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية⁽¹²⁹⁾ وإلى جانب دار الصناعة الموجودة ببجاية، وجدت في مدينة مرسى الخرز دار أخرى لصناعة وإنشاء السفن، حيث يقول البكري: «في هذه المدينة تنشأ السفن والمراكب الحربية التي يغزى بها إلى بلاد الروم»⁽¹³⁰⁾ يبدو أن دار صناعة السفن ببجاية كانت في وضع الصدارة بالنسبة للمركزين الآخرين الموجودين على الساحل الشرقي، وهما: مرسى الخرز وبونة، حيث كان أسطول السفن الموجودة ببجاية درعا وقى المدينة من شر الغارات الأجنبية، وربطها بمراكز التجارة والصناعة والحضارة في العصور الوسطى، أي تحقق بفضل نشاطه الغرض الاقتصادي والحربي معا»⁽¹³¹⁾

والملاحظ كذلك؛ أن دار الصناعة ببجاية بقيت محافظة على مكانتها هذه لفترة طويلة، فإلى غاية النصف الثاني من القرن (الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) كانت هذه الدار لا تزال من أهم دور الصناعة في المغرب الأوسط، حيث زارها السلطان

صناعة الطب قائلًا: «ومدينة بجاية على البحر، لكنها على جرف حجر، ولها من جهة الشمال جبل يسمى ميسون، وهو جبل سامي العلو صعب المرتقى، في أكنافه جمل من النبات المنتفع بها في صناعة الطب مثل شجر الحوض، والسقولوفندوريون، والبرباريس،⁽¹⁴⁸⁾ والقنطاريون،⁽¹⁴⁹⁾ الكبير والزراوند،⁽¹⁵⁰⁾ والقسطون، والأفسنتين⁽¹⁵¹⁾ أيضًا، وغير ذلك من الحشائش». ⁽¹⁵²⁾ وبالإضافة إلى هذه الصناعات والحرف المشهورة ببلاد المغرب الأوسط، أشار الجغرافيون العرب إلى صناعات أخرى لم يحددوا ماهيتها إنما اكتفوا بالإشارة إلى وجود صناعات كثيرة بهذه البلاد. يشير الإدريسي مثلاً إلى وجود صناعات مختلفة بعدد من مدن المغرب الأوسط، مثل وهران فيقول: «وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة»،⁽¹⁵³⁾ وجزائر بني مزغنة حيث يقول عنها: «وهي عامرة أهلة وتجارها مربحة وأسواقها قائمة وصناعتها نافقة». ⁽¹⁵⁴⁾

ثالثاً: التجارة والطرق التجارية

أظهرت النصوص الجغرافية أن بلاد المغرب الأوسط كانت بلاد إنتاج كبير للمنتوجات الزراعية والمصنعة، كما أظهرت أن هذا الإنتاج غالباً ما كان يزيد على الحاجة فيوجه إلى التصدير، أو كان يتمتع بجودة عالية بحيث يكثر عليه الطلب، من جهة أخرى فإن موقع هذه البلاد في حد ذاته جعل منها مركزاً هاماً للتجارة سواء الداخلية أو الخارجية.

١-٣ المراكز التجارية:

تتفق جميع النصوص الجغرافية على أن تجارة المغرب الأوسط سواء كانت داخلية أو خارجية كانت تجارة نشطة ومربحة، بحيث لا يخل وصف لأي مدينة من الإشارة إلى تجارة نشطة خاصة بالمدن الكبرى، والتي أصبحت مراكز تجارية مهمة تستقطب عددًا كبيرًا من التجار، ومن بين هذه المراكز والمدن نذكر:

(١/٣) ١-بونة: لعبت مدينة بونة دوراً هاماً ابتداءً من العهد الزييري (٣٦١ - ٤٠٥ هـ / ٩٧٢ - ١٠١٤ م) وترجع أهميتها إلى خصب أراضيها الصالحة للزراعة ولتربية المواشي، وإلى وجود معادن الحديد الجيد في جبالها، وأخيراً إلى أنها أصبحت بفضل مينائها مركزاً تجارياً هاماً ذو حركة مستمرة.⁽¹⁵⁵⁾ وهو ما يؤكد ابن حوقل في قوله: «ولها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح متوسطة وفيها خصب ورخص موصوف...، ومن تجارها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع...».⁽¹⁵⁶⁾

(١/٣) ٢-مرسى الخرز: سبقت الإشارة إلى غنى هذه المدينة بمعدن المرجان، وهو ما جعلها مقصداً للتجار لاقتناء هذه المادة، حيث يقول الإدريسي: «... ويقصد التجار من سائر البلاد إلى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات، ... ويستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بالأموال الطائلة، وعمدة أهلها على ذلك». ⁽¹⁵⁷⁾

منه لأوروبا ومعظمه للسودان حيث يستخدم كملايس فخمة للملوك ورجال الحاشية والأثرياء». ⁽¹⁴¹⁾ وربما اختصت هذه المدينة بأنواع من الصناعة النسيجية التي لا توجد في غيرها حيث يقول الحموي: «وتتخذ النساء بها من الصوف أنواعاً من الكنايبش لا توجد في غيرها». ⁽¹⁴²⁾

٣-٢ صناعة الجلود والدباغة:

أهملت كتب الجغرافيا الحديث عن هذا النوع من الصناعة، فعلى الرغم من إشارتها إلى توفر الماشية من أبقار وأغنام وإبل بجميع مناطق المغرب الأوسط، والتي تستعمل جلودها في هذا الميدان، إلا أنها لا تعطينا أية تفاصيل عن كيفية تحويل هذه الجلود إلى منتجات قابلة للاستعمال من طرف السكان وموجهة كذلك إلى التصدير إلى بقية البلدان. والمعروف أن حرفة الدباغة تقوم على إصلاح الجلد وتليينه، حيث ينقع في الماء لمدة معينة، داخل حوض أو على ضفاف الوادي، ويستمر النقع مصحوباً ببتف الصوف أو الشعر حتى يصير الجلد وحده، ثم يؤخذ للدبغ؛ وفي هذه المرحلة يحرص الدباغون على عدم إلحاق الضرر بالجلد، مستعملين بعض المواد التي تمنع الجلد من التعفن والتلف مثل الملح والشب، حيث يذر على سطح الجلد ثم يترك مدة، وتكرر العملية حتى يصبح الجلد جافاً وصافياً». ⁽¹⁴³⁾

وما يمكن استخلاصه حول هذا النوع من الصناعة هو ما نجده من إشارات عابرة في بعض المصادر مثلما يورده ابن سعيد أثناء تعداده لمنتجات مدينة تلمسان، حيث يذكر منها ألجم الخيول والسروج، وهي منتوجات يتم الحصول عليها بعد عملية تحويل الجلود، وفي هذا الصدد يقول ابن سعيد: «... وتحمل منها ألجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك». ⁽¹⁴⁴⁾ فمن بين الحرف الهامة بمدينة تلمسان خاصة بعدما رأينا ما عرفت به هذه المدينة من تربية الخيول، نجد حرفة اللجام وهو «صانع اللجم التي توضع على رأس الفرس وتمر في فمه، وبها يتحكم الفارس في عنان فرسه ويكبح جماحه»، ⁽¹⁴⁵⁾ وحرفة السراج وهو «صانع السروج التي توضع على ظهور الخيل، وكثيراً ما كان جلال الفرس الذي يوضع تحت السرج لحماية ظهر الفرس، والسرج يطرزان بأسلاك الذهب والفضة». ⁽¹⁴⁶⁾ ويُعدّ البكري الوحيد من بين الجغرافيين محل الدراسة الذي يتحدث عن الصناعة الجلدية بطريقة مباشرة، وذلك في مدينة بونة، فيقول: «وبغربي مدينة بونة بركة بينها وبين بونة مسيرة يوم طولها ثلاثة أميال في مثلها، وفيها سملك جليل، وفيها الطائر المعروف بالكيكال، يُعشّش على ماء تلك البحيرة، ... يصنع من جلوده الفراء ويباع بالأثمان الغالية». ⁽¹⁴⁷⁾

٤-٢ صناعة الطب:

يشير الإدريسي إلى هذا النوع من الصناعة أثناء حديثه عن بعض النباتات المستعملة في التداوي، فمن خلال وصفه لبجاية يتحدث عن استخدام بعض النباتات الموجودة في المنطقة في

(١/٣) ٣- قلعة أبي طويل: كانت هذه المدينة قبل أن يقطع

العرب طرق المواصلات إليها مركزًا تجاريًا رئيسيًا تشد إليه الرحال وتقصد القوافل من مختلف أنحاء العالم الإسلامي،⁽¹⁵⁸⁾ وهذا حسب قول البكري: «وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، فلما كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب».⁽¹⁵⁹⁾

(١/٣) ٤- بجاية: تتفق أغلبية المصادر الجغرافية على أن

بجاية بعدما أصبحت عاصمة للدولة الحمادية تحولت إلى قطب تجاري بارز في بلاد المغرب عمومًا، وهذا راجع إلى موقعها الاستراتيجي الهام⁽¹⁶⁰⁾، وهو ما يؤكد الإدريسي في قوله: «مدينة بجاية قطب لكثير من البلاد، وذلك أن من بجاية إلى ايزلجان يوم وبعض يوم، ومن بجاية إلى بلزمة مرحلتان وبعض، ومن بجاية إلى سطيف يومان، وبين بجاية وباغاية ثمانية أيام، وبين بجاية وقلعة بشر أيام، وهي من عمالة بسكرة، وبين بجاية وتيفاش ست مراحل، وبين بجاية وقالمة ثمان مراحل، وبين بجاية وتبسة ستة أيام، وبين دور مدين وبجاية إحدى عشرة مرحلة، وبين بجاية والقصرين تسعة أيام، وبين بجاية وطبنة سبع مراحل».⁽¹⁶¹⁾ وهذا الموقع هو ما جعل تجارة هذه المدينة نشطة وكبيرة، حيث يقول نفس الكاتب: «ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة والقوافل منحة، والأمتعة إليها براء وبحرًا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، ... وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة».⁽¹⁶²⁾

(١/٣) ٥- تنس: يشير ابن حوقل إلى أن هذه المدينة ذات

تجارة واسعة خاصة مع الأندلس، إذ يقول: «وهي أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها، ولسطانها بها وجوه من الأموال كثيرة كالخراج والجوالي والصدقات والأعشار ومراصد على المتاجر الداخلة إليها والخارجة والصادرة والوارد»⁽¹⁶³⁾، وهو ما يدل على النشاط التجاري الكبير للمدينة، بدليل الأموال الكبيرة التي كانت تستخلص من الضرائب على الوارد والصادر من البضائع.

(١/٣) ٦- تلمسان: تتفق معظم كتب الجغرافيا على أن

مدينة تلمسان تعد من أكبر المراكز التجارية في المغرب الأوسط خصوصًا وبلاد المغرب عمومًا⁽¹⁶⁴⁾، إذ يقول الإدريسي: «... وبالجملية إنها حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومرباح تجارتها، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالاً ولا أرفه منهم حالاً، ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منه لا بد منها والاجتياز بها على كل حالة».⁽¹⁶⁵⁾ وبالتالي كان لتلمسان دور

تجاري بارز، فهي تقع على الطريق الواصل بين المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، وفي الوقت نفسه حلقة وصل بين أوربا وبلاد السودان، وبذلك كانت المدينة محط أنظار التجار من البلاد الإسلامية والممالك الأوربية⁽¹⁶⁶⁾، ثم إن تلمسان بحكم موقعها المنتهي والمنطلق في الوقت نفسه لطرق التجارة تُعدّ منطلقًا للبضائع القادمة من أوربا ومنتهي للبضائع الصحراوية القادمة من الجنوب.⁽¹⁶⁷⁾ إن مدينة تلمسان وبفضل هذا الموقع مثلت منطقة عبور إلى كثير من البلدان، حيث توقف عندها الكثير من الرحالة مثل العبدري⁽¹⁶⁸⁾، والبلوي⁽¹⁶⁹⁾ في رحلتها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج⁽¹⁷⁰⁾، وابن بطوطة⁽¹⁷¹⁾ في أسفاره الطويلة⁽¹⁷²⁾، وذلك من أجل قضاء حاجياتهم لمواصل السفر، وهذا يدل على الأرباح التي ستستفيد منها هذه المدينة بسبب هذا الموقع، فابن بطوطة مثلاً يقول: «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي .. فوصلت مدينة تلمسان... وأقمت بها ثلاثاً في قضاء مآربي».⁽¹⁷³⁾

(١/٣) ٧- ورقلة: يشبه موقع هذه المدينة موقع مدينة

تلمسان في أنها تمثل منطقة عبور للتجار، حيث تمر بها القوافل التجارية القادمة من الشمال والتي تقصد بلاد السودان، كما أن السلع القادمة من هذه المنطقة تمر بها وصولاً إلى بلاد المغرب.⁽¹⁷⁴⁾ وبالإضافة إلى هذه المدن ذات التجارة الواسعة وجد في المغرب الأوسط مجموعة من المراسي يعددها البكري في جزء خاص حيث يحصي منها حوالي اثنان وثلاثون مرسى⁽¹⁷⁵⁾، والأكيد أن هذه المراسي ساهمت في التجارة الخارجية في البحر المتوسط خاصة مع الأندلس، نذكر من بينها:

(٧/١/٣) ١- مرسى بجاية: «وهي مرسى عظيمة تحط فيه

سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر، وبلاد اليمن، والهند، والصين وغيرها».⁽¹⁷⁶⁾

(٧/١/٣) ٢- مرسى وهران: يقول ابن حوقل: «ولمدينة

وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثيلاً في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن... وهي فرضة الأندلس إليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال».⁽¹⁷⁷⁾

(٧/١/٣) ٣- مرسى هنين: على إثر نشأة الدولة الزيانية

(٦٣٣-٩٦٢ هـ / ١٢٣٥-١٥٥٤م)، واتخاذ تلمسان عاصمة لها، أصبح لميناء هنين أهمية اقتصادية خاصة باعتباره أقرب ميناء من تلمسان حيث لعب دورًا هامًا في العلاقات التجارية لهذه الدولة، خاصة وأنه الميناء الأقرب إلى الساحل الأندلسي⁽¹⁷⁸⁾، حيث كان آنذاك يربط بلاد المغرب الأوسط مباشرة بميناء المرية بالأندلس.⁽¹⁷⁹⁾

(١/٣) ٨- الأسواق: تحصي المصادر الجغرافية المدروسة

أكثر من خمسة وأربعين سوقًا كانت قائمة في المغرب الأوسط خلال العصور الوسطى، ولكن هذه المصادر لا توضح كيفية

النصوص على أهمية هذه المسالك، وخاصةً الرابطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب⁽¹⁹⁶⁾، وتتمثل فيما يلي:

(٢/٣) ١- الطريق الساحلي: يصل هذا الطريق بين موانئ

مرسى الخرز وجيجل وبونة وبجاية ومرسى بني جناد ومرسى الدجاج وجزائر بني مزغناي وشرشال بمراسي برشك وتنس وقصر الفلوس ووهران وأرشقول، إلا أن المسافرين يتجنبونه لصعوبة مسالكه وانقطاعه في بعض الجهات، الأمر الذي يضطر كثيرًا من التجار إلى استعمال السفن للانتقال من مرسى إلى آخر⁽¹⁹⁷⁾.

(٢/٣) ٢- طريق الهضاب: تعتبر منطقة الهضاب من حيث

وضعها الجغرافي وطبيعة تضاريسها منطقة عبور وانتقال طبيعي بين إقليم إفريقية وعاصمته القيروان وأقاليم المغرب الأوسط والأقصى وحواضره الكبرى كتاهرت وتلمسان وفاس، كما كانت تشكل محور مواصلات بين سواحل البحر المتوسط والنواحي الجنوبية المتاخمة للصحراء الكبرى، هذا وقد اشتهر من مسالك الهضاب العليا طيلة العهد الإسلامي طريقان يتوجهان من الشرق إلى الغرب، إحداهما شمالي وآخر جنوبي، ينطلق كلاهما من القيروان ويصلانها بقلعة بني حماد والمسيلة وأشير وتاهرت⁽¹⁹⁸⁾.

(٢/٣) ٣- الطريق الصحراوي: وصفه كثير من الجغرافيين

وذكروا أهم محطاته كبنطوس وبسكرة وتهودة وبادس⁽¹⁹⁹⁾، لكنه صعب الاجتياز لشدة حرارته وقلة مائه وانعدام الأمن به في كثير من الأحيان⁽²⁰⁰⁾.

لم تقدم النصوص الجغرافية معلومات كافية عن الطرق التجارية، فهي تقدم لنا الطريق على شكل عدد من المراحل، ولا تقدر المسافة بالتحديد، فالتقدير يكون باستعمال مرحلة صغيرة أو كبيرة علما أن هذه المراحل ترتبط عادة بأمور تحدد طولها، مثل صعوبة المسالك وقرب المراحل من بعضها البعض أو بعدها، ففي المناطق الخصبة الأهلة بالسكان عادةً ما تكون المراحل متقاربة فيما بينها، أما في المناطق الصحراوية فإن هذه المراحل عادةً ما تكون متباعدة⁽²⁰¹⁾.

٣/٣- الصادرات والواردات: وضحت النصوص الجغرافية أن

بلاد المغرب الأوسط كانت بلاد إنتاج واسع لمواد مختلفة منها الزراعية ومنها الصناعية، وأن هذه المواد غالبًا ما كانت تزيد عن الحاجة وبالتالي توجه إلى التصدير، فما هي أهم صادرات المغرب الأوسط إلى بقية الأقطار؟ وما هي أهم المواد التي كانت تجلبها من الأقاليم والأمصار الأخرى؟ يحدد الاصطخري صادرات بلاد المغرب عمومًا، فيقول: «والذي يقع (يرتفع) من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الأندلس والجواري المثلثات تأخذ الجارية والخدم عن غير صناعة على وجوههما ألف دينار وأكثر، وتقع منها اللبود⁽²⁰²⁾ المغربية والبالغ للسرغ والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن والحريز

تنظيم هذه الأسواق، ولا السلع المعروضة فيها، ولا كيفية التبادل إلا في القليل النادر، حيث تشير إلى مكان السوق واليوم الذي يُعقد فيه والسلع الموجودة به. يصف البكري مثلاً سوق مدينة طبنة ويوضح مكان إقامته على طريق بين بايين من أبواب المدينة، فيقول: «ولمدينة طبنة من الأبواب: باب خاقان... وباب الفتح...، وبينهما سماط يشق المدينة من الباب إلى الباب... وبها أسواق كثيرة غير السماط المذكور»⁽¹⁸⁰⁾ ويشير الإدريسي هو الآخر إلى سوق مدينة أشير فيقول: «وهو حصن حسن البقعة، كثير المنافع، وله سوق يوم معروف يجلب إليه كل لطيفة، ويبيع به كل طريفة»⁽¹⁸¹⁾ ويقول عن سوق مدينة مازونة: «وهي مدينة بين أجبل، وهي أسفل خندق، ولها أنهار ومزارع وبساتين، وأسواق عامرة ومسكن موفقة، ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان»⁽¹⁸²⁾، وبالتالي هو يوضح السلع المعروضة بهذه الأسواق، وأن لها يوم محدد من الأسبوع تنعقد فيه.

٣/٣- الطرق التجارية: وضع الجغرافيون بنصوصهم خريطة

وصفية لمدن وقرى المغرب الأوسط، هذه الخريطة جاءت واصفة للمدن التي على مسار المسالك، فأغلبية هذه المدن صورت كمراحل هامة أو ثانوية تخدم الطرق العابرة للمغرب من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب، ثم إن النص الجغرافي كأنما أعد للتجار ومستلزمات الضرائب والإدارة⁽¹⁸³⁾ إن ابن حوقل وباعتباره خبيراً اقتصادياً، وتاجراً جوالاً يحضر الأسواق، ويتتبع طريق القوافل التجارية، يثير انتباهه كل شيء يتعلق بالمبادلات والصفقات، وهذه السمة هي التي جعلت معلوماته المدونة في كتابه قريبة من واقع الأشياء⁽¹⁸⁴⁾، حيث قدم لنا هذا الكاتب أوصافاً موسعة للطرق والمسالك التي كانت تربط بين بلاد المغرب، كما يحدد المراحل التي تربط بين المدن، ومن بين هذه الطرق يذكر الطريق الرابط بين القيروان وتاهرت، والطريق بين القيروان والمسيلة إلى إفريقية، ثم الطريق من فاس إلى المسيلة⁽¹⁸⁵⁾ يحدد البكري هو الآخر مجموعة من الطرق التي تربط مدن المغرب الأوسط ببعضها البعض، وبما جاورها من البلدان، وهي: الطريق من القيروان إلى قلعة أبي طويل⁽¹⁸⁶⁾، الطريق من قلعة أبي طويل إلى تنس⁽¹⁸⁷⁾، الطريق من أشير إلى مرسى الدجاج⁽¹⁸⁸⁾، الطريق من أشير إلى جزائر بني مزغناي⁽¹⁸⁹⁾، الطريق من تيهرت إلى البحر⁽¹⁹⁰⁾، الطريق من وهران إلى القيروان⁽¹⁹¹⁾، الطريق من فاس إلى القيروان⁽¹⁹²⁾. بينما يتطرق الإدريسي كذلك إلى هذه الطرق والمسافات الفاصلة بينها، مثل الطريق من تلمسان إلى تنس⁽¹⁹³⁾، الطريق من تنس إلى المسيلة⁽¹⁹⁴⁾، الطريق من تلمسان إلى المسيلة⁽¹⁹⁵⁾.

عمل التجار المسلمون على ربط المغرب الأوسط بباقي العالم بعدد من المسالك الهامة، استعملتها قوافل كثيرة خاصة أن الجمال والبعير والبالغ كانت متوفرة بأعداد كبيرة، وقد ركزت

والسُّمُور»⁽²⁰³⁾ أما ابن حوقل فيقدم لنا حوصلة عامة عن المنتوجات التي يتم تصديرها من المغرب إلى المشرق في قوله: «فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان الرُّوقَة كالتّي استولدهن بنو العباس وغيرهم وأكابر رجالهم، وولدن غير سلطان عظيم كسلامة البربرية أم أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وقرطيس أم أبي جعفر هارون الوثاق بن المعتصم وقتول أم أبي منصور محمد القاهر بن المعتضد، وغير من ذكرت من ملوك الشرق وأمرائه، والغلمان الرُّوقَة الروم، والعنبر والحريز والأكسية الصوف الرفيعة والذنية إلى جباب الصوف وما يعمل منه، والأنطاع والحديد والرصاص والزبيق والخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة على الأندلس، ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفُره والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص»⁽²⁰⁴⁾

من جهة أخرى يحدد ابن سعيد المغربي صادرات مدينة تلمسان في قوله: «وهي الآن قاعدة بني عبد الواد من زناتة، ومنها تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب، وتحمل منها ألجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك»⁽²⁰⁵⁾ أما بالنسبة لواردات بلاد المغرب الأوسط فإن المصادر الجغرافية تبذل علينا بإيراد معلومات حول هذه النقطة، ولا نجد بها إلا إشارات بسيطة حول ما يرد إلى هذه البلاد من بقية المناطق، فالإدريسي مثلاً يحدثنا عن تجارة مدينة وارقلان فيقول: «وهي مدينة قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم»⁽²⁰⁶⁾، وحول المدينة نفسها يقول ابن سعيد: «وهي بلاد نخل وعبيد ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية، والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير»⁽²⁰⁷⁾

ما نستخلصه من هذين النصين أن مدينة وارقلان كانت منطقة عبور تعبر منها السلع من السودان وجنوب الصحراء إلى المغرب الأوسط، وأن تجار هذه البلاد يعبرون منها إلى بلاد السودان للتجارة، وبالتالي تُعدّ هذه المنطقة سوقاً تجارية كبيرة، وهو ما يتفق مع وصف الإدريسي لتجارها بالأغنياء. يشير أبو حامد الغرناطي هو الآخر إلى تجارة التبر الذي يجلبه تجار سجلماسة من غانة، والمؤكد أن المغرب الأوسط سيكون له حظ من هذه التجارة باعتباره نقطة عبور فيقول: «... ينبت في رمالهم التبر الغاية وهو كثير عندهم، يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال، فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة، آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون في رمال كالبهار، ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال في القفار، ويحملون معهم الزاد لستهة شهر، فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم»⁽²⁰⁸⁾

ولعل النصوص الجغرافية لم تهمل الحديث عن واردات المغرب الأوسط نظراً للإمكانيات التي كان يتميز بها هذا الإقليم خاصة فيما يتعلق بالزراعة والثروة الحيوانية، وهو ما مكنه من تحقيق الاكتفاء الذاتي حسب المصطلح الحديث، وجعله لا يستورد من بقية الأقطار سوى مواد قليلة لا توجد به مثل التبر وغيره.

٤/٣- المكايل والموازين:

كانت المكايل المستعملة خلال الفترة الوسيطية ببلاد المغرب الأوسط هي: «المد، والوبية، والصحفة، والقادوس، والقفيز، فكان المد المستعمل هو المد النبوي المساوي ٧٣٣، لتراً، واستعمل أهل باغاية الوبية التي تساوي أربعة وستين مَدًا نبويًا، وكان سكان تنس يكتالون الحبوب بالصحفة التي تساوي ثمانية وأربعين قادوسًا والقادوس يساوي ثلاثة أمداد نبوية، أما أهل تاهرت فكان مدهم يساوي خمسة أفقرة ونصفًا قرطبية»⁽²⁰⁹⁾

أما الأوزان الرئيسية فهي: «المثقال، والدرهم، والصنجة، والوقية، والرطل، والقنطار، حيث كان وزن المثقال يعادل وزن الدينار الذي كان يتراوح بين ٤,٢١ غ ٤,٢٥ غ، وكان الدرهم المستعمل للوزن يزن سبعة أعشار (١٠/٧) المثقال، أما الرطل فقد كان منه أنواع شتى: الرطل الفلفلي لوزن الفلفل، والرطل العادي لوزن اللحم وسائر الأشياء، فكان رطل اللحم يساوي عشرون رطلا فلفليا في باغاية، ويساوي ثلاثة أربال عادية تقريبا في تنس، وكان رطل اللحم يساوي سبعا وستين أوقية والرطل الآخر اثنتين وعشرين أوقية، أما في تاهرت فكان رطل اللحم يساوي خمسة أربال عادية»⁽²¹⁰⁾

يحدد بعض الجغرافيين مكايل وموازين بلاد المغرب، ومن بينهم المقدسي فيقول: «وأما الأربال فكانت بغدادية في الإقليم كله إلا الذي يوزن به الفلفل فإنه يشف على البغدادي بعشرة دراهم، والآن هو المستعمل في أعمال الفاطمي بالمغرب كله، والمكايل قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمنا والثمان ستة أمداد بمد النبي (ﷺ)، ومكايل الفاطمي الدوار وهي التي تشف على وية مصر بشيء يسير قد ألجم راسها بعارضة من حديد وأقيم عمود من قاعها إلى العارضة فوقه حديد يدور على راس الوبية فإذا أترعها أدار الحديد فمسحت فم الوبية وصح الكيل، وأرطاله رصاص على كل رطل اسم أمير المؤمنين...»⁽²¹¹⁾

يشير البكري إلى مكايل بلاد المغرب الأوسط تحديداً، وذلك خلال وصفه لبعض المدن التابعة لها مثل مدينة تنس، فيقول عنها: «وكيلهم يسمى الصحفة، وهي ثمانية وأربعون قادوسا، والقادوس ثلاثة أمداد بُمَد النبي (ﷺ)، ورطل اللحم بها سبع وستون أوقية، ورطل سائر الأشياء: اثنتان وعشرون أوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة، والجاري عندهم قيراط ورابع درهم وصقل وحبّتان مضروبة كلها، ودرهمهم اثنا عشرة صقيلة عدداً»⁽²¹²⁾ وعن مدينة تيهرت يقول: «ومدهم الذي يكتالون به خمسة أفقرة ونصف قرطبية، وقنطار الزيت وغيره

خاتمة

ما يمكن استنتاجه فيما يخص الأوضاع الاقتصادية لبلاد المغرب الأوسط من خلال المصادر الجغرافية، هو ما نستشفه من وصف ابن الخطيب لمدينة تلمسان حيث يقول: «خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفيع»⁽²¹⁶⁾، وهو ما ينطبق بشكل كبير جدًا على جميع مدن هذه البلاد، حيث أن الاطلاع على كتب الجغرافيا العربية واستخراج المادة التاريخية التي تمس الجوانب الاقتصادية لبلاد المغرب الأوسط مكنتنا من التوصل إلى جملة من النتائج لنخصها فيما يأتي:

- من الناحية الزراعية تتفق جميع المصادر الجغرافية على أن بلاد المغرب الأوسط هي بلاد ذات إنتاج فلاحى واسع، وهذا بفضل شبكة من الأنهار والأودية والعيون تسقي الأراضي الزراعية، وهي نظرًا لكثرتها وتنوعها فإن بعض المحاصيل الزراعية يتم جنيها مرتين في السنة.
- تتنوع المحاصيل الزراعية التي تنتجها أراضي المغرب الأوسط، حيث أظهرت المصادر الجغرافية غنى هذا الإقليم من الناحية الزراعية، وأن أكثر منتجاته الفلاحية تتمثل أساسًا في الحبوب والتمور والزيتون، وهي لكثرتها غالبًا ما تكفي حاجيات مدن المغرب الأوسط وتوجه إلى التصدير إلى المناطق المجاورة وخاصة إلى القيروان والأندلس.
- يزخر هذا الإقليم من جهة أخرى بثروة حيوانية كبيرة، وهو جانب مرتبط كل الارتباط بالزراعة، ونظرًا لكثرة الأراضي الرعوية ببلاد المغرب الأوسط، اشتهرت هذه البلاد بإنتاجها الكبير للماشية والخيول وسائر الكراع، حتى أن العديد من الجغرافيين المشاركة أشاروا إلى هذه النقطة عند تعريفهم بالعديد من مدن المغرب الأوسط، وأن هذه البلاد بلاد زرع وضرع.
- وإلى جانب الثروة الزراعية والحيوانية يعتبر إقليم المغرب الأوسط غنيًا كذلك من الناحية المعدنية، حيث اشتهرت مجموعة من مدن المغرب الأوسط مثل مجانة وبونة وأرزاو ومرسى الخرز بإنتاجها الغزير من المعادن والمتمثلة على التوالي في الحديد والنحاس والمرجان، وهذه المواد سواء الزراعية أو المعدنية تشكل مجتمعة مادة أولية للكثير من الصناعات والحرف.
- إن غنى المغرب الأوسط من الناحية الزراعية بما ينتجه من مواد زراعية وثروة حيوانية، وغناه من الناحية المعدنية بما أمدته الطبيعة من معادن وأخشاب، هو ما جعل الصناعات والحرف بهذه البلاد من الكثرة والتنوع ما يسد حاجياتها ويوجه في أحيان كثيرة إلى التصدير، حيث تحصى كتب الجغرافيا عددًا من الصناعات تتمثل خصوصًا في بناء

عندهم: قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره، فإنه قنطار عذّل، ورطل اللحم عندهم خمسة أرطال»⁽²¹³⁾. أما مدينة أرشقول فيحدد مكاييلها على الشكل التالي: «... وكيلهم ستون مدًا بمد النبي (ﷺ) ويسمونه عمورة، ورطلهم اثنتان وعشرون أوقية، ودرهمهم ثمانى خرايب، والخروبة أربع حبات»⁽²¹⁴⁾. كما يصف مكاييل مدينة باغاية قائلاً: «وكيل الطعام بباغاية بالوبية، وهي أربعة وستون مدًا بمد النبي (ﷺ)، وهو قفيز ونصف قفيز قرطبي، وقفيز الزيت قروى وهو خمس ربع قرطبي، ورطل اللحم عندهم عشرون رطلًا فلفلية»⁽²¹⁵⁾.

الملاحظ على هذه المكاييل أنها لا تختلف مع بقية الأقاليم بل تختلف كذلك من مدينة إلى أخرى من مدن المغرب الأوسط. وفي الأخير يمكن أن نستنتج من خلال الأوصاف الموسعة التي خص بها الجغرافيون العرب بلاد المغرب الأوسط من الناحية التجارية أن هذه المنطقة شكلت سوقًا ومركزًا تجاريًا دوليًا واسعًا، حيث ازدهرت تجارتها الداخلية والخارجية بفضل غناها من الناحية الطبيعية والزراعية ووفرة المواد المصنعة بها، وكذلك بسبب موقعها الاستراتيجي الذي منحها أهمية خاصة وجعلها تربط مناطق عديدة فيما بينها، فربطت إفريقيا بالمغرب الأقصى، وربطت كليهما بالصحراء، كما ربطت الصحراء بالشمال.

لها بالقيام بعملية التصدير، حيث تشير كتب الجغرافيا إلى عدد كبير من منتجات المنطقة التي كانت تحمل إلى بقية الأقطار مثل الخدم والجواري، والمرجان والعنبر والذهب، والعسل والزيت، والسفن، والحريير وأكسية الصوف، والحديد والرصاص والزئبق، والخيل والمواشي من الإبل والغنم والبقر وجميع الحيوانات.

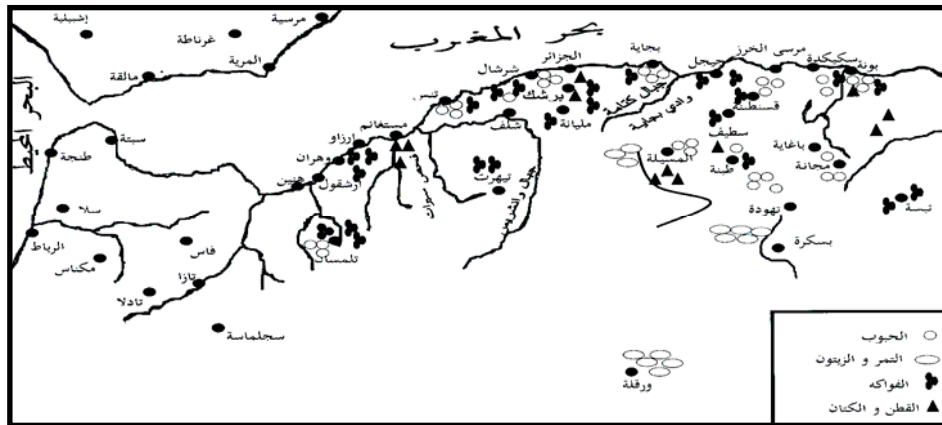
السفن، صناعة الغزل والنسيج، صناعة الجلود، إلا أن هذه الأخيرة لا تتوسع كثيرًا في شرح هذه النشاطات لدى سكان المغرب الأوسط وكيفية تنظيمها بل تكتفي في غالب الأحيان بالإشارة إلى أن هذه المدن بها صناعات مختلفة، وإذا ما تم تحديد نوع الصناعة أو الحرفة لا تسترسل هذه الكتب في إعطاء معلومات دقيقة ووافية عنها، خاصة فيما يتعلق بكيفية تحويل المادة الأولية إلى مواد مصنعة أو كيفية تنظيم هذه الحرف، هل لها أسواق قائمة أو حوانيت محددة أو الطبقة التي تمارس هذا النشاط وغيرها من الأسئلة التي تطرح في هذا المجال.

- أظهرت النصوص الجغرافية أن بلاد المغرب الأوسط كانت سوقًا تجارية كبيرة، وهذا راجع إلى التجارة النشيطة التي عرفت بها هذه البلاد، سواء التجارة الداخلية ما بين المدن أو التجارة الخارجية مع بقية الأقطار مثل إفريقية والمغرب والأندلس وحتى المشرق، وهذا ما أدى إلى ظهور مراكز تجارية كبرى بالمنطقة جلبت إليها العديد من التجار ومن مختلف المناطق أهمها: بونة، مرسى الخرز، قلعة أبي طويل، بجاية، تنس، تلمسان وورقلة.
- وبالإضافة إلى هذه المراكز ذات التجارة الواسعة حاز إقليم المغرب الأوسط على مجموعة من المراسي التجارية ساهمت هي الأخرى في تنشيط الحركة التجارية بالمنطقة خاصة الخارجية منها مثل مرسى بجاية ووهران وهنين والتي كانت تربط بلاد المغرب الأوسط مباشرة بمراسي الأندلس ومراسي أوروبا.
- أما بالنسبة للأسواق ببلاد المغرب الأوسط فلا تعطينا المصادر الجغرافية أي معلومات ذات فائدة عنها، بل تكتفي بالإشارة إلى تواجد عدد كبير من الأسواق بها، وأن لكل مدينة أو قرية سوقًا أو أسواقًا تنعقد بها في أيام محددة.
- وضعت كتب المسالك والممالك خريطة دقيقة للطرق التجارية المشهورة ببلاد المغرب الأوسط، حيث تطرقت إلى تحديد أهم الطرق التي تصل إقليم المغرب الأوسط ببقية أقاليم المغرب، والطرق التي تصل أهم مدنه ببعضها البعض، كما أوضحت المدن التي تمر بها والمسافات الفاصلة بينها بالمراحل، ولعل أهم هذه الطرق تتمثل في الطريق الساحلي الذي يربط موانئ المغرب الأوسط ببعضها، وطريق الهضاب الذي يمثل أهمية خاصة باعتباره يربط بين إفريقية والمغرب ويربط الشمال بالجنوب في نفس الوقت، وأخيرًا الطريق الصحراوي الرابط بين مجموعة من المدن الصحراوية.
- إن التنوع الذي عرفت به بلاد المغرب الأوسط في منتجاتها سواء الفلاحية أو الصناعية وغناها من الناحية الطبيعية جعل جميع المواد التي تقوم بإنتاجها من الكثرة ما يسمح

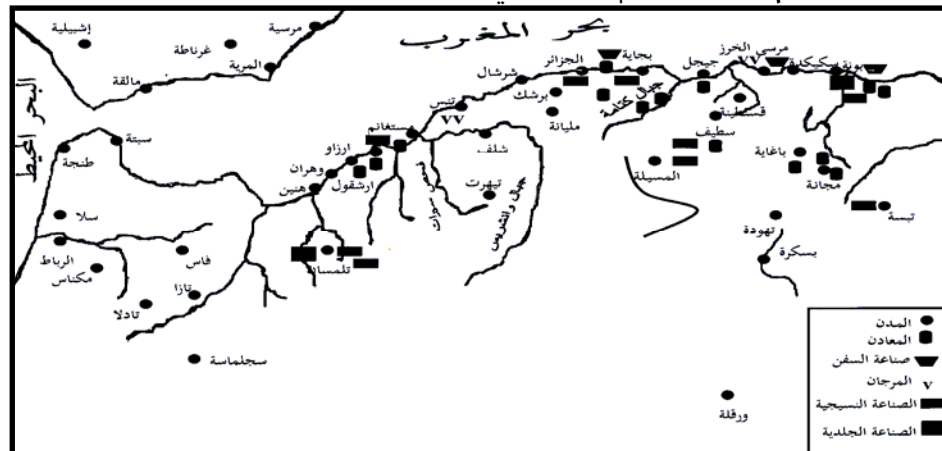
ملحق رقم (١) خريطة لأهم الموارد المائية في المغرب الأوسط من خلال المصادر الجغرافية



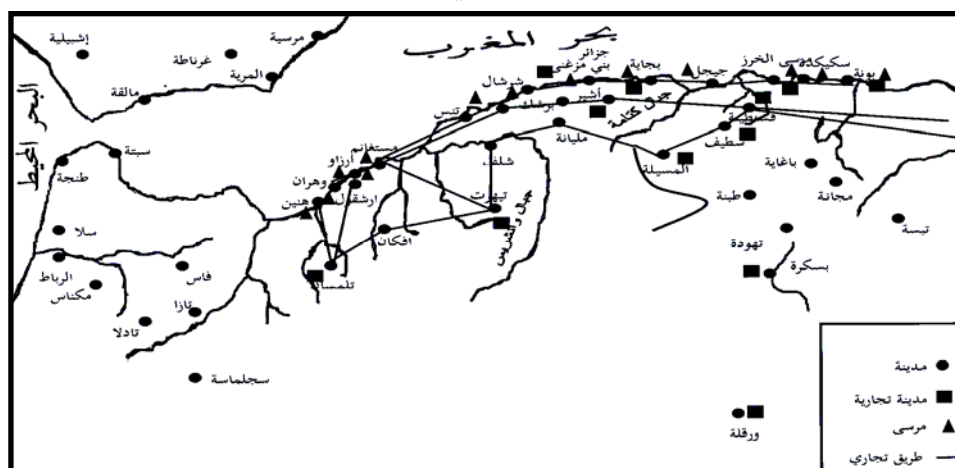
ملحق رقم (٢) خريطة لأهم المحاصيل الزراعية في المغرب الأوسط من خلال المصادر الجغرافية



ملحق رقم (٣) خريطة لأهم الصناعات في المغرب الأوسط من خلال المصادر الجغرافية



ملحق رقم (٤) خريطة لأهم المراكز والطرق التجارية في المغرب الأوسط من خلال المصادر الجغرافية



تحقيق: حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة ٢٠٠٢، ص: ١٤٦.

(9) لا يُعَدُّ المراكشي جغرافياً وضع أوصافاً لبلاد المغرب بل خصص جزء من كتابه لتحديد هذه البلاد والمدن الواقعة ضمنها، نزولاً عند رغبة مولاه من خلفاء الموحدين (قد يكون عبد الله العادل بن يعقوب المنصور ٦٢١-٦٢٤ هـ / ١٢٢٤-١٢٢٧ م)، فيقول: «وقد رسم مولانا أن يضاف إلى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً من مدن برقة إلى السوس الأقصى، وذكر جزيرة الأندلس، فلم ير المملوك بداً من الجري على العادة في سرعة الإجابة وامثال مرسوم الخدمة، مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف، وداخل في باب المسالك والممالك، وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة»، المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٤، ص: ٢٨١.

(10) نفس المصدر، ص: ٢٩٤.

(11) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦١.

(12) انظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٩٠، البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٣٥١.

(13) انظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٩٠، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٤، الاستبصار، ص: ١٧١، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣٤٣، ٥٤٧، الدمشقي، المصدر السابق، ص: ٢٣٧.

(14) ابن حوقل، المصدر السابق، نفس الصفحة، البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٥٨، الإدريسي، المصدر السابق، نفس الصفحة، الحميري، المصدر السابق، ص: ٢٣٣، الدمشقي، المصدر السابق، نفس الصفحة. (15) ابن حوقل، المصدر السابق، نفس الصفحة، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٢.

(16) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٥١ - ٢٥٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٥٨، أبو الفداء، المصدر السابق، ص: ١٢٦، ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة ٢٠٠٢، ص: ١٤٢.

(17) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٧، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٢-١٥٣، **الاستبصار**، ص: ١٣٣، ابن سعيد، المصدر السابق، نفس الصفحة، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٣٨.

(18) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٤٢.

(19) الاصلطخي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، **مسالك الممالك**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص: ٣٩، المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد، **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار صادر، بيروت، الطبعة ٢٠٠٢، د.ت، ص: ٢٢٨-٢٢٩، الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، المجلد ٢، ص: ٨، **الاستبصار**، ص: ١٧٨، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٢٦.

(20) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٤٨.

(21) نفس المصدر، ص: ٢٥٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٧٠.

(22) **الاستبصار**، ص: ١٧٨.

(23) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٠، **الاستبصار**، ص: ١٧٦-١٧٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٣٥، ٣١٨، الدمشقي، المصدر

(1) من بين هذه الدراسات: يسري الجوهرى، **الفكر الجغرافي والكشف الجغرافية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٣؛ محمد محمود محمد، **الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان**، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة ٢٠٠٢، ١٩٩٦؛ شاكر خصبك، **الجغرافية عند العرب**، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، د.ت؛ عمر رضا كحالة، **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، المكتبة العربية، دمشق، ١٩٧٢؛ أحمد فؤاد باشا، **التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة**، دار المعارف، مصر، الطبعة ١٩٨٣.

(2) كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض، ويقال جغراويا بالواو: علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها... والجغرافيا علم لم ينقل له في العربية لفظ مخصوص، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، **كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، المجلد ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٤١، ص: ٥٩٠، وكلمة جغرافيا لم تستعمل للدلالة على علم الجغرافيا إلا مؤخراً، وجرى قدماء الجغرافيين على استعمال هذا اللفظ علماً على كتابي بطليموس ومارينوس الصوري، واستعملت لأول مرة بمعنى علم الجغرافيا في رسائل إخوان الصفا، لكنها فسرت أيضاً في هذا الموضع بأنها صورة الأرض، وظل هذا المعنى شائعاً في العصور الوسطى، **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة: محمد ثابت الفندي، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، المجلد ٧، وزارة المعارف العمومية، مصر، ١٩٣٣، ص: ١٠.

(3) من بين هؤلاء: ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، الطبعة ٢٠٠٢، د.ت، ص: ٨٤، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص: ١٦٢-١٦٣، الحميري محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة ٢٠٠٢، ص: ٥٤٥.

(4) البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، **المسالك والممالك**، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة ٢٠٠٣، ج ٢، ص: ٣٣١.

(5) نفس المصدر، ص: ٢٤٠، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٥٨، الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، مقتبس من **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** للإدريسي أبي عبد الله الشريف، تحقيق: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣، ص: ١٥٦، الدمشقي شمس الدين، **كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، د.م، ١٩٢٣، ص: ٢٣٧، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص: ١٣٩.

(6) انظر: البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٤٠، **الاستبصار**، ص: ١٦٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٢٧.

(7) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٥.

(8) **الاستبصار**، ص: ١٣٠، الحميري، المصدر السابق، ص: ٨١، الدمشقي، المصدر السابق، ص: ٢٣٥، أبو الفداء، المصدر السابق، ص: ١٣٧، العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، الجزء الرابع: **ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب**،

- (47) المصدر السابق، ص: ١٤٢.
- (48) المصدر السابق، ص: ١٥٣.
- (49) الاستبصار، ص: ١٣٣.
- (50) المصدر السابق، ص: ١٦٢.
- (51) الإدريسي، نفس المصدر، ص: ١٦٦، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٨٠.
- (52) نفس المصدر، ص: ١٦٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٨١.
- (53) هو أبو محمد عبيد الله، الملقب بالمهدي، في نسبه اختلاف كبير، كانت ولادته سنة تسع وخمسين، وقيل ستين، وقيل ست وستين ومائتين، بمدينة سلمية، وقيل بالكوفة، ودعي له بالخلافة على منابر رقادة والقيروان سنة سبع وتسعين ومائتين، وخرجت بلاد المغرب عن ولاية بني العباس، وهو من بني المهدي بإفريقية سنة ثمان وثلاثمائة، ونسبت إليه، توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة بالمهدية، ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، مصر، الطبعة ١، ١٩٤٨، ج ٢، ص: ٣٠١-٣٠٢.
- (54) إسماعيل العربي، **ال عمران والنشاط الاقتصادي**، ص: ٣٣٢.
- (55) المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٣٠، المقدسي، المصدر السابق، ص: ٢٣٠، الاستبصار، ص: ١٧٣، الحموي، المصدر السابق، المجلد ١، ص: ٤٢٢، ابن سعيد، المصدر السابق، ص: ١٢٦، الحميري، المصدر السابق، ص: ١١٣-١١٤، الدمشقي، المصدر السابق، ص: ٢٣٧، أبو الفدا، المصدر السابق، ص: ١٣٩.
- (56) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٥٤.
- (57) نفسه، نفس الصفحة، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٠١-٤٠٠.
- (58) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٤، الاستبصار، ص: ١٧٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣٨٧.
- (59) الاستبصار، نفس الصفحة، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٥٨.
- (60) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٥٥، الاستبصار، ص: ١٧٤، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٤٢.
- (61) الحموي، المصدر السابق، المجلد ٥، ص: ٣٧١، الحميري، المصدر السابق، ص: ٦٠٠.
- (62) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٠، ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٦، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٣٩.
- (63) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٧.
- (64) ابن حوقل، نفسه، نفس الصفحة، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٣، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٣٨.
- (65) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٦.
- (66) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٤٨، الاستبصار، ص: ١٧٨، الحموي، المصدر السابق، المجلد ٢، ص: ٥٨، القزويني زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص: ١٩٠، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٢٦.
- (67) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٨، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣٤٠.
- (68) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٩٣، المقدسي، المصدر السابق، ص: ٢٣٠، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٥، الاستبصار، ص: ١٧٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٧٩.
- السابق، ص: ٢٣٧، أبو الفدا، المصدر السابق، ص: ١٣٧، العمري، المصدر السابق، ص: ٢٠٣.
- (24) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٦٠.
- (25) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٨، البكري، المصدر السابق، نفس الصفحة، **الاستبصار**، ص: ١٣٤، الدمشقي، المصدر السابق، ص: ٢٣٥.
- (26) الحميري، المصدر السابق، ص: ٢٦-٢٧.
- (27) المقدسي، المصدر السابق، ص: ٢٣٠، البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٣٠، الحميري، المصدر السابق، ص: ١١٤.
- (28) الاستبصار، ص: ١٧٣.
- (29) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٣٣-٢٣٤، الاستبصار، ص: ١٢٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ١١٥، الدمشقي، المصدر السابق، ص: ٢٣٥، أبو الفدا، المصدر السابق، ص: ١٤١.
- (30) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٤٤، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٨١، الدمشقي، المصدر السابق، ص: ٢٣٧، أبو الفدا، المصدر السابق، ص: ١٣٩.
- (31) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٤٧، الاستبصار، ص: ١٣٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٣٣.
- (32) البكري، المصدر السابق، ص: ٢٥٤.
- (33) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٩، المقدسي، المصدر السابق، ص: ٢٢٩، البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٦٣، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥١.
- (34) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٨، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٣، الاستبصار، ص: ١٣٤، الحميري، المصدر السابق، ص: ٦١٢-٦١٣.
- (35) إسماعيل العربي، **«ال عمران والنشاط الاقتصادي في عصر بني حماد»**، مجلة الأضالة، العدد ١٩، سنة ١٩٧٤، ص: ٣٣١.
- (36) علوي مصطفى، **صورة المغرب الأوسط في كتابات الرحالة والجغرافيين المغاربة**، ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/ ١١٣-١٥، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجليلي اليابس، سيدي بلعباس، ٢٠١٠-٢٠١١، ص: ٧٩.
- (37) المصدر السابق، ص: ٧٦، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٢.
- (38) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٤، البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٢٧، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٧٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ٧٦.
- (39) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٥، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٤، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣٨٧.
- (40) موسى لقبال، **«مميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى»**، مجلة الأضالة، العدد ١٩، سنة ١٩٧٤، ص: ٥٦.
- (41) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦١.
- (42) رشيد بورويبة، **الجزائر في تاريخ العهد الإسلامي، من الفتح إلى بداية العهد العثماني**، ج ٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص: ٢٢٧.
- (43) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٦، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٣٩.
- (44) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٩، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣٤٠.
- (45) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٥٧.
- (46) الاستبصار، ص: ١٧٥.

- (98) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٦، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٨٠.
- (99) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٣، الحميري، المصدر السابق، ص: ٦١٣.
- (100) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٧٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٢٢-٥٢١.
- (101) المصدر السابق، ص: ٧٥.
- (102) الاستبصار، ص: ١٢٧.
- (103) المصدر السابق، ص: ١٦٩.
- (104) نفس المصدر، ص: ١٥٦.
- (105) الاستبصار، ص: ١٧٩.
- (106) خلف محمد نجيب، «المغرب الأوسط في كتابة الرحالة والجغرافيين العرب»، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠٧، ص: ٢٠٦.
- (107) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٣٢٩.
- (108) المصدر السابق، ص: ٢٦٠، ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٤، الحموي، المصدر السابق، المجلد ٥، ص: ٥٦.
- (109) المصدر السابق، ص: ١٩٤.
- (110) المصدر السابق، ص: ٧٦، المقدسي، المصدر السابق، ص: ٢٢٦، الحموي، المصدر السابق، المجلد ١، ص: ٥١٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٤١.
- (111) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٢.
- (112) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٥٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ٢٨.
- (113) المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٦٨-٢٦٩.
- (114) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: اسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة ١، ١٩٩٣، ص: ٧٩.
- (115) المصدر السابق، ص: ٧٥.
- (116) القَتْبُ والقَتْبُ ضرب من الكَثَان، ابن منظور، المصدر السابق، ج ١، ص: ٦٩١.
- (117) المصدر السابق، ص: ١٩١، ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٥، المقدسي، المصدر السابق، ص: ٢٣٩، الحموي، المصدر السابق، المجلد ٥، ص: ١٠٦، القزويني، المصدر السابق، ص: ٦٢١.
- (118) المصدر السابق، ص: ١٤١، الوزان، المصدر السابق، ص: ٦٢.
- (119) لمزيد من الاطلاع، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩١، ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٥، المقدسي، المصدر السابق، ص: ٢٣٩، الحموي، المصدر السابق، المجلد ٥، ص: ١٠٦، القزويني، المصدر السابق، ص: ٦٢١.
- (120) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٢.
- (121) شجر شائك من الفصيلة السدرية، يبلغ ارتفاعه ستة أمتار، ويطلق العناب على ثمره أيضا، وهو أحمر حلو لذيذ الطعم، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة ٤، ٢٠٠٤، ص: ٦٣٠.
- (122) الحميري، المصدر السابق، ص: ١١٥.
- (123) رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص: ٢٢٨.
- (124) المريخ: الخصب، ومرع المكان والوادي مرعا ومراغة: أخصب وأكلأ، وأمرع القوم: أصابوا الكلاً فأخصبوا، وأرض أمروعة أي خصيبة، وقد
- (69) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٣٣٠، الاستبصار، ص: ١٦٣، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٣٠.
- (70) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٧٠، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣١٨، أبو الفداء، المصدر السابق، ص: ١٤١.
- (71) العمري، المصدر السابق، ص: ٢٠٣.
- (72) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٦، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٢.
- (73) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٥، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٤.
- (74) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٦، البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٣٩، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٦.
- (75) البكري، المصدر السابق، ص: ٢٤٧.
- (76) البكري، نفسه، ص: ٢٥١-٢٥٢.
- (77) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦٤.
- (78) المصدر السابق، ص: ١٤٠-١٤١.
- (79) نفسه، ص: ١٩٤.
- (80) علوي مصطفى، المرجع السابق، ص: ٨٠.
- (81) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٣٤، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ١١٥.
- (82) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٦.
- (83) من البرذون وهو الدابة، والأثنى برذونة، وجمعه براذين، والبراذين من الخيل: ما كان من غير نتاج الجراب، وبرذن الفرس: مشى مشي البراذين، وبرذن الرجل: ثقل، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت، المجلد ١٣، ص: ٥١.
- (84) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٦.
- (85) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٧.
- (86) المصدر السابق، المجلد ٢، ص: ٤٤، ولعل الحموي يقصد بالخيول الراشدية الخيول التي ينتجها إقليم بني راشد المعروف بإنتاج الجمال والخيول، انظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ج ٢، ص: ٢٥.
- (87) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٥.
- (88) نفس المصدر، ص: ٨٦، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٦، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٥٨.
- (89) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٩، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٦٣.
- (90) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٨، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣٤٠.
- (91) الحميري، نفسه، ص: ١٣٢.
- (92) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٣، الحميري، المصدر السابق، ص: ٦١٣.
- (93) المصدر السابق، ص: ١٥٩.
- (94) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٧.
- (95) ابن حوقل، نفس المصدر، ص: ٧٦، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٢، الاستبصار، ص: ١٢٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ١١٥.
- (96) ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٦، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٧، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٢٦.
- (97) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٨-١٥٩، الحميري، المصدر السابق، ص: ٣٤٠.

- (137) يُقال ثوب صفيق: متين يَبِّن الصفاقة، وقد صُفِّق صفاقة: كثف نسجه، وثوب صفيق وسفيق: جيد النسج، ابن منظور، المصدر السابق، ج ١٠، ص: ٢٠٤.
- (138) المصدر السابق، المجلد ١٠٤، ص: ٣٩٠.
- (139) الاستبصار، ص: ١٢٩.
- (140) الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دت، ص: ١١٣-١١٤.
- (141) بسام كامل عبد الرزاق شقدان، **تلمسان في العهد الزياني (٦٣٣-٩٦٢ هـ / ١٢٣٥-١٥٥٥م)**، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٢، ص: ١٨٧.
- (142) المصدر السابق، المجلد ١٠٢، ص: ٤٤.
- (143) لخضر العربي، **الحرف في مدينة تلمسان على العهد الزياني (٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م - ٩٦٢ هـ / ١٥٥٤م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة معسكر، ٢٠١٠-٢٠١١، ص: ٩٣.
- (144) المصدر السابق، ص: ١٤٠.
- (145) لخضر العربي، المرجع السابق، ص: ٩٤.
- (146) نفس المرجع، نفس الصفحة.
- (147) المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٣٨.
- (148) نوع من العوسج، وهو صنفان: جبلي وريفي، فالجبلي هو الأميرباريس (العوسج الأصفر)، وتعلو هذه الشجرة قدر القامة وأكثر، وهي خشبية كثيرة الأغصان، ورقها يشبه ورق الآس، والريفي المعروف بالعوسج الأسود، شجرة تعلو نحو القامة وأكثر، مشوكة العود، ذات ورق يشبه ورق الكتم، الإشيلي أبو الخير، **عمدة الطبيب في معرفة النبات**، تحقيق: محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة ١٩٩٥، ج ١، ص: ٥٧-٥٩.
- (149) قنطاريون: من جنس البقل المستأنف، وهو صغير وكبير، والكبير يختلف فيه، قال بعض الأطباء: هو فول الحمام، وقال آخرون: هو القويبيّة، وقيل الياسمين الجبلي، الغساني أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم، **حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار**، تحقيق: محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة ٢٠٠٢، ص: ١٩٩.
- (150) من جنس الجنية، وله نوعان: مدحرج وطويل، فالمدحرج منابته في الجبال، والطويل أصفر اللون عطر الرائحة، منابته السهول في التربة المختلطة بالرمل، نفس المصدر، ص: ١٠٤.
- (151) هو من جنس التمنس، والتمنس هو ما ليس بشجر ولا بقل وقيل يلحق بالشجر الصغير، وعند بعض الأطباء هو صنف من أصناف الشيخ الرومي، وقيل أوراق الصعتر، نفس المصدر، ص: ١١.
- (152) المصدر السابق، ص: ١٦٠-١٦١.
- (153) المصدر السابق، ص: ١٥٣.
- (154) نفس المصدر، ص: ١٥٩.
- (155) رشيد بورويبة، **«عناية من الفتح الإسلامي إلى أواخر العهد الموحيدي»**، مجلة الأصالة، العدد (٣٥/٣٤)، سنة ١٩٧٦، ص: ٧٣.
- (156) المصدر السابق، ص: ٧٥-٧٦، البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٣٣٤، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٢، الحميري، المصدر السابق، ص: ١١٥.

- أمرعت الأرض إذا شبع غنمها، وأمرعت إذا أكلأت في الشجر والبقول، وأمرعت الأرض إذا أعشبت، ابن منظور، المصدر السابق، ج ٨، ص: ٣٣٥-٣٣٤.
- (125) الخط: قشر الورق عن الشجر اجتذاً بالكف، وخرطت العود أخرطه وأخرطه خرطاً: قشرته، وخرط الشجرة يخرطها خرطاً: انتزع الورق واللحاء عنها اجتذاً، ابن منظور، نفس المصدر، ج ٧، ص: ٢٨٤.
- (126) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٦٩.
- (127) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٦١.
- (128) الاستبصار، ص: ١٣٠.
- (129) موسى لقبال، المرجع السابق، ص: ٠٧.
- (130) المصدر السابق، ج ٢، ص: ٣٣٤، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٣٨.
- (131) موسى لقبال، المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (132) هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان، المتوكل على الله: من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، ولد في فاس سنة (٧٢٩ هـ / ١٣٢٩م) وبها نشأ، وولاه أبوه إمارة تلمسان ثم ثار على أبيه، وبويع في حياته سنة ٧٤٩ هـ، ولما مات أبوه سنة ٧٥٢ هـ استتب أمره، فبدأ بإخضاع بني عبد الواد وكانوا ملوك زناتة في تلمسان، فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان، وانتظم له أمر المغرب الأوسط، وقصد إفريقية سنة ٧٥٨ هـ فانتزع قسنطينة وتونس من أيدي الحفصيين، ثم عاد إلى فاس، ومرض أياماً فدخل عليه وزيره الحسن بن عمر الفودودي فقتله خنقاً سنة (٧٥٩ هـ / ١٣٥٨م)، الزركلي خير الدين، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة ١٥، ٢٠٠٢، ج ٥، ص: ١٢٧.
- (133) هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم ابن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النميري، من أهل غرناطة، يكنى أبا إسحاق ويعرف بابن الحاج، أُرسم في كتابة الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، رحل إلى المشرق عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، فحج وقفل إلى إفريقية، فاستقر ببجاية مضطجعاً بالكتابة والإنشاء، ثم انتقل إلى خدمة السلطان أبي الحسن المريني، ومن بعده ابنه أبي عنان، وبعد موته لحق بالأندلس، واستعمل في السفارة إلى الملوك، وولي القضاء والكتابة، من تولى فيه: "كتاب المساهلة والمسامحة في تبين طرق المداعبة والممازحة"، و"إيقاظ الكرام بأخبار المنام"، و"تنعيم الأشباح بمحادث الأرواح"، و"الوسائل ونزهة المناظر والخمائل"، و"الزهرات وإجالة النظرات"، و"نزهة الحدق في ذكر الفرق"، و"اللباس والصحة" في طرق المتصوفة، وله تأليف سماه بفيض العباب، وإجالة قذاح الآداب، في الحركة إلى قسنطينة والزاب، وكان مولده بغرناطة عام ثلاثة عشر وسبعمائة، ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة ٢٠٠٢، ١٩٧٣، المجلد ١، ص: ٣٤٢-٣٦٢.
- (134) النميري ابن الحاج، **فيض العباب وإفاضة قذاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد: محمد ابنشقر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة ١٩٩٠، ٢٠١٠، ص: ٣٦٦.
- (135) المصدر السابق، المجلد ١٠٢، ص: ٤٤.
- (136) الاستبصار، ص: ١٧٠.

- انظر: أسماء أبو بكر محمد، ابن بطوطة، **الرجل والرحلة**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة ١٩٩٢، ص: ٣٥-٩٢.
- (172) ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، دم، دت، ج ١، ص: ٣٠-٣١.
- (173) نفس المصدر، ص: ٣١.
- (174) الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٩٧، ابن سعيد، المصدر السابق، ص: ١٣٦، الوزان، المصدر السابق، ص: ١٣٦.
- (175) لمزيد من الاطلاع، انظر: البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٦٩-٢٦٦.
- (176) الاستبصار، ص: ١٣٠.
- (177) المصدر السابق، ص: ٧٨، الإدريسي، المصدر السابق، ص: ١٥٣، الحميري، المصدر السابق، ص: ٦١٣، الوزان، المصدر السابق، ص: ٣١.
- (178) نستشف ذلك من خلال رحلة البلوي حيث عبر البحر من الأندلس إلى المغرب نزولا بمرسى هنين، البلوي، المصدر السابق، ص: ١٤٨.
- (179) الجليلي صاري، «أضواء على أحد موانئ دولة بني زيان "هنين"»، مجلة التاريخ، العدد ٢١، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، ١٩٨٦، ص: ١٧-٢٠، وانظر وصف الميناء عند الوزان، المصدر السابق، ص: ١٥.
- (180) المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٢٨.
- (181) المصدر السابق، ص: ١٥٥.
- (182) نفس المصدر، ص: ١٧٢.
- (183) خلف محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٢٠٧.
- (184) عبد القادر زمامة، «المغرب في جغرافية ابن حوقل»، مجلة البحث العلمي، العدد (١٩)، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، سنة ١٩٧٢، ص: ٩٠.
- (185) لمزيد من الاطلاع على هذه الشبكة من الطرق، انظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٨٥-٩٠.
- (186) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٢٧-٢٢٩.
- (187) نفس المصدر، ص: ٢٣٩-٢٤١.
- (188) نفسه، ص: ٢٤٦.
- (189) نفسه، ص: ٢٤٧.
- (190) نفسه، ص: ٢٥١-٢٥٢.
- (191) نفسه، ص: ٢٥٣-٢٥٨.
- (192) نفسه، ص: ٣٣٦-٣٣٠.
- (193) الادريسي، المصدر السابق، ص: ١٥١-١٥٢.
- (194) نفس المصدر، ص: ١٥٥.
- (195) نفسه، ص: ١٥٧.
- (196) خلف محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٢١٩.
- (197) ناصر الدين سعيدوني، «المسالك والدروب في الهضاب العليا لقسنطينة ودورها الحضاري أثناء الفترة الإسلامية»، مجلة الثقافة، العدد ٨٠، الجزائر، سنة ١٩٨٤، ص: ١٢٩.
- (198) نفس المرجع، ص: ١٢٨-١٣٠.
- (199) يقول صاحب كتاب الاستبصار: «وبادس بالقرب منها قيطون بياضة وهو أول بلاد سماطة ومنه تفتقر الطرق إلى بلاد السودان وإلى القيروان وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها، وقيطون بياضة قرية

- (157) المصدر السابق، ص: ١٩٠-١٩١، ابن حوقل، المصدر السابق، ص: ٧٥، الحموي، المصدر السابق، مج ٥، ص: ١٠٦، القزويني، المصدر السابق، ص: ٢٦١، الحميري، المصدر السابق، ص: ٥٣٨.
- (158) اسماعيل العربي، **العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر...**، ص: ٣٤٣.
- (159) المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٢٦، الحميري، المصدر السابق، ص: ٤٦٩.
- (160) عن اختيار موقع هذه المدينة، انظر: الحموي، المصدر السابق، المجلد ١، ص: ٣٣٩.
- (161) المصدر السابق، ص: ١٦٢.
- (162) نفس المصدر، ص: ١٦١.
- (163) المصدر السابق، ص: ٧٧.
- (164) البكري، المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٥٩، الحميري، المصدر السابق، ص: ١٣٥، العمري، المصدر السابق، ص: ٢٠٣، الوزان، المصدر السابق، ص: ٢٣.
- (165) المصدر السابق، ص: ١٥٠-١٥١.
- (166) بسام كامل عبد الرزاق شقدان، المرجع السابق، ص: ١٩٢.
- (167) علوي مصطفى، المرجع السابق، ص: ٨٣.
- (168) هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد، أبو عبد الله الحاحي العبدري: صاحب الرحلة المعروفة باسمه، أصله من بلنسية ونسبه إلى بني عبد الدار، كان من سكان بلدة حاحة بالمغرب، توجه منها حاجًا سنة ٦٨٨ هـ، وليس في المصادر ذكر لسنة وفاته، وقد تكون نحو سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م)، الزركلي، المرجع السابق، ج ٧، ص: ٣٣.
- (169) هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي الأندلسي (أبو البقاء)، فقيه، رحالة، ولد بقرطبة، وتولى القضاء، من آثاره: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، وهي رحلته إلى الحجاز التي ابتدأت سنة ٧٣٥ هـ، وانتهت سنة ٧٤٠ هـ، عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفى الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، دم، دت، ج ١، ص: ٦٦٨.
- (170) للمزيد من الاطلاع انظر: العبدري أبو عبد الله محمد، **الرحلة المغربية**، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ٢٠٠٧، ص: ٢٧-٢٨، البلوي خالد بن عيسى، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المغرب، الإمارات العربية المتحدة، دت، ج: ١، ص: ١٤٨-١٤٩.
- (171) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة: رحالة، ولد ونشأ في طنجة، وخرج منها سنة ٧٢٥ هـ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين وبلاد التتر وأواسط افريقيا، واتصل بكثير من الملوك والأمراء، عاد بعدها إلى بلاده فانقطع إلى السلطان أبي عنان وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبى بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ، استغرقت رحلته ٢٧ سنة (١٣٢٥-١٣٥٢)، مات في مراكش سنة (٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)، الزركلي، المرجع السابق، ج ٦، ص: ٢٣٦، وانظر ترجمته في: البغدادي اسماعيل باشا، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت، المجلد ٢، ص: ١٦٩، عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج ٣، ص: ٤٥١-٤٥٢، وعن رحلته

كبيرة فيها تجتمع الرفاق، ومنها تخرج إلى جميع البلاد، وهي آخر بلاد الزاب» الاستبصار، ص: ١٧٥.

(200) سعيدي، المسالك والدروب في الهضاب العليا لقسنطينة، ص: ١٢٩.

(201) خلف محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٢١٩-٢٢٠.

(202) اللبد واحد اللبود، وهو من البسط، وكذلك لبد السرج، وألبد السرج: عمل له لبد، ابن منظور، المصدر السابق، المجلد ٣، ص: ٣٨٦.

(203) المصدر السابق، ص: ٤٥.

(204) المصدر السابق، ص: ٩٧.

(205) المصدر السابق، ص: ١٤٠.

(206) المصدر السابق، ص: ١٩٧.

(207) المصدر السابق، ص: ١٢٦.

(208) المصدر السابق، ص: ٣٩.

(209) رشيد بورويبة، الجزائر في تاريخ العهد الإسلامي، ص: ٢٣٢.

(210) نفس المرجع، ص: ٢٣١.

(211) المصدر السابق، ص: ٢٤٠.

(212) المصدر السابق، ج ٢، ص: ٢٤٣.

(213) نفس المصدر، ج ٢، ص: ٢٥٠.

(214) نفسه، ج ٢، ص: ٢٦١.

(215) نفسه، ج ٢، ص: ٣٢٩.

(216) ابن الخطيب لسان الدين، كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد

والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي،

المغرب، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٧٦، ص: ١٨٤.

تصدير المغرب الأوسط للحبوب من (القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) إلى (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)

عبد العزيز رشيد

أستاذ ثانوي

باحث دكتوراه في التاريخ الاقتصادي
الجمهورية الجزائرية



ملخص

اشتهر المغرب الأوسط بزراعة الحبوب وتصديرها إلى مختلف البلدان، ففي العهد الرستمي كانت الحنطة تصدر إلى الأندلس بسبب التأثير السلبي لثورات البربر على النشاط الزراعي. وكانت تنقل إلى المدن الأندلسية عبر عدة موانئ أهمها ميناء تنس. وصدرت الحبوب أيضًا إلى بلاد السودان الغربي، والمشرق الإسلامي خاصة أيام القحط. ولم يختلف الأمر في العصر الفاطمي. لكن الغزو الهلالي والنورماني لإفريقية قلص حجم المبادلات التجارية بين المغرب والمشرق ما عدا الحماديين الذين تجنبوا الخطر الهلالي من خلال التنازل لهم عن بعض الأراضي مما ساعدهم على تطوير الزراعة وتصدير الحبوب إلى مختلف الأقطار عبر عدة موانئ كجاية وتنس، بينما توقف تصديرها من إلى السودان الغربي بسبب تعطل الطريق البري نتيجة الغزوة الهلالية. وفي عصر الموحيين استمر تصدير الحبوب إلى إفريقية التي تأثرت بالغزو الهلالي، ورغم تحريم تبادل بعض السلع بين الموحيين والممالك الأوربية مثل الأسلحة والحبوب إلا أن هذا لم يمنع من انتقال الحبوب من المغرب إلى هذه الممالك. وفي العصر الزياني أُنْتُجَت تلمسان مختلف الغلات منها الحبوب التي كانت تنقل إلى السودان، وإلى أوروبا رغم منع رجال الدين هناك من نقل بعض السلع إلى الدولة الزيانية منها الأسلحة، والحديد، والقمح.

كلمات مفتاحية:

التاريخ الاقتصادي، العصر الفاطمي، العهد الحمادي، تصدير الحبوب، الغلات الزراعية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ يونيو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٠٢ أكتوبر ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العزيز رشيد. "تصدير المغرب الأوسط للحبوب من (القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) إلى (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)". - دورية كان التاريخية. - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ١١١ - ١٢١.

مقدمة

تنتشر بها ضياع وجنان واسعة تزخر بأنواع مختلفة من المزروعات منها الفواكه كالسفرجل والتين وغيرها، وأيضًا الحبوب التي لا تكاد تخلو منها مدينة أو قرية، وهذا يدل على أن المغرب الأوسط كان من أهم المناطق في زراعة الحبوب خلال العصر الإسلامي، مما جعله أهم منطقة لتصديرها إلى مختلف الجهات القريبة والبعيدة.^(١) ومما لا شك فيه أن موقع المغرب الأوسط جعل منه همزة وصل بين أجزاء المغرب الإسلامي وما وراءها من البلاد فهو يربط إفريقية بالمغرب الأقصى، وبلاد السودان بأوروبا. كما أن سهولة المواصلات زادت من الأهمية التجارية للمغرب الأوسط، حيث أن الطرق التجارية كانت تمر

من المشاكل التي تعاني منها دول المغرب العربي اليوم، التبعية شبه الكاملة للدول الأجنبية في المجال الغذائي وخاصة الحبوب التي تُعَدُّ الغذاء الأساسي لسكان المنطقة. والسؤال المطروح هل كانت بلاد المغرب وخاصة المغرب الأوسط تعاني من المشكلة نفسها في العصور الإسلامية أم بالعكس كانت تصدر الغذاء وخاصة الحبوب إلى مختلف مناطق العالم؟ الملاحظ من خلال الاطلاع على المصادر وخاصة كتب الجغرافيين والرحالة العرب، أمثال البكري، والمقدسي وابن حوقل، والإدريسي وغيرهم، أن بلاد المغرب الإسلامي كانت

المنتشرة على سواحل البحر المتوسط مثل: مرسى فروخ القريب من مستغانم، ومرسى الدجاج، وتنس.^(١٠)

١-١- التصدير إلى الأندلس:

كانت أبرز العلاقات التجارية في عهد الرستميين قائمة مع الأمويين في الأندلس ومع بلاد السودان، حيث قام الرستميون بدور الوسيط التجاري بين الطرفين.^(١١) وكانت العلاقات السياسية الجيدة بين تيهرت وقرطبة على وجه الخصوص سبباً في وجود علاقات اقتصادية متميزة بين البلدين.^(١٢) وكان هناك نوع من حرية التنقل بين الدولة الرستمية والدولة الأموية للإقامة والعمل، حيث هاجر كثير من الأندلسيين إلى تيهرت التي استهوتهم بتقدمها الاقتصادي، فاستفاد منها القريب والبعيد.^(١٣) ونتيجة للثورات التي قام بها البربر ضد الحكم الأموي ابتداءً من (١٣٨ هـ / ٧٥٦م)،^(١٤) وأيضاً بسبب سنوات القحط التي عاشتها هذه المنطقة من المغرب الإسلامي لجأت الأندلس إلى تيهرت لإمدادها بكميات هامة من الحبوب، وكان استيراد الحنطة من تيهرت يساهم بقسط كبير في تموين المدن الأندلسية،^(١٥) إلى درجة أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني، وهو رابع أمراء بني أمية في الأندلس دعم علاقات الصداقة مع أئمة الدولة الرستمية رغم الاختلاف المذهبي لضمان تموين رعاياه بالحبوب،^(١٦) وتفادي انتشار المجاعات بسبب الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي فرضتها الحالة السياسية المضطربة في البلاد.

كما هاجر الأندلسيون إلى تيهرت بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم نتيجة الفتن والثورات حول الحكم التي استغرقت تقريباً سبعين سنة، وذلك خلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، أي تقريباً من (٨٥٢م) إلى (٣٠٠ هـ / ٩١٢م)، وهي الفترة التي تعاقب فيها على الحكم ثلاثة من أمراء البيت الأموي، وهم: محمد الأول، والمندر، وعبد الله.^(١٧) وهكذا يعيد التاريخ نفسه فالمقولة الرومانية المشهورة أن شمال إفريقيا أو بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة خزينة أو خزان روما من القمح، تم إحيائها في العهد الرستمي ليعبر فائض القمح أو الحنطة من المغرب الأوسط هذه المرة ليس إلى روما وإنما إلى الأندلس.^(١٨) وكان تصدير الحبوب يتم عبر عدة موانئ أقيمت على سواحل المغرب الأوسط مثل مرسى فروخ، ومرسى الدجاج، وميناء تنس الذي كانت تختلف إليه السفن الأندلسية في فصل الشتاء ثم تعود منه في فصل الصيف، ولا شك أنه من بين السلع التي كانت تحملها السفن الأندلسية،^(١٩) الحبوب بحكم اشتها منطقة تنس وما جاورها بهذه الزراعة.

٢-١- التصدير إلى السودان:

رغم اتساع الصحراء الكبرى، إلا أن هذا لم يمنع من وجود اتصال مباشر وتبادل تجاري بين تيهرت وبلاد السودان، حيث كانت القوافل المغربية تجوب الصحراء متجهة إلى مدن السودان

عبر السهول الساحلية أو الداخلية دون وجود عائق طبيعي، زيادة على إشرافه على البحر من جهة الشمال. ونظراً لهذا الموقع الممتاز للمغرب الأوسط فقد تعدى نشاط تجاره الإطار المحلي إلى العالم الخارجي فكانت قوافله وسفنه تسير في جميع الاتجاهات حاملة مختلف السلع في ذهابها وإيابها.^(٢٠)

أولاً: تصدير الحبوب في العهد الرستمي

(١٦٠ هـ - ٢٩٩ م / ٧٧٧ هـ - ٩١١ م)

اجتمعت عدة عوامل ساهمت في ازدهار الزراعة بتيهت وغيرها من المناطق التابعة للدولة الرستمية، حيث عرفت بمزارعها وضياعها الواسعة، ووفرة مياهها. كما ساهم الأئمة الرستميون في هذا الازدهار الزراعي من خلال دعمهم المالي للمشروعات الزراعية، وعدم فرضهم ضرائب على الناس إلا ما أمر به الله من زكاة، وخراج، وجزية، مما جعل تيهت وغيرها من المناطق تشتهر بغلاتها المتنوعة منها الحبوب، إذ يصفها البكري بالبلد كثير الخير.^(٢١) وتنوعت العلاقات الخارجية للدولة الرستمية بحكم المصالح المشتركة. وكانت تيهت في عهد الرستميين أهم مركز تجاري يربط بين مختلف جهات المغرب الأوسط، وبين الدولة الرستمية ومختلف المناطق في المغرب الإسلامي وخارجه.^(٢٢) وبدأت تيهت تزدهر تجارياً منذ أيام إمامها الأول ومؤسس دولتها عبد الرحمان بن رستم خاصة تجارتها نحو السودان من أجل استيراد الذهب وإعادة تصديره إلى مختلف المناطق،^(٢٣) ومن العوامل التي ساعدت الرستميين على احتلال هذه المكانة وقوع عاصمتهم تيهت على طريقيين من أشهر الطرق التجارية في ذلك الوقت، وهو الطريق الرابط بين المشرق والمغرب الأقصى، والطريق الرابط بين الشمال والجنوب، أي بين الأندلس وبلاد السودان،^(٢٤) حيث يقول ابن الصغير عن الرستميين (واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها، وأنتهم الوفود من كل الأمصار، واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة).^(٢٥)

ومن العوامل أيضاً التي ساعدت الدولة الرستمية على احتلال هذه المكانة طبيعة التنظيم الإباضي الذي لا يسمح بتحصيل الجباية على التجار على أساس أنها محرمة شرعاً مما شجعهم على ارتياد تيهت من مختلف الأمصار للمتاجرة فيها.^(٢٦) كما أن استتباب الأمن نتيجة حسن سيرة الأئمة الرستميين مع الرعية، وتسامحهم مع أتباع المذاهب الأخرى، وسياسة حسن الجوار مع الدول المجاورة من بني مدرار والأغالبة، والأدارسة والأمويين وحتى مع أهالي السودان،^(٢٧) كلها عوامل جعلت تيهت قطباً تجارياً تأتي إليها السلع من مختلف الأمصار، من الأندلس والمغرب الأقصى والمشرق والسودان. كما كانت تخرج منها السلع المختلفة منها الحبوب عبر القوافل أو الموانئ

ثانيًا: تصدير الحبوب خلال العصر الفاطمي

(٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م - ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م)

١/٢ - التصدير إلى الأندلس:

وخلال العهد الفاطمي بقيت العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس نشيطة، نتيجةً للازدهار الزراعي، والصناعي، وصارت الأسواق الأندلسية والمغربية تزدهم بمنتجات المنطقتين. وكانت السفن التجارية تنتقل بصفة دائمة بين سواحل بلاد المغرب، والأندلس، حيث كانت تنتقل بين مالقة أو ألمرية من جهة، حاملة سلعًا مختلفة منها القطن، وزيت الزيتون، والفاكهة والمعادن وغيرها، وموانئ المغرب الأوسط، كتنس من جهة أخرى، التي كثرت بها السلع والمنتجات المختلفة.^(٢٩٤) يقول ابن حوقل عن تنس بأنها (من البحر نحو ميلين، وهي من أكبر المدن التي يتعدى إليها التجار الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم، وينهضون منه إلى سواها).^(٢٩٥) وقد اشتهرت بكثرة القمح الذي كان يحمل منها في المراكب إلى سواحل الأندلس وغيرها، وكانت المرية من أنشط المدن والموانئ الأندلسية التي تصل إليها الحنطة من المغرب.^(٢٩٦) وأيضًا مدينة جزائر بني مزغنة الساحلية التي كثرت بها الأسواق التي تباع فيها مختلف السلع، منها العسل، والحنطة، والشعير الذي يزيد عن حاجتهم.^(٢٩٧) ومرسى الدجاج، ومرسى فروخ، ومرسى الخرز، وأيضًا وهران، إذ يقول ابن حوقل عن هذا الميناء الأخير وعن مدينة وهران عمومًا أنها: (فرضة الأندلس إليها ترد السلع ومنها تحمل الغلال).^(٢٩٨) ومن بين هذه السلع أنواع الحبوب ولا سيما الحنطة إلى جانب اللحوم والعبيد. كما كانت أرزيو أو أرزوا تجلب إليها الحنطة من مناطق الأوسط القربية منها فيسير بها التجار ويحملونها إلى كثير من البلاد).^(٢٩٩)

٢/٢ - التصدير إلى بلاد السودان:

وفي العهد الفاطمي أيضًا استمرت العلاقات التجارية مع بلاد السودان بعد أن استولى الفاطميون على سجلماسة، فواصلت هذه المدينة ممارسة دورها كمركز تجاري مهم، وأصبحت في أيام الفاطميين (في القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي) مستقرًا للتجار العرب الذين اتجهوا إليها بحثًا عن الذهب فاختلفوا واندمجوا مع سكانها البربر.^(٣٠٠) وقد عمل الفاطميون على إكرام التجار الذين كانوا يتجهون بقوافلهم نحو سجلماسة قاصدين تيهرت.^(٣٠١) ولا شك أن هؤلاء التجار كانوا ينقلون معهم من بلاد المغرب سلعًا متنوعة منها الحبوب التي بقيت زراعتها مزدهرة خلال العهد الفاطمي، وكانت هناك ثلاثة طرق تمر بها القوافل المحملة بشتى أنواع السلع والمتجهة من بلاد المغرب إلى السودان أحدها من سجلماسة إلى السنغال، والثاني يمر عبر واحة وارجلان إلى نهر النيجر، والثالث إلى المشرق.^(٣٠٢)

الغربي، وقد أشار ابن الصغير أن تيهرت كانت تربطها تجارة غير منقطعة ببلاد السودان،^(٣٠٣) وذكر أن الإمام الرستمي أفلح حاول الذهاب إلى السودان عندما كان صغيرًا قصد التجارة إلا أن أباه منعه.^(٣٠٤) كانت الدولة الرستمية تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى السودان، وعلى المراكز التجارية الصحراوية، منها ورجلان التي كان التبادل التجاري كثيفًا بينها وبين السودان، وأيضًا غدامس^(٣٠٥) التي كان يتجه منها التجار جنوبًا نحو بلاد كانم من أرض السودان،^(٣٠٦) فقد أشرفت هذه الدولة على التجارة الصحراوية، واهتمت بها، وحفرت الآبار للقوافل في الصحراء، وأرسلت الجنود صلبة التجار لتأمينهم.^(٣٠٧)

وكانت أهم المنتجات التي تحملها القوافل الرستمية إلى بلاد السودان الأكسية المتنوعة قطنية، وكتانية، والعمائم، وأصناف من الزجاج وغيرها. ومن المحتمل أن تجار المغرب الأوسط قد حملوا معهم الحبوب خاصة القمح والحنطة إلى السودان الغربي ومنها غانة لأن طعامهم اقتصر على الذرة واللوبياء، ولم تعرف قبائل الصحراء القمح إلا من خلال ما يأتي به التجار من المناطق التلية، حيث أن أكثر ما يزرعه أهل غزاوة إحدى مدن بلاد السودان كانت الذرة، وربما جلبت إليهم الحنطة من بلاد وارجلان وغيرها.^(٣٠٨) ويمكن القول: أن تجار تيهرت قد ساهموا بقسط وافر في نقل الحبوب وخاصة الحنطة إلى بلاد السودان،^(٣٠٩) كما كان المغاربة يصدرون إلى السودان القمح الذي لم يكن يزرعه السودانيون، وكانت أسعاره غالية جدًا بسبب صعوبة نقله.^(٣١٠)

٣/١ - التصدير إلى المشرق:

لقد حتمت طبيعة الامتداد الجغرافي لحدود الدولة الرستمية إلى طرابلس أن تكون مصر منفذًا للقوافل الرستمية المتجهة إلى المشرق الإسلامي،^(٣١١) وقد كانت هناك عدة طرق تسلكها هذه القوافل منها الطريق الساحلي الممتد من الإسكندرية مارًا بعدة مدن كبرقة وطرابلس، ثم يتجه الطريق إلى الداخل في اتجاه القيروان حيث يتفرع إلى ثلاث طرق تلتقي عند المسيلة، ومنها يتابع التجار الطريق إلى تنس عبر واد الشلف، ثم إلى تلمسان، وفاس،^(٣١٢) كما كان للطرق الصحراوية دور هام في التبادل التجاري بين مصر وبلاد المغرب،^(٣١٣) ومن جهتها كانت سفن المغاربة تقلع إلى مصر لنقل الحجاج، والعلماء، والتجار، حيث كانت مصر تتوسط المشرق والمغرب، وأصبحت مخزنًا لمختلف السلع الشرقية والغربية. وفي طريق عودتها تبتاع غلات بلاد العرب، والحبشة وتسير السفن إلى إفريقيا، والمغرب الأوسط، ثم المغرب الأقصى، وتعود محملة بالسلع إلى الإسكندرية، ولا شك أن الحبوب كانت من بين تلك السلع^(٣١٤) خاصة القمح والشعير،^(٣١٥) وربما كان يحدث ذلك في أيام القحط عندما ينخفض منسوب مياه النيل وتقل الغلات.^(٣١٦)

٣/٢- التصدير إلى المشرق:

كان لسيطرة الأسطول الفاطمي على حوض المتوسط أثر كبير على الحياة الاقتصادية والتجارية للبلاد الإسلامية وخاصةً المغرب الإسلامي، الذي أصبح يتحكم في نقل التجارة بين المشرق والمغرب خلال القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، حيث كانت سفن المغاربة دائمة التنقل إلى سوريا ومصر لجلب التوابل، والمنتجات الفاخرة من الشرقيين الأدنى والأقصى.^(٤٣) وقبل انتقال الفاطميين إلى مصر كان عدد كبير من المغاربة قد انتقلوا إلى مصر، واستقروا في الإسكندرية وما حولها لممارسة التجارة. ومما يدل على أهمية العلاقات بين المشرق والمغرب خلال العهد الفاطمي إدخال بعض الزراعات إلى بلاد المغرب مثل القطن، وقصب السكر، والزعفران.^(٤٤) وفي المقابل كانت السلع المصدرة من بلاد المغرب تتمثل في المنتجات الزراعية منها القمح والشعير.^(٤٥)

ولا شك أن الطرق التجارية بين المشرق و المغرب وخاصةً مصر والمغرب، تأثرت تأثرًا كبيرًا بالتغيرات التي طرأت على الخريطة السياسية لدول المغرب ابتداءً من النصف الثاني من القرن (٥ الهجري/ ١١م) والمتمثلة في هجرة بني هلال، وقيام دولة المرابطين، واحتلال النورمان لسواحل الدولة الزيرية، وضعف الدولة الفاطمية، ثم قيام الحروب الصليبية، كل هذه العوامل مجتمعة انعكست على طرق التجارة التي تحتاج إلى الأمن بالدرجة الأولى مما قلل حجم حركة السلع بين المشرق والمغرب، وتحول مركز الثقل في تجارة البحر المتوسط إلى المدن الإيطالية.^(٤٦)

ثالثاً: تصدير الحبوب خلال العهد الحمادي

(٣٩٧ هـ / ١٠٠٧م - ٥٤٧ هـ / ١١٥٢م)

بعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر كان حماد بن بلكين أول من أعلن انفصاله الروحي والسياسي عنها سنة (٤٠٥ هـ / ١٠١٤م)، ثم تبعه المعز بن باديس سنة (٤٠٧ هـ / ١٠١٦م)، إلا أنه بعد الغزو الهلالي لبلاد المغرب بإيعاز من الفاطميين أظهر القائد بن حماد ولاءه الشكلي لهم لإبعاد شر القبائل العربية.^(٤٧) واستطاعت الدولة الحمادية أن تتجنب فعلاً خطر الهلاليين مما ساعدها على تحقيق الرفاهية والرخاء الاقتصادي في شتى المجالات.^(٤٨) وكانت التجارة من أبرز نشاطاتها الاقتصادية وخاصةً عاصمتها بجاية وأحسن من يصف حالتها وازدهارها التجاري، واتساع علاقاتها مع مختلف الأمصار، وما نتج عن ذلك من أرباح طائلة ورخاء اجتماعي، الإدريسي الذي قال عنها (بجاية مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحة والأمتعة إليها براً وبحراً مجلوبة والبضائع بها نافعة، وأهلها تجار مياسير يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار

الصحراء وتجار المشرق، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة.. ومدينة بجاية قطب لكل بلاد).^(٤٩)

ويقول عنها ياقوت الحموي (بجاية لا يخصصها من المنافع شيء، تتركب إليها السفن وتساغر إليها جميع الجهات).^(٥٠) كما يقول عنها الحميري (هي قطب لكثير من البلاد. وهي مرسى عظيم تحط فيه السفن من كل جهة).^(٥١) يجمع إذا الرحالة على المكانة الاقتصادية والتجارية التي بلغتها بجاية في عهد الدولة الحمادية. ومن العوامل التي ساعدتها على تبوء هذه المكانة، غناها الاقتصادي، حيث اشتهرت بوفرة إنتاجها الصناعي مثل صناعة الشموع، والزراعي، حيث نجد في المسيلة مزارع قطن وقمح وشعير.^(٥٢) وفي تنس الفواكه والحنطة وسائر الحبوب،^(٥٣) وفي قسنطينة الحنطة والعسل،^(٥٤) وفي مرسى الدجاج القمح والشعير والفواكه،^(٥٥) وفي بونة الفاكهة والقمح والشعير،^(٥٦) وأيضاً موقعها الاستراتيجي وطول شريطها الساحلي، وامتلاكها لعدد كبير من الموانئ والمراسي ذات الأهمية في التجارة الخارجية، من أشهرها من جهة الشرق مرسى بجاية وبونة، وسكيدة. ومن جهة الغرب بين بجاية وتنس كان هناك مرسى الدجاج، وجزائر بني مزغنة، ومرسى تدلس، وشرشال، وبرشك.^(٥٧)

وكانت أهم المراكز التجارية الحمادية بعد بجاية، قلعة بني حماد، وقسنطينة، وتيهرت والمسيلة وجزائر بني مزغنة. وكانت قلعة بني حماد مركزاً تجارياً هاماً لا سيما قبل اختطاط مدينة بجاية، وكانت ثلاثة طرق رئيسة تخرج من قلعة بني حماد، طريق يؤدي نحو بجاية، وطريق نحو القيروان وطريق نحو تونس. يقول الحميري عن قلعة بني حماد أنها كانت مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق، والحجاز، والشام، ومصر، وسائر بلاد المغرب.^(٥٨) ومما ساعد أيضاً الدولة الحمادية على الازدهار التجاري، الأمن والاستقرار السياسي رغم التحديات الخارجية الصعبة والمتمثلة في الغزو الهلالي، حيث تمكن بنو حماد من إبعاد شر بني هلال عن طريق التنازل عن بعض البوادي لفائدتهم^(٥٩) خاصةً بعد انتقال عاصمة الدولة من قلعة بني حماد إلى بجاية، وأيضاً توافد المهاجرين من صقلية بعد سقوطها في يد النورمان، ومن الأندلس كذلك حيث ساهموا في النشاط الاقتصادي خاصةً في التجارة والزراعة. ومن جهة أخرى علاقات الدولة الحمادية السلمية مع جيرانها كالزيريين شرقاً والمرابطين غرباً،^(٦٠) وحتى مع المسيحيين،^(٦١) حيث حاولت إقامة علاقات تجارية مع عدة دول وإمارات سواء على مستوى بلاد المغرب أو على مستوى البحر المتوسط والسودان، وحتى مع مناطق بعيدة في قارات أخرى كالصين، وكانت الحبوب ضمن الصادرات الحمادية لهذه الدول.^(٦٢)

١/٣ - التصدير إلى المشرق:

السواحل، وكذلك من جنوة لشراء القمح من عنابة.^(٧٣) وقد بقيت مدينة بونة تزود المدن الإيطالية بمختلف أنواع الحبوب لمدة زمنية طويلة.^(٧٤) وكان الإيطاليون يذهبون إلى ميناء شرشال من أجل الحصول على الجلود والفواكه وأيضًا الحبوب التي كانت تجلب من سهول الشلف،^(٧٥) وسكيدة هي الأخرى كان سكانها يتاجرون مع الجنوبيين فيبيعون لهم القمح مقابل أقمشة وغيرها من منتجات أوروبا.^(٧٦) كما كانت الحبوب تنقل من طرف تجار فرنسا وميورقة من مرسى الخرز وبونة، نحو المشرق الإسلامي وأوروبا.^(٧٧) وقد قامت مبادلات تجارية أيضًا بين بونة وبعض المدن الإسبانية رغم قلتها حيث كان تجار برشلونة يصدرون إلى عنابة مختلف الأقمشة مقابل استيراد الأصواف وخاصةً الحبوب.^(٧٨)

رابعاً: تصدير الحبوب في عصر المرابطين

(٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م - ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م)

شهد القرن (الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) ازدهار التجارة عبر الصحراء، إثر قيام قوة سياسية جديدة نجحت في توحيد المغرب الأقصى ومد نفوذها إلى بلاد الأندلس، هي قوة المرابطين،^(٧٩) التي وفرت ظروفًا آمنة للتجارة بفضل توحيدها لقبائل الصحراء التي سكنت في المنطقة الممتدة بين جنوب بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي. ومن خلال وصف البكري يتضح أن الطريق الذي كان يربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي في منتصف القرن الخامس الهجري يبدأ عادة من سجلماسة مارةً بأودغشت في الجنوب ومنتهيًا بغانة.^(٨٠) والجدير بالإشارة؛ أن هذا الطريق ارتفع شأنه بشكل كبير في هذا القرن، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الطريق الشرقي المرتبط بالمغرب الأدنى، والمغرب الأوسط قد تعطل بسبب هجرة القبائل الهلالية،^(٨١) وما رافقها من اضطراب سياسي، واقتصادي في المغربين الأدنى والأوسط، وقد أدى هذا إلى تعطل نشاط تجارة القوافل الصحراوية المستخدمة للطريقين الشرقي والأوسط.^(٨٢) وهذا ما يجعل احتمال توقف نقل الحبوب من المغرب الأوسط إلى بلاد السودان التي أصبحت بدون شك تستوردها من المغرب الأقصى خاصةً القمح الذي لم يكن يزرعه السودانيون، وكانت أسعاره غالية جدًا بسبب صعوبة نقله.^(٨٣)

خامساً: تصدير الحبوب في عصر الموحدين

(٥١٥ هـ / ١١٢١ م - ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م)

حتى لا يرهق عبد المؤمن الشعب بالضرائب اكتفى في بادئ الأمر بتحصيل الأموال الضرورية من خلال جمع الزكاة وتحصيل الاعشار واخماس الغنائم.^(٨٤) ولم تعرف بلاد المغرب في حياتها أيام أمن وعدل كأيام عبد المؤمن وبنيه؛ فكثرت بذلك الأموال وتأمينت الطرق وصلاح أمر الناس في البادية والحاضرة؛ وبدأت

كان لقدم جيش مغربي سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) مع المعز لدين الله الفاطمي^(٨٥) أثر كبير في إقامة علاقات تجارية بين بجاية والمشرق الإسلامي ومصر بالأخص، حيث توافد عدد كبير من المغاربة على الإسكندرية وأقاموا فيها، وكانت التجارة بين المغرب الأوسط ومصر تمر عن طريق البحر لأن طريق البر كان غير آمن بعد الزحف الهلالي.^(٨٦) وقد كان هذا التبادل يتم من خلال مجموعة من الموانئ كبجاية وتنس ومرسى الخرز، حيث كانت السفن تنقل الحجاج المغاربة وأيضًا السلع ومختلف المنتجات الزراعية منها الحبوب من خلال الموانئ سالفة الذكر خاصةً بجاية وتنس، وفي المقابل كانت تشتري غلات بلاد العرب، والحبشة، والهند، وكان هناك تبادل للسلع بين بجاية والإسكندرية.^(٨٧)

٢/٣ - التصدير إلى الدول الأوروبية والأندلس:

أما مع الدول الأوروبية فقد ظلت بجاية لعدة قرون أكبر وأهم المراكز للمبادلات التجارية خاصةً مع الإمارات الإيطالية وفي مقدمتها مدينة بيزا، ففي فترة حكم الناصر (١٠٠٧ - ١٠٢٨ م) بن علناس أقام علاقات ودية مع البابا جريجوريوس السابع، والمدن الإيطالية، وكان مما توصل إليه جريجوريوس والناصر إقامة أسقفية في بونة ورغم ذلك فإن العلاقات التجارية بين المملكة الحمادية والجمهوريات الإيطالية تبدو ضعيفة بالمقارنة مع علاقاتها مع الأندلس أو المشرق بسبب الهجومات المتبادلة.^(٨٨) كما أنه بعد طرد النورمان للمسلمين من جنوب إيطاليا، وسيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن (٣ و ٤ هـ / ٩ و ١٠ م) ومحاصرتهم الحماديين،^(٨٩) تقلصت هذه المبادلات إلا أن الدولة الحمادية لم تدخل في صراع مباشر مع النورمان وغيرهم من المسيحيين وهذا ما سمح لها بإقامة علاقات طيبة معهم.^(٩٠) وقد شملت صادرات الدولة الحمادية منتجات متنوعة منها الخيول العربية، والجلود المدبوغة، ومادة الشمع، وزيت الزيتون، بالإضافة إلى القمح والشعير.^(٩١) ومن أهم الموانئ التي كانت تصدر من خلالها هذه السلع خاصةً الحبوب ميناء القل الذي كان يؤق إليه القمح من مناطق الإنتاج، ولاشك أن قسنطينة كانت من أشهر هذه المناطق. ثم يتم تصديره خارج البلاد خاصةً نحو جنوة الإيطالية، حيث كان تجار مدينة القل يحققون أرباحًا طائلة من خلال تجارتهم هذه. وكذلك ميناء بونة التي يقول عنها الإدريسي "وهي على نحر البحر، ولها أسواق حسنة، وتجارة مقصودة".^(٩٢)

وكانت تجارتها نشطة مع بعض جمهوريات إيطاليا ثم مع الساحل الأندلسي، ومن ثم أشار بعض الرحالة إلى كثرة التجار الأندلسيين فيها،^(٩٣) منهم الحميري الذي يقول عنها أن أكثر تجارها الأندلسيين، ومرساها من المراسي المشهورة.^(٩٤) وكانت سفن عديدة تأتي كل سنة من تونس، وجربة، ومن سائر

يمكن أن يتقوى به العدو،^(٩٦) حيث كان الموحدون يمنعون مواطنيهم من بيع القمح والمواد الغذائية، والخل، والعتاد الحربي، والحديد والنحاس، ومن جتهم حرم الملوك النصارى على مواطنيهم الاتجار مع المسلمين فيما يتعلق بمواد معينة كالثياب، وأنواع الطعام، والرقيق، والحبال، والأخشاب، والحديد.^(٩٧) ورغم قرارات المقاطعة بين الجانبين فقد قامت علاقات تجارية بين المسلمين والنصارى خاصة ما يتعلق بمادة الحبوب والزيت وبعض المنتجات الصالحة للاستهلاك العادي، حيث عقدوا من أجلها المعاهدات مع البندقية، وجنوة، ومرسيليا، وكطلونيا، وبيزة، وأغلب المدن الأوربية الساحلية.^(٩٨)

ويعود الفضل في ذلك إلى الموحدين الذين كان لهم دور فعال في إرساء تقاليد بحرية تتعالى عن الصراعات السياسية والعسكرية بين المسلمين والنصارى، وهذا بشهادة أحد المؤرخين الأجانب وهو "ماص لاتريس" الذي لاحظ أن المغرب الإسلامي كان متفوقاً خلال عصر الموحدين على الإمارات الأوروبية فيما يخص التعامل مع السفن والمراكب الغارقة بعرض سواحلها، فقد فرضت السلطة الموحدية على رعاياها تقديم المساعدات الضرورية للمراكب التي تعاني من صعوبات داخل البحر، أو التي يرمي بها البحر على الشواطئ، كما فرضت عليهم احترام الركاب الناجين، ومساعدتهم، وحماية بضائعهم.^(٩٩) كما أن حاجة الدول الأوربية إلى السلع الآتية من السودان الغربي خاصة الذهب، والسلع المحلية كالأصواف والحبوب، جعل التنافس على أشده فيما بينها خاصة الجمهوريات الإيطالية كجنوة، ونابولي، وبيزة، والبندقية، والممالك الإسبانية مثل أرغون، وقشتالة، وأيضاً البرتغال، وجنوب فرنسا، خاصة مارسيليا.^(١٠٠)

وبعد أن بسط الموحدون سيطرتهم على شمال إفريقيا أقاموا علاقات تجارية مع الإمارات الإيطالية، وكطلونيا، وسمحوا لتجارها بالاستقرار في تونس، وبجاية، وبونة.^(١٠١) وقد وقعت اتفاقيات بين الطرفين تعطي للتجار الإيطاليين وخاصةً من مدينة بيزا تسهيلات^(١٠٢) في بونة، تسمح لهم المتاجرة بكل حرية داخل المدينة، وحتى مع القبائل التي كانت تسكن قريبا من الساحل، عن طريق تبادل مختلف السلع والمواد، منها الحبوب.^(١٠٣) واقتضت هذه العلاقات التجارية بين الغرب المسيحي من ناحية والغرب الإسلامي من ناحية أخرى، وبينهما وبين المشرق بوجه عام تنظيمًا للمعاملات التجارية، فعرفت الثغور الموحدية الأسواق المسورة، والوكالات، والفنادق التجارية.^(١٠٤)

سادساً: تصدير الحبوب خلال العهد الزياني

(١٢٣٥/هـ - ١٢٦٣م - ١٥٥٦م)

عرف النشاط التجاري ازدهاراً كبيراً في أيام الدولة الزيانية خاصةً في العاصمة تلمسان، التي كانت من أهم المدن التي

حياة الناس تستقر وبالتالي أخذت الحياة الاقتصادية تنتعش وأحوال الناس تتحسن.^(١٠٥) وأولى الموحدون عناية خاصة بالزراعة فكان عبد المؤمن يقوم مرة أو مرتين في الشهر بتوزيع النقود حسب حالة الخزينة على المحتاجين؛ كما أمر أهل البلاد الغربية بالرجوع إلى أراضيهم وفلاحتها، وكانت النظم العسكرية للموحدين تقضي على الجند بأن يتجنبوا السير في الأرض المزروعة،^(١٠٦) بل وأشراكهم في الحصاد أيضاً.^(١٠٧) ولم يهمل عبد المؤمن أرضاً صالحة للزراعة. وشجع المزارعين، حيث أسدت لهم الدولة النصائح العلمية حتى تدر الأرض إنتاجاً وفيراً.^(١٠٨) وأتت هذه السياسة ثمارها فازدهرت الزراعة واستمرت بلاد المغرب في إنتاج مختلف الغلات، وبكميات وافرة مما ساهم في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية، وتصدير الحبوب إلى بلدان مختلفة خاصة مع أوروبا، وإفريقية على السواء حيث تبادلته الجهات الغربية من بلاد المغرب المنتجات التجارية مع تونس، وبجاية، وقسنطينة.^(١٠٩)

١/٥ - التصدير إلى الأندلس:

إن المصادر المعاصرة لفترة هذا البحث لم تهتم بالعلاقات بين المغرب والأندلس زمن الموحدين، وعدد الدراسات التي أنجزت حول المسالك البحرية في الحوض المتوسطي عامة والجزء الغربي منه خاصة قليلة جداً، وذلك قياساً بالدراسات التي أنجزت حول المسالك البرية، حيث يصعب تحديد طرق بعينها، اللهم إلا إذا استثنينا تلك المسالك التي كانت تحاذي البر في إطار الإبحار الملازم للساحل، أما باقي الخطوط فيما كانت تربط بين ميناءين متقابلين كما هو الشأن بالنسبة لتلك التي تكلم عنها البكري.^(١١٠) ورغم ذلك فإن بعض المصادر ذكرت منتجات بلاد المغرب والأندلس من المحاصيل الزراعية، كما ذكرت تردد المراكب التجارية بين القطرين، لكن هذه المعلومات تنصف بالشمولية في معظم الأحيان دون تحديد.^(١١١) وقد نشطت الحركة التجارية وأخذت تسير بين المغرب والأندلس في قوافل منتظمة، حاملة البضائع المختلفة، فتنقل من المغرب والأندلس أنواع الغلات، والحبوب، والطعام ثم تعود بالتين، والقطن، وغيرها من السلع.^(١١٢) حيث يذكر صاحب الاستبصار أن الطعام كان يحمل من تنس إلى إفريقية، والمغرب، والأندلس.^(١١٣) وإلى ذلك تشير رواية ابن سعيد المغربي،^(١١٤) والزهرى.^(١١٥) وكانت الأندلس تصدر إلى المغرب الأخشاب والمزروعات ومنتجات الشرق، كما كان التبادل قائماً بين المغرب، وتونس، وبجاية، وقسنطينة.

٢/٥ - التصدير إلى الممالك النصرانية:

نظراً للعداء الشديد والحرب المتواصلة بين الطرفين، فقد حرم الخلفاء الموحدون والملوك النصارى على رعاياهم التعامل تجارياً مع رعايا الطرف الآخر، حيث تم تقنين التعامل التجاري من خلال تحديد لائحة البضائع التي يحرم بيعها، وتشمل كل ما

ومما ساعدهم على ذلك هو امتداد الدولة الزيانية في عصرها الذهبي من دلس شرقاً إلى وادي ملوية غرباً، وهذا ما جعلها تمتلك موانئ تجارية هامة منها ميناء دلس التي كان يخرج من أرضها إلى كثير من الآفاق.^(١١٩) وميناء جزائر بني مزغنة، وهران، أرشقول وهنين.^(١٢٠) وهذه الموانئ كانت محل توقف وإقلاع السفن القادمة من أوروبا بغرض التجارة، وحتى السفن المتجهة نحو المشرق.^(١٢١) ويختلف إليها كثيرًا عدد كبير من تجار جنوة، والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافعة عن طريق المقايضة.^(١٢٢) ومن أهم الموانئ التي كانت تصدر من خلالها ميناء هنين، فرغم أنه كان ميناء صغيرًا، إلا أن السفن الشراعية كانت تأتيه من كل الجهات، منها البندقية التي كان تجارها يحققون أرباحًا طائلة من خلال تعاملهم مع تلمسان.^(١٢٣)

وكان تجار البندقية يأخذون الحبوب من ميناء هنين نحو الأندلس، والدول الأوربية، وحتى بلدان المشرق. وهذه الحبوب كانت تنتجها سهول هنين،^(١٢٤) أو يتم جلبها من مناطق أخرى من بلاد المغرب الأوسط. كما كان لتلمسان موانئ أخرى منها ميناء وهران، الذي كان يقلع منه إلى الأندلس في يوم وليلة، وكانت مراكب الأندلس إليه مختلفة.^(١٢٥) وميناء شرشال، وهو من الموانئ التي كانت تصدر منه الحبوب نظرًا لأن منطقة شرشال كانت زراعية، ينتج أهلها من الحبوب ما يفوق حاجتهم، وتنقل إلى غيرها من الجهات داخل وخارج المغرب الأوسط.^(١٢٦) وكانت بها مؤسسات تجارية وقنصل تابع لدولة مايورقة يشرف على المبادلات ويقوم بقبض الضريبة الجمركية على السلع الواردة والصادرة، كما كانت تتوقف بها السفن القادمة من موانئ المغرب الأقصى، والأندلس، ويتم فيها تبادل السلع بين تجارها، وتجار تلك السفن.^(١٢٧)

كانت لتلمسان علاقات تجارية هامة مع الأندلس وأوروبا، حيث كانت الجهات الغربية من المغرب الأوسط تصدر القمح، والشعير، والحنطة إلى الأندلس بكميات كبيرة عن طريق سواحل تلمسان،^(١٢٨) والأمر الذي ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية والتجارية في تلمسان هي الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب عامة، وإلى تلمسان خاصة بعد منتصف القرن الخامس الهجري، وفي ظل دولة المرابطين، كما صاحب هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب قدوم جماعات كبيرة من اليهود واستقرارهم بالحواضر الكبرى كالجزائر وتلمسان، وأصبحوا يشكلون جماعة متميزة تمارس التجارة. ويذكر الإدريسي أن سائر الحبوب موجودة في تلمسان، وتخرج إلى الآفاق في المراكب.^(١٢٩) فبالنسبة للشعير فإن أهم الزبائن كانوا يأتون لشرائه من برشلونة. أما القمح فكان يُصدر على وجه الخصوص إلى ميورقة، غرناطة، وأيضًا برشلونة.^(١٣٠) وكانت الدول الأوربية أيضًا تستورد كميات هامة من الحبوب التي تنتجها منطقة مليانة عن طريق ميناء شرشال القريب منها. وكانت أيضًا مبادلات تتم بين إسبانيا والقبائل

يتوافد إليها التجار من جميع الأقطار ومن كل الجهات،^(١٣٠) لأنها كانت عامرة بأنواع الغلات، ورخيصة الأسعار.^(١٣١) ومن العوامل التي ساعدتها على التبادل التجاري الخارجي وقوعها بين الصحراء جنوبًا والتل شمالًا، وتشرف على البحر الأبيض المتوسط، فلا تفصلها عنه سوى مرتفعات على ساحله، وتحميها من جهة الجنوب سلاسل جبلية دون أن تعزلها عن البلدان الممتدة جنوب الصحراء، لأنها تحتوي على ممرات ضيقة، تعتبر بمثابة منافذ كانت تعبرها القوافل التي تنقل السلع والبضائع المختلفة من وإلى تلمسان.^(١٣٢) قال عنها الإدريسي (ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها).^(١٣٣) أصبحت تلمسان عبارة عن سوق كبير يلتقي فيه التجار القادمون من شتى أنحاء المغرب والأندلس، وأوروبا الغربية، وبلاد السودان،^(١٣٤) حيث كانت تستقبل السلع المستوردة لتموين السكان وتقوم في الوقت نفسه بتصدير منتوجاتها، حيث كثرت خيراتها. يقول الإدريسي (خيراتها كانت شاملة وتجارها كانت رابحة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر منها أموالاً وأرقى منهم حالاً).^(١٣٥) ولم تنقطع المبادلات التجارية بينها وبين المناطق الأخرى داخليًا وخارجيًا.^(١٣٦) وكان سكان المنطقة يتزودون من سوق تلمسان بمختلف المعروضات، وما زاد منها عن حاجة سكانها يعبرها ويذهب إلى غيرها من المناطق.^(١٣٧)

وفي عهد الموحدين وخاصة أيام عبد المؤمن بن علي نشطت أيضًا الحركة الاقتصادية والتجارية، وربط الأعراب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية، وبين الجهات الشرقية والغربية، فكانت تلمسان متصلة دومًا اتصالاً وثيقًا بحواضر البلاد، وبالبلاد المجاورة حيث كانت القوافل التجارية تجوب القفار باتجاه إفريقيا السوداء،^(١٣٨) وسجلماسة، وورقلة، ومنها إلى السودان انطلاقًا من مدينة تيزيل الواقعة في جنوب تلمسان.^(١٣٩) وكان المغرب الأوسط في القرن السادس يصدر القمح من البلاد الغربية إلى السودان.^(١٤٠) وعلى الرغم من وجود معاهدات تجارية بين الدولة الزيانية والدول المسيحية، إلا أن رجال الدين في أوروبا كانوا أحيانًا يضغطون على تجارهم بإصدار تعليمات تمنع نقل بعض السلع إلى أراضي الدولة الزيانية، ومن بينها الأسلحة والحديد والقمح.^(١٤١)

وعلى المنوال نفسه فعل فقهاء الدولة الزيانية، حيث كانوا يهتدون عن التعامل مع النصارى. ولم يقتصر هذا المنع على الكفار بل شمل أيضًا القبائل العربية التي عرفت بالبغي والفساد، لأن بيع هذه الأشياء لهذه القبائل سيؤدي إلى تقويتها مما سيضر بالمسلمين.^(١٤٢) وحتى في الأزمات الاقتصادية يُمنع التعامل مع هذه القبائل كبيع القمح والشعير لهم لأن هذا الأخير يقدمونه علفًا لحيواناتهم.^(١٤٣) ورغم هذا المنع فإن التجار في تلمسان كانوا يتعاطون ويتبادلون السلع مع التجار الأوربيين.

الزمن، وينسأهم التاريخ، وبذلك يكونوا قد خالفوا سيرة أجدادهم عندما أدركوا أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وهذا لن يتأتى إلا بالعزة بمعانيها الواسعة. والسؤال المطروح لماذا كان المغرب الأوسط يحتل هذه المكانة الهامة في تصدير الحبوب بينما أصبح ما يسمى الجزائر اليوم عكس ذلك تمامًا، أي من أكبر المناطق في استيرادها؟ فإذا استطاعت المنطقة أن تصدر الحبوب إلى مختلف جهات العالم في العصر الوسيط، فلماذا تعجز عن تحقيق ذلك في وقتنا الحاضر رغم تطور الوسائل الزراعية، وتخصيص إمكانيات هائلة لهذا القطاع؟

ندع الاجابة للمختصين في المجال الزراعي اليوم، فقط ندعوهم للاطلاع على تراث أجدادهم للتعرف على الحالة الزراعية الرائعة التي حققوها، ربما استفادوا منها لإيجاد حلول ناجعة وفعالة بالاعتماد على التقدم العلمي الهائل اليوم الذي بدون شك سيساعد في النهوض بالقطاع الزراعي مستقبلاً.

العربية والبربرية، حددتها بعض المعاهدات التجارية بين شيوخها وحكام وهران، وكانت تتم عبر موانئ وهران، وهنين، والمرسى الكبير، وتنس. (١٣١) ومن أبرز السلع المصدرة نحو إسبانيا الحبوب عندما تكون بحاجة ماسة إليه. (١٣٢)

الواردات:

لم تذكر المصادر والمراجع أن المغرب الأوسط كان من المناطق المستوردة للحبوب، إلا أن البلاد الشرقية أي إفريقية كانت تستورد من البلاد الغربية، الطعام ومنها القمح بكميات كبيرة قبل العصر الموحيدي (١٣٣) خاصة من وهران وسبتة، كما كان القمح يرد من صقلية إلى البلاد الشرقية بصفة خاصة قبل العصر الموحيدي، وأيضاً من جزيرة كريت. (١٣٤) ولا شك أن السبب في تحول إفريقية والجهات الشرقية من المغرب الأوسط من مناطق مصدرة للحبوب إلى مناطق مستوردة (١٣٥) مرده إلى الغزوة الهلالية التي أثرت تأثيراً كبيراً على الأوضاع الاقتصادية حيث أتلقت المحاصيل الزراعية، وجعلت الزراعة تنحصر داخل المدن، مما أوجب على إفريقية اللجوء إلى الاستيراد لتلبية حاجيات السكان. (١٣٦)

خاتمة

والخلاصة؛ أن المغرب الأوسط ظل لقرون طويلة، من أهم المناطق المصدرة للحبوب في العالم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الإنتاج الوفير، والمردود المرتفع الذي كانت تجود به أراضي المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، وهذا ما تؤكده كتب الرحالة و الجغرافيين وبشكل ملفت للانتباه . ولا شك أن أهم الأسباب التي تقف وراء هذا الازدهار الزراعي الذي سمح بتصدير الفائض إلى الخارج، توفر المقومات الطبيعية الملائمة، من أراضي وسهول خصبة، ومياه غزيرة. لكن توفر هذه العوامل الطبيعية وحدها لم يكن ليُجعل من المغرب الأوسط جنات، وبساتين، وحقول، تزرع بأنواع من الغلات الزراعية، ولم يكن هذا الازدهار يحدث لولا تفاني الإنسان المغربي، وعمله الدؤوب بتشجيع ودعم من الحكام وولاة الأمر الذين لم يدخروا جهداً وبذلوا كل ما في وسعهم لتحفيز الفلاحين على خدمة أرضهم حتى تُعطي لهم من خيراتها، وتجعلهم يحققون الاكتفاء الذاتي فينتجون ما يأكلون، بدل أن يمدوا أيديهم إلى الغير، فويل لأمة لا تنتج ما تأكل. بل واستطاعوا أن ينتجوا ما يفيض عن حاجتهم، ثم يصدرون الفائض إلى الخارج.

وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا أن أجدادنا أدركوا أهمية الأمن الغذائي، ودوره في تحقيق السيادة الكاملة، الشاملة حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، وخاضعين لإرادتهم، مما يفقدهم الاستقلال الحقيقي، ويجعلهم دائماً تابعين، وبالتالي سيظلون تحت رحمة الغير، ليست لهم كلمة مسموعة، وفي مؤخرة الأمم. فيطويهم

- (٢٢) مدينة تقع في جنوب المغرب الأقصى. اشتهرت بدباغة الجلود ذات الجودة العالية. (ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، مج ٤، ص ١٧٨).
- (٢٣) الحريري محمد عيسى: المرجع السابق، ص ٢١٠. كانم: من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان، وقيل: كانم صنف من السودان. (ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ٤٣٢).
- (٢٤) ناصر (محمد): **دور الإباضية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، بدون تاريخ، ص ٨.
- (٢٥) الإدريسي (الشريف): **المغرب وأرض السودان والمغرب**، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، المسبانية، سنة ١٨٦٣، ص ٣٥.
- (٢٦) جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٢٧٦.
- (٢٧) المرجع نفسه: ص ٢٧٦.
- (٢٨) طه جمال أحمد: **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين**، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ١٩٣.
- (٢٩) عزالدين أحمد موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ١٩٩١، ص ٣٠٦.
- (٣٠) حسن خضري (أحمد): **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، مصر، بدون تاريخ، ص ٩٦.
- (٣١) حسن إبراهيم (حسن): **تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي**، ج ٤، ط ١٤، دار الجليل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٦، ص ٣٨٨.
- (٣٢) ابن حوقل: **صورة الأرض**، الطبعة الثانية، طبع بمدينة بريل، ١٩٢٦م، ص ٧٤، ٧٥.
- (٣٣) حسن خضري أحمد: المرجع السابق، ص ١٠٩.
- (٣٤) لويس (أرشيبالد): **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة أحمد محمد عيسى وراجعه وقدم له محمد، شفيق غربال، ط ١، مصر، ١٩٨٦، ص ٣٣.
- (٣٥) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٧.
- (٣٦) ابن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه، إسماعيل العربي؛ منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٧٠، ص ١٤٢.
- (٣٧) القلقشندي (أبو العباس أحمد): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩١٣ ج ٥، ص ٢١٧.
- (٣٨) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٨.
- (٣٩) المصدر نفسه: ص ٧٨.
- (٤٠) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٠٠.
- (٤١) الشيلخي (صباح إبراهيم): **"النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي"**، مقال في كتاب تجارة القوافل ودورها التجاري حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٩٨٤، ص ٣١، ٣٢. **سجلماصة**: يذكر البكري بأن سجلماصة بنيت سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م). كما يصفها بأنها مدينة سهلية وأرضها سبخة وحولها أرباض كثيرة (البكري: أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. بدون تاريخ، ص ١٤٨. وتقع سلجمانية جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، في مقطع جبل درن، في وسط الرمال، يمر بها نهر كبير. (ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص ١٢٤. وكسبت سجلماصة أهمية تجارية كممر تجاري للقوافل الصحراوية بفضل مجاورتها لبلاد السودان والصحراء معًا. (ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٦٧).

- (1) L.Golvin: le Magrib central a l' époque des Zirides. Arts et métiers graphiques.18 rue Segulier. Paris. STRABON, GEOGRAPHIE, P.83.
- (٢) جودت عبد الكريم يوسف: **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ١٩٣، ١٩٤.
- (٣) البكري (أبو عبيد الله): **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٧٤.
- (٤) مارسى (جورج): **بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمد عبد الصمد هيكيل، راجعه واستخلص نصوصه مصطفى أبو صيف أحمد، توزيع منشأة المعارف بالإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٩٧.
- (٥) زغلول (عبد الحميد): **تاريخ المغرب العربي الفاطميون وبنو زيري والصنهاجيون إلى قيام المرابطين**، ج ٣، مكتبة نشأة، المعارف الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٣٧٤.
- (٦) الحريري محمد عيسى: **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس**، دار القلم الكويت، الهيئة العامة مكتبة الإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٣٣٣.
- (٧) ابن الصغير: **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٦.
- (٨) زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٣١٠، ٣١١.
- (٩) رغم أن الأغلبية حرصوا على مقاطعة الرستميين تجاريًا وثقافيًا، إلا أن هناك علاقات تجارية كانت تتم بصورة غير رسمية، على المستوى الشعبي. (انظر: الحريري محمد عيسى: المرجع السابق، ص ٢٠٠).
- (١٠) المليي مبارك بن محمد: المليي (مبارك بن محمد): **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج ٢، تقديم وتصحيح محمد المليي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص ٧٥-٧٦.
- (١١) الحريري محمد عيسى: المرجع السابق، ص ٢٣٣.
- (١٢) جودت عبد الكريم: **التجارة الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ١٤٩.
- (١٣) المرجع نفسه: ص ١٥١.
- (١٤) حمدي (عبد المؤمن محمد حسنين): **ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ١.
- (١٥) جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص ١٦٧.
- (١٦) الحبيب الجناحي: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الإسلامي (ق ٤ - ٣ هـ / ٩ - ١٠)**، الدار التونسية للنشر، ص ١٣٤. تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٢ م.
- (١٧) مصطفى مسعد (سامية): **العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية**، ط ١، عين للبحوث والدراسات، الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٠، ص ١٤.
- (١٨) بحاز إبراهيم باكير: **الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، نشر جمعية التراث، الطبعة الأولى، القرارة، ١٩٨٥، ص ١٥٨.
- (١٩) عبد العزيز فيلالي: **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٠١.
- (٢٠) ابن الصغير: المصدر السابق، ص ٨٠.
- (٢١) المصدر نفسه: ص ٨١.

(74) F.ELIE DE LA PRIMAUDIE, commerce et navigation de l'Algerie. REVUE ALGERIENNE ET COLONIALE. JUIN 1860. P. 219.

(75) F Elie de la primaudaie. Op.cit. . P. 65 – 75.

(٧٦) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ٤٤٣.

(٧٧) حساني مختار: **موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية**، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٥ ج ٣، ص ٣١.

(78) F.ELIE: op.cit. P 65 – ٧٨.

(٧٩) حسن أحمد محمود: **قيام دولة المرابطين**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٦٦.

(٨٠) البكري: المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٨١) عن الغزوة الهلالية وأثارها السياسية والاقتصادية على المغرب، انظر: (ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، مج ٦، ص ٢٧ – ص ٤٨).

(٨٢) هربك وجان ديفيس: **المرابطون: تاريخ أفريقيا العام**، اليونيسكو، المجلد الثالث، بدون تاريخ، ص ٣٦٧.

(٨٣) طه جمال أحمد: مدينة فاس، ص ٢٠٤.

(٨٤) علام (عبد الله علي): **الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٥٧.

(٨٥) مبارك الميلي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٨٦) عز الدين موسى: المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(٨٧) المرجع نفسه: ص ٥٢.

(٨٨) المرجع نفسه: ص ٢٥٧.

(٨٩) حركات (إبراهيم): **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ٣٣٩.

(٩٠) البكري: المصدر السابق، ص ٨١ وما بعدها.

(٩١) أبو رميلة (هشام): **علاقات الموحدين بالمالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس**، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٨٤، ص ٣٧٦.

(٩٢) المرجع نفسه: ص ٣٨٤.

(٩٣) مؤلف مجهول: **الاستبصار في عجائب المصار**، نشر من طرف ألفرد ديكريمر، ط ١، المطبعة الأميرية، فيينا، ١٨٨٢م، ص ١٣٣، ١٣٤، ١٧١، ١٧٣.

(٩٤) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٩٥) الزهري: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر): **كتاب الجغرافية**، تحقيق حاج أحمد صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر بدون تاريخ، ص ١١٣.

(٩٦) حركات إبراهيم: المرجع السابق، ص ٣٣٩.

(٩٧) المرجع نفسه: ص ٣٩١، ٣٩٢.

(98) Mas laterie: Op.cit. , p ٨٧.

(٩٩) المنوني (محمد): **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٩، ص ١٣٢.

(١٠٠) المرجع نفسه: ص ٣٩٨.

(١٠١) أنشئ داخل مدينة عنابة فندق لإقامة تجار بيزا، وأيضاً كنيسة من أجل أداء صلواتهم، بالإضافة إلى فرن وحمام. وسمح لهم بالتعامل مع مَنْ يشاؤون، وبيع سلعهم بأية طريقة يرونها مناسبة حتى البيع بالمزاد. - المرجع نفسه، ص ٣٩٨.

(102) Mas latrerie: Op.cit. , p87.

(103) f.ellie: op.cit. , p. 64.

(١٠٤) المنوني (محمد): **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، ط ٢، ١٩٧٧، ص ٧٥.

(١٠٥) حساني مختار: **موسوعة المدن الجزائرية**، ج ٤، ص ٣٣٦.

(٤٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٩١.

(٤٣) حسن خضري أحمد: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤٤) لويس أرشيبالد: المرجع السابق، ص ٢٥٢.

(٤٥) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٤٦) لويس أرشيبالد: المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٤٧) عويس عبد الحليم: **دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، الطبعة الثانية، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٦٨.

(٤٨) المرجع نفسه: ص ٢١٩.

(٤٩) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٠.

(٥٠) الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت): **معجم البلدان**، دار صادر بيروت، ١٩٧٧، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٥١) الحميري (محمد بن عبد المنعم): **الروض المعطار في أخبار الأقطار، معجم جغرافي مع فهراس شاملة**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٥، ص ٨١.

(٥٢) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٥.

(٥٣) المصدر نفسه: ص ٨٢، ٨٣.

(٥٤) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٥٥) المصدر نفسه: ص ٧٦.

(٥٦) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٩٨.

(٥٧) بن قربة صالح وآخرون: **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، وزارة المجاهدين، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٣٠.

(٥٨) الحميري: المصدر السابق، ص ٤٧٠.

(٥٩) الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في العهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج ١، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٩٩٢، ص ٢٨٩.

(٦٠) بن قربة صالح وآخرون: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٦١) عويس عبد الحليم: المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٦٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٨.

(٦٣) حسن خضري أحمد: **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، ط ١، مكتبة مدبولي، مصر، بدون تاريخ، ص ٣٦.

(٦٤) بن قربة صالح وآخرون: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٦٥) عويس عبد الحليم: المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(66) Mas laterie (le compte): Relations et Commerce de l'Afrique septentrionale au maghreb avec les nations chrétiennes, ٩٠librairie6 de firmin –Didot, Paris, 1886

MAS LATRIE: Relation et Commerce, P. 180, P. 44.

(٦٧) عويس عبد الحليم: المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٦٨) المرجع نفسه: ص ١٨٦.

(٦٩) بن قربة صالح: المرجع السابق، ص ١٥١.

(٧٠) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٩.

(٧١) لقبال موسى: **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن (٥ الهجري / ١١ الميلادي)**، الشركة الوطنية، للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ص ١٣٩.

(٧٢) الحميري: المصدر السابق، ص ١١٥.

(٧٣) الحسن الوزان: **وصف إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص ٤٥٠.

- (١٠٦) المرجع نفسه: ج ٤، ص ٣٨٧.
- (١٠٧) بشاري (لطيفة): "مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني"، مجلة دراسات تراثية، علمية سنوية يصدرها، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط بمعهد الآثار، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٣.
- (١٠٨) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٠.
- (١٠٩) بشاري لطيفة: المرجع السابق، ص ٢٣.
- (١١٠) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٠.
- (١١١) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٣٢٥.
- (١١٢) بشاري لطيفة: المرجع السابق، ص ٢٦.
- (١١٣) الدراجي (بوزياني): نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ١٩٩٣، ص ٢١٣.
- (١١٤) شريط عبد الله، الميلبي محمد: الجزائر في مرآة التاريخ، ط ١، طبع ونشر مكتبة البعث، قسنطينة، الجزائر، ص ١٠٦، ١٩٦٦، ص ١٠٦.
- (١١٥) الزهري: المصدر السابق، ص ١١٧.
- (١١٦) حساني مختار: تاريخ الدولة الزيانية، الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، ج ٣، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، بئر توتة، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٧٦.
- (١١٧) نفس المرجع: ص ٧٧.
- (١١٨) نفس المرجع: ص ٧.
- (١١٩) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٩٠.
- (١٢٠) أرشقول: أرشقول؛ مدينة كبيرة قديمة، بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب، ما عدا الجنوب. وهي على بعد تقريبا أربعة عشر ميلا من تلمسان (حوالي ٢٢ كلم). كانت مدينة في غاية العمران والحضارة، لكن توالى عليها نواب الدهر وخرت عدة مرات إلى أن بعثه امن جديد الأندلسيون، وبها ميناء تجاري هام. انظر: حسن الوزان، المصدر السابق، ص ١٦.
- (١٢١) حساني مختار: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧.
- (١٢٢) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ٣٩٧.
- (١٢٣) المصدر نفس: ص ٤٠٣.
- (١٢٤) حساني مختار: المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٣٦.
- (١٢٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٣٧.
- (١٢٦) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٩٠.
- (١٢٧) حساني مختار: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦.
- (١٢٨) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٣٢٥.
- (١٢٩) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٣، ٨٤.
- (130) Dhina Attalah: le royaume abdelouadide a l' époque d' Abou Hammou Mossa premier et d'Abou tachfin premier . offices des publications universitaires, Alger, 1985, p.165.
- (١٣١) حساني مختار: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٩.
- (١٣٢) المرجع نفسه: ص ١٨٣.
- (١٣٣) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٣٣٠.
- (١٣٤) المرجع نفسه: ص ٣٢٧.
- (١٣٥) روجر إدريس الهادي: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في العهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج ١، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ١٩٩٢، ج ٢، ص ٢٨٢.
- (١٣٦) سالم عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الطبعة الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠١١، ص ٥٨٥.

جهود السلطة والصلحاء في مواجهة ظاهرة الفقر في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين (ق ١٣/١٤م)

بختة خليلي

باحثة دكتوراه تاريخ وسيط

جامعة معسكر

ولاية الشلف - الجمهورية الجزائرية



ملخص

على الرغم من التقدم الذي أحرزته بعض الدراسات حول التاريخ الاقتصادي للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، إلا أن الدراسات التي ألقت في مجال التاريخ الاجتماعي الوسيط ما تزال قليلة بل نادرة، ربما لصعوبة معالجة موضوعاتها عن غيرها لقلة المعلومات حول المجتمعات المغربية الوسيطة في المصادر المكتوبة وغياب الوثائق الأرشيفية من جهة، وسهولة تناول مجربات التاريخ السياسي وتوفير مادته من جهة أخرى، أغرى الكثير من المؤرخين على التركيز عليه. والمقال مجرد رؤية تاريخية ارتأينا من خلالها إبراز مسببات الفقر في المغرب الأوسط من حروب ومجاعات وأمراض وأوبئة وقسوة في جباية الضرائب، والتي كان لها الأثر المباشر في تفشي الفقر داخل المجتمع الزياني، كما سعينا إلى عرض الدور والجهد السلطوي تجاه الفئات الفقيرة والمحتاجة، وذلك بالنظر في أمورهم وانشغالهم والسعي لحلها والتخفيف منها كوقف أوقاف دائمة أو مؤقتة لهم، ثم دور الصلحاء والفقهاء ومحاولتهم لأجل الرفع من المستوى المعيشي لهذه الفئات الضعيفة، بالتقرب منهم وتوعيتهم ومشاركتهم مخنهم وأزماتهم واقتسام ما لديهم معهم، فكل من السلطة والعلماء والصلحاء شكلوا نسقا متكاملًا في السعي لمواجهة الفقر، وتحسين المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الزياني.

كلمات مفتاحية:

ظاهرة الفقر، الفقراء، السلاطين الزيانيين، العلماء والصلحاء، التاريخ الاجتماعي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٨ يناير ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بختة خليلي، "جهود السلطة والصلحاء في مواجهة ظاهرة الفقر في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين (ق ١٣/١٤م)". - دورية كان التاريخية. - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ١٢٢ - ١٢٨.

مقدمة

نسبيًا في أوقات الرخاء ويتدنى في فترات الأزمات^(١)، ولأجل ذلك أخذ تحسين المستوى المعيشي ومواجهة هذه الظاهرة بحظ وافر من اهتمام سلاطين وعلماء بني زيان، ونظرًا لكون المغرب الأوسط يزخر بإمكانيات جعلت منه إقليمًا فلاحيًا، انتهج سلاطين الدولة الزيانية سياسة اقتصادية برزت ملامحها باستقامة أحوال الناس خلال بعض الفترات، وهو الأمر الذي استقطب الفقراء والمحتاجين من داخل الدولة وخارجها باعتبار أن المدن الأكثر نشاطًا للتجارة والإنتاج أكثر جذبًا للفقراء والبؤساء، لكثرة الصدقات والهبات وخاصة في مناسبات الأعياد الدينية، وهنا يصدق قول الشاعر:

لا ريب أن الفقر من المعضلات المثيرة للكثير من الحروب والأزمات، وأنه الآفة الخطيرة التي ظلت تفتك بالحشود من البشر، وتهدد الإنسان وتنذر بشر أكيد، وما زال أمرها يتفاقم وأرقام ضحاياها ترتفع حتى لتشكّل الآن - بالنسبة للأمم والأقوام - القبلة الموقوتة التي لا تبقى ولا تذر، فالفقر هو ظاهرة أزلية تتصل خيوطه ببني آدم على تعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة، ومجتمع المغرب الأوسط^(٢) كغيره من المجتمعات عرف أزمات اقتصادية واجتماعية، انعكست على أفراد مجتمعه بتفشي الفقر وتدني المستوى المعيشي الذي كان يتحسن

يسقط الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْحَبُّ وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ^(٣)

على محك هذه الملاحظات والإشارات المهمة للموضوع، نسعى من خلال هذا البحث إلى طرح بعض التساؤلات: ما مفهوم الفقر؟ وكيف نفسر العوامل التي أدت إلى إقصاء شريحة الفقراء من دائرة اهتمام مؤرخي العصر الوسيط مقارنة بتوسيع كتاباتهم عن الطبقة الحاكمة؟ وما هي مسببات هذه الظاهرة؟ وما هي جهود ومساعي السلطة والعلماء الزيانيين لمواجهة تلك الظاهرة والحد منها؟ وما هي التدابير المنتهجة لتحسين المستوى المعيشي للفرد الزياني؟

أولاً: معنى الفقر لغة وشرعاً

الفقر لغة: هو الحاجة والعوز والفاقة والهم والحرص، يقال فلان محتاج أي قليل الزاد والمال والمتاع^(٤)، والفقر ضد الغنى مثل الضعف والضعف^(٥)، يقال فلان شكا إليه فقوره: حاجته، أخبره فقوره: أحواله^(٦)، الافتقار والنعت فقير: المحتاج^(٧)، يُقال فقر فلان فهو فقير والجمع فقراء^(٨)، والفقير عند العرب هو المحتاج لقوله تعالى "أَتَنْتُمُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ"^(٩) يُقال عال الرجل عياله إذا افتقر واخل وأعوز، وامر الرجل إذا ذهب ما في يديه نفق ماله^(١٠)، وقد ورد مصطلح الفقر في المعاجم اللغوية بعدة معاني منها: الفقر بمعنى انكسار الظهر حسب قول ابن الأعرابي "ورجل مفقر وفقير، مكسور الفقار"^(١١)، كما ورد بمعنى الضعف والهوان والذل حسب قول الأزهري "ومع ضنك العيش وجدبه تنكسر الظهر من شدة الذل والسؤال والهوان"^(١٢)، وتنوعت معانيه مثل الفقر بمعنى الموت والالتصاق بالتراب والسقوط والهاوية.

الفقر شرعاً: فقد ورد ما يدل عليه في القرآن الكريم في قوله تعالى "لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ"^(١٣) وكذا قوله تعالى لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ"^(١٤) وقوله تعالى "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ"^(١٥) وفي سورة فاطر قوله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"^(١٦) كما ورد عن النبي من أحاديث في شأن الفقر فعن أبي هريرة "رضي الله عنه" أن النبي (ﷺ) كان يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذَّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ"^(١٧)

ثانياً: الفقر والفقراء في كتابات مؤرخي المغرب الأوسط

على الرغم من أهمية الموضوع الذي يؤرخ لفترة هامة من التاريخ الاجتماعي للفئات المنسية والمهمشة في المغرب الأوسط، فإنه لم ينل حظه الكافي من البحث والاستقصاء في الدراسات التاريخية، باستثناء بعض الإشارات الخفيفة عنه أثناء الحديث عن تاريخ الدولة الزيانية بصفة عامة، كما أن المصادر

التاريخية أقصت هذا الموضوع من دائرة اهتماماتها، وإنصافاً للحقيقة والموضوعية إن بعض المؤرخين القدامى على الرغم من قتلهم تنبهوا إلى هذا العيب وحاولوا تجاوزه، فمنذ القرن (٨هـ / ١٤م)، تنبه ابن خلدون إلى ضرورة إحداث النقلة من تاريخ الفئة الحاكمة إلى تاريخ الشعوب، وانتقد بهذا الخصوص المؤرخين الذين أفاضوا في ذكر الأمير وصفاته فنعتهم بالتقليد والغفلة، على الرغم من أنه هو الآخر لم يستطيع أن يفك نفسه من أسر التاريخ النخبوي الذي سار على هديه معظم المؤرخين^(١٨) إلا أنه حاول رفقة مؤرخين آخرين كالمازوني والنشريسى الخروج عن دائرة الإقصاء حين أكدوا على معاناة هذه الفئات من جراء التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مقدمين لنا وصفاً لبعض العينات من المجتمع كقول المازوني "وأما باقي المال الذي بيده وليس بغير الحرام فالواجب أن يصرف جميعه إلى المساكين والفقراء، ويستحب أن يصرف في مساكين الجهة التي تعدوا فيها..."^(١٩)، وبالمثل تكاد الإشارات تخلو حول هذا الموضوع في كتب التراجم باستثناء ما ارتبط بسيرة وحياة بعض العلماء والصلحاء، في حين كتب التصوف استفردت بالحديث على هذه الظاهرة باعتبار أكثرية المتصوفة من الطبقة الفقيرة، ويمكن الاعتماد عليها من حيث التنظير للموضوع.

أما عن تفسير ظاهرة تهميش شريحة الفقراء في الكتابة التاريخية، فربما يعزى ذلك إلى عجز مؤرخي العصر الوسيط عن الرؤية الواقعية لمسار حركة التاريخ واعتباره مجرد تراكمات كمية للأحداث والأشخاص والأسر، وهذا ما يفسر إقصاء هذا القطاع الاجتماعي العريض الذي يشكله الفقراء وعامة الناس من الكتابة التاريخية باستثناء تلميحات وإشارات باهتة وردت على رؤوس أقلام مؤرخين^(٢٠)، كما يرجع تهميش هذه الشريحة في الكتابة التاريخية ربما أيضاً إلى كون المؤرخ الإسلامي في العصر الوسيط ظل أسير بلاط الدولة الرسمية التي تحتضنه، وبالتالي فإن كتاباته تعكس سياسة الحاكم وأي خروج عن ذلك يعتبر عصياناً يوجب خمدته. يضاف إلى هذه التفسيرات السابقة هيمنة فكرة البطل التاريخي على عقلية المؤرخ في العصر الوسيط، فقد تبنى المؤرخ التفسير الفردي لوقائع التاريخ اعتقاداً منه أن الفرد هو صانع التاريخ، لذلك ظلت كتاباته عبارة عن تمجيد ومدح للخلفاء والملوك متناسين الفئات الاجتماعية الفقيرة^(٢١)

ثالثاً: أسباب تفشي ظاهرة الفقر في المغرب الأوسط

إن الفقر وكأي ظاهرة تاريخية لا يمكن دراستها إلا بحصرها في مجال زمني محدد لكي يتسنى لنا تتبع حيثياته، فلا شك أن المغرب الأوسط عرف خلال الفترة الزيانية تغيرات وأحداث سياسية كان لها الأثر المباشر على بنية مجتمع المغرب الأوسط

قحط"^(٣١)، إذن فلطالما هدد معاش وكسب الإنسان من قبل هذه الجوائح وغيرها وبالتالي تهديد أمنه الغذائي.

كان الفقراء والمحتاجين هم الأكثر عرضة للأمراض والأوبئة بسبب مجاورتهم الجنائز وضيق المساكن، وانعدام الوعي الصحي وشروط النظافة وسوء التغذية ومن الأمراض التي انتشرت خلال هذه الفترة مرض الذبحة والسعال الديكي، الذي يسببه الجلوس على الأرض دون فراش في فصل الشتاء وكذلك أمراض البرد^(٣٢)، إضافة إلى مرض النسا والركب" بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل"^(٣٣). كما كان لعامل جباية الضرائب سبب آخر في إفقار الناس إذ يصف لنا الوزن حالة الفقر التي يعيشها سكان المسيلة بسبب إرهابهم بالضرائب فيقول: "والسكان كلهم صُناع أو فلاحون يرتدون لباسًا رديئًا لفقرهم، بسبب الأعراب الذين يسلبون مداخلهم، وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب، وقد اندهشت للفقر السائد بالمسيلة عند مروري بها"^(٣٤) فالوزان يعطينا صورة حية عن شدة الفقر لسكان المغرب الأوسط.

على العموم، كان المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الزياني يختلف من فئة إلى أخرى فهو يتماشى والطبقية في المجتمع، فالفئات الدنيا في المجتمع على الرغم من أنها أكثر إنتاجًا إلا أن مستواها المعيشي دومًا متقهقر، فغذاء سكان الأمصار الكبرى ليس كغذاء سكان القرى والبوادي، وغذاء الملوك والأغنياء ليس كغذاء بسطاء الناس، وهو الأمر الذي أقره ابن خلدون في قوله "إن أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار. فإن أهل الأمصار وإن كانوا أكثرين مثلهم من الأدم ومخصبين في العيش، إلا أن استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بمختلف المواد، في حين كان أهل البوادي قد ألفوا تناول الغداء على طبيعته"^(٣٥)، وكان بعض الفقراء في المغرب الأوسط يأكلون الطيور الميتة^(٣٦)، لشدة فقرهم وذلك في غير أوقات المجاعة.

إذن كل هذه المتغيرات كان لها الأثر البارز في الوقع السيء على المستوى المعيشي للسكان، وتفتيت عضد المجتمع الوسيط^(٣٧)، واستفحال الفقر داخل المجتمع الزياني بمختلف صورته، وآثاره الوخيمة، فما هي جهود وإسهامات السلطة والعلماء لمواجهتها؟

رابعًا: جهود السلاطين الزيانيين لمواجهة ظاهرة الفقر

أولى سلاطين بني زيان خلال القرنين الهجريين (٧-٨هـ) اهتمامًا ورعاية كبيرة لاقتصاد الدولة الزيانية، هادفين تحسين المستوى المعيشي وتحقيق الرخاء والأمن الغذائي لأفراد المجتمع الزياني. عرفت تلمسان في عهد السلطان يغمراسن رواجًا اقتصاديًا كبيرًا بسبب الأمن والاستقرار الذي ساد تلمسان

وأوضاعه، كالحروب والفتن بين الكيانات السياسية الثلاث، الزيانيين والخطر الحفصي من الشرق، الزيانيين والخطر المريني من الغرب، وكذا الفتن والثورات الداخلية من طرف القبائل المعارضة للسلطة^(٣٨) هي حروب تسببت في إلحاق الضرر بالكائنة والسكان في أي وقت ومكان، تميزت بخصائص كطول أمدها، وتعدد مناطق الصراع وأكثر من ذلك تشابهها مع الكوارث الطبيعية المنشأ من حيث الضرر والخراب الذي ينجر عنها، الفقر والمجاعات والأمراض والأوبئة، ناهيك عن القتل الذي يطال الناس^(٣٩) على حد تعبير ابن خلدون "وأبي حمو وأبي تاشفين من قبله قياسًا متورطًا في الغلط بعيدًا من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد من الضعف والزمالة وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم"^(٤٠)

لعل أهم الحروب التي كان لها الأثر العميق والتحول البارز، ما عرفتته الدولة الزيانية مع جارتها من بني مرين سنة (٦٨٨-٦٨٩هـ / ١٢٨٩-١٢٩٠م)، فقد تعرضت تلمسان إلى خراب المداشر والقرى إضافة إلى سبي النساء والحريم^(٤١)، ثم في سنة (٦٩٨هـ / ١٢٩٨م)، والتي شكلت أخطر الحملات وأشرسها على تلمسان، على حد قول ابن الأحمر "لأواصله عليهم حتى أقتلهم جوعًا"^(٤٢) فقد قامت الجموع المرينية بمحاصرة تلمسان لمدة أكثر من ثمان سنوات وأنجر عن هذا الحصار كثرة الموتان والجوع والفقر وغلاء الأسعار^(٤٣)

كانت الحروب والحصارات تؤدي إلى تراجع في النشاط الزراعي والرعي في البوادي، لأن الفلاحين مهددون بالجوع والإفلاس في أي لحظة يمر الجيش بها ويتلف محصولهم، عندئذ يصابون بالفقر ويجدون أنفسهم عاجزين عن دفع ما عليهم من كراء وضرائب، على حد قول ابن خلدون "قبض الناس أيديهم عن الفلاح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أوالفتن الواقعة بين انتقاص الرعايا... فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلى الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا"^(٤٤) كما لا ننسى أن الجيش كان يأخذ الجباية من السكان قسرًا مما يتسبب في إفقار الرعية واضعافهم، ذلك ما فعله السلطان الحفصي أبو زكريا عندما احتل تلمسان سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م)، فاستوفى من أهلها الجباية^(٤٥)

كان للعوامل الطبيعية دورًا كبيرًا في افتقار الناس إلى الضروريات من الحياة كالغذاء والماء أيام حدوث جوائح كالجفاف، والقحط والجراد وهذا ما يؤكد العبدري في قوله "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلد حلت به زمالة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثن، فلم تبقى به علالة ولا تبصر في أرجائه للظلمات بلالة"^(٤٦) وأكد ذلك أيضًا ابن خلدون في قوله "وكان أصاب الناس أعوام اثنين وتسعين وستمائة وما بعدها

وزاد اهتمامهم بالفقراء خاصة أيام المناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف، ويوم عاشوراء على حد قول ابن مرزوق "ومن صدقاته الجارية وحسناته المستمرة التي سنّها هو أن في كل عاشوراء من سائر بلاده يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان كل واحد ويكسوه قميصًا وإحرامًا ويعطي عشرة دراهم وما يكتفي به من اللحم، فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام من سائر البلاد ما لا يحصى وهو عمل مستمر".^(٤٧) كما أمر السلطان يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م)، ببناء مارستان مهمته التكفل بمداواة المعتمدين والمجانين والغرباء والمرضى والإنفاق عليهم، فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية "وهو الذي صنع المارستانت في بلاد المغرب للمرضى وللغرباء والمجانين، وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية، وما يشتهون من الفواكه والطرف، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم ومداواتهم، وما يصلح أحوالهم".^(٤٨)

كما أولى هو الآخر اهتمامًا ورعاية خاصة للأيتام والمحتاجين للملبس والطعام على ذكر ذلك في قول ابن مرزوق "وأمر بتطهير الأيتام وكسوتهم والإحسان إليهم بالدرهم والطعام في كل عاشوراء... وأوقف الأوقاف الكثيرة للإطعام عابري السبيل وذي الحاجات...".^(٤٩)

واعتبرت البيمارستانت الملاجئ الخيرية التي يأوي إليها الفقراء والمساكين، بعد أن تجمعهم الدولة هناك لكي يسهل عليها توزيع الصدقات عليهم والاهتمام بهم على أكمل وجه وفي ذلك يقول يحيى ابن خلدون "ثم اقتضى نظره الكريم إن ضمهم أجمعين ببيمارستانت يأتهم فيها رزقهم بكرة وعشياً شتاء السنة".^(٥٠) فالجدير بالذكر؛ أن الرعاية الاجتماعية بالفقراء والمساكين كانت من أولويات أهل وساسة المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة.

خامساً: مساعي العلماء والصلحاء الزيانيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر

برز دور الصلحاء بقوة في مجتمع المغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن الهجريين بتقديم خدمات جليلة لأفراد المجتمع الزياني، ومن الأدوار التي قاموا بها، تشجيع الأغنياء وحثهم على الصدقة للفقراء المحتاجين،^(٥١) كما كانوا بمثابة واسطة لدى الحكام لحل الكثير من مشاكل الرعية، ومثال ذلك أن الولي أبو العباس أحمد بن الحسن كان رحيماً بالناس ساعياً في مصالحهم على حد القول "ثم ينصرف بكلية لذي الحاجات فيصبرهم ويؤمنهم ويغيث ملهوفهم ويكتب ملك الوقت وأرباب الدولة فيقضي الله على يده كثيراً من رد الظلمات وفك العناء".^(٥٢) وكان يتحمل المشاق من أجل خدمة الرعية. كما ساهم العلماء بالتخفيف من المغارم أو إلغائها على بعض الفئات المتضررة

ونواحيها، بفضل محاربتهم لعناصر الفوضى والفساد^(٣٨)، وإرغام خصومهم من الأعراب المجاورة لهم على الطاعة والخضوع.

شهد النشاط الزراعي تنظيمًا محكمًا خلال هذه الفترة إذ طبع بمميزات منها: اعتماد هذا النشاط على نظام الشراكة القائمة بين الخماس ورب الأرض مما أعطى ذلك دفعًا قويًا لاستقطاب أعداد معتبرة من اليد العاملة المحتاجة والفقيرة،^(٣٩) وحرص يغمراسن على حسن مراعاة الزراع في الأراضي الواقعة تحت نفوذه،^(٤٠) كما تنبه يغمراسن إلى أهمية التجارة والتجار، فخفف الجبايات عليهم، كان قسط كبير منها على شكل غلات ومواد مختلفة تجمع تلك الغلات في مخازن الدولة لتمويل الجيش أو توزيعها على الأهالي أيام المجاعات.^(٤١)

طبق نظام الإقطاع (أي اقتطاع الأراضي) داخل تلمسان وخاصة مع القبائل العربية والتي حصلت على أقطاعات واسعة حول تلمسان أيام السلطان يغمراسن، وكان الغرض من ذلك هو السعي للحماية والمحافظة على أمن واستقرار تلمسان من هجمات المرينين والحفصيين.^(٤٢) كما حاول السلطان أبو حمو موسى الثاني القيام بدور مهم في تحسين أوضاع العامة من الناس المستضعفين والفقراء المحتاجين، لاسيما أيام حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة والأمراض، وهذا ما أورده يحيى ابن خلدون بقوله: "واشتملت هذه السنة (أي ٧٦٧هـ) أجمل الله ختمها على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا لريح ذات إعصار أهلك زرع صائفها وحيوانها، فافتقر الناس إلى ما عند الخليفة بنصف جباية حضرته الكريمة كل يوم على ضعافائها تجمع آلافه العديدة لأخر سبع ثم يحشرون...، وغيره من الرحاب الفسيحة، فيقسم ذلك حفظته عدلاً بينهم... ثم اقتضى نظره الكريم أن ضمنهم أجمعين بمارستانت يأتهم فيها رزقهم بكرة وعشياً...".^(٤٣)

فقد اعتبرت محاولة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني بمثابة الخطوة المهمة لإيواء والتكفل بالمحتاجين، ناهيك عن إخراج وفتح مخازن الزرع لبيعه بأقل ثمناً تيسيراً للمحتاجين المنهكين من جراء الغلاء الفاحش عقب حدوث المجاعات.^(٤٤) كما حرص على مد يد العون لهم، وتقديم الجرايات لهم في مختلف المناسبات والاستماع لانشغالاتهم مرة في كل أسبوع،^(٤٥) كما أوقف بعض السلاطين أوقافاً لصالح الفقراء والمساكين والمحتاجين بشكل دائم أو مؤقت، فقد ذكر ابن مرزوق بعض الأعمال الخيرية التي دأب عليها بعض السلاطين في المغرب الأوسط بصفة عامة، وهذا النص فيه ما يدل على ذلك "ومن سننه وهي أنه أجرى لسائر الأيتام من سائر القبائل ما يتمشى به أحوالهم، ويستغنون به عن التكفف والعاله... الحق بمن عاده، فلا يكاد يقع بصرك على يتيم في بلاد المغرب إلا وهو مكفول".^(٤٦)

وقف أوقاف لمساعدة المحتاجين الفقراء والمتضررين زمن المجاعات والأوبئة والأمراض.

خاتمة

من خلال ما سبق ذكره يمكن القول؛ أن هذه المقالة هي مجرد رؤية تاريخية، ارتأينا من خلالها إبراز مسببات الفقر من حروب ومجاعات وأمراض وأوبئة وقسوة في جباية الضرائب، والتي كان لها الأثر المباشر في تفشي الفقر داخل المجتمع الزياني، وبالتالي افتقار الفرد إلى أبسط ضروريات الحياة من مأكل ومشرب، كما سعيًا إلى عرض الدور والجهد السلطوي تجاه الفئات الفقيرة والمحتاجة، وذلك بالنظر في أمورهم وانشغالهم، والسعي لحلها، والتخفيف منها كوقف أوقاف دائمة أو مؤقتة لهم، ثم دور الصلحاء والفقهاء ومحاولتهم في الرفع من المستوى المعيشي لهذه الفئات الضعيفة، بالتقرب منهم وتوعيتهم، ومشاركتهم محنتهم وأزماتهم، واقتسام ما لديهم معهم، فكل من السلطة والعلماء والصلحاء شكلوا نسقًا متكاملًا في السعي لمواجهة الفقر، وتحسين المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الزياني، رغم الكثير من الاضطرابات السياسية والكوارث الطبيعية التي واجهتهم، وتبقى هذه المقالة مجرد محاولة أولى للنش عن واقع الفقر وأثره على الفئات المنسية في المغرب الأوسط، ونأمل أن تعقبها محاولات أخرى من طرف الباحثين حتى تكتمل جوانب الموضوع.

منها، ساعين إلى وضع حد لبعض تجاوزات السلاطين كفضر مقادير معينة من المال على أعيان البلد حتى يتجاوز هذا الأخير ضائقته، وما يؤكد مكانة العلماء لدى السلاطين أنه قلما كانوا يرفضون مساعيهم، مما يوحى بمنزلتهم الرفيعة والأخذ بأرائهم في تحسين ظروف وخدمة الرعية.^(٥٧)

كان العلماء والصلحاء يقتسمون ما يملكونه من مال وطعام مع المحتاجين الفقراء، ومثال ذلك أبو عبد الله بن أبي بكر مرزوق كان يهب المال لمن أراد التجارة، وكان يكتال من زرعه للضعفاء طوال السنة، ويمنحهم مقدار من المال، على حد قول ابن مرزوق "أن جده كان يكتال بين يديه للضعفاء والمحتاجين"،^(٥٨) وهو مثال آخر يبين لنا مدى حضور العلماء إلى جانب هذه الفئة المهمشة في المجتمع. واتخذ الصلحاء من الزاوية ملجأ للفقراء والمحتاجين كتزويدهم ببعض الأطعمة، والألبسة، والصدقات التي تصل إليهم فعظم دورها اقتصاديًا واجتماعيًا من خلال عمليات التضامن والتكفل بالمحتاجين والمساكين،^(٥٩) فقد ذكر لنا الوزان أن أحد الأولياء الصالحين القاطن في إقليم البطحاء قد اشتهر بالغبى وكانت تصله الصدقات من كل البلدان فيجمع سنويًا مبلغًا من المال، فيطعم به الفقراء والمساكين فقد جاء في مساق حديثه عن هذا الأمر "واخذ يتقاطر عليه جمهور غفير من الناس، فيطعمهم جميعًا"،^(٦٠) ولا سبيل للإنكار أن بعض الفئات الميسورة الحال في المغرب الأوسط ساهمت في الحد من الفقر وتقديم خدمات جليلة لهذه الفئة الضعيفة، فقد امدتنا كتب النوازل ببعض صور التكافل الاجتماعي "فقد أشار الونشريسي في أحد النوازل أن رجل أوصى لصبية يتيمة بأن يدفع لها بعد وفاته ربع حانوته، وينفق عليها إلى أن تتزوج".^(٦١)

كما كان لهم دور أيضًا في التوعية بخطبهم ومواعظهم المؤثرة في المساجد، كحثهم على الصبر أيام المجاعات التي اجتاحت تلمسان،^(٦٢) وأمدنا المازوني بصور حول الرعاية الاجتماعية التي كانت تقدم للفقراء والمساكين واليتامى في تلمسان، حيث أورد في أحد المسائل "هل يرخص لمن وجبت عليه الزكاة قبل يوم عاشوراء في تأخير إخراجها إليه إذا كان موسمًا للمساكين يبرزون فيه ويلحون في الطلب ولا يعذرون من لا يعطيهم فيه قياسًا على لزوم تأخير الزكاة عن حلول حولها"،^(٦٣) فأجاز الفقيه المازوني ذلك، وكان الاحتفال بيوم عاشوراء خاص بالفقراء وجعلوا في هذا اليوم نصيب لهم بتقديم الزكاة إليهم، وأشار أيضًا المازوني في نازلة أخرى بقوله "بأن فقير سافر لأجل الحاجة التي لحقته وعليه دين كثير ولم يخلف لزوجه شيئًا، ولا يعرف أحد هل هو حي أو ميت فلحق الزوجة من ذلك ضررًا كثيرًا، هل يعطى لها زكاة أم لا، فأجاب بجواز إعطائها إذا كانت على الحالة المذكورة"،^(٦٤) وهو تيسير من الفقيه بجواز إعطائها الزكاة لشدة فقرها. وسعى بعض العلماء إلى

الهوامش:

- (٢٥) ابن أبي زر الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، ط٢، الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٩٩، ص٣٧٩، ابن خلدون، **العبر**، ج٧، ص١٩٤.
- (٢٦) ابن الأحمر، **تاريخ الدولة الزيانية**، تحقيق ابن هاني سلامة، ط١، بور سعيد، ٢٠٠٢، ص٦٩.
- (٢٧) يحيى ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج٢، ص٢١٠.
- (٢٨) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢، ص٢٨٨.
- (٢٩) الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، ط٢، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٩٦، ص٢٩.
- (٣٠) العبدري، **الرحلة المغربية**، تحقيق أحمد بن جدوا، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية، دت، ص٩.
- (٣١) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، ص٤٥٤.
- (٣٢) سمية مزدور، **المرجع السابق**، ص١٤٣.
- (٣٣) الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣، ج١، ص٨٣.
- (٣٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٩٧.
- (٣٥) سمية مزدور، **المرجع السابق**، ص٦٦، نقلًا عن: ابن الصباغ، **أزهار البستان**، صور رقم (٢٦) ب.
- (٣٦) الوزان، ج٢، ص٥٢.
- (٣٧) المازوني، **المصدر السابق**، ج١، ص٣٤١.
- (٣٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٩٢.
- (٣٩) عبد الحميد حاجيات، **أبوحموموسي الزباني حياته وأثاره**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ص٩٤.
- (٤٠) المازوني، **المصدر السابق**، ج٤، ص٧.
- (٤١) ابن الأحمر، **المرجع السابق**، ص٣٨.
- (٤٢) رشيد بورويبة وآخرون، **المرجع السابق**، ص٤٨٧.
- (٤٣) ابن خلدون يحيى، **بغية الرواد**، ج٢، ص٥٧٦.
- (٤٤) عابد بن تومي، **الكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة في المغرب الأوسط وأثرها في المجتمع ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (القرن ١٣/١٥م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط غير منشورة، معسكر، ٢٠١٠، ص١٤٣.
- (٤٥) عبد العزيز فيلاي، **تلمسان في العهد الزياني**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠٠٠، ج١، ص٢٢٦.
- (٤٦) يذكر أن أبا الحسن المريني وزع على فقراء تلمسان اثني عشر ألف دينار، واثني عشر ألف كساء، ومن الطعام مطامير لاتعد ولا تحصى فضلاً عن مكافأته للأعيان والصلحاء، يُنظر، ابن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠، ص٤٢، ١٩٢.
- (٤٧) **المرجع نفسه**، ص٤٢.
- (٤٨) ابن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في الدولة المرينية**، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٢٠، ص٩١.
- (٤٩) **المرجع نفسه**، ص٩١.
- (٥٠) يحيى ابن خلدون، **بغية الرواد**، ج٢، ص٥٧٦.

- (١) **المغرب الأوسط**: سمي بذلك لأنه يتوسط المغربين الأقصى والأدنى، حده من وادي مجمع وهوفي نصف الطريق بين مدينة مليانة وتلمسان بلاد تازا من بلاد المغرب في الطول، وفي العرض من البحر الذي على ساحل البلاد إلى مدينة تنزل، وهوفي الأغلب ديار زناتة، وقاعدته تلمسان، مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ص١٢٧، ١٣٥.
- (٢) إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣ ص ٢١٠.
- (٣) لسان الدين ابن الخطيب، **معيّار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تح. محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٥٨.
- (٤) عبد السلام الخرشبي، **فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة**، دكتوراه في القرآن والحديث، دار المؤيد، ط٢، ٢٠٠٢، ص١٩.
- (٥) ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد ٠٩، دار صادر بيروت، دط، ص٢٠.
- (٦) صالح العلي صالح وأمينة الشيخ سليمان الأحمد، **المعجم الصافي في اللغة العربية**، د. ط، الرياض، ١٤٠١هـ، ص٥٠٠.
- (٧) عبد السلام الخرشبي، **المرجع السابق**، ص١٩.
- (٨) أبو الحسن علي بن اسماعيل المرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق عبد الحميد هندواي، ج٦، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، ٢٠٠٠، ص٣٧٨.
- (٩) **سورة فاطر**، الآية (١٥).
- (١٠) عبد السلام الخرشبي، **المرجع السابق**، ص١٩.
- (١١) أبو الحسن علي بن اسماعيل المرسي، **المرجع السابق**، ص٣٧٩.
- (١٢) عبد السلام الخرشبي، **المرجع السابق**، ص٢٠.
- (١٣) **سورة البقرة**، الآية (٢٧٣).
- (١٤) **سورة الحشر**، الآية (٠٨).
- (١٥) **سورة التوبة**، الآية (٦٠).
- (١٦) **سورة فاطر**، الآية (١٦).
- (١٧) أخرجه أبو داود في سننه، **كتاب الصلاة**، باب الاستعاذه، ج٢، ص٩٢.
- (١٨) إبراهيم القادري بوتشيش، **النوازل الفقهية كتب المناقب والعقود العدلية مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغرب الإسلامي (١٣/١٥هـ)**، مجلة التاريخ العربي، العدد (٢٢)، ص٠٢.
- (١٩) المازوني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق مختار حساني، دار الكتب العلمية، القبة، ج٤، ص٩٥.
- (٢٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **النوازل الفقهية والعقود العدلية**، ص٠٣.
- (٢١) نفسه، ص٠٣.
- (٢٢) سمية مزدور، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسنطينة ٢٠٠٩، ص٩٤.
- (٢٣) حسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، الدار البيضاء، منشورات الزمن، ٢٠٠٢، مطبعة النجاح الجديدة، ص٨٨.
- (٢٤) عبد الرحمن ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ج٦، ص٥٦٩.

- (٥١) الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١، ص ١٦١.
- (٥٢) عبيد بوداود، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين (٩٧٧هـ) / (١٣٠١م)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٣، ص ٢٥٢.
- (٥٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٢.
- (٥٤) ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزهاوي، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٦٠.
- (٥٥) المرجع نفسه، ص ١٦٢.
- (٥٦) الوزان، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩.
- (٥٧) الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف الإسلامية، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ج ١، ص ٢٩٤.
- (٥٨) المازوني، ج ١، ص ٣٣٧.
- (٥٩) عبيد بوداود، المرجع السابق، ص ٢٥٦.
- (٦٠) المازوني، ج ١، ص ٣٤١.

دور الأوقاف في النهضة العلمية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (٦٣٣ - ٩٦٢هـ / ١٢٣٥ - ١٥٥٥م)

زينب رزيوي

أستاذة تاريخ المغرب الإسلامي

جامعة مولاي الطاهر - سعيدة

الجمهورية الجزائرية

ملخص

يعتبر الوقف وليد الحضارة الإسلامية، وأطيب مكاسبها ومفاخرها، لذا عني به الفقهاء فوضعوا له أحكام تتلاءم مع خصوصياته، وتنسجم مع أبعاده القيمة، فهو يُعدّ نظامًا خيريًا بامتياز يقدم عينًا أو نقدًا وفق شروط وأحكام يضعها الواقف الذي يرجو منه سبل الخير وأقدسها وطرق البر وانفعها والتي مست جميع مناحي الحياة على مختلف العصور، إذ شكل في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٥-١٥٥٥م) دورًا بالغ الأهمية خاصة في مجال التعليم فكان أرقى أوجه صرف المنفعة الوقفية، بفضل تم إنشاء العديد من الهياكل الثقافية والتعليمية من مساجد وكتاتيب ومدارس وزوايا ومكتبات... شارك فيها مختلف الفئات الاجتماعية من حكام ومحكومين، كما بعث في هذه الهياكل روح الحياة من خلال تزويدها بمختلف المعدات والوسائل من كتب وحصير وافر وشه وزيت للإضاءة...، موجهة لطلبة العلم وعابري السبيل من حجاج ومسافرين...، مع التكفل بهم من مأكل وملبس وإيواء، بالإضافة إلى دفع رواتب الموظفين من معلمين ومؤذنين وعمال...، فعملت هذه المؤسسات بفضلها على توفير الجو المناسب للعلم والتعلم فكان سببا في نجاح الحركة الثقافية والتعليمية ازدهارًا كبيرًا من خلال ما أفرزته هذه المؤسسات من عباقرة العلماء والفقهاء والأدباء... حفظ لنا التاريخ أسماءهم ومصنفاتهم، كما كان سببًا في ازدهار وتنوع العلوم والمعارف وارتقائها، فهو بكل بساطة صانع الحضارة والمساهم في تحقيق نهضتها العلمية بالمغرب الأوسط خلال هذه الفترة، والتخلي عنه يؤدي إلى الذبول والانحطاط والتقهقر الفكري والركود العلمي، لذا يمكن اعتباره مؤسسة التمويل الثقافي بامتياز.

كلمات مفتاحية:

الوقف الإسلامي، المغرب الأوسط، المؤسسات التعليمية، العهد الزياني

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٤ مارس ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

زينب رزيوي، "دور الأوقاف في النهضة العلمية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (٦٣٣ - ٩٦٢هـ / ١٢٣٥ - ١٥٥٥م)"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ١٢٩ - ١٣٦.

مقدمة

وأهميتها؟ وما هو الدور الذي لعبته في النهوض بالازدهار العلمي والتقدم المعرفي بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذه البحث الموجز.

أولاً: مفهوم الوقف وخصائصه

١/١- الوقف لغة:

الوقف مصدر للفعل الثلاثي وقَّفَ بمعنى الحَبَسَ^(١) والمنع، يقال: وقف الشيء وأحبسه وسبَّله، ويقال: وقفت الدابة وقفًا أي حبستها في سبيل الله تعالى.. والوقف والتحبيس والتسبيح

لقد اهتم علماء المسلمين بالأوقاف (الأحباس) منذ القدم، فقاموا بتحديد معناه لغة وشرعًا، وأبرزوا أدلة مشروعيتها ووضعوا القواعد والأصول المؤسسة له، واهتموا به وشجعوا على القيام به لما له من فوائد جمة في مختلف المجالات خاصة الثقافية منها، حيث يعد بؤرة النهضة العلمية والفكرية وركن أساسي في إرساء دعائم الثقافة ودفع عجلة الحركة العلمية، فما المقصود بالأوقاف؟ وما هي مشروعيتها وأركانها وشروطها

معنى واحد^(٢) يعني: المنع، أي «إمساك عن الاستهلاك، أو البيع أو سائر التصرفات، وهو أيضاً إمساك المنافع والفوائد ومنعها عن كل أحد أو عرض غير ما أمسكت أو وقفت عليه»^(٣).

٢/١- الوقف شرعاً:

لقد اختلف الفقهاء في بيان معناه شرعاً، حيث عرفوه بتعاريف مختلفة تبعاً لاختلاف مذاهبهم^(٤) ولعل أقربها إلى الشمول هو تعريف الحنابلة إذ عرفوه على أنه «هو تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة» اقتباساً من قول المصطفى عليه السلام «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»^(٥)، فالصدقة الجارية هي الوقف الذي حبس أصله وسبّل منفعته حيث «لا يُباع ولا يوهب ولا يورث»^(٦).

٣/١- مشروعية الوقف:

لقد شرع الله الوقف وجعله من الأمور المستحبة باعتباره من أعظم الأعمال التي يتقرب بها العبد إليه، وطريق من طرق إدرار الخير، وجاءت مشروعيته من نصوص عامة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»^(٧)، وأخرى مفصلة من السنة كقول المصطفى عليه السلام: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ أَشْيَاءَ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٨)، بالإضافة إلى أقوال وأفعال سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين^(٩).

٤/١- أركانه وشروطه وأصنافه:

تتألف العملية الوقفية من أربعة أركان تكمن في: الواقف وهو الشخص الذي يقوم بالوقف حيث يشترط فيه: العقل والبلوغ والرشد والاختيار والحرية... والموقوف: وهو الشيء الذي يقفه الواقف من عقارات وأشجار وكتب ومال... للموقوف عليه وهم: المستفيدون من ذلك، ويكون شخصاً واحداً أو مجموعة أو مؤسسة دينية أو تعليمية، ولا تتم العملية إلا بوجود صيغة الوقف وهي اللفظ الدال على إرادة الوقف كأن يقول: وقفت وحبست، وهي عبارات صريحة دالة على ذلك أو مجازية كأن يقول جعلت أرضي للفقراء صدقة موقوفة^(١٠). إن الوقف يقوم على مبدأ شرعي، وعلى صيغة قضائية ملزمة، ويتولّى ذلك القاضي بحضور الواقف والشهود، فيتم تحديد قيمة الوقف وتعيين أغراضه، وكيفية الاستفادة منه وانتقاله، وعوامل نموه وتخصيص المشرفين عليه وشروطه، مع الحرص على تسجيل تاريخ الوقف وتوقيع الحاضرين والقاضي، وتسمى بالوثيقة الشرعية التي يستند عليها، ويلتزم باحترامها الواقف وأهله والمستفيدون منه وحتى السلطة^(١١).

وقد خصص صاحب كتاب: الإيساعف في أحكام الأوقاف فصلاً يحدد فيه ما يجوز وقفه وما لا يجوز وعموماً تتمثل هذه الأوقاف عادة في: الدكاكين، والبيوت، والحمامات، والطواحن، والأفران، وأشجار الزيتون والنخيل، والأراضي الزراعية والأموال

والحيوانات...^(١٢)، وهي ما كان معمولاً به في جميع العالم الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة خلال فترة البحث. أما بالرجوع إلى مصدر هذه الأوقاف وأصنافها، فقد ساهم فيها الحكام والسلاطين على شكل أوقاف رسمية، كانت حكرًا بالدرجة الأولى على المدارس والمساجد الكبرى، أما النوع الثاني فقد ساهم فيه الأفراد بتحبيس جزء من أملاكهم أو في شكل إحسانات يقدمونها خدمة لبعض القطاعات الدينية أو التعليمية^(١٣).

ثانياً: مؤسسة الأوقاف في المغرب الأوسط

١/٢- الغرض والأهمية:

إن البعد الأصلي الذي انبنى عليه الوقف هو التقرب إلى الله وابتغاء مرضاته، عن طريق أعمال خيرية متنوعة كتوفير الرعاية الاجتماعية للفقراء واليتامى والمرضى وأبناء السبيل، ومساعدتهم والتخفيف من معاناتهم^(١٤)، دون إغفال دوره في الجانب الثقافي، فقد شكل على مدار التاريخ الإسلامي العريق أهم مؤسسة كان لها الدور الرائد والفعل والمتميز في إرساء دعائم الحركة العلمية والثقافية والمعرفية في أنحاء العالم الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، حيث أسهم إسهاماً واضحاً في العناية والتعزيز المعرفي والازدهار العلمي للمؤسسات العلمية: كالمساجد والمدارس والمكتبات والزوايا... حيث رعت الأموال الوقفية عملية التعليم^(١٥)، فمُنحت الأجور للقيمين على المؤسسات كالمؤذن والإمام والبواب والتأطّر^(١٦)،... بالإضافة إلى العلماء والطلبة لأن اشتغالهم بالعلم يقطع عنهم الكسب فيغلب فيهم الفقر^(١٧).

فشكل بذلك مصدر العيش للزوايا ومصدر الحياة والنمو للمساجد والمدارس والكتاتيب... فاعتبر الحاضن الأكبر والمورد الرئيسي لأغلب الانجازات العلمية والحضارية، كما يعد المسؤول عن استمرارية حركيتها من عدمه، فانتعشت بعض المؤسسات بسبب ضخامة أوقافها كما هو الحال لمركب أبي مدين بالعبّاد^(١٨)، في حين عانت أخرى نتيجة ضالة دخلها أو إهمال الوكلاء لها فتسيبت أوقافها^(١٩)، كما حدث للمدرسة التاشفينية^(٢٠) التي سادها الانحطاط العلمي بسبب اندثار أوقافها أيام ضعف الدولة الزيانية^(٢١). وبالتالي فالوقف ضروري في حياة المؤسسات الثقافية، وهي تختلف باختلاف هذه المؤسسات، وتكثر أو تقل تبعاً لأهميتها، وتتأكد أهمية الوقف من خلال قول حسن الوزان: «لم يبق اليوم سوى دخل بسيط مكن من الاحتفاظ بالأساتذة الذين يتقاضى بعضهم مائتي مثقال وبعضهم مئة وبعضهم أقل من ذلك، ولعلّ هذا أحد الأسباب التي أدت إلى انخفاض القيمة الفكرية ليس في فاس وحدها بل في جميع مدن إفريقية»^(٢٢).

نصت عليه وثيقة التحبّيس^(٣٣). أما مسجد أبي مدين بالعبّاد^(٣٤) والمنجز معه مدرسة وزاوية ضمن مركب أنشأه السلطان المريني أبو الحسن سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، فقد خصه بأوقاف كثيرة ومتنوعة^(٣٥)، عززها السلطان الزياني الثّابتي (ت. ٩٠٩هـ/١٥٠٣م) سنة ٩٠٤هـ بأوقاف أخرى^(٣٦)، صرفت لخدمة وإصلاح المركب، ودفع أجور القيمين عليه، بالإضافة إلى الطلبة ومتطلباتهم...^(٣٧)، وعلى العموم كانت ضخمة لمكانة الوليّ الصّالح أبي مدين شعيب (ت. ٥٩٤هـ)^(٣٨) في نفوس السلاطين وعامة النّاس^(٣٩).

أما مسجد مستغانم الذي بناه السلطان أبي الحسن المريني سنة (٧٤٢هـ/١٣٤٢م) فقد وجدت به لوحة تحبسية مثبتة على أحد جدرانه تبرز أهم موقوفاته من حانوتين وجزار من الرّيت للإضاءة، يستفيد منها الإمام وقرّة الحزب والمؤدّنين، ويتولى صرفها القاضي والإمام الخطيب^(٤٠). وكذلك مسجد سيدي الحلوي^(٤١) استفاد هو الآخر من جملة من الأوقاف على شكل دكاكين حبسها عليه منشؤه السلطان المريني أبو عنان سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، ليتسنى له القيام بمهمّته والتّكفل بجميع متطلّباته^(٤٢)، أما السلطان الحفصي أبا يحيى بن أبي زكريّا فقد اهتم بالجامعيين الأعظمين بقسنطينة، وحبس عليهما أراضي ودكاكين وحقّامات^(٤٣).

٢/٢ - أوقاف المدارس:

لقد حظيت المدارس هي الأخرى بحظّ وافر من أوقاف السلاطين وأفراد الرّعيّة المياسير إعلاء منهم لشأن العلم، فعلى سبيل المثال لا الحصر المدرسة اليعقوبية^(٤٤)، التي أقامها أبو حمّو موسى الثّاني، ذكرها صاحب زهر البستان حيث قال عنها: «أوقف لها الكثير من الأوقاف، وأجرى للطلبة فيها المرتب على أصناف»^(٤٥)، كما ذكرها صاحب كتاب نظم الدر «فلما كملت المدرسة...احتفل بها وأكثر عليها الأوقاف، ورّتب فيها الجرايات وقدم للتّدرّيس بها الشريف أبا عبد الله المذكور، وحضر مجلس إقرائه جالسًا على الحصر تواضعًا للعلم وإكرامًا له، فلما انقضى المجلس أشهد بتلك الأوقاف وكسا طلبتها كلّهم وأطعم النّاس»^(٤٦)، حيث كانت كبيرة جدًّا ومتنوعة منها ما هو داخل تلمسان كالحوانيت وكوشة وطاحونة، وفرن وفندق وحقّام، وبعضها خارج المدينة وشمل أراضي زراعية وأشجار الرّيتون ومعصرة ورحاها، حسب ما أشارت إليه وثيقة التّحبّيس التي كتبت سنة (٧٦٥هـ/١٣٦١م)، التي حددت أيضًا فئة وقيمة المستفيدين منها، وهم المعلّمين والإمام والمؤدّن والطلبة^(٤٧)، الذين كانوا أوفر حظًا وهذا لعدة اعتبارات، أولها المعاملة الحسنة لمدرّسهم أبو عبد الله الشّريف، حيث كانوا أعزّ النّاس في أيّامه وأكثرهم عددا وأوسعهم رزقًا وانتفاعًا^(٤٨)، ومن جهة أخرى دور السلطان أبو حمّو موسى وعنايته بالعلم والعلماء والذي أنفق عليهم الأموال والجرايات وأمدهم بالعطايا، حتى انه تعفّف من

ولتفادي ذلك والنهوض بقطاع الأوقاف أعاد العديد من الفقهاء والعلماء النّظر في وضعيتها باعتبارها مؤسسة التمويل الثقافي، والتي ضاعت بسبب الإهمال نتيجة عدم مراعاة الالتزام بالأحكام الشرعية كالمحاسبة، فقد حرصوا على أن تطبق وتحدّد كلّ شروطها^(٤٩). وهذا إن دل على شيء دل على أهمية الأوقاف ودورها الريادي في النهوض بالازدهار العلمي والتّقدم المعرفي، لذلك يمكن أن نعتبرها أسمى الأنظمة الاقتصادية التي ساهمت في بناء المجتمع، ولبنة أساسية في بناء الحضارة الإسلامية، ومن أهم وسائل التّقدم العلمي والفكري والمعرفي والثّقافي، وأنجح وسيلة لاستمرار المؤسسات العلمية والثّقافية في أداء وظيفتها ورسالتها، والسبب الرئيسي لأغلب الانجازات العلمية والحضارية المختلفة^(٥٠).

٢/٢ - نماذج من أوقاف المغرب الأوسط وأدوارها في خدمة التعليم:

لا شك أن حكام المغرب الأوسط قد أعطوا مثالًا واضحًا عن العناية الفائقة لهذا القطاع وتمويله، فما مؤسسة دينية وثقافية وتعليمية أنشأت، إلا وحبست عليها الأوقاف، وحدّدت لها مداخيل الصّرف ودوّنت شروط صرفها والمبالغ المحدّدة لها، في لوحات حبسية معلقة لا يزال البعض منها موجودا حتى اليوم يشهد على ذلك^(٥١).

٢/٢ - ١ - أوقاف المساجد:

كان الوقف وما يزال المصدر الأول والرّئيسي في بناء المساجد التي تعتبر في حد ذاتها وقفًا، لأنها بيوت الله وليست ملكًا لأحد، لذا حظيت بعناية الواقفين عليها، الذين سعوا إلى تعميرها وتشبيدها وتزويدها باحتياجاتها من الفرش والبسط والصّرف على العاملين فيها للقيام بوظائفها الدينية^(٥٢)، وكذلك تهئية الظروف للقيام بوظائفها التعليمية بتوفير متطلّبات الطلبة من أساتذة وخزائن كتب، فأعانت تلك الأوقاف في أن تحفظ للمساجد شهرتها العلمية واستمرارها كمراكز ومنازل علم وتعلم رغم ظهور المدارس^(٥٣). وتقريبًا كل مساجد المغرب الأوسط ساهم في بنائها سواء الحكام أو المحكومين، وكان الإقبال على بنائها كبيرًا جدًّا وأغلب هذه المساجد استأثرت بأغلب الموقوفات^(٥٤)، لأنها لم تكن دور عبادة فحسب بل كانت منارات علم وتعلم مشاعل نور وهداية ومراكز فقه وتفقيه، ودار فتوى وقضاء ودورًا للتّربية ومدرسة العلم وتحفيظ القرآن الكريم^(٥٥).

ويعتبر يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية أول من دشّن عملية الوقف في بلاد المغرب الأوسط من خلال ببنائه صومعتي الجامعيين الأعظمين في تاجرارت وأغادير والذي رفض أن يكتب اسمه عليهما^(٥٦)، فهذا الرّفص دليل على تقواه وورعه^(٥٧)، أمّا خليفته ابنه أبي سعيد فقد بنى مسجد سيدي أبي الحسن^(٥٨)، وجعله يستفيد من مداخيل عشرين دكان موقف عليه حسب ما

والنفس الأمارة" في التصوف، اعتبرت «من مآثره الشريفة المخلدة من ذكره الجميل ما سرت به الركبان، لما أوقف عليها من الأوقاف الموجبة للوصف بجميل الأوصاف»^(٥٧)، وقد مدحه الشاعر محمد بن يوسف الثغري في قوله:

لَه بَكْتَابِ اللَّهِ أَعْنِي عَنَايَةً وبالسنة الغرا هو المغرم المغري
فَمَا هَمَّهُ إِلَّا كِتَابُ وَسْنَةٍ بنسخها قد أحرز الفخر والأجرا
فَنَسَخَ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ونسخ البخاري صامنان له النصرا
وَمَنْ كَانَ يَعْتَدُ الشِّقَاءَ شِقَاءَهُ فَمِنْ عِلَلِ الْأَوْرَارِ فِي نَسْخِهِ بَيَّرَا
تَصَوَّعَ طَبِّبَا حَبْرَهُ وَكِتَابَهُ فَزَادَ الْبُخَارِي مِنْ مَبَاخِرِهِ عَطْرَا
فَلَمْ أَدِرِ وَالْأَوْرَاقُ رَاقَتْ يَحْطَهُ أَمْسَكَ عَلَى الْكَافُورِ يَنْتُرُ أَمْ حَبْرَا^(٥٨)

وكذلك السلطان المريني أبو الحسن الذي حبس على مركب أبي مدين بالعباد الكتب النفيسة والمصنّفات المفيدة من أجل أن ترتقي حركته العلمية، فكان سببا في تكاثر الطلبة الوافدين على المركب^(٥٩)، ولم تقتصر هذه المبادرة الهامة على السلاطين فحسب، بل شارك فيها الأفراد وحسبوا مكتباتهم، أو الكتب التي كانوا يملكونها خدمة للعلم وأهله، فشكلت هذه المكتبات الوقفية منها صافيا لطلاب العلم، حيث أُنشئت الاستعارة للجميع للاطلاع على الكتب والعلوم الجديدة التي لم تكن متاحة لنفر كثير منهم، بسبب ندرتها أو غلاء أثمانها أو المفقودة منها في زمن لم يكن هيبًا فيه الحصول عليها، فكانت سببًا في نشر العلم وازدهار التأليف والنسخ^(٦٠).

٢/٢- ٤- أوقاف الزوايا:

إنّ الزوايا هي الأخرى شملها نظام الأوقاف، واستفادت منه في إنشائها وتعميرها والتّظر في مصالحها لتسييرها والقيام بمختلف مهامها، لدورها الهام في الحياة الاجتماعية وخاصة العلمية^(٦١)، فقد كانت تتكفل وتؤوي الفقراء والغرباء والطلاب، ولا يستبعد أنها كانت مسرحًا لنشاط علمي مكثف، فقد استغل بعضها في التعليم وإقامة حلقات الدرس نظرًا لمجاورة عدد كبير منها لمجموعة من المساجد والمدارس إضافة احتوائها على خزائن الكتب، ولتحقيق ذلك اعتمدت اعتمادًا كليًا على الوقف^(٦٢) الذي خصها بها السلاطين والعلماء والأفراد وأحاطوها بإيراداتهم وإحساناتهم، وعلى الرغم من اختلاف الزوايا إلا أنها تشابهت وظائفها سواء زوايا الريف التي حظيت بعناية سكانها الذين أوقفوا الذين فضل بعضهم تجبيس أراضيهم الزراعية، والبعض الآخر اكتفى بتقديم المحصول عينا^(٦٣)، أو زوايا المدن وهي الزوايا الرسمية التابعة للسلاطين كزاوية أبي مدين بمركب العباد - أشرنا إليه سابقًا - ذات المداخل الضخمة، وزاوية السلطان أبي حمّو موسى الثاني بتلمسان التي أنشأها رفقة المدرسة وسميت بالمدرسة البعقوبية، فقد أنفق عليها الأموال الجلية والجرايات لصيانتها والقيام بدورها هي والمدرسة^(٦٤)، أو

أخذ أموال الأوقاف ولم يجرؤ على استعمالها في غير ما وقفت عليه، رغم حاجته الماسة لها لإعادة بناء الدولة نتيجة الظروف السياسية والعسكرية القاهرة التي لحقت بها^(٦٥)، وعن ذلك يقول يحيى بن خلدون: «...وفتح بين يديه الكريمتين أعلى الله مقامه، صندوق الأوقاف المنوعة مفعمًا ذهبًا وفضة، فلم تغره صفراؤه ولا بياضؤه شنشنة نعرفها من أحزم ولا سنة علوية عليه»^(٦٦).

أما المدرسة التاشفينية التي غابت عنها حقائق كثيرة لعدم وجود وثائق التحبيس عنها^(٦٧)، إلا أن ذلك لا يعني انعدامها، فمؤسسها أبي تاشفين قد أحاطها بجملة من الأوقاف تتغذى منها لتؤدي رسالتها التعليمية والعلمية^(٦٨)، ولكنها اندثرت واختفت بعد ذلك، إلى أن أحياها "أبو العباس أحمد العاقل" ما بين سنتي (٨٣٤-٨٦٦هـ)، كما ذكره التنسي: «ووجد كثيرًا من ربع الأحباس قد دثر، والوظائف التي بها قد انقطعت فأحيى رسمها، وجرد ما دثر، وأجرى الوظائف على أزيد مما كانت عليه قبل»^(٦٩).

٢/٢- ٣- أوقاف المكتبات:

تُعَدّ المكتبات - العامة - من أهم دعائم الحضارة فهي تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وإتاحتها للجميع، كما تعد من أهم المظاهر التي يتجلى فيها البعد العلمي للوقف، إذ يعكس حب المسلمين للعلم ويبرز حرصهم على نشره، لذا سارع السلاطين على إنشائها وجمع آلاف الكتب وتحبيسها على طلبة العلم، كما خصوها بالأوقاف من أجل ترميمها ودفع مرتبات موظفيها، وتعتبر مكتبات المساجد هي النواة التي قامت على أساسها أنواع المكتبات الأخرى، التي انتشرت في جميع المؤسسات التعليمية، فبالإضافة إلى مكتبات المساجد هناك مكتبات المدارس والزوايا والبيمارستانات (المستشفيات)^(٧٠).

يعتبر الكتاب جوهر المكتبة وأساسها، فقد أدرك مشيدو المكتبات أنّ الاقتصاد على بنائها وتوفير جهاز للتدريس غير كاف، فاهتموا بوقف الكتب باعتبارها وسيلة ميسرة للتعليم والمراجعة، حيث توفر مادة علمية يستند عليها المعلم والمتعلم في آن واحد، وقد شملت وقف الكتب مختلف أنواع فروع المعرفة وبنسبة كبيرة كتب الدين وعلى رأسها المصاحف التي استحوذت على اهتمام الواقفين بحيث شكلت نواة المكتبات فاختموها وحسبوا عليها^(٧١)، ولعل أول المساهمين في هذا النوع هم السلاطين والحكام والأغنياء لتوفر المال لديهم، ولعل أصدق مثال عن ذلك السلطان الزياني أبو زيان محمد الثاني (٧٩٦-٨٠١هـ) الذي أقام سوق المعارف في دولته وأبدع في نظم مجالسها فلاحته للعلم في أيامه شמוש، وقف بمكتبة الجامع الأعظم بتلمسان^(٧٢) مصاحف وكتب منسوخة بيده مثل: كتاب الشفاء للقاضي عياض وصحيح البخاري، بالإضافة إلى كتاب من تأليفه سماه "الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة

الهوامش:

- (١) إنّ لفظة **الحبس** مصطلح مغربي، أما **الوقف** مصطلح شرقي شاع عندهم، والألفاظ الدالة على الوقف أو الحبس فهي عديدة مثل: تحبّيس، تسبيل، تحريم، الصدقة، وهناك لفظة: الصدقة المحرّمة، يُنظر: عبيد بوداود، انتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (١٣-١٥م)، ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ٥٥.
- (٢) يُنظر اشتقاق الكلمات ومعانيها: ابن منظور، لسان العرب، ج ١ (مادة وقف)، الدار المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص ٣٥٩؛ ج ٦ (مادة حبس)، ص ٤٤٤-٤٤٦؛ بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٨٧، ص ٩٨٢؛ أحمد بن محمد الفيتومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ج ١، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، (د.ت)، ص ٦٦٩؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مطبعة الشروق الدولية، دون مكان نشر، ط ٤، ٢٠٠٤، ص ١٠٥١.
- (٣) محمد مصطفى شلبي، أحكام الوصايا والأوقاف، الدار الجامعية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٢، ص ٣٠٢؛ منذر قحف، الوقف الإسلامي: تطوره إدارته وتميمته، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٦، ص ٥٥.
- (٤) يُنظر عن ذلك: منذر قحف، المرجع نفسه، ص ٥٦-٥٨؛ راغب السرجاني، روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط ١، ٢٠١٠، ص ٣٢-٣٣؛ معتز محمد مصباح، دور الوقف الخيري في التنمية الاقتصادية (دراسة تطبيقية لقطاع غزة)، رسالة ماجستير في اقتصاديات التنمية، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٣، ص ١٧-١٩.
- (٥) محمد طاهر حكيم، "دور الوقف في تعزيز التقدم الفكري"، المؤتمر الثالث للأوقاف: الوقف الإسلامي "اقتصاد، وإدارة، وبناء حضارة"، بالمملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٩، ص ٧٦٠-٧٦١، معتز محمد مصباح، المرجع السابق، ص ١٨.
- (٦) برهان الدين الطرابلسي، الإسعاف في أحكام الأوقاف، مطبعة هندية، مصر، ط ٢، ١٩٠٢، ص ٥٥.
- (٧) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
- (٨) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج ١، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي ودار الحرمين للطباعة، القاهرة، (د.ت).
- (٩) يُنظر: عبيد بوداود، المرجع السابق، ص ٧٠؛ محمد مصطفى شلبي، المرجع السابق، ص ٣١٢؛ سليمان بن عبد الله إبا الخيل، الوقف في الشريعة الإسلامية: حكمه وحكمته وأبعاده الدينية والاجتماعية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٨، ص ١٤-٢٤؛ معتز محمد مصباح، المرجع السابق، ص ٢٢-٢٤.
- (١٠) تفاصيل أكثر يُنظر: برهان الدين الطرابلسي، المصدر السابق، ص ١٠؛ مشهور بن دخيل بن داخل الحساني، كتاب الوقف للإمام يوسف بن حسين الكرماسي الحنفي المتوفي سنة ٩٠٦ هـ دراسة وتحقيقاً، رسالة ماجستير من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٣١ هـ، ص ١٥٥؛ أحمد بن عبد العزيز حداد، من فقه الوقف، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢٣-٢٩؛ معتز محمد مصباح، المرجع السابق، ص

زوايا العلماء ولعل أكثرها شهرة زاوية إبراهيم التّازي (ت. ٨٦٠هـ)^(١٥) بوهران التي تعد «من أعظم الدلائل على ولايته الباهرة وكراماته الطّاهرة ما أجرى الحقّ سبحانه على يده من بناء الزّاوية التّبيهة المتعدّدة الأبواب، والمساجد الأنيقة العالية والمرافق المعدّة للزّوار وأبناء السّبيل، فمسجد زاويته نهاية في الفخامة والاحتفال، ومدارسه المشتملة على الميضاة الأنيقة الدارة والحمام الذي ما شوهد مثله في البلاد، والخزائن المملوءة بالكتب العلميّة وآلات الجهاد، والسّطح المظلل بعريش من شجر الياسمين والعنبر والرّائحة لا نظير لها ولا مثال»^(١٦).

إنّ هذه المشاريع العمرانيّة الضّخمة التي اشتملت عليها الزّاوية كانت بفضل الموارد الماليّة الكبيرة التي استفادت منها الزّاوية في شكل دنور وصدقات سمحت إلى ما آلت إليه وضعيّة الزّاوية من مستوى حضاري راق^(١٧)، استغلت للتكفل بمختلف الفئات الاجتماعيّة وتوفير مستلزماتهم الضرورية من مأوى ومأكل ومشرب، بالإضافة إلى خدمة التعليم في مختلف العلوم^(١٨)، ولتعميم العلم ونشره حبس عليها صاحبها مكتبة مملوءة بالكتب النفيسة التي وجد فيها طلاب العلم ضالّتهم^(١٩).

خاتمة

ومما سبق نستنتج: أن الأوقاف كان لها الدور الرائد في النهضة العمرانيّة والثّقافيّة التي عرفها المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، حيث اعتبرت المصدر الأساسي لتغطية مختلف نفقات المؤسسات التعليميّة المتمثلة في:

- منح أجور الطواقم الساهرة على خدمة المؤسسات: كالمدرسين والحراس والبوابين.
- التكفل بطلاب العلم والعلماء ومختلف الفئات الاجتماعيّة: كعابري السبيل والمحتاجين والفقراء.
- إنشاء وإصلاح وترميم المؤسسات وتزويدها بمختلف التّجهيزات الصّوريّة من: حصير وأفرشه وزيت للوقود والإضاءة، بالإضافة إلى توفير الكتب في مختلف الفنون.

وختاماً؛ إنّ الوقف كان وما زال بؤرة النهضة العلميّة والفكرية العربية الإسلامية على مدار القرون، حيث أسهم الواقفون من حكام ومحكومين وعلماء في مساندة المسيرة العلميّة، وبالتالي إتاحة المعرفة لكافة الفئات الاجتماعيّة دون أدنى تمييز.

- (٢٥) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٥٧.
- (٢٦) معتز محمد مصبح، المرجع السابق، ص ٤٧.
- (٢٧) يحيى محمود ساعاتي، **الوقف وبنية المكتبة العربية استبطان للموروث الثقافي**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط ٢، ١٩٩٦، ص ٢٠.
- (٢٨) عبيد بوداود، **الأوقاف...المرجع السابق**، ص ٢٠٦.
- (٢٩) محمد طاهر حكيم، المقال السابق، ص ٧٧٣.
- (٣٠) التنسي، المصدر السابق، ص ١٢٥؛ يحيى بن خلدون، **بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج ١، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠، ص ٢٠٧.
- (٣١) عبيد بوداود، **الأوقاف...المرجع السابق**، ص ٨١.
- (٣٢) **مسجد سيدي أبي الحسن**: يقع بجوار الجامع الأعظم، أسسه السلطان الزياني أبي سعيد عثمان يغمراسن سنة (١٢٩٦/١٢٩٦م) تكريما لذكرى أخيه أبي عامر إبراهيم، لكنه لم يحمل اسمه وإنما تسمى باسم أحد مشاهير علماء تلمسان وهو الفقيه أبو الحسن بن يخلف التنسي (ت. ٧٠٣هـ)، الذي استقر بتلمسان وذاع صيته بفضل الدروس التي كان يلقيها، يمتاز المسجد بصغر حجمه وفخامته، انقطع عن وظيفته الدينية عندما حولته فرنسا إلى متحف. يُنظر:
- George Marçais, **les villes d'art célèbres Tlemcen**, édition du tel, Algérie, 2003, p46.
- (٣٣) الملحق رقم (١): وثيقة التّحسيس على مسجد سيدي أبي الحسن في تلمسان: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا، يُبَيِّنُ هَذَا الْمَسْجِدَ لِلْأَمِيرِ أَبِي غَامِرِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى يَغْمَرَاْسَنَ بْنِ زِيَّانَ فِي سَنَةِ سِتَّةٍ وَتَسْعِينَ وَسِتُّمِائَةٍ بَعْدَ الْأَلْفِ مِنْ بَعْدِ وَقَايَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَخُيِّسَ لِهَذَا الْمَسْجِدِ عِشْرُونَ خَائُونًا مِنْهَا يَحَاطُّ قِبَلَتِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ وَأَمَامَهَا سِتَّةُ أَبْوَابِهَا تَنْظُرُ لِلْجُوفِ وَ مِصْرَعِيهِ يَغْرِبِي الْمَسْجِدَ عَلَى بَابِ الدَّرْبِ وَدَارَانَ اثْنَتَانِ يَغْرِبِيهِ الْوَجْدُ لِسَكْنِ إِمَامِهِ، وَالثَّانِيَةِ لِسَكْنِ الْمُؤَدِّنِ الْقَيِّمِ يَخْدُمَتِهِ وَأَذَانِهِ، تَحْيِيْسًا تَأْمَنًا مُؤَبَّدًا احْتِسَابًا لِوَجْهِ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَرَجَاءِ ثَوَابِهِ الْجَسِمِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ». يُنظر:
- (Ch)- Brosselard, "les inscriptions arabes de Tlemcen : Mosquée Abou l'-Hacen ou bel H'acen ", in Revue Africaine, 3(ème) Année e, N°15, Fevrier1859, PP162-163.
- (٣٤) **مسجد أبي مدين**: من أهم المنجزات المرينية بالمغرب الأوسط شيده السلطان المريني أبي الحسن سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٩م) عند استيلائه على تلمسان، حيث نسب إلى الولي الصالح سيدي أبي مدين شعيب (ت ٥٩٤هـ) الذي دفن بالقرب منه، ومازال هذا الجامع قائما حتى اليوم محتفظا بأصالته وفنه فقد ولاه مؤسسه عناية خاصة، فكان غاية في الحسن والإتقان. يُنظر: ابن مرزوق، **المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريّا خيسوس بيبغيرا، الشركة الوطنية للتّشّير والتّوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٤٠٣-٤٠٤؛
- (Ch)- Brosselard "les inscriptions arabes de Tlemcen : Mosquée et medersa de sidi boumedin", in Revue Africaine, 3(ème) Année, N° 18, Aout 1859, p401.
- (٣٥) الملحق رقم: (٢) : الوقف (١): وثيقة التّحسيس على مُرْكَبِ أَبِي مَدِين بِالْعِيَاد : "المسجد والمدّرسَة والزّاويَة" «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أَمَرَ بِنَاءَ هَذَا الْجَامِعِ الْمُبَارَكِ مَعَ
- ٢٥-٢٨؛ عبيد بوداود، **الأوقاف...المرجع السابق**، ص ١٩-٢١؛ محمد مصطفى شلبي، المرجع السابق، ص ٣٤٥-٣٥٦.
- (١١) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن ١٠-١٤هـ/١٦-٢٠م**، ج ١، الشركة الوطنية للتّشّير والتّوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٢٢٤؛ أحمد بن عبد العزيز حداد، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤.
- (١٢) برهان الدين الطرابلسي، المصدر السابق، ص ١٩؛ ولأكثر تفاصيل يُنظر: الونشريسي، **المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيّة والأندلس والمغرب**، ج ١٢، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ج ٧، ص ١٥١؛ مشهور بن دخيل الله الحساني، المرجع السابق، ص ١٦٧-؛ صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ١٥٧.
- (١٣) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٥٦-١٥٧.
- (١٤) كمال السّيد أبو مصطفى، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ٢٦-٢٧.
- (١٥) محمد طاهر حكيم، المقال السابق، ص ٧٧٢.
- (١٦) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٢٨.
- (١٧) برهان الدين الطرابلسي، المصدر السابق، ص ١٣.
- (١٨) محمد بن رمضان الشاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيّان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص ٢٩٨-٣٠٢.
- (١٩) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٢٨.
- (٢٠) **المدرسة التاشفينية**: تعرف بالمدرسة الجديدة تعد ثاني مدرسة بالمغرب الأوسط، أنشأها السلطان الزياني أبو تاشفين الأول (٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٣٧م)، بالقرب من المسجد الأعظم في تلمسان، سخر لبنائها كبار المهندسين ومهرة الفنانين والمعماريين فكانت تحفة فنية رائعة، تتميز بازواجية وظيفتها التعليم والإيواء، تم تدشينها في شهر صفر سنة ٧٢٥هـ، درس بها فطاحل العلماء أمثال: أبي موسى عمران المشذالي، وأبي عبد الله محمد السلاوي، ومحمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي... فكانت من أشهر المدارس التي ساهمت في تخريج دفعات من الفقهاء والعلماء، واستمرت في ذلك إلى غاية القرن السادس عشر، ليزيل الاحتلال الفرنسي معالمها التاريخية سنة ١٨٧٦م، ويقيم بدلا منها دارا للبلدية. يُنظر: التنسي، **تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيّان**، تحقيق: محمد بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٤٠-١٤١؛ صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٤٤-١٥٠.
- (٢١) صالح بن قربة وآخرون، المرجع نفسه، ص ١٥٨.
- (٢٢) حسن الوّزان، **وصف إفريقيا**، ج ١، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط ٢، ١٩٨٣، ص ٢٢٧.
- (٢٣) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٥٩، وللتعرف على الأحكام المطبقة على نظام الأوقاف خاصة بناظر الوقف. يُنظر: الونشريسي، **المعيار... المصدر السابق**، ج ٧، ص ٦٥-٩٢-٩٣-١٣٣-١٤٠-٢١٧-٣٤٨.
- (٢٤) محمد طاهر حكيم، المقال السابق، ص ٧٥٨؛ ص ٧٧٢.

السَّيْبِي بِتَرْبَائِهَا وَحَقَّرَهَا بِالصَّفْصِيفِ جَمِيعَ الزَّوْجِينَ الْمُسَمَّاءِ أَحَدَهُمَا وَغَزَّ مُشْتَرَاةً مِنْ وَرَثَةِ يَحْيَى بْنِ دَاوُدَ وَالْأُخْرَى أَفْطُوطَنَ مُشْتَرَاةً مِنْ أَحْمَدَ الْمَسِيْفِي بِتَرْبَائِهَا وَحَقَّرَهَا بِمَائَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثَةً عَشَرَ دِينَارًا ذَهَبًا لِيُصَرَّفَ غَلَّتْهَا فِي مَصْرُوفِ الْحُسَيْنِ الْمَذْكُورِ عَلَى غَادِيَةِ حَسَمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي غَامِ أَرْبَعَةِ وَتِسْعِمَائَةِ سَنَةٍ. يُنْظَرُ: محمد بن رمضان الشَّوْش، المرجع السابق، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٣٧) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٣٨) هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي (٥٣٠-٥٩٤هـ) شيخ المشايخ، من أعلم العلماء وحفاظ الحديث، وشيخ أهل المغرب في التصوف، اشتهر ببجاية وكثر تلاميذه وأقبل الناس عليه التماسا لعلمه واقتداء بطريقته، توفي في العباد ودفن بها. يُنْظَرُ: التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٩٨٩، ص ١٩٣-؛ ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٠٨، ص ١٠٨-؛ الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج ٢، مطبعة بيبير قوفتانة الشرقية، الجزائر، ١٩٠٦، ص ١٧٦-؛ ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق: احمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط ٢، ١٩٩٧، ص ٣١٩-؛ الناصري، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩؛ الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية، الجزائر، ١٩٨١، ص ٥٥-؛ محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ص ١٦٤.

(٣٩) عبيد بوداود، **الأوقاف...المرجع السابق**، ص ٨٩.

(٤٠) الملحق رقم: (٠٣) نص التحبيس الخاص بالمسجد الكبير بمدينة مُسْتَعْلَيْن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أَمْرٌ بَيْنَاءٌ هَذَا الْجَامِعَ الْمُبَارَكَ سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا الْأَعْدَلُ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبِي يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَبَلَّغَهُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ سَعْيَهُ وَمَقْصُودَهُ وَجَعَلَ مُلُوكَ الشَّرِكِ حَوْلَهُ وَعِيَّده. وَذَلِكَ فِي غَامِ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ وَخُبِسَ عَلَيْهِ خُلِدَ اللَّهُ مَفَاخِرَهُ وَأُرِيدَ آثَارُهُ الْكَرِيمَةِ وَمَآثِرُهُ خَانُوتَيْنِ اثْنَتَيْنِ بِالسُّوقِ الْكَبِيرِ فَتَحَ بَابًا هُمَا قِبْلَةٌ وَهُمَا الْمُلَاصَقَتَانِ لِإِدَارِ ابْنِ أَبِي عَزُوزٍ وَقَرْنِي اثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا قِبْلَى هَذَا الْجَامِعِ الْمُبَارَكَ وَالْآخَرُ عَنْ يَمِينِ الْخَارِجِ مِنْ بَابِ الْبَلَدِ وَثَلَاثُ جِزَارٍ مِنَ الرِّبْتِ الْمُسْتَقَادِ مِنَ الْعُشْرِ لِيُصَرَّفَ غَلَّتْ الرِّبْعَ الْمَذْكُورَ فِي مُرْتَبِ الْإِمَامِ الْخَطِيبِ، وَقَرَأَ الْجِزْبَ وَالْمُؤَدِّيْنَ وَالْحِضْرَ بَعْدَ الدُّوْمِ، وَالْإِصْلَاحَ وَيُصَرَّفُ مِنَ الرِّبْتِ الْمَذْكُورِ فِي الْإِسْتِصْبَاحِ وَيَتَوَلَّى النَّظَرَ فِي ذَلِكَ وَصَرَفَهُ حَيْثُ ذَكَرَ الْقَاضِي وَالْخَطِيبُ مَعًا، وَعَشْرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ نَفَعْنَا اللَّهُ بِذَلِكَ الْمَقَامِ الْعَلِيِّ وَضَاعَفَ أَجْرَهُ وَأَطَالَ عَدَّهُ». يُنْظَرُ: مولاي بلحميسي، "في تاريخ جامع مستغانم العتيق"، مجلة الأصاله، الجزائر، السنة الثالثة، العدد ١٣، ١٩٧٣م، ص ١٣٤.

(٤١) - **مسجد سيدي الحلوي**: أسسه السلطان أبو عنان المريني سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، تخليدًا لذكرى وفاة العالم الشهير الولي الصالح أبو عبد الله الشوذي الاشيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان المتوفى سنة (٧٣٧هـ / ١٣٣٧م)، ومازال هذا المسجد قائمًا وهو كثير الشبه بمسجد أبي مدين من حيث الهندسة والزخرفة. يُنْظَرُ: رشيد بورويبة وآخرون، **الجزائر في التاريخ: العصر الإسلامي من الفتح إلى بداية**

المدرسة المتصلة بعزبه مولانا السلطان الأعذل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن بن مولانا بن أبي سعيد بن مولانا أبي يوسف بن عبد الحق المريني أيّد الله أمره وخلّد بالعمل الصالح ذكره وأخلص لله تعالى في عمل البر سرّه وجهه وحس المدرسة المذكورة على طليّة العلم الشريف وتدريبه على الجامع المذكور والمدرسة من الجنان العليّ نفعمهم الله بذلك وجميع الجنان القصير الذي بالعباد الفوقي المشتري من ولدي عبد القادر القصير ومن عبد الواحد وجميع جنان أقدام المشتري من علي المراني وجميع الجنان المعروف بابن حويّة الكائن بأزواغة المشتري من ورثة الحاج محمد بن حويّة، وجميع الجنان الكبير والدار المتصلة من جهة عزبه المعروف ذلك باسم داوود بن علي المشتري من ولده وهو بأسفل العباد السفلي وجميع الرّقعتين الموروثتين أيضًا منه اشتراها من ولده علي العزّ واجدة بابن أبي إسحاق والثانية بابن الصلّة المعروفين منهُما وغير المعروفين وجميع الجنان المعروف بجنان الباديسي الموروث أيضًا منه المشتري من يحيى بن داود المذكور وهو أسفل العباد السفلي وجميع الجنان المسمى قرعوش من جنان الباديسي المذكور الموروث أيضًا عنه المشتري من ولده عبد الواحد ويعسى وجميع المعروفات الأربعة الفوقي منها يُعرف بابن مكّي والثاني بابن محمد بن السراج والثالث بفق المدلسي والرابع بن الفراق التي بخوفي مسجد العباد السفلي المشتري أيضًا منهم والنصف الواحد من الجنان الزهري مع جميع بيتي الرّخا المنبئة بعزبه وذلك بجهة الوريط وجميع بيتي الأرخا المنبئة أيضًا بقلعة بني مغلي خارج باب كسوط وجميع الحقام المعروف بحمام الغالية الذي بداخل تلمسان مع خاتونيّة المتصلتين به على يمين الخارج من باب القبلي ودوبراته المتصلة به من جهة جوفه ومضربته المجعولة على أسطوانة والواحد الحقام القديم من زيد وذهني فطر تلمسان المذكورة يرسم إظلام الظغام بزواوية العباد عقرها الله للقرّاء والحجاج المقيمين والواردين عليها وأثره عشرة أزواج بالموضع المذكور يرسم ساكني المدرسة المذكورة بحساب خمسة عشر صاعًا للطلاب الواحد في كل شهر وجميع جنان سعيد بن الكدام المشتري من ورثته وهو الكائن فوق العباد العلوي وتحت ساقية النصري وجميع جنان القائد مهدي المشتري من ورثته الكائن بأزواغة المخروسة وجميع جنان التفريسي الكائن تحت الطريق المارّين عليها لئلا يوريط المشتري من ورثته وجميع أرض جنان التفريسي المذكور الكائن غربي الصّواري المشتراة منهم بقبة الرّحاب المتصلة بالجامع المذكور البقية من الجنان المزيد بعزبه في الجامع المشتري من ورثة عبد الواحد من ورثة أبيه وأمه وعمّتهم ممرنة ولم يبق لورثتهم حق ولا مطلب وخيس على الزاوية المذكورة والجامع المذكور بين ملاجق البطح على نفقة الحجاج الواردين عليها من الفقراء والمساكين». يُنْظَرُ: محمد بن رمضان الشَّوْش، المرجع السابق، ص ٢٩٨-٣٠١.

(٣٦) الملحق رقم: (٢) الوقف (٢): «هَذَا اشْتَرَى عَنْ أَمْرِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الثَّابِتِيَّ أَيَّدَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ مِنَ الْأَرَاظِي مِمَّا كَانَ مَوْفُوقًا تَحْتَ يَدَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ مِنْ وَفَرِ أَحْبَاسِ الْوَلِي الْقُطْبِ سَيِّدِي أَبِي مَدِينِ نَفَعْنَا اللَّهُ بِهِ وَذَلِكَ بِوِجْهِ هَذَانِ زَوْجِ قَدَانِ الرَّيْثُونِ الْكَبِيرِ بِمَائَتِي دِينَارٍ ذَهَبًا وَزَوْجِ تَادَكْرَةِ بِمَائَةٍ وَأَرْبَعِينَ دِينَارًا ذَهَبًا وَقَرْدِيًّا بِمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا الْمُسْتَشْتَرِي جَمِيعُهَا مِنْ بَيْتِ مَالِهِ أَيَّدَهُ اللَّهُ وَأَتَمَّهُ بَعْدَ خُلُوصِهَا لَهُ مِنْ وَرَثَةِ ابْنِ وَبَعْدَ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ وَجَمِيعِ زُونِ التَّقَاتِيسِ بِثَلَاثَةِ وَخَمْسِينَ دِينَارًا ذَهَبًا مِنْ وَرَثَةِ ابْنِ صَالِحٍ وَوَرَثَةِ

العهد العثماني، ج ٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٥٠٣.

(٤٢) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٤٣) مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية: مدن الشرق، ج ٢، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٩٢-٩٣.

(٤٤) المدرسة اليعقوبية: شيدها السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني (ت ٧٩١هـ/١٣٨٨م) تخليدا لذكرى والده أبو يعقوب يوسف (ت ٧٦٣هـ) لذا سميت باليعقوبية كما اشتهرت كذلك باسم مدرسة سيدي إبراهيم المصمودي نسبة للعالم الجليل الذي دفن بها سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م)، تم افتتاحها في ٥ صفر (٧٦٥هـ/١٣٦٣م)، حيث أكثر عليها الأوقاف ورتب فيها الجرايات وكسا طلبتها، نصب للتدريس بها الفقيه أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني فارس المعقول والمنقول صاحب الفروع والأصول (ت ٧٧١هـ)، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الله لتولي إدارتها والتدريس بها لمواصلة ركبها وتقديمها الثقافي.

ينظر: مؤلف مجهول، السفر الثاني من زهر البستان في دولة بني زيان (٧٦٠-٧٦٤/١٣٥٩-١٣٦٣م)، تحقيق: محمد بن أحمد باغلي، الأضالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٢، ص ٢١٢؛ يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج ٢، تحقيق: بوزياني الدراجي، دار الأهل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧؛ ص ٢٨٣؛ التنسي، المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٤٥) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٤٦) التنسي، المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٤٧) الملحق رقم: (٠٤) وثيقة التحييس الخاصّة بالمدرسة اليعقوبية: «أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبُو حَمُو بْنُ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ أَبِي يَعْقُوبَ بْنِ الْأَمِيرِ أَبِي زَيْدِ بْنِ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَاءَ بْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي يَحْيَى بَعْمُرَاسَنَ بْنِ زِيَّانَ وَصَلَ اللَّهُ مَقَاجِرَهُ وَخَلَدَ آثَارُهُ الْكَرِيمَةَ وَمَأْتَرَهُ عَلَى هَذِهِ الزَّوَايَةِ الْمُبَارَكَةِ الْمُقَامَةِ عَلَى صَرْيَحِ وَالِدِ الْمَذْكُورِ بَرَدَ اللَّهُ صَرْيَحَهُ. فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَدْخُلُ تِلْمَسَانِ الْمَخْرُوسَةِ جَمِيعِ الظَّاحُونَ الْمُلَاصِقَةَ لِلزَّوَايَةِ وَالثَّلَاثُونَ خَانُوتًا الْمَعْرُوفَةَ بِالصَّاعَةِ الْقَدِيمَةِ وَالْكُوشَةِ الَّتِي يَمُنْشَرُ الْجِلْدُ وَحَمَامِ الطُّبُولِ وَقُنْ مَقْسَمِ الْمَا وَنُقُودِ الْعَالِي وَيَخَارِجِ الْبِلَادِ الْمَذْكُورِ جَمِيعِ الرِّخَا السُّفْلِي بِقَلْعَةِ بَيْتِي مَعْلَى وَالتَّصَفِّ شَائِعًا فِي رَوْضِ الْمَيْتَةِ الْكَائِنَةِ بِالزَّمِيلِ وَزَيْتُونِ تَيْغَدَا وَأَرْضِ الرِّبْتُونِ الْمَذْكُورِ ثُمَّ مَعْصَرَتُهُ وَرَحَاهَا وَجَمِيعِ الْمُحْبَسِ. مَلَكُهُ وَشَهْرَةُ الْجَمِيعِ تُعْنِي عَلَى التَّحْدِيدِ تَحْيِيْسًا تَامًا مُطْلَقًا عَامًا وَوَقْفًا نَائِبًا أَبَدِيًّا لِيُصْرَفَ مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخُبُيسِ الْمَذْكُورِ عَلَى مُعَلِّمِينَ الْعِلْمِ وَطَالِبِيهِ وَإِمَامًا وَمُؤَذِّنَ عَامَ ثَلَاثَةِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ...عَامَ خَمْسَةِ وَسِتِّينَ...». يُنظر:

(Ch)-Brosselard, "les inscriptions arabes de Tlemcen: Mosquée Ouled El Imam", in Revue Africaine, 3ème année, N°13, Octobre 1858, pp169-170.

(٤٨) ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٤٩) عبيد بوداود، الأوقاف... المرجع السابق، ص ٨٤.

(٥٠) بغية الرواد... المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٦.

(٥١) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٥٢) التنسي، المصدر السابق، ص ١٤١.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٥٤) أنور محمود زناتي، "الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية ودوره في النهضة العلمية - الأندلس نموذجًا"، دورية كان

التاريخية، مجلة رقمية الكترونية، السنة ٥، العدد ١٦، ٢٠١٢، ص ٤٠-٤٢.

(٥٥) يحيى محمود ساعاتي، المرجع السابق، ص ٢١-٢٢، ص ٦٦.

(٥٦) الجامع الأعظم: شيد في عهد المرابطين على يد مؤسسها "يوسف بن تاشفين" (٤٥٣-٥٠٠هـ) سنة (٤٧٣هـ/١٠٨٠م)، ثم رُممه ابنه "علي بن يوسف بن تاشفين" (٥٠٠هـ/٥٣٧م) سنة ٥٣٠هـ، أما في العهد الزياني فقد كان يغمراسن شديد الاهتمام به حيث أضاف له القسم الشمالي من بيت الصلاة والقبلة والصحن والمئذنة التي رفض أن يكتب عليها اسمه لورعه وتقواه، مواظبا على أداء الصلاة فيه، وحضور دروسه التي كان يلقاها كبار الفقهاء مثل: أبو إسحاق إبراهيم بن خلف التنسي المظماطي (ت ٦٨٠هـ/١٢٨٠م)، فاتخذ منذ ذلك الوقت مركزا للتدريس فذاعت شهرته وأصبح مقصد العلماء وقبلة طلاب العلم يفدون إليه من كل حذب وصوب، وينهلون من مشيخته مختلف العلوم، واستمر طيلة العهد الزياني لعنايتهم الفائقة به، وما زاد من قيمته خزانة الكتب التي أقامها السلطان "أبو حمو موسى الثاني" سنة (٧٦٠هـ/١٣٦٠م)، إن كل هذا الاهتمام والعناية جعلته شبه جامعة كجامع الزيتونة بتونس والقرويين بفاس، ولا يزال حتى اليوم قائما محافظا على فنه ومعماره. يُنظر: التنسي، المصدر السابق، ص ١٢٥؛ يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٧.

George Marçais, Op-cit, p27/37-38.

(57) التنسي، المصدر السابق، ص ٢١٠-٢١١.

(58) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(٥٩) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ٤٠٧.

(٦٠) عبيد بوداود، الأوقاف... المرجع السابق، ص ٢٣٠؛ أنور محمود زناتي، المقال السابق، ص ٤١.

(٦١) كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص ١١٠.

(٦٢) يحيى محمود ساعاتي، المرجع السابق، ص ٢١.

(٦٣) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٦٤) التنسي، المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٦٥) هو إبراهيم بن محمد بن علي التازي أبو إسحاق: عالم أديب وصوفي كبير برع في الحديث والفقه والأصول، نزيل وهران وتلميذ الشيخ محمد بن عمر الهواري، توفي بوهران ودفن بزاويته سنة ٨٦٠هـ. يُنظر: ابن سعد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياء الأربعة المتأخرين، تحقيق: يحي بوعزيز، منشورات ANEP، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٤٣؛ التنبكي، المصدر السابق، ص ٥٩؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص ٥٨؛ الحفناوي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧؛ محمد مخلوف، المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٦٦) محمد بلحاج، مخطوط النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، ج ١، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص ١١١.

(٦٧) عبيد بوداود، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (١٣-١٥م)، دراسة في التاريخ التسوسي-ثقافي، دار الغرب، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٢٩١.

(٦٨) المرجع نفسه، ص ٢٩٣.

(٦٩) محمد بلحاج، المرجع السابق، ص ١١٨.

إمارات بني سليمان في المغرب الأوسط بين الوجود والنسيان (١٧٢ - ٣٤٢هـ / ٧٨٨ - ٩٥٣م)

كروم عيسى

باحث دكتوراه في التاريخ الوسيط
جامعة قسنطينة (٢)
الجمهورية الجزائرية



ملخص

ينصب اهتمام جل الباحثين اليوم إلى الدراسات ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي، بدعوى أن الدراسات المتعلقة بالحياة السياسية قد استوفت حقها من البحث، إلا أنه ما زالت هناك ثغرات في تاريخ المغرب الأوسط السياسي تحتاج إلى دراسة معمقة، ومن باب الانصاف التاريخي ستقوم هذه الدراسة على تسليط الضوء على تلك الإمارات التي ظهرت في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري في المغرب الأوسط، المسماة "إمارات بني سليمان" والتي تكونت بعد أن فرّ العلويون إلى بلاد المغرب المنهزمين في موقعة فخ، منهم إدريس مؤسس الدولة الإدريسية وأخوه سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن بن علي بن أبي طالب "رضي الله عنه"، حيث تمكنت ذرية هذا الأخير من انشاء إمارات مستقلة بذاتها في عدة مدن من المغرب الأوسط (تحديدًا شمال غرب الجزائر حاليًا)، ومن أهمها إمارة تلمسان، إمارة ارشكول، إمارة تنس، إمارة جراوة وغيرها من القرى التي كانت تابعة لها، تداول على حكم كل إمارة أسرة من ذرية آل سليمان واستمر وجودهم إلى أن سقطت على يد العبيدين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

كلمات مفتاحية:

المغرب الأوسط، العلويون، بنو سليمان، السليمانيون الزيدية، تلمسان، ارشكول، تنس

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ أغسطس ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٤ ديسمبر ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كروم عيسى، "إمارات بني سليمان في المغرب الأوسط بين الوجود والنسيان (١٧٢ - ٣٤٢هـ / ٧٨٨ - ٩٥٣م)". - دورية كان التاريخية، - العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ١٣٧ - ١٤٧.

مقدمة

الشمال الغربي للمغرب الأوسط من نهاية القرن الثاني هجري إلى منتصف القرن الرابع هجري. تقوم هذه الدراسة على معالجة إشكالية الحركة السليمانية العلوية من المشرق إلى المغرب الأوسط وتأسيس إمارات مستقلة به؛ فمنهم بنو سليمان وكيف تمكنوا من تأسيس هذه الإمارات وحققوا كيانًا سياسيًا خاصًا بهم؟ وما هي الأصول التاريخية والحدود الجغرافية لهذه الإمارات؟

أولاً: نسب بني سليمان

يعود تأسيس وتكوين الإمارات السليمانية في المغرب الأوسط في نهاية القرن الثاني الهجري، إلى ذرية سليمان بن

نتيجة للإضرابات السياسية والمذهبية لجأ إلى المغرب الإسلامي عدد من المضطهدين من بلاد المشرق الإسلامي، فوجدوا فيه أرضاً خصبة لتحقيق أهدافهم التي عجزوا عن تحقيقها في المشرق، كالعلوين، ومن العلويين بنو سليمان الذين استطاعوا تأسيس إمارات لهم في المغرب الأوسط في نهاية القرن الثاني هجري واستمرت إلى منتصف القرن الرابع الهجري. ومن هذه الزاوية يأخذ موضوع "إمارات بني سليمان في المغرب الأوسط بين الوجود والنسيان" مشروعته كبحث للمعالجة والدراسة، لما سيكشفه من غموض يكتنف منطقة

تلمسان، وفي هذا يقول صاحب الجمان: فقرّق محمد بنيه على أعماله فأقام ابنه عيسى بأرشكول، وأقام ابنه إدريس بجراوة، وأقام ابنه الحسن بتاهرت، وأقام ابنه إبراهيم بتنس، وكان ابنه أحمد ولي العهد معه في تلمسان.^(١٦)

ثانياً: انتقال العلويين من المشرق إلى بلاد المغرب

للحديث عن انتقال سليمان بن عبد الله إلى المغرب الأوسط والأسباب في ذلك، يجبرنا أن نعود إلى أحداث موقعة فخ^(١٧) وما ترتب عنها، فهذا الحدث هو الذي دفع جميع العلويين الفرار من المشرق، ومنهم إدريس بن عبد الله فهو العلوي الناجح الذي فرّ من نفس الموقعة وتمكن من تأسيس دولة له في المغرب الأقصى وكانت له يد في تأسيس كيان لبني سليمان في المغرب الأوسط.

لقد بذل العلويون جهوداً كبيرة في الحصول على الخلافة، فكل ثوراتهم كانت تنتهي بالفشل سواء تلك التي قامت ضد الأمويين، أو التي كانت ضد العباسيين، في كل مرة كانوا يعملون بجد في بناء تنظيم جديد على قواعد سليمة مستفيدين من أخطاء الماضي إلا أن الفشل كان يلاحقهم في كل محاولة^(١٨)، فبعد ثورة (١٤٥هـ/٧٦٢م) التي أطاحت بمحمد النفس الزكية المباع له في كثير من الأمصار، حاول العلويون مرة أخرى لملمة أنفسهم بقيادة الحسين بن علي، حيث ثار هذا الأخير في أيام موسى الهادي، على عامل المدينة^(١٩)، "...واجتمع عليه قرابته وفيهم عمّاه إدريس ويحيى..."^(٢٠)، ويذكر صاحب الاستبصار "...وكان معه جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحيى، وسليمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى وهما أخوا محمد النفس الزكية..."^(٢١) تمكّن العلويون من قتل عامل المدينة وتحقيق نصر ظرف، وبايع التّاس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه.^(٢٢)

في يوم ست من ذي القعدة سنة (١٦٩هـ/٧٨٥م) خرجوا إلى مكة وانظم إليهم جماعة من عبيدها وكان فصل الحج^(٢٣)، ومن بين وجوه العباسيين الذين حضروا الحج سليمان بن أبي جعفر المنصور، ومحمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن علي^(٢٤)، وفي اليوم الثامن من ذي الحجة من السنة نفسها وهو يوم التروية نشب القتال بين الطرفين في مكان بعرف بفخ "...فانهزم الحسين وأصحابه وقُتل فاجترزت رأسه واحضره أمام بني العباس..."^(٢٥) لقد كانت مصيبة الطالبين في هذه الموقعة اشد ما لحق بهم لشدة التمزق والقتل الذي مسهم حتى سميت السنة بسنة الحسين، فقد قتل في مائة من أصحابه^(٢٦)، كما كانت هذه الواقعة سبباً في فرار الناجين من الطالبين إلى الأمصار البعيدة عن مركز الخلافة. جاء في البيان لابن عذارى المراكشي (ت. ٧١٢هـ/١٣١٢م) "...فرّ من الواقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور وهي وقعة فخ وكانوا ست إخوة، إدريس وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، ويحيى. أما محمد فخرج بالحجاز، وأما

عبدالله الكامل بن الحسن بن علي بن أبي طالب "رضي الله عنه"^(١)، وسليمان هو أخ إدريس الداخل إلى المغرب الأقصى ومؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٧١ هـ^(٢)، فهما شقيقان أبوهما عبد الله الكامل (المحض)^(٣)، وأمهما عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث الشاعر خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي^(٤)، ولهما أخ ثالث شقيق هو عيسى ولهم من الإخوة غير الأشقاء محمد وإبراهيم وموسى ويحيى، وجاء في حقهم عند صاحب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول الأبيات التالية:^(٥)

مُحَمَّدُ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى سُلَيْمَانُ إِدْرِيسُ وَعَيْسَى
كُلُّ الثَّلَاثَةِ أَشْقَاءُ فَرِيقُ أَخُوهُمْ يَحْيَى وَمَالَهُ شَقِيقُ

وهؤلاء كلهم علويون يُنسبون إلى علي كرم الله وجهه، فقد جاء في كتب الأنساب أن علي "رضي الله عنه" ترك واحد وعشرون من الذكور، لم يعقب منهم إلا خمسة، وهم الحسن والحسين أمهما فاطمة بنت رسول الله (ﷺ)، ومحمد الأكبر المعروف بابن الحنفية أمه خولة بنت قيس والعباس الأكبر، أمه أم البنين بنت المحل بن الديان بن حرام الكلبي، وعمر أمه الصهباء بنت ربيعة التغلبي.^(٦)

خلف الحسن بن علي "رضي الله عنه" من الذكور ثمانية وهم الحسن المثنى، وزيد وطلحة والحسين وعبد الرحمن وعمرو، وأبو بكر^(٧)، يضيف صاحب الأنساب عبد الله ومحمد وجعفر وحزمة^(٨)، والحسن المثنى خلف محمد وعبد الله والحسن وإبراهيم وجعفر وداد وكلهم أعقبوا إلا محمد لم يخلف ذكوراً^(٩)، وأما عبد الله الكامل فقد خلف بنتاً واحدة، ومن الذكور: محمد المدعو النفس الزكية الذي قُتل في وقعة (١٤٥هـ/٧٦٢م) زمن الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٣-٧٧٥م)^(١٠) وكان يقيم في المدينة، وإبراهيم القائم بالبصرة، ويحيى القائم بالدلم حبسه الخليفة الرشيد إلى أن مات في حبسه، وإدريس القائم في المغرب، وموسى، وعيسى (لا عقب له)، وسليمان^(١١) اختلف حوله إن مات في فخ أو نجا، وقد أعقب ولدًا واحدًا هو محمد.

ومحمد هذا (٢٣٠هـ / ... ٨٤٥م) هو مؤسس إمارات بني سليمان في تلمسان^(١٢)، ملأت ذريته بلاد المغرب الأوسط، يقول صاحب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول عن أغصان هذه الشجرة، وكل شريف حسني سلیماني فهو من أولاد مولانا محمد بن سليمان دفين جبل وهران^(١٣)، ويقول صاحب مفاخر البربر، وأقام محمد بن سليمان في تلمسان وكان له ولدًا اسمه محمد وولد لمحمد ذرية كثيرة، فكل قریش هناك من ولد سليمان وتوغل بعض بنيه بالسوس الأقصى ودخل بعضهم أيضًا بلاد الحبشة، فكل قریش هناك منهم^(١٤) خلف محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، إدريس، وعيسى، وإبراهيم، ومحمد، وعلي، والحسن، وكلهم أعقب^(١٥)، وهؤلاء فرّقهم محمد بن سليمان على الأقاليم بعد أن أصبح يملك

يحي فقام في الديلم في خلافة الرشيد، وهبط على الأمان، ثم سَمّ ومات. وأما إدريس، ففر إلى المغرب، ودخل إليه في أيامه من الطالبين أخوه سليمان^(٣٧). لعل هذا النص يعطينا صورة واضحة عن التمرق والتشتت الذي عان منه الطالبين بعد موقعة فخ، فكل واحد منهم أخذ وجهة معينة، ما يهمنا نحن هو سليمان وأخوه إدريس اللذين اختارا بلاد المغرب بعيداً عن أعين بني العباس.

لا يكاد أي دارس أو باحث يجد اختلافاً في روايات المؤرخين حول انتقال إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه إلى بلاد المغرب، إلا قليلاً لا يضر بصحة رواية على أخرى، فمن الثابت تاريخياً أن إدريس كان في المدينة وحضر حادثة فخ، ومنها فرّ والتحق بمصر ثم إلى المغرب الأقصى مع مولاه راشد حتى نزل بطنجة، وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب فلم يجد مراده،^(٣٨) فانتقل إلى ويلي^(٣٩) عند زعيم قبيلة أوربة^(٤٠) اسحق محمد عبد الحميد سنة (١٧٢ هـ / ٧٨٨ م)،^(٤١) وعند صاحب أعمال الأعلام ذكره "عبد المجيد الأربي".^(٤٢) بعد مبايعة قبيلة أوربة له تمكّن إدريس من حشد جيش من البربر فتح به المدن فأذعن له القبائل،^(٤٣) وأعلن عن قيام دولته بخطبة شهيرة. لم يكن إدريس في حملاته يدعو إلى مذهب معين بعينه ولم يشير إلى الدعوة الزيدية بقدر ما كان ينشر التعاليم الإسلامية الصحيحة،^(٤٤) ومحاربة الفكر الخارجي، فكما هو معروف فإن منطقة المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط كانت قد عرفت المذهب الصفري والإباضي قبل الدعوة الشيعية.

حينما دانت له معظم قبائل المغرب الأقصى توجه إدريس إلى فتح تلمسان^(٤٥)، التي كانت تسكنها قبائل مغراوة وبني يفرن، وكان يحكمها محمد بن خزر المغراوي^(٤٦)، وتتفق جميع المصادر^(٤٧) على أن إدريس دخل المدينة سلماً إذ أتاه محمد بن خزر خارج المدينة وبايعه ثم بايعته جميع القبائل الزناتية، يتحدث ابن خلدون عن هذا الحدث بقوله "فدخل إدريس تلمسان صلحاً فأمن أهلها وبني مسجدتها"^(٤٨) إن استقبال الإمام بالترحاب ومبايعته من طرف محمد بن خزر وبقية القبائل بالمدينة وتسليمه لها، يجعلنا نجازف بالقول أن سليمان أخو إدريس كان موجوداً بها أو على الأقل أبنه محمد، هذا دون أن ننسى بأن إدريس كان قد مكث في تلمسان أياماً.^(٤٩)

ثالثاً: انتقال سليمان بن عبد الله إلى المغرب الأوسط

اختلفت الآراء وتضاربت الروايات بشأن مجيء سليمان بن عبد الله من المشرق إلى المغرب الأوسط واستقراره في تلمسان، فقد أكدت بعض المصادر هذا في حين نفته أخرى، ومن أجل الوقوف على حقيقة هذه المسألة استقرأنا مجموعة من المصادر المستعملة في هذا البحث للإجابة على التساؤلات العالقة، منها هل فعلاً وصل سليمان إلى تلمسان؟ أم ابنه فقط؟

بعد الاطلاع على مختلف المصادر التي تنفي انتقال سليمان إلى بلاد المغرب، وجدناها تجمع كلها على أن سليمان قُتل في موقعة فخ سنة (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م)، ومن أشهر من ذهب في هذا الاتجاه الطبري محمد بن جرير^(٥٠)، حيث أكد بأن سليمان من الذين قُطعت رؤوسهم إذ يقول "... فكانت مائة رأس ونيفا، فيها رأس سليمان^(٥١) بن عبد الله بن حسن وذلك يوم التروية".^(٥٢) ويقف الموقف نفسه المسعودي (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) حيث قال "... وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي فأسير في هذا اليوم وضربت رقبته بمكة صبرا"^(٥٣)، ويذكره أبو فرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) في مقاتل الطالبين أنه من ضمن قتلى فخ^(٥٤)، كما أكد ابن حزم بأن سليمان قُتل بفخ^(٥٥)، وينحاز إليهما في الاتجاه نفسه محمد بن علي السنوسي الخطابي (١٣٧٢ هـ / ١٨٥٥ م) صاحب الدرر السنية، فقد جاء على لسانه "فأما سليمان فتوفي في وقعة فخ"، وأيضاً أحمد بن محمد بن عبد الله المقري في زهرة الأخبار حيث أكد بأن الذي وصل إلى تلمسان هو أبنه محمد وليس سليمان، لأن هذا الأخير "... توفي في المدينة في وقعة فخ"^(٥٦) وعند سيد علي حشلاف فإنه يقول "... وقال الإمام السيوطي وأما مولانا سليمان قتل بفخ وخلف ولداً واحداً وهو محمد"، كما نجد صاحب الأعلام عندما يترجم له يقول بأنه استشهد بفخ.^(٥٧)

في مقابل هذا الرأي هناك من المصادر التي تؤكد وصول سليمان بن عبد الله إلى المغرب الأوسط، ونبدأ بابن خلدون عبد الرحمن الذي يذكره في أربع مواضع مختلفة ففي المرة الأولى يقول "وأما سليمان أخو إدريس الأكبر فانه فرّ إلى المغرب أيام العباسيين فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس، وطلب الأمر هناك فاستنكره البرابرة وطلبه ولاة الأغلبية فكان في طلبهم تصحيح نسبه".^(٥٨) ويذكر وصوله تلمسان في موضع ثان بقوله "وكان قد نزل تلمسان لعهد إدريس الأكبر أخوه سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن القادم إليه من المشرق"^(٥٩). ويذكره أيضاً في موضع ثالث عندما يتحدث عن إدريس فيقول "ولحق به من إخوته سليمان ونزل بأرض زناتة من تلمسان ونواحيها"^(٦٠) وفي الموضع الرابع يقول "وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله فنزلها وولاه أمرها"^(٦١) وابن أبي زرع جعل دخول سليمان بن عبد الله متزامناً مع أخيه إدريس الأكبر حيث قال عنه "... ثم سار إلى تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها وذلك في أيام أخيه إدريس".^(٦٢)

ويؤكد ابن عذاري المراكشي أن سليمان لم يمت في فخ قال "ذكر العذري أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فرّوا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور وهي وقعة فخ"^(٦٣) وحسب ابن عذاري دائماً أن سليمان دخل المغرب بعد إدريس قال "وإما إدريس ففرّ إلى بلاد المغرب ودخل إليه في أيامه من

إدريس الأصغر بعد أن ورث ملك أبيه، بشهادة ابن خلدون الذي قال "وورث ملكه أبنة محمد بن سليمان على سننه، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه".^(٥٦)

رابعاً: مواطن ومراكز إمارات بني سليمان

١/٤ - المجال الجغرافي:

ليس من السهل تحديد الإطار الجغرافي لأي دولة، أو إمارة ما خلال العصور الوسطى، وعلى الخصوص في بلاد المغرب الإسلامي، إذ لم تكن توجد حدود بالمفهوم العصري، بل كان الولاء القبلي لهذه الدولة أو تلك هو معيار تحديد الحدود، وكما هو معروف فإن القبائل كان ولاؤها غير مستقر لدولة معينة، كما أنه لم تكن هناك وثيقة إثبات انتماء الشخص للدولة، فالمسلم كان ينتقل بكل حرية ولا يشعر بأنه انتقل من هذه الدولة إلى تلك الدولة، والجنسية العصرية لم تكن معروفة آنذاك. كان الشائع في هذه الفترة هو الانتماء للقبيلة أو المدينة كأن تقول فلان المغراوي، وفلان الصنهاجي، أو فلان التاهرتي، وفلان التنسي، ولم يكن لفظ الانتماء للدولة مستعملاً وعموماً كانت هذه الظاهرة عامة ولم تقتصر على جهة من الجهات. هذه القاعدة لم تُستثنى منها الإمارات السليمانية، وعلى الرغم من صعوبة ضبط الحدود فإننا سنحاول قدر الإمكان وضعها في حيزها الجغرافي، اعتماداً على المصادر المستعملة في هذا البحث. وعليه فإن هذه الإمارات كانت محاطة بين الدولة الإدريسية^(٥٧) في المغرب الأقصى، والدولة الرُستمية^(٥٨) في الجنوب وقليلًا في الشرق، والإمارات العلوية غير السليمانية^(٥٩)، واقعة في بعض الأجزاء الشرقية منها مع وجود أجزاء من الدولة الأغلبية في الشرق.

من الناحية الشمالية كان حدّها الطبيعي البحر الرومي^(٦٠)، ومن الجهات الشرقية فيمكن اعتبار واد الشلف^(٦١) حاجزاً بين الأغلبة والإمارات السليمانية، وإن كانت غير ثابتة بسبب تردّي الأوضاع هناك خاصة في بداية تكوينها؛ أما في جهاتها الغربية كانت توجد الإمارات الإدريسية، وإمارة نكور^(٦٢) - على الساحل - وآخر مملكة بني محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مدينة فالوس^(٦٣)... ثم بعد مملكة بني محمد بن سليمان مملكة رجل يقال له صالح بن سعيد^(٦٤). كان الحد الطبيعي بين بني سليمان والأدارسة واد ملوية، "يقع إلى واد صاع ويصبان جميعاً إلى البحر بين جراوة أبي العيش ومليلة"^(٦٥)، إذ أن جراوة كانت آخر ممالك السليمانيين في الشمال الغربي، وفي جنوبها على الخط نفسه كانت مدينة نمالتة المعروفة اليوم باسم مدينة مغنية^(٦٦)، وكانت على بعد مرحلة من فاس كانت لأحد أبناء محمد بن سليمان وهو محمد بن علي بن محمد بن سليمان^(٦٧). أما حدودها مع الدولة الرستمية فيبدو أنها كانت بينهما إمارات خارجة عن الرستميين، "فمن مدينة تاهرت إلى رجل من هواره يقال له ابن مسالة^(٦٨)، إلى مملكة لبني محمد بن

الطالبيين أخوه سليمان فاحتل تلمسان"^(٥٣)، بينما البكري لا يفسح عن موقفه صراحة عن قدوم سليمان إلى تلمسان بل يشير إلى ابنه، "ونزلها محمد بن سليمان...". من خلال هذا العرض عن موقف الفريقين حول إشكالية نزول سليمان تلمسان من عدمه؛ نرجح فرضية دخول سليمان بن عبد الله المغرب الأوسط واستقراره في تلمسان، مستندين في ذلك على مجموعة من القرائن:

أولى القرائن أن الذين ينفون مجيئه إلى المغرب مختلفون في روايتهم منهم من يقول قطعت رأسه في موقع المعركة في فخ، ومنهم من يقول أسر ثم قتل في مكة، ويبدو لي أن أغلبهم اعتمد على رواية الطبري، وأشير هنا أيضاً إلى الاختلاف في اسم المقتول بين رواية الطبري، ورواية ابن الأثير، حيث أنهما اتفقا حول متن نفس الرواية واختلفا حول اسم المقتول ما يجعلنا نشك في صحة الرواية أصلاً.

والقرينة الثانية هي أن الذين يقرون بموته في فخ هم أصحاب المصادر المشرقية، بينما الذين يرون عكس ذلك هم أصحاب المصادر المغربية، وهم أقرب إلى الحقيقة، وحسب وجهة نظري أنه شاع مقتله احترازاً من الملاحقة والبحث عنه تطبيقاً لما يسمى بالتقية.

القرينة الثالثة هي وجود قبره بعين الحوت التي اتخذها مقراً له، فمن غير المعقول ينسب هذا القبر لشخص دون وجود مبرراً لذلك، يقول الشاعر تأكيداً على ذلك^(٥٤)

خَلَّفَ سِتَّةَ مِنَ الذُّكُورِ عَبْدُ اللَّهِ الْكَامِلُ فِي الْمَشْهُورِ
فَجَعَلَ بِجَزِيرَةِ سُوسٍ وَرَزَّهُونَ فِيهِ مَوْلَانَا إِدْرِيسَ
وَنَالَتْهُمْ مَوْلَايَ سُلَيْمَانَ فَقَبَّلَاهُ فِي ثُغُورِ تِلْمَسَانَ
وَفِي الْيَبُوعِ مَوْلَانَا مُحَمَّدٌ مَوْلَايَ مُوسَى فِي بِلَادِ الْهِنْدِ بَدَا

إذا كنا قد رجّحنا فكرة فرار سليمان بن عبد الله واستقراره في تلمسان، وجب علينا الإجابة على مجموعة من التساؤلات والتي عليها استند البعض^(٥٥) لنفي قدوم سليمان تلمسان، وهي لماذا لم يتولى سليمان الأمر بعد مقتل إدريس الأكبر؟ ولماذا لم يتكفل بابن أخيه بعد ولادته وتركه تحت رعاية راشد؟ وعندما دخل إدريس الأصغر تلمسان لماذا لم يعقد له لولاية تلمسان؟ نحن نقول إضافة إلى القرائن السابقة الذكر فإن سليمان قد فرّ إلى تاهرت بعد مقتل أخيه خوفاً من تصفيته هو الآخر لأن تاهرت في هذه الفترة كانت تحت حكم الرستميين أعداء العباسيين لكنه عاد إلى تلمسان لما استنكره البربر وبحث عنه الأغلبة، وقد يكون قد مات قبل مجيء ابن أخيه إلى تلمسان لهذا وجدنا إدريس الأصغر سجل ولاية تلمسان لمحمد بن سليمان، وكيف يعقل وجود ابنه في تلمسان الذي لم ينفية أحد؟ فكيف وصل محمد بن سليمان إلى تلمسان دون أبيه؟ ومهما يكن من أمر؛ فإن ولاية تلمسان آلت لمحمد بن سليمان زمن

الحسن بن الحسن بن علي "رضي الله عنهم" وذلك في صفر (١٧٤هـ / ٧٩٠م).^(٨٦)

لم يكتف إدريس بضم تلمسان بل اتّبع سياسة الغزو المسلح في نواحي تلمسان حتى وصل إلى واد شلف، وكانت رغبته في التوسع ومد نفوذه على كل المغرب الأوسط^(٨٧)؛ ويُحْتَمَل إلينا أن تلمسان كانت تتمتع بمكانة هامة، لأن خضوعها لسيادة الأدارسة أثار حفيظة الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ) فقد ورد عنه أنه قال: "فتح مدينة تلمسان وهو باب إفريقية... ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار"^(٨٨)، ونتيجة للانتصارات التي حققها إدريس الأكبر في المنطقة زرع الخوف في قلوب العباسيين فما كان عليهم إلا التفكير في القضاء عليه، كان من الصعب بعث جيش من بغداد إلى المغرب الأقصى فأشير إليه باغتياله فتم ذلك على يد الشماخ صاحب مكيدة السم.^(٨٩) تعوزنا المعلومات حول ما حدث في تلمسان بعد أن خرج منها إدريس (١٧٤هـ / ٧٩٠م) إلى عودة ابنه إدريس إليها سنة (١٩٩هـ / ٨١٤م)، فالمصادر لم تذكر ما حدث فيها في هذه الفترة ما يجعلنا نطرح عدة تساؤلات، هل بقيت القبائل الزناتية على ولائها للعلويين؟ أم عادت لخارجيتها؟ ومَنْ كان يحكم تلمسان؟ سليمان أم ابنه محمد؟

عندما خرج إدريس من تلمسان عائداً إلى فاس من الطبيعي أن يكون قد عقد لأحد عليها، فإذا استندنا إلى نصين لابن خلدون فان الولاية عليها كانت لأخيه سليمان "سجل له بولاية تلمسان"^(٩٠) وفي موضع آخر يقول "وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله فنزلها وولاه أمرها"^(٩١)، فالنصين صريحين في إثبات ولاية تلمسان لسليمان من طرف أخيه إدريس. ويمكن أن يكون قد خرج منها أثر مقتل أخيه إدريس ثم التحق بها مرة أخرى فملكها وأدعت له زناتة وسائر قبائل البربر هناك. ورث ملك سليمان ابنه الوحيد محمد^(٩٢)، غير أننا لا نعرف متى حدث ذلك، لكن المؤكد كان قبل (١٩٩هـ / ٨١٤م)، لأن في هذه السنة دخل إدريس الأصغر تلمسان، وهذا استناداً إلى صاحب الإستقصا حيث يقول: "بعد أن فتح بلاد المصامدة عاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة تسع وتسعين ومائة، فخرج في محرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط، ومَنْ بقي هناك على دين الخارجية بين البربر فسار حتى غلب عليهم، ودخل مدينة تلمسان فنظر في أحوالها وأصلح سورها، وجامعها"^(٩٣).

أما ابن خلدون، فلم يذكر سنة دخول إدريس الثاني تلمسان ولكن يجعله بعد (١٩٧هـ / ٨١٢م)، يقول "ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبعة وتسعين، فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته، ثم غزا تلمسان وجدّد مسجدها وأصلح منبرها وقام بها ثلاث سنين"^(٩٤). السؤال الذي يمكن طرحه بعد قراءة النصين هو لماذا غزا إدريس الأصغر تلمسان؟ فهل خرجت عن حكم الأدارسة بعد موت أبيه؟ وهل كان يهدف إلى التوسع أم كان بطلب من محمد

سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن^(٩٥)، وكانت مملكة أخرى للبربر تدعى مطماطة ينتشر سكانها في عدة مدن بعضهم في مدينة يقال لها ايزرج^(٩٦)، تحت إمرة رجل يدعى إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي^(٩٧)، ومدينة أخرى أيضاً لهم تسمى الحسنة يملكها رجل منهم يُقال له عبد الله.^(٩٨)

٢/٤ - إمارة تلمسان:

ظلت تلمسان داراً للقبائل الزناتية ومن أشهرها أيام الفتح الإسلامي^(٩٩) بنو يفرن، هذه القبيلة التي يرجع إليها الفضل في تأسيس أقدم مملكة^(١٠٠) في تلمسان بالمكان المسمى أغادير^(١٠١)، وكان رئيسهم لهذا العهد أبو قرة اليفريني وكانوا على المذهب الخارجي الصفري^(١٠٢)، وكانت لهم مشاركات في ثوراتهم الخارجية ضد الولاة إلى جانب خالد بن حميد الزناتي، وبعد مقتل هذا الأخير ترأس القبائل الزناتية أبو قرة اليفريني الذي قاد الانتفاضة الخارجية في تلمسان سنة (١٤٨هـ / ٧٦٥م)، وكانت قبيلة مغراوة وهي أوسع بطون زناتة كان موطنها من شلف إلى تلمسان^(١٠٣)، نافست بنو يفرن على الزعامة ومن أشهر شيوخها صولات بن وزمان الذي زار المدينة المنورة أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان قد عقد له على قومه^(١٠٤)، وبعدما هلك تولى إمارة مغراوة ابنه حفص ثم جاء بعده ابنه خزر وبعد وفاته خلفه محمد بن خزر الذي استقام له الأمر وغلب بني يفرن على أغادير وخلال هذه الفترة كان دخول إدريس الأكبر فدخل في طاعته.^(١٠٥)

٢/٤ - ١ - تلمسان تحت الحكم الإدريسي

على الرغم من الغموض والصّباية للذان يكتنفان المنطقة في هذه الفترة التاريخية، فإننا سنحاول استخلاص ما ورد في المصادر من معلومات وإشارات تفيدنا في التوصل إلى نتائج تاريخية. فقد درج المؤرخون والباحثون على اعتبار المنطقة الممتدة من تلمسان وإلى واد شلف خلال الفترة التاريخية من (١٧٣هـ / ٧٨٩م) إلى زمن دخول العبيدين إليها إقليمياً تابعاً للدولة الإدريسية، فإلى أي مدى يعتبر هذا الطرح صحيحاً؟

من الثابت تاريخياً أن إدريس الأكبر زحف إلى تلمسان في منتصف رجب (١٧٣هـ / ٧٨٩م)؛ وكانت تقيم فيها قبائل مغراوة وبني يفرن فعندما انتهى إليها نزل خارجها فخرج إليه صاحبها محمد بن خزر بن صولات المغراوي مستأماً ومبايعاً له، فأمنه إدريس وقبل بيعته ودخل مدينة تلمسان فأمن أهلها ثم آمن سائر القبائل الزناتية فكسب بذلك قاداتها وشيوخها^(١٠٦). إن دخول أهل تلمسان في طاعة إدريس سلماً بل أكثر من ذلك فقد استقبلوه بالترحاب^(١٠٧)، ألا يدل هذا على أن الظروف كانت مهيأة، وأن الكثير من سكانها كانوا على المذهب الزيدي^(١٠٨)، وهذا دليل آخر على تواجد سليمان في تلمسان وهو من قام بالدعوة فيها. مكث إدريس في تلمسان مدة تسعة شهور^(١٠٩) وأول عمل قام به بني مسجدها وأتقنه وضع فيه منبراً وكتب فيه. بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن

على هذا الاستقلال فتجنب الدخول في الحروب والفتن، فأخرج القسبة من أغادير إلى عين الحوت^(١٠٠) ومنها تفرعت الفروع السليمانية^(١٠١)، وخص أبناءه كل واحد بثغر من ثغور المغرب الأوسط تتوارثه أسرته، وخص تلمسان لولي العهد أحمد التي بقيت في أعقابها، وهكذا نراه قد اتبع نفس أسلوب ابن عمه محمد الإدريسي فظل المغرب الأوسط للعلويين السليمانين والمغرب الأقصى للعلويين الإدريسيين إلى أن دخل العبيديون فقضوا عليهم جميعًا.

٣/٤- إمارة أرشكول:

أرشكول إحدى أهم الإمارات السليمانية نظرًا لأهمية موقعها الجغرافي الذي سمح لها بلعب دور فعال في الصراع الفاطمي الأندلسي. ورد ذكرها عند الكثير من المؤرخين والجغرافيين بأسماء مختلفة فهي أرشكول عند ابن خلدون^(١٠٢)، وأرشكول عند البكري^(١٠٣)، وعند ابن عذارى^(١٠٤)، وابن حزم^(١٠٥)، والإدريسي^(١٠٦)، وأرشكوك عند ابن حوقل^(١٠٧)، و أرشغول عند صاحب الاستبصار^(١٠٨)، وهذا الاختلاف يبدو لي يرجع إلى اختلاف الألسنة في نطق بعض الحروف، والشاهد من ذلك أنه لا يزال إلى يومنا هذا في المنطقة المذكورة وما جاورها ينطقون القاف كاف، واليوم تسمى عند أهل المنطقة رشگون.^(١٠٩)

لا نملك تاريخًا محددًا عن بناء مدينة أرشكول ولا عن مَنْ بناها، فهي "مدينة قديمة أزلية فيها آثار قديمة"^(١١٠)، والظاهر أنها كانت موجودة قبل دخول الرومان إلى المنطقة خاصةً وأنها غير بعيدة عن أنقاض سيقا المعروفة اليوم باسم تكمبريت^(١١١). عن موقعها هي على ساحل البحر الرومي بينها وبين البحر نحو ميلين^(١١٢)، ويحدد موقعها حسن الوزان بقوله: "ارشكول مدينة كبيرة قديمة بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب ما عدا الجنوب حيث توجد طريق ينزل من الصخر إلى اليابس وهي واقعة على بعد نحو أربعة عشر ميلا من تلمسان".^(١١٣)

لم نجد في المصادر أدق وصفًا من وصف البكري لها، فقد اعتنى بوصفها من كل الجوانب الاقتصادية والعسكرية والسياسية، نأخذ منه هذا الجزء عن موقعها وجزيرتها "وأرشقون ساحل تلمسان وبين مدينة أرشقون وتلمسان فحص زيدور طوله خمسة وعشرون ميلًا على نهر تافنى يقبل من قبلها ويستدير بشرقيها ليدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة وبينهما ميلان"^(١١٤)، وكان يقابل أرشكول جزيرة غير بعيدة عنها كان يُحصن بها أثناء غزوها، "بينها وبين البر قيد صوت رجل جهير في سكون البحر وهي مستقلة من القبلية إلى الجوف عالية منيعة"^(١١٥)، يستفاد من هذه النصوص تلك الأهمية الجغرافية التي تمتعت بها أرشكول سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية بفضل مرساها، أو من الناحية العسكرية

بن سليمان ؟ تتصور أن وفاة إدريس الأكبر أحدث نوعًا من الفراغ السياسي في المنطقة، ما جعل القبائل -الظاهر أنها خارجية المذهب مثل قبيلة نفزة- تزرع الفوضى والاضطرابات في تلمسان، وبعضها خرج عن طاعة العلويين وبعضها وَّالَ العباسيين، فتعرضت أسوارها للهدم، و ساءت أحوالها؛ لا سيما وأن إدريس الأكبر حينما توفي لم يترك خلفًا له، فابنه إدريس الأصغر كان لا يزال في بطن أمه؛ من هنا جاز لنا القول أن إدريس الأصغر لما شب وبويع بالإمامة، طلبه ابن عمه محمد بن سليمان من أجل دعمه والاستقواء به، وقد أوضح هذا الأمر ابن خلدون في قوله عن إدريس الأصغر "وأقام بها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البربر وزناتة ومحو دعوة الخوارج ومنهم، واقتطع الغربيين عن دعوة العباسيين من لدن الشمس الأقصى إلى شلف".^(٩٥)

٢ (٣/٤) - تلمسان السليمانية

إن المتتبع للتطور التاريخي الحاصل في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين يجد ثغرات تاريخية تطرح عدة تساؤلات، من الصعب إيجاد تفسير أو جواب شاف لها، فخضوع تلمسان للأدارسة خلال عهدي إدريس الأكبر ثم إدريس الأصغر لتصبح بعدها لأبناء محمد بن سليمان جعلنا نتساءل، هل فعلاً كان سليمان ومن بعده ابنه محمد خاضعين لحكم الأدارسة؟ لماذا عرفت تلمسان استقرارًا في الوقت الذي دخل فيه أبناء إدريس صراعًا على السلطة؟ ما سبب حياد بني سليمان في الصراع الذي كان قائما بين الأدارسة في المغرب الأقصى؟ هذه الأسئلة وغيرها تجعلنا نقتر بأن تلمسان في حقيقة الأمر كان ولاؤها للأدارسة شكليًا فقط، فالظاهر أن محمد بن سليمان كان مستقلًا عنهم، ويبدو أنه كان على وفاق مع قبائل بني يفرن ومغراوة اللتين ظلتا وفيتين لبني سليمان. مما لا شك فيه؛ أن سليمان ومن بعده ابنه محمد بن سليمان عملا على استتباب الأمن ونشر السلم، وعدم الدخول في حروب مع الجيران، والشاهد على ذلك أنهما لم يحاولا السطو على منصب الإمامة بعد شغوره بوفاة إدريس الأكبر، ويبدو لي أن ذلك كان ممكنا ففعلتهم تفرض عليهم وجود إمام.^(٩٦)

لقد رأينا كيف عقد إدريس الأكبر لسليمان على تلمسان، والأمر نفسه يتكرر مع إدريس الأصغر، فقبل أن يرحل هذا الأخير إلى فاس عقد^(٩٧) لابن عمه محمد بن سليمان على تلمسان مثل ما فعل أبوه وسجل له بولاية تلمسان من سجل لابنه إدريس لمحمد ابن عمه سليمان من بعده. وهكذا يمكن القول أن تلمسان ظلت إدريسية إلى غاية سنة (٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) إثر وفاة إدريس الأصغر، حيث تم تقسيم الدولة الإدريسية بين أبنائه^(٩٨)، وذلك بأمر من كنزة أم إدريس الأصغر، التي أشارت على محمد بن إدريس بتقسيم البلاد مع إخوته،^(٩٩) وبقيت تلمسان في أيدي بني سليمان مستقلين عن الأدارسة. حافظ محمد بن سليمان

بفضل حصانتها فلجأ إليها آل سليمان أثناء المحن التي أصابتهم بعد دخول العبيديين بلاد المغرب.

تعاقب على حكم هذه الإمارة أربعة أمراء سليمانيين، وهم عيسى بن محمد بن سليمان^(١١٦)، يقول البكري "ونزلها عيسى بن محمد بن سليمان المذكور قبل هذا ووليها وتوفي فيها سنة خمس وتسعين ومائتين^(١١٧)، ثم توارث ملكه أبناؤه من بعده إلى أن أخرجهم منها العبيديون، فخلفه ابنه إبراهيم المدعو إبراهيم الارشكولي سنة (٢٩٥هـ/٩٠٧م)^(١١٨)، ووليها بعده ابنه إدريس بن إبراهيم الذي كان معارضاً للتواجد الفاطمي في المنطقة ودعا لأموي الأندلس سنة (٣١٦هـ/٩٢٨م)^(١١٩)، وخلفه من بعده أخوه يحيى بن إبراهيم وهو الذي حبسه أبو عبد الله الشيعي سنة (٣٢٣هـ/٩٣٤م).^(١٢٠)

٤/٤ - إمارة جراوة:

جراوه اسم لمدينة كانت مقرّاً إمارة لبني سليمان وهو مأخوذ من اسم لقبيلة زناتية، "وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس^(١٢١) وهذه القبيلة هي التي كانت تقاوم الفاتحين في البداية، وكانت رياستهم للكهنة داهيا"^(١٢٢) ويبدو أنهم تفرقوا بعد انكسار شوكتهم إثر الانهزام الذي منيت به الكهنة على يد المسلمين، فانتقلت بعض فروعهما إلى الجهات الغربية. والمدينة كانت تقع في الجهة الشمالية الشرقية من المغرب الأوسط، وهي آخر الإمارات السلیمانية على الحدود مع إمارة نكور على مقربة من وادي ملوية، يؤكد هذا ابن حوقل "ووادي ملوية يقع إلى وادي صاع ويصبان جميعاً إلى البحر ما بين جراوة أبي العيش ومليلة"^(١٢٣) لكن ياقوت الحموي في تعريفه لها يضع لها موضع آخر بين قسنطينة وقلعة بن حماد فيما أن يكون قد أخطأ، أو أنه موضع آخر كان يحمل الاسم نفسه، أو أنه يتحدث عن موضع قبيلة جراوة القديم.

عندما بحثنا عن تأسيس مدينة جراوة وجدنا طرحين مختلفين حول مَنْ أسسها، فابن خلدون عبد الرحمن يقول "وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان ثم لابنه عيسى وكنيته^(١٢٤) أبو العيش"^(١٢٥)، ويوافقه في ذلك عبدا لله التنسي، "ففرّق محمد بنيه على أعماله فأقام ابنه عيسى بأرشكول، وأقام ابنه إدريس بجراوة"^(١٢٦)، بينما يرى البكري أن مدينة جراوة أسسها أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن سنة تسع وخمسين ومائتين^(١٢٧)، والرأي نفسه يشير إليه ابن عذاري المراكشي لكنه يخالفه في سنة التأسيس يقول "أسسها أبو العيش عيسى ابن إدريس سنة ٢٥٨هـ"، ونجد الزركلي صاحب الأعلام عند ترجمته لعيسى أبو العيش يقول "بني مدينة جراوة وتولى إمارتها وتوفي بها"^(١٢٨)، والرأي نفسه عند ابن حزم عندما يذكر أولاد سليمان ينسب تأسيس جراوة إلى عيسى^(١٢٩)؛ إذا أخذنا بصحة جميع النصوص المذكورة، فإنه يمكن أن نتصور أن إدريس بن محمد بن سليمان

تولى إمارة جراوة وكانت موضعاً صغيراً، ولما خلفه ابنه عيسى أبو العيش بني المدينة من جديد وأقام أسوارها، وبذلك نسبت إليه، وإما أنها تعرضت للهدم لسبب ما ثم أعاد بنائها أبو العيش. مهما يكن من أمر؛ فقد تعاقب على إمارتها ثلاثة أمراء وهم إدريس بن محمد بن سليمان، ثم خلفه ابنه عيسى المكنى أبو العيش سنة (٢٥٨هـ/٨٧١م)، حيث فاقت مدة حكمه فيها ثلاثاً وثلاثين سنة، وبعد وفاته ورثه ابنه الحسن بن أبي العيش سنة (٢٩١هـ/٩٠٣م)^(١٣٠)، وبقي فيها إلى أن داهمه موسى بن أبي العافية - كان موالياً للعبيدين- وحاصره فأخرجه وأخذها منه سنة (٣١٩هـ/٩٣١م)^(١٣١)، فظل يتنقل ما بين تلمسان وأرشكول التي تحصن فيها إلى أن قبض عليه موسى البوري بن موسى بن أبي العافية وأرسله إلى الأندلس سنة (٣٣٨هـ/٩٤٩م).^(١٣٢)

٤/٥ - إمارة تنس:

قامت في مدينة تنس إمارة لبني سليمان، وهذه المدينة تعتبر من بين المدن القديمة في المغرب الأوسط، إذ أنها كانت مستودعاً تجارياً أيام القرطاجين، وأقام الرومان مكانه مدينة (كارطيناس) - كارت تنس^(١٣٣)، ومنها جاء الاسم المتداول حتى الآن، وهي على مقربة من ضفة البحر على ميلين منه، وبعضها على جبل، وقد أحاط به السور وبعضها في سهل الأرض وهي مدينة قديمة أزيلت على سور حصين^(١٣٤)، ويمكن الاستفادة من البكري كثيراً فهو الوحيد الذي يعطينا صورة واضحة عن بنائها من طرف الأندلسيين على عهد بني سليمان، يقول "وهذه تنس الحديثة أسسها البحريون من أهل الأندلس منهم الكركري، وأبو عائشة الصقر، وصهيب، وغيرهم وذلك سنة (٢٦٢هـ/٨٧٥م) ويسكنها من أهل الأندلس البيرة وأهل تدمير"^(١٣٥)

الظاهر أن المدينة كانت موجودة من قبل، أما الأندلسيون فقد قاموا ببناء أخرى محاذية لها باعتبار أنها كانت تابعة لبني سليمان، "وأصحاب تنس من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين ابن علي رضي"^(١٣٦) وحسب البكري دائماً فإن سبب بناء تنس الحديثة من طرف الأندلسيين، كان بطلب من البربر حيث منحوهم القلعة وسألوهم أن يتخذوها سوفاً ويجعلوها سكنى^(١٣٧)، ثم بعد ذلك تركها الأندلسيون واتجهوا إلى موضع ببجاية، "ثم أن الباقيين في تنس لم يزلوا في تزايد ثروته وعدد"^(١٣٨). ظلت تنس في يد بني سليمان منذ أن ملكها إبراهيم بن محمد بن سليمان^(١٣٩)، ثم توارث حكمها أبناءه من بعده ومنهم القاسم بن إبراهيم بن محمد وكان منحاشاً إلى الناصر في الأندلس أيام العبيديين،^(١٤٠) إلى أن سقطت وتغلب عليها زيري بن مناد سنة (٣٤٢هـ/٩٥٣م)^(١٤١)، ولهذا تكون تنس آخر إمارة للسلیمانيين تسقط على الرغم من محاولة أحد أحفاد سليمان، وهو يحيى بن علي بن يحيى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن سليمان المطالبة بها لكنه لم يضر بها.^(١٤٢)

٤/٦- قرى ومدن أعمال الإمارات السليمانية:

إذا كانت تلمسان، وارشكول، وجراوة، وتنس من أهم وأكبر الإمارات السليمانية في المغرب الأوسط، فقد وجدت من حولها أربضا ومدناً كثيرة تابعة لها ويرجع الفضل في معرفة هذه الإمارات، والاطلاع على أمرائها إلى اليعقوبي الذي زار المغرب بين سنة (٢٦٣هـ/٨٧٦م) و (٢٧٦هـ/٨٨٩م)، ومعظمها كانت في الجهة الشرقية^(١٤٣) من تلمسان، في الوقت الذي أهمل الحديث عن تلك الموجودة على الساحل وفي غرب تلمسان التي انفرد بذكرها البكري. فأولى هذه المدن مدينة مذكرة^(١٤٤) المجاورة لإمارة متيجة، "فيها ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب"^(١٤٥)، ومدينة الخضراء على نهر ولها فواكه وسوان ومنها إلى مليانة مرحلة^(١٤٦)، "ويتصل بهذه مدن كثيرة، وحصون وقرى ومزارع، يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية، وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم وينسب إليهم"^(١٤٧)، وآخر المدن التي كانت في أيديهم في هذه الناحية المدينة التي تقرب من ساحل البحر، يقال لها سوق إبراهيم، وهي المدينة المشهورة فيها رجل يقال له عيسى بن إبراهيم ابن محمد^(١٤٨) بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين^(١٤٩)، وهي مدينة صغيرة فيها حمام وسوق وهي على نهر شلف.^(١٥٠)

ويضيف لنا ابن حوقل مدينة أخرى تسمى بني واريغن على نهر الشلف أيضاً، "قرية أزلية لها كروم وسوان كثيرة"^(١٥١)، وعلى الطريق بين تيارت وتلمسان ثمنطلاس^(١٥٢)؛ وفي الجهة الغربية والشمالية لتلمسان جاء ذكر عدة مدن وقرى كانت أعمال الإمارات السليمانية من أشهرها، مدينة العلويين^(١٥٣)، كانت تحت إمرة ولد من أولاد محمد بن سليمان ثم تركوها، وسكنها رجل من زناتة يقال له علي بن حامد بن مرحوم الزناتي^(١٥٤)، ويضيف لنا مدينتين تحملان الاسم نفسه، فواحدة يقول عنها "... ومنها إلى العلويين وهي قرية على نهر يأتيتها من القبلة ومنها إلى تلمسان مرحلة لطيفة وهي مدينة ازيلة"^(١٥٥)، والثانية وهي أيضاً قرية تعرف بالعلويين وهي قرية عظيمة أهلة على نهر ولها أجنة وعيون^(١٥٦)؛ و قرية أخرى تبعد مقدار مرحلة عن قرية العلويين الثانية تسمى تاتانلوت^(١٥٧). ومن المدن المشهورة أيضاً مدينة نمالته^(١٥٨)، فيها محمد بن علي بن محمد بن سليمان، وآخر ممالك بني سليمان^(١٥٩)، ومدينة فالوسن^(١٦٠)، وهي مدينة عظيمة أهلها بطون البربر من مطماطة، وجزولة، وصنهاية^(١٦١)، وأفادنا البكري بمدينة أخرى تدعى ترنانا، كان بها عبد الله الترناي بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب "رضي الله عنه"^(١٦٢) وقد يكون ابن حوقل أيضاً ذكرها لكن باسم ترفانة^(١٦٣)، وذكر سيد علي

حشلاف قرية كانت تدعى بيدر،^(١٦٤) يقول نزلها حمزة بن إدريس بن محمد بن سليمان.^(١٦٥)

خاتمة

ختاماً لهذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى مجموعة من النقاط منها:

- إن التاريخ الوسيط ولا سيما القرون الأولى منه لم تستوف حقها من الدراسة، وأن كثيراً من الثغرات لازال يكتنفها الغموض، وبحاجة لإعادة الدراسة، فإن إمارات بني سليمان لم تحظ باهتمام الدارسين كغيرها من دول زمانها على الرغم من استحوادها على مساحة واسعة من بلاد المغرب الأوسط.
- كان سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه من الفارين من وقعة فخ، واستطاع الوصول إلى تلمسان زمن أخوه إدريس فاستوطنها وأنجب بها ذرية حكمت تلمسان والساحل الغربي للمغرب الأوسط.
- كانت الإمارات السليمانية في بعض مدن غرب المغرب الأوسط، أهمها تلمسان، ارشكول، جراوة، تنس إضافة إلى قرها وأقاليمها، محصورة بين الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى، والدولة الرستمية في الجنوب وقيلاً في الشرق، والإمارات العلوية غير السليمانية، في بعض الأجزاء الشرقية منها مع وجود أجزاء من الدولة الأغلبية في الشرق.
- كان بنو سليمان مستقلين بإمارتهم في المغرب الأوسط، فضربوا نقودهم بأسمائهم، وتعاقدوا مع الحكام بوصفهم أمراء، ولم يكونوا تحت حكم الإدارة عكس ما يدعيه البعض، بأن الدولة الإدريسية وصلت إلى واد الشلف.
- كان جزء من المغرب الأوسط تحت التفوذ الإدريسي إلى أن توفي إدريس الثاني سنة (٢١٣هـ/٨٢٨م)، ومنذ هذا التاريخ أصبح بنو سليمان مستقلين عن الإدارة، فحافظت كل أسرة من الأسر السليمانية على الحكم متوارثاً في ذريتها دون أن تعتدي واحدة على الأخرى، ولم يكن لهم سلطة كاملة على المناطق التي كانت تحت نفوذهم، بل غلب عليها الطابع الروحي، بينما مارس زعماء البربر كامل سلطاتهم لا سيما العسكرية.

- (٢٢) ابن الأثير عز الدين، **الكامل في التاريخ**، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ج٥، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٨، ص٢٦٦.
- (٢٣) السلاوي الناصري، **المصدر السابق**، ج١، ص٦٦.
- (٢٤) ابن الأثير عز الدين، **المصدر السابق**، ص١٦٧؛ السلاوي الناصري، **المصدر السابق**، ج١، ص٦٦.
- (٢٥) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج٣، ص٢٧١.
- (٢٦) الطبري محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٨، دار المعارف بمصر، ط٢، د. ت، ص١٩٧؛ السلاوي الناصري، **الاستقصا**، ج١، ص٦٦.
- (٢٧) ابن عذاري المراكشي، ج٤، ص٢١٠.
- (٢٨) ابن أبي الزرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق كارل يوجن، دار الطباعة المدرسية، أو بسالة، ١٨٤٣، ص٨.
- (٢٩) وليلي مدينة في المغرب بالقرب من طنجة دخلها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن علق سنة ١٧٢، (ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٨٢)؛ وليلي قاعدة جبل زهون كانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغرس؛ (السلاوي الناصري، **المصدر السابق**، ج١، ص٧٢).
- (٣٠) قبيلة برنسية، أكبرهم عددًا وأشدهم قوة أيام الفتح، وهم من ولد أوروب بن برنس، كانت أيام الفتح بقيادة كسيلة بن لزم الأربي، (ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج٦، ص١٩٢).
- (٣١) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج٤، ص١٧.
- (٣٢) لسان الدين بن الخطيب، **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق مختار العبادي وإبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص١٩٠.
- (٣٣) نفسه، ص٩.
- (٣٤) محمود إسماعيل، **الأداسة**، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ١٩٩١، ص٥٨.
- (٣٥) تلمسان مدينة عظيمة قديمة أزلية تنبئ أنها كانت دار مملكة الأمم السالفة، وهي في سفح جبل أكثر شجره الجوز... ومدينة تلمسان مدينة علم وخير، وكان هذا المغرب الأوسط قد تملكه العلويون؛ (مجهول، **الاستبصار**، ص١٧٦).
- (٣٦) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج٤، ص١٧.
- (٣٧) ابن أبي الزرع، **المصدر السابق**، ص٩؛ السلاوي الناصري، **الاستقصا**، ج١، ص٦٩؛ ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج٧، ص١٠٢.
- (٣٨) أثار هذا المسجد ما زالت باقية إلى يومنا هذا، غير أن عملية البحث والتنقيب متوقفة إلى يوم كتابة هذا البحث.
- (٣٩) ابن أبي الزرع، **المصدر السابق**، ص٨؛ خالد بلعري، **تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية**، الألفية للنشر والتوزيع قسنطينة، الجزائر، ٢٠١١، ص٨١.
- (٤٠) عند ابن الأثير، "وفيها رأس الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي، ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج٥، ص١٦٩.
- (٤١) الطبري، **المصدر السابق**، ج٨، ص١٩٧.
- (٤٢) أبو فرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، تحقيق أحمد صقر، أمير قم، ط٢، د. ت؛ الهامش رقم (٢)، ص٣٦٥.
- (٤٣) نفسه، ص٣٦٥.
- (٤٤) ابن خزم، **المصدر السابق**، ص٣٩.

- (١) ابن خزم الأندلسي، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٤٨، ص٤٨.
- (٢) أبو القاسم الزياني، **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب**، تحقيق رشيد الزاوية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ٢٠٠٨، ص٤٧؛ مجهول، **مفاخر البربر**، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠٠٥، ص١٩٩.
- (٣) عبد الله سيد علي حشلاف، **سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول**، المطبعة التونسية، ١٩٣٩، ص١٩.
- (٤) سعدون عباس نصر الله، **دولة الأدارسة في المغرب**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص٣٣ - ٣٤.
- (٥) عبد الله سيد علي حشلاف، **السابق**، ص١٩.
- (٦) تقي الدين المقرئ، **اتعاظ الحنفا بأخبار أئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق جمال الدين الشيبان، ج١، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦، ص٧٦؛ ابن خزم، **المصدر السابق**، ص٣٣؛ أبو القاسم الزياني، **المصدر السابق**، ص٤٥.
- (٧) **المصدر السابق**، ص٤٦.
- (٨) ابن خزم، **المصدر السابق**، ص٣٤.
- (٩) نفسه، ص٣٦؛ مجهول، **مفاخر البربر**، ص١٩٩؛ تقي الدين المقرئ، **السابق**، ص٩؛ ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج٤، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص٢١٠.
- (١٠) إبراهيم أيوب، **التاريخ العباسي السياسي والحضاري**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ١٩٨٩، ص٣٢.
- (١١) ابن خزم، **المصدر السابق**، ص٣٩٤٠؛ تقي الدين المقرئ، **المصدر السابق**، ص١٠.
- (١٢) الزركلي خير الدين، **الأعلام**، ج٦، دار العلم للملايين، ط١٥، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢، ص١٤٩.
- (١٣) عبد الله سيد علي حشلاف، **المصدر السابق**، ص١١٦.
- (١٤) مجهول، **مفاخر البربر**، ص٢٠.
- (١٥) ابن خزم، **المصدر السابق**، ص٤٦.
- (١٦) محمد بن عبد الله التنسي، **تاريخ الدولة الإدريسية من كتاب نظم الدرّ والعقيان**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الموسوعة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٦٦.
- (١٧) فخ بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وهو واد بمكة وقعت فيه معركة بين الحسين بن علي بن الحسن بن علي مع جيش بني العباس سنة (١٦٩هـ/٧٨٥م). (ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ص٢٣٧).
- (١٨) أخذ العلويون إلى السكنية والهدوء طيلة ربع قرن أملًا في لَمّ الشمل وتنظيم قوتهم، (سعدون عباس نصر الله، **المرجع السابق**، ص٤٣).
- (١٩) كان عامل المدينة وقتها عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، (السلاوي الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج١، ص٦٦).
- (٢٠) ابن خلدون عبد الرحمن، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج٤، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠، ص١٧.
- (٢١) السلاوي الناصري، **المصدر السابق**، ج١، ص٦٦.

- (٧٠) المصدر نفسه، ص ١٤٩.
- (٧١) ابن خردزبه أبي القاسم عبيد الله، **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩، ص ٨٨.
- (٧٢) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٩.
- (٧٣) عن الفتح الإسلامي لتلمسان، يُنظر: (ابن عذاري، **البيان**، ج ١، ص ٢٨).
- (٧٤) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٦، ص ١٠٢.
- (٧٥) أغادير أو أجادير اسم فنيقي الأصل انتقل إلى البربر وتعني بلغة البربر الجرف أو الهضبة، (خالد بلعربي، المرجع السابق، ص ٣٥).
- (٧٦) محمد الطمار، المرجع السابق، ص ٢٧.
- (٧٧) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٧، ص ١٧.
- (٧٨) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٧، ص ١٧.
- (٧٩) محمد الطمار، المرجع السابق، ص ٢٧.
- (٨٠) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٧، ص ١٠٢.
- (٨١) يعتمد ابن خلدون سنة ١٧٣ هـ، بينما صاحب الاستقصا يعتمد سنة ١٧٤ هـ، والظاهر أن ابن خلدون يريد بذلك سنة الدخول بينما يريد صاحب الاستقصا سنة الخروج، (ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ١٧)؛ (السلوي الناصري، **الاستقصا**، ج ١، ص ٦٩).
- (٨٢) ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ١٧.
- (٨٣) السلوي، **الاستقصا**، ج ١، ص ٦٩؛ ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ١٧.
- (٨٤) محمود إسماعيل، **الأدارة**، ص ٦٢.
- (٨٥) محمد الطمار، المرجع السابق، ص ٦٢.
- (٨٦) عبد الهادي التازي، "التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم"، المجلد الرابع، الدولة الإدريسية، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ١٩٨٧، ص ١٥.
- (٨٧) محمود إسماعيل، **الأدارة**، ص ٩٣.
- (٨٨) ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص ١١.
- (٨٩) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٤، ص ١٧.
- (٩٠) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٤.
- (٩١) المصدر نفسه، ص ١٠٢.
- (٩٢) نفسه، ج ٤، ص ٢٣.
- (٩٣) السلوي الناصري، ج ١، ص ٧٤.
- (٩٤) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٤، ص ١٨.
- (٩٥) المصدر نفسه، ص ١٨.
- (٩٦) ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمة**، ص ٢٢٨.
- (٩٧) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٢.
- (٩٨) كان إخوته المستفيدون من التقسيم هم، القاسم، عم، داود، يحيى، أحمد، عبد الله، حمزة، عيسى، (ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص ٢٨).
- (٩٩) عن عملية التقسيم، يُرجع إلى، ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ١٩، (السلوي الناصري، **الاستقصا**، ج ١، ص ٧٥)، ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص ٢٨).
- (١٠٠) عين الحوت حاليًا هي قرية تبعد عن تلمسان بحوالي ١٠ كلم، كانت مقرًا لبني سليمان، ويعتبر سكانها أنهم من الشرفاء ويوجد بها ضريح محمد بن سليمان، (خالد بلعربي، المرجع السابق، ص ٨٩).
- (١٠١) سيد علي حشلاف، المرجع السابق، ص ١١٧.
- (١٠٢) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٤، ص ٢٣.
- (١٠٣) البكري، المصدر السابق، ص ٧٧.
- (١٠٤) ابن عذاري، **البيان**، ج ١، ص ١٥٣.
- (٤٥) أحمد بن محمد بن عبد الله المقرئ، زهرة اخبار في تعريف ال البيت النبي المختار، تحقيق: الشريف ايهاب التركي الشاذلي الادريسي، المطبعة الجديدة، فاس، المغرب الأقصى، ١٣٤٩ هـ، ص ٦١.
- (٤٦) الزركلي، **الأعلام**، ج ٣، ص ١٢٨.
- (٤٧) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٤، ص ٢٣.
- (٤٨) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٧، ص ٣٤.
- (٤٩) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٤، ص ١٧.
- (٥٠) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٧، ص ١٠٢.
- (٥١) ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص ٧.
- (٥٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان**، ج ١، ص ٢١٠.
- (٥٣) المصدر نفسه، ص ٢١٠.
- (٥٤) أحمد بن محمد العشماوي، **السلسلة الوافية والياقوتة الصافية في أساب أهل البيت المطهر**، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، ١٩٦١، ص ٢٤١.
- (٥٥) محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠١١، ص ١٤٢.
- (٥٦) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج ٤، ص ٢٤.
- (٥٧) للمزيد عن تأسيس الدولة الإدريسية، يُرجع إلى: ابن أبي الزرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس**.
- (٥٨) عن تأسيس الدولة الرُستمية يُرجع إلى: ابن الصغير، **أخبار الأئمة الرُستمين**؛ وعيسى الحريري، **الدولة الرُستمية بالمغرب الإسلامي**.
- (٥٩) منها إمارة هاز بنواحي المسيلة، وصاحبها هو لحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأحفاده من بعده؛ وإمارة متيجة أصحابها من الفرع الحسيني، (يهلول سليمان، **الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط**، طبعة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ٢٠١١، ص ١١١، ١١٢).
- (٦٠) اعتمادًا على خريطة، (حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ص ١٠٩).
- (٦١) نهر الشلف نهر في المغرب الأوسط يصب في البحر المتوسط، اعتبر الحد الفاصل بين غرب المغرب الأوسط وشرقه، (خالد بلعربي، المرجع السابق، هامش رقم ٣، ص ٨٨).
- (٦٢) مدينة في المغرب بقرب مدينة مليلة، وهي مدينة كبيرة بينها وبين البحر نحو عشرة أميال وقيل خمسة، منها سعيد بن إدريس ابن صالح الحميري، (الحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص ٥٧٦).
- (٦٣) فالوس هي مدينة ندرومة، الواقعة غرب تلمسان، (محمد لطالبي، **الدولة الأغلبية: التاريخ السياسي**، ترجمة المنجي الصيادي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ص ٦٤٦).
- (٦٤) اليعقوبي، **البلدان**، مطبع بريل، مدينة ليدن، ١٨٩٠، ص ١٤٧.
- (٦٥) ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٩٦، ص ٨٨.
- (٦٦) محمد الطالبين، المرجع السابق، ص ٦٤٦.
- (٦٧) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٦.
- (٦٨) ابن مسالة الهواري أباضي خالف الرُستمين وخرج عنهم وقامت بينهم حروب، للمزيد: (ابن الصغير، **أخبار الأئمة الرُستمين**، تحقيق، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦، ص ٥٢).
- (٦٩) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٩.

عنه آخرون؛ (محمد علي دبور، تاريخ المغرب الكبير، ج ١، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، ٢٠١٠، ص ٤٤٨).

(١٤٤) مذكرة هي مليانة الواقعة شرق شلف؛ محمد الطالب، المرجع السابق، ص ٦٤٥.

(١٤٥) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(١٤٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٩.

(١٤٧) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(١٥٠) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٩.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(١٥٢) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٩.

(١٥٣) المصدر نفسه، ص ١٤٨؛ والعلويين، وقرية صبرة الواقعة على بعد (٤٠) كلم من مدينة تلمسان. (محمد الطالب، المرجع السابق، ص ٦٤٦).

(١٥٤) لم نعث على ترجمة له في المصادر المعتمدة في هذا البحث، والظاهر أنه كان زعيمًا لقبيلة زناتية.

(١٥٥) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٩.

(١٥٦) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(١٥٨) نمالته وهي مدينة مغنية، المدينة الواقعة الحدود الغربية الجزائرية حاليًا، (محمد الطالب، المرجع السابق، ص ٦٤٦).

(١٥٩) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(١٦٠) فالوس هي مدينة ندرومة، الواقعة غرب تلمسان، (محمد الطالب، المرجع السابق، ص ٦٤٦).

(١٦١) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(١٦٢) البكري، المصدر السابق، ص ٨٨.

(١٦٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٩.

(١٦٤) توجد في شمال تلمسان قرية تحمل إلى اليوم التسمية نفسها قد تكون هي المقصودة، وأخرى على ساحلها تحمل الاسم نفسه.

(١٦٥) سيد علي حشلاف، المصدر السابق، ص ١١٧.

(١٠٥) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٤٢.

(١٠٦) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٧٢.

(١٠٧) ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص ٧٩.

(١٠٨) مجهول، الاستبصار، ص ١٣٤.

(١٠٩) كاف تنطق ج معجمه والإدريسي قال كانت تدعى أرشكون، (الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٧٢).

(١١٠) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(١١١) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج ٢، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، هامش، رقم ٢٣، ص ١٦.

(١١٢) مجهول الاستبصار، ص ١٣٤.

(١١٣) حسن الوزان، المصدر السابق، ص ١٦.

(١١٤) البكري، المصدر السابق، ص ٧٧.

(١١٥) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(١١٦) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج ٤، ص ٢٣؛ عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص ٦٦.

(١١٧) البكري، المصدر السابق، ص ٧٨.

(١١٨) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(١١٩) عبد العزيز فيلاي، العلاقات السياسية بين الدولة الاموية في الاندلس ودول المغرب، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، مصر، ١٩٩٩، ص ١٤٥.

(١٢٠) المرجع نفسه، ص ٧٨.

(١٢١) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج ٧، ص ١٢.

(١٢٢) نفسه، ص ١٢.

(١٢٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٨.

(١٢٤) يجب الإشارة هنا إلى ضرورة التفريق بين أبو العيش السليماني وأبو العيش الادريسي.

(١٢٥) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج ٤، ص ٢٣.

(١٢٦) عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص ٦٦.

(١٢٧) البكري، المصدر السابق، ص ١٤٣.

(١٢٨) الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ١٠٠.

(١٢٩) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٤٦.

(١٣٠) ابن عذارى المراكشي، البيان، ص ٤٦.

(١٣١) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(١٣٢) البكري، المصدر السابق، ص ٧٨.

(١٣٣) حسن الوزان، المصدر السابق، ج ٢، هامش رقم ٥٤، ص ٣٥.

(١٣٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٨٣؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٨.

(١٣٥) البكري، المصدر السابق، ص ٦١.

(١٣٦) نفسه، ص ٦١.

(١٣٧) نفسه، ص ٦٢.

(١٣٨) نفسه، ص ٦٢.

(١٣٩) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج ٤، ص ٢٤.

(١٤٠) عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(١٤١) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(١٤٢) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(١٤٣) لقد نفى محمد علي دبور وجود إمارات مستقلة لبني محمد بن سليمان ورأى بأن هذه الرواية من نسج خيال اليعقوبي ثم أخذها

الكتابة التاريخية في المغرب الأوسط البداية، التطور، أنواع الكتابات

سمير مزروع

أستاذ مشارك تاريخ وحضارة المغرب الأوسط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد- الجمهورية الجزائرية



ملخص

يتعلق موضوع هذه الدراسة بتطور الكتابة التاريخية في المغرب الأوسط، فمن المسلم به أنّ بداية الكتابة هي من المقدمات الأولى والإشارة الفعلية لبداية تأسيس وتشكل الحضارة، إذ أنّ الكتابة هي أكبر خطوة خطاها الإنسان في نقل نفسه من البدائية إلى المدنية، فليس بوسعه أن يكون متمدنا إلا بالكتابة، ولهذا ارتأينا أن نكشف الثقب والستار عن البدايات الأولى لفن الكتابة العلمية كباب من أبواب تدوين الأحداث والوقائع، والدوافع التي حفزت الرواة والكتّاب والمؤرخين في تناقل هذا الإرث الحضاري ومحاولة الرقي به وتنقيحه، من خلال ذلك التلاقح الحاصل بين العلوم والعقول والأفكار، وإبراز المراحل التي مرت بها وانتقالها من حضارة إلى أخرى، ثم نحاول أن نعطي بعض أنواع الكتابات التاريخية التي نُقلت إلينا وحاولنا تصنيفها حسب دلالاتها التاريخية، ونستدرك ما قدمته للدول المستقلة التي عاشت في الإطار الجغرافي للمغرب الأوسط.

كلمات مفتاحية:

التحويين التاريخي، الدولة الرستمية، الدولة الحمادية، الدولة
الموحدية، الدولة الزيانية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣٠ سبتمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٥ فبراير ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سمير مزروع، "الكتابة التاريخية في المغرب الأوسط: البداية، التطور، أنواع الكتابات"، - دورية كان التاريخية، - العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ١٤٨ - ١٥٦.

مقدمة

بأيدنا إلى أعماق نفوس مؤرخي العصر الوسيط، رغبة في كشف الكثير من الأسرار حول زمان أسلافنا.
فمن خلال هذا الموضوع تُصادف الباحث الكثير من التساؤلات مفادها:
١. ما هي أسباب ضعف الكتابة التاريخية في المغرب الأوسط؟
٢. ما هي الأسباب التي كانت وراء ظهور حركة التأليف في هذا الإطار الجغرافي؟
٣. كيف ظهرت الكتابة التاريخية وما هي مراحل تطورها؟
٤. كيف استطاعت الكتابة التاريخية أن تفيد تاريخ المغرب الأوسط؟

أسئلة يستطيع الباحث من خلالها التعرف على حيثيات ووقائع الكتابة التاريخية، والمحيط الذي نمت وترعرعت فيه،

إنّ هذا البحث الذي بين أيدينا لا يقلّ أهميّة عن سابقه من المواضيع، إذ أننا حاولنا من خلاله تقديم ملخص نسبي، يمكن الطالب الدارس الخروج بحوصلة عامة، حول موضوع تعلق مضمونه بتاريخنا وتاريخ من سبقنا في هذا الإطار الجغرافي الشاسع؛ ألا وهو المغرب الأوسط، الذي كان في وقت ما مركزاً للحضارات ومهداً للعلوم وطريقاً للتجار ومصدر عيش للكثير من القبائل العشائر والدول المستقلة، وقد أدرجنا الموضوع تحت عنوان "الكتابة التاريخية في المغرب الأوسط"، ولم يكن اختياره بمجرد الصدفة وإنما لأهميته البالغة في العودة بالزمن إلى الوراء وتقصي الأسباب وراء الكتابات التاريخية التي وصلتنا، ومعرفة جوهرها بالنسبة لنا في معرفة ظروف وملابسات تدوينها و الأخذ

شهدت بداية التدوين التاريخي. حاولت أن تسن سياسة تعايش سلمي مع الجماعات المتصارعة الممثلة في الفرق الإسلامية، وذلك بإدماجها في حظيرة الدولة وتغطية التناقضات الاجتماعية.^(٨)

- محاولة معالجة الأنظمة المالية والتاريخ لها وظبطها في المغرب الإسلامي، وقد ظهرت نتيجة ذلك كتب الفتوح للواقدي وابن عبد الحكم والبلاذري، وتفسير أسباب العطاء والزكاة والجزية والثقة، وقد ظهر نتيجة ذلك كتب الخراج، إضافة إلى البحث في الحياة الاجتماعية وكل مستجداتهم في إطار الدولة التي يعيشون فيها، فمراعاة أحوالهم تستوجب منهم وصف طريقة عيشهم وتفاعلاتهم مع بعضهم البعض وتقنين معاملاتهم^(٩) وجاءت نتيجة ذلك كتب التوازل التي تضمنت معلومات دقيقة عن الحياة اليومية، كالعلاقات الأسرية والاجتماعية والحياة داخل الأسواق وأعمال التكافل الاجتماعي من بر وأوقاف وصدقات، وأوبئة وأمراض ومواسم الجفاف وفيضانات وغير ذلك من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.^(١٠)

من أهم الأسباب التي ساعدت على ظهور التدوين التاريخي؛ هو حبّ الاطلاع على أصول المجتمعات والقبايل وطريقة توزيعها في أنحاء البلدان، من خلال البحث في الأنساب وتحديد كفيّة انتقالها وانصهارها مع أنساب أخرى، وطالما كانت كتب الأنساب شكلا من أشكال الرواية الشفهية وشكلا من أشكال التعبير التاريخي الذي يسجل إطار التكوين القبلي، ويفصل في ذكر القبائل والبطون والأفخاذ والعشائر، فقد خصّصت لهذا الجانب كتباً خاصة تعتني به وتلقح باقي روافد الكتابة التاريخية، ولذلك ظهرت الكثير من كتب الأنساب مثل كتاب "الأنساب" للسمعاني (ت. ٥٦٢هـ). وقد نضيف في الأخير إضافة إلى العوامل المساعدة على بداية التدوين التاريخي، مادة أعانت من نقل التدوين الفكري والتاريخي في جملته من الذاكرة إلى الشكل المكتوب، وهذه المادة هي الورق الذي عرفت صناعته في العالم الإسلامي منذ أوائل القرن الثاني للهجرة، وما من شك أنّ حركة التدوين التاريخي أتت ثمارها في تثبيت الفكر والثقافة بمعرفة الورق.^(١١)

٢/١ - بداية الكتابة التاريخية:

إذا كانت مهمة البحث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر تبدو يسيرة إلى حدّ ما بفعل وفرة وحضور الوثائق التي تحويها الخزانات والمكتبات ودور الأرشيف، فإنّ وثائق تاريخنا الوسيط عسيرة وصعبة المنال وذلك أنّها قد اندثرت وطواها الزمن، إمّا تفريطاً ممّا أو تمّ طمسها بفعل حساسيات سياسية ومذهبية، أو بدافع المصالح الشخصية^(١٢) وحتى المصادر التي وصلتنا، فنوعيتها وطريقة عرضها للحوادث لا تمكّننا من وضع أيدينا على

وماهي الإفرازات العلمية والثقافية والحضارية التي قدّمها لنا، فإذا سلّمنا بأنّ ظهور علم التاريخ في المغرب الإسلامي عموماً كان في القرن الثالث للهجرة وأنّ المؤرخين المغاربة استلهموا كتابته من المؤرخين المشارقة، وأنهم حملوا على عاتقهم مهمة التاريخ لبلدانهم ودولهم فإنّ أي مدى يصدق هذا الرأى؟

أولاً: الكتابة التاريخية بين الميلاد والتطور

١/١ - دوافع الكتابة التاريخية:

١ (١/١) - الحاجة الفكرية (الروحية والثقافية):

لا يمكننا التحدّث عن أسباب ظهور بداية الكتابة التاريخية في المغرب الأوسط بمعزل عن الأمة الإسلامية جمعاء، إذ أنّ الإسلام جمع بين معتنقيه ومريديه، فلو نظرنا نظرة تأملية في ديننا لوجدناه ديناً تاريخي الروح، يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة^(١) إذ كان القرآن - بما يتضمّنه - تأييداً لما كان يعتبر تاريخياً، بفضل دعوته إلى الاهتمام بالتاريخ ومعرفة أخبار الأمم السابقة^(٢) مثلاً كقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٣) وقوله تعالى: وقوله ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْدِينِ﴾^(٤) ومن هنا كانت معرفة الماضي نافذة للإطلاع على الماضي وكشفا للمستقبل، وبالمقابل فقد ظهرت في العالم دولة إسلامية كبرى غيّرت مسيرتها التاريخية والسياسية بفتوحها، وإنّ هذه الأحداث لابدّ أن تشدّ الأنظار، لاسيما في أوساط الشعوب المهزومة ممّا يدفعها إلى التحليل والتعليق ووصف الأخبار، وهنا ظهرت ما تسمى بكتب الفتوح ومهما حاولنا تقصي العوامل النفسية أو الدينية وراء ظهور الكتابة التاريخية فإنّنا لا نستطيع أن نغفل وجود الرغبة العلمية الخالصة أيضاً بين تلك العوامل، وهي بدورها حاجة فكرية إنسانية نجدها عند الكثير من المؤرخين والرحالة الجغرافيين، الذين كتبوا أو أرخوا لدولهم التي عاشوا في كنفها أو لأصهار وأقاليهم لا ينتمون إليها رغبة في التعرف على مسالكها وحواضرها وسكّانها وطرق عيشهم، مثلما نجد ذلك عند ابن حوقل عند التقائه بالإصطخري الذي أصبح دليلاً في كتاباته الجغرافية.^(٥)

٢ (١/١) - الحاجة العلمية:

لم تكن تاريخية الإسلام ولا الحاجة الفكرية - الروحية والثقافية - كافية لبداية تدوين التاريخ، لولا وجود حاجات أخرى تكوّنت نتيجة ظهور الإسلام كعقيدة، والفتوحات الإسلامية كحدث سياسي، ممّا نتج عن ذلك ظهور دولة إسلامية تحتاج إلى معرفة مسيرتها التاريخية وتدوين تراثها المادي واللامادي، ومن مجمل هذه الحاجات:

- كشف أسباب النزاعات الدينية والخصومات السياسية والقبلية والتيارات الفكرية، وأسباب ظهور الفرق والمذاهب والحركات المنحرفة وتطورها^(٦) إذ أنّ الدولة لعباسية - التي

٣/١- تطوّر الكتابة التاريخية:

إنّ ما أشار إليه عبد الله العروي حول الكتابة التاريخية في المغرب الإسلامي عمومًا، هو أنّ الدولة العبّاسية - وهي الفترة التي شهدت بداية التدوين التاريخي- كانت تنتهج سياسة تعايش مذهبي مع الصّراعات التي كانت تحدث بين الأطراف المتعارضة^(٢٣) رغبة في بناء أمة متعددة الأجناس في إطار الإسلام^(٢٤) فالمتوّرخ العربي سواء مشرقياً أو مغربياً كان يحرص كل الحرص على تماسك وحدة هذه الأمة وتغطية التناقضات الاجتماعية^(٢٥). وبما أنّ المؤرّخين المشاركة كانوا هم السّباقون إلى تدوين تاريخ المغرب، فإنّهم همشوا كثيراً من أحداثه ووقائعهم ولم يذكروها إلّا عرضاً، فجاءت الكتابة التاريخية المغربية لترث عنهم هذا الحمل الثّقيل بأخطائه ومغالطه، والحاصل هو تهميش تاريخ المغرب الإسلامي مع افتقارهم لوثائق العوام التي يستطيعون من خلالها التّعرف على الحياة الاجتماعية السائدة آنذاك^(٢٦).

كانت هذه المرحلة هي بداية التدوين التاريخي في المغرب الإسلامي، وقد امتدّت هذه المرحلة إلى أواخر القرن الثالث الهجري حتّى استقرّت وتوطّدت، وقد تنوعت الكتابات التاريخية في المشرق والمغرب بين التاريخ الحولي (حسب السنين) مثلما نجده عند الطّبري (٢٢٤هـ-٣١٠هـ) في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" أو التّاريخ حسب الطبقات، مثل "طبقات ابن سعد أو طبقات التّحويين" للذّيري، أو التّاريخ حسب الأنساب مثلما نجده عند البلاذري (ت. ٢٧٩هـ) "أنساب الأشراف"^(٢٧) فظلّ التّوثيق التاريخي عند المسلمين يقوم على أساس روايات متّصلة يرونها الخلف عن السلف، يتناول أصول الشريعة وتوسّعها وانتشارها، ولم تكن الدّراسة التاريخية والتّقدّ أمراً أساسياً عند نقلة الروايات والأحاديث، وعلى هذا الأساس بدأت الكتابة التاريخية في شكل العناية بالتّاريخ الدّيني وتوليّه أهميّة عن التّاريخ الاجتماعي والاقتصادي، فكان همّ المسلمين هو تمجيد الفتوح الإسلامية وإعلاء شأن المجاهدين والمسلمين^(٢٨). وقد أتيحت للحركة الفكرية الثقافية الإسلامية أن تجد غايتها بمعرفة الورق الذي ظهر صنعه في المشرق، ولا شك أنّ ظهور الورق وانتشاره بدأ في أواسط القرن الثاني الهجري وكثرة صناعاتها أعان على التدوين التاريخي، كما أعان على جمع المؤلّفات التاريخية الصّغيرة ذات الموضوع الواحد في مؤلّفات وفق دلالتها التاريخية والزّمنية^(٢٩) وإذا كان التاريخ قد خضع في مرحلته الإخبارية لبعض الخرافات والشّوائب والمغالط فإنّه مع مطلع القرن الثالث الهجري أخذت تظهر بداية التّأليف التاريخي بمعناه الواسع، وظهر علم يسمّى علم التاريخ يقف على قدميه مستقلاً عن باب الأحاديث والمغازي والسّير، ولم يعدّ مادة تقتصر على مجرّد جمع معلومات مستمّدة من كتب السّيرة أو مدوّنات الإخباريين القدماء، ونتيجة لعامل استقرار دول إسلامية

كافة مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية خلال العصر الوسيط^(٣٠) ثمّ إنّ تدوين التّاريخ كغيره من العلوم بدأ بعد عصر الفتوح بحوالي قرن، فاعتمد الرّواة والمؤرّخون في القرنين الثّاني والثّالث للهجرة على روايات شفهيّة، وهي عملية خالصة كانت تتمّ بشكل مباشر بين الشّاهد وهو المصدر وبين جامع المعلومات، فمعظم معلومات التاريخ الإسلامي الأوّلية إنّما جاءت بهذه الطّريقة، ولا شك أنّ هذه الروايات الشّفهيّة معرّضة للمبالغة والتّزييف^(٣١) وكما يقول عبد الرّحمان بن خلدون: "ويقع أصحابها في المغالط في الحكايات والوقائع ولاسيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعسكر"^(٣٢) وبما أنّ المؤرّخين المشاركة كانوا هم السّباقون في تدوين وقائع تاريخ المغرب الإسلامي، فإنّهم همشوا كثيراً من أحداثه ولم يذكروها إلّا عرضاً مثلما جاء "تاريخ المسعودي"^(٣٣) وجاءت الكتابة المغربية لترث عنهم ما كتبوه لنا، رغم ما يحمله من أخطاء ومبالغات، والحاصل ليس تهميش تاريخنا فحسب، بل أيضاً غياب الكثير من الوثائق التي تهّم عوام البوادي والمدن^(٣٤).

وبما أنّ التاريخ في بداية تدوينه كان يندرج ضمن الحديث ويشكّل باباً منه يسمّى "باب المغازي والسّير"، فلا شك أنّ يكون قد أصابه ما أصاب الحديث عامة من تزييف وتضخيم، ويضاف إلى ذلك أنّ نظريّة التّاس إلى التاريخ لم تكن علمية، وذلك أنّهم كانوا يولعون بالأخبار العجيبة التي تثير إعجابهم وتسليهم^(٣٥) فيوردون أخباراً كلّها بعيدة عن الصّحة غريقة في الوهم والغلط أشبه بأحاديث القصص الموضوعية^(٣٦) هذا ما جعل بعض المؤرّخين يرون أنّ الاعتماد على ذكريات الشّعوب والتّرجوع إلى الأدب الشّعبي يشكّل خطراً على صحّة ودقّة التاريخ، والصّواب هو أنّه يجب أن تخضع للمقارنة والتّأكّد من صدقها^(٣٧) ثمّ إنّ الوثائق التي تهّم العوام قد همّشت لأنّ المؤرّخين المغاربة كتبوا التاريخ انطلاقاً من إيديولوجيات معيّنة ذاتية، ومن ثمّ فإنّهم تبنّوا موقفاً معادياً لهم على اعتبارهم الطّرف المحكوم ويصنّفون ضمن العصاة والمارقين، ولم تشر إليهم المصادر إلّا بأنصاف الكلمات، فكان لزاماً علينا أن نتقصّى أخبار العامّة من المصادر الإخبارية والرحلات وكتب أخرى أشارت بقدر محدود إلى طرق عيشهم ومعاملاتهم ومساهماتهم في تاريخ دولهم وحضاراتهم مثل كتب العقود والمواثيق^(٣٨) لذلك فالذي يريد البحث في هذه الفترة يلقى صعوبات، خاصّة إذا تعلّق الأمر بالتّظيم والأجهزة الإدارية وبمظاهر الحضارة وبالحزبيات والطوائف المذهبية، وبطبيعة الحال السّبب في ذلك هو ندرة وقلة المصادر أو توقّفها مع افتقارها الواضح للتّصوص الكاملة، وفي هذه الحالة نلاحظ مدى أهميّة المصادر الخطيّة التي تتناول فترات من تاريخ بلادنا^(٣٩).

نسبتها إلى الواقدي وإن كانت كتبه الأصلية لا تزال بعضها ضمن المخطوطات المحفوظة في المكتبات.^(٣٨)

إنّ هذه الكتب التي وصلتنا مكنّتنا من معرفة الأحوال التي مرّت بها الفتوح الإسلامية، والتي كانت عبر مراحل متتالية، كما أنّها أعطتنا معلومات عن الحياة الاجتماعية وكيفية تعايش العرب الفاتحين مع شعوب الأقاليم المفتوحة، ومن خلال تلك الصادر عرفنا أنّ تواجد الإسلام واللغة العربية في هذه البلاد لم تكن بإقامة الدماء والقتل والإكراه، بل بالمسالمة والتعايش الديني وذا ما نلمسه في قول إبراهيم القليوسي حيث يقول: "لم يتخذ الفتح العربي صفة الحرب الصليبية يضطر المغلوب فيها لاعتناق الإسلام رغم اتّصافه بالحرب المقدّسة".

٢-٢- كتب المسالك والممالك:

ظهرت كتب الرحلات الجغرافية العربية لسببين اثنين، إمّا بدافع الرغبة العلمية وحبّ الاطلاع مثلما نجده عند ابن حوقل^(٣٩) أو لأغراض إدارية متعلّقة بمساعدة ديوان الخراج في القيام بالجباية، لهذا يسمّيها المستشرق أندري ميكال (Andri Miquel): بنت الخلافة "la gèographie arabe est la fille du califat"^(٤٠) فكان هدف هؤلاء الرحالة وصف العديد من الأمصار التي مرّوا بها، وتزويدها بمعلومات تاريخية حول جغرافية تلك المناطق، فنجد أقدم رحالة مثلاً في هذا الباب الإصطخري (ت. ٣٤٠هـ) أو بعدها^(٤١)، وقد قسّم هذا الرحالة العالم المعروف في ذلك الوقت إلى قسمين كبيرين أقاليم الشرق وأقاليم الغرب^(٤٢)، وهناك كتاب آخر لليعقوبي سمّاه "البلدان" وقد وصف لنا كيف جمع معلوماته من أجل تأليف هذا الكتاب حيث يقول: "ولأني سافرت حديث السن واتّصلت أسفاري ودام تغربي فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره وزعره، وساكنيه وشرب أهله ودياناتهم"^(٤٣) وليعقوبي مؤلّف آخر عرف بـ "تاريخ اليعقوبي" غير أنّه لا يشتمل على تاريخ المغرب الأوسط، ومن أهم وأغنى المصادر التي وصلتنا في جغرافية تاريخ المغرب الأوسط كتاب "المسالك والممالك" لابن خرداذبة (ت. ٣٠٠هـ/٩٢١م) فهو يصف فيه صفة الأرض وبنية الخلق عليها وقبلة أهل كلّ بلد والمسالك والممالك التي مرّ بها والمدن والأمصار التي زارها ووقف عليها.^(٤٤)

ويسير على المنهج نفسه كلّ من كتاب المقدسي "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"^(٤٥) وكتاب ابن حوقل^(٤٦) من خلال كتابين: الأوّل "صورة الأرض" والثاني "المسالك والممالك" ويعدّ هذين الكتابين أحسن دليل للقارئ أو الباحث في تاريخ حواضر ومدن ومسالك المغرب الأوسط؛ لما يشتمله من الدقّة والاهتمام بشتّى الجوانب سواء ما يخصّ الزرايع أو المياه أو التجارة أو سكّان القبائل والأمصار إضافةً إلى هذه المصادر الجغرافية لا نستثني كتاب "المسالك والممالك" لأبي عبيد البكري (ت. ٤٨٧هـ) الذي يعدّ من أحسن الكتب التي تصف لنا

في المغرب الأوسط مستقلّة عن مركز الخلافة في دمشق أو بغداد؛ ونتيجة كذلك لإنشاء مؤسسات خاصّة بها وكثرة وثائق دواوينها وتشابك أحداثها كدولة كبرى، وكتلبية لمتطلّبات حياتها الثقافيّة التي أرست نفسها في كافة المجالات، أصبح علما تستمدّ مصادره من وقائع الحياة اليومية في مختلف المجالات سياسية واجتماعية وعسكرية وثقافية، والتي كان يجدها المؤرّخ بوفرة أينما حلّ، فصارت المعرفة التاريخية تطلب لذاتها، لا لخدمة علم آخر من العلوم^(٣٠) فأصبح الهدف من كتابة التاريخ تكريس نفسه لخدمة الدولة وتسجيل مآثرها وحضارتها وعلومها وتدوين سير عظمائها ورصد أحداثها، وأصبح ذو أهميّة أكثر من ذي قبل، وتحول التاريخ من روايات تتناقل من شخص إلى آخر إلى سيرة ذاتية لأيّ دولة كتب لها، فبرز في هذا المجال مؤرّخون كبار وظلّوا عاكفين على تدوينه حتّى أواخر القرن العاشر ليخلفوا بذلك مصنّفات ومخطوطات توالى عليها الزّمن لتكشف لنا عن ماضي التاريخ الإسلامي عمومًا.

ثانياً: أنواع الكتابات التاريخية

١-٢- كتب الفتوح:

كتب العديد من المؤرّخين كتبًا مستقلّة في الفتوح خصّصوها بعناوين تدلّ على تميّزها في هذا الجانب، ومعرفة هذه الكتب يتطلّب العودة إلى كتب الفهرسة التي تدلّنا عليها، لأنّ معظم ما كتب منها يعدّ مفقودًا أو قد دمجت في كتب أخرى ولم يصلنا إلّا التّزّير القليل^(٣١) وقد رصد فراز روزنثال (١٢٩) كتابًا في الفتوح تعدّدت عناوينها فيما بين من يحمل عنوان الفتوح، ومنها من جاءت في قضايا جهادية عامّة وتنوّعت من حيث مجال دراستها بين المشرقية والمغربية.^(٣٢)

من الكتب التي عرفت بالفتوح نجد منها أوّل كتاب ألف لصاحبه ابن عبد الحكم (ت. ٢٥٧هـ)^(٣٣) بعنوان "فتوح مصر والمغرب"^(٣٤) ويعدّ هذا الكتاب بداية التدوين التاريخي في المغرب الإسلامي حيث تناول في أبوابه تاريخ فتوح المغرب، كما نجد كتابًا آخر وهو من أقدم كتب الفتوح المشرقية التي وصلتنا وهو "فتوح المغرب والأندلس"^(٣٥) كما نجد كتبًا أخرى تناولت موضوع الفتوح الإسلامية لا تقلّ أهميّة عن سابقه لأحمد بن يحيى البلاذري (ت. ٢٧٩هـ)^(٣٦) الذي يعرف بـ "فتوح البلدان" الذي اشتمل على فصلين، اختار الفصل الأوّل للفتوح المشرقية والمغربية والفصل الثاني للتّصوص العمرانية والتنظيمية والسياسية، ونشر هذا الكتاب من قبل تشارلز توري (ch.torry) كلّ أجزاء الكتاب بعنوان "فتوح مصر وأخبارها" سنة ١٩٢٠ في لندن وصوّرت دار المثنى ببغداد، كما نشر غاتو (Gateau) الجزء الخاص بفتوح مصر والمغرب، كما كانت هناك عدّة نشرات لكل من: "هنري مارسيه"، "عبد المنعم عامر"^(٣٧) وهناك كتب أخرى تخصّ الفتوح الإسلامية نسبت إلى أبي عبد الله محمّد بن عمر الواقدي (١٣٠هـ-٢٠٧هـ) وكثير ممّا طبع منها أسطورية لا تصحّ

تنوّعت قضاياها بين نوازل الإيجار والأكرية والصّناع ونوازل الشّفعة والقسمة ومسائل المياه واستغلالها وغيرها.

ثالثاً: التاريخ في خدمة دول المغرب الأوسط

١/٣- التاريخ في خدمة الدولة الرّستمية الإباضية

نجد مثلاً في هذا الإطار الكثير من المصنّفات التي تحدّثت عن تاريخ الإباضية و كيفية انتقالهم من المشرق إلى المغرب الإسلامي مع إعطاء معلومات عن أفكارهم وفلسفاتهم الدّينية وطبائعهم ومعتقداتهم، حيث نقلوا لنا أخبار أشهر الأئمة الذين عاشوا في كنف الدولة الرّستمية (١٦٠هـ-٢٩٦هـ / ٧٧٦م-٩٠٩م) على اعتبارها دولة إباضية المذهب، فقد كتب في هذا المجال ابن بسّام اللّواتي (ت. ٢٧٣هـ/٨٨٦م) الذي ألف "كتاب منه بدأ الإسلام وشرائع الدّين" فهو يحمل بُعداً نظرياً إباضياً تجاه تاريخ المغرب الإسلامي،^(٥٨) فكان هذا الكتاب محاولة جدّية لكتابة تاريخ وفق المنظور الإباضي، ومن الكتب الأخرى التي وصلتنا وهي في غاية الأهمّية نجد مثلاً كتاب ابن الصّغير المالكي (ت. ٢٩٤هـ/٩٠٦م) الذي ألف كتاب "أخبار الأئمة الرّستميين"^(٥٩) قبل استيلاء الفاطميين على تيهرت،^(٦٠) وحتى وإن كان مذهبه مالكيّاً أو شيعيّاً على الأرجح فإنّ كتابه يعتبر المصدر الأوّل وربّما الوحيد لتاريخ الأسرة ولو أنّه اعتمد في كتابة تاريخه على الرواية الشّفهية والمشاهدة، فإنّ الأمانة العلمية التي التزم بها ابن الصّغير لم تمنعه كما تقول وداد القاضي من استعمال حسّه التقدي للروايات بصفته مؤرّخاً.^(٦١)

ومع هذا فإنّ الباحث بعد قراءة كتابه يجد أنّ المؤلّف يبتعد نوعاً ما عن بعض التّقاط السّوداء في تاريخ الدولة الرّستمية، والتي من شأنها أن تغيّر وزن الأئمة الإباضيين في نظر المجتمع الرّستمي والمؤرّخين المتأخّرين الذين يهبون أقلامهم في كتابة ما تعلّق بتاريخ الدولة الرّستمية، ومن مجمل ما سكّته عنه ابن الصّغير المفارقات الإباضية الخمس على سبيل المثال، ومن ضمن من كتب في تاريخ الدولة الرّستمية من طرف المؤرّخين الإباضيين أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر،^(٦٢) حيث سمّى مؤلّفه "كتاب سير الأئمة وأخبارهم"،^(٦٣) ويخبرنا المستشرق الألماني إدوارد ساخو بأنّ كتاب أبي زكرياء اعتمد عليه المشاركة كمصدر للأخبار التي تتعلّق بإباضية المغرب،^(٦٤) ويعتبر كتابه بحقّ فريداً من نوعه إذ لم يترك شاردة ولا واردة إلّا وذكرها وعلّق عليها، ومن أشهر الكتب الأخرى كتاب "طبقات المشايخ بالمغرب"،^(٦٥) للدرجيني (ت. ٦٧٠هـ) الذي قسّمهم إلى جزئين، وهو من بين الكتب الباقية التي نشرت صحائف ناصعة عن رجال الإباضية إلى حدود القرن السابع الهجري.

يفهم من الكتابات التاريخية الإباضية أنّها كانت تهتمّ بالجوانب الفكرية والدّينية، فقد أرّخت للأئمة والخلفاء، ومما لا

مسالك المغرب الأوسط بحواضره ومدنه وطرقه وقد خصّ جزءاً سمّي "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" من مضمون ما يتناول فيه تاريخ المغرب الأوسط^(٥٧) إضافةً إلى كتاب "رحلة القلصادي" (ت. ٨٩١هـ)،^(٥٨) حيث يتحدّث فيه عن المناطق التي رحل إليها من الأندلس عبر تلمسان وتونس وطرابلس الغرب، وهو يشير بعض الشّيء إلى مدن المغرب الأوسط.

٣/٣- كتب أخرى:

تنوّعت هذه الكتب بين كتب التّاريخ العالمية، وكان لتاريخ المغرب حضوراً في هذه المصنّفات بحكم الأحداث السياسية التي شهدتها أثناء الفتوحات الإسلامية وما ترتّب عنها فعكفوا عليه يدوّنون أخباره، ومن بين هذه الكتابات كتاب "تاريخ الرّسل والملوك" لصاحبه الطّبري (٢٢٤هـ-٣١٠هـ)^(٥٩) وقد سبقه في ذلك الهيثم بن عدى (ت. ٢٠٦هـ) الذي ألف كتاب على المنهج الحولي بعنوان "كتاب التّاريخ على السّنين"^(٥٠) ومن أهمّ الذين كتبوا حول المغرب اليعقوبي (ت. ٢٨٤هـ/٨٩٧م) صاحب "كتاب التّاريخ"،^(٥١) كما نجد بعض المصادر الأخرى التي تتحدّث عن تاريخ المغرب الأوسط لكن من زاوية أخرى، فقد نجدها أحياناً أنّ بعض موظّفي دواوين الخراج والإنشاء قد صنّفوا مؤلّفاتهم على هذا النّحو مثل "كتاب الأموال" لأبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي (ت. ٢٢٤هـ/٨٣٨م) أو كتاب "الخراج وصناعة الإنشاء" لقدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت. ٣٢٨هـ/٩٣٩م)^(٥٢) كما أورد الطّبري في "تاريخ الرّسل والملوك" معلومات عن الجزية وتدابير عمر بن عبد العزيز المالية لإصلاح أمور الجباية" أمّا كتاب "الخطب" للمقريزي (ت. ٨٤٥هـ) فقد أفاد البحث في التّعريف على مواعيد الجباية مع إشارات مفيدة إلى خطّة عمر بن عبد العزيز في التّأكيد على الأرض الخراجية فيء للمسلمين.^(٥٣)

ومن مجمل الكتب الأخرى نجد كتباً تحدّث فيها مؤلّفوها عن عظماء وعلماء وملوك دولهم، فهي تنقل لنا الإرث الحضاري والمعرفي الذي أنتجوه، ومن ضمن هذه الكتب مثلاً "عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية"^(٥٤) لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت. ٧٠٤هـ/١٣٠٤م) وكان الغرض من هذا التّأليف هو معرفة رجال السّند والترجمة لهم حتّى تكون صفاتهم ومزاياهم العلمية واضحة للمتلقّي والقارئ،^(٥٥) ومن بين هذه الكتب مثلاً كتاب ابن مريم التّلمساني "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"^(٥٦)، فمن خلال كتابه هذا يورد لنا حوالي (٢٨٢) عالماً ووليّاً حلّوا بتلمسان أو عاشوا فيها أو درّسوا بها، ومن أهمّ الكتب الأخرى نجد كتباً تخصّصت في النوازل والفتاوى في أبواب عدّة تراوحت بين أبواب البيوع والعقود والأوقاف واستغلال الأراضي وغيرها ونجد هذا عند المازوني في "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" و"المعيار"،^(٥٧) عن أبي العباس النونشريسي (ت. ٩١٤هـ) حيث أورد كتابه في (١٤) جزءاً

بلاد إفريقية والمغرب الأوسط، وذلك بنشر دعوته بسبب ما لقيه من إعجاب تلاميذه وأنصاره، وهذا ما سمح له بتحقيق دعوة شيخه بتمزيق حكم دولة المرابطين،^(٧٦) فكان لهذه التحولات الأثر الكبير في ظهور وازدهار الكتابة التاريخية التي أرخت للدولة الموحدية، فكان أبو بكر بن علي الصنهاجي المكتبي بالبيدق أول من قام بتدوين "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"^(٧٧) وذلك لمرافقته له في رحلته العلمية.^(٧٨) أما في الفترة الموحدية نجد أن الحياة الفكرية زادت نشاطاً وعطاءً فمن علينا الكثير منهم بكتابات تضيء عليها هذه الصبغة، وتثير جانباً من الجوانب العلمية، وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين ابن صاحب الصلاة^(٧٩) (ت. ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م) بكتاب "المنن بالإمامة" الذي قام بتحقيقه عبد الهادي التازي ونشر في دمشق،^(٨٠) كما ألف ابن القطن المراكشي^(٨١) (ت. ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) كتاب "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان"،^(٨٢) إضافة إلى هاته الكتابات عرف المغرب الأوسط كتابات أخرى أرخت له في عدة مجالات خاصة الجوانب السياسية، فنجد منها على سبيل المثال ما كتبه الزركشي في كتابه "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية"^(٨٣) وهو تاريخ موجز للمغرب العربي ما بين القرنين (٦٦هـ- ٩٦هـ/ ١٢٠٥م- ١٥٠٥م)، حيث خصص كتابه هذا لتاريخ المغرب الأدنى، ومع ذلك فهو لا يهمل الأحداث الكبرى التي عاشها المغرب الأوسط والأقصى،^(٨٤) ومن المصادر الأخرى التي وصلتنا وهو أكثرها اعتماداً لدى المؤرخين كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"^(٨٥) لصاحبه عبد الواحد المراكشي (ت. ٦٤٧هـ) الذي كتبه وهو في آخر نضج الشباب وأول حكمة المشيب - أي في الأربعين من عمره - فقد تناول المؤرخ تاريخ الرقعة الجغرافية الممتدة من جبال البرانس إلى بحر الظلمات بما فيها إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى.^(٨٦)

٤/٣ - التاريخ في خدمة الدولة الزيانية:

من مجمل الكتابات التي تناولت تاريخ الدولة الزيانية هو ما كتبه السلطان أبو حمّو وموسى الثاني (٧٢٣هـ- ٧٩١هـ) كوصية لوليّ عهده أبي تاشفين الثاني والسلطين من بعده وهو "واسطة السلوك في سياسة الملوك"^(٨٧) حيث يذكر المؤلف أخباراً عن كتب التاريخ والأدب ومن بين هذه الأخبار ما يرجع إلى ملوك الفرس نقلها غالباً^(٨٨) عن كتاب سلوان المطاع لابن ظفر الصقلي^(٨٩) والأمر المهم في هذا الكتاب هو طبيعة الموضوع السياسي الذي اختاره ضمن ما يسمّى مرايا الأمراء، وبحق يمكن القول أنه محاولة جادة من أجل تأسيس نظرية سياسية تُقيم أسس دولة إسلامية في المغرب الأوسط،^(٩٠) كما أنّ هذا الكتاب هو يعكس توجهاً سياسياً منقطع النظير، خصوصاً في المغرب الأوسط، وعلى هذا الأساس فالاطلاع على هذا الكتاب يثري رؤيتنا حول الجانب السياسي الذي عاشته الدولة الزيانية في فترته،^(٩١) كما أنّ كتاب للسلطان أبو زيان محمد الثاني (ت.

شك فيه أنّ المجهودات التي بذلها الأئمة الرستميين في سبيل تنشيط الحركة الفكرية في ربوع دولتهم؛ من تشييد المساجد والدور العلمية وجلب الكتب من المشرق، كان له أثر في تفعيل المجال العلمي وحركة الكتابة التاريخية، فحتى الإمام ابن رستم (١٦٠هـ- ١٧١هـ/ ٧٧٦م- ٧٨٧م) نسبت إليه المصادر الإباضية مصنفين أحدهم في التفسير والثاني يشتمل على خطبه، كما ينسب ابن الصغير إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمان (١٧١هـ- ٢٠٨هـ/ ٧٨٧م- ٨٢٣م) كتاب بعنوان "مسائل جبل نفوسة" الذي يتضمن أجوبة على بعض المسائل التي وردت عليه^(٩٢)، وكتب أخرى نسبت إلى أئمة آخرين جاؤوا بعدهم لم تصلنا منها إلا عناوينها.

٣/٢ - التاريخ في خدمة الدولة الحمادية:

زاد عمر الدولة الحمادية عن القرن والتصف، منذ أن اختط حماد بن بلكين القلعة إلى غاية سقوطها على يد عبد المؤمن بن علي الزعيم السياسي لدولة الموحدين (٣٩٧هـ- ٥٤٧هـ/ ١٠٠٧م- ١١٥٢م) وتمثل الدولة الحمادية أول دولة بربرية مستقلة تحكم المغرب الأوسط.^(٩٣) ومن أهم المصادر التي تحدّثنا عن تاريخ الدولة الحمادية نجد "إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني" (ت. ٤١٨هـ) الذي شغل منصب رئيس ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية مدة ربع قرن في عهد كلّ من المنصور وباديس والمعزّ فقد ألف كتاباً^(٩٤) سماه "تاريخ إفريقية والمغرب"،^(٩٥) وقد كان هذا المؤلف المصدر الأساسي للإخباريين بالنسبة إلى الفترة المعيّنة، ذلك أنّ حماد وابن الأبار وابن عذاري وابن خلدون لم يمتنعوا عن الاستشهاد بتلك الآثار^(٩٦) واعتبر كتاب "تاريخ إفريقية والمغرب" الذي وضع في البلاط مرجحاً به في تاريخ الأسرة الباديسية الصنهاجية بإفريقية، وقد مدح الثلاثة خلفاء الصنهاجيين الأخيرين "يحيى وعلي والحسن" الذين خصّوه برعايتهم.

ألف أبو الصلت أمية بن عبد العزيز (ت. ٥٣٩هـ/ ١١٣٥م) للحسن وقد اعتبره ذليلاً لتاريخ الرقيق وهو "الديباجة في مفاخر صنهاجة"، وقد بدأ كتابه هذا حيث توقف ابن شرف إلي حوالي (٤٤٣هـ/ ١٠٥٢م)،^(٩٧) وذلك حسب رواية ابن عذاري حيث يقول: "إلى هنا انتهى كلام أبي الصلت في أخبار المهدي وأميرها الحسن بن علي بن يحيى ابن تيم إلى سنة ٥١٧هـ"^(٩٨)، أمّا حماد بن عيسى بن أبي بكر (ت. ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)^(٩٩) أصيل بلدة حمزة التابعة لقلعة بني حماد^(١٠٠)، فقد زاول دراسته في بجاية وطاف في أنحاء المغرب وتولى القضاء بالجزيرة ثم بسلا وألف كتاب "النبد المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة بإفريقية وبجاية"، ولكن يعتبر هذا الكتاب مفقوداً.^(١٠١)

٣/٣ - التاريخ في خدمة الدولة الموحدية:

إنّ عودة ابن تومرت من رحلته العلمية سنة (٥١٠هـ) وبعد أن درس على يد أبي حامد الغزالي - فإنّه قد أحدث تحولات في

خاتمة

إنّ الكتابة التاريخية في المغرب الأوسط رغم ضعفها نتيجة عوامل فرضتها الأوضاع السياسية التي مرت بها، ووضعتها في حيز التهميش والأخطاء والمبالغة، إلا أنّها استطاعت أن تبرز إلى الوجود نتيجة عوامل فكرية وروحية واجتماعية، فرضت على مؤرّخي المغرب الوسيط مهمة تدوينه ونقله وتواتره عبر الأجيال، لكن مع كلّ هذا لم تكن هناك كتابات متخصصة إلى حدّ ما، فقد تراوحت بين التّاريخ لبلدان المغرب الإسلامي بصفة عامّة، ولم تخصّص لذلك كتباً سياسية أو اجتماعية، بل جاءت معظمها كتب عامة، ولكن هذا الظهور سوف يتعرّز بقيام الدّول المستقلّة التي بفضلها وفضل دواوينها وجوانبها الفكرية والاجتماعية والسياسية، هذا ما جعل المؤرّخين يعكفون عليها يستقصوا أخبارها ويدوّنوا أحداثها، محاولين في ذلك قدر الإمكان الإلمام بشتّى المجالات والميادين، ويدوّنون ما يجدونه وما يعرفونه، ليقدّموا لنا في الأخير سيرة ذاتية عن كلّ دولة كان لها وجود وحضور فكري وسياسي واقتصادي ومذهبي، ولكن ومع كلّ هذا يبقى السّؤال يطرح نفسه هل نستطيع أن نُحمّل مؤرّخي المغرب الأوسط ضعف الكتابة التاريخية في يومنا المعاصر؟ أم أنّنا أضعنا وفرطنا فيه على عكس إخواننا التّونسيين والمغاربة؟

١٣٩٩/هـ (١٣٩٩م) يعرف بكتاب "الإشارة في تحكيم العقل بين النّفس المطمئنة والنّفس الأمّارة"^(٩٢) ولا توجد لدينا معلومات عن هذا الكتاب، وبالإضافة إلى هذه الكتب نجد كتاباً آخر لا يقلّ أهميّة عن سابقه وهو من المصادر المعتمدة في تاريخ ملوك بني زيان لابن مريم التّلمساني هو كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، حيث ترجم لاثني عشر وثمانين ومائة (٢٨٢) عالماً وولياً ولدوا في تلمسان أو عاشوا بها،^(٩٣) وهناك كتاب آخر لمحمّد بن عبد الله التّنسي (ت. ٨٩٩/هـ ١٤٩٤م)^(٩٤) هو كتاب "نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان" والذي بين أيدينا هو "تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" وهو مقتطف منه، وقد ذكر المترجمون لمحمّد التّنسي عدّة تأليف أخرى منها "الظّراز في شرح ضبط الخراز"، و"راح الأرواح فيما قال المولى أبو حمّو من الشّعور وقيل فيه من الأمّاح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح"، و"الجواب المطوّل في قضية يهود توات".^(٩٥)

لم تكن هذه الكتب وحدها من أرّخت للدّولة الزّيبانية وعن ملوكها، بل هنا مؤرّخين آخرين قد أفادونا بمصنّفاتهم بحكم أنّهم عاشوا في كنفها أمثال يحيى بن خلدون الذي كتب لنا "بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"^(٩٦) ويعدّ كتاب عبد الرّحمن بن خلدون - وهو أخ يحيى بن خلدون - "العبر وديوان المبتدأ الخبر في تاريخ العرب والبربر فيمن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر"^(٩٧) من أهمّ الكتب التي وصلتنا حيث يتحدّث في الجزء السادس والسّابع عن تاريخ الدّولة الزّيبانية، ويعتبر تاريخه فريداً من نوعه فقد أدهش ابن خلدون علماء أوروبا المعاصرين حيث يقول كارادّ فو: "أنجبت إفريقيا الإسلامية اجتماعياً من الطّبقة الأولى في شخص عبد الرّحمان بن خلدون الذي لم يعرف من قبل عالماً أوّتي تصوّراً في فلسفة التّاريخ أصحّ ولا أجلّ من تصوّره"^(٩٨)، غير أنّ بعض الباحثين يرون عكس ذلك تماماً^(٩٩).

- (٢٨) هاري إلمر بارنز: **تاريخ الكتابة التاريخية**، تر: محمد عبد الرحمان برج، ج ١، مطابع الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٣، ص ١٣٧.
- (٢٩) مصطفى شاكز: المرجع السابق، ص ١٠٠.
- (٣٠) محمد عبد الكريم الوافي: **منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب**، ط ٢، جامعة قار يونس، ١٩٩٨، ص ٢٤٧-٢٤٩.
- (٣١) عبد العزيز بن إبراهيم العمري: **"كتب الفتوح مصادر للدراسة الحضارية"**، مجلة التاريخ العربي، ١٤٤، ٢٠٠٠، ص ٥-٤.
- (٣٢) روزنثال فراز: **علم التاريخ عند المسلمين**، تر: صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣، ص - ص ٢٨٣-٢٨٧.
- (٣٣) ولد عبد الرحمن بن عبد الحكم حوالي ١٨٧ هـ على اعتبار أنه توفي بالفسطاط في سنة ٢٥٧ هـ، وكان له من العمر سبعون عامًا، ولا تكاد كتب التراجم تعرف عن ابن عبد الحكم شيئًا يليق بمقامه. يُنظر: حسين عاصي: **عبد الرحمان بن عبد الحكم وكتابه فتح مصر وإفريقية**، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٩٢، ص ٩.
- (٣٤) تحقيق: عبد المنعم عامر، ج ١، شركة الأمل للطباعة والنشر، ٢٠٠١.
- (٣٥) عمارة علاوة: المرجع السابق، ص ١٥٠.
- (٣٦) البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر بن داود أبو الحسن وقيل أبو بكر، من أهل بغداد ولد في أواخر القرن الثاني الهجري، مات في أيام المعتمد على الله (٢٢٩ هـ-٢٧٩ هـ/٨٤٣ م-٨٩٣ م)، ينظر إلى: البلاذري: **فتوح البلدان**، تقديم: أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٧، ص ٤.
- (٣٧) حسين عاصي: **عبد الرحمان بن عبد الحكم وكتابه فتح مصر وإفريقية**، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٩٢، ص ٤٨-٤٩.
- (٣٨) عبد العزيز بن إبراهيم العمري: المرجع السابق، ص ٦-٧.
- (٣٩) أحمد رمضان أحمد: **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، (د-ت)، ص ١١٦.
- (٤٠) عمارة علاوة: المرجع السابق، ص ١٥١.
- (٤١) يورد علاوة عمارة أنها توفي سنة ٣٥٠ هـ.
- (٤٢) أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص ٨٠-٨١.
- (٤٣) روزنثال فراز: المرجع السابق، ص ١٤٨.
- (٤٤) ابن خرداذبة أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله: **المسالك والممالك**، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل، ١٨٨٩، ص ٤.
- (٤٥) طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل، ١٨٧٧.
- (٤٦) هو أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل التميمي، لا تعرف بالضبط تاريخ مولده سنة ٣٤٤ هـ، يُنظر: أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص ١١٧.
- (٤٧) محمد المنوني: **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث**، ج ١، مؤسسة نبشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٣، ص ١٩.
- (٤٨) هو علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقصادي، توفي سنة ٨٩١ هـ، يُنظر: ابن مريم الشريف أبي عبيد الله محمد بن محمد بن أحمد: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٦، ص ١٤١.
- (٤٩) حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧.
- (٥٠) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٨٧-٨٨.
- (٥١) عمارة علاوة: المرجع السابق، ص ١٥١.
- (٥٢) عمارة علاوة: المرجع نفسه، ص ١٥٢.

- (١) مصطفى شاكز: **التاريخ العربي والمؤرخون (دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام)**، ج ١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٧٨، ص ٥٧.
- (٢) ألبان . ج. ويدجيري: **المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفيشيوس إلى توينبي**، تر: ذوقان قرقوط، ط ١، دار العلم للملايين، لبنان، ١٩٨٢، ص ١٣٠.
- (٣) **سورة النمل**، الآية رقم ٦٩.
- (٤) **سورة آل عمران**، الآية رقم ١٣٧.
- (٥) مصطفى شاكز: المرجع السابق، ص ٦٠-٦١.
- (٦) المرجع نفسه، ص ٦١.
- (٧) نفسه: ص- ص ٦٢-٦٣.
- (٨) إبراهيم القادري بوتشيش: **تاريخ المغرب الإسلامي (قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة)**، ط ١، دار الطليعة للطبع والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٩.
- (٩) مصطفى شاكز: المرجع السابق، ص ٦٣.
- (١٠) عبيد بوداود: **"مصنفات التوازل الفقهية وكتابة تاريخ المغرب الأوسط"**، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع ١، جانفي- ديسمبر ٢٠٠٧، ص ١٢٧.
- (١١) مصطفى شاكز: المرجع السابق، ص ٦٩.
- (١٢) إبراهيم القادري بوتشيش: **تاريخ المغرب الإسلامي (قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة)**، ط ١، دار الطليعة للطبع والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص ٢٧.
- (١٣) عبد الحميد حاجيات وآخرون: **كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر الوسيط**، ط خاصة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ٢٠٠٧، ص ١٣.
- (١٤) مصطفى شاكز: المرجع السابق، ص ٧٤ - ٧٥.
- (١٥) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠١، ص ١٣.
- (١٦) ابن خلدون عبد الرحمان: المصدر السابق، ص ١٤.
- (١٧) إبراهيم القادري بوتشيش: نفس المرجع السابق، ص ٢٩.
- (١٨) مصطفى شاكز: نفس المرجع السابق، ص ٧٤-١١٢.
- (١٩) ابن خلدون عبد الرحمان: المصدر السابق، ص ١٧.
- (٢٠) نصر الدين سعيدوني: **أساسيات منهج التاريخ**، دار القصة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٠، ص ٣٩.
- (٢١) إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.
- (٢٢) موسى لقبال: **المغرب الإسلامي**، ط ٣، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٧.
- (٢٣) إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.
- (٢٤) عمارة علاوة: **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ١٥٠.
- (٢٥) إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.
- (٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٩.
- (٢٧) عبد العزيز سالم: **التاريخ والمؤرخون العرب**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د-ت)، ص ٨٢-٩٦.

- (٨٢) حَقَّقَه: محمَّد علي مَكِّي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠.
- (٨٣) حَقَّقَه: محمَّد ناصور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦.
- (٨٤) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحَّدية والحفصية، تحقيق: محمَّد ناصور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص أ.
- (٨٥) حَقَّقَه: سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتَّحدة، ١٩٦٣.
- (٨٦) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتَّحدة، ١٩٦٣، ص ٢.
- (٨٧) عبد القادر بوحسون: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزباني (٥٦٣-٥٦٦هـ/١١٣٥-١١٥٤م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد، ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص ١٩.
- (٨٨) عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص ٢٠٢.
- (٨٩) ابن ظفر الصقلي أبو عبد الله (ت. ٥٦٨هـ/١١٧٢م)، سلوان المطاع في عدوان الأتباع، تحقيق، أيمن عبد الجابر البحري، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- (٩٠) سمير مزري، النظرية السياسية عند أبي حمو موسى الثاني (٧٢٣-٧٩١هـ/١٣٢٣-١٣٨٩م) من خلال كتابه "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة معسكر، ٢٠١٣-٢٠١٤، ص ١٨٣-١٨٤.
- (٩١) سمير مزري، "مكانة النظرية السياسية عند أبي حمو موسى الثاني (٧٢٣-٧٩١هـ/١٣٢٣-١٣٨٩م)"، دورية كان التاريخية: (علمية، عالمية، مُحَكَّمة)، العدد الرابع والعشرون، جوان ٢٠١٤، ص ٥٧.
- (٩٢) التَّنْسي محمَّد بن عبد الله: تاريخ بني زبَّان ملوك تَمَّسان، تحقيق: محمود بوعياض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٢١.
- (٩٣) ابن مريم: المصدر السابق، ص ٣.
- (٩٤) التَّنْسي: المصدر السابق، ص ١١.
- (٩٥) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٩٦) طبع بمطبوعات بيبير فونطانا الشرقية في الجزائر، ١٣٢١هـ/١٩٠٣م.
- (٩٧) طبع في بولاق سنة ١٨٦٧ في سبعة أجزاء، يُنظر: أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٢٣٢.
- (٩٨) محمَّد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٤٠.
- (٩٩) هناك مَنْ يقول بأنَّ عبد الرحمان بن خلدون قَلَّ من ثقته في التفكير العقلاني ولم يكن يهتم بالفلسفة التقليدية، وهذا ما دعا بعضهم في عدَّة مناسبات إلى أنَّه كان دهرية؛ إذ أنَّ استشهاده بالقرآن الكريم لم تكن صادقة بل كان يخاف من اتهام المؤمنين المتعصِّبين له ومن المرجَّح أنَّ هذه النظرية خاطئة، يُنظر: ألبان رج. ويدجيري: المرجع السابق، ص ١٣٥.

- (٥٣) كاتبي غيداء خزنة: الخراج منذ الفتح الإسلامي حتَّى أواسط القرن الثالث الهجري الممارسات والنظريات، أطروحة دكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٩٧، ص ٣٢-٣٥.
- (٥٤) حَقَّقَه: رابح بونار، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.
- (٥٥) الغبريني أبي العباس أحمد بن أحمد: عنوان الدَّرية فيمن عرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص - ص ٢١-٣٥.
- (٥٦) أنجز طبعه على مطابع ديوان المطبوعات الجامعية - السَّاحة المركزية- بن عكنون، الجزائر، ١٩٨٦.
- (٥٧) خرَّجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمَّد حجِّي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١.
- (٥٨) عمارة علاوة: المرجع السابق، ص ١٥٣.
- (٥٩) حَقَّقَه إبراهيم بحاز: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- (٦٠) عمارة علاوة: المرجع السابق، ص ١٥٣.
- (٦١) ابن الصَّغير: أخبار الأئمة الرَّسَميين، تحقيق: إبراهيم بحاز: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص - ص ١٣-١٧.
- (٦٢) ابن الصَّغير، المصدر نفسه، ص ٢٠.
- (٦٣) حَقَّقَه: اسماعيل العربي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢.
- (٦٤) أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق: اسماعيل العربي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢، ص ٢٧.
- (٦٥) حَقَّقَه: إبراهيم طلاي، ج ١ و ٢، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٩٧٤.
- (٦٦) عبد الحميد حاجيات وآخرون: المرجع السابق، ص ٧٣-٧٤.
- (٦٧) عبد الحليم عويس: دولة بني حماد (صفحة رائعة من التاريخ الجزائري)، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٠٩.
- (٦٨) إدريس هادي روجز: الدَّولة الصَّنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م)، تر: حمادي السَّاحلي، ط١، ج ١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢، ص ١٤.
- (٦٩) تحقيق محمَّد زينهم محمد عزب، دار الفرخاني للنشر والتوزيع، ١٩٩٤.
- (٧٠) إدريس هادي روجز: المرجع السابق، ص ١٤.
- (٧١) إدريس هادي روجز: المرجع نفسه، ص ١٧-١٨.
- (٧٢) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان، إلبقي بروفنسال، ج ١، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص ٣٠٩.
- (٧٣) ابن عبد الله محمَّد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصَّنهاجي القلعي توفي ما بين (٦٢٨هـ-٦٤٠هـ) يُنظر: الغبريني: المصدر السابق، ص ١٩٢.
- (٧٤) عمارة علاوة، المرجع السابق، ص ١٦٤.
- (٧٥) الغبريني: المصدر السابق، ص ١٩٢.
- (٧٦) محمَّد الأمين محمَّد، محمَّد علي الرَّحمان: المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب، الدَّار البيضاء، المغرب، ص ١٣٣-١٣٤.
- (٧٧) محمَّد المنوني: المرجع السابق، ص ٤٢.
- (٧٨) عمارة علاوة، المرجع السابق، ص ١٦٥.
- (٧٩) المرجع نفسه: ص ١٦٥.
- (٨٠) ابن القطان المراكشي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الرِّمان، تحقيق: محمَّد علي مَكِّي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠، ص ٤.
- (٨١) المصدر نفسه: ص ٥.

مرسوم طرد المورسكيين من "مملكة بلنسية" ومرسوم طرد المورسكيين من سائر الممالك الإسبانية

تقديم وترجمة وتعليق

محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

باحث دكتوراه في تاريخ وحضارة الأندلس

تطوان - المملكة المغربية



Bando de expulsion de los moriscos del rieno de Valencia publicado en la capital el dia 22 de septiembre de 1609

Colección de Documentos históricos para la historia de España, de D. Miguel Salvá y D. Pedro Sainz de Baranda, Academia de la Historia, Tomo XVIII, Madrid, 1851. pp. 5-11.

كلمات مفتاحية:

غرناطة، المورسكيون، البلاط الإسباني، التنصير

تاريخ استلام المقال: ٠٧ يونيو ٢٠١٥

تاريخ قبول النشر: ٢٨ أكتوبر ٢٠١٥

حقوق الملكية الفكرية والترجمة والنشر:

- حقوق الملكية الفكرية محفوظة.
- حقوق الترجمة العربية محفوظة © للأستاذ محمد عبد المومن.
- النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها.
- غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.
- المترجم والدورية غير مسئولان عن الآراء الواردة في النص الأصلي.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مرسوم طرد المورسكيين من "مملكة بلنسية" ومرسوم طرد المورسكيين من سائر الممالك الإسبانية/ ترجمة: محمد عبد المومن. - دورية كان التاريخية. - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ١٥٧ - ١٦٤.

تقديم

في عددها الثالث والعشرين، الصادر بتاريخ مارس ٢٠١٤، نشرت دورية كان التاريخية ترجمتي لمرسوم التنصير الإجباري الذي خير المدجنين^(١) المقيمين في الأراضي التابعة لمملكة قشتالة بين المسيحية أو المغادرة، فشجعتني ذلك على ترجمة المزيد من الوثائق القشتالية المتعلقة بمسألة المورسكيين، لاعتقادي أن تعريب تلك الوثائق ذات اللغة الصعبة المنفرة سيساعد على تطوير البحث وتعميقه، وعلى توفير مصادر جديدة ستساعد على إنارة الجوانب التي لا تزال غامضة خصوصًا المتعلقة بالظروف التي عاشها المورسكيون خلال القرن السادس عشر وبداية السابع عشر، أو بقضية الطرد تلك القضية التي نعتقد أنها لم تنل لحد الآن ما تستحقه من دراسة وتعقق. ويسرني في هذه المرة أن أضع بين يدي القارئ العربي ترجمتي لوثيقتين هامتين لم يسبق أن ترجمتا إلى اللغة العربية، أولهما مرسوم طرد مورسكيي بلنسية الذي جرى تعميمه بتاريخ

(١٦٠٩/٠٩/٢٢)، وثانيتهما مرسوم طرد المورسكيين من سائر أقاليم إسبانيا الذي جرى تعميمه بتاريخ (١٦٠٩/١٢/٠٩).

السياق العام

يشكل صدور مراسيم الطرد القسري للمورسكيين نقطة تحول جوهرية في القضية المورسكية، حيث كان هدف الملك فيليب الثالث من إصدارها إيجاد حل نهائي لمشكلة أقلق المجتمع الإسباني لفترة طويلة، مشكلة بدأت مع استيلاء الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا^(٢) على مدينة غرناطة. ضم الملكين الكاثوليكيين لمدينة غرناطة وإقليمها جاء بعد إعطائهم مجموعة من الوعود للسكان المسلمين (حرية ممارسة الشعائر الإسلامية ممارسة العادات والتقاليد واللغة العربية...)، لكن الكاردينال سيسنيروس^(٣) وعدد من رجال البلاط توهموا أن المنهزمين سيتنصرون فرادى وجماعات، وهذا لم يحصل، فلجأ سيسنيروس إلى التعميد القسري، فرأى المسلمون في ذلك نقضا لما تم الاتفاق عليه في معاهدة التسليم^(٤) التي وقعها ملكا قشتالة وأراغون مع الملك أبي عبد الله بن الأحمر^(٥) فثاروا في

غرناطة والبشرات^(٧) ثورة خلفت كثيرًا من القتلى بسبب القمع الشديد. وفي سنة ١٥٠٢ صدر المرسوم الذي خير المسلمين بين الرحيل والتنصر، فرحل البعض وتنصرت الأغلبية صوريا، هؤلاء المسلمون الذي تحولوا بين عشية وضحاها إلى مسيحيين هم من نسميهم بالمورسكيين.

خلال حكم كارلوس الأول^(٨) لم تكن هناك مشاكل كثيرة (باستثناء تعرض مورسكيي بلنسية لاعتداءات متكررة من طرف بعض الجماعات الثائرة على سلطة النبلاء)، فالمورسكيون حافظوا على لغتهم وثقافتهم لكنهم تحولوا بسبب ذلك إلى أقلية غير مندمجة اجتماعيًا، وكانت أحوالهم خلال تلك الفترة أسوأ من المسيحيين، لأن السادة عاملوهم في الغالب معاملة الأقنان.

أما في عهد فيليبي الثاني^(٩) فقد تم ربط الوجود المورسكي بالصراع العثماني الإسباني، واتهم المورسكيون بربط علاقات بالعثمانيين وبالقراصنة^(١٠) الذين كانوا يهاجمون السواحل والسفن الإسبانية انطلاقًا من إفريقيا الشمالية، وخلال نفس الفترة وبالضبط سنة ١٥٦٦ صدرت مراسيم تمنع استعمال اللغة العربية، وتحضر ارتداء أنواع معينة من الملابس، وعددًا من العادات التي كان يحرص عليها المورسكيون، فاندلعت ثورة عنيفة بقيادة محمد بن أمية^(١١) وهي الثورة التي انتهت بتشريد مورسكيي غرناطة، وجبال البشرات وجبال رنزة في أراضي قشتالة، وبذلك توزع المورسكيون على مناطق كثيرة وأصبح المشكل المورسكي عامًا، فاقترح البعض تهجير المورسكيين إلى خارج إسبانيا لكن هذا الاقتراح تأجل تطبيقه عدة مرات بسبب ضغط النبلاء الأراغونيين والبلنسيين، وبسبب الظروف الداخلية والخارجية غير المساعدة.

بعد وصول فيليبي الثالث^(١٢) إلى كرسي الحكم عقب وفاة والده سنة ١٥٩٨، قام برحلة إلى إقليم بلنسية برفقة مستشاره^(١٣) فرانسيسكو غوميث دي ساندوفال^(١٤) (الذي يعرف عنه اطلاعه الدقيق على المسألة المورسكية ومعارضته لطرده المورسكيين). غادر الملك الإقليم سنة ١٥٩٩ وهو مطلع على الوضع الديموغرافي والسياسي بشرق إسبانيا، ولذلك بعث لرئيس أساقفة بلنسية خوان دي ريبيرا^(١٥) (الذي كان مساندًا لفكرة طرد المورسكيين) يأمره فيها بمضاعفة الجهد لتنصير أكبر عدد من المورسكيين عن طريق الوعظ والتعليم الديني.

أما رجال البلاط الإسباني، فقد كان أغلبهم ينظر إلى المشكل من وجهة نظر سياسية عسكرية واضعين نصب أعينهم إمكانية استغلال المورسكيين ضد إسبانيا من طرف قوة خارجية، وقد آزر هذا الرأي عدد من رجال الدين الذين كانوا يساندون فكرة الطرد، منهم الراهب الدومينيكاني خايمي بليدا^(١٦) والأسقف خوان دي ريبيرا الذي التمس من الملك طرد المورسكيين مرتين، المرة الأولى في رسالة مؤرخة بـ دجنبر ١٦٠١ قال فيها أنه إذا لم يطرد المورسكيون "فسوف يرى ضياع إسبانيا في حياته"، والثانية

مؤرخة في يناير سنة ١٦٠٢ وصف فيها المورسكيين بالهراطقة الذين خانوا الرب والملك.^(١٧)

أما واعظ الملك، الراهب خيرونيمو خابيري^(١٨) فقد انتقد سنة ١٦٠٧ فكرة الطرد التي اقترحها الأسقف دي ريبيرا، بل اعتبره مسؤولًا عن فشل محاولات تنصير المورسكيين في بلنسية مناطق شرق إسبانيا، مما يؤكد أن البلاط الملكي الإسباني كان منقسمًا بين من يؤيدون الطرد ومن يؤيدون السير قدمًا في تنصير المورسكيين، لكن هذا الوضع تغير سنة ١٦٠٨ حيث أجمع أعضاء مجلس الدولة على فكرة الطرد.^(١٩)

يرى أنطونيو دومينيغيث أورطيث وبرنارد فانسون أن السبب هو تغير موقف مستشار الملك فرانسيسكو غوميث دي ساندوفال (دوق ليرما)، الذي ربما أقنع أعضاء المجلس (وخصوصًا النبلاء الذين كانوا يحصلون من المورسكيين على منافع ومداخل مادية وعينية في إطار العلاقات الفيودالية) بأنهم سوف يعوضون عن خسائرهم عن طريق السماح لهم بالاستيلاء على أملاك وعقارات المورسكيين في حال طردهم. وبالإضافة إلى الترغيب، استعمل دوق ليرما التهريب على اعتبار أن المورسكيين يشكلون خطرًا على النبلاء وعلى كل إسبانيا لأن عددهم كان يتزايد باستمرار خصوصًا في منطقة بلنسية والقنت^(٢٠) وسرقسطة، حيث وصل عددهم في هذا المناطق إلى أكثر من مائتي ألف.^(٢١)

ودائمًا حسب أنطونيو دومينيغيث أورطيث وبرنارد فانسون، فإن اتخاذ الملك قرار الطرد لم يكن فقط بتأثير من دوق ليرما ومجلس الدولة، بل أيضا بإيعاز وتشجيع من زوجته الملكة مارغريت النمساوية^(٢٢) الذي قال عنها الكاهن الذي قام بطقوس جنازتها أنها كانت "تحمل الحقد المقدس للمورسكيين"، وأنها "سبب أعظم الوقائع في كل تاريخ إسبانيا".^(٢٣)

ناقش مجلس الدولة مسألة المورسكيين في جلسات بدأت يوم ٢٢ نونبر ١٦٠٨، واستمرت إلى غاية شهر مارس ١٦٠٩، (في هذه السنة تم توقيع الهدنة مع الثوار البروتستانت الهولنديين) بحضور العديد من الأساقفة الذين طلب منهم أن يدلوا بأرائهم، فعارض البعض وساندت الأغلبية، وهكذا بدأت الاستعدادات الفعلية لتنفيذ قرار الطرد هذا، وكان أبرز هذه الاستعدادات إصدار مرسوم الطرد القسري لمورسكيي بلنسية والذي وقعه الملك فيليبي الثالث يوم ١٩ أبريل ١٦٠٩ وتم تعميمه يوم ٢٢ شتنبر ١٦٠٩^(٢٤) شهرًا قليلة بعد ذلك وبالضبط في دجنبر من نفس السنة صدر مرسوم طرد المورسكيين من سائر المناطق الإسبانية، لينتهي بذلك فصل آخر من فصول مآسي الأندلسيين المتأخرين.

لغة الوثيقة

كتب الوثيقتان بالإسبانية التي كانت متداولة خلال القرون (١٥، ١٦، ١٧) وهي التي يسميها المختصون "إسبانية العصر الذهبي"، وهي تختلف قليلاً عن الإسبانية المعاصرة. فقد صادفنا بعض التعابير والكلمات والتراكيب المتروكة، إلا أن أهم فرق بين ما كان سائداً في تلك الفترة وما هو متداول حالياً هو الحروف، فقد استخدم الكاتب مثلاً حرف (f) بدلاً من (s)، واستخدم حرف (u) بدلاً من (v)، واستخدم حرف (g) بدلاً من (j)، وحرف (y) بدلاً من (i)،... فكلمة مورسكي مثلاً التي تكتب بالإسبانية المعاصرة بهذه الطريقة (Morisco)، أما في الوثيقة فكتب هكذا (Morifco). إلا أن هذا لم يطرح أمامنا أية مصاعب، في حين أن المشكلة الأساسية التي واجهناها هي عدم وجود مرادفات عربية لبعض الكلمات المغرقة في المحلية والتي ليس لها مرادف حتى في اللغات الأوربية الأخرى، لذلك حاولنا تقريب المعنى للقارئ عن طريق اختيار الكلمات التي نراها مناسبة والأقرب إلى المعنى المقصود مع شرح الكلمة في الهامش.

اسم الوثيقة الأولى بالإسبانية:

Bando de expulsion de los moriscos del rieno de Valencia publicado en la capital el dia 22 de septiembre de 1609
أي مرسوم طرد مورسكي مملكة بلنسية^(٢٥) الذي جرى تعميمه في العاصمة يوم ٢٢ شتنبر / سبتمبر ١٦٠٩.

مصدر الوثيقة الأولى:

عثرنا على هذه الوثيقة في الموسوعة المعنونة ب:
Colección de Documentos históricos para la historia de España, de D.Miguel Salvá y D.Pedro Sainz de Baranda, Academia de la Historia, Tomo XVIII, Madrid, 1851. pp 5-11.

هذه الموسوعة المكونة تشكل عملاً أكاديمياً مهماً، حيث تضم الآلاف من الوثائق المتعلقة بتاريخ إسبانيا وعدد منها لها علاقة وثيقة بالتاريخ الأندلسي وبتاريخ المورسكيين، وقد أشرف على جمع النصوص كل من الدكتور ميغيل سالبا، والدكتور بيدرو ساينز دي براندا، وطبعتها الأكاديمية الملكية للتاريخ.
نشر مرسوم طرد مورسكي بلنسية ضمن الجزء (١٨) قسم الوثائق الدبلوماسية في الصفحات من ٥ إلى ١١. وينبغي أن أشير إلى أنني اطلعت على نسخة أصلية محفوظة في الأرشيف البلدي لمدينة القنت، وهي وثيقة لا تحمل أي رقم مرجعي، كما أنها متطابقة مع النسخة المنشورة ضمن الموسوعة السالفة الذكر.

اسم الوثيقة الثانية بالإسبانية:

Expulsion de todos los moriscos habitantes en estos reynos; y prohibicion de volver a ellos.
أي: "مرسوم طرد جميع مورسكي هذه الممالك^(٢٦) وحظر العودة إليها عليهم".

مصدر الوثيقة الثانية:

وقد نشرت هذه الوثيقة ضمن المجلد العاشر (الخاص بالجرائم والعقوبات) من موسوعة ضخمة تضم مجموع القوانين التي أصدرها الملوك الإسبان إلى غاية سنة ١٨٥٠، والوثيقة موجودة في الصفحتين ٥ و ٦ في القسم المتعلق بجرائم المسلمين والمورسكيين وعقوباتها.
Los codigos Españoles concordados y anados. Tomo decimo. Novisima Recopelacion de los Leyes de España Tomo IV. Que contiene el libro duodecimo; suplemento e indice. Madrid 1850. pp. 5 – 6.

الوثيقة الأولى

مرسوم الطرد القسري لمورسكيي مملكة بلنسية

المنشور في العاصمة يوم ٢٢ شتنبر ١٦٠٩

الملك، ومن جلالتة

من دون لويس كاريو دي طوليدو^(٢٧)، ماركيز كارثينا، سيد بلدة بنتو وبلدة إينيس، قائد [فرسان رهبانية القديس يعقوب^(٢٨) في] شنكلانا وموتتي سون^(٢٩)، نائب الملك وقائد قواته [في مملكة بلنسية]، وحاكم هذه المدينة وكل مملكة بلنسية بتكليف من جلالتة.

إلى الكبراء، الأساقفة، النبلاء، البارونات، الفرسان، القضاة، نقباء المدن والبوادي، الحكام، وكل موظفي جلالة الملك، المواطنين، سكان هذه المملكة.

توصلت من جلالة الملك برسالة مؤرخة ب ٤ غشت من هذه السنة موقعة بيده الملكية ومؤشر عليها من طرف أمين سر الدولة أندريس دي برادا^(٣٠) ورد فيها ما يلي:

ماركيز كارثينا، صديقي ونائبي، الحاكم العام لمملكة بلنسية، تعلم الجهود التي بذلت خلال السنوات الطويلة الماضية لتنصير مورسكيي هذه المملكة ومملكة قشتالة، ومراسيم النعمة^(٣١) التي أصدرت، والمسعاي الكثيرة التي بذلت لتلقيهم تعاليم إيماننا المقدس (رغم المخاطر والخسائر التي كان من الممكن أن يؤدي إليها التساهل معهم). وتعلم أيضاً أن كل ذلك انتهى إلى الفشل، حيث لم يتنصر أحد. بل بالعكس، زاد تعنت هؤلاء المورسكيون أكثر.

وقبل أيام قليلة قدم لي عدد من العلماء، الأتقياء، الحل الناجع، والضروري، والذي يرضي الضمير ويرضي الرب.

لقد شاروا علي بأنه يمكن معاينة أولئك المشبوهين بالقتل والمصادرة لأنهم مصرون على معاصيهم، ولأنهم هراطقة، ملاحدة، خونة للرب وللملك.

وعلى الرغم من أنني يمكنني أن أعاقبهم بالصرامة التي تستوجبها خطاياهم لكن لا تزال تحدوني الرغبة في تقليص عددهم برفق ولين.

ولهذا أمرت بتشكيل لجنة تضم في عضويتها نائب الملك والأسقف وكبار رجال الدين وذوي الخبرة لتدارس كيفية ترحيل المطرودين من مملكتنا. فأنا قد تأكدت من حجم الضرر الذي يتسبب فيه المورسكيون المقيمون في مملكة بلنسية والمقيمون في مملكة قشتالة، حيث وصلتني أخبار مؤكدة أجمعت على استمرارهم في الكفر والعصيان. كما وصلتني أخبار عن عزمهم إثارة الفوضى في مناطق متعددة من ممالكنا. ورغبة مني في الوفاء بتعهداتي في الحفاظ على أمن المواطنين وممتلكاتهم وقمع الفتن

والهرطقات وبشكل خاص في مملكة بلنسية، وبعد أن توكلت على الرب والتمست عونهُ، قررت أنه على جميع مورسكيي مملكة بلنسية الخروج إلى شمال إفريقيا^(٣٢) وليتحقق هذا القرار بالشكل المطلوب أمرنا بتعميم هذا المرسوم:

١- في البداية نؤكد أنه يجب على جميع مورسكيي هذه المملكة رجالاً ونساء، ومعهم أطفالهم، وفي غضون ثلاثة أيام من تعميم هذا المرسوم، مغادرة مساكنهم ومناطق سكنهم الأصلية، والاتصال بالمسؤولين وإطاعة أوامرهم، ويمكنهم أن يحملوا معهم ما شأؤوا من الأمتعة وكل ما يحتاجون إليه، حيث سيتم إركابهم في السفن والمراكب التي ستعبر بهم إلى شمال إفريقيا دون أن يتعرضوا للمعاملة السيئة أو الإهانة أو الإزعاج، ونعلمهم أنه يمكنهم أخذ كل ما يستطيعون، كما سيتم التكلفة بالمؤن الكافية لرحلة عبورهم، كما نحذر من أن أي عصيان لمضامين هذا المرسوم، سيكون عقابه الإعدام الفوري.

٢- بعد ثلاثة أيام من تعميم هذا المرسوم، فلن يسمح بوجود أي مورسكي في منزله أو في منطقته الأصلية، وإنما على الجميع أن يكونوا في طريقهم إلى أقرب مرسى ليتم إركابهم منه إلى بلاد المسلمين، وأي مورسكي عصى هذا الأمر يعتقل، ويسلم إلى أقرب محكمة ليلقى جزاءه، وإذا قاوم يقتل على الفور.

٣- يُعاقب بنفس العقوبة كل مورسكي يلقي عليه القبض وهو متوجه إلى مكان آخر غير المكان الذي سيتم منه إركاب المورسكيين ليغادروا صوب شمال إفريقيا، وعلى المورسكيين التزام منازلهم لغاية وصول المسؤولين الذين سيشرفون على عملية الترحيل.

٤- إذا قام أحد المورسكيين بإخفاء أو طمر بعض من أملاكه المنقولة التي عجز عن حملها، أو قام بإضرار النار في منزل أو حقل مزروع أو بستان أو أشجار، فسيعاقب بالموت سكان المكان حيث وقع الحادث.

ويأمر جلالة الملك الجميع بما في ذلك السادة والأقنان بضرورة الحفاظ على العقارات والممتلكات المنقولة التي سيخلفها المورسكيون.

٥- ومن أجل الحفاظ على المنازل ومعامل السكر والمرزات وقنوات الري، يمكن إعلام السكان الجدد بإمكانية القدوم والاستقرار، كما تفضل جلالة الملك فاستجاب للاستعطافات، فأمر بأن تبقى ست أسر من كل مائة أسرة بما في ذلك الزوجة والأبناء غير المتزوجين ولا المقبلين على الزواج ولا الذين هم في عمر الزواج، على أن يكونوا تحت رعاية أولياء أمورهم مع إمكانية تكيف هذا الإجراء حسب الأحوال السائدة وحسب خصائص كل منطقة.

وليكن في علم الجميع، أن الرسائل الإخبارية قد تم إرسالها بالطريقة الاعتيادية من القصر الملكي ببلنسية يوم ٢٢ شتنبر ١٦٠٩.

الماركيز دي كاراثينا

يأذن من فخامته مانويل دي إسبينوسا^(٣٤)

سيتكلف الأسىاد باختيار الأسر التي ستبقى، وعليهم إعلامنا بالأشخاص الذين تم اختيارهم للبقاء، وعدد من سمح لهم بالبقاء في أراضي جلالة الملك.

ونؤكد على أن يكون المختارون للبقاء من كبار السن الذين أبانوا على أنهم مسيحيون مؤمنون فقط بعقيدتنا الكاثوليكية، وعلى أن تكون مهمتهم الوحيدة العناية بالأرض.

٦- يُمنع على جميع المسيحيين القدماء والجنود سواء كانوا من هذه المملكة أو من غيرها أن يوجهوا أية إهانة، أو أن يقوموا بأي فعل يزجج المورسكيين، كما نحذر من أن يقترب أحد منهم أو من أبنائهم أو من نسائهم أو من ممتلكاتهم أو من أي أحد يرافقهم.

٧- نحذر المورسكيين من إخفاء أية ممتلكات في منازلهم، ونحذر الجميع من مد يد المساعدة لهم تحت طائلة العقاب سبع سنوات من التجديف، أو بعقوبات أخرى تقدر حسب طبيعة الجريمة.

٨- ليكن في علم المورسكيين، أن الهدف الوحيد لجلالة الملك هو إخراجهم من مملكتهم، وبأنه لن تتم مضايقتهم أثناء خروجهم، كما أنه يأذن لعشرة مورسكيين من الذين سيرحلون مع أول رحلة بالتوجه إلى شمال إفريقيا للاطلاع على أخبارها ثم العودة بعد ذلك لإسبانيا. وكذلك الأمر مع كل دفعة جديدة. كما أن جلالة الملك سيعطي أوامره لكل ربانة السفن وقادة الجنود العاملين عليها ليمنعوا كل بحار وجندي من توجيه أية إهانة أو إساءة إلى أحد المورسكيين المرحلين.

٩- لا يطرد الاطفال من الجنسين تحت سن الرابعة الراغبون في البقاء، والذين تولى عنهم آبائهم بل يعتبرون أيتامًا.

١٠- لا يطرد الاطفال تحت سن الست سنوات ولا أمهم المورسكية إذا كان أبوهم مسيحيًا قديمًا. أما إذا كان الأب مورسكيًا والأم من المسيحيين القدماء فيطرد الأب، في حين يبقى الاطفال تحت سن ست سنوات مع أمهم.

١١- يُسمح بالبقاء لمن ثبت أنه مسيحي حقيقي، وملتزم ويعيش بين المسيحيين منذ مدة طويلة ولم يسبق له أن كان عضوًا في جماعة^(٣٣) مورسكية.

١٢- يُسمح بالبقاء لمن تم تعميدهم، الحاصلين على شهادة خاصة من طرف أساقفة مناطق إقامتهم الأصلية.

١٣- يأذن صاحب الجلالة للمورسكيين الراغبين في المغادرة إلى وجهة أخرى (غير شمال إفريقيا) بالخروج من إسبانيا، لكن دون المرور بممالك إسبانيا لأن عليهم المغادرة داخل الاجال المحددة.

هذه هي أوامر جلالة الملك، ويجب أن تطبق البنود المتضمنة في هذا المرسوم بكل صرامة، ومن تجرأ على مخالفتها فسوف يعاقب بدون رحمة.

الوثيقة الثانية

مرسوم طرد المورسكيين من سائر أراضي مملكة إسبانيا

حاولنا لمدة طويلة تنصير مورسكيي هذه الممالك، كما عاقبهم ديوان التفتيش المقدس بعدد من العقوبات بالموازاة مع إصداره للعديد من مراسيم النعمة، ولم يترك وسيلة ولا أسلوبًا لتلقيهم عقيدتنا المقدسة إلى اتباعه بدون أن تتحقق النتيجة المرجوة لأنه ما من أحد قد تنصر حقيقة.

وحيث أن لا أحد تنصر بسبب العناد المتعاضم، ونظرًا للخطر الداهم الذي يشكله هؤلاء المورسكيون على ممالكنا - في حال بقائهم - فإني استشرت عددا من ذوي الخبرة والإيمان الراسخ بالرب، فأشاروا علي بالحل الناجح.

لقد أشاروا علي بأنه من الجائز أن نوقع بهم العقاب - ونحن نستطيع ذلك - في الأرواح والممتلكات لأنهم أهانوا الرب طويلا، ولأنهم مصرون على معاصيهم، ولأنهم أيضًا هراطقة ملاحدة خونة للرب والملك.

ورغم أنه بإمكاننا معاقبتهم بالصرامة التي تستوجبها جرائمهم، لكن تحدونا الرغبة في تقليص عددهم برفق ولين.

لقد أمرنا بتشكيل لجنة في بلنسية ومملكتها، تضم في عضويتها الأسقف ورجال الدين وأهل الخبرة لتنظر في شأن من يتوجب طردهم، ولتشرف على الحل الذي وقع اختيارنا على تطبيقه. وقد تمكنا من التخلص من مورسكيي تلك المملكة مع ضررهم، ولدينا أخبار مؤكدة بأنهم بعثوا رسائل إلى مدينة القسطنطينية للاتصال بالتركي^(٣٥) وإلى مدينة مراكش للاتصال بالسلطان مولاي زيدان^(٣٦) ليمدوهم بالعساكر والدعم والنجدة، وقد ذكروا في هذه الرسائل أن بإمكانهم تجنيد أكثر من مائة ألف رجل، بالإضافة إلى المتطوعين من المغاربة الذين سيضجون بأرواحهم وأموالهم كما يأملون أن يكون الانتصار سهلاً.

وقد كرروا الخطاب نفسه في رسائل أخرى أرسلت إلى عدد من أعدائنا الرئيسيين.

وبالنظر إلى كل ما ذكرناه سلفًا، والتزامًا بواجبنا في حماية ورعاية الإيمان الكاثوليكي المقدس، وحرصنا على السلام والأمن، واستجابة لما أشار به المجلس المكون من رجال متفانين في الإخلاص للرب لذا أمرنا بما يلي:

على جميع المورسكيين من سكان هذه الممالك رجالًا ونساءً وأطفالًا - سواء كانوا مولودين بها أو من الأجانب - باستثناء العبيد - أن يخرجوا من هذه الممالك إلى خارج حدود إسبانيا في غضون ثلاثين يومًا تبدأ من يوم تعميم هذا القانون، ونمنع عليهم العودة إليها تحت طائلة العقاب بالإعدام والمصادرة. هذه العقوبات التي أعطي الإذن منذ الآن بتنفيذها في المخالفين دون حاجة إلى محاكمة.

١- نأمر ونحضر على جميع السكان والمقيمين في هذه الممالك والإقطاعات من أي طبقة وأي حالة وأي درجة من درجات النبلاء، بعدم استقبال أو قبول أو إيواء أو تقديم الحماية سرًا وعلنًا لأي مورسكي وأية ومورسكية بعد انصرام الأجل الذي حددناه دائمًا وإلى الأبد، سواء في أراضيهم أو مساكنهم أو في أي مكان آخر تحت طائلة المصادرة الشاملة للأموال والإقطاعات والحصون وغيرها من العقارات لصالح الخزينة الملكية دون أية إمكانية للعفو عن من قد تتم معاقبته.^(٣٧)

٢- يمكننا ولنا الحق في ذلك أن نأمر بمصادرة كل ممتلكات المورسكيين العقارية والمنقولة بسبب جرائمهم المرتكبة ضد الرب والملك، لكنني سأكون رحيمًا بهم حيث سأترك لهم حرية التصرف طيلة المهلة التي حددناها في ثلاثين يومًا، حيث يمكنهم مبادلتها (ليس بالنقد والذهب والفضة والحلي والصكوك) ولكن بالسلع المسموح بها من مواطني هذه الممالك وليس من غيرهم.^(٣٨)

٣- وليستفيد المورسكيون والمورسكيات من المهلة التي حددناها في ثلاثين يومًا، فقد رخصنا لهم أن يتصرفوا بالبيع والشراء في المحاصيل والغلال، لكننا حظرنّا عليهم التصرف في العقارات التي ستصير إلى الخزينة الملكية لتوظف في خدمة الرب والصالح العام.

ويبدو لنا أنه من الضروري أن أشير إلى أننا نضمن سلامتهم وسلامة أملاكهم خلال المهلة المحددة، ليمكنوا من السفر في أمان، وليمكنوا من البيع والشراء والمقايضة والتصرف في أملاكهم المنقولة، كما رخصنا لهم استعمال نقود الذهب والفضة والحلي في شراء السلع من مواطني هذه الممالك، ولهم حرية التصرف في تلك السلع والغلال بحرية، ونحذر من التعرض لهم شخصيًا أو الاعتداء على ممتلكاتهم، ونحذر الجميع من أن خرق هذا الأمان الملكي سيعرض مرتكبه للعقوبات الجاري بها العمل.

٤- وكذلك أسمح وأجيز لهؤلاء المورسكيين والمورسكيات بأن يخرجوا من ممالكهم وإقطاعاتهم البضائع والثمار عبر البر والبحر، مقابل أداء المكوس الجاري بها العمل، ولكن بشرط ألا يخرجوا ذهبًا ولا فضة ولا أية نقود مسكوكة ولا أية أشياء ثمينة، ونرخص لهم بإخراج المقدار الضروري الكافي لخروجهم سواء خرجوا برًا أو بحرًا.

(١٥) **خوان دي ريبيرا**: (١٥٣٢ - ١٦١١) رجل دين وسياسي إسباني شغل

منصب رئيس أساقفة بلنسية من سنة ١٥٦٩ إلى حين وفاته ومنصب

نائب الملك بإقليم بلنسية من سنة ١٦٠٢ إلى ١٦٠٤.

(١٦) **خايمي بليدا**: (١٥٥٠ - ١٦٢٢) راهب كان ينتمي للرهبنة الدومينيكانية

كان له دور في عملية طرد المورسكيين عرف بمؤلفه حوليات مسلمي

إسبانيا.

(17) Domínguez Ortiz, Antonio; Vincent, Bernard (1993).

Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría.

Madrid: Alianza Editorial. Pp. 164.

(١٨) **خيرونيمو خابيري**: (١٥٤٦ - ١٦٠٨) رجل دين كاثوليكي إسباني

شغل منصب رئيس الرهبنة الدومينيكانية.

(19) Domínguez Ortiz, Antonio; Vincent, Bernard (1993). Pp.

170.

(٢٠) **القنت (Alicante)**: إحدى من شرق إسبانيا تقع بالقرب من بلنسية

وتتبع حاليا منطقة الحكم الذاتي لبلنسية.

(21) Kamen, Henry (2011). La Inquisición Española. Una

revisión histórica (3ª edición). Barcelona. Pp. 219.

(٢٢) **مرغريت النمساوية**: (١٥٨٤ - ١٦١١) ملكة إسبانيا وزوجة الملك

فيليب الثالث.

(23) Domínguez Ortiz, Antonio; Vincent, Bernard (1993). Pp.

162.

(24) Domínguez Ortiz, Antonio; Vincent, Bernard (1993). Pp.

171.

(٢٥) كانت بعض مناطق اسبانيا تحمل تسمية مملكة كمملكة قشتالة

القديمة ومملكة قشتالة الجديدة ومملكة أراغون ومملكة مورسية...

في حين كانت مناطق أخرى تحمل تسميات مختلفة من قبيل إمارة أو

كونتيية... وهذا طبقاً من بقايا النظام الفيوذالي.

(٢٦) المقصود بالمالك المناطق المختلفة التابعة للتاج الإسباني مع العلم

أن مورسكي وبرشلونة وأراغون ومرسية طردوا بمراسيم خاصة أكثر

تدقيقاً وانتقائية صدرت سنة ١٦١٠.

(٢٧) **لويس كاريدو دي توليدو**: (١٥٦٤ - ١٥٢٦) سياسي وعسكري إسباني

شغل مجموعة من المناصب المرموقة خلال حكم فيليب الثالث

كما عينه فيليب الرابع مستشاراً.

(٢٨) **رهبانية القديس يعقوب**: إحدى الرهبانيات العسكرية التي حاربت

المسلمين خلال ما يعرف بحروب الاسترداد تأسست بمملكة ليون

خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

(٢٩) شيكلانا (Chiclana)، ومونتني سون (Montison) مواقع توجد حالياً

في مقاطعة جيان.

(٣٠) أندريس دي برادا إي غوميث دي سانطيا: (١٥٤٥ - ١٦١١) شغل

منصب أمين سر الملك فيليب الثاني وبعد وفاته عينه الملك فيليب

الثالث في منصب أمين سر مجلس الدولة.

(٣١) مرسوم النعمة (Edicto de gracia): إندازر كان يرسله ديوان التفتيش

المقدس إلى القرى والبلدات التي كان يشك أن أهلها يتسترون على

أحد الهراطقة وقد هذا الإنذار يمنح مهلة للمتهمين لتسليم أنفسهم

والاعتراف على أن يتم العفو عنهم وفي حالة انصرام المهلة دون

اعتراف أحد يحضر المفتشون.

(٣٢) ترجمنا كلمة (Brabaria) التي تعني أرض البربر بشمال إفريقيا.

(١) **المدجنون**: هم مسلمون بقوا في المناطق التي استولى عليها

المسيحيون، ولم يتنصروا، لكنهم أجبروا على ذلك في أوائل القرن

السادس عشر بموجب مرسوم ١٥٠٢/٠٢/١٧.

(٢) **فرناندو الثاني**: (١٤٥٢ - ١٥١٦) أحد الملوك الكاثوليك، ملك

أراغون ثم اسبانيا بعد وحدتها مع قشتالة.

(٣) **إيزابيلا الأولى**: (١٤٥١ - ١٥٠٤) ملكة قشتالة ثم إسبانيا بعد وحدتها

مع مملكة أراجون، كانت لقراراتها أثار عظيمة في تاريخ أسبانيا.

(٤) **فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس**: (١٤٣٦ - ١٥١٧) كاردينال

إسباني، شخصية مهمة ومؤثرة في التاريخ الإسباني، حيث تولى عدداً

من المناصب أهمها: أمين سر الملكة إيزابيلا، وكبير المفتشين محاكم

التفتيش، ورئيس أساقفة إسبانيا.

(٥) **معاهدة تسليم غرناطة**: معاهدة وقعت بتاريخ ٢٥ / ١١ / ١٤٩١ من

طرف أبي عبد الله بن الأحمر آخر ملوك غرناطة من جهة وفرناندو ملك

أراغون وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة من جهة ثانية وقد التزم أبو عبد

الله في هذه المعاهدة بتسليم غرناطة مقابل جملة من الشروط التي

نقضاها الإسبان فيما بعد.

(٦) أبو عبد الله بن الأحمر: آخر ملوك مملكة غرناطة من بني نصر وهو

ابن أبو الحسن علي بن سعد، الذي خلعه من الحكم وطرده من البلاد

سنة 1482، سماه الإسبان (El Chico) أي الصغير وسماه الغرناطيون

بالزغبيني (المنحوس) سلم غرناطة للملكين الكاثوليكين يوم ٢ يناير

١٤٩٢ وتوفي في فاس سنة ١٥٢٧.

(٧) **البشرات**: منطقة تاريخية تقع في جنوب إسبانيا، إلى جنوب جبال سييرا

نيفادا قرب غرناطة في منطقة الأندلس ذاتية الحكم. يقع القسم الغربي

منها في إقليم غرناطة ويقع القسم الشرقي منها في إقليم المرية.

(٨) **كارلوس الخامس هابسبورغ**: (١٥٠٠ - ١٥٥٨)

ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. توج ملكاً

لإسبانيا باسم كارلوس الأول وملك إيطاليا وأرشيدوق

النمسا ورأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

(٩) فيليب الثاني: (١٥٢٧ - ١٥٩٨) ملك إسبانيا فيما بين ١٥٥٦ و ١٥٩٨ يُعدّ

أحد أعظم ملوك إسبانيا وقعت خلال مدة حكمه ثورة البشرات التي

شرد بسببها مورسكيو غرناطة والبشرات وجبال رندة.

(١٠) تسمى القرصنة في المدونات التي كتبها المؤرخون المسلمون بالجهاد

البحري.

(١١) **فيرناندو دي بالور** أو محمد بن أمية: (١٥٢٠ - ١٥٦٩) قائد أندلسي

مسلم قاد ثورة مسلمي الأندلس ضد الملك فيليب الثاني، التي

عرفت بـ "حرب البشرات".

(١٢) **فيليب الثالث**: (١٥٧٨ - ١٦٢١) ملك إسبانيا والبرتغال من سنة

١٥٩٨ إلى وفاته خلال عهده طرد المورسكيون من إسبانيا.

(١٣) كان فرانثيسكو غوميث دي ساندوفال يحمل لقب (Valido) الذي

لم نجد له مقابلاً في اللغة العربية فترجمناه بالمستشار مع العلم أن

مَنْ حملوا هذا اللقب كانوا تمتعون بقرب كبير من الملك وبسلطات

واسعة.

(١٤) فرانثيسكو غوميث دي ساندوفال (١٥٥٣ - ١٦٢٥) سياسي إسباني

كان مقرراً للملك فيليب الثالث لعب دوراً مهماً في عملية طرد

المورسكيين.

(٣٣) هكذا في الأصل (Aljama) ومعلوم أن هذه الكلمة تشير إلى التجمعات المسلمة واليهودية التي كانت تعيش تحت الحكم القشتالي إلا أنه بعض طرد اليهود سنة ١٤٩٣ وتخيير المسلمين بين التنصر والرحيل سنة ١٥٠٢ صار تشكيل الجماعات المسلمة واليهودية محظورًا.

(٣٤) **مانويل دي إسبينوسا:** لم نعثر على ترجمة له ولعله كان كاتب سر نائب الملك على بلنسية لويس كاري ودي طوليدو.

(٣٥) هكذا في الأصل والمقصود طبقًا هو السلطان العثماني أحمد الأول (١٥٩٠ - ١٦١٧) الذي حكم من سنة ١٦٠٣ إلى سنة ١٦١٧.

(٣٦) **مولاي زيدان:** أحد سلاطين الدولة السعدية حكم مملكة مراكش سنة ١٦٠٣ إلى سنة ١٦٣٧ حيث أن الدولة السعدية انقسمت (مملكة فاس ومملكة مراكش) بعد وفاة أحمد المنصور السعدي.

(٣٧) لاحظ أن هذه التحذيرات موجهة أساسًا للنبلاء لعلهم أنهم سيتضررون من طرد المورسكيين، ولأنهم سبق وأن دافعوا عن المورسكيين بإصرار خصوصًا خلال حكم الإمبراطور كارلوس الأول.

(٣٨) كان الفكر الاقتصادي الرائج آنذاك في أوروبا هو الفكر الميركنتيلي الذي يعتبر أن قوة الدولة تتحدد حسب مقدار ما تملكه من ذهب وفضة، لذلك منع الإسبان إخراج المعادن الثمينة ليس فقط على المورسكيين ولكن الجميع وخصوصًا على التجار.



عندما يتحدث الحجر؟ السياسة والعمارة

أ.د. خالد عزب

رئيس قطاع المشروعات والخدمات المركزية
مكتبة الإسكندرية
جمهورية مصر العربية



مقدمة

هل يتحدث الحجر أم أنه أصم لا يتكلم ؟ لاشك أن مكتشفات العلم الحديث جعلت عالم الأحجار عالمًا من المكونات الدقيقة المركبة المتنوعة، لكن في عالم العمارة درجنا على أن ننظر للحجر على أنه جماد تم تشكيله بشكل وظيفي وجمالي ليقدم منشأً معماريًا، أو ليقدم تحفة فنية، لكننا هنا سنحاول إقامة حوار مع الحجر سنجعله يتحدث لنا بلغة تعبر عن تفسيره لعلاقته مع السلطة ومدى انعكاس السلطة على تشكيله، إننا سنكتشف إنه سجل حافل للعلاقة بين قوة السلطة وصولجانها، وبين العصر ومقتضياته ومعطياته السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية، ولأن العمارة أفضل الأمثلة للتدليل على ما نذهب إليه في هذا الشأن، فسوف تكون العمارة الإسلامية هي الساحة التي سنجرى عبرها هذا الحوار مع الحجر.

كلمات مفتاحية:

العمارة الإسلامية، السياسة والعمارة، الدلالات المعمارية، قبة الصخرة، مدينة الإسكندرية

ولكن منذ سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م)، حين وسط المظفر قطز أحد سلاطين المماليك أحد رسل التتار بظاهر باب زويلة، ثم علق رؤوس رسل التتار الأربعة على باب زويلة. اكتسب الباب منذ ذلك الوقت وظيفة سلطوية سياسية خاصة مع تلاشى دوره الحربي، وتوالت حوادث الإعدام عليه، منذ ذلك الحين حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وأعدم السلطان المملوكي طومان باي آخر سلاطين المماليك على هذا الباب. وكان هذا الإعدام رمزًا لبداية عصر العثمانيين في مصر ونهاية عصر المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م). وفي العصر العثماني وعصر محمد علي توالت عمليات تنفيذ حكم الإعدام على هذا الباب حتى عصر الخديوي إسماعيل. كان لجلوس متولي الحسبة في القاهرة عند هذا الباب أثره في تغير اسمه لدى العامة إلى باب المتولي، وبمرور الوقت نسي الناس السبب الحقيقي لهذه التسمية، وتصوروا أن المقصود بالمتولي أحد الأولياء الصالحين، ومن ثم ظل هذا الباب يتقرب إليه بعض العامة بربط الخرق بمساميره.

بسؤال الحجر ما هي طبيعة علاقتك بالسلطة وكيف تعبر عنها؟ أجاب الحجر إجابة شافية مطولة علينا، فذكر أن هذه العلاقة تتكون من ثلاث مستويات، تتدرج من البساطة إلى العمق وهي كما يلي:-

(١)

- المستوى الأول: العمارة كشاهد سياسي، وهو يمثل أبسط نماذج هذه العلاقة، في هذا المستوى تكون العمارة سجلًا للعديد من الأحداث السياسية التي مرت عليها، أو حدثت في المنشأ المعماري، أو تركت أثرها عليها، ومن أمثلة ذلك باب زويلة أحد أبواب القاهرة التاريخية الذي شُيد في العصر الفاطمي، ليكون أحد أبواب حصن القاهرة مقر حكم الفاطميين في العاصمة المصرية، وكان ذا وظيفة حربية، إذ أنه كان يغلق على الحصن الذي كان يضم قصور الفاطميين ومسجدهم الجامع وجندهم ومواليهم.

كما يسعى السلاطين بإثبات انتصاراتهم على عمائرهم بصورة أو بأخرى، لتكون شاهداً على هذه الانتصارات، ومن ذلك تعليق خوذة ملك قبرص على باب مدرسة السلطان الأشرف برسباي في القاهرة، والتي انتهت من تشييدها سنة (٨٢٩ هـ / ١٤٢٥م)، وهى السنة التي فتحت فيها قبرص، وظلت هذه الخوذة باقية حتى القرن (١١١ هـ / ١٧م).

(٢)

- المستوى الثاني: الرمزية السياسية للعمارة، وهو يمثل أحد جانبي البنية العميقة. في هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العمائر شاع في العمارة الإسلامية. تتمثل هذه الرمزية في عدد من المدلولات المعمارية، يحمل بعضها مضموناً حضارياً وبعضها الآخر مضموناً سلطوياً سياسياً، ويجمع بينهما أحياناً بعض العماير ذات الدلالات المتعددة. تُعدّ قبة الصخرة والحرم القدسي الشريف حولها أبرز العماير التي تحمل مضامين حضارية يعود تشييد القبة إلى العصر الأموي، الذي شهد نزاعاً حضارياً بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم، واتخذ هذا النزاع صوراً متعددة. منها تعريب طراز أوراق البردي التي كانت تصنع في مصر. وتعريب للنقود في إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الديني والسياسي للمسلمين، فضلاً عن أن النقد العربي الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادي البيزنطي، لذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادي بتعريب النقود.

اتجه عبد الملك بن مروان في إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التي ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكري، ففي القدس تبنى مشروعاً ذا طابع سياسي ديني حضاري، يركز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسي الشريف خاصةً قبة الصخرة والمسجد الأقصى، لارتباط هذا الحرم بالعقيدة الإسلامية فهو أول القبليتين، وفيه صلى الرسول (ﷺ) بالأنبياء وإليه كان الإسراء ومنه كان المعراج. ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس، خاصةً كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين، ومع ما قد تحدثه عمارة الكنائس في نفوس بعض المسلمين، ورغبة عبد الملك في إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة، تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

ويلفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة، إبراز آثار الحرم، فهي تُعدّ أول عمل معماري واع لعظمته بل متباه بها، انتهى من بنائها سنة (٧٢ هـ / ٦٩٣م). وهى تُرى من مسافات بعيدة، وهى مبنية فوق صخرة مقدسة، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مئمن، شامخة في الهواء في مركز الحرم القدسي على تل من تلال القدس. وهذه القبة ذات التصميم الهندسي الذي يصل لحد الكمال والروعة كانت مزخرفة بالفسيفساء على كل

سطوحها داخلياً وخارجاً، وكانت ومازالت تبهر الراي حتى أن كثيراً ممن رأوها لم يملكو أنفسهم من إضفاء كل صفات البريق واللمعان عليها، مهملين في الوقت نفسه، للأسف، أن يخبرونا ماذا كانت تمثل تلك اللوحات الفسيفسائية؟ ولا نستطيع أن نحكم على موضوعات فسيفساء القبة حكماً كلياً؛ لأن جزءاً كبيراً من الفسيفساء الأموية فُقد، ولكننا نملك بعض الشواهد على هذه الموضوعات من فسيفساء الرواق المئمن الداخلي، يمكن عند ربطها بدقة عمارة القبة الانتهاء إلى الرمزية السياسية لها.

مخطط القبة ليس غريباً بالدرجة التي يبدو بها اليوم، يرى بعض المستشرقين وعلماء الآثار العرب أن تخطيط قبة الصخرة ذو أصل روماني يعرف بمخطط ضريح الشهيد، وهو عبارة الطواف حوله، وظيفته إذن طقوسية طوافية، وهو لهذا السبب استعمل في الفترة المسيحية المبكرة في بلاد الشام، وفي مجمل الأراضي البيزنطية، في عمارة العديد من الكاتدرائيات المهمة، ككاتدرائية بصري في حوران التي ما تزال بقاياها قائمة إلى اليوم، وكنيسة القيامة في القدس نفسها، وهما الاثنتان تعودان إلى فترة الحكم البيزنطي في عهد جستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥م). ولكن قبة الصخرة أكثر هذه المخططات توازناً هندسياً، وهى من دون أي شك قد قصد بها التمايز والتنافس مع قبة قبر المسيح في كنيسة القيامة التي تطل عليها من أعلى جبل موريا.

ويرى الدكتور فريد شافعي أن تخطيط قبة الصخرة لا يطابق أي تخطيط لنماذج العماير البيزنطية في منطقة بلاد الشام أو في غيرها، بل هو تحوير واقتباس منها ليتفق مع الغرض الذي شيد من أجله البناء وهو أن يحيط بالصخرة، وهى البقعة المباركة التي عرج منها محمد (ﷺ) إلى السماء حين أسرى به ربه من مكة المكرمة إليها. لذا فقد روعي في التخطيط أن يوفر غرض تعيين تلك البقعة، ثم غرض الطواف حولها للتبرك بها. وهو أمر يختلف تماماً عن الذي شيدت من أجله تلك العماير الدينية البيزنطية ذات التخطيطات المشابهة التي عادة ما توجه نحو الحنية. ولا تتعدد فيها المداخل كما تعددت في قبة الصخرة، ومهما يكن من أمر، فإن تخطيطات تلك العماير الدينية البيزنطية ليست ابتكارات بيزنطية أو سورية، بل كانت في الأصل تخطيطات رومانية دينية سابقة، أخذت بدورها من أصول إغريقية.

وتُعدّ فسيفساء قبة الصخرة من الناحية الحرفية امتداداً للفسيفساء البيزنطية في بلاد الشام والدولة البيزنطية، ولها العديد من الأمثلة في كنائس بلاد الشام والعاصمة القسطنطينية، وأشهرها آيا صوفيا، وكنائس سالونيك الإغريقية، غير أن فسيفساء قبة الصخرة ذات مواضيع معقدة في أصولها وكيفية اختيارها ومعانيها، فعلى خلاف النماذج البيزنطية التي تتشارك وإياها في التقنية، تركز لوحات قبة الصخرة على المواضيع اللاتينية، وتحصرها بالكتابات القرآنية والتسجيلية وبالتوريق والزخارف النباتية، بعض الأشكال الغامضة اليوم، والتي ربما

تكون تحويًا لتيجان ملوك ومستلزمات وظيفتهم من صولجانات ومجوهرات وما شابهها.

إننا هنا أمام تساؤلات عديدة تطرح نفسها عن هذا المبنى ورمزيته، إن التوجهات السياسية والإعلامية والعقيدة تبرز في الآيات القرآنية المختارة بدقة، وفي تركيز وضع صور تيجان الملوك في الرواق حول القبة وبمواجهتها فالنص القرآني يحتوى على كل الآيات التي تتكلم عن المسيح في موقعه الإسلامي المختار كنبي مرسل. والتيجان تبدو أشبه ما يكون بالتيجان الحقيقية للملوك المغلوبين، التي كان أباطرة الرومان والبيزنطيين يضعونها في معابدهم وكنائسهم كعلامات نصر ورمز إيمان بأفضلية معتقدتهم. وبالتالي يمكن هنا أن ننظر إلى هذين العنصرين الزخرفيين على أنهما بالنسبة لبناء قبة الصخرة وسيلتا دعاية لدينهم ولدولتهم المنتصرين، خاصة إذا تذكرنا أن قبة الصخرة قد بنيت في القدس التي كان أغلب سكانها المسيحيين ما زالوا يدينون بالولاء لإمبراطور القسطنطينية البيزنطي، في وقت كانت الدولة الأموية فيه في خضم صراع مرير مع البيزنطيين في شمال بلاد الشام.

إذن القبة مبنى معماري ذا رمزية سياسية ينبئ في القدس عن رغبة الدولة الأموية في بث حضارة جديدة تعبر عن أتباع الدولة المقيمين في المدينة، ويوجه رسالة إلى الآخرين عن مدى قوة الدولة ومضمون رسالتها. وظلت قبة الصخرة بلونها الذهبي، رمزاً لمدينة القدس، يعلوها الهلال الذي يوازي اتجاه القبلة. وعندما استولى الصليبيون على القدس نزعوا الهلال من فوق قبة الصخرة، وأقاموا مكانه صليبا من الذهب. وعندما استرجع صلاح الدين القدس مرة أخرى سنة (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) تسلق بعض المسلمون القبة واقتلعوا الصليب، وأعادوا الهلال إلى مكانه، هكذا شكل الموقع الذي شيدت عليه قبة الصخرة جاتبا من الرمزية السياسية.

(٣)

- المستوى الثالث: العلاقة الفكرية بين السياسة والعمارة. هذه العلاقة هي التي تحكم طبيعة العمارة وموضوعاتها وحركيتها وتخطيطها. وهي تنبع من التوجه السياسي للسلطة، هذا التوجه يكون أيديولوجيًا، ينعكس على العمارة في صور متعددة، وهو لا يحدث دفعة واحدة، بل يطل على العمارة القائمة على مراحل حتى يكسبها عند التحول من نمط إلى نمط بتغير السلطة شخصية جديدة، تعرف عند الأثريين والمعماريين بالطرز المعماري.

تنشأ السلطة السياسية عادة من حاجة البشر إلى التجمع، فالإنسان مدني بطبعه أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية، وهي في اصطلاح ابن خلدون تعني العمران. فسر ابن الأزرقي، ما ذكره ابن خلدون في هذا الشأن بقوله أن "الإنسان مدني بالطبع

أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية عندهم. الفلاسفة. ليحفظ به وجوده وبقاء نوعه إذ لا يمكنه انفراده بتحصيل أسباب معاشه". وتحدث ابن تيمية عن الاجتماع المدني. وقال "إن بني آدم لا تتم مصالحتهم في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون، التعاون على جلب منافعهم والتناحر لدفع مضارهم" وينهى كلامه بقوله: "ولهذا يقال إن الإنسان مدني".

مما سبق نرى؛ أن الاجتماع الإنساني فطرة مجبول عليها الإنسان للحصول على منفعه في الدنيا بدأت بالعجز الفطري والذي دفع إلى الخضوع للخالق ومن ثم البحث عن الرزق، ثم التعاون لسد حاجات البعض للبعض، لتنتهي إلى اتخاذ المدن، وهي الصورة الإنسانية للاستقرار المؤقت الذي يدوم بدوام الحياة، والإنسان عند بداية ظهوره على الأرض تعاون مع أخيه الإنسان فقامت الحضارات، وظهرت الزراعة والقرى والمدن التي تشكل منها أقاليم ثم من الأقاليم دولة. هكذا كان الحال في حضارتي مصر والعراق.

هذا ما عبر عنه القزويني عند حديثه عن ضرورة المدن بقوله: "إنه عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا. يقصد البشر. في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والريح، ولو تستروا بالخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي البأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت الأمصار والمدن والقرى، لما أرادوا بناء المدن، أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان من السواحل والجيال ومهب الشمال؛ لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واحترازوا من الأجرام والجزائر وأعماق الأرض، فإنها تورث كربًا وهرمًا.

واتخذوا للمدن سورًا حصينًا، وللسور أبوابًا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج، بل يدخل ويخرج من أقرب باب إليه. واتخذوا لها قهندزا لمكان ملك المدينة والنادي لاجتماع الناس فيه، وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات، ومراكض الخيل، ومعاطن الإبل، ومرابض الغنم، وتركوا بقية مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناها الملوك العظماء على هذه الهيئة، فترى أهلها موصوفين بالأمزجة الصحيحة والصور الحسنة، والأخلاق الطيبة، وأصحاب الآراء الصالحة والعقول الوافرة، واعتبر ذلك بمن سكنه لا يكون كذلك مثل الديالم والأكراد، والتركمان وسكان البحر في تشويش طباعهم وركاكة عقولهم واختلاف صورهم، ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصية عجيبة، وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة، وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة، ونشأ بها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والأخلاق والصناعات".

وحديث القزويني يحمل العديد من الدلالات المعمارية والتي تتعلق بتكوين ارتباط العمارة بالسلطة، فعندما تكون الهيئة الاجتماعية تتشكل المدن، التي تحتاج إلى سور يوفر لها الأمن، وأشار إلى القيمة الحضارية لحياة المدينة وما تتميز به عن غيرها، وتميز المدن عن بعضها. وفي هذا إدراك مبكر للفروق بين المدن سواء كانت طبيعية أو ناشئة عن أنشطة ساكنيها. ويظهر من كلام القزويني تأثيره بنمط مقر الحكم في مدن أواسط آسيا، حيث أنه ولد في قزوين وطاف بهذه المنطقة وبلاد فارس والعراق (ويطلق على مقر الحكم هناك القهندز)، وهو عبارة عن قلعة داخل المدينة قد تكون على تبة جبلية منفصلة، أو سور يحيط بقصر الحكم والدواوين يتوسط المدينة، بينما يحيط بالمدينة ككل سور كبير، وأشهر الأمثلة على ذلك في مدينتي بخارى وسمرقند. وفرق القزويني بين المدن الإسلامية وغير الإسلامية من حيث التكوين الداخلي.

وهذا يعنى أن هناك ترابطًا تلازميًا بين المدينة والعمارة والسلطة الحاكمة، وهى مكونات تتكامل مع بعضها، وتؤثر في بعضها، وربط بناء المدن بالتطور الحضاري للإنسانية، وبوجود ملوك عليها يتولون بنائها. أو حكام لها يقومون عليها، فيبنون الأسوار والمرافق العامة. وفي ضوء هذه العلاقة نستطيع أن نرى الصيغة التي تربط بين مكوناتها، هذه الصيغة عادة لا تكون مرئية بصورة مباشرة؛ لأنها الفكر الذي يشكل المجتمع. نرى هذا منذ وقت مبكر في تاريخ الإنسانية، حيث ارتبط اصطلاح السياسة (Polis) بمعنى المدينة ونسب إلى الاصطلاح الإغريقي (Politeia) بمعنى اجتماع المواطنين وممارستهم شئون الحكم والسلطة في إطار دولة المدينة، وهذا ما كان يتم في أثينا حيث نشأ الاصطلاح، كان ينقص أثينا الكثير من مظاهر الراحة المادية، مقارنة بكبريات المدن، فقد كانت مدينة للمزارعين الذين يتوجهوا إلى أراضيهم للعناية بها، تناولت أثينا السلطة، بطريقه مثاليه، فكان يتم اختيار ممارسي السلطة بالقرعة من بين الذكور، وعندما كانت تنشأ الحاجة الماسة إلى محترفين لإدارة شأن من شئون المدينة، كان المختارون بالقرعة يعينون مجالس من المحترفين لإدارة الأمور الفنية كالإدارة المالية أو بناء أحواض السفن. وتتخذ القرارات المصيرية بالنسبة لمدينة على يد مجلس الجماهير الذي يضم كل من له حق التصويت في المدينة.

وقامت إلى جانب ذلك منشآت معمارية أثرت الحياة والمشاركة الجياتية لأهل أثينا، مثل الأكربول الذي يشرف على المدينة. وفي مهرجان الباناثينيا (Panatheneia) كان يتجمع الأثينيون لتقديم الهدايا للربة أثينا. ولقد كان المسرح الأثيني، وهو شبه دائرة هائلة من الدرجات التي نحتت في جبل منحدر متنفسًا للمشاركة بالمدينة، إذ شهد عروض مسرحية تعكس طبيعة هذا المجتمع إذ كان المشاهد والممثل يتبادلان الأدوار. وكان هذا مما يعمق الوعي الخاص والتعبير الحر. لعب المسرح

في أثينا دورًا سياسيًا مهمًا حيث عكس واقع المجتمع وعمقًا من المشاركة الاجتماعية لأهل المدينة، وبرز هذا الدور أثناء الغزو الاسبرطي لأثينا حين قدم أريستوفانس مسرحية أهل أرخانيا (The archarnians) التي قام بطلها بعقد سلام خاص مع العدو، تمثل أرسطو مدينته الفاضلة من خلال حياة أهل أثينا التي جمعت بين العمل والمشاركة الشعبية التي تتطلب وقت فراغ بقوله "إن المدينة يجب أن تكون على نحو يمكن سكانها من العيش مع الاستمتاع بوقت الفراغ باعتدال وحرية". كان أرسطو أقل انبهارًا من أفلاطون بالأشكال المثالية، وأشد اهتمامًا بالمسار والهدف والنمو والإمكان بالنسبة للمدينة، وهو ما أعطى رؤيته درجة من الحيوية.

كان من المتوقع أن يتأثر الإسكندر الأكبر أشهر تلاميذ أرسطو بأستاذه، حين شيد سبعين مدينة أطلق على معظمها اسم الإسكندرية، كتب الشهرة منها للإسكندرية المصرية، التي شيدها الاسكندر لتكون عاصمة للحضارة الهلينية في مصر. اتبع الإسكندر في تخطيط هذه المدن صورة أقرب لمدينة أفلاطون. كان أرسطو في دراسته للمدينة الفاضلة، أشد تقديرًا للتنوع والتعدد والاحتياجات المحلية الخاصة من أستاذة أفلاطون. إن مدينة أفلاطون المثالية هي بمثابة المطلق الهندسي، قوامها (٥٠٤٠) مواطنًا و(٥٠٤٠) قطعة أرض، وثلاث طبقات من الناس تتعلم وتعيش منفصلة، والمدينة مقسمة إلى اثني عشر قسمًا ينفرد كل منها بالهبة ومعبد، ويمتد كل بيت منها كالسور (وتتخذ المدينة هيئة المسكن الواحد) كل ما فيها -باختصار- منتظم وموحد. نشأت هذه الرؤية الأفلاطونية من إعجابه بالانضباط والتنظيم العسكري الإسبرطي ولعلها الجذر الذي اشتقت منه فكرة النظام التي خضعت لها الدولة ومن ثم المدينة في الفكر الأوربي المعاصر. وتركت آثارها بصورة واضحة على المدينة الغربية.

صمم الإسكندر مدينته الإسكندرية المصرية، بعد أن ربط بينها وبين الجزيرة التي تتقدمها على شاطئ البحر بلسان فشق الطرق العريضة بها على شكل مستطيل متشابك، تمتد الطرق الطويلة منها شرقًا وغربًا بحذاء اللسان. أما الطرق القصيرة فتمتد شمالًا وجنوبًا من البحر إلى البحيرة. ويصل أوسع الشوارع ما بين (١٨)، (١٩) قدمًا، أما الشارع الرئيس الممتد شرقًا وغربًا، وهو شارع كانوبيس، فلعله كان يصل في اتساعه إلى مائة قدم، وهكذا نجد أن كل شيء صمم لضمان الحركة المناسبة المباشرة. لقد كان الهدف أن تكون الإسكندرية مثلًا يُحتذى في الفاعلية والبساطة الواضحة، فكانت الإسكندرية المثل الأعلى لحاكم سيطر على العالم، ويريد أن يظهر أوسع سلطاته وانتظامه، وأنموذجًا لقائد أجني يخشى التهديد المحتمل من جانب أحياء وطنية تحميها شوارع ضيقه ملتفة.

فني، وتحول الناس من فاعلين مؤثرين، إلى متفرجين مشغولين لا ينتهي بصرهم من التأمل في كل شيء، وسعى الحكام إلى هذا فجعلوا على سبيل المثال مواكبهم حدث ينتظره الناس بشغف لمشاهدته، وحاولوا أن يبلغوا به حدًا لا نستطيع أن نراه في أي عصر آخر.

مراجع للاطلاع:

- خالد عزب (٢٠٠٧). دار السلطنة في مصر: العمارة والتحويلات السياسية. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- خالد عزب (٢٠٠٨). الحجر والصولجان: السياسة والعمارة الإسلامية. القاهرة: دار الشروق.
- خالد عزب (٢٠١٣). فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- خالد عزب (٢٠١٣). السياسة الشرعية وفقه العمارة: الحدود الفاصلة والمشاركة (مراسد؛ كراسات علمية ١٦). الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية.

لقد عكست الإسكندرية رغبة السلطة في السيطرة عليها، بل وزرعت الإبهار والرهبنة في نفوس زائريها، ومثل ذلك نص ذكره الروائي اليوناني (Achilles Tatius) أخيل تاتيوس "الذي زار المدينة في أوج ازدهارها حيث قال: "بلغنا الإسكندرية بعد رحلة استغرقت ثلاث أيام، ودخلتها من بوابة يقال بوابة الشمس وبهرني على التو جمال المدينة الأخاذ الذي ملأ عيني بالبهجة. فقد كان هناك صفان متوازيان من الأعمدة يمتدان في خط مستقيم، من بوابة الشمس إلى بوابة القمر (وهما المعبودان اللذان يقومان على حراسة المدخل) وقرب منتصفها يقع الجزء المكشوف من البلدة، ويتفرع منه عدد من الشوارع يبلغ من الكثرة حدًا يجعلك تتخيل، حينما تمر بها، أنك في بلاد أخرى، مع أنك ما زلت فيها. ولما تقدمت قليلًا، وجدتني في الحي الذي أطلق عليه اسم الإسكندر - يقصد الحي الإغريقي - وقد قسمت هذه المدينة الرائعة إلى مربعات صف من الأعمدة يقطعه صف آخر مساو له في الطول بزاوية قائمة... وقد جُلت في شوارعها فلم يشبع مني النظر أيضًا. لقد راعني شيئين غريبين شاذان بصفة خاصة - وكان يستحيل على أن أحدد أيهما أعظم حجم المكان أم جماله، المدينة نفسها أم سكانها، فالمدينة كانت أكبر من قارة، والسكان يفوقون الأمة عددًا. ولما تطلعت إلى المدينة شككت في أن يتمكن أي جنس من الأجناس من أن يملأها، ولما نظرت إلى أهلها سألت نفسي إن كان يمكن لأي مدينة أن تتسع فتستوعب هؤلاء جميعًا. ومع ذلك فقد بدا التوازن تامًا في كل شيء".

هكذا نجح البطالمة في جعل الإسكندرية مبهرة، فقد أصبحت أكبر مدينة في العالم بعد تأسيس الإسكندر لها سنة ٣٣١ ق.م بقرن. وتكونت من ثلاثة أحياء أساسية الحي اليوناني ويقع على الساحل، والحي المصري الوطني في الغرب، والحي اليهودي في الشرق. بالإضافة إلى أحياء الوافدين، وكانت هذه الأحياء مدناً قائمة بذاتها. وهو ما يكرس العنصرية البطلمية أو الرومانية ضد المصريين من خلال العزل المديني، وليس هناك وجه للمقارنة بين أحياء المدينة المنفصلة. فقد بني الإسكندر وكل من تبعه من البطالمة والرومان قصورهم الخاصة كوسيلة لزيادة فخامة المدينة بشكل متصاعد. فاحتلت القصور ما بين ربع وثلث المدينة. وكان بها إستاند ضخمة، ومسرح مدرج، وحدائق عامة غناء، وفنار عده القدماء إحدى عجائب الدنيا.

تعكس الإسكندرية فلسفة السلطة في الحضارة الهلنستية التي تسعى إلى تجميل الحياة باعتبارها أثرًا تالداً أو فناً أو فكرًا أو قوة، وهو ما جعل المدن الهلنستية ومنها الإسكندرية تفتقد التفاعل الإنساني والتلقائية، لخضوعها لفكرة النظام الصارم والقوة المتنامية، واستيعاض في الإسكندرية المدينة ذات الفخامة والإبهار المطلقين عن البشر بالصروح، وعن الإحساس بالفن بالمتاحف، وعن الشعراء بالقصور حتى تحولت المدينة إلى عمل





ابن الأثير مؤرخاً للدولة الزنكية من خلال كتابه "التاريخ الباهر"

علاء مصري إبراهيم النهر

باحث دكتوراه في التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
الإسكندرية - جمهورية مصر العربية



بيانات الأطروحة

أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ
كلية الآداب
جامعة الإسكندرية - مصر ٢٠١٦.

ابن الأثير مؤرخاً للدولة الزنكية من خلال كتابه "التاريخ الباهر"
إعداد: علاء مصري إبراهيم النهر
إشراف: أ.د. حمدي عبد المنعم محمد حسين
إشراف: أ.م.د. حنان مبروك اللبودي

كلمات مفتاحية:

ابن الأثير، التاريخ الباهر، الدولة الزنكية، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، النوادر السلطانية

مقدمة

في مطلع القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، كانت الخلافتان العباسية والفاطمية مجرد قوى اسمية، أما القوة الإسلامية الفعلية التي كانت تسيطر على شئون الشرق الأدنى، فهي الدولة السلجوقية التي كان ملكها يمتد وقتئذٍ من حدود الأفغان شرقاً إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية غرباً، وإلى هذه الدولة الفتية القوية يرجع الفضل في صدّ تيار الإفرنج المرة تلو الأخرى. وقد ظلت الدولة السلجوقية موحدة تحت حكم طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م)، وألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م)، وملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م)، ولكن بعد موت الأخير، بدأت تتفكك أوصالها، وتفرقت إلى دويلات سلجوقية عدة، ثم لم تلبث هذه الدويلات أيضاً أن ورث ملكها دول الأتابكة.

ويُعدّ القرنان السادس والسابع الهجريان، وبخاصة بعد النصف الثاني من القرن السادس، من أكثر الفترات التاريخية ازدهاراً ونشاطاً في حقل الكتابة التاريخية؛ إذ لم تكن هناك كتابات كثيرة في المرحلة الأولى من الغزو الإفرنجي. أما في المرحلة المتقدمة من الغزو، فقد ظهرت مؤلفات تاريخية مهمة في معظم أرجاء العالم الإسلامي بالعراق والشام ومصر. وأسهمت عوامل عدة في ظهور هذه المؤلفات، ولعل في مقدمتها الغزو الإفرنجي للمشرق الإسلامي، مما دفع كثيراً من المؤرخين للكتابة؛ محاولة

منهم لتغطية حوادث هذه الفترة الحرجة، كما ساعدت حركة الجهاد التي قادها بعض القادة المسلمين - على رأسهم عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي - في ظهور كُتُب السَّير الشخصية لهؤلاء القادة، وكُتُب تاريخ الدول والأسرات الحاكمة، وظهور مؤلفات عن فضائل المدن. فأدى ذلك إلى ازدهار المدرسة التاريخية في بلاد العراق والشام، وزيادة نشاطها.

أهمية موضوع الدراسة

برز في القرن السادس الهجري مؤسس دولة "أتابكة الموصل" عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م)، وسطع في الشام نجم ابنه نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م)؛ فقد بذل هذان الملكان جهوداً كبيرة في جهاد الإفرنج. وفي ذلك الحين كانت عوامل الضعف المختلفة تتآزر للقضاء نهائياً على الخلافة الفاطمية بمصر؛ فقد اتجهت إليها أنظار الإفرنج، بعد أن وقف السلاجقة والأتابكة حصناً منيعاً أمام تقدمهم إلى داخل بلاد الشام، كما اتجهت إليها أنظار هذه الدول التركية الإسلامية السُّنية؛ رغبةً في القضاء على آثار المذهب الشيعي قضاءً مبرماً، وتعاون مع هذه العوامل عاملٌ داخليٌّ له أهميته، وذلك حين نشب الخلاف ووقع التنافس على الحكم بين وزراء مصر، الأمر الذي أدى إلى فرار شاور إلى الشام واستنجاهه بنور الدين، ثم وفود جيش الأخير إلى مصر بقيادة أسد الدين

شِيرْكُوهُ وما استتبع هذه الوفود من مجيء جيش عموري (الأول) ملك بيت المقدس؛ سعيًا وراء مُلك مصر. وتكررت غارات الجيش النوري والإفرنجي على مصر ثلاث مرّات إلى أن انتهت بانتصار جيش نور الدين وتولية أسد الدين الوزارة للعاضد (٥٥٧-٥٥٨هـ/١١٦٠-١١٧١م) آخر الفاطميين، ولكنه مات بعد شهرين، فولّوها من بعده صلاح الدين بن أيوب.

وبالنظر لما احتله المؤرخ عز الدين بن الأثير الجَزَرِيّ (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) من مكانة مرموقة في تاريخ الفكر الإسلامي بعامة والتاريخ بخاصة، وما كان لمؤلفه عن الدولة الزنكية من الأهمية البالغة على الكتابات التاريخية التي لحقته - ككتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" لأبي شامة المقدسيّ (ت. ٦٦٥هـ/١٢٦٨م)، و"مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ في أخبار بني أيوب" لابن واصل الحمويّ (ت. ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، و"نهاية الأرب" للنويريّ (ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، وما انفرد به منهجه في الكتابة التاريخية من مميّزات، ولكون "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" من المصادر الرئيسة عن الزنكيين، ومرآة تعكس أصدق صور جهادهم للإفرنج، فقد اخترت "ابن الأثير مؤرّخًا للدولة الزنكية" موضوعًا للدراسة.

إن ما دفعني للبحث في هذا الموضوع رغبتني في الوقوف على أثر علاقة ابن الأثير بالزنكيين في تأليفه هذا الكتاب، ومدى حيدته وموضوعيته في سرد أخبارهم؛ وإيماني بأن مثل هذه الدراسة سوف توضح قيمة الكتاب، وتيسر للباحثين الاستفادة منه كأحسن ما تكون الاستفادة، ومن ثمّ فإنها سوف تكشف عن مناهج كثير من المؤرخين الذين سبقوا ابن الأثير أو جاءوا بعده؛ لأنني عانيت - دائماً - بموازنة منهجه بمناهج السابقين واللاحقين. كما أنني لم أجِدْ دراسةً عن الدولة الزنكية تشمل جميع جوانبها، السياسية والعلمية والإدارية والعسكرية والعمرانية والمالية، بل يكتفي جُلّها بأحد تلك الجوانب، خاصة السياسية منها.

ومن أهم هذه الدراسات السابقة دراسة رشيد عبدالله الجميلي، بعنوان "دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي"، ودراسة عبد القادر أحمد طليمات، بعنوان "ابن الأثير الجَزَرِيّ المؤرخ"، ودراسة عصام الدين عبدالرؤف الفقي، بعنوان "الحياة السياسية والتنظيمات الإدارية والمالية في دول أتابكية الموصل والجَزيرة"، ودراسة إبراهيم بن محمد الحمد المزيني، بعنوان "الحياة العلمية في العهد الزنكي: دراسة في الازدهار العلمي عند المسلمين". وبجانب ذلك، هناك بعض الأبحاث التي تطرقت لأحد جوانب موضوع هذه الدراسة، أبرزها بحث رياض مصطفى أحمد شاهين، بعنوان "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شدّاد (دراسة تحليلية)"، وبحث ميسون ذنون عبد الرزاق ياسين العبايجي، بعنوان "الفرنج من خلال كتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير"، وبحث محمد ميسر محمد بهاء الدين اليازجي، بعنوان

"ابن الأثير (موارده ومنهجه في كتابه "التاريخ الباهر")، وبحث صهيب حازم الغضنفري، بعنوان "المؤرخ الموصلي عز الدين بن الأثير".

وقد اتّبعْتُ في عرض موضوع الدراسة منهج البحث التاريخي، القائم على العرض والتحليل، وموازنة النصوص الواردة في كتاب "التاريخ الباهر" لابن الأثير، مع غيرها مما وُجد في المصادر الأخرى.

فصول الأطروحة

تكونت هذه الدراسة من: تمهيد، وخمسة فصول، بالإضافة إلى مقدمة، ودراسة تحليلية لأهم مصادر الرسالة ومراجعتها، وخاتمة، وملاحق احتوت على مجموعة من الخرائط، وقائمة بأسماء ملوك الدولة الزنكية والقوى المعاصرة لهم، ومقارنة بين روايات ابن الأثير في كتابه "الباهر" عن أبيه أثير الدين، وأخيه مجد الدين، وكذلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأشعار، والأمثال الواردة في كتاب "الباهر" التي لم يُخرِّجها الدكتور عبد القادر أحمد طليمات - محقق الكتاب -، كما ضمت مقارنة مترجمة بين نور الدين وصلاح الدين من خلال المصادر العربية أعدتها المستشرقة البريطانية (Carole Hillenbrand) كارول هيلينبرند. وأعقب ذلك، قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي استقيتُ منها مادة موضوع هذه الدراسة.

جاء **التمهيد** بعنوان "المؤرخ ابن الأثير: دراسة حياة"، اشتمل على اسمه، ولقبه، ومولده، وأسرته، ومكانة والده وأخيه الأكبر مجد الدين لدى حكام الدولة الزنكية بالموصل، بالإضافة إلى شيوخه، وتلامذته، ورحلاته العلمية، وحجّه ثلاث مرات، ومؤلفاته العلمية الأربعة (التاريخ الباهر موضوع دراستي - الكامل في التاريخ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - اللّباب في تهذيب الأنساب) التي تبرز سعة اطلاعه في علم التاريخ والحديث والسّير والأنساب. وتناول أيضًا ثقافة ابن الأثير، وفكره التاريخي، ومكانته العلمية والاجتماعية، وخُتم بذكر خبر وفاته.

أما **الفصل الأول**، فجاء بعنوان: "نظم الحكم والإدارة في الدولة الزنكية من خلال كتاب الباهر"، اكتفى هذا الفصل بالطلّ بدل الوابل عن النواة الأولى للزنكيين، ثم ألقى الضوء على نظام الأتابكية، ومراسم وطرق ولاية الزنكيين للحكم، وألقابهم، وحاشيتهم الملكية، ونظام ولاية العهد. ثم تطرق للوظائف الإدارية في الدولة الزنكية، كالنائب والوزير وكاتب الإنشاء، وتناول كذلك الدواوين (الإنشاء - البريد - الجُند)، بالإضافة إلى النظامين المالي والقضائي، والنظم العسكرية، بما فيها الوظائف العسكرية، والإقطاع الحربي، وتنظيم الجيش، وعناصره، ومعسكراته، وأسلحته.

و**الفصل الثاني** بعنوان: "العلاقات السياسية بين الدولة الزنكية والقوى المجاورة من خلال كتاب الباهر"، فقد كان للزنكيين علاقات مع مختلف القوى السياسية الموجودة على

الساحة آنذاك، وتقلبت علاقاتهم بتلك القوى، ما بين التعاون المثمر، والتوتر الشديد في بعض الأحيان. ومن أبرز القوى التي أقام معها الزنكيون علاقات: (السلطنة السلجوقية، والخلافة العباسية، والأرأقة بديار بكر، وآل بُوري أتابكة دمشق، والأيوبيون ببلاد الشام بدءًا من سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م).

وأقى **الفصل الثالث** تحت عنوان: "دور الدولة الزنكية في جهاد الإفرنج من خلال كتاب الباهر"، سلط هذا الفصل الأضواء على دور عماد الدين زنكي في تحرير إمارة الرها، وانتصار ابنه نور الدين محمود في معركة حارم، وإضاعته الفرصة على الملك عموري (الأول) في ضم مصر إلى مملكة بيت المقدس الإفرنجية. وتضمن الفصل كذلك أهم أساليب القتال التي اتبعتها الزنكيون في جهاد الإفرنج.

وحمل **الفصل الرابع** عنوان: "الحياة الفكرية في الدولة الزنكية من خلال كتاب الباهر"؛ إذ تناول عوامل ازدهار الحياة الفكرية لدى الزنكيين، وتشجيعهم للعلم والعلماء، وأهم المراكز التعليمية خلال العصر الزنكي: (المساجد، المدارس، دار الحديث الثورية، البيمارستان الثوري بدمشق). كما اشتمل الفصل على ميادين العلوم، وأبرز أعلامها في الدولة الزنكية، كالعلوم الشرعية (الفقه والحديث)، إضافة إلى التصوف، وعلوم الطب، والأدب.

أما **الفصل الخامس**، فجاء تحت عنوان: "دراسة تحليلية نقدية مقارنة لكتاب (التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية) مع كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لبهاء الدين بن شذاد (ت. ٥٣٢هـ/١٢٣٤م)"، بدأ بإلقاء إطلالة سريعة على الفكر التاريخي في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، ثم تطرق لموارد ابن الأثير في كتابه "الباهر"، ومنهجه وأسلوبه في الكتابة التاريخية، وتفسيره للحوادث، وموضوعيته. وقد تبين أن هناك بعض التشابه في أسباب تأليف لسان الدين بن الخطيب (ت. ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) لكتابه "أعمال الأعلام" مع الأسباب التي دعت ابن الأثير إلى تأليف كتابه "التاريخ الباهر"؛ فكلُّ منهما أهدى كتابه إلى ملكٍ صغير السن، وتقربًا من الوصي عليه: ابن الخطيب أهدى كتابه إلى السلطان المريني أبي زيان محمد السعيد بالله (الثالث) بن عبد العزيز (٧٧٤-٧٧٦هـ/١٣٧٢-١٣٧٤م) الذي كان لم يبلغ الرابعة عند توليه حكم مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وللتقرب من وزيره أبي بكر بن غازي بن الكاس، بينما ألّف ابن الأثير كتابه كهدية للملك الزنكي عز الدين مسعود الثاني الذي كان في العاشرة من عمره عند ولايته حكم الموصل، وتقربًا من نائبه بدر الدين لؤلؤ. ثم ختمت الفصل بعقد مقارنة مهمة بين كتابي "التاريخ الباهر"، و"النوادر السلطانية".

أهم نتائج الدراسة

منذ القرن السادس الهجري، أخذت الدراسات التاريخية الإقليمية في بلاد الشام والعراق تنشط؛ إذ أسهم مجيء الإفرنج في ذلك بشكلٍ كبير، فظهرت أقدم أمثلة في الكتابة عن المدن في

منتصف القرن السادس؛ إذ خصص المؤرخ ابن القلانسِيّ (ت. ٥٥٥هـ/١١٦٠م) تاريخه لمدينة دمشق، ثم من بعده ابن عساكر (ت. ٥٧١هـ/١١٧٦م) في "تاريخ دمشق". ومن أعظم ما كُتب عن مدينة حلب ما يُنسب للمؤرخ ابن العديم (ت. ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، الذي خصص كتابه "زبدة الحلب" لدراسة التاريخ السياسي لهذه المدينة حتى حوادث سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)، بالإضافة إلى كتابه الآخر "بُعية الطلب"، الذي عرض فيه لجغرافيا بلاد الشام الشمالية. وكذلك صنف عز الدين بن شذاد (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) كتابه "الأعلاق الخطيرة". وقد قدّد الدكتور عبد الحميد العبادي - رحمه الله - أسباب كثرة التواريخ المحلية، وكُتبت التراجم والطبقات في غضون تلك الفترة؛ نتيجة لتداعي الوحدة السياسية للخلافة العباسية، وظهور الدويلات المتعددة، ومن ثَمَّ تَوَزَّع الثقافة الإسلامية على الأمصار، بالإضافة إلى كثرة العلماء.

كما كثرت في تلك الفترة الكتابة التاريخية على هيئة "المذكرات"، خاصة المؤرخين المعاصرين للأحداث، والذين يشغلون منصبًا إداريًا رسميًا، فقد اكتسبت كتاباتهم صفة المذكرات، فسجل بهاء الدين بن شذاد في كتابه "النوادر السلطانية" مذكراته عن صلاح الدين، منذ أول جمادى الأولى سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م)، وخصص لها ثلاثة أرباع كتابه، واعتمد في تسجيلها على المشاهدة والمعاناة، أو على مَنْ يثق به من أهل الثقة. أما العماد الكاتب الأصفهاني (ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، فقد وضع كتابه "الفتح القسِّي في الفتح القدسي" كشاهد عيان لمعظم المعارك التي خاضها صلاح الدين ضد الإفرنج بدءًا من سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وحتى وفاته سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م). وخير أمثلة للكتب التاريخية التي تأخذ شكل "مذكرات" كتاب "الاعتبار" للأديب أسامة بن منقذ (ت. ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، وكتاب "الثُكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية" لعمارة اليمني (ت. ٥٦٩هـ/١١٧٤م)، إلا أن كتاب "الاعتبار" يتسم بغلبة عنصر الفلسفة الشعبية، بينما يغلب على كتاب "الثُكت العصرية" عنصر الأدب على النواحي التاريخية. وللقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت. ٥٩٦هـ/١٢٠٠م) مذكرات يومية، لها أهميتها للدراسة التاريخية في ما يخص فترة حكم صلاح الدين.

وفي خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اتجهت الدراسات التاريخية إلى التخصص، فألّفت مصنفات عدّة في التراجم لها شأن خاص؛ ففي تراجم الأدباء جمع ياقوت الحمويّ (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) تراجم ستة قرونٍ مرت على الأدب العربي في كتابه "إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب"، وفي تراجم الحكماء ألّف جمال الدين القفطي (ت. ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) كتاب "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، وفي تراجم الصحابة ألّف ابن الأثير كتابه "أسد الغابة".

وبينت هذه الدراسة أن ابن الأثير لم يكن أول مَنْ أَرخ للدولة الزنكية؛ فقد أَرخ لصدر هذه الدولة وسنواتها الأولى مؤرخون سابقون له، كابن القلانسي، والعظيمي (ت. ٥٥٦هـ/١١٦١م)، وابن عساكر، كما أَرخ لها حتى زوالها مؤرخون معاصرون له كابن العديم، وبهاء الدين بن شداد، وابن واصل. بيد أن كتاب "الباهر" ينفرد كتاب "الباهر" - من منطلق كونه تاريخًا كاملاً للزنكيين - عن هذه الكتب جميعًا؛ وذلك لأن بعضها أَرخ لصدر الدولة وسنواتها الأولى، أو لمؤسسها عماد الدين زنكي، أو للنصف الأول منها فحسب، وبعضها الآخر لم يقصد مؤلفوه إلى التأريخ للزنكيين، بل هي تواريخ عامة، أو تواريخ محلية. أما "الباهر"، فيَعَدّ أوفى تاريخ للدولة الزنكية؛ حيث استفاد من معظم مَنْ كتبوا عنها قبله، كما أنه أضاف كثيرًا من مشاهدات وروايات والده أثير الدين وأخيه مجد الدين.

وتوصلت الدراسة إلى أن تاريخ شروع ابن الأثير في تأليف كتابه "الباهر" كان بعد وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه الأول (٥٨٩-٦٠٧هـ / ١١٩٣-١٢١٠م) وحكم ابنه عز الدين مسعود الثاني (٦٠٧-٦١٥هـ / ١٢١٠-١٢١٨م) سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م). أما عن تاريخ فراغ ابن الأثير من تأليفه، فلم يذكره، وقد أحدث انتهاء حوادث الكتاب عند سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) لبسًا حول تاريخ الفراغ من تأليفه.

وتبيّن أن ابن الأثير استطاع بكتابه هذا، الذي أهده للملك عز الدين مسعود الثاني، أن يحرك همته للاقتداء بأجداده أخلاقيًا فقط؛ فقد تولى الملك عز الدين الحكم وهو في العاشرة من عمره، وكان بدر الدين لؤلؤ مدبر شئون دولته والمتحكم الفعلي فيها، بينما اقتفى عز الدين أثر أجداده في ما يخص النواحي الأخلاقية، أما في ما يتعلق بأمور السياسة وإدارة الدولة، فإنه كان مهيب الجناح؛ بسبب استحواذ نائبه لؤلؤ على جميع سلطات الدولة.

وفي ما يتعلق بموارد ابن الأثير في كتابه "الباهر"، فقد أظهرت الدراسة أنه هيا لكتابه موارد موثوقة، تساعده في تكوين صورة شاملة ودقيقة للدولة الزنكية. وتتباين في أهميتها ومدى اعتماده عليها، ويمكن تقسيمها إلى مصادر شفوية ممّن أدرك الزنكيين، ومشاهدات عينية استمدّها من خلال مشاركته في أحداث عصره، أو من أشخاص آخرين كانوا مشاركين في تلك الأحداث عن طريق السماع والمُساءلة، بالإضافة إلى النقل عن المصادر المكتوبة أو المؤلفات السابقة، كدواوين الشعر والأمثال. وجدير بالذكر أن ابن الأثير في كتابه هذا ابتعد عن الإسناد عبر اعتماده على منهج الكتابة المرسلة؛ نظرًا لاستقرار الأسانيد من قبله. وهذا لا يعني اعتماده على الروايات جزائيًا، وإنما وضع لنفسه برنامجًا محددًا سار عليه في كتابه. كما أن الفترة التي عاصرها قد عكست عزوف المؤرخين منذ مدة - ليست بالقصيرة - عن سلسلة الإسناد؛ فالمنهج التاريخي كان قد وصل إلى حالة من الاستقرار والثبات. ومع ذلك، اعتمد كثيرًا على الروايات الشفوية؛ فهي المنبع

الرئيس الذي استقى منه جُلّ معلوماته في "الباهر"؛ ولكن من دُون أن يسوق سلاسل الإسناد أمام كُلّ رواية من رواياته، ومن دُون أن يصرّح بأسماء رُواته، عدا ذكره أن أكثر مادته مستقاة عن والده أثير الدين وأخيه مجد الدين. وقد أورد ابن الأثير الأخبار والحكايات والحوادث التاريخية مستعملًا ألفاظ المشافهة ومصطلحات أهل الحديث، مثل: (قال، حدثني، بلغني، حكى لي، قد سمعت مَنْ يحكي، سمعت جمعًا كثيرًا من الناس لا أحصيهم يقولون، هكذا سمعته من غير واحد، حكى لي جماعة أعرف صلاحهم)، ولكن من دُون أن يذكر اسم راوي الخبر، باستثناء أبيه وأخيه كما ذكرت آنفًا. وقد قمتُ بإحصاء الروايات التي ساقها ابن الأثير على لسان أبيه أثير الدين أو عن أخيه مجد الدين، سواء بقوله: (قال، حكى لي أبي أم أخي، حدثني أبي أم أخي).

يمثل المؤرخ المعاصر للأحداث التاريخية أهمية كبرى في الكتابة التاريخية؛ لقربه من مسرح الأحداث أو معاشتها. وينطبق هذا على ابن الأثير، فقد عاصر بعضًا من أحداث الدولة الزنكية، ونقلها بشيء من التفصيل، وهذا أضفى على رواياته الدقة الشديدة. كما اعتمد ابن الأثير على المشاهدة العينية، خاصة في القسم الأخير من الكتاب؛ إذ عاصر وشاهد حوادث تلك الفترة، فالثلاثون سنة الأخيرة من حوادث الكتاب هي من تأليفه، نتيجة مشاهدته لها والوقوف على أخبارها؛ إذ لم نجد فيها ذكرًا لمصدر، ووجدنا ذاتيته فيها ظاهرة. وكان شاهد عيانٍ لعددٍ من المواقع العمرانية داخل مدينة الموصل وخارجها. واستند أيضًا ابن الأثير إلى بعض الوثائق الرسمية كمنشور السلطان سنجر السلجوقي إلى محمود ابن أخيه محمد سنة (٥١١هـ/١١١٧م).

أما عن الاقتباس والنقل من المصادر التاريخية السابقة، فقد تمكّن ابن الأثير من استيعاب العديد من مؤلفات سابقيه ومعاصريه، واستفاد منها في كتابه "الباهر" كأحسن ما تكون الاستفادة، وقد ساعده في ذلك انكبابه التام على العلم، وذاؤه، وقوة حافظته، وقيامه باختصار بعض الكتب السابقة، وجمعه لعدة كُتب في كتابٍ واحد. وحاول جاهدًا أن يستفيد من جميع مؤلفات سابقيه من المؤرخين لجمع مادة كتابه، ومن أبرز تلك المؤلفات: كُتب المغازي، والسيرة النبوية، وتواريخ الخلفاء، وكُتب التاريخ العام المرتبة على السنين، وكُتب الأنساب، والدواوين الشعرية، والتواريخ المحلية، وكتب علم الحديث، وكتب المتصوفين. فأتى كتابه "الكامل في التاريخ" في المرتبة الأولى بقائمة المصادر التاريخية التي اعتمد عليها؛ فقد أشار إليه على نحوين، الأول: "قال صاحب التاريخ" في ثلاثة مواضع، والثاني: "المستقصى في التاريخ" في سبعة مواضع؛ وذلك في حالة الاستزادة من المعلومات البعيدة عن صلب موضوع الكتاب. واعتمد أيضًا على عددٍ ضئيل جدًا من مؤلفات لمؤرخين معاصرين له، ذكر أسماء أولئك المؤرخين صراحةً، وهم (ابن

عساكر، والعماد الكاتب، وابن العديم). وفي بعض الأحيان أشار إلى أنه رجع لبعض الكتب ولم يُسمّها، ففي حادثة موت كُلٍّ من الوزير نظام الملك والسلطان ملكشاه سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) قال: "حكى لي والدي رحمه الله تعالى، ثم إني رأيت ما حكاه بعد ذلك مذكورًا في كتب التواريخ". ولعله يقصد كتاب "المُنْتَظَم" لابن الجوزي (ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م)؛ فخبّر مقتل نظام الملك ووفاته ملكشاه الذي جاء في "الباهر" يطابق رواية ابن الجوزي، ويتفق معها تمامًا. وحرّى بي ألا أتغاضى عما نَوّه به كُلٌّ من الدكتور جمال الدين الشّيال، والدكتور بدوي عبد اللطيف من أن ابن الأثير في كتابه "الباهر" أخذ فكرة بعض الحوادث ومعناها العام من كتاب "تاريخ ميافارقين وأمد" لابن الأزرقي الفارقي (ت. ٥٧٢هـ/١١٧٦م)، ثم قام بتغيير أسلوب وسياق الحادثة في بعض الأحيان، أو وضع إضافات جديدة عليها في أحيانٍ أخرى، ومع ذلك لم يشِرْ إلى هذا الكتاب، ولو بحرفٍ واحد.

وبجانب هذه الموارد، استطاع ابن الأثير أن يوظف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مواضع متفرقة من كتابه "الباهر" بما يتماشى مع الحادثة الواردة في سياقها. كما استقى من دواوين الشعر وكتب الأمثال كثيرًا بلا يتلاءم مع النص الواردة فيه.

وبينت الدراسة منهج الكتابة التاريخية عند ابن الأثير في "الباهر"، فقد شرع في التأريخ للزنكيين، بادئًا بأصل البيت الزنكي، قسيم الدولة آقسنقر (٤٧٩-٤٨٧هـ / ١٠٨٦-١٠٩٣م)، وعلاقته الوطيدة بملكشاه (الأول)، ثم ولايته على حلب وسيرته فيها، باختصارٍ شديد، ثم عرّج على الصراع بين أبناء ملكشاه بعد وفاته سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، واصلح قسيم الدولة مع السلطان تاج الدولة تُش (٤٧١-٤٨٩هـ/١٠٧٩-١٠٩٦م)، ثم ختم ترجمته بخبّر مقتله. ثم أخذ بعد ذلك في تتبع الأمير عماد الدين زنكي وتنقله في خدمة حكام الموصل حتى توليته إياها سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م)، وسرد - بتفصيل - علاقته بدار الخلافة والسلاجقة، وفَصّل الخطوات التي اتبّعها عماد الدين لتكوين دولة موحدة تضم الموصل وبلاد الجزيرة وشمال الشام، وأفاض في سرد الحروب التي خاضها ضد الإفرنج وتحريره إمارة الرّها سنة (٥٣٩هـ/١١٤٤م)، وخبّر مقتله بعدها بسنتين. وذكر ابن الأثير محاولة الملك ألب أرسلان السّلاجوقي السيطرة على حكم الموصل بعد مقتل عماد الدين، والدور الذي أدّاه الأمراء في تعيين سيف الدين (الأول) ملكًا على الموصل، الذي كان من أبرز أعماله الخالدة نجدته لمدينة دمشق في أثناء الحملة الصليبية الثانية سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م). ثم سرد ابن الأثير أخبار قطب الدين مودود، الذي خلف أخاه سيف الدين على الموصل، وفَصّل مآثر وزيره جمال الدين الأصفهاني، ونكبته سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م. كما سرد جميع الجوانب المتعلقة بنور الدين محمود، العلمية والسياسية والجهادية، وضمه مدينة دمشق سنة

(٥٤٩هـ/١١٥٤م)، ومصر سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)، وعلاقته بإخوته وأولاد عمومته بالموصل. ثم أشار إلى النزاع الذي احتدم بين أمراء دمشق وحلب حول الأحقية في تربية الملك الصالح إسماعيل، وسيطرة صاحب الموصل سيف الدين (الثاني) على بلاد الجزيرة، وقُدوم صلاح الدين من مصر وسيطرته على دمشق وعلى معظم دولة نور الدين، باستثناء حلب وحارم. وعرّج على وصية الملك الصالح لعز الدين مسعود (الأول) بحكم حلب من بعده، ثم أظهر كُلٍّ ما هو طيب في سيرة كُلٍّ من عز الدين الأول وابنه نور الدين أرسلان شاه، وكذلك الملك عز الدين الثاني، الذي ختم الكتاب بسيرته، وبالحدث عن العام الأول من حكمه.

وأظهرت الدراسة أن ابن الأثير كان يختم الأحداث التاريخية لأي ملكٍ زنكيٍّ بترجمةٍ عن سيرته وصفاته الشخصية وأخلاقه ومآثره وسنوات حكمه. ويتسم منهج ابن الأثير في كتابه "الباهر" بالعرض الدقيق المحكم الذي ينم عن ذكاء مبدع، تتبدى فيه براعته كمؤرخ؛ فقد أورد الحوادث والوقائع بسلاسة، جعلت القارئ يتابعها بشغفٍ واهتمامٍ من دُون أن يجد انقطاعًا في حديثٍ أو غموضًا في خبر، وزاد من جمال عرضه ما أورده من آياتٍ وأحاديثٍ وأشعارٍ وأمثال.

وقد اتّبع ابن الأثير في الكتاب المنهج الحولي، القائم على التسلسل الزمني في رصد الحوادث والوقائع، إلا أنه لم يُراعِ التوازن الزمني في الكتاب؛ فالجزء الخاص بحكم عماد الدين وأبنائه سيف الدين، ونور الدين، وقطب الدين (أي الفترة من ٥٢١-٥٦٩هـ/١١٢٧-١١٧٤م)، جاءت فيه الأخبار والحوادث مفصلة ومطوّلة بنسبةٍ كبيرة من إجمالي عدد صفحات الكتاب، بينما أورد حوادث وأخبار الجزء الخاص بحكم كُلٍّ من الملك الصالح إسماعيل، وسيف الدين غازي الثاني، وعز الدين مسعود الأول، وابنه نور الدين أرسلان شاه، وعز الدين مسعود الثاني (أي الفترة من ٥٦٩-٦٠٨هـ/١١٧٤-١٢١١م) بشكلٍ مختصر جدًّا في ما يقرب من ثلاثين صفحةً من صفحات الكتاب المئتين وأربع. كما أنه في الأجزاء التي خصصها لسير الزنكيين خرج عن التسلسل الزمني؛ إذ قَسَم تلك الأجزاء إلى وحدات موضوعية، يتعرض في كُلٍّ منها لجانبٍ من جوانب سيرهم، كالشجاعة والعدل والزهد والهيبة.

وقد أكثر ابن الأثير من الإحالة إلى كتابه "الكامل"؛ معلنًا ذلك بخشية الإطالة، فمثلاً نجده أنهى كتابه بقوله: "هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر، وقطرة من بحر مكارمه تناسب هذا المختصر، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه، وتركنا ما قصدناه، ونحن إن شاء الله تعالى نأتي على كثيرٍ من ذلك في المستقصى في التاريخ". وكان ابن الأثير حريصًا على عدم الإطالة في الرواية؛ حتى لا يخرج عن القصد من موضوع الكتاب، كذلك مال إلى الاختصار في ذكر بعض الحوادث والروايات. ومع أنّه قد وضع هذا الكتاب عن الزنكيين، إلا أنه ذكر فيه أخبار بعض الشخصيات التي لا تمس موضوع كتابه، مثل فاطمة بنت عبد

الملك، والسلطان سليمان بن قُتْلُمش السَلْجُوقي (ت. ٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، والوزير نظام الملك، والشاعر الطُّغْرَائِي (ت. ٥١٤هـ/١١٢٠م). ومن الملاحظ أيضًا أنه قد تطرق إلى نسب وسير الخلفاء وملوك وأمراء الدولة الزنكية، وهذا ليس غريبًا؛ فهو بالإضافة إلى معرفته بعلم التاريخ والحديث، كان نشابةً، فقد خصص فقرات متعددة لذلك. وكان ابن الأثير عندما يبدأ بذكر ولاية أي ملكٍ زنكيٍّ، يذكر كيفية توليه الحكم، ودور الأمراء في ذلك، ثم يعرض للأحداث السياسية في عهده، من ضمٍّ للمدن المجاورة وجهادٍ للفرنج، ثم ينهي سيرته بالحديث عن المرض الذي تُوفي به، وصفاته الشخصية، وأعماله الحسنة، من بناءٍ للمساجد والمدارس.

أما عن أبرز خصائص الكتابة التاريخية التي اتبعتها ابن الأثير في كتابه "الباهر"، فهي وضعه عناوين للحوادث تُعرب عن مضمونها وفحواها، وجمع كذلك عناصر الحادثة الواحدة التي تتصل إلى عددٍ من السنين ووصل بين أجزائها في سنةٍ معينة وفي موضع واحد؛ حتى تبرز القيمة الخيرية للحادثة وتتابع عناصرها بانتظام وترابط. وقد سار على هذا النهج في ثانيا كتابه، وعندما كان يخرج عن موضوع الكتاب، كان يذكر الحادثة بعنوان "نادرة عجيبة". ونجد أيضًا قدرة ابن الأثير على ربط بعض مواقف الزنكيين بغيرهم من الملوك السابقين؛ فقد ربط - مثلاً - بين حادثة حصار عماد الدين زنكي لقلعة جعبر ومقتله في أثناء الحصار سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) وبين حصار الأمير بلك بن بهرام الأرمني لقلعة منبج ومقتله وهو يحاصرها سنة (٥١٨هـ/١١٢٤م). ومع أنَّ ابن الأثير ألَّف كتابه "الباهر" على أساس الموضوعات لا على أساس السنوات، إلا أنه اهتم أحيانًا بتسجيل تاريخ كلِّ الحوادث في اليوم والشهر والسنة. وفي بعض الأحيان، كان يروي الكوارث في نهاية السنة.

وفي ما يتعلق بأسلوب الكتابة التاريخية عند ابن الأثير في "الباهر"، نجد أنه جمع بين الأسلوبين التاريخي والأدبي؛ ف بجانب الكتابة المرسلة السهلة والواضحة التي يتمتع بها أسلوبه، استخدم المحسنات البديعية والعبارات المسجوعة، وظهر ذلك بوضوح في مقدمة الكتاب وخاتمته. وقد أكثر من استعمال السجع عند ذكره خبر ولاية عماد الدين زنكي على الموصل سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م)، وعند وصفه لمعارك عماد الدين مع الإفرنج. كذلك استعمل السجع عند حديثه عن حروب نور الدين محمود مع الإفرنج. وهذا أمر طبيعي؛ فالدكتور السيد عبد العزيز سالم يذكر أن السجع كثيرًا ما كان يُستخدم في الكتابة التاريخية، مع أن التاريخ لم يكن أبدًا فرعًا من الآداب التي تشجع على استخدامه. علمًا بأن هناك مؤرخين اشتهروا باستعمال السجع في كتاباتهم كالفتح بن خاقان (ت. ٥٢٨هـ/١١٣٤م) في كتابه "مطمح الأنفس ومسرح التأسس في ملِّح أهل الأندلس". فلا يقلل استعمال ابن الأثير للسجع في كتابه "الباهر" من أهمية الحوادث التاريخية التي

أوردها به، بل تدل على مدى براعته وامتلاكه ناصية اللغة. ويجدر بالذكر أن استعمال المحسنات البديعية، من سجع وجناسٍ وطباقٍ ومقابلة، كان سائدًا بكثرة في تلك الحقبة التاريخية، وخير شاهد على ذلك جميع مؤلفات العماد الكاتب الأصفهاني، صاحب الكلمات المنمقة والعبارات المزخرفة، الذي كان آخر مَنْ يمثل مدرسة فارس والعراق التي تُؤثر الكتابة المسجوعة؛ فقد اكتظ كتابه "الفتح القُسي" بشتى أنواع المحسنات البديعية، وكذلك كتابه "نُصرة الفترة وعُصرة الفطرة"، الذي اختصره الفتح البنداري (ت. ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) بعنوان "تاريخ دولة آل سلجوق"؛ كي يخفف من ثقل المحسنات البديعية واللفظية.

واستعمل ابن الأثير في "الباهر" أسلوب الشك أو عدم التأكد من المعلومة مثل قوله، عندما استشهد بأبيات من الشعر: "فقال بعض الشعراء الشاميين، أظنه ابن منير". وقد ازدادت دقة ابن الأثير في الحوادث التي عاصرها؛ فقد ذكرها بمتنهي الدقة، فمثلاً عند حديثه عن كيفية تولي الملك نور الدين أرسلان شاه حكم الموصل في سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)، نجده يذكر الأحداث بتفصيلٍ دقيق. وكان ابن الأثير يعلق على بعض الحوادث مبدئيًا رأيه وجهة نظره، فمثلاً علق على تعنيف نور الدين محمود لأحد أمرائه؛ بسبب نبيله من الفقيه الشافعي قطب الدين النيسابوري في مجلسه، ولم يصدق وشايته، قائلاً: "هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يُكتب على العيون بماء الذهب".

ونجد في "الباهر" أن ابن الأثير يردف أمير المؤمنين عليًا بقوله "عليه السلام" بدلاً من "رضي الله عنه"؛ مما جعل أناس يرمقونه من طرفٍ خفيٍّ بنزعة التشيع. إلا أنَّ هذا يتلاشى تمامًا عند حديثه عن الأمير الشيعي دُييس بن صدقة (ت. ٥٢٩هـ/١١٣٥م)، نجده يقول عنه: "وكان شريفاً، خبيث الطَّويَّة، وكان من أشد الناس عداوةً للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقيةً فيه"، فإن كان على مذهبه كما يدعون، فكان من الأحرى به أن يغص الطرف عن مثالبه. ونجد أبا شامة، المؤرخ السُّني الذي قُتل على يد اثنين من الباطنية، يُلقب ابن الأثير بـ "الشيخ الفاضل"، ويستشهد به كثيرًا في كتابه "الروستين". وربما تكون حُجة أصحاب هذا الرأي نابعةً من موقف ابن الأثير من صلاح الدين الذي قضى على الدولة الفاطمية بمصر بأمرٍ من نور الدين محمود، وتجدر الإشارة - هنا - أن هذا الموقف الذي اتخذته ابن الأثير من صلاح الدين لم يكن قائماً على رؤيةٍ مذهبية، بل هو موقف سياسيٍّ في المقام الأول، وذلك من منطلق أن أباه وأخاه شغلا مناصب في بلاط الزنكيين الذين استولى صلاح الدين على معظم دولتهم بعد موت نور الدين سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م)، فمن الطبيعي - إذًا - أن يتأثر ابن الأثير بالصلات الطيبة التي كانت تربط أسرته بالزنكيين.

ونجد بين ثنايا "التاريخ الباهر"، حرص ابن الأثير على الاستشهاد بالآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية التي قمتُ بتخريجها في ملاحق الرسالة، وهذا يكشف مدى تشبعه بالثقافة الدينية، وتأثيرها القوي على أسلوبه في الكتابة التاريخية. وقد حفلت الكتاب بالاقتباسات الشعرية التي تتم عن قدرة بالغة في حسن توظيفها بما يتماشى مع الحادثة التاريخية؛ فقد أوجز ابن الأثير ما دار بين الزنكيين وصلاح الدين من حروبٍ ببيتٍ من الشعر لعبدالله بن المعتز (ت. ٢٩٦هـ/٨٦١م)؛ كي لا يجرح مشاعر الملك عز الدين مسعود الثاني:

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا قَدْ سَمِعْتَ بِهِ فَظُنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبْرِ

واستخدم ابن الأثير كثيرًا من الأمثال؛ للتعقيب على حادثة معينة؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر عبّر عن فشل الإفرنج في الاستيلاء على مدينة دِمياط سنة (٥٦٥هـ/١١٧٠م) بقوله: "ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين"، وعلق أيضًا على إعادة الخطبة للخليفة العباسي بمصر سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) بشكلٍ سلميٍّ، قائلاً: "لم ينتطح فيها غَزَّان". وفي بعض الأحيان كان ابن الأثير يضيف حكمةً؛ للتعقيب على سلوك أحد الملوك، فمثلًا مدح زهد نور الدين محمود قائلاً: "وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا، لا خلو اليد عنها".

ومما يُؤخذ على أسلوب ابن الأثير في كتابه "الباهر" أنه ذكر أبياتًا من الشعر عند مقتل عماد الدين زنكي، قائلاً: "كما قال فيه بعض الشعراء؛ إذ يقول...:"، وقوله هذا يعني أن هذه الأبيات لشاعرٍ معاصر لتلك الحادثة، في حين ترجع الأبيات إلى هاني بن محمد (توفي حدود سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م) يرثي بها أبا عثمان سعيد بن المنذر الوزير الأموي الأندلسي. وعزا أيضًا أبياتًا إلى ابن منير الطرابلسي (ت. ٥٤٨هـ/١١٥٤م) بمناسبة عثور نور الدين محمود على خاتمه الذي سقط من يده في أثناء حصار قلعة بانياس سنة (٥٦٠هـ/١١٦٤م)، في حين أن ابن منير كان قد مات منذ سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م). كذلك قال عند وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م): "وأكثر الشعراء مراثيه وتأبينه"، وذكر بيتين، ويُفهم من هذا أن قائلهما هو شاعر معاصر لتلك الحادثة، مع أن البيتين هما لأبي البداء الرياحي المعاصر لأبي نواس. ولعل الأبيات الوحيدة التي من شعر ابن الأثير هي ما أورده في تقديم الكتاب، وهي تدل على بضاعته المُزجاة في هذا المضمار؛ فقد بيّن محقق الكتاب أن أوزانها غير صحيحة.

وقد وقع ابن الأثير في خطأ عند تشبيهه الخاتون الأرتقية - ابنة حسام الدين تمرشاش صاحب ماردين، وزوج الملك قطب الدين مودود- بفاطمة بنت عبد الملك في أنه يحلّ لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكًا، فتدارك أبو شامة هذا الخطأ، وعلق قائلاً: "وهذا كُلُّه مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ فِيهِ خَللٌ، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها

امرأة مخزومية. ولكن الصواب في ذلك أن يُقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد".

مع ذلك، إنَّ المزايا التي تجمعت في كتاب "الباهر" قميئةٌ بأن تجعله مصدرًا مهمًّا من مصادر الحروب الصليبية، وبخاصة عصر عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، فضلًا عما فيه من معلومات مهمة عن أحوال الموصل والحياة فيها، ونُظم الزنكيين في الحكم والإدارة والجيش.

وعند التطرق للتفسير والموضوعية عند ابن الأثير في "الباهر"، نجد أن مقصد ابن الأثير وغايه من وراء تصنيف كتابه هذا قد أفصح عنه في المقدمة، كهدية إلى الملك عز الدين مسعود الثاني، قائلاً: "أحببتُ أن أجلو مناقب الموالي الملوك السعداء من آبائه عليه، وأذكر من مشاهدهم في نُصرة الدين ودَِّبهم عن حوزة المسلمين، ما انتهى إليه علمي، وأثبتته قلبي... ليعلم نعمة الله تعالى عنده أولاً وآخراً، ويقتدي بأفعالهم واردةً وصادرةً، وليتيقن أنه لم يكن لأحدٍ من الملوك المتقدمين والخلفاء الراشدين منقبةً دينيةً ودنيويةً وتجربةً في حفظ الممالك والرعايا، شرعيةً وسياسيةً، إلا وفي بيته الشريف ما يضاعفها، وظهر عنهم ما يماثلها وينابها".

وقد قام ابن الأثير بتعليل وتفسير بعضًا من الحوادث، واعتمد في تفسيراته على عدة محاور، منها: التفسير الإسلامي، والعقلي، والاستدلالي للحوادث. فقد فسر - على سبيل المثال - خبر ولاية عماد الدين زنكي على الموصل سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) تفسيرًا إسلاميًا بأن الله عز وجل قد انتقاه واصطفاه من دون أمراء تلك الفترة. كما اعتمد في تفسيره على استقراء الحوادث وإعمال العقل؛ لاستخراج تفسيرات منطقية، ففسر سبب حسد الوزير نظام الملك لقسيم الدولة أفسنقر جد الزنكيين برغبته في إبعاد قسيم الدولة عن الاتصال المباشر بملكشاه ليخلو له الجو. كما استخدم الاستدلال مع تتبع الحوادث؛ بُغية الوصول إلى حقائق العديد من الأمور، ومعرفة بدء حدوثها وأسبابها، فقد استدل عند مقتل السلطان قليج أرسلان السلجوقي، الذي قُتل هو وأبوه وجده وجد أبيه، بحادثة مقتل عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما.

وبينت الدراسة أن ابن الأثير في كتابه "الباهر" لم يتحلّ بما هو معروف عنه من الموضوعية والحيّدة في كتابه "الكامل"؛ فرواياته في "الباهر" عن الزنكيين أكثر تفصيلًا، إلا أنها أقل موضوعية عما في "الكامل"، فمع ما في "الباهر" من حسنات، إلا أن هناك مثالًا يمكن توجيهها إليه، لعل من أبرزها عدم إنصافه في نظره إلى صلاح الدين، ومبالغته في تمجيد الزنكيين، وإسرافه في الإشادة بهم، وإضفاء هالة براقة على أعمالهم؛ كنوع من الاعتراف بفضلهم عليه وعلى بيته وأسرته؛ فربما دفعه هذا الولاء للزنكيين إلى التغاضي عن بعض أخطائهم، مكتفيًا بذكر

محاسنهم ومآثرهم؛ "فعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلة". فلم يستطع أن يخفي تحامله على صلاح الدين، وحاول أن يشوه بعض أعماله، ويُسيئ تفسير بعض تصرفاته. ولم يترك فرصة من دون أن يغمزه فيها بشكل مباشر أو غير مباشر. ولا يعني هذا أن ابن الأثير كانت له أطماع بأن يحظى بمكانة خاصة عند صلاح الدين، فأخلاقه لا تترك مجالاً للشك في أنه كان يطمح في الحصول على منصبٍ أو وظيفة؛ فقد كان في استطاعته، بحكم ما وصل إليه من مكانة عند صاحب الموصل، أن يحصل على بعض الوظائف، لكن ليس هناك دليلٌ واحد يثبت أنه ولي منصباً في الموصل، وكل ما هنالك هو أنه أُوُفد سفيراً في عهد نور الدين أرسلان شاه إلى بغداد على حد قول ابن كثير.

ويرى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - رحمه الله - أن ولاء ابن الأثير للزنكيين دفعه إلى النفور من صلاح الدين، فقد عرَّ عليه أن لا يبقى مُلك الدولة الواسعة التي أقام دعائمها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، في قبضة أبنائهما - باستثناء مدينة الموصل -، وأن يتجرأ صلاح الدين على سيده نور الدين في حياته، ويستولي على دولته بعد وفاته. ولم يشفع لصلاح الدين عند ابن الأثير أن نور الدين ترك من بعده ذريةً ضعفاً لم تستطع أن تحافظ على المكاسب التي حققها الزنكيون للمسلمين، وأن صلاح الدين كان الرجل القوي الذي استأنف سياسة الجهاد ضد الإفرنج، وحقق ذرة فتوحاته باستعادة بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م).

وقد غصَّ ابن الأثير الطرْف في كتابه "الباهر" عن بعض المواقف والحوادث، في حين أوردتها مفصلة في "الكامل": [كالأزمة العابرة التي كادت أن تُلقي بآمال عماد الدين زنكي في مهب الريح سنة (٥٢٣هـ/١١٢٩م)، بعد أن حاول السلطان محمود السلجوقي (٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣١م) عزله وتعيين دُبيس بن صدقة بدلاً منه، فتدخل الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م)، وأقنعه بضرورة إبقاء عماد الدين في منصبه - حادثة سيطرة عماد الدين زنكي على مدينة حماة غدرًا سنة (٥٢٣هـ/١١٢٩م)، وطريقة تعامله مع خيرخان بن قراجة صاحب حمص بعدما استدرجه، والإتيان به إلى معسكره سنة (٥٢٣هـ/١١٢٩م) - خبر مبادلة سونج بن بوري صاحب دمشق المعتقل في حلب بالأمير دُبيس بن صدقة سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م) - استعادة شمس الملوك إسماعيل بن بوري صاحب دمشق مدينة حماة من عماد الدين سنة (٥٢٧هـ/١١٣٣م)، وذلك في أثناء حصار الخليفة المسترشد للموصل - دعوة شمس الملوك إسماعيل عماد الدين سنة (٥٢٩هـ/١١٣٥م)؛ من أجل الحضور إلى دمشق ليسلمها إليه، مشترطاً عليه أن يمكنه من الانتقام من كلِّ مَنْ يكرهه من المقدمين والأمراء والأعيان بدمشق - الحيلة التي لجأ إليها عماد الدين لأخذ مدينة الرقة سنة (٥٢٩هـ/١١٣٥م)، وهو في طريقه

لتسلم دمشق من شمس الملوك - نقض عماد الدين زنكي للعهد الذي أعطاه لحامية بعلبك سنة (٥٣٤هـ/١١٤٠م) - تغاضيه عن عرج قطب الدين مودود صاحب الموصل حتى لا يجرح كبرياء الملك عز الدين مسعود الثاني المَهْدَى إليه الكتاب].

ويجدر بالذكر؛ أن ابن الأثير كان يصدر أحياناً حكمه حول شخصية من الشخصيات، سواء بالإيجاب أم بالسلب؛ فقد نقد تصرف عز الدين مسعود الأول عندما سلم مدينة حلب إلى أخيه عماد الدين الثاني، الذي سلمها - بدوره - إلى صلاح الدين سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م)، بقوله: "وعبر صلاح الدين نهر الفرات وملك البلاد الجزرية، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها، فعاد إلى حلب وحصرها، فسلمها إليه عماد الدين، وأخذ سنجار ونصيبين عوضاً عنها. وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب إلى عماد الدين، فإنه كان مضرّة محضة". ثم عاد وأكد في موضع آخر عدم جدوى هذا التصرف، قائلاً: "ذكر مُلك عز الدين مسعود قلعة حلب عند ابنه الملك نور الدين أرسلان شاه يوماً، وأنه سلمها إلى أخيه عماد الدين، فقال: والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجب منها، والله لو ملكتها لجالدت صلاح الدين عليها بالسيف بباب مصر".

وأحياناً كان يحكم ابن الأثير على الحوادث بالتفرد وأوليّتها، كأولية سيف الدين الأول في حمل السنجق على رأسه من أصحاب الأطراف، وفي أمره لعساكره أن لا يركب أحدهم إلا والسيف في وسطه، والدبوس تحت ركابه سفيراً وحضراً، وكأسبقية نور الدين محمود في إنشاء دار الحديث بدمشق، وهذا غير دقيق حسب تفيد الدكتور ناجي معروف لهذه الرواية ذكرًا أن هناك دور حديث أنشئت قبلها في بلاد المشرق الإسلامي من قرابة قرنين ونصف.

وإجمالاً للمآخذ على المنهج التاريخي لابن الأثير في "الباهر"، نجده أشاع الغموض حول بعض الحوادث، وأغفل أيضاً التأريخ التام لبعضها، ولم يتطابق تأريخ بعض الحوادث في كتابه "الباهر" مع "الكامل"، ولم يذكر في معظم الأحيان مصادره الأصلية التي أجرى قلمه على روايتها بالتعديل "لدرجة بات البحث عنها من أشق الأمور وأعزها منالاً"، حسب قول هاملتون جب والدكتور نظير سعداوي. وقد جعلت هذه المآخذ على "الباهر" بعض الباحثين ينصرف عنه إلى "الكامل" في ما يتعلق بالدولة الزنكية، وكم في ذلك من تجنُّ على هذا الكتاب النادر في ميدانه؟! فكما قيل: "لا يغني كتابٌ عن كتابٍ؛ ففي "الباهر" نجد روايات دقيقة خلى منها "الكامل" وأي مصدر آخر معاصر. وللأمانة العلمية، لم تقلل هذه المآخذ من قيمة "الباهر"، بل - على العكس - أضفى موقف ابن الأثير فيه من صلاح الدين على رواياته قيمةً جديدة؛ نظرًا لكونه يمثل وجهة نظر إسلامية معارضة لسياسة صلاح الدين ومضادة لوجهة نظر مؤرخي الدولة الأيوبية. وهذا الاختلاف في إيراد الروايات التاريخية يدفع إلى المزيد من التحري عن

الروايات الصادقة؛ للوصول إلى الحقيقة عن طريق مقارنة بعضها مع بعض.

لم تطرقت هذه الدراسة لنقطة مهمة تتمثل في "ابن الأثير كما رآه معاصروه"؛ فقد أثنى ابن خَلَّكان (ت. ٦٨١هـ/١٢٨١م) المعاصر لابن الأثير عليه وعلى مصنفاته؛ فقد قال عنه: "كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفة ما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم". وأشاد أبو شامة في مقدمة كتابه "الروضتين" بكتاب "الباهر" قائلاً: "وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما (يقصد نور الدين وصلاح الدين) جماعة من العلماء والأكابر الفضلاء... وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري - عُرف بابن الأثير - مجلدًا في الأيام الأتابكية كُلِّها، وما جرى فيها، وفيها شيء من أخبار الدولة الصلاحية؛ لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى؛ لكونها متفرعة عنها".

أما القفطي، فقد اتهم ابن الأثير بأنه تصرّف في الكتيبات والأوراق التي بخط ياقوت الحموي تصرفًا غير مُرضٍ، ولم يوصلها عقب عودته إلى الموصل إلى حيث أوصى ياقوت، "بل فرقها على جماعة أراد انتفاعه بهم وبها عندهم، ولم ينفعه الله بشيء من ذلك، ولم يتملّ منها بأمل ولا مال، وقطع الله أجله، بعد أن قطع من الانتفاع بتفرقتها أمله، فاكسب خزي الدنيا وعذاب الآخرة. وبلغني أن خبرها وصل إلى بغداد، وأنهم طالبوه من هناك بتسييرها إلى محل وقفها، فسير بعضُها وأعرض عن بعض، فنعوذ بالله من سوء القضاء والقدر". وهناك رواية لابن خلكان عند ترجمته لياقوت نستشف من فحواها ما ينسف هذا الادعاء ويدحضه؛ فقد قال: "وكان قد وقف كتبه على المسجد الزيدي الذي يَدرب دينار ببغداد، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير، فحملها إلى هناك". فهذه الرواية تبين أن ابن الأثير قد نفّذ وصية ياقوت. وقد فنّد الدكتور إحسان عباس - رحمه الله - هذا الادعاء، قائلاً: "لستُ أود أن أدافع عن ابن الأثير، ولا أرمي القفطي بالتزديد، أو بتسجيل سيئات الناس دون محاسنهم؛ إذ إنني لا أعرف ما كان بين الرجلين من علاقة، كما أنني لا أحب أن أقول إنَّ المعاصرة هُجنة، أو أن أقيس أخلاق الفرد على ما اكتسبه بعد مرور القرون من شهرة علمية، ولكن هذا لا يمنعني من أن أتساءل: ما الانتفاع الذي كان يرجوه ابن الأثير من تفريق كتب ياقوت وأوراقه؟ لقد ترك القفطي هذا الجانب غامضًا، فنحن لا نعرف ماذا فترق، وعلى مَنْ فرقها، وقد كان قادرًا على الانتفاع - لو شاء - من طرق أخرى، كالاتصال بالحكام في عصره، وتقديم الخدمات لهم، وهو قد ابتعد عن ذلك عامدًا".

وقد اخترت كتاب "النوادر السلطانية" بالذات للمقارنة مع كتاب "التاريخ الباهر"؛ لسببين اثنين، هما: معاصرة المؤلِّفين لبعضهما، ومشاهدتهما لبعض الأحداث التي يؤرخان لها؛ فابن

الأثير تُوفي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، بينما تُوفي ابن شداد بعده بسنتين، كانت غاية كُلِّ منهما تخليد أعمال سادتهم؛ ابن الأثير للزكيين، وابن شداد للأيوبيين.

وقد أظهرت الدراسة أن أسلوب ابن الأثير في كتابه "الباهر" يلتقي مع بهاء الدين بن شداد في كتابه "النوادر السلطانية" في بعض النقاط، كالاعتماد على المشاهدة العينية والمشاهدة، وعدم استخدام الأسانيد في الرواية التاريخية، وكثرة استعمال الآيات القرآنية، وتسلسل السرد التاريخي، والتعليق على الحوادث، وإبداء وجهات النظر، ووضع عناوين عند التراجع، تشمل صفات الملك، من عدل وإنصاف وشجاعة وكرم. بينما يفتقر أسلوبهما في كثرة توظيف ابن الأثير لأبيات الشعر والأمثال، بينما لم يُورد ابن شداد الشعر إلا في موضعين فقط من كتابه، واستعمال ابن الأثير للسجع كثيرًا في كتابه، بينما استخدمه ابن شداد في بعض الأحيان، وأن كتاب "الباهر" يندرج ضمن التاريخ الخاص عن دولة، أما كتاب "النوادر" فهو كتاب سيرة لسلطان.

ومن خلال الدراسة النقدية المقارنة بين "التاريخ الباهر" و"النوادر السلطانية" اتضح اختلافهما في إيراد بعض الحوادث، واتفاقهما في استخدام عدة ألفاظ غير عربية في كتابيهما، مثل: (البرنس، الأطلاب، اليذك). وهذا يدل على أنها كانت متداولة وقتذاك؛ بسبب احتكاك كُلِّ من المسلمين والإفرنج ببعضهم بعضًا، مما أسفر عن نشاط حركة التبادل اللغوي بينهما. وتبين أن ابن الأثير إنَّ بدا متحاملاً في كتابه "الباهر" على صلاح الدين، فإن ابن شداد - هو الآخر - قد أورد أخبارًا تحامل فيها على نور الدين محمود؛ فعلى سبيل المثال أرجع ابن شداد أسباب عدم سير نور الدين على مقدمة حملته الثالثة المتجهة إلى مصر سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) - بجانب خوفه على البلاد من الإفرنج -، إلى سببٍ غريب، متمثلًا في أنه بعد وفاة زين الدين علي كُوجك - نائب الموصل - في ذي الحجة سنة ٥٦٣هـ (سبتمبر ١١٦٨م)، طمع نور الدين في إقطاعاته الكبيرة، التي سلمها قبل موته إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل. بينما ذكر ابن الأثير أن نور الدين اشترط على أسد الدين ضرورة الإسراع بالمسير إلى مصر، وإلا سار هو بنفسه إليها، قائلاً له: "فإننا إنَّ أهملنا أمرها، ملكها الإفرنج، ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره".

خاتمة

إنَّ ظهور أغلب المصنفات التاريخية في القرن السادس الهجري، كان نتيجة تحديات ثقافية، اقتضتها الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي، خاصة العراق والشام، اللذين شهدا حروبًا جديدة في أهدافها ودوافعها؛ فلأول مرة يشنَّ العالم الغربي حربًا لا هوادة فيها على منطقة الشرق الإسلامي، لتنتهي هذه الحروب بالاستيطان في أجزاء كبيرة من بلاد الشام الساحلية وشمال العراق. فمن ثَمَّ، كانت المادة العلمية لتلك المصنفات ترجمة لذلك الواقع السياسي بدقائق تفاصيله، كما يُعدُّ ظهورها أيضًا؛ استكمالاً لتطور المسار العام للحركة العلمية التي شهدها العالم الإسلامي خلال القرن السادس الهجري.

لقد احتل ابن الأثير منزلة مرموقة ورفيعة في الفكر البشري عمومًا، والتاريخ الإسلامي خصوصًا؛ فقد كرسَّ جُلَّ حياته للتاريخ والسِّير. وقد تعددت مصادر ترجمته واعتناء القُدَّامى والمحدثين بتتبع حياته بالدراسة والتدوين، وتنوعت علومه، وكثر شيوخه وتلامذته، واعتنى بالرحلة والطلب، ونأى بنفسه عن المناصب الرسمية؛ مما انعكس على كتاباته التاريخية، وصبغها بالصبغة الشمولية، فهو بحق مؤرخٌ عالم.

وكان ظهور الدولة الزنكية حافزًا على تأليف ابن الأثير كتابه "التاريخ الباهر"؛ فقد سرد فيه أمجادهم - خاصة عماد الدين زُكي وابنه نور الدين محمود - المتمثلة في جهاد الإفرنج، وتحرير بعض الحصون والقلاع والمدن الحيوية كالزُّها، معتمدًا في ذلك على ما كان يسمعه من أبيه في شبابه من أخبار الزنكيين. وكانت غايته من تأليف هذا الكتاب إظهار قُدْر الملوك الأول من الزنكيين - على أساس أنهم دُرَّة في جبين الأمة، وشُعْلَةٌ يُهْتَدَى بها في الجَلَد والقوة والتقوى والدين - لحفيدهم الملك عز الدين مسعود الثاني؛ كي يسير على دَرَبهم في سياسة الرعية ونُظْم الحكم.

استنتجت الدراسة أن الزنكيين وضعوا أسسًا إدارية ومالية وقضائية وعسكرية لإدارة شئون دولتهم؛ فأسسوا الدواوين، ووفروا لها إداريين على درجة عالية من الكفاءة والنزاهة، وأقاموا دارًا للعدل تفصل في شكاوى الرعية من كبار الأمراء. كما اتخذ الزنكيون لهم نوابًا عسكريين؛ لحماية قلاع المدن المهمة من أي عدوان.

وأظهرت هذه الدراسة أن الدولة الزنكية أثَّرت في مجريات الأمور خلال القرن السادس الهجري، ودخلت في علاقات سلمية متعددة - في أغلب الأحيان - مع القوى المجاورة لها، كالسلاجقة، والخلافة العباسية، والأرناؤقة، وآل طُغتكين بدمشق، والأيوبيين. إلا أن الدور الأهم والأبرز للزنكيين تمثل في جهادهم للإفرنج، وتحرير عماد الدين لإمارة الزُّها سنة (٥٣٩هـ/١١٤٤م)، وانتصار نور الدين في موقعة حارم سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م). ولم يكن دور الزنكيين مقتصرًا على جهاد الإفرنج فحسب، بل وضعوا أيضًا

اللبنة الأولى للوحدة بين الشام ومصر، والتي بفضلها حقق صلاح الدين نصر "حطين" العظيم في عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م).

وقد يعتقد البعض أن الدولة الزنكية كان شغلها الشاغل جهاد الإفرنج، ولم تلتفت إلى العلوم والآداب، لكنه اعتقاد غير صحيح؛ فقد شهد حكم الزنكيين انتشار المدارس بالموصل وحلب ودمشق، وبناء البيمارستانات الكبرى، كالبيمارستان النوري بدمشق. كما أقام نور الدين دارًا لتدريس الحديث النبوي في دمشق. واستقبل الزنكيون العلماء في شتى التخصصات ببلاطهم، كالفقيه الشافعي قطب الدين النيسابوري، والمحدث ابن عساكر، والطبيب أبي المجد محمد. وفي عهدهم أيضًا، ترعرع ما يُسمى بـ "شعر الجهاد" على يد مجموعة من الشعراء الكبار كالقيسراني، وابن منير الطرابلسي، اللذين كانا يُشَبَّهان بجريز والفردق.

وأبرزت الدراسة اهتمام الزنكيين بالمتصوفين، فشيّدوا لهم الرُّبُط والخانقاهات في المدن المختلفة، وقدم المتصوفة إلى بلاطهم ووعظوهم، وكان نور الدين يجلهم كثيرًا ويقدمهم على أمرائه، وكان الشيخ الصوفي عمر المَلَّاء صاحب كلمة مسموعة - حتى على نائب قلعة الموصل - بفضل هذا الاهتمام الذي حظى به المتصوفة في ربوع الدولة الزنكية.

وإنَّ قال قائل إنَّ كتاب "الباهر" قد بالغ فيه ابن الأثير في تمجيد الزنكيين، وتغاضى عن تقلص نفوذهم ودورهم بعد وفاة نور الدين محمود سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م) وبزوغ نجم صلاح الدين الأيوبي، فينبغي أن نتذكر أن ابن الأثير بشرّ، وأن المؤرخ مهما يتوخى الصدق والحق، فإن له قلبًا يجعله يحب كما يحب البشر، ويكره مثلما يكرهون. كما أنه أمرٌ طبيعي ومتوقع أن يمدح ابن الأثير الزنكيين، إذا عرفنا فضل أولئك الحكام على أسرته، على أبيه وأخيه بشكلٍ خاص. ومع ذلك، فالكتاب يقدم مادةً تتصف بالدقة والتفصيل؛ لأن ابن الأثير استقى معظمها من أبيه وأخيه المظليين على أدق تفاصيل الزنكيين، فضلًا عن كون ابن الأثير

- نفسه - شاهد عيانٍ على الفترة الأخيرة من عمر هذه الدولة. وختمًا، إنَّ لكتاب "الباهر" أهميةً كبرى في ما يتعلق بالحروب الصليبية في عصر عماد الدين زُكي ونور الدين محمود؛ فهو يوضح كيف تحول العالم الإسلامي في خضم الخطر الإفرنجي، من "مرحلة الدفاع" على يد الأمير مودود بن التوتكين (ت. ٥٠٧هـ/١١١٣م)، والأمير بلك بن بهرام (ت. ٥١٨هـ/١١٢٤م)، والأتابك طغتكين (ت. ٥٢٢هـ/١١٢٨م)، إلى "مرحلة الهجوم والصحوّة الجهادية" على يد عماد الدين وابنه نور الدين.



النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن ١٢هـ/١٨م من خلال رحلات المغاربة

سمير مشوشة

أستاذ التعليم الثانوي
باحث دكتوراه تاريخ حديث ومعايير
الجمهورية الجزائرية



بيانات الأطروحة

أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث
قسم التاريخ
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
جامعة الأمير عبد القادر - الجزائر ٢٠١٤
عدد الصفحات ١٧٠

النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن ١٢هـ/١٨م
من خلال رحلات المغاربة
إعداد: سيمير مشوشة
إشراف: أ.د. صاري أحمد

كلمات مفتاحية:

التجارة، الجزائر، تونس، الإيالة، رحلات المغاربة، القرن ١٢هـ/١٨م

مقدمة

تنوعت رحلات المغاربة تجاه المشرق بتنوع أهدافها ومقاصدها، وتعددت بتعدد أسبابها وحوافزها، مما أدى إلى الربط بين ثقافة المجالين الجغرافيين في مجالات عديدة، وهذه الرحلات لم تكن ذات طابع واحد فقد كانت علمية، دينية، تجارية، استكشافية، وانتقل هذا النوع من السفر من المشرق إلى بلاد المغرب وأصبح جزءا من طريقة الانتقال من منطقة إلى أخرى وسميت "بالرحلات الحجازية"، وكان سكان بلاد المغرب يتبعون منهج المشرقيين في الرحلة خاصة ذات البعد الديني، وتم إخراجها كمصادر تاريخية هامة اعتمد عليها أغلب الباحثين في دراساتهم، وهذه الرحلات ساهمت كثيرا في معرفة وصف المناطق ومختلف الطرق التي تسلكها القوافل التجارية في بلاد المغرب العربي، وانطلاقا من تداخل المجال الجغرافي بين الجزائر وتونس خلال القرن (الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي) حاولت بناء فكرة عن عملية الحركة التجارية بين الإيالتين وتأثيرها على العلاقات بينهما، وأيضا ركزت من خلال موضوع هذا العرض الكشف عن مسار شبكة الطرق التجارية وما تحملها من سلع وعملات، انطلاقا من مختلف القراءات الدقيقة في رحلات المغاربة والوصول إلى استنباط كل ما هو متعلق بالنشاط التجاري بين تونس والجزائر.

التعريف بموضوع البحث وأهميته

لقد أسهب غالبية المؤرخين في عرض أوضاع بلاد المغرب بعد سقوط الموحدين خاصة ما تعلق بظهور الدويلات الثلاث ببلاد المغرب: الحفصية في تونس، الزيانية في الجزائر والمرينية في المغرب الأقصى، وكانت كل منها ترى أن لها الأحقية في وراثتها، وأدى هذا الصراع المتزايد إلى اندلاع بعض الحروب بينها،^(١) ساهمت في تدهور أوضاعها الداخلية، خاصة وأن مشكلة الحدود والصراعات القبلية كانت السبب الرئيس لهذا التنافس، بالإضافة إلى التحرشات الإسبانية والبرتغالية التي من خلالها تم احتلال أغلب سواحل بلاد المغرب،^(٢) فظهر العثمانيون في المنطقة كطرف فاعل في هذا الصراع، وكانت نتيجته ضم كل من الجزائر سنة (١٥١٩م)،^(٣) طرابلس الغرب سنة (١٥١٨م/١٥١٩م) وتونس سنة (١٥٧٤م)، وأصبحت من ممتلكاتها، وبدورها -الدولة العثمانية- كانت في صراع دائم مع الأسر الحاكمة في المغرب الأقصى، لكن كل هذه الظروف لم تكن حاجزا أمام إقامة علاقات اقتصادية مختلفة.^(٤)

وإن الاهتمام بدراسة العلاقات الاقتصادية بين الجزائر ودول المغرب الكبير خلال العهد العثماني لم يكن بجديد في ساحة البحث التاريخي، فقد برز العديد من الباحثين في تاريخ الجزائر العثمانية في إطارها الاقتصادي، وشغلت دراساتهم حيزا كبيرا من أحداثها التاريخية، وهذا من خلال مصادر هامة متمثلة في

الدراسات السابقة

من الدارسين الذين اهتموا بجانب العلاقات الاقتصادية للجزائر العثمانية وكانت دراساتهم قريبة لموضوع هذا البحث ومثال ذلك نذكر: عمار بن خروف،^(٥) المنور مروش،^(٦) ناصر الدين سعيدوني،^(٧) الشيخ المهدي البوعدي،^(٨) عبد الجليل التميمي،^(٩) يمينة درياس،^(١٠) عائشة غطاس،^(١١) أبو القاسم سعد الله،^(١٢) خليفة حماش،^(١٣) محمد العربي الزبيري،^(١٤) كل هؤلاء وآخرون قدموا مساهمة كبيرة لا يمكن تجاوزها لكل من يرغب في البحث عن الجانب الاقتصادي للجزائر العثمانية وعلاقاتها التجارية ببلاد المغرب.

إشكالية البحث

تهدف إشكالية هذا البحث في معرفة مساهمة رحلات المغاربة - باعتبارها من المصادر الهامة - في بناء صورة عن علاقات الجزائر العثمانية مع دول بلاد المغرب خاصة علاقاتها التجارية مع جارتها تونس، وهذا انطلاقاً من استغلال المادة التاريخية للنشاط الاقتصادي في هذه الرحلات، وإحصاء ما تضمنته هذه الرحلات من إشارات ونصوص إخبارية ووصفية تتحدث عن وجود اتصال وتفاعل تجاري بين الإيالتين، فكان لابد أن نعزز كل هذا من خلال إجابتي على التساؤلات التالية:

انتصاب الحكم العثماني في الجزائر وتونس شكل قطيعة مع الماضي السياسي لهاتين الإيالتين وأعطاهما معنى الدولة بالمفهوم الحديث: فما هي آثار هذا التطور السياسي على الجوانب الاقتصادية بين الإيالتين؟ وما هي الصعوبات التي اعترضت العلاقات الاقتصادية بين البلدين في بدايات التواجد العثماني؟ وهل كان للخلافات والصراعات الحدودية أثر على عملية التواصل التجاري بينهما؟ وإلى أي مدى ساهم التقارب الجغرافي (التخوم) بين الإيالتين في تسهيل الحركة التجارية؟ وماهي أبرز السلع والمنتجات المتبادلة بين البلدين خلال القرن (١٨/١٢م)؟ وما مدى مساهمة القوافل ورحلها في عملية نقل السلع والمنتجات بين أسواق الإيالتين؟ وهل كان للنظام الضريبي المتبع في البلدين تأثير على الحركة التجارية؟ وماهي انعكاسات ذلك على علاقاتهما الاقتصادية؟ وماهي أهم المحاور والطرق التجارية التي تربط الإيالتين؟ وإلى أي مدى ساهم تداول العملات في تفعيل النشاط التجاري بين الإيالتين خلال القرن (١٨/١٢م)؟.

منهج الدراسة

من أجل الإجابة عن إشكالية هذا البحث ومختلف تساؤلاته، اعتمدت على منهجية علمية قائمة على استقراء وتحليل مختلف النصوص التاريخية المستقاة من رحلات المغاربة المعتمدة في هذه الدراسة، وطبيعة الموضوع كذلك فرضت علي اتباع المنهج الكمي بغرض عرض مختلف الجداول التي شكلتها لتبيان ما

رحلات المغاربة الذين عاصروا فترة القرن (١٨/١٢م)، خاصة وأنهم قاموا بتدوين أخبارهم تدوينا سرديا كرونولوجيا، فجاءت بوقائع تاريخية هامة تثبت وجود علاقات اقتصادية بين دول بلاد المغرب، وفي هذا الإطار عرفت الجزائر وتونس نشاطا وحركة تجارية متباينة.

وانطلاقاً من هذه المعطيات التاريخية، حاولنا تقديم نظرة مختلفة وذلك من خلال دراسة اقتصادية متواضعة وقع اختياري عليها فجاءت بعنوان: "النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن (١٨/١٢م) من خلال رحلات المغاربة". فهذا الموضوع يعالج الجانب التجاري في العلاقات الجزائرية - التونسية من خلال مصادر محلية هامة متمثلة في رحلات المغاربة خلال القرن (١٨/١٢م) نذكر منها: الرحلة الناصرية، رحلة الورتيلاني، رحلة المكناسي، وبذلك سيكون هذا البحث نتاجاً لرؤية تؤرخ للتجارة بين البلدين، وقد استلزم هذا العمل استنباط واستخراج كل ما اتصل بالجانب التجاري من خلال ما تم تدوينه في رحلات المغاربة في الفترة المذكورة، وكذلك كمحاولة مني لتتبع أخبار الطرق التي سلكوها في رحلاتهم، وبذلك فإن الهدف من خلال جمع الروايات والنصوص المتعلقة بالتجارة والموجودة في متون الرحلات، هو بناء حلقة من تاريخ النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن (١٨/١٢م)، ورسم شبكة الطرق التجارية الرابطة بين الإيالتين، وإبراز دور ومساهمة رحلات المغاربة في التعريف بها.

أسباب ودوافع اختيار الموضوع

- هذا البحث جاء نتيجة مجموعة من الدوافع والأسباب التي اقنعتني بتناول هذا الموضوع ويمكن تلخيصها في ما يلي:
- الميول الشخصي لدراسة الجوانب التجارية في تاريخ الجزائر العثمانية مع دول المغرب خاصة مع جارتها تونس، وهذا في ظل الصراع الكبير القائم بينها في هذه الفترة.
 - اطلاعي على بعض رحلات المغاربة والمصادر والمراجع في مرحلتي التدرج وما بعد التدرج، والتي وجدت فيها بعض المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع.
 - محاولة إزالة بعض الغموض والإبهام الذي يسود هذا الموضوع، خاصة في جانبه التجاري.
 - تشجيع المشرف على تناول هذا الموضوع، خاصة في ظل نقص الدراسات المتعلقة بالموضوع وبالطريقة نفسها والمنهج المتبع.
 - محاولة وضع صورة للنشاط التجاري للإيالتين خلال القرن (١٨/١٢م) وانعكاساته ومقارنتها بالعلاقات الاقتصادية الحالية.

(١٨/هـ ١٢م). وأنهيت دراستي هذه بخاتمة تضمنتها أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

أهم المصادر المعتمدة في الدراسة

اعتمدنا في إنجاز هذا الموضوع على مجموعة من المصادر التاريخية وأهمها:

١- كتب الرحلات:

أبرزها: رحلة الدرعي (١١٢١هـ/١٧٠٩م)،^(١٦) رحلة بن حمادوش الجزائري (١١٥٦هـ/١٧٤٣م)،^(١٧) رحلة بن عمار الجزائري (١١٦٦هـ/١٧٥٢م)،^(١٨) رحلة الورتيلاني (١١٧٩هـ/١٧٦٥م)،^(١٩) رحلة المكناسي (١٢٠٠هـ/١٧٨٥م)،^(٢٠) رحلة أبي راس الناصري (١٢٠٤هـ/١٧٩١م)،^(٢١) رحلة أبو القاسم الزياني (١٢٠٥هـ/١٧٩١م)،^(٢٢) فاعتمدت عليها أساساً في استخراج النصوص المتعلقة بالتجارة وتحديد ما تضمنته من شخصيات وأسماء، وأيضاً في تحديد الطريق التجاري بالربط بين مكان الانطلاق ومكان الوصول، واستخراج السلع التجارية والعملة وما يستخدم في الرحلة من وسائل نقل، بالإضافة إلى رحلات أخرى هامة مثل، الرحلة العياشية (١٠٧١-١٠٧٣هـ/١٦٦١-١٦٦٣م)،^(٢٣) وقد تطلب مني الموضوع أيضاً الاطلاع والبحث في مؤلفات بعض الرحالة الأجانب والمكتوبة باللغة الفرنسية والذين زاروا الجزائر وتونس خلال القرن (١٨/هـ ١٢م) وعاشوا أحداثها ومنهم: Jean André Payssonnel - "Voyage dans La Régence de Tunis (1724)" -

Thomas Shaw - والتي جاء تحت عنوان:

"Voyage dans la régence d'Alger au XVIIIe siècle -"

٢- كتب الجغرافيا:

اعتمدت عليها في تعريف الأماكن والمواقع الجغرافية واستخلاص أبرز الطرق والمسالك التي تربط الإقليمين وأهمها ما يلي:

- تقويم البلدان: لأبو الفداء (إسماعيل بن علي، ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م).
- نزهة المشتاق في اختراق الأفاق: للإدريسي (أبو عبد الله، ت. ٥٦٠هـ/١١٦٥م).
- مرادص الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: للبغدادي (صفي الدين، ت. ٧٣٩هـ/١٣٣٩م).
- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، "المسالك والممالك": للبكري (أبو عبيد، ت. ٤٨٧هـ/١٠٩٤م).
- معجم البلدان: للحموي (شهاب الدين، ت. ٥٧٤هـ/١١٧٨م).
- الروض المعطار في خبر الأقطار: للحميري، (ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٥م).
- كتاب الجغرافية: للزهري، (ت. ١٢هـ/١٢م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: للمقدسي، (ت. ٣٨٠هـ/٩٩٠م).
- الاستبصار في عجائب الأمصار: لمجهول (ت. ١٢هـ/١٢م).

تعلق بالحركة التجارية بين الإقليمين خلال القرن (١٨/هـ ١٢م)، ثم التعليق عليها وتحليلها ومحاولة استقراء نتائجها، وإن كانت كلها تقوم على مقاربات بين معطيات ما جاءت به مختلف النصوص التجارية.

الإطار الزماني والمكاني للبحث

بخصوص الإطار الزماني لموضوع البحث، فمن خلال العنوان يتضح لنا أنه ينحصر في القرن (١٨/هـ ١٢م)، باعتبار أن أهم رحلات المغاربة والتي اهتمت بالجانب الاقتصادي بين الجزائر وتونس دونت في هذا القرن فعلى سبيل المثال لا الحصر: "الرحلة الناصرية (١١٢١هـ/١٧٠٩م)"، "رحلة الورتيلاني (١١٧٩هـ/١٧٦٥م)"، "رحلة المكناسي (١٢٠٠هـ/١٧٨٥م)"، أما الإطار المكاني فهو يشمل المجال الجغرافي لإيالاتي الجزائر وتونس والحدود بينهما، وهذا في ظل عدم وضوحها بسبب الخلافات والصراعات الكبيرة بين البلدين، خاصة وأنه ما تميزت به قبل سنة (١٠٣٧هـ/١٦٢٨م) كانت عبارة عن حدود متحركة (تخوم).^(١٥)

فصول الدراسة

تضمن هيكل البحث مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

حاولت في مدخل هذه الدراسة إبراز ما تميزت به العلاقات السياسية والعسكرية بين الجزائر وتونس ونتائجها على الحركة التجارية بين الإقليمين في بداية العهد العثماني. أما عن **الفصل الأول**، فجاء بعنوان "رحلات المغاربة تؤرخ للعلاقات التجارية بين الجزائر وتونس"، وفيه أوردت إحصائيات لعدد نصوص رحلات المغاربة المتعلقة بالتجارة وكذلك الأصول الجغرافية للرحالة، فرأيت في كتب رحلاتهم أنها بمثابة مصادر هامة لدراسة العلاقات التجارية بين الجزائر وتونس.

وفي **الفصل الثاني** والموسوم بعنوان "الرحالة المغاربة وكتبهم خلال النصف الثاني من القرن (١٨/هـ ١٢م)"، خصصناه للحديث عن أهم الرحالة المغاربة وكتبهم خلال هذه الفترة الزمنية، وهذا انطلاقاً من تحليل مختلف النصوص الواردة فيها والتي تحمل بين طياتها إشارات وإحياءات عن التجارة، ومن هذا حاولت تتبع الرحالة من بداية رحلته وصولاً إلى تونس ونفس الشيء في رحلة عودته، وهذا في إطار المجال الجغرافي الذي أنا بصدد دراسته - الجزائر وتونس-، كل هذا وأكثر بهدف الوصول إلى رسم شبكة تجارية بين الإقليمين.

وبخصوص **الفصل الثالث** فقد تضمن "قراءة في معطيات النصوص التجارية الواردة في رحلات المغاربة"، ومن خلالها توصلت إلى بعض الإحصائيات التجارية من: إشارات للتجارة، مناطق الأنشطة التجارية في الإقليمين، الطرق والمحاور التجارية، السلع، العملات، وسائل الرحلة، وهذا كله كمحاولة مني لرسم بعض معالم الحركة التجارية بين الجزائر وتونس خلال القرن

أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة

امتد هذا البحث على مدار القرن (١٨/١٢م)، حاولنا فيه استخدام معطيات رحلات المغاربة المتاحة، رأيت فيها أنها ستخدم هذه الدراسة في جانبها التجاري، أما عن نصوصها فقد رصدت فيه إشارات متعلقة بالتجارة من حيث الأماكن الجغرافية (المحطات التجارية)، الطرق والمسالك، العملات، السلع والبضائع، الأسواق، وسائل النقل....، فمن هذه المعطيات خلصت للنتائج التالية:

في البداية ما أود أن أوضحه في كل هذا هو أنه من الضروري أن نطرح مشكلة الأمانة العلمية الواجب اتخاذها أمام ظاهرة انتقال المعارف التاريخية بين المؤرخين، إذ لابد من الإشارة إلى المصادر المنقول عليها أثناء تدوين الرحلات ونقل الروايات، وهذا ما نفتقده إطلاقاً في أغلب كتب الرحلات الحجازية مثل رحلة ناصر الدرعي والورتيلاني، فغالباً ما يفتتح رواياتهما بالقول: "وروي، وذكر، وقيل، وحدثني، وعنه يحكى...."، فمن هذا المنطلق يتأكد لنا أن رواياتهم مبنية للمجهول، صحيح أن قسم لا بأس به ما قدموه لنا في كتب رحلاتهم مبني على الرواية الشفوية، لكن العيب في كل هذا هو النقل الحرفي لبعضها عن رحلات سابقة فهذا ما اعتبره أنا بمثابة إجحاف في حق جهود سابقه من الرحالة، فلو تمعننا مثلاً في وصف أغلب المدن والقرى والمسالك التي اشتركوا في المرور بها سنجد أن من يأتي من الرحالة بعد سابقه سيورد لنا نفس الوصف سواء أكان مقتبس حرفياً أو ذو معنى توافقي، ولهذا على الباحثين في متون هذه المصادر التاريخية أخذ بعض الحيلة من المعلومات التي تتوفر عليها.

تميزت نصوص رحلات المغاربة بقصورها عن تصوير الجانب التجاري الذي يربط الإيالتين خلال القرن (١٨/١٢م) وهذا لطغيان الطابع الديني (الحج)، الاستكشافي (الجغرافيا)، الثقافي (العلمي)، وما تم تسجيله من إهمال لبعض التفاصيل التجارية - في رأيي - لا يتعدى وصف للأماكن الجغرافية وإشارات إلى عمليات البيع والشراء في بعض أسواق الإيالتين، وإن المتعامل مع هذه النصوص يدرك صعوبة تحديد نوعية الحركة التجارية بينهما، خاصة في ظل التعقيم الشبه الكامل الذي تميزت به عن وجود تواصل حقيقي وواضح في متون هذه الرحلات وما تم التوصل إليه هي اجتهادات واستنتاجات، فطبيعة هذه النصوص وما تحتويها من أسماء لشخصيات وأماكن جغرافية وردت بها صعبت من مهمتي في البحث عن تعريف وترجمة كاملة لها، وما توصلت إليه في هذا الإطار جاء بعد جهد كبير من خلال البحث في كتب التراجم والجغرافيا المتوفرة لدي، وحقيقة كل هذا فرض علي الدخول في مقاربات وترجيحات غير محمودة العواقب وغير

مضمونة النتائج، من أجل رسم صورة عن وجود نشاط تجاري بين الإيالتين.

وفي جانب آخر، تبقى مشكلة النقل الحرفي للنصوص أو تكرار النصوص - دون مراعاة الأمانة العلمية - سمة غالبية في متون هذه الرحلات المدروسة، وفي الحقيقة ذلك أمر لابد منه لتغطية بعض الفراغات التي ترد فيها، خاصة في ظل عدم معرفة المؤلف لبعض الأماكن الجغرافية، لكن في الواقع حسب رأيي هذا ليس بمشكلة لو تمت الإشارة إلى المصدر المأخوذ عنه وتبنيته مع النص المقتبس منه ويتجلى هذا الأمر خاصة عند الدرعي - "الرحلة الناصرية" - والورتيلاني - "الرحلة الورتيلانية" -، ولا يتوقف الأمر عند التكرار فقط، فأحياناً يوجد تناقض ملحوظ إما النص في حد ذاته يتناقض مع معطياته أو يتناقض مع غيره من نصوص رحلات أخرى وهذا حسب رأيي يرجع لعدم تدقيق بعض المؤلفين لمعلوماتهم ما أوقعهم في أخطاء جسيمة كان من الممكن تفاديها.

إن دراسة نصوص هذه الرحلات أوصلتني إلى نتيجة مفادها أن التعامل التجاري بين الإيالتين خلال القرن (١٨/١٢م) كان واضحاً ورسمياً، فرغم الصراعات السياسية والعسكرية التي كانت بينهما في بدايات التواجد العثماني لم تمنع من وجود حركة تجارية واضحة المعالم، ويفهم من كل هذا أن العلاقات التجارية أكبر من هذه الصراعات، وقد كان لمختلف القوافل المشتركة بين الجزائر وتونس والتي أعطت لبعض التجار من الطرفين فرصة الاندماج السريع في المنظومة التجارية القائمة بينهما، فأصبحت بعض القوافل أسباًداً لمختلف الطرق التي تصل بين الإيالتين، وبالتالي شهدت المسالك التجارية تغييراً ملحوظاً في حركيتها الاقتصادية، وأغلب الرحلات المدروسة قدمت لنا تفاصيل كثيرة عن مراحل الطرق والمحطات التي نزلت بها وما يمكن ملاحظته فيها - أي النصوص - هو ذكر مكان وتاريخ انطلاق ووصول الرحلة مع ذكر مختلف المراحل التي مرت بها وهو ما سهل لي مهمة رصد الطرق التجارية بين الإيالتين وما جاءت به هذه النصوص أيضاً هي حالات الأمن التي تميزت بها بعض المسالك، فجل قطاع الطرق وبالأخص القبائل الحدودية المتمردة على السلطة الحاكمة ومن الجانبين يقتفون أثر هذه القوافل ويمارسون عليها مختلف أنواع السلب والنهب والسرقة، ومن هذا المنطلق أمكنني التوصل إلى أنه من أهم العوامل المؤثرة في تنشيط الحركة التجارية بين البلدين.

باستثناء بعض الأحداث التاريخية، توحى رحلات المغاربة بوجود نفوذ عثماني واحد لبلاد المغرب خلال القرن (١٨/١٢م)، وهذا من منطلق تأثير النزاعات التي عرفها هذا المجال الجغرافي بين

المغرب الثلاث من صراعات سياسية وعسكرية حدودية، فهذا ما يؤكد وجود ثغرات وتباعد بين هذه الإيالات وهو ما تم تسجيله في متون بعض الرحلات المدروسة، مما أثر على علمية ودقة النصوص المتعلقة بالتجارة.

لاحظت في بعض الرحلات وبشكل واضح تغييب السلع التجارية المتبادلة بين الإيالات وما تم التوصل إليه هي عمليات ربط واستنباط وتحليل وبحث عن مصدرها، فأحياناً يحس القارئ لمتنها أنها مالت عن هدفها الأولي فنجدها بمثابة رحلة استكشافية سياحية وليست حجية أو علمية أو تجارية.

وكخلاصة عما سبق فيما تم التوصل إليه من نتائج خلال هذا البحث لا تعبر بالضرورة عن واقع الحركة التجارية الجزائرية-التونسية بقدر ماهي نتائج محققة مما جاءت به نصوص رحلات المغاربة، ولا عجب في أن تكون بمثابة مصادر تؤرخ للتجارة بين الإيالات.

الهوامش:

- (١) شوقي عطا لله الجمل، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا- تونس-الجزائر-المغرب)**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧، ص. ٣٥ وما بعدها.
 - (٢) يحي بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر (١-٢) الجزائر القديمة والوسيلة والجزائر الحديثة**، ج١، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ١٧٦-١٧٨.
 - (٣) المرجع نفسه، ج٢، ص٦.
 - (٤) عبد الجليل التميمي، **دراسات في التاريخ العثماني المغربي خلال القرن السادس عشر**، السلسلة (١٠): الولايات العربية أثناء العهد العثماني، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ٢٠٠٩، ص ٢٠-١٠٧.
 - (٥) **العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن ١٦/١٧م**، ج٢، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٨.
 - (٦) **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل**، ج١، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٩.
 - (٧) أذكر منها: **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (١٧٩٢ - ١٨٣٠)**، ط٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥. و **رققات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط٢، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٨. **قانون أسواق مدينة الجزائر (١١٠٧-١١١٧هـ/١٧٠٥-١٧٠٥م)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦.
 - (٨) **الجزائر في التاريخ، العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.
 - (٩) **La Marine et les routes commerciales Ottomanes**, Actes des symposiums sur les provinces Arabe à l'Epoque Ottomane, N° 12, Série 1 (A), Publications de la fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et L'Information, Zaghuan, 2000.
- وأيضاً: **المجلة التاريخية المغربية**، الأعداد (٣٧-٣٨)، (٣٩-٤٠)، (٧١-٧٢).

- (١٠) **السكة الجزائرية في العهد العثماني**، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧.
- (١١) **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (١٧٠٠-١٨٣٠)**، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ٢٠٠٧.
- (١٢) **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠.
- (١٣) منها: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالمكتبتين الوطنيتين الجزائرية والتونسية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ٢٠١٠، وكذلك: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي**، منشورات جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، د.ت.
- (١٤) أذكر منها: **التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين ١٧٩٢ و١٨٣٠م**، ط٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.
- (١٥) "وادي صرات" كان هو الحد الفاصل بين حدود الجزائر وتونس (التخوم)، للمزيد يُنظر: **احميده عميراي، علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي**، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ٢٠٠٢، ص ١٦-١٧.
- (١٦) أحمد بن ناصر الدرعي، **الرحلة الناصرية (١١٢١هـ/١٧٠٩م)**، ج١، المطبعة الحجرية، فاس، ١٣٣٠.
- (١٧) عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال، المسماة: "رحلة ابن حمادوش الجزائري"**، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ٢٠٠٧.
- (١٨) أبي العباس أحمد بن عمار الجزائري، **نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**، مطبعة بيبير فونتانا، الجزائر، ١٩٠٢.
- (١٩) الحسين بن محمد الورتيلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، "الرحلة الورتيلانية"**، مطبعة بيبير فونتانا الشرقية، الجزائر، ١٩٠٨.
- (٢٠) محمد بن عبد الوهاب المكناسي، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب "المسماة "رحلة المكناسي"**، تح: محمد بوكبوط، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.
- (٢١) محمد أبو راس الجزائري، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"**، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٢.
- (٢٢) أبو القاسم بن أحمد الزياني، **الترجمة الكبرى في أخبار المعمور بـرا وبحراً...**، تح: عبد الكريم الفيلاي، ط٢، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٩١.
- (٢٣) أبو سالم العياشي، **الرحلة العياشية (١٦٦١-١٦٦٣م)**، ج٢، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبوظبي، ٢٠٠٦.

صورة إيطاليا في المصادر التونسية خلال القرن التاسع عشر "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" نموذجاً

د. محمد صلاح حقي

أستاذ تاريخ تونس والجزائر في العهد العثماني
جامعة القيروان
الجمهورية التونسية



ملخص

يقدم هذا البحث محاولة لدراسة تاريخ أوروبا من خلال المصادر التونسية، وقد اخترنا كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" لمحمد بيرم الخامس نموذجاً نظراً لكون الرجل زار إيطاليا ووصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وعادات أهلها وتقاليدهم، فكان شاهد عيان ومصدراً موثقاً منه لاستجلاء معالم تاريخ إيطاليا خلال القرن التاسع عشر للبحث في أسباب تقدم هذه البلدان والمدن الأوروبية، ومقارنة عادات أهلها بعادات أهالي البلدان الإسلامية في محاولة للمقارنة بين الحضارات، ولتكون حافزاً لبلدان العالم الإسلامي للنسج على منوالها، فهي إذن محاولة في التاريخ المقارن. لقد كان محمد بيرم الخامس مؤرخاً، وعالم جغرافيا، وعالم اجتماع، ورحالة، وهو أمر قلما نجده لدى بعض الكتاب الآخرين، فكان مؤلفه "صفوة الاعتبار" جامعاً ومفيداً، والحق أنه لولا مرض محمد بيرم الخامس وسفره لتلقي العلاج، ما ظهر كتاب "صفوة الاعتبار"، فكان المرض سبباً في كتابة أهم مصدر في التاريخ الحديث.

كلمات مفتاحية:

تاريخ البلدان، مناخ إيطاليا، الاقتصاد الإيطالي، المجتمع الإيطالي، المرأة الإيطالية، المدينة الإيطالية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ أبريل ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٩ أغسطس ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد صلاح حقي. "صورة إيطاليا في المصادر التونسية خلال القرن التاسع عشر: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار نموذجاً". - دورية كان التاريخية. - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ١٨٥ - ١٩٤.

مقدمة

"صفوة الاعتبار" كتاب شامل ما كان ليصلنا لولا مرض محمد

بيرم الخامس

يعتبر محمد بيرم الخامس^(١) ومؤلفه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"^(٢) مصدراً هاماً لدراسة تاريخ البلدان وجغرافيتها سواء العربية أو الأوروبية خلال القرن التاسع عشر، فسفر الرجل للتداوي جعله يمر بالعديد من البلدان ويصفها وصفاً دقيقاً، أي أن المرض هو الذي قاده إلى إنتاج هذا المؤلف، فلولا المرض - إذن - ما كان ليصلنا هذا المصدر الهام من مصادر القرن التاسع عشر، وما وصلنا وصفاً دقيقاً لإيطاليا محور موضوعنا، وقد عبر عن ذلك في حديث في باب دواعي السفر عندما قال: "فصل في سفري إليها (يقصد إيطاليا) وما رأيته بها لما تكاثر في المرض العصبي في صائفة ١٢٩٢ هـ... وأشارت علي

الأطباء بالسفر إلى أوروبا عازمة على ذلك في شوال سنة ١٢٩٢ هـ"^(٣)، وقد جمع بيرم الخامس في مؤلفه بين صفات المؤلف: من خلال ذكر تواريخ نشأة البلدان وسيرورتها التاريخية وعلاقاتها ببعضها البعض - والجغرافي: باعتبار أنه وصف الأنهج والأزقة والشوارع والمناخ والتضاريس وغيرها - والرحالة وعالم الاجتماع: لما وصف الحياة الاجتماعية ودرسها دراسة متأنية فوصف نمط العيش والأكل واللباس والدين من خلال تعرضه إلى معمار المساجد والكنائس وغيرها - والاقتصادي: من خلال تناوله لاقتصاديات البلدان سواء فلاحتها أو صناعتها أو تجارتها - فالرجل لم يترك شاردة ولا واردة إلا وتناولها بالدرس، فجاء مؤلفه كتاباً شاملاً وصف فيه تقريباً جميع القارات وبالتالي كتاب عالمي فقدم لنا وصفاً لدول عربية وإسلامية وإفريقية وأخرى أوروبية، فالمرض إذن وإن كان وبالأعلى على محمد بيرم الخامس، إلا أنه كان

في إيطاليا يبلغ ارتفاعه (٩٥٢٠) قدمًا على مستوى سطح البحر، وجبل فيلنيو، وجبل الفوزوفيو قرب نابلي ويبلغ ارتفاعه (١٢٠٠) مترًا، وجبل اتنا في سيسيليا وارتفاعه (٣٣١٣) مترًا، وهو جبل يتميز بالثلوج، وجبل الترنبل في جزر ليبييري، ويؤكد محمد بيرم الخامس أن هناك جبال بالقرب من نابلي تقذف بخارًا كبريتيًا وتسمى سلفتارو، كما أن هناك جبل بالقرب من ليفورنو يقذف بخارًا مائيًا ويسمى سوففوني، وتتميز إيطاليا أيضًا بالجبال البركانية والبحيرات مثل بحيرات رسيمين، وبروسيانو، وبلنسيا لكنها بحيرات في الجبال كانت في الحقيقة جبال بركانية^(٧) حلت محلها فوهة النار.

توجد بإيطاليا أيضًا -حسب محمد بيرم الخامس- أنهار عدة، ولكنها ليست كبيرة نظرًا لقربها من البحر وأعظمها نهر "بو" الذي يفصل بينها وبين النمسا، ونهر "تيبير" الذي يصل إلى روما، ونهر "أرنو"، ونهر "أديج" الذي يمر بفرنسا، أما وظيفة هذه الأنهار فيبدو أنها محدودة حسب محمد بيرم من حيث أنها لا تحمل السفن، وإنما فقط القوارب الصغيرة باستثناء نهري "بو"، و"أديج" وهذا الأخير يحمل السفن من بلد تيرنتو إلى البحر. ويتميز نهر "بو" بجزره الرملية، فالأنهار في إيطاليا لا تلعب دورًا كبيرًا في التجارة مثلًا عدا النهرين المذكورين سابقًا، ويعود ذلك إلى توسطها للبحر فهي شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاثة جهات، لذلك يلعب البحر الدور الرئيس في ربطها ببقية البلدان المحيطة بها باستثناء تلك الواقعة جنوبها فترتبط معها عن طريق البر، كما توجد بإيطاليا ترع صغيرة أشهرها الترعة الواقعة بين "بيزة"، و"ليفورنو"، وكذلك التي تصل بين نهري "التيفر"، و"أرنو" كما توجد بها العديد من البحيرات مثل "لانوماجوري" أي الكبرى، و"كومو"، و"غاردا"، و"ليكو"، و"لوغانو"، و"ايزيو".^(٨)

١/٣- المناخ: متوسطي شبيه بمناخ تونس

مناخ إيطاليا حسب "صفوة الاعتبار" هو مناخ متوسطي يميل إلى "الحر المعتدل"،^(٩) ويتميز بطول فصل الصيف في الجنوب مع هبوب رياح السموم في بعض الأحيان مما يؤدي إلى الجفاف على غرار مناخ تونس بينما يميل الطقس في الشمال إلى البرد، وتتميز إيطاليا بهواء نقي عتّر عنه صاحب الصفوة "بالجيد" رغم أن المناطق الوسطى كانت تحتوي على مستنقعات تسببت في العديد من الأمراض خاصة في فصل الصيف منها روما وفينيسيا وقرب نهر البو، وولاية كلابريا الجنوبية، وليفورنو مما أدى إلى حصول هجرات سكانية من تلك المناطق وأفرغها من السكان، ولكن المملكة الإيطالية قامت بتجفيف تلك المستنقعات وتهيئتها فتحوّلت تلك المدن إلى مناطق جاذبة للسكان والاعمار. ويبدو أن محمد بيرم الخامس استغل وجوده في إيطاليا ليطالع على تاريخها سواء القديم أو الحاضر إيمانًا منه في التواصل بين الحقب التاريخية، وقد أفرد عنصرًا كاملاً

له وجه إيجابي وهو إنتاج مثل هذا المصدر باعتبار أن الرجل كان شاهد عيان (Un témoin Oculaire) فجاء الوصف دقيقًا، وما كان ليكون كذلك لو كتب محمد بيرم الخامس تاريخ هذه البلدان انطلاقًا مما سمح على غرار ابن أبي الضياف الذي كتب تاريخ العديد من البلدان انطلاقًا من التقارير الرسمية السياسية فكانت شهادته محل جدل.

أولاً: جغرافية إيطاليا ووسطها الطبيعي من خلال "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"

١/١- جغرافية إيطاليا وموقعها:

تقع إيطاليا - حسب ما جاء في "الصفوة - في القسم الجنوبي من أوروبا وهي شبه جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، يحدها شمالاً اسفيسرا (يقصد سويسرا)، ومن الشمال الشرقي النمسا، والشمال الغربي فرنسا، ومن الغرب والجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق بحر البنادقة، وتتخذ شكلاً مستطيلاً من الشمال إلى الجنوب يميل إلى الشرق، وقد شبهها محمد بيرم الخامس بـ "جزمة ذات عقب ومهماز وقبالة منتهى أصابع القدم جزيرة صقلية المسماة الآن بسيسيليا يفصل بينهما خليج ضيق يعرف بخليج مسينا".^(٤) وتقع إيطاليا حسب محمد بيرم الخامس من شمالها إلى جنوبها بين خط عرض ستة وأربعين درجة وأربعين دقيقة شمالاً وخط عرض سبعة وثلثين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي أي شمال خط الاستواء، وتنطلق جهة الطول من باريس من الدرجة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة إلى ستة عشرة درجة وخمس دقائق ونهاية طولها قرابة ألف ميل^(٥) من جبل مون بلان إلى رأس سبارتيفينتو، ويختلف عرضها من جهة الشمال نحو ثلاثمائة وستين ميلاً، ومن جهة الجنوب قرابة مائة وخمسين ميلاً، وفي بعض الجهات الوسطى نحو أربعين ميلاً فقط.^(٦)

ما نلاحظه؛ أن الوصف كان علميًا دقيقًا لموقع إيطاليا حسب خطوط العرض، فالرجل كان عالم جغرافيا بكل معنى الكلمة، ولم يكن يصف لنا إيطاليا وصفًا أدبيًا على غرار العديد من الكتابات الأخرى التي تشبه كتب الأدبيات، فهو لم يعقه المرض على استغلال هذه الرحلة لتقديم مادة علمية جيدة في تلك الفترة، والملاحظ أيضًا أن حدود إيطاليا لم تتغير اليوم حيث حافظت على موقعها كما وصفها لنا محمد بيرم الخامس خلال زيارته لها في القرن التاسع عشر، كما تطرق محمد بيرم الخامس إلى أهمية الجزر التي تتمتع بها إيطاليا على غرار صقلية وسرانيا وبنترليا.

١/٢- الوسط الطبيعي في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر:

(تضاريس تغلب عليها الجبال)

تتميز إيطاليا حسب صفوة الاعتبار بتنوع تضاريسها، ولكنها تغلب عليها الجبال وتتميز هذه الجبال بالتنوع هي الأخرى سواء من حيث الارتفاع أو النوعية مثل: الالب، وكورنو، وهو أعلى قمة

للحديث عن تاريخ إيطاليا القديم والجديد يقصد المعاصر لفتרתة.^(١٠)

٤/١- الغطاء النباتي:

ذكر محمد بيرم الخامس الغطاء النباتي في الجهة الشمالية باعتبار أنها - أي الغابات - مهمة وغير منتظمة ومتفرقة في الجهة الجنوبية - حيث تكثر الغابات مثل الصفصاف والدردار وهي تشبه غابات تونس،^(١١) ولم يدقق محمد بيرم الخامس في هذا الشأن بل أتى عليه بعجالة، ولسنا ندري هل لجهل بالأمر أم لقلة الغطاء النباتي في إيطاليا، رغم أن الاحتمال الثاني لا يستقيم خاصة عندما نشاهد حجم الإنتاج الفلاحي في البلاد مما يوحي بثراء التربة، وبالتالي من المفترض أن يكون الغطاء النباتي هاماً أيضاً.

ثانياً: الاقتصاد الإيطالي خلال القرن التاسع عشر: (فلاحة وصناعة هامة ومتنوعة وتجارة نشيطة)

١/٢- الفلاحة: إنتاج متنوع ووفير

أ- إنتاج متنوع ووفير

تتميز إيطاليا في القرن التاسع عشر بأهمية فلاحيتها نظراً للظروف الطبيعية الملائمة التي تتمتع بها البلاد من تضاريس ومناخ من كثرة الأمطار ونوعية التربة الجيدة، ونظراً أيضاً لاعتناء الإيطاليين بهذا المجال. وقد مارس الإيطاليون فلاحة عصرية من خلال إتباع طريقة التسييج التي ظهرت في بريطانيا والتي تمثل في تقسيم الأراضي الفلاحية بواسطة الأشجار وتخصيص مساحات متعددة من الأرض لممارسة أكثر من نشاط فلاحي مثل الغلال والأشجار والزرع في القطعة نفسها مقسمة بطريقة محكمة ويمارس الإيطاليون الفلاحة العلمية^(١٢) التي تدرس في مدارس مختصة وتعتمد الأسمدة الكيماوية في تجويد نوعية المنتج، وعبر محمد بيرم الخامس عن المنتجات الفلاحية الإيطالية بالنبات.^(١٣) ومن خلال دراستنا المتأنية لهذا الباب تأكد لدينا أنه يقصد الإنتاج الفلاحي أي المقصود ليس الغطاء النباتي كما يتبادر إلى أذهاننا، ومن خلال الوصف الذي قدمه الرجل تتجلى لنا القيمة الفلاحية لإيطاليا والقيمة الفلاحية متأنية من المناخ المشجع على الفلاحة والتضاريس الملائمة ونوعية التربة الجيدة.

فقد ذكر بيرم الخامس كل المنتجات الفلاحية تقريباً على غرار الحبوب مثل القمح والشعير والذرة وتنتجها كل الجهات، وهذا ربما يعود إلى الرطوبة التي تتميز بها كافة أرجاء إيطاليا نظراً لكونها شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاثة جهات، كما تنتج إيطاليا البطاطس ونبات التكروري، وهذا النبات يصنع منه الحبال، ولسنا ندري هل المقصود هو نوع المخدرات الذي انتشر في تونس خلال الحقبة الاستعمارية، وكان يزرع في الجزائر من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية أم نبات آخر نجهله؟ ومن المنتجات الأخرى التي تتميز بها إيطاليا خلال القرن التاسع

عشر هي الكتان والقطن والعنب. ويؤكد محمد بيرم الخامس على انفراد الجهات الجنوبية بالبردقان (يقصد البرتقال)، والموز، والنخيل، والهندي (التين الشوكي)، والتبغ، وقصب السكر، غير أن النخيل لا يثمر التمر حسب وصفه. أما في الجهات الشمالية فيذكر محمد بيرم الخامس الأرز، والزعفران، والقسطل، والحبّة الحلو، والجوز، والزيتون، والتفاح، والكمثري، والأجاص، والتوت، والتين، واللوز، والفندق، وعروق رُب السوس. هذا الإنتاج المتنوع والوفير جعل من إيطاليا بلداً ذو أهمية كبرى في أوروبا.

ب- الإنتاج الحيواني في إيطاليا: (متنوع شبيه بالإنتاج التونسي)

تتميز إيطاليا خلال القرن التاسع عشر بتنوع ثروتها الحيوانية حسب ما وصلنا من وصف في "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" فمنها الخيول ومنها الطيور، ومنها الأسماك، ومنها الحشرات، وقد قسمها محمد بيرم الخامس إلى حيوانات وحشية وأخرى أليفة أو أهلية، أما الخيول فيمكن ذكر الخيل غير أنها قليلة وأحسنها في فينيسيا، وفيها نوعان قصير جداً ووحشي ويوجد خاصة في جزائر سردينيا، ومنها العادي، كما يمكن ذكر البغال وخاصة في الجهات الجنوبية، والحمير، والبقر، والمعز، والضأن، ولو بقلّة، والجاموس. وأما الحيوانات غير الأليفة أو الوحشية فقد ذكر بيرم الخامس الخنزير، والضبع، والثعلب، والذئب، والخنزير البري، وبقر الوحش، والدب. وأما الحشرات فقد اقتصر الخبر على دود الحرير، وأما الطيور فذكر النحل وبقية الطيور الموجودة في تونس حسب وصفه، ولكنه ركز على طائر الغيزان وأغلبه أبلق اللون بين الأسود والأبيض، وهو أكثر هذه الطيور التي شاهدها محمد بيرم الخامس، وهو طائر ثقيل الطيران وحجمه أكبر من الحجل وأصغر من الدجاج، وفيه أنواع حضرية كبيرة، ولها ألوان جميلة مفضضة ومذهبة، وهنا ربما يتحدث محمد بيرم الخامس على الطاووس أو نوع من الحجل يسمى عندنا في تونس بـ "حجل بيشكو"، أو "الحجل العربي".

وأما الحشرات، فقد أشار محمد بيرم الخامس إلى أنها من النوع الذي يوجد في الأقاليم الحارة خاصة الجنوبية، لكنها حسب وصفه ليست "بشديدة الخبث" كما حشرات أفريقيا،^(١٤) ويقصد بالخبث الإساءة، كما تطرق المؤلف إلى حيوانات غريبة على حد تعبيره تمثلت في كلاب تربي عند قسيسين في جبل صان برنانتو شمال البلاد أين تكثر الثلوج، تعلق في رقابها أواني فيها أكل وتسرح في المنطقة عليها تجد شخص على شفا الهلاك فتقترب منه وتمكنه من الأكل الذي في الإناء فتنتقذه من الهلاك، فإذا رافقها فيما بعد ذلك الرجل إلى منزل صاحبها فإنها توصله إليه، وإذا امتنع تعود وتدل صاحبها على مكانه، فهي كلاب لفعل الخير ويمتتع القسيسون على بيع الإناث منها حتى تبقى خاصة بهم.

٢/٣- صناعة هامة وموارد منجمية وطاقة متواضعة

أ - صناعة هامة ومتطورة

تتنوع الصناعة في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر، وهي صناعة تفي بحاجيات البلاد رغم قلة المعامل، ومن بين الصناعات التي ذكرها محمد بيرم الخامس معامل السلاح بكافة أنواعه، ومصانع لإنشاء السفن والبواخر المدرعة، ومصانع للتحليلات الكيماوية، وللعطور، والشمع المتخذ من الشحم لدباغة الجلود، ومعامل لصناعة الورق، وأخرى لغزل النسيج، وخاصة الشاشية والقطن، وآخر لأنواع المنسوجات الحريرية، ومنها المسمى بالامبرا، والقطيفة، ومعامل للطرز، ومعامل للزجاج والفخار والعقيق (نوع من الأحجار)، والزهور الصناعية، وآلات المرايا المكبرة، وآلات الموسيقى، وخاصة صناعة الأوتار المشهورة بها نابلي، ومصانع للكراريس (أي العربة المجرورة بالخيول التي تسمى بالكروسة)، كما اشتهرت إيطاليا بصنع الأحذية وسائر الأنعلة (جمع نعال)، والخياطة، ونحت المرمز ونقشه، وصناعة المرجان، والصياغة، والمزاييك أي الفسيفساء. نلاحظ إذن صناعات مختلفة في إيطاليا رغم أن محمد بيرم الخامس قلل من أهميتها لما قال أن المصانع قليلة، وهذا يدل على مدى التقدم الذي شهدته إيطاليا في الصناعات في القرن التاسع عشر، ولاشك أن تطور الصناعة ناتج عن تطور الفلاحة الإيطالية في تلك الفترة.

ب- موارد معدنية وطاقة متواضعة

على عكس الإنتاج الفلاحي والحيواني، فإن إيطاليا لا تحتوي على معادن كثيرة حسب ما جاء في وصف محمد بيرم الخامس حيث يقول: "... ليس فيها معادن كثيرة ولا غنية..."^(١٥) باستثناء الفحم الحجري وبكميات قليلة موجودة في التوسكانا أي في وسط إيطاليا وقرب مسينة من جزيرة سيسيليا في الجنوب، علاوة على نوع من الطين يشعل بعد التجفيف مثل الفحم الحجري، كما يوجد فيها الحديد المنتشر في عدة جهات مثل المبارديه ويقصد (Lombardy) في شمال إيطاليا وسردينيا في الجنوب وكلايريا وجزيرة ألبا المحاذية لجزيرة كورسيكا في وسط البلاد، كما توجد بإيطاليا مادة النحاس خاصة في جبل لمبارديه وفي فينيسيا، وتوسكانيا في شمال البلاد، وفي ألبا، و يوجد الرصاص في عدة جهات أيضًا، ومعادن الزاوق، والزنك، واتمونيو، والمغنيز، والكبريت، ومعظمه في سيسيليا. وأما الطاقة فتقتصر على زيوت البترول أي النفط. كما يتميز المجال الإيطالي حسب وصف محمد بيرم الخامس بكثرة الحجارة وتنوعها، ففيها الرخام الأبيض الصفاف الذي تصنع منه التحف، وفيها المرمز الأحمر والرخام الأسود، والبرسلان، والطين الملون، والمرمز الرفيع، والرخام الأبيض المعتاد،^(١٦) كما تعتبر إيطاليا من منتجي مادة الملح والمعادن الملحية الأخرى، ومعدن التنكار الذي يستغله الصاغة.

٢/٣- التجارة نشيطة في الداخل والخارج ودور هام للبريد

والسكك الحديدية

أ - تجارة رأسمالية من أهم ركائز الاقتصاد الإيطالي في

القرن التاسع عشر

تعتبر التجارة من أهم ركائز الاقتصاد الإيطالي في القرن التاسع عشر حيث عرف الإيطاليون بمهارتهم في هذا المجال، وهذه ليست ميزة الشعب الإيطالي فحسب، بل كل الأوروبيين حسب محمد بيرم الخامس والسبب الذي جعلهم ينجحون في ذلك هو تكوين الشركات، إذ أموال الواحد منهم لا تكفي للإشعاع تجاريًا، لذلك كَوّن الإيطاليون شركات وأسّسوا لها فروعًا في كافة الأقطار فيمتلك الإيطاليين عقلية رأسمالية منذ القرن التاسع عشر، وإبداعهم في التجارة له جذورًا تاريخية، حيث كانت إيطاليا مهبطًا للمركنتيلية العالمية. ويعتمد الإيطاليون على الصحف الخبرية وأوراق وكتب يرسلونها عن طريق رسل لاكتشاف تجارة البلدان والأقطار الأخرى، وهم بمثابة الممثل التجاري اليوم، فهم إذن يقصدون باقي الشعوب للتعريف بتجارتهم وبيعها هناك، وتتكفل الدولة بحماية التجار والشركات وأموالهم، كما تلعب البنوك دورًا هامًا في العملية التجارية من خلال إقراض التجار الأموال في صورة عدم قدرتهم على توفير الأموال اللازمة للتجارة وقد سماها محمد بيرم الخامس "ديار الصيارفة".^(١٧)

والبنوك أنواع، إما أن تكون خاصة تعود بالملكية لفرد أو عائلة، أو عمومية أي ملكًا للدولة، ووجود هذه البنوك في إيطاليا في القرن التاسع عشر هو دليل على أن تلك الدولة اعتمدت النظام الرأسمالي مبكرًا، وبطبيعة الحال فإن القرض عادةً ما يسترجع بفائض لفائدة تلك البنوك، أي أن البنوك لها استثمارات في هذا المجال، وهذا الفائض سماه محمد بيرم الخامس "ربا" ويبلغ ستة بالمائة كل سنة، وتكون العملية منظمة بقوانين لا يمكن لأي كان تجاوزها أو اختراقها، فكل البنوك خاصة كانت أو عمومية هي مراقبة من قبل الدولة، والبنوك أنواع منها ما هو مختص في الفلاحة ومنها ما هو مطلق، وأما التداول بين التجار والناس فيكون عن طريق أوراق أو حوالة تحمل مقدار المبلغ عوضًا عن النقد تقريبًا تشبه الصك على أن تحدد مدة القبض بتسعين يومًا، ويمكن أن يكون أقل أو أكثر، وفي كل مدينة توجد بورسى (يقصد بورصة أوراق مالية) للمناداة على المتاجر العالية -يقصد للمضاربة بالأسهم- وتفتح أبوابها بعد الزوال من كل يوم بضع ساعات فقط يدخلها المضاربون الذين سماهم محمد بيرم الخامس بالسماسرة، وهناك من التجار مَنْ يربح في المضاربة، وهناك مَنْ يخسر فعليه انتظار ارتفاع الأسعار ربما في اليوم الموالي لتعويض خسارته.

وعموماً؛ لعبت وسائل النقل الحديدي أو البحري دوراً كبيراً في نقل المسافرين والتجارة من خلال تقريب البضائع وسرعة وصولها من مكان لآخر وسرّعت في ربح التجار، حيث كان تاجر الصوف في القديم لا تأتيه السفينة الشراعية المحملة بألف قنطار إلا بعد أشهر، وهو لا يبيعها إلا بعد عدة أشهر، فيربح فيها في السنة عشرين في المائة على أقصى تقدير، بينما أصبحت البضاعة تصل في غضون أسبوع فيبيع التاجر بضاعته بربح يقدر بعشرة بالمائة في الشهر، مما يعني أنه يوفر حوالي (١٢٠) بالمائة من الربح خلال سنة أي بفارق (١٠) بالمائة، ولا يقتصر دور السكك الحديدية على ربط مدن إيطاليا ببعضها البعض، وإنما أيضاً ربط إيطاليا بالممالك المجاورة^(١٨) مما ربط أجزاء أوروبا وجعلها كالبند الواحد من حيث سهولة الانتقال من مملكة إلى أخرى.

ج- أطراف التبادل التجاري مع إيطاليا وعلاقة التجارة بالسياسة: (التجار مصدر للخبر السياسي)

أبرز أطراف التبادل التجاري مع إيطاليا هي ما عبر عنها محمد بيرم الخامس بالممالك السبع الكبيرة وهي: الأستانة، وباريس، ولندن، وبرلين، وفيينا، وروما، وسان بطرس بورغ^(١٩)، وتتم المبادلات عبر الأرتال أي السكك الحديدية، وتتأثر الأسعار بالتحويلات السياسية في هذه الأقطاب التجارية الكبرى، وعادةً ما يستفيد التجار من الأحداث السياسية خاصةً الأزمات منها للرفع في الأثمان، فتراهم يختلقون في بعض الأحيان الإشاعات السياسية، فتتلقفها الصحف وتنشرها فهم مصدر الخبر باعتبار أنهم يتنقلون من بلد إلى آخر وينقلون معهم الأخبار، فلم تكن هناك وسائل متطورة للاتصال في إيطاليا لتلقي أخبار المدن البعيدة. كما يمكن أن تؤدي هذه الأخبار السياسية إلى حصول خسائر في التجارة. أما أبرز البضائع في إيطاليا، فهي الصوف الذي يستعمل في معامل النسيج البخارية، والحريير غير المصنوع، والدقيق، وأنواع العجين المصنوع، والحبوب، والحيوانات المأكولة، والجلود، وزيت الزيتون، والكبريت، والمرمر، والرخام الأبيض، والكتان والحشيشة المعروفة بالتكروري، والمنسوجات الحريرية، والأعطار، والتبن المصنوع منه كراسي، والحجر مثل حجر سيسيليا، والمعادن وتتوجه هذه المواد إلى جميع الممالك، وبصفة أخص إلى النمسا وفرنسا^(٢٠). وأما التجار فهم من أبناء البلد وكذلك أجانب.

د- دور البواخر في التواصل والتجارة

إذا كان للسكك الحديدية دوراً هاماً في الاتصال، فإن البواخر تلعب هي الأخرى دوراً مهماً سواء في نقل البضائع أو المسافرين أو النقل البريدي والتجارة، حيث تتفق الدولة مع إحدى الشركات التي تملك بواخر معدة للتجارة على مدار السنة مقابل مقدار يتم الاتفاق عليه مسبقاً، وتلتزم هذه الشركات باحترام مواعيد انطلاق البريد ووصوله، وإذا خالفت المواعيد فإن صاحب الباخرة مطالب

ب- دور البريد والسكك الحديدية في التجارة والنقل والتواصل

أشار محمد بيرم الخامس إلى أن أكثر الطرق المعتمدة في نقل البضائع هي السكك الحديدية غير أن هذه الوسيلة غير مجدية باعتبار أنها تمر فقط على المناطق الأكثر عمراناً، لذلك فكر الإيطاليون في بناء طرقات صناعية تتفرع عن السكك الحديدية وذلك لتسهيل نقل البضائع، فكان المجال الإيطالي في القرن التاسع عشر مترابطاً ببعضه البعض، ومن أبرز وسائل الاتصال وأشهرها في إيطاليا في القرن التاسع عشر هو البريد والتي اعتبرها محمد بيرم الخامس من أنفع وسائل التجارة والعمران، وتتكفل الدولة بذلك من خلال تخصيص أماكن في المدينة لوضع المكاتب مقابل أجرة يدفعها من يريد إرسال مكتوب من خلال شرائه بطاقة من الورق عليها علامة مخصوصة يلصقها على المكتوب (هي بمثابة الطابع الجبائي اليوم)، ويكتب عليها اسم وعنوان المرسل إليه لتصله عبر الرتل الذي يخصص لها مركبة خاصة بها، ومستخدمون يتكفلون بتوزيع المكاتب أو الرسائل بعد فرزها أثناء سير الرتل قبل وصوله إلى المدن المعنية ويتم تسليمه إلى مستخدمين مكلفين بتوزيع الرسائل في تلك البلدة.

وإذا صادف وجود مكتوب غير خالص الأجرة، فإن المستخدم يوصله للمرسل إليه، فإذا دفع هذا الأخير الأجرة وتكون مضاعفة يسلمه المكتوب، وإذا امتنع يرجع إلى محل البريد ويحفظ فيه مدة ثلاث أشهر، ثم يتم فتحه، فإذا وجد به اسم المرسل وعنوان محله يرجع إليه، وتؤخذ منه الأجرة مضاعفة، وإذا تعذر الحصول على الاسم والعنوان، فإنه يتم حرقه، وإذا لم يتم العثور على المرسل إليه يرجع المكتوب إلى باعته دون أداء أجرة، وإذا كان المكتوب ذو أهمية كبرى فإنه يختم عليه بالشمع "خمس"، أو علامة أخرى، ويؤخذ من صاحب البريد حجة في إيصاله (تشبه تقريباً الإعلام بالوصول عندنا اليوم) مقابل أجر مضاعف، ولا يُسلم المكتوب عندئذ إلا للمعني بالأمر، وإذا تأخر الرتل الذي لا يعود إلى الدولة عن الموعد المحدد لوصول البريد فيتعرض لعقوبة مالية عن ذلك التأخير، بينما تكون أجرة الصحف المكتوبة والكتب زهيدة وهو ما يعني تشجيع القراءة هناك.

ويتميز الرتل بانضباطه سواء كان مخصص لنقل البريد أو المسافرين، ويحمل رقاع مكتوب عليها تاريخ الانطلاق من كل بلد والوصول وتوقيت الوقوف بكل محطة والذي لا يتجاوز نصف ساعة عند الاستراحة لتمكين الإطار العامل بها والمسافرين من تناول الأكل، وأما التوقف العادي لصعود الركاب فلا يتجاوز العشرة دقائق وأقلها دقيقتين بالركاب، وتوجد في المحطات محلات تجارية تباع الأكل والشرب بأثمان باهظة، ويحتوي الرتل على بيوت منفردة خصصت للنوم مقابل دفع معلوم إضافي قدر بعشرة بالمائة، كما يوجد به أيضاً بيوتاً للاجتماع وغرف انفرادية مع إضافة ثلث المبلغ.

بتقديم تقرير يشرح فيه أسباب التأخير الذي يجب أن يكون اضطراريًا أو تتعرض الباهرة إلى عقوبة مالية عن التأخير، وعادة ما تكون مواعيد الرتل أو الباهرة المقلدة للبريد مضبوطة، لذلك يفضل الناس السفر مع هذه الوسائل لتفادي التأخير ومضيعة الوقت، وعادةً ما تكون بواخر نقل البريد آتقن وأنظف من بقية البواخر، وأقل ازدحامًا، وأرقق خدمة.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية في إيطاليا: (سيفساف من الديانات والمذاهب ودور هام للمرأة)

١/٣- الديانات والمذاهب

يبلغ عدد سكان إيطاليا سنة (١٢٩٨ هجري / ١٨٨١ ميلادي) ٢٩ مليون نسمة،^(٢١) و ينحدر المجتمع الإيطالي من أصول المشرق والشمال، حيث توافدوا على البلد عبر موجات هجرية عبر التاريخ وهم ذوو لون أبيض يميل إلى السمرة القليلة - هو تقريباً نفس لون أغلبية الشعب التونسي- وأقوياء.^(٢٢) وقد عرفوا بالعمل حسب محمد بيرم الخامس، ويعتبر أهل الشمال أكثر تحضرًا من الجنوب والوسط -حسب ما جاء في صفوة الاعتبار- والذين وصفهم محمد بيرم الخامس بالسذاجة القرية من التوحش.^(٢٣) وأما ديانة أغلبية المجتمع الإيطالي فهي النصرانية على المذهب الكاثوليكي، وهو مذهب الدولة الرسمي^(٢٤) باستثناء (٣٥) ألف من السكان هم على المذهب البروتستنتي،^(٢٥) بينما يعتنق (٢٣) ألف من الشعب اليهودية، و(٦٠) ألفاً هم من جنس الأرناؤوط،^(٢٦) غير أن هناك من الشعب الإيطالي مَنْ لا يؤمن ولا يعتقد في الديانات، وهم أساساً مَمَّنْ تفتنوا في العلوم الرياضية ظناً منهم - حسب ما وصلنا من محمد بيرم الخامس - أنها - أي الديانات - مردودة بالعقل، غير أن هناك فئة أخرى عبر عنها بيرم الخامس بالعقلاء تفر بالخلق، وهو ما يعني أن مشكلة الخلق والقضاء والقدر ووجود الله مطروحة في المجتمعات الغربية لاسيما إيطاليا، مثل ما هي مطروحة أيضاً في المجتمعات المشرقية بما ذلك المسلمة.

٢/٣- عادات وصفات الإيطاليين حسب "صفوة الاعتبار"

يقسم محمد بيرم الخامس المجتمع الإيطالي إلى متحضر ومتوحش -كما سبق وأن ذكرنا- أو إلى سكان المدن والقرى، ويرى أن سكان المدن مهذبون، بينما وصف سكان القرى والبوادي بالخشونة، ولكنهم جميعاً أهل عمل ومواظبون في أعمالهم، كما يقسم المجتمع الإيطالي إلى عامة الناس مَمَّنْ يمارسون العمل البدني الذين يتميزون بالتبكير في انطلاق أعمالهم، وهي أساساً أعمال بدنية أي تعتمد على الساعد، وفئة مترفة يقضون لياليهم في السهر، حيث تتم دعوة الأصدقاء للسمر والرقص في المنازل والعشاء وتقديم الفواكه، والحلويات، والخمر، ويقضون نهارهم في النوم، ولا يذهبون إلى أعمالهم إلا قبل الزوال بساعة أو ساعتين، أو عند الزوال. ويضيف صاحب الصفوة أن هذه الفئة تتميز بقلّة حياها خلافاً للمجتمع التونسي،

ومن بين علامات قلة الحياء عند محمد بيرم الخامس رقص الفتاة مع الرجال أمام أعين والديها، وأيضاً من خلال مخاطبة البنت لزوجها أو لخطيبها و"مفاكته" أمام والديها،^(٢٧) وهو أمر يعتبره محمد بيرم الخامس منافياً للأخلاق، فالرجل كتب في القرن التاسع عشر وفي تلك الفترة لم تكن مثل هذه الظواهر منتشرة في تونس، ومن بين العادات السيئة عند الإيطاليين حسب محمد بيرم الخامس غناء النساء حيث ينظم أحد الأعيان حفلة في منزله ويدعو له الأصدقاء وتتكفل ابنته أو زوجته أو إحدى النساء المدعوات من الأعيان بالغناء و ترقص مع الرجال "على أشكال شتى" من معانقة ومخاصرة وغيرها، ويعتبرون ذلك من باب الإكرام ولا إثم فيه، وهو ما يتنافى مع العادات الإسلامية.^(٢٨)

وهي عادات استهجنها محمد بيرم الخامس ورفضها نظراً لكون الرجل عاش في بيئة تونسية إسلامية محافظة، ولم يكن على علم بالعادات الغربية لاسيما الإيطالية، ولكنه لو عاش في زمننا لرأى التقاليد نفسها قد انتشرت في البلدان العربية الإسلامية، كما يعتبر رقص الرجال من الأعيان مع النساء أمراً عادياً بينما يرفض غناء الرجال. وهذا ناتج عن كون الرجل عاش في بيئة شرقية محكومة بعادات وتقاليد تختلف عن نظيرتها الغربية. ومن عادات الرجال في إيطاليا حسب صفوة الاعتبار هو حملهم للآلات الحربية أي السلاح الصغير والخفيف ولكن دون الكشف عليه، فالمجتمع الإيطالي هو مجتمع مسلح، ويستعمل السكان كثيراً الخيل سواء كانوا رجالاً أو نساء، غير أن ما يميز المرأة أنها تركب السرج دون فتح رجلها ولكنها تشي رجلها اليمنى على مقدمة السرج، وتضع رجلها اليسرى في الركاب.^(٢٩) ومن بين عاداتهم عند المصافحة هز اليد وقول "يوم حسن"، أو "ليل حسن"، وتقبيل فم القريب، أو الحبيب عند الإقدام على السفر،^(٣٠) و كذلك تفعل النسوة عند اللقاء، ويقوم الرجال بكشف رؤوسهم لبعضهم البعض عند إلقاء السلام وهي من علامات الاحترام والتقدير، وأما الرفيع منهم فلا يسلم على "الوضيع"، بل يكتفي من وضع يده على قلنسوته، وفي هذا تمييز بين الناس في المجتمع الإيطالي، وإذا دخل أحدهم على آخر في مجلسه فهو يكشف رأسه أيضاً إلا مَنْ كان مريضاً.

٣/٣- اللباس في إيطاليا

تعتبر مسألة اللباس من أنماط العيش التي تميز المجتمعات، وفي إيطاليا لهم ألبسة متميزة على المجتمعات العربية الإسلامية غير أنها شبيهة بلباس بقية المجتمعات الغربية، حيث يلبس الرجل في إيطاليا قميصاً وسروالاً وصدرية تسمى "جيلي" أو سترة ترجمها محمد بيرم الخامس على أنها جبة، ولكنها في الحقيقة لا تشبه الجبة بالمعنى الموجود عندنا، وإنما هو لباس أفرنجي لا علاقة له بلباسنا التقليدي فهي عادةً ما تكون مفتوحة قليلاً من الأسفل وقصيرة تصل إلى فخذ الرجل،

بالتياشين، وهي من علامات الفخر، وبالتالي بإمكان الناظر تمييز المجتمع الإيطالي من الرجال من خلال اللباس وفي هذا طبعية واضحة.

٤/٣- النمط الغذائي في إيطاليا

وصف لنا محمد بيرم الخامس عادات الأكل عند الإيطاليين في المطاعم على ما يبدو لا في المنازل، حيث أن من عاداتهم في القرن التاسع عشر في الأكل هو استعمال موائد مرتفعة (تقريباً شبيهة بما لدينا اليوم) ويقصد محمد بيرم الخامس طاولات، وهي مختلفة عن عادات المسلمين في تلك الفترة الذين يعتمدون على الجلسة^(٣٢) -بكسر الجيم- التقليدية على الحصير للأكل (عملية التربع) أي الجلوس على الأرض وثني الرجلين، وتكون هذه الطاولات مغطاة برداء أبيض، وكل واحد أمامه صحن خاص به فارغ عكس عادات المسلمين والعرب المتمثلة في اشتراك كافة الأسرة في صحن واحد كبير يأتي مملوء بالطعام، ويتولى الخادم بتقديم الطعام إلى كل واحد عن حده يتولى أخذ ما يلزمه من الطعام، وعند كل صحن تجد بطاقة تحمل أنواع الطعام الموجود، كما يعتمد الإيطاليون في أكلهم على الملعقة والشوكة والسكين عكس المجتمع العربي الإسلامي في تلك الفترة الذي كان يعتمد في أغلبه على الأكل بواسطة اليد، وأما نوع الشراب المصاحب للأكل فهو الخمر، وذكر لنا بيرم الشنابانيا، كما يُقدم للضيف الحلويات والفواكه والجبن. وأما الطعام فقد عدده محمد بيرم الخامس في الباب الذي خصصه لوصف إيطاليا وأحسنها حسب تعبيره المشوي، وتوجد على المائدة الملح والفلل الأسود، والخل، والزيت حتى يستعمله الضيف.

٥/٣- المرأة في المجتمع الإيطالي

ترتدي المرأة الإيطالية لباساً يكشف وجهها، وتلعب المرأة دوراً هاماً في المجتمع الإيطالي نظراً لمشاركتها الرجل في العمل غير الشاق الذي يبقى من مشمولات هذا الأخير، كما تتلقى المرأة التعليم وتصل إلى مراتب عليا فيه، فالمجتمع الإيطالي في القرن التاسع عشر هو مجتمع متفتح يولي للمرأة أهمية قصوى شأنها شأن الرجل عكس المجتمع العربي ومنه التونسي الذي يرى في المرأة مجرد عبد في خدمة الرجل في تلك الفترة حيث لا تتلقى تعليمًا ولا تشارك الرجل في العمل باستثناء الأعمال المنزلية والفلاحية في الأرياف وهو ما أخر نوعاً ما تقدم المجتمعات العربية، ويعود منع المرأة العربية من الخروج للشارع وحجبها حسب المجتمعات الإيطالية إلى طباع المسلمين المتسمة بالخيانة^(٣٣) وهو تبرير غير مقنع حسب رأي باعتبار أن حجب المرأة كان نتيجة لتطبيع تعاليم الديانة الإسلامية التي أمرت المرأة بالتستر وحجب الوجه اتقاء للإثارة وبالتالي للفتنه ومحافظة على عفتها.

وهو الموقف نفسه الذي يتخذه محمد بيرم الخامس الذي دعا في صفوة الاعتبار إلى الحجب واعتبره أمراً طبيعياً للبشر

ذات يدين ضيقتين، ويكون السروال طويلاً إلى أسفل القدم، وضيق وكأنه ملتصق على جسده، وفي الشتاء يضيفون إلى ذلك اللباس جبة أوسع من الأولى وأطول، وفي بعض الأحيان تكون مبطنة، ويلبس البعض قمصاناً من الصوف، كما يلبس الرجل جوارب في قدميه، وهي من القطن أو الصوف، وحذاء شبيه بالخف الضيق، ويضع الرجل على رأسه قلنسة (طربوش) تكون مصنوعة إما من السعف أو التبن، وهذه الألبسة الضيقة تعرقهم من الجلوس على الأرض لذلك فهم لا يجلسون إلا على الكراسي.

و في المنزل يلبس الرجل جبة واسعة ذات ألوان جُعلت للمنزل للأوقات التي لا يخرجون فيها ولا يأتيهم فيها أحد، وتكون الألبسة في غالبها ذات لون أسود أو ما شابهه باستثناء القمصان والجوارب، وأغلبها مصنوعة من الصوف ولا يلبسون الحرير إلا نادراً، ويلبس الرجل في يده قفازاً أسوداً أو ذا لون مشابه، لكن السؤال المطروح هو لماذا اللون الأسود بالذات ؟ كما يلبس الإيطاليون رابطة العنق وهو نوع من الأناقة التي يتبعها الأوروبيون عامةً، ويعرف الإيطاليون بالحرص على نظافة ملابسهم لاسيما رقاب قمصانهم التي غالباً ما تكون من اللون الأبيض، كما عرف الإيطاليون لاسيما الرجال منهم بإرسال شعورهم إلى مستوى أسفل الأذنين "شحمة الأذن"^(٣٤)، كما يتفنن الرجال في ذقنهم فتارة يحلقونها كاملة، وتارة يبقون عليها، وأخرى يحلقون جزء ويتركون الجزء الآخر.

أما لباس المرأة عند الإيطاليين - حسب وصف محمد بيرم الخامس- فيتمثل في قميص وسراويل واسعة مصنوعة من الكتان، وصدرية مضبوطة على الصدر، وفوق كل ذلك جبة طويلة تصل إلى أحمص القدمين أو تفوقه، وجوارب وأحذية ذات أعقاب عالية، وفي بعض الأحيان تزيد المرأة رداء عند خروجها إلى الشارع، وهنا تستوقفنا ملاحظة: إذا كان محمد بيرم الخامس قد شاهد المرأة الإيطالية في الشارع وهذا طبيعي باعتبار أنه في بلد يتميز بحرية المرأة التامة، فكيف تمكن الرجل من مشاهدتها في منزلها ؟ أم تراه وصفها بناءً على ما روي له ؟

كما تستعمل المرأة الإيطالية عند الخروج خماراً شفافاً الهدف منه ليس ستر الوجه على الطريقة الإسلامية وإنما غايته التزين، كما تلبس قلانس مزينة بالأزهار الاصطناعية، والقفاز والحلي والمجوهرات، وتميل المرأة الإيطالية كما الرجل أيضاً إلى اللون الأسود في لباسها، وكذلك الأبيض، وأما نوعية اللباس الرسمي ويقصد رجال السياسة والأعيان الذين عبر عنهم بأصحاب الوظائف من الرجال، فهو اللباس نفسه الذي تقدم وصفه مع اختلاف في السترة التي تكون مقفولة إلى الصدر وتصل إلى الخصر ومطرزة بالذهب أو الفضة على الصدر والعنق واليد والظهر حسب الرتبة، كما تختلف سراويلهم وقلانسهم على العامة بكونها من شرطان من القصب، ويتميزون على البقية

رابعاً: الفنون والمعارف في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر من خلال "صفوة الاعتبار"

١/٤ - الفن في إيطاليا من خلال "صفوة الاعتبار"

لم يطنب محمد بيرم الخامس في الحديث عن الفنون في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر، وإنما اقتصر في معرض وصفه للمجتمع الإيطالي وعاداته على الموسيقى التي تنتشر في بلد إيطاليا، وتمثل في آلات نفخ ذات أوتار، حيث كان الإيطاليون بارعون في هذا النوع من الفن، وهذا الفن على ما يبدو يشبه المزارع عندنا مع اختلاف في الأوتار، وأما الألحان حسب محمد بيرم الخامس فهي تشبه الألحان الأوروبية، وتختلف عن الألحان الشرقية والعربية وأفريقيا الشمالية، ويتبع العازف ورقة أمامه بمثابة الدليل، وأما أهل البادية فلهم مزامير خاصة مصنوعة من الجلود، وهنا الأمر يحيلنا على الإنتاج الحيواني في ريف إيطاليا ويتم النفخ فيها دون إتباع أوراق، وهنا ربما يشبه آلة "المزود" عندنا.

٢/٤ - مجتمع يحترم المعارف والعلم

عرف المجتمع الإيطالي بمعارفه الكثيرة وخاصة المعارف الدينية أي المختصة في الدين المسيحي والتي تجد رواجاً كبيراً في إيطاليا القرن التاسع عشر، غير أن القانون يمنع النشاط الديني داخل المدارس خوفاً من الخلط بين التعاليم الدينية والتعاليم السياسية، وهنا حرص من المملكة على التفريق بين السياسة والدين وهو أمر شهدته أوروبا عامة خلال الفترة الحديثة من خلال فكر التنوير حيث دعا فلاسفة التنوير^(٣٤) إلى استبدال الحق الإلهي بالعقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم على أساس أن الشعب هو مصدر السلطات، وبذلك عبروا عن اتفاقهم حول ضرورة الفصل بين الدين والدولة، وأرجعوا أصول الدولة إلى مصادر دنيوية، وجردوا الملوك من الهالة الإلهية التي نعموا بها قرونًا طويلة، كما نقدوا المعتقدات والأساطير والخرافات التي نسجتها الكنيسة طيلة العصور الوسطى.^(٣٥)

كما اشتهر المجتمع الإيطالي في القرن التاسع عشر بالعلوم الرياضية التي تقدموا فيها كثيرًا، ومن العلوم الأخرى الفنون والتجارة والفلاحة، وقد أبدع فيها خاصة أهل الشمال، وكذلك علم جر الأثقال، وعلم الكيمياء، وعلم الطبيعيات، وعلم الطب خاصة في بلد بيزة. وأما المنشآت التعليمية، فقد كانت متقدمة جدًا سواء من ناحية التكوين أو من الناحية المعمارية، حيث تجد البناء العمودي في تلك الفترة فالمدارس التي وصفها محمد بيرم الخامس تتكون من ثلاثة طوابق. كما اشتهرت إيطاليا بانتشار المطابع والصحف الخيرية وخزائن الكتب (يقصد المكتبات العمومية)، ففيها (٤٩٣) خزانة كتب تحتوي على (٤٣٤٩٠٢٨١) مجلد من الكتب المطبوعة و(٣٣٠٠٥٧٠) من كتب الخط (يقصد المخطوطات)، ومن أهم المكتبات التي خصها محمد بيرم

والحيوانات، فالاختلاط بين الرجال والنساء والرقص والمداعبة- حسب محمد بيرم- تؤدي إلى حصول المكروه، واعتبر محمد بيرم الخامس أن حجب المرأة أمر ضروري لإنتاج مجتمع سوي طبقاً لتعاليم الدين الإسلامي بناءً على الآية التي تقول (وَلْيَضُرَّكُمْ بِحُجْمِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)، واعتبر أن كل بلاد حافظت على مثل هذه التعاليم قلت فيها الفاحشة بينما البلدان التي تحررت فيها المرأة وكشفت عن وجهها واختلطت بالرجل في الشارع والأسواق والأماكن العمومية كثرت فيها الفاحشة، فهو يربط إذن فساد أو صلاح المجتمع بالمرأة، ويعتبر أن ما جاء في تعاليم الدين الإسلامي كفيل ببناء مجتمع سوي، ولكن الرجل نسي أنه في مجتمع مسيحي له عاداته وتقاليده، ولا يرى حرجاً في ممارستها، ولو كانت مرفوضة من قبل الحضارات والديانات الأخرى.

٦/٣ - الزواج في إيطاليا

من بين العادات التي تطرق لها محمد بيرم الخامس في باب وصفه لإيطاليا عملية الزواج: كيف يتم التعرف على الزوجة أو الزوج؟ وكيف تتم عملية الزواج؟

عادةً ما يتم التعرف بين الزوجين في المواكب الأهلية أي التظاهرة العامة والوحيدة ألا وهي رأس السنة الميلادية، حيث يتم استدعاء بعضهم البعض للسمر في الملاهي والمنزهات والأماكن العمومية، وهناك يتم التعرف، وإذا تم التوافق بين الطرفين أي الرجل والمرأة وأعجب كل واحد بالآخر، يخطب الرجل والد الفتاة، وإذا تمت الموافقة تتم دعوة الأصدقاء، والأهالي لوليمة من الطعام تعقد للغرض، وفيها أيضًا الحلويات والخمور، وتكون الوليمة إما في المنزل أو في منازل المسافرين (النزل) مقابل ثمن يدفع لصاحب المحل، ويتكفل بالطعام إما الزوج المنتظر أو صاحب النزل مقابل ثمن يدفعه أيضًا، ويقدم والد الزوجة مهرًا للزوج المرتقب (مقدارًا من المال أو أملاك)، وهي عكس العادة الموجودة لدى المجتمع العربي الإسلامي حيث يقدم الزوج مهرًا لوالد الزوجة، وهي من تعاليم الإسلام، ثم يتوجه الجميع إلى الكنيسة أين يوجد القسيس الذي سيكتب لهما عقد القران، ويتكفل القسيس بأخذ خاتم من الذهب من إصبع الزوج ليدخله في إصبع الزوجة، ويرش عليهما ماء ويحصل الزواج، ويكون لباس العروسة من اللون الأبيض وتكون متحلية بالحلي. ولم يشر محمد بيرم الخامس إلى كتابة وثيقة الزواج بينهما، وإنما اكتفى بعد الوصف الذي قدمه في الكنيسة بالإشارة إلى سفر العروسين بعد تلقي والديهما التهاني في باب الكنيسة إلى أي بلد لقضاء فترة بعيدة عن بلدهما للترفيه هذا بالنسبة للميسورين، أما الفقراء فيستغنون عن السفر وتكفل الزوجة بتوفير أبسطها قبل الزواج، ويتكفل الرجل بتجهيز منزل الزوجية، ثم بعد الزواج يتكفل الزوج بكافة المصاريف المتعلقة بالبيت والزوجة، ويظل المهر الذي قدمه والدها لزوجها على ذمتها.

الخامس بالذكر مكتبة الفاتيكان التي تحتوي على (٣٠.٠٠٠) كتاب وهي من أحسن المكاتب من حيث حسن كتابة الخط.^(٣٦) من خلال هذه المعلومات يتبين لنا أهمية المعرفة والعلم لدى المجتمع الإيطالي في القرن التاسع عشر من ناحية، ومدى اهتمام محمد بيرم الخامس بهذا المجال من خلال تصفحه للكتب وزيارته للمكتبات رغم مرضه، فسفر الرجل كان لغاية التداوي، ولكنه استغل وجوده ليدون لنا كتابًا جامعًا يصور لنا المجتمع الإيطالي والحياة بصفة عامة، والاقتصاد والسياسة، فلم يترك مجالًا لم يتطرق إليه ليترك لنا قيمة علمية للتعرف من خلالها على الشعوب الأوروبية على الأقل التي زارها.

٣/٤- المدينة الإيطالية: حياة عمرانية متطورة جدًا

لم يقتصر محمد بيرم الخامس على وصف العادات والتقاليد للمجتمع الإيطالي خلال القرن التاسع عشر أو الاقتصاد الإيطالي، وإنما وصف لنا أيضًا المدينة الإيطالية بأنها وأزقتها، وهو تمشي دأب عليه الرجل في كل مدينة يزورها، فالمدينة الإيطالية تنقسم إلى صنفين أول حضري، وتتسم بشوارع مهيأة صناعيًا (يقصد معبدة)، ومتسعة حيث أن أغلبها يتسع لعجلتان (أي عربتان)، ومنها ما هو أوسع، وثان قديمة أي عتيقة ذات طرقات ضيقة لا تتسع إلا للمتجزل، وهذا يذكرنا بالمدينة في تونس لاسيما العتيقة. وتتميز المدينة الإيطالية بارتفاع مبانيها، حيث تجد منازل ذات طابقين وسبع طوابق وثمانية، وهو ما يفسر التطور العمراني الذي تشهده إيطاليا في تلك الفترة، كما تنتشر في المدن الإيطالية الحدائق العمومية حيث يولي المجتمع الإيطالي أهمية بالغة للبيئة وتشيد المباني حسب أمثلة هندسية يرسمها مهندسون من المجلس البلدي حرصًا من المملكة على حسن مظهر المدينة.

وأما هندسة المنزل، فهي كالآتي: عند دخولك من الباب الرئيس تجد سقيفة ثم درجًا متصلًا بعضها ببعض متصاعدة على شكل دائرة (مصعد) أو مربعة، وفي كل طابق تجد فسحة ذات أبواب، ويحتوي المنزل على بيوت ومطبخ ومستراح، وبعض البيوت بها مستراحًا إضافيًا وتكون الجدران مطلية أي مزوقة بالدهن، وعادةً ما يكون سقف المنزل إما خشبًا أو بناء مزوقة بالدهن، وكل بيت به طواقي (يقصد نوافذ صغيرة نستعمل نحن هذا المصطلح فنقول طاق)، وتكون الأبواب من الخشب، والمنزل مبلط إما بالجليز، أو المرمر، وكذلك الشأن بالنسبة للدرج (المصعد)، وهذا أمر طبيعي، فمحمد بيرم الخامس أخبرنا على إنتاج إيطاليا للجليز والرخام والممر. وتبنى المنازل من مواد البناء الموجودة في كل بلد من المملكة، أي أن كل بلد تقتصر على ما لديها من إنتاج للقيام بعملية التشييد.

وأما البيوت فهي تميل إلى شكل المربع، وتكون تركيبة المنزل على النحو التالي: بيت للجلوس وآخر للأكل، وهي أكبر البيوت مساحة، ثم بيت للنوم تكون مجهزة بكراسي كبار، وصغار

وساعات ومرايا وزرابي وأسرة، وتكون مزوقة ذات اعتناء كبير. وأما مساكن الأثرياء والأغنياء فلا تتجاوز الثلاث طوابق أو أربعة، ومنهم من يقطن في الديار المشتركة أي العمارات، وتكون بيوت الأثرياء محروسة ببواب يتلقى أجرة من جميع السكان هناك، كما توجد في المدينة الإيطالية "خنادق تحت الأرض"^(٣٧) يقصد قنوات تصريف المياه، وتكون الأسطح مسنمة حتى لا تتأثر بفعل الثلوج خاصة في الجهات الشمالية، أما في الجهات الجنوبية، فتجد بعض الأسطح منبسطة، حيث يقل هناك تهطل الثلج.

ويعود تطور المعمار في إيطاليا وأوروبا عامةً إلى عصر النهضة الذي كانت إيطاليا فيه منطلقه لاسيما مدينة فلورنسا، وهي حركة ثقافية استمرت تقريبًا من القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر، وأفرت إبداعات فنية منها المعمارية، حيث برز في مجال فن العمارة الفلورنسي الإيطالي "فيليبو برنولسكي"^(٣٨) الذي درس المباني الإغريقية القديمة، وشكلت أعماله نموذجًا هام لمباني عصر النهضة، وأشهر أعماله في مجال الهندسة المعمارية هو تصميمه وبناءه للعبة الكاتدرائية في مدينة فلورنسا، كما تم استخدام أنواع ترتيبات الرومان للأعمدة، فأبدع فنانون النهضة في مجال المعمار، كما في العلوم والفن وغيرها من المجالات.

خاتمة

من خلال ما تقدم؛ تتضح لنا أهمية كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" كمصدر مهم لدراسة تاريخ البلدان خاصة التي زارها محمد بيرم الخامس، حيث كان الرجل جغرافيًا أكثر منه مؤرخًا، ووصف لنا بدقة المدن التي زارها أثناء رحلة علاجه بنهجها، وأزقتها، وعمرانها، وعادات أهلها، وتقاليدهم، ونمط عيشهم، فلم يترك ولو جزئية صغيرة لم يتطرق إليها، وما إيطاليا إلا نموذجًا من بقية البلدان التي وصفها محمد بيرم الخامس مثل الجزائر وباريس، وغيرها من المدن، فكان محمد بيرم الخامس مؤرخًا وعالم جغرافيا وعالم اجتماع ورحالة، وهو أمر قلما نجده لدى بعض الكتاب الآخرين، فكان مؤلفه جامعًا ومفيدًا خاصةً وأنه كتب بأسلوب غير معقد مما يسهل على القارئ مهما كان مستواه قراءته والاستفادة منه، ولا بد من الإشارة إلى؛ أن هذا المؤلف ما كان ليجد لولا مرض محمد بيرم الخامس وسفره لتلقي العلاج، فكان المرض سببًا في كتابة أهم مصدر في التاريخ الحديث.

الكنيسة البروتستانتية هي كنيسة ذات فكر واحد بل من المستحيل قول ذلك، فكنيسة مارتن لوثر قريبة جدًا من الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، ولكنها تعتقد أنه تم إصلاحها حسب رأي لوثر الشخصي وتؤمن بتحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح والكثير من الطقوس واللاهوت الكاثوليكي، أما الفكر الذي نشره جون كالفن فهو من يروج فكرة عدم فقدان الخلاص وأنه لا حاجة إلى كنيسة بل الكنيسة هي غير مرئية، ومنه تفرعت أفكار كنائس مختلفة مثل الكنيسة المعمدانية التي تؤمن أن الإنسان مخلص فقط بنعمة المسيح، ولكن الكنيسة الانغليكانية التي تعتبر أيضًا جزء من الحركة البروتستانتية هي الكنيسة الكاثوليكية التي لا تعترف بسلطة البابا، الكنيسة الميثودية هي الكنيسة الانغليكانية التي تم إصلاحها وهي نفسها انقسمت لأكثر من تيار، ولهذا فإن القارئ يكتشف أن البروتستانتية لا تمثل تيارًا واحدًا بل عدة تيارات تصل بين (٢٨) إلى (٤٠) ألف كنيسة وسبب كثرة مذاهبها أو انعدام السلطة فيها بعكس الكنائس الرسولية فكثير منها يعتمد على التفسير الشخصي.

(٢٦) **الأرناؤوط:** وهو في الأصل اسم يطلق على سكان ألبانيا بلاد البلقان والواقعة على بحر الأدرياتيكي بعد اليونان كان ينطق أرناؤودس باللغة اليونانية، ثم حور إلى أرناؤوط بالتركية، ومع الفتح العثماني للبلاد العربية هاجر الكثير من أبناء هذه القومية شأنهم شأن الشركس والبوشناق والأبازة إلى أنحاء الإيالات العثمانية وقد استوطنوها واندمجوا مع السكان ولا يزال بعضهم يحتفظون بلقبهم الأرناؤوطي، ولذا نجد الاسم في سوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، ومصر، وتونس، والجزائر، وليبيا، وها هو محمد بيرم الخامس ينبتنا عن وجوده في إيطاليا.

(٢٧) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار ...** مص س، ص ٤٦.

(٢٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، ط ١، ج ٣، ص ٤٦.

(٢٩) المصدر نفسه، مص س، ص ٤٧.

(٣٠) من عادات بعض شعوب الخليج العربي تقبيل الأنف.

(٣١) الخامس (محمد بيرم)، **الصفوة ...** مص س، ص ٥٨، الشحمة تستعمل في اللهجة العامية التونسية والمقصود بها أسفل الأذن.

(٣٢) اسم هيئة.

(٣٣) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار ...** مص س، ص ٤٦.

(٣٤) أبرز فلاسفة التنوير هم جون جاك روسو (فرنسي الأصل)، مونتسكيو، ديدرو (فرنسي)، جون لوك (أنكليزي)، امانويل كانط (بروسي)، فولتير، رونييه ديكرت (فرنسي).

(٣٥) **انظر:** مونتسكيو، **روح القوانين**، وجون جاك روسو، **العقد الاجتماعي**، وفولتير (فرنسي)، **القاموس الفلسفي**، نشر فلمازيون ١٧٦٤، ص ١٩٠.

(٣٦) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار ...** مص س، ص ٥٥.

(٣٧) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار ...** مص س، ص ٥٧.

(٣٨) **فيليبو برنليسكي (Filippo Brunelleschi)**، (١٤٤٦ - ١٣٧٧) معماري ومهندس ورسام ونحات وسينوغرافي.

(٣٩) اعتمد فنانون عصر النهضة الأوروبية على الكتابات القديمة لاسيما الإغريقية من خلال ترجمتها والاستفادة منها وتطويرها.

(١) **محمد بيرم الخامس:** ولد في تونس في مارس (١٨٤٠ ميلادي / ١٢٥٦ هجري) وتوفي في حلوان المصرية في ديسمبر (١٨٨٩ ميلادي / ١٣٠٧ هجري)، أشرف خلال وزارة خير الدين باشا على جمعية الأحياس منذ ١٨٧٤ وساهم في تنظيم التعليم بالمدرسة الصادقية عند تأسيسها سنة ١٨٧٥ وفي إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، وإصلاح المحاكم الشرعية، كلفه خير الدين سنة ١٨٧٥ بإدارة المطبعة الرسمية وجريدة الرائد، سافر إلى أوروبا ولما استولى الفرنسيون على تونس هجر بلاده متجها إلى الأستانة ومكث فيها فترة من الزمن حتى توجه إلى مصر سنة ١٣٠٢هـ، وهناك أنشأ جريدة «الإعلام» أو «الإعلام بحوادث الأيام» ومقتضى المقام بعلوم الإسلام ونصائح الأنام» منذ سنة ١٨٨٥ والتي استمرت قرابة أربعة أعوام والتي توقفت عن الصدور بتوليه منصب القضاء في محكمة مصر الابتدائية الأهلية. من أهم مؤلفاته: كتاب رحلته «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» في خمس أجزاء، و«تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص»، و«التحقيق في مسألة الرقيق»، و«الروضة السنية في الفتاوى البيرومية».

(٢) يتكون كتاب «**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**» من خمس أجزاء تطرق فيها محمد بيرم الخامس إلى وصف العديد من البلدان العربية والإسلامية والأوروبية.

(٣) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، الجزء (٣)، دار صادر، بيروت، ط ١ بالمطبعة الإعلامية بمصر، ١٣٠٢ هجري، ص ٢.

(٤) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، ج ٣، مص س، ص ٢٨.

(٥) الميل يساوي قرابة ١.٨ كيلومترًا.

(٦) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ج ٣، ص ٢٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ج ٣، ص ٢٩.

(٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩.

(١٠) نفسه، ص ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥.

(١١) نفسه، ص ٣٠.

(١٢) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار ...** مص س، ص ٥٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(١٤) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٣٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(١٦) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٣١.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(١٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٥٦.

(١٩) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٥٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٢١) عدد سكان إيطاليا الآن حوالي (٦٠) مليون نسمة.

(٢٢) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٤٦.

(٢٣) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٣٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٢٥) **البروتستانتية:** هي أحد مذاهب الدين المسيحي، ويوجد حوالي (٨٠٠) مليون بروتستانت حول العالم من بين ٢.٥ مليار مسيحي، (١٧٠) مليون منهم في أمريكا الشمالية، و(١٦٠) مليون في إفريقيا، و(١٢٠) مليون في أوروبا، و(٧٠) مليون في أمريكا اللاتينية، و(٦٠) مليون في آسيا، و(١٠) مليون في أستراليا. نشأت البروتستانتية على يد مارتن لوثر في ألمانيا، وقد انشقت الكنيسة البروتستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، تفرع منها العديد من الكنائس الأخرى تتراوح من (٢٨) و(٤٠) ألف كنيسة، ومذهب البروتستانتية هي مذهب عدد من الدول الغربية. كما أن للبروتستانتية أثرًا قويًا في التاريخ الثقافي والسياسي لتلك الأقطار. من الصعب القول أن

أحمد بن داود

أحمد سوالم

بختة خليلي

جلال زين العابدين

خالد مزب

خديجة بورهلة

رضوان شافو

زينب رزيوي

سهير مزرجي

سهير هشوشة

الطاهر جبلي

عبد العزيز رشيد

علاء عطري إبراهيم النهر

كروم عيسى

محمد البغياي

محمد العواد

محمد صلاح حقي

محمد عبد الوهين

هنعم بوعملات

كلّ التاريخ

Historical Kan Periodical

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 – 0449